

مركز دراسات الوحدة العربية

وقفية جمال عبد الناصر الثقافية

جمال عبد الناصر

نشأة وتطور الفكر الناصري

الدكتورة بثينة عبد الرحمن التكريتي

جمال عبد الناصر

نشأة وتطور الفكر الناصري



مركز دراسات الوحدة العربية

وقفية جمال عبد الناصر الثقافية

جمال عبد الناصر

نشأة وتطور الفكر الناصري

الدكتورة بثينة عبد الرحمن التكريتي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

التكريتي، بثينة عبد الرحمن
جمال عبد الناصر: نشأة وتطور الفكر الناصري/ بثينة عبد الرحمن التكريتي.
٤٠٧ ص. ـ (وقفية جمال عبد الناصر الثقافية)
ببليوغرافية: ص ٣٧٣ ـ ٣٩٥.
يشتمل على فهرس.
١. عبد الناصر، جمال. ٢. الناصرية. ٣. مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث ـ جمال عبد الناصر. ٤. الصراع العربي ـ الاسرائيلي. أ. العنوان. ب. السلسلة.
962.053

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون : ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، آذار/مارس ٢٠٠٠

المحتويات

مقدمة

ليس بوسع أحد أن ينكر حقيقة أن جمال عبد الناصر يشغل مكانة رفيعة في تاريخ العرب المعاصر، وبين رواد حركة عدم الانحياز، وقادة أفريقيا الحديثة، والعالم الثالث عموماً في النصف الثاني من القرن العشرين، كما يُعد، بحق، أحد أبرز قادة التيار القومي العروبي الوحدوي، التحرري بحكم واقعه، وأحد أقوى المنادين بالاشتراكية بين هؤلاء القادة، والأكثر شعبية بينهم طوال حياته.

كان عبد الناصر صاحب مشروع نهضوي عربي كبير، أراد منه تحقيق مردود ضخم للحركة القومية العربية، وتيارها اليساري المعتدل، كما كان اسمه، ولا يزال يقترن بالتحديث، والعلمانية التي تحترم الأديان كافة دون تسييس للدين، ودون انحياز مطلق للإسلام على حساب الأديان الأخرى. ويعد أيضاً رمزاً كبيراً للاستقلالية، ورفض الهيمنة الامبريالية، ويقترن اسمه في مصر، والعالم أجمع بالناصرية كحركة وتيار فكري ـ سياسي، وعقيدة قومية أدت دوراً تاريخياً كبيراً مرده ما أحدث من تغيير نوعي في حياة مصر، والحياة العربية.

إن قائداً بهذه المكانة الوطنية والعربية والعالمية استحق، ويستحق العديد من الدراسات التاريخية الجادة لباحثين مصريين وعرب وعالميين. وبالفعل، أُلِّفَ الكثير من الكتب والبحوث الرصينة بحقه، كما تعرضت له العديد من مذكرات رجال الدولة والقادة والسياسيين المعاصرين في مصر والوطن العربي والعالم، ولقد ركز جلهم على دراسة سيرة جمال عبد الناصر قائداً وسياسياً، وتعرضوا له إنساناً ومواطناً مصرياً وعربياً، دون أن يتعرضوا لفكره إلا نادراً، وبصورة مجتزأة، ومبتسرة في الغالب. دفعنا ذلك إلى اختيار طريق صعب، برغبة صادقة ترنو إلى فهم فكر جمال عبد الناصر نشأةً وتطوراً في خضم مسيرة أحداث مصيرية متلاحقة على صعيد مصر والوطن العربي، فرضها صراع مرير بين جبهتين متضادتين، ضمت الأولى كل المؤمنين بالحق العربي المهضوم بمفهومه الأوسع، وضمت الثانية أولئك الذين وقفوا بوجه الطموحات المشروعة للقوى الوطنية العربية الحقة.

تتألف الرسالة من هذه المقدمة، وخمسة فصول، وخلاصة فكرية نظرية،

وخاتمة. وقد فرضت طبيعة الموضوع وملابساته الإطار الزمني لفصول الرسالة ومباحثها، فجاء الفصلان الأول والثاني بمثابة مدخل إلى صلب الموضوع، إذ عالج الأول منهما باختصار شديد الاتجاهات الفكرية والسياسية في مصر في العصر الحديث، بوصفها تمثل الخلفية البعيدة والأرضية الفكرية ـ السياسية التي نما الفكر الناصري في رحمها، وما لبث أن تجاوزها بأسلوب جعلها تفقد مستلزمات الوجود لتغدو جزءاً من الماضي وتاريخه.

ويسلط الفصل الثاني الأضواء التي ينبغي على حياة عبد الناصر وأسرته ونشأته، وتأثيرها الجدلي في وعيه المبكر، وتبلور العوامل الفاعلة في هذا الوعي، والتي توزعت بين الانتماء الاجتماعي، والخلفية الثقافية، والقراءات المبكرة، بوصف ذلك جزءاً لا يتجزأ من مجموعة الظروف المادية، بعواملها البيئية والسياسية والثقافية، التي أثرت، بالضرورة، في نشوء فكره القومي وتطوره. ويستهدف ذلك، من بين ما يستهدف، دحض الآراء التي ترى عدم وجود قاعدة، أو خميرة للفكر القومي لدى عبد الناصر، وظهورها فجأة بعد الثورة. فيتولى الفصل متابعة عملية نشوء الفكر القومي العروبي في أشكاله الأولى، وإرهاصات تطوره واغتنائه بالأحداث التي تزامنت مع مراحل دراستيه الثانوية والعسكرية، وأثناء ممارسته المهنة العسكرية. يرنو الفصل من خلال دراسة هذه الموضوعات إلى تبيان عمليتي التوافق والتفاعل، والتأثير والتأثر المتبادل بين نشوء التيار العربي داخل الحركة الوطنية وتكوين الوعي القومي العربي المبكر لدى جمال عبد الناصر، وخصوصاً في الحقبة التي تزامنت مع أواخر العقد الرابع حين قاد فيها جمال عبد الناصر تنظيمات الطلبة الاتحادية، وحين احتك لأول مرة بصورة هامشية بعدد من الشخصيات الفكرية والسياسية. ويشير الفصل، حيثما ينبغي ذلك، إلى تميّز الرؤية الفكرية الوطنية لدى جمال عبد الناصر الشاب، وتقدمها النسبي على مثيلاتها عند معظم أقرانه، وعلى رؤية قوى سياسية مثل «الوفد» و«مصر الفتاة» في سياق قاعدة عامة لا خاصة تتعلق باندفاع الشباب وحماسهم المعروف.

ويدرس الفصل الثالث من الرسالة تطور الرؤى الفكرية لدى جمال عبد الناصر، قبل الثورة، تحت تأثير الأحداث الكبيرة وتفاعله معها، خصوصاً تلك التي خلفت وقعاً عميقاً في نفوس المصريين، وأججت نار الاستياء البالغ، والتمرد الثوري ضد الاستعمار البريطاني والسراي معاً. وفي هذا السياق كان لا بد من التوقف بصورة خاصة عند التحديات الصهيونية المدعومة بالامبريالية البريطانية، فالأمريكية، وهي التحديات التي دفعت إفرازاتها، على شتى الصعد، القضية الفلسطينية إلى مصاف مشكلات مصر الأساسية. وهي نفسها التي تحولت إلى عنصر محرك فاعل في مسار التطور المتسارع للفكر القومي التحرري الناصري باتجاه يرى في تغيير مجمل النظام القائم ضرورة حتمية، تستوجبها مصالح مصر والوطن العربي، ولقد تولدت مثل هذه القناعة لدى جمال عبد الناصر من خلال احتكاكه المباشر بالقضية الفلسطينية بوصفه

ضابطاً مشاركاً في حرب عام ١٩٤٨، ومن خلال مراقبته الدقيقة لتطوراتها اللاحقة التي عرّت في نظره الحكام العرب عموماً، وحكام مصر خصوصاً، الموضوع الذي توقف الفصل عند ملابساته، وتأثيراته الفكرية والسياسية بصورة خاصة، كونه يدخل ضمن ممهدات ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢.

أما الفصل الرابع من الرسالة فيتناول بالدراسة المفصلة، كما تقتضي طبيعة الموضوع، تطور الفكر الناصري من عند النقطة الأخيرة، أي من ثورة يوليو حتى نكسة حزيران/ يونيو في عام ١٩٦٧، مما تزامن مع حوالى خمس عشرة سنة من حكم جمال عبد الناصر المباشر. وتتسم هذه المرحلة في تطور الفكر الناصري بالأهمية البالغة في حسم الإشكالات الفكرية ـ السياسية، وفي بناء المنظومة الفكرية التحررية الناصرية، والثورة العربية كذلك، في خضم المجابهة، بمختلف مستوياتها، ضد سلسلة من التحديات الداخلية والخارجية، أولها، وأهمها ممارسة الحكم في بلدٍ عريق، وبين شعب طموح، طافح بالحيوية، له آمالٌ وتطلعاتٌ حياتية يومية، وأخرى تاريخية موروثة أخفقت الأنظمة السابقة في إيجاد حلولٍ جذرية لها ترضي أكثرية أبنائه. وفي خضم التعامل مع هذا الواقع غير السهل تحولت ثورة يوليو، عبر مخاض فكري محدد، من ثورة معادية للاقطاع والامبريالية (١٩٥٢ ـ ١٩٦٠) إلى ثورة ديمقراطية ـ وطنية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥) حققت إنجازاتٍ كبيرة على طريق التطور اللارأسمالي الذي بدأ يترسخ بسرعة في العامين التاليين، مما ألب ضدها، وضد شخص قائدها أعداداً كبيرة من الأعداء، من شتى الصنوف والاتجاهات، مصرياً وعربياً وعالمياً، التقوا جميعاً عند الهدف النهائي ـ وأد التجربة الرائدة مهما كلف الأمر.

اقتضت الإحاطة بأبعاد هذه القضايا معالجة مجموعة كبيرة من الأحداث والتطورات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الداخلي والخارجي، مع التركيز، بصورة خاصة، على إفرازاتها الفكرية مع متطلباتها التنظيمية في سياق تطور كمي، ونوعي أحياناً، عبر انعطافات حاسمة باتجاه النزوع التدريجي نحو الاشتراكية، مع تواصل ثابت في تعميق التوجه العروبي في الفكر الناصري. تطلب، كُلّ ذلك، أن يكون الفصل الرابع مسهباً دون أن يكون في ذلك أيّ تجاوزٍ للموازنة العلمية المطلوبة منهجياً في فصول الرسالة على أساس أهمية مضامين المباحث، وحجم الموضوعات المثارة، لا على أساس رقمي مجرد.

يدرس الفصل الخامس والأخير من الرسالة أقصر مراحل حياة جمال عبد الناصر الفكرية، من النكسة في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ حتى الرحيل في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، فقد تركت النكسة آثاراً بعيدة الغور في الحياة العربية عموماً، وفي الخطاب الفكري ـ السياسي الناصري خصوصاً. إن هذا الفصل واسع هو الآخر، لأنه يعالج عدداً كبيراً من المشكلات والمتغيرات والمستجدات، وتأثيرها في مواقف جمال

عبدالناصر في أصعب حقبة من حياته وأكثرها تعقيداً، كان عليه أن يتبنى خلالها تكتيكاً مرناً دون أن يفرط بالمبادىء الاستراتيجية من خلال موازنةٍ في غاية الصعوبة والدقة.

ارتأينا أن نلحق بفصول الرسالة **خلاصة** نظرية تحاول ، قدر المستطاع، تقديم تصور دقيق، قائم على أساس التحليل والنقد، عن الناصرية مفهوماً وإطاراً أيديولوجياً، لتكون بذلك، في الوقت ذاته، تمهيداً للخاتمة التي تنطوي على مجموعة من الاستنتاجات الأساسية، على قدر اجتهادنا، بحق أحد خوارق العصر والأمة، دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فيحتاج دورُهُ وفِكرُهُ إلى دراساتٍ، ودراسات تتجاوز هذا الجهد، وغيره من الجهود العلمية التي لا شك في أنها تبقى تؤلف روافد تصب في مجرى أكبر وأشمل.

تؤلف كتب جمال عبد الناصر ذاته، والتي تضم أفكاره وخطبه وكلماته وقراراته وتوجيهاته ومناقشاته وتعليقاته، أهم مصادر الرسالة، وكذلك الكتب التي أُلِفتْ عنه، وهي كثيرة، ومتنوعة، فلعل أكبر الصعوبات التي واجهتنا في البحث هي كثرة ما كُتب في جمال عبد الناصر، والاختلاف الحاد في هذه الكتابات بين العاطفي والمعادي. وينبغي القول إن الدراسات الموضوعية المنصفة، هي الأخرى، غير قليلة.

ولقد استعنّا بكل ما توصلت إليه يدنا من مذكرات وكتابات رفاق جمال عبد الناصر في تنظيم الضباط الأحرار، وفي مجلس قيادة الثورة فيما بعد، من ذلك مؤلفات محمد نجيب، وأنور السادات، وعبد اللطيف البغدادي، وخالد محيي الدين، وأحمد حمروش، والتي تنطوي، بحكم الواقع، على معلومات فريدة، وضرورية لكل من يتصدى لأي موضوع من موضوعات مصر ما بعد ثورة يوليو، وما قبلها أيضاً. ومما يسجل لمعظم هؤلاء أنهم كانوا موضوعيين أكثر من المتوقع في الجانب الأكبر من طروحاتهم، وآرائهم، وقد توخوا الدقة التاريخية في عرض أفكارهم.

وتدخل كتابات محمد حسنين هيكل ضمن المجموعة نفسها، وهي متناثرة في كتبه المنشورة، ومقالاته في **الأهرام**، وتصريحاته للصحف والمجلات، وكان ثمة تركيز مبرر على مؤلفات هيكل بصفته أقرب الكتاب الصحفيين إلى صانع القرار، وبصفته المتابع الدؤوب لتطورات الفكر الناصري منذ الفالوجة في حرب ١٩٤٨ حتى رحيل عبد الناصر في عام ١٩٧٠. وعلى العموم يشهدُ الجميع على أهمية مؤلفات محمد حسنين هيكل التي امتد صيتُها إلى خارج الوطن العربي، فهي تحظى باهتمام القراء في كل أنحاء العالم.

وقد استفدنا، في الجوانب التقويمية من البحث بصورة خاصة، من عدد غير قليل من الكتابات المنشورة لناقدي التجربة الناصرية والفكر الناصري، وخصوصاً أولئك المتعاطفين معها، جوهراً، والمختلفين معها في تفصيلات الرؤية الفكرية ـ

السياسية، مثل مؤلفات محمد فريد شهدي، ود. عصمت سيف الدولة، ود. أسعد عبد الرحمن وغيرهم. وفي السياق ذاته استفدنا بقدرٍ مقارب من المناقشات التي أجريناها مع عدد غير قليل من الساسة والمفكرين الذين قابلناهم، والذين نورت طروحاتهم، وآراؤهم الدرب أمامنا، بغض النظر عن العدد المتواضع من الإشارات الواردة إلى أسمائهم الكريمة في هوامش فصول الرسالة ومباحثها.

وزودتنا مؤلفات الدارسين الأجانب الأصدقاء للتجربة الناصرية، والمعادين لها، بمعلومات مفيدة عززنا بها، في الغالب، بعض الحقائق والآراء المهمة التي تصدت المصادر العربية، بدورها، لمعالجتها. وهنا كان لا بد لنا أن نقف بعض الوقفات عند كتابات المؤرخين السوفيات للتجربة الناصرية، دون أن نتبنّى مضامينها التي جاءت، كما هو متوقع، مجاملة، خفيفة الانتقاد للتجربة الناصرية، ولتطورات الفكر الناصري.

لم يتسنَّ لنا الاطلاع على الوثائق المصرية غير المنشورة لأسبابٍ قاهرة، مع العلم أننا بذلنا جهداً غير قليلٍ من أجل الحصول عليها، فقد أجرينا سلسلة من الاتصالات المباشرة، وغير المباشرة بعددٍ من رفاق جمال عبد الناصر ومساعديه من دون نتيجة، إذ لم نستلم رد أحد منهم سوى الدكتورة هدى جمال عبد الناصر، رئيسة وحدة دراسات الثورة المصرية بالأهرام، والتي أبدت استعدادها، في وقتٍ متأخر، للتعاون معنا بمبادرة كريمة منها.

ينطبق القول نفسه، إلى حدٍ ما، على الوثائق غير المصرية التي يبدو، ومن خلال اطلاعنا على عددٍ قليلٍ منها، إنها أولت الدور السياسي للرئيس جمال عبد الناصر جُلَّ اهتمامها، وهي لَمْ تلتفت إلى فكره إلا في حدودٍ ضيقةٍ للغاية، وذلك من أجل النيل من أصالته، أو التشهير به أصلاً.

وحاولنا أيضاً معالجة موضوعنا الحساس بروح موضوعية، حيادية بمقدار إدراكنا للأمور وخفاياها، فلا نستبعد أبداً أن قضايا مهمة، وتفاصيل ذات دلالات قد فاتتنا لقصورٍ في الإدراك، أو لعجز في وسائل البحث، أو لأي سبب آخر خارج عن إرادتنا، ليصطدم ذلك بحلمنا الأسمى، وطموحنا الأجلّ في أنْ نقدم أفضلَ بحث عن فكر رجلٍ عملاق كرّس حياته من أجل العروبة التي نؤمن بها فكراً، وقدراً.

وأخيراً أعود لأؤكد مرة أخرى أن البحث في التجربة الناصرية، والفكر الناصري لن ينتهي ببحثٍ، أو بحوث، فالتجربة ضخمة جداً بحد ذاتها، وذات دلالات فكرية وسياسية عظيمة على الرغم من جميع كبواتها، لذا لا يمكن الإيفاء بدراسة إشكالاتها بسهولة، فلا بد أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه أمام دارسي الفكر الناصري ومعطياته. وفي الختام نقول، تمثلاً بأجدادنا الباحثين العرب الأوائل:

«هذا ما توصّل إليه فِكرُنا، فمن أتى بأحسن منه فهو الأفضل».

الفصـل الأول

الاتجاهات الفكرية والسياسية في مصر قبل ظهور الفكر الناصري

مـدخـل

قبل الحديث عن نشأة الفكر الناصري وتطوره، لا بدّ من إلقاء ضوء على الاتجاهات الفكرية والسياسية في مصر بوصفها الجوّ والأرضيّة التي نما عليها وخلالها الفكر الناصري. لذا يقتضي الأمر بحث هذه الاتجاهات في أعقاب الحرب العالمية الأولى من أجل بيان حجم الإضافة النوعية التي أضافها الفكر الناصري إلى الحياة الفكرية والسياسية المصرية، والدور الذي أداه في التعامل مع هذه الاتجاهات والتفاعل معها. ذلك ان دراسة هذه الاتجاهات توضح وزنها في الحياة المصرية، وتقدّم المؤشّرات الدقيقة عن أوجه اللقاء والافتراق بين هذه الاتجاهات الفكرية، وهي الاتجاه الإقليمي، والاتجاه الإسلامي، والاتجاه الاشتراكي، والاتجاه العربي. فدراستها، ولو بإيجاز، تصوّر طبيعتها وماهيّتها، ودوافعها التي أسهمت في تكوينها، والمتمثّلة، في رأينا المتواضع، في الاستراتيجية الأوروبية الاستعمارية التي كانت تسعى لفرض العزلة على مصر، وفي الهيمنة العثمانية التي حاولت بكل قواها فرض العزلة على الشعب العربي المجزأ، وكذلك في نظام الأسرة الخديوية العامل على استنهاض النزعات الإقليمية والاتجاهات الفكرية المعادية للعروبة. إن هذه العوامل قد شكّلت، بالضرورة، اتجاهاتها الفكرية الخاصة التي قاومت، بهذا الشكل أو ذاك، وبمستويات متباينة، الاتجاه القومي العربي المتنامي في مصر، فأصبحت، بالتالي، أربعة أوجه لقضية واحدة، هي قضية مصر عبر مسيرتها التاريخية ذات الخصوصية الخاصة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن استعراض هذه الاتجاهات يوضح الأبعاد الخطيرة لمرامي التحديّات التي واجهت الأمة العربية، وبالصيغ الفكرية التي وظّفتها من أجل تحقيق غاياتها لإلحاق الأذى الكبير بهذه الأمة على صعيد الوجود القومي، والتاريخ، والحضارة، وذلك من خلال محاولات نشر التجزئة، وغرس النزعات الإقليمية أو الطائفية، أو تغريبها فكرياً وسياسياً، أو تبنّي كل ما ينهي أو يضرّ بتواصل الأمة من خلال اقتلاع جذورها ومسخ تراثها القومي، سعياً لتجريدها من هويتها القومية الخاصة، و«أناها» التاريخية المستقلة.

إن إلقاء الضوء على أصول هذه الاتجاهات وتطورها في مصر، بالذات، إنما ينبع من أهمية مصر ومكانتها المتميزة في حياة الأمة من خلال الموقع الذي تشغله، والدور الذي تؤديه. فمصر بتأكيد جميع الباحثين، هي قلب الأمة العربية النابض، وهي العقدة التي تربط المشرق بالمغرب العربي. ومن هنا فإن محاولات الاتجاهات المعادية لفرض العزلة الشاملة، على كل المستويات، على مصر إنما تهدف، في الجوهر، لفصل الأمة العربية إلى عدة أجنحة، من أجل تحقيق غاياتها. وهذا ما أدركه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي مثّلت سياستُه وفكرهُ امتداداً للفكر القومي العربي المتنامي الذي خاض صراعاً حاداً مع الاتجاهات الفكرية التي سندرسها[1].

أولاً: الاتجاه الإقليمي

انضوت تحت هذا الاتجاه أربعة تيارات فكرية، تباينت في أهدافها وتطلعاتها، فكان منها التيار المتبلور بإطار وطني ذي أفق قومي، كما كان منها التيار القائم على نزعة إقليمية ضيّقة تدعو، أساساً، إلى عزلة مصر، لتجرّدها من مضمونها ومكانتها القومية، وذلك بتبني الطائفية (كالفرعونية)، أو السعي للاغتراب الكلي عن الحياة العربية، والتنكر للأواصر التي تربطها ببقية الأقطار العربية (كالرابطة المتوسطية). ويضاف إلى ذلك تيار انعزالي قائم على الخصائص الجغرافية فحسب.

وهذه التيّارات هي التالية:

- التيّار الأول: القومية المصرية (مصر للمصريين).
- التيّار الثاني: الفرعونية.
- التيّار الثالث: الرابطة المتوسطية.
- التيّار الرابع: وحدة مصر والسودان (وحدة وادي النيل).

١ ـ القومية المصرية (مصر للمصريين)

تبلورت بذور هذه الدعوة من خلال رفض الفلاّحين لأنظمة الاستغلال والاستبداد العبودي عبر مراحل تاريخية عاشتها مصر في ظل حكام متعدّدين[2]. فقد

---

(١) فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٢٠٠.

(٢) أنيس صايغ، الفكرة العربية في مصر (بيروت: هيكل الغريب، ١٩٥٩)، ص ١٠٣، و
Hedley V. Cooke, *Challenge and Response in the Middle East: The Quest for Prosperity, 1919-1951* (New York: Harper, 1952), p. 53.

عاشت مصر فترة طويلة في كنف الامبراطورية الإسلامية التي جمعت الشعب العربي مع الشعوب غير العربية في عهود الولاة والأمراء الذين انفصلوا عن الدولة العباسية، كالطولونيّين والاخشيديّين والمماليك الذين نزعوا، كسواهم من الأمراء المنفصلين، إلى فرض السيطرة والاستغلال وتسليط الأقارب والمحسوبين ـ غير العرب أصلاً ـ على المصريين[٣]. ثم خضعت مصر كسواها من الأقاليم العربية إلى الهيمنة العثمانية التي مسخت الهوية العربية، وجعلت اللغة التركية لغة الدواوين والتعامل الرسمي، وأثقلت المواطنين بباهظ الضرائب[٤].

بعد ذلك حلّ عهد الخديويّين (محمد علي وأفراد أسرته من بعده) وهو عهد قومه المؤرخون (بشخص مؤسّسه محمد علي)، بأنه صاحب مشروع نهضوي. فقد أجرى إصلاحات عديدة وأنشأ كثيراً من المؤسسات، والمصانع (ولا سيّما الحربية)، لكنه تقاطع في مشروعه هذا مع مطامح الشعب المصري. وقد اختلف المؤرخون في ذلك، فقد قدّم محمد شفيق غربال تفسيراً في صالحه، حين أشار إلى أن عملية التنافر نجمت عن عدم التمازج بين الموروث والجديد، الأمر الذي أحدث شرخاً في الرؤية الفكرية بين النخبة الحاكمة والجماهير المصرية[٥]. بيدَ إن جمهرة المؤرخين يجمعون على تفسير ظاهرة التنافر هذه بأنها نشأت عن إيغال محمد علي الكبير بعيداً في سياسة العزلة التي فرضها على الحياة المصرية، ودعمه الدعوات الإقليمية من خلال المجابهة بين مصر وبين الأقطار العربية عن طريق الحروب التي خاضها، وبخاصة حرب الحجاز، وحرب الشام[٦]. فالحروب التي خاضها محمد علي لم تكن سبباً في تشتّت الحركات التحررية ومراكز المقاومة ضد العثمانيين فحسب، بل أصبحت من العوامل التي استُغلّت لضرب الفكرة العربية في مصر وتأخير ظهورها وحجبها عن أذهان المصريين ومداركهم أمداً طويلاً. أضف إلى ذلك أنها سبّبت نفوراً متبادلاً بين مصر والأمة العربية وهو نفور لم يكن من السهل تماماً القضاء عليه بسرعة. وعلى صعيد آخر فإنها

---

(٣) نبيه بيومي عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥)، ص ٤٩، وذوقان قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، ص ٢٣٥.

(٤) أحمد عزت عبد الكريم، عبد الحميد البطريق وأبو الفتوح رضوان، **تاريخ العالم العربي في العصر الحديث** ([القاهرة]: دار الجمهورية للطباعة، [د. ت.])، ص ٢٧ و٥٠ ـ ٥١.

(٥) طارق البشري، **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣)، ص ٢٩، وصايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٦) قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، ص ١١٦ ـ ١١٧ و١٢٨؛ ذوقان قرقوط، «الماسونية العربية: محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية في فلسطين،» **قضايا عربية** (بيروت)، العدد ٩ (كانون الثاني/يناير ١٩٧٥)، ص ٢٢، ومحمد عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» **الكاتب العربي** (القاهرة) (١٩٦٧)، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

أثقلَت كواهل المصريين بأعباء حوّلتهم إلى أدوات، فحسب، لتحقيق طموحاته وتطلّعاته التوسعية(٧).

وأكثر من ذلك، فقد عملت على تحجيم دور المصريين في حياة البلاد وإدارتها. فقد وضع خطةً تقضي بابعاد المصريّين عن الحكم وإدارة السياسة المصرية، وبدأ بتصفية القيادات الشعبية المصرية التي مهَّدت له طريق الحكم، واعتمَد في الإدارة على العناصر الأجنبية لإرساء دعائم الدولة المصرية، ولا سيما في المفاصل الأساسية، ولم يُبق للمصريّين إلا الأعمال الثانوية التي يأنف الأجانب منها(٨). كما حرص على إبقاء السلك العسكري موصداً أمامهم، وحينما اضطر لتجنيدهم حال بينهم وبين التقدم إلى الرتب العالية(٩)، وكان يعمل على إقصائهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وتجلى ذلك، بأوضح ما يكون، في عهد الخديوي توفيق، فقد اتخذ قراراً بإقصاء (٢٥٠٠) ضابط بدعوى خفض المصاريف دون مراعاة لظروفهم(١٠)، الأمر الذي ساعد في تأجيج نار الثورة في صدور المصريّين، ولا سيما الثورة العرابية. ففي تلك الأجواء المؤاتية تشكلت جمعية سرية أسسها علي الروبي عام ١٨٧٦، كان لها دورها الكبير في تغيير مجرى الأحداث، وخصوصاً حين تولى أحمد عرابي قيادتها(١١).

---

(٧) صلاح زكي، مصر والمسألة القومية: بحث في عروبة مصر (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣)، ص ٤٦؛ عمارة، المصدر نفسه، ص ٢٠١ ـ ٢٦٤؛ Ephraim Avigdor Speiser, *The United States and the Near East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950), pp. 43-45, and Jean Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World* (London: Martin Co., 1971), pp. 82-83.

(٨) قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، ص ١١٥ ـ ١٢٨.

(٩) للمزيد من التفصيل، انظر: عبد الكريم، البطريق ورضوان، **تاريخ العالم العربي في العصر الحديث**، ص ١١٩ ـ ١٤٢، وعلي الدين هلال، **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢** (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٧٧)، ص ٦٧.

(١٠) محمود خفيف، **أحمد عرابي: الزعيم المفترى عليه**، ط ٤ (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٢)، ص ٢٨؛ حسن عون، **أبرز ملامح ثورة ٢٣ يوليو** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، ص ٣٤ ـ ٤٠، وحسن محمد صبحي، **اليقظة القومية الكبرى، يوليو ١٩٥٢: أصولها وأبرز مظاهرها وإنجازاتها** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥)، ص ٢٩ ـ ٤٠.

(١١) أسس علي الروبي جمعية سرية من ضباط الجيش المصري في العام ١٨٧٦، ما لبثت أن توسعت بسبب استياء الضباط المصريين من الأوضاع السياسية والاقتصادية الناتجة عن سوء إدارة القيادة العسكرية التركية ـ الشركسية الحاكمة وسوء التعامل والتمييز المجحف بين الضباط المصريين والأجانب، وكذلك بسبب ما تعرض له الجيش من مخاطر أثناء حرب الحبشة ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦، وقد انضمّ أحمد عرابي وعلي فهمي إلى هذه الجمعية، وبرز عرابي بخاصة في إطار نشاط الجمعية وإدارتها للمقومات القيادية الرفيعة التي يتمتع بها، وما لبث أن أصبح رئيسها الفعلي، وكان لهذه الجمعية إسهامها البالغ في يقظة مصر، ومن أبرز نشاطاتها التي يسجلها التاريخ لها، التظاهرة العسكرية ـ السياسية التي جرت في ١٨ شباط/فبراير ١٨٧٩ أمام وزارة المالية وعبرت عن احتجاج الضباط لإقالة ٢٥٠٠ ضابط مصري. انظر: هلال، المصدر نفسه، ص ٦٦، وصبحي، المصدر نفسه، ص ٣٢ ـ ٤١.

ذلكم ما كان على صعيد الحياة العسكرية في مصر، أما على صعيد الحياة الفكرية فقد عمل العهد على طمس عروبة مصر[١٢] من خلال الآلية التعليمية التي اعتمدها. فالتعليم بأشكاله المختلفة مثل حلقة مُكمّلة للنهج العثماني في عَثمنَة مصر وتتريكها[١٣].

أما المدارس الأجنبية فكانت تستهدف إشاعة النمط الفرنسي أو الإنكليزي في أذهان الدارسين المصريّين. وهكذا باتت مصر في ذلك العهد مسرحاً للاتجاهات الفكريّة المعادية للأمة العربية التي ركزت على إثارة النزعات الإقليمية والتغريبية التي تدعو إلى عزلة مصر عن الحياة العربية[١٤].

وفي مواجهة هذه الصيغ، التي استهدفت عزل مصر عن الحياة العربية، من خلال تمزيق الهوية المصرية، ورداً على الأساليب والإجراءات الاستبدادية التي حولت المصريين إلى مواطنين من الدرجة الثانية في وطنهم، بعيدين عن الثروة والتأثير، عاملين لسيّدين أجنبيّين... في مواجهة كل هذا الظلم الفظيع، تولّد الاحساس المشروع لدى المصريّين بالرفض، والثورة[١٥]، فظهر شعار «مصر للمصريين» على ألسنة بعض الصحفيين السوريين المهاجرين إلى مصر والمقيمين فيها، وهم الذين كان لهم دور كبير في دعم الحركة المصرية، مثل أديب اسحق وسليم نقاش[١٦]. ثم ظهر

---

(١٢) ثمة آراء مناقضة يوردها الدكتور فؤاد المرسي خاطر في كتابه **حول الفكرة العربية في مصر** تذهب إلى أن تجربة محمد علي لبناء الدولة الحديثة أيقظت المجتمع العربي في مصر، وان محاولته لبناء دولة عربية كبرى كانت تمهيداً لإيقاظ الوعي العربي في بلاد الشام على وجه الخصوص، ويؤكد د. خاطر ان «النظرة التاريخية الموضوعية تقتضي عدم إعطاء أهمية قصوى للدوافع الشخصية... فهناك حقائق ثابتة تاريخياً وهي ان محمد علي حاول بناء دولة كبرى موحدة مستفيداً من عوامل الوحدة في المنطقة»، ويشير إلى تقرير البارون دي بوالكمت حول ابراهيم باشا ومساعديه ودوره في إحياء القومية العربية» وان «يجعل من العرب شعباً ناهضاً له كيانه الخاص». للتفصيل انظر: فؤاد المرسي خاطر، **حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر**، سلسلة مصر النهضة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥)، ص ٢٩ ـ ٣٤.

(١٣) انظر: «وثيقة دفتر ٢١٣٥ (مدارس تركي) ص ٤٦،» في: قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، ص ٢٩٣.

(١٤) أنور الجندي، **يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار** (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١)، ص ١٩٩؛ عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٦٤، وزكي، **مصر والمسألة القومية: بحث في عروبة مصر**، ص ٢٤٦.

(١٥) عون، **أبرز ملامح ثورة ٢٣ يوليو**، ص ٢٣.

(١٦) أنشأ بعض تلامذة المصلح المشهور جمال الدين الأفغاني في مصر وأبرزهم أديب اسحق وسليم نقاش جمعية «مصر الفتاة» في عام ١٨٧٩، وأصدرت هذه الجمعية جريدة مصر بالفرنسية، ثم باللغة العربية منبراً لأفكارها. وقد رأس تحرير الجريدة أديب اسحق وكتب فيها عبد الله النديم، واستمرت في الصدور حتى منعت فاستأنفت الجمعية نشاطها على صفحات مجلة أبو نضارة التي كان يتولى إصدارها يعقوب صنوع، حتى نفي صاحبها من مصر. وقد تمحورت سياسة الجمعية، أساساً، حول نقد التدخل الأجنبي=

الشعار على ألسنة الصحفيين المصريّين الذين تجمعهم علاقة عمل وزمالة وصداقة مثل عبد الله النديم، والسيد علي يوسف، وكان مؤدى هذا الشعار أن مصر ينبغي ألا يحكمها غير المصريين، وأن خير مصر للمصريّين[١٧].

لقد اندلعت ثورة عرابي تحت شعار «مصر للمصريين» الذي كان راية عملها ونبراس نشاطها. وقد انطوى هذا الشعار في مراميه القريبة والبعيدة على التخلص من أعداء مصر، الاستعمار الغربي الأوروبي، والخديوي، والطبقة الإقطاعية الأرستقراطية المتألفة في معظمها من الأتراك الذين يملكون الأراضي الواسعة والأطيان، ليحل محلهم أبناء مصر. فثورة عرابي كانت تهدف لأن يؤول خير مصر للمصريين، وتطالب بأن لا يحكم مصر غير المصريين.

ويمكن التأكيد أن هذا الاتجاه كان ثورياً لأنه أفصَحَ عن وعي مبكر بالمستعمر وركيزته الاجتماعية ـ الاقتصادية: الطبقة الإقطاعية. وهذا ما يمكن أن نفهمه من خلال تحليلنا طروحات الثورة وخطابها السياسي، فقد كان ذا مضامين وطنية مؤطّرة بآفاق قومية مبكرة التبلور[١٨].

وفي الربع الأول من القرن العشرين طرأ تحول في فهم الدعوة الإقليمية «مصر للمصريّين»، فقد أضحت تعني «القومية المصرية»، وكان هذا التحول موضع نقاش وخلاف الباحثين في تفسير العوامل التي أدّت إلى ذلك[١٩]، فقد فسره الدكتور ذوقان قرقوط كردّ فعل لمركب النقص، إذ ان مصر منذ سقوط الفراعنة عجزت عن إنجاب ابن يحكمها، وكأنما كتب عليها أن تظل مستعبدة للآخرين[٢٠]. وقد أشاع هذه

= في شؤون مصر، ونقد سياسة الدولة، ودعت إلى إقامة حياة نيابية سليمة، وإلى المساواة أمام القانون، وتوفير حرية الدين والصحافة والتوسع في التعليم العام. انظر: عبد اللطيف حمزة، **مستقبل الصحافة في مصر** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٨)، ص ١٦١ ـ ١٦٢؛ نور يعقوب نجار، «عبد الرحمن الكواكبي، صحفياً،» (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الصحافة، ١٩٧٥)، ص ٣١٤.

(١٧) نعمان عاشور، **صور من البطولة والأبطال** (الاسكندرية: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.])، ص ٤٦ ـ ١٢١، وهلال، **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**، ص ٦٦.

(١٨) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٣٨ ـ ٣٩، وعدنان حسين رشيد الشيخلي، «الفكر القومي في مصر، ١٨٨٢ ـ ١٩٢٢،» (رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، ١٩٨٠)، ص ٥٦ ـ ٨٢.

(١٩) ذوقان قرقوط، «الوجه العربي لثورة عرابي،» **الكاتب** (القاهرة)، السنة ١١، العدد ١٢٧ (تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧١)، ص ٤٦؛ فاروق أبو زيد، «بدايات الفكر القومي العربي في مصر،» **قضايا عربية**، العدد ٤ (تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٧٤)، ص ٤٤، وعمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٧٥.

(٢٠) قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، ص ١٣٦.

الفكرة مؤرخون غربيون، كان غوبينو الفرنسي من أشهرهم. وكما يقول قرقوط، فإن هذه الدعوة لاقت هوى في نفوس النخبة المثقفة من المصريّين ذوي الثقافة الغربية الذين كانت تؤرقهم الحقائق التاريخية التي تشير إلى تعاقب اليونان والفرس والرومان والعرب والأتراك على حكم مصر، وتدفعهم في اضطراب شديد لإيجاد تفسير لذلك، الأمر الذي أملى على النخبة المثقفة أن تطرح في خطابها السياسي هذه الدعوة حلاً للإشكالية وتفسيراً وتبريراً لها في آن[21].

أما التفسير الثاني فقد طَلَع به الدكتور أنيس صايغ، إذ أوضح أن ظهور نزعة القومية المصرية جاء انعكاساً لتأثر القطر المصري بأوروبا الغربية، وبخاصة فرنسا، التي أكد مفكّروها أهمية عنصر الإقليم ومناخه وحدوده الجغرافية أكثر من تأكيدهم على اللغة والمشاعر والدين. وقد تبنى مفكّرو مصر هذا المفهوم القومي الإقليمي عن أوروبا دون أن يجروا حواراً مع أنفسهم عن صلاحيّة هذا المفهوم وانعكاسه على الحياة المصرية وصلتها بالأقطار العربية المحيطة بها، وبالحياة العربية بشكل عام من خلال الروابط التي تربطها في ضوء النتائج التي يفرزها المنطق العلمي.

ويمكن أن نضيف إلى كلا التفسيرَيْن تفسيراً آخر لعله هو الذي يصلح مبرراً أساسياً لإجراء هذا التحول. فالتحول كان نقضاً واستيعاباً لأبعاد التحديات التي واجهت مصر، واستهدفت وجودها وتاريخها. وكانت هذه التحديات قد عاصَرَت هذا الاتجاه ونازعته من خلال الفكرة الطائفية التي تعمل على انقطاع التواصل التاريخي بدعوة الفرعونية، أو اغترابها بإذابتها في المجتمعات الأوروبية من خلال انتماء مصر إلى حوض البحر المتوسط[22].

وهكذا فحين أدركت النخبة مخاطر اتساع الأرضية التي تنمو عليها هذه الاتجاهات، طرحت مفهوم «القومية المصرية» بدلاً من «مصر للمصريّين»، من أجل إرساء الهوية القومية، ودعائم الوحدة الوطنية، من خلال صهر جميع فئات المجتمع المصري بكل شرائحه وطبقاته في الدائرة المصرية[23]. ويمكننا التحقق من ذلك بجلاء، من خلال الرسالة التي رفعها أحمد رفعت إلى «المؤتمر الإسلامي المصري» للردّ على مطالب الأقباط في الثامن عشر من آذار/مارس ١٩١١. فقد قدّم وصفاً دقيقاً

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

(٢٢) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ١٢٨.

(٢٣) عبد الكريم، البطريق ورضوان، **تاريخ العالم العربي في العصر الحديث**، ص ١٠٩؛ عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٣٥ ـ ٢٦٤؛ عبد الله الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» **الكاتب**، السنة ٨، العدد ٨٧ (حزيران/يونيو ١٩٦٨)، ص ٦٣، وأبو زيد، «بدايات الفكر القومي العربي في مصر،» ص ٧٤.

للهوية المصرية من خلال إيضاحه مفهوم «المصري». فالمصري، طبقاً لما يقوله أحمد رفعت، هو: «كل من استوطن أرض مصر لا بقصد الاتجار واستجرار النفع، ولا بقصد الاستئمان على نفسه وذويه لمجرّد حبّ مصر واتخاذها وطناً ثابتاً له سواء من نسل الفراعنة الأقدمين أو بقايا الفرس واليونان والرومان أو العرب أو الأكراد أو الشراكسة أو الأتراك أو من الفرنسيّين على شرط أن يكون هذا الملتحق بالجنسية المصرية قاطعاً كل صلة أخرى بكل بلاد سوى مصر، وأن يكون واهباً دمه وماله على الدفاع عن حريتها واستقلالها»(٢٤).

ومن هنا يمكن أن نقول إن طبيعة هذه الحركة اتّسمت بسمة البعث والانبعاث ومحاولة إيقاظ الأمة وتحفيزها لمناهضة الاحتلال، وبث الروح الوطنية في النفوس. والواقع أن هذه الدعوة كانت حتمية تفرضها الضرورة بالنسبة للجيل الذي جاء في أعقاب الغزو، وانطفاء جذوة الثورة العرابية، لأن التطوّر يفرض تعاملاً جديداً مع الأحداث، حينما اتسعت هذه الدعوة(٢٥).

ولذلك أيّد هذا الاتجاه الحزب الوطني الذي أسّسه مصطفى كامل في عام ١٩٠٧. واتّسم هذا الحزب بنزعة وطنية وسمات اقليمية، ذلك أن معالجته للمسألة المصرية تبلورت بمعزل عن القضايا القومية. فالشعب المصري من وجهة نظره يشكل أمة وحده، أمة يشترك أبناؤها في الجنس واللغة والعوائد والقانون والماضي والتاريخ، ويتألم أعضاؤها آلاماً واحدة، ويبكون بكاءً واحداً، ويفرحون فرحاً واحداً.

وكان لا بدّ، والحال هذه، أن يقف هذا الحزب موقفاً معادياً من بريطانيا باعتبارها الوجه الحقيقي للاستعمار، إلا أن موقفه من الاستعمار الفرنسي والاستبداد العثماني اتسم بطابع أقل عداءً وأكثر تفهماً، وذلك كيلا يخلق توتراً سياسياً أو روحياً من خلال اجتماع الأضداد(٢٦).

لقد تمتع هذا الحزب بنفوذ وتعاظم جماهيري بالغ حين تسلم قيادته محمد فريد بعد وفاة مصطفى كامل في عام ١٩٠٨. فقد عمل على توسيع آفاق الحركة الوطنية حينما انتقل بها من طور البعث إلى طور إرساء القواعد ووضع الخطط الفكرية ـ السياسية لمجابهة عدوّي مصر التقليديّين: السراي والإنكليز، بشكل مباشر.

وكان لمحمد فريد إسهامه الكبير في إغناء الفكر الوطني، حقاً، من خلال

---

(٢٤) قرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، الفصل ٧: «ردود الفعل العربية (الاتجاهات الفكرية)،» ص ٢٣٧.

(٢٥) عاشور، **صور من البطولة والأبطال**، ص ٦٧.

(٢٦) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٥٢ ـ ٥٣، وعبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٢١.

المنطلقات التي حدّدها في مؤتمر الحزب الأول الذي عقده بعد وفاة مؤسسه مصطفى كامل. فقد أقرّ هذا المؤتمر برنامجاً لسياسة قومية تنتهجها جميع القوى السياسية في البلاد وتعالج، في ضوئها، المشاكل الداخلية والخارجية. ومن هنا أيضاً كان تحرك الحزب على النخبة المثقفة من المفكرين وأساتذة الجامعات وطلبتها لتشكيل النواة الأساسية للحركة باعتبارهم منطلقها الأساس(٢٧). وعمل الحزب، كذلك، على توسيع آفاق العمل الجماهيري، من خلال تمثيلهم نقابياً، عبر نقابات العمال والفلاحين، كما حرص على النهوض بالجماهير الشعبية من خلال دعوته لإنشاء مدارس الشعب المسائية لتعليم العمال والفقراء مجاناً. وبالفعل، فبعد مضيّ عام على انعقاد المؤتمر الوطني، تم تأسيس نقابات العمال والصناع، وانتشرت مدارس الشعب في القطر. وكانت أول نقابة للعمال في مصر قد أنشأت بأسم «نقابة عمال الصنائع اليدوية» ببولاق، وأصبح عدد أعضائها ثمانمائة عضو(٢٨).

لقد بدأ التنظيم يتسع تدريجياً حتى بلغ أوجه بعد الحرب العالمية الأولى، وتحديداً في الحقبة الممتدة بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٤، أي زمن زعامة سعد زغلول لحزب الوفد، أكبر أحزاب الأغلبية في القطر المصري. وبات بوسع هذا التيار أن يظفر في أوقات الأزمات، بالتأييد الشعبي البالغ(٢٩)، وذلك لأسباب منها:

أولاً: إسهام رجال الفكر والصحافة وأساتذة الجامعة إسهاماً كبيراً في تعزيز هذا الاتجاه. فقد أصبحت الصحافة والجامعة معقلاً فكرياً، وأرضاً خصبة لنمو هذا الاتجاه وتوسعه، إذ أدت الصحافة دوراً كبيراً في تأصيله وتنشيطه بين الجماهير من خلال الحوار بين المفكّرين والكتّاب، وبخاصة من خلال كتابات أحمد لطفي السيّد (منظر القومية المصرية)، وأحمد فتحي زغلول (شقيق سعد زغلول)، وطه حسين، وحسين مؤنس، وتوفيق الحكيم، وسلامة موسى، ومحمود عزب، ومنصور فهمي. وكانت صحيفة **الجريدة** لسان حزب الأمة تتولى نشر طروحاتها حتى احتجابها في تموز/يوليو ١٩١٥. وبعدها احتضنت هذا الاتجاه صحيفة **السفور** ثم صحيفة **السياسة** لسان حزب الأحرار الدستوريين التي تأسست في عام ١٩٢٢. وقد تولى كتابها، وأبرزهم على الإطلاق الدكتور محمد حسين هيكل، دعم هذا الاتجاه ونشره بين الجماهير(٣٠).

---

(٢٧) أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ «الإسلامي» والحضارة الإسلامية**، ط ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣)، ص ٥٠.

(٢٨) عاشور، **صور من البطولة والأبطال**، ص ٦٧.

(٢٩) البشري، **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**، ص ٣٣، وهلال، **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**، ص ١٤٢ ـ ١٥٠ و١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣٠) عبد العظيم رمضان، **تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٨** (بيروت: الوطن العربي، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٣٣٤؛ عبد الكريم، البطريق ورضوان، **تاريخ العالم العربي في العصر** =

ثانياً: سياسة حزب الوفد التي تألقت بزعامة سعد زغلول، والقائمة على مصرية التفكير السياسي وتثوير القدرات الذاتية للمصريين لتحقيق الاستقلال الناجز انطلاقاً من مآثر تاريخهم الحضاري العريق، واستمساكاً بهذا التراث الحافل[٣١].

بيْد أن المآخذ الأساسية على هذا التيار عديدة ومهمة، منها تقوقعه في الأفق الإقليمي الضيق، وابتعاده عن الحياة العربية برغم جميع المتغيرات والمستجدات الكثيرة التي طرأت على هذه الحياة بعد الحرب العالمية الأولى، والتي تطلّبت، بالضرورة، الإجماع والقيادة العربية الموحدة. فهذا التيار، شأنه شأن التيارات الأخرى في الاتجاه الإقليمي الانعزالي بقي، طوال الوقت، أسير الأفق الذي انطلق منه والذي مثّل استجابة تاريخية للظروف التي عاشتها مصر وقت تبلوره.

إن انغلاق هذا التيار وعدم انفتاحه على الواقع وآفاق المستقبل كان من شأنه أن يولد اضطراباً فكرياً في رؤية تمثليه للحياة العربية، وأن يلتقي بصورة، أو بأخرى، بالدعاية والمساعي البريطانية التي كانت، بالمقابل، تعمل على انتشاره بسبب طابعه الإقليمي ونزعته الفرعونية ودعمه للثقافة الغربية. فقد كانت هذه المساعي تحاول دائبة إحباط كل انطلاقة معادية للغرب، وهكذا حاربت، بضراوة، التقارب بين تيار «القومية المصرية ـ مصر للمصريين» والتيار الإسلامي الشرقي، الذي كان معادياً للفكر الغربي. فكانت تعمل على تغليب التناقض الثانوي بين النزعة المصرية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية. وبذلك تحققت غاياتها في إرساء دعائم الإقليمية، من خلال العزلة التي فرضتها على مصر، والذي يتوضح لنا، مثلاً لا حصراً، في النص التالي[٣٢]:

= الحديث، ص ٢٢١ ـ ٢٢٥، والعراق، دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقية، ملفات البلاط الملكي، الملف رقم ٢٦٦٨، تسلسل الملف ٣١١، موضوع الملف تقرير أسبوعي مقدم من القائم بالأعمال بتاريخ ٣/١/١٩٥٠، الوثيقة رقم ٤٨، ص ١١٣ ـ ١١٦.

(٣١) عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٤٤؛ رمضان، المصدر نفسه، ص ٣٣٤؛ عبد العظيم رمضان، الصراع بين الوفد والعرش، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، ط ٢ (بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٥)، ص ١٤ ـ ١٥؛ الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٦٥، و
J. W. D. Gray, «Arab Nationalism: Abdin Against the Wafd,» *Middle East Forum*, vol. 37, no. 2 (February 1961), p. 17.

(٣٢) محمد عزة دروزة، الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧)، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦؛ عبد الله، تطور فكرة القومية العربية في مصر، ص ٥٨ ـ ٦٢؛ هدى جمال عبد الناصر، الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ١٢١ ـ ١٢٣؛ محمد عمارة، «العروبة أولاً،» قضايا عربية، السنة ٥، العدد ٤ (تموز/يوليو ـ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨)، ص ٧، ومزيد عبد العزيز الظاهر، «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية،» (رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، ١٩٨٢)، ص ١٣.

«المصريون يملكون وسائل العمل لمصلحتهم فلا يعوزهم الذكاء ولا الوطنية ولكن يعوزهم شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذْ كانت تجبن عن الأخذ بمنعها وتتواكل في ذلك على أوهام يسمّيها البعض «الاتحاد العربي» ويسميها البعض الآخر «الجامعة الإسلامية»[٣٣].

ومن الممكن، أيضاً، أن نقول إنه كان لبعض الأحزاب السياسية التي أسهمت بريطانيا في تشكيلها دور كبير في إضعاف الحركة الوطنية[٣٤]، فقد فجرت هذه الأحزاب صراعاً حاداً في الحياة السياسية والحزبية كان له تأثيره البالغ في عرقلة تطور الحركة الوطنية. فمثلاً كان لهذه الأحزاب إسهامها الواسع في تشويه صورة «الوفد» حين شكلت عامل ضغط عليه لقبول معاهدة ١٩٣٦، التي أدت إلى ابتعاد الجماهير المصرية عنه، وشكلت تراجعاً في مسار الحركة الوطنية. وبالمثل، فإن الصراع الحاد بين قادة حزب «الوفد» ذاته شكل عاملاً آخر عمل على عدم بلورة الإطار الوطني وفق الرؤية التي اختطتها الحركة الوطنية. وقد تجسد ذلك، مثلاً، في الانشقاقات الأربعة التي حصلت في كيان حزب الوفد ومسيرته السياسية[٣٥].

٢ ـ التيار الفرعوني

يُعد هذا التيار من أقوى التيارات الفكرية ـ السياسية التي استهدفت عروبة مصر، فهو تيار جديد من التيارات المعادية للعروبة والفكرة العربية سعى بكل الوسائل، ولا سيما الوسائل الإعلامية، لطمس الشخصية العربية المصرية بدعوى انقطاع التواصل الحضاري. واتسمت آلية عمل ممثلي هذا التيار بالانتقائية والتشويه والمثالية الذاتية في فرض الرغبات على الواقع، فقد اقتطع هؤلاء جانباً حضارياً مهماً من تراث مصر الحضاري، وهو الحضارة الفرعونية حصراً، لينسبوها لطائفة دينية تدين بالمسيحية (طائفة الأقباط) وحدها، أولئك الذين اختاروا القوميّة المصريّة لا العربية وتبنّوها وكرّسوا أنفسهم وطاقاتهم دعاة متحمّسين لها وأوصياء عليها، وصبغوها بصبغة فرعونية خاصّة ليطمسوا معالم الشخصية العربية[٣٦].

(٣٣) نقلاً عن: الظاهر، المصدر نفسه، ص ١٣.

(٣٤) رمضان، **الصراع بين الوفد والعرش، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩**، ص ٩ ـ ١١؛ عبد الناصر، المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٩، وجلال يحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢** (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ١٦٩ ـ ١٧٦.

(٣٥) للمزيد من التفصيل، انظر: هلال، **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**، ص ١٥٧ ـ ١٦١ و١٨٤؛ رمضان، المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٧٢ و١٨٣ ـ ١٩٤؛ يحيى، المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٦، وجلال يحيى وخالد نعيم، **مصر الحديثة، ١٩١٩ ـ ١٩٥٢** (الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٨)، ص ١٤٣ ـ ١٧٥ و٣١٣ ـ ٣٣٤.

(٣٦) دروزة، **الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف**

وعلى نحو أساس تبلور هذا التيار في أجواء فئة من المثقفين المنبهرين بالثقافة الغربية والمنضوين تحت لوائها، ومن أبرزهم سلامة موسى، ومحمد عبد الله عنان، وحسن صبحي ومرقص سميكة، وويصا واصف. فقد اتسمت طروحات معظم هؤلاء برؤية متطرفة، ضيقة الأفق[٣٧]، وكرسوا كتاباتهم لغرس هذه النزعة وتعهدها بتأكيدهم على أن الشخصية المصرية تستمد جذورها الأساسية الصحيحة من الحضارة الفرعونية القديمة، وأن كل الشعوب التي وفدت على مصر إنما هي شعوب غازية، بمن في ذلك العرب، فالعرب في مصر مثل اليونان والرومان والفرس والأتراك كلهم غزاة، ويجب على مصر التغلّب على آثارهم، والعودة إلى الشخصية الأصلية وهي الشخصية الفرعونية[٣٨].

لقد طمّنت هذه الطروحات المصالح الاستعمارية بغض النظر عن المشاعر الصادقة للعديد من دعاتها وخدماتهم، لذلك بذل المستعمرون جهوداً بالغة لتكريس هذه الدعوة ودعمها، وكان المستعمرون الفرنسيون أول البادئين بذلك، تلاهم المستعمرون الإنكليز الذين أدوا دوراً كبيراً في تأجيجها، فقد كانت استراتيجيتهم ولا تزال (وهم يتماثلون في ذلك مع سائر المستعمرين) تقضي بتفتيت الأمة العربية إلى أجزاء صغيرة، من خلال خلق كيانات سياسية مختلفة، متناقضة متنافرة فيما بينها، قائمة على أسس عنصرية أو طائفية أو مذهبية، عاملة على تعويق الطموحات القومية العربية، وتهيئة الأجواء لزرع الكيان الصهيوني، الذي يراد له، استعمارياً، أن يغدو أكبر الكيانات وأقواها على أرضية الواقع المجزأ[٣٩].

ومن هنا بدأ المستعمرون، في غمرة تنفيذ مخططاتهم في التفرقة والتجزئة

=في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦؛ الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٢٨؛ ساطع الحصري، **الإقليمية: جذورها وبذورها**، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤)، ص ١٧، وعمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى، **تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة** (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٧٧)، ص ٤٧ ـ ٥٠.

(٣٨) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٩٩.

(٣٩) ميشيل عفلق، **في سبيل البعث** (بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٤)، ص ١٦٨؛ ساطع الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، ط ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧)، ص ٩ ـ ١٨؛ دروزة، **الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها**، ص ٣٤٤؛ عبد المنعم محمد بدر، **أمتنا العربية: الحاضر والماضي والمستقبل** (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٠)، ص ١٩٨، و
Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, p. 18.

والتفتيت، بطرح التيار والنزوع الإقليمي في المنطقة العربية، الذي يستهدف انقطاع التواصل الحضاري، حينما طرحت الفرعونية في مصر، والفينيقية في لبنان وسوريا، والبربرية في المغرب العربي.

وعندما بدأ المستعمرون تنفيذ مخططهم، ركّزوا جهودهم على مصر لأهميتها التاريخية والسياسية وأهميتها كسوق تجارية[٤٠]، فشرعوا باستثمار الجوانب الروحية، مستغلين طروحات محمد فريد (رئيس الحزب الوطني بعد مصطفى كامل) وطروحات بعض القادة السياسيين المؤيدة للجامعة الإسلامية والسلطة العثمانية، وكتابات عبد العزيز جاويش المعادية لمتطرفي الأقباط، والنظريات والمقولات العنصرية الغربية الزاعمة بأن مصر منذ زوال الفراعنة عجزت عن إنجاب ابن يحكمها، فكأنما كتب عليها أن تظل مستعبدة[٤١].

وفي الرد على هذه المزاعم غير العلمية، ينبغي القول إنها لا تعدو أن تكون محض مبررات استغلال هذا التيار في طمس عروبة مصر. فقد دعا محمد فريد والقادة السياسيون المشار إليهم آنفاً إلى القومية والوطنية المصرية، ولكنهم اضطروا لتأييد الجامعة الإسلامية وحتى السلطة العثمانية لظروف تاريخية تمليها المرحلة، فقد كانوا لا يرغبون في فتح عدة جبهات في آن واحد لنضالهم، وهكذا فقد ركّزوا نضالهم ضد انكلترا باعتبارها العدو المباشر لهم بكل استراتيجيتها الاستعمارية ومناوراتها الداهية، بينما حرصوا على إبقاء جسورهم الروحية، على نحو ما، مع «الجامعة الإسلامية» والسلطة العثمانية، حتى إذا ألغيت الخلافة انقطعت جميع الروابط بين مصر وتركيا، وبات كل الزعماء يعيشون في مصر[٤٢]. أما موقف عبد العزيز جاويش فَيُفَسَّر بنزوعه القومي رداً على طروحات المتطرفين من الأقباط وسواهم الذين التقوا، بالضرورة، مع دهاقنة الاستعمار الغربي في المناداة بالفرعونية والتقوقع في الإقليم المصري. إن طروحات جاويش مثّلت، في الحقيقة، رؤية عروبية بكل خصوصيتها،

---

(٤٠) نبيل عبد الحميد سيد أحمد، «الزحف الإمبريالي على مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،» في: مائة عام على مصر للمصريين (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٣)، ص ٤ ـ ٥، والعراق، دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقية، ملفات البلاط الملكي، الملف رقم ٤٨٠٣، تسلسل الملف ٣١١، موضوع الملف: تقرير عام، وثيقة رقم ٧، ص ٧.

(٤١) قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦، ص ١٣٦. انظر أيضاً مداخلة رجاء النقاش بعنوان «حملة ظالمة على العروبة والقومية العربية» في ملف: «ما تبقى من التجربة الناصرية: حول عروبة مصر،» إعداد سوسن حسين ومجدي حماد، الفكر العربي، السنة ١، العددان ٤ ـ ٥ (١٥ أيلول/سبتمبر ـ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٨ ونشر أيضاً في: المصور (٢٠ نيسان/ابريل ١٩٧٨)، ص ١٠٣، و Speiser, *The United States and the Near East,* pp. 44-45.

(٤٢) صايغ، الفكرة العربية في مصر، ص ١٠١.

وهي رؤية مبكّرة بالنسبة لزمنها لواحد من قادة التيار العروبي في تصديه لهذه الفئة الانعزالية[٤٣] التي لا تمثل عموم جماهير الأقباط، بل تمثل شريحتها المتطرفة فحسب، فقد انقسم الأقباط إلى ثلاثة تيارات: التيار العروبي الذي لعب دوراً كبيراً في خدمة مصر والأمة العربية، ويتجلى ذلك في موقف مكرم عبيد، أبرز قادة التيار العروبي وأحد قادة الوفد الذي كان له دوره الكبير في إغناء الحركة الفكرية والسياسية، وهو الذي اشتهر بمقولاته ذات المغزى السياسي البالغ الأهمية والتي تقول «أنا مسلم وطناً ومسيحي ديناً». أما التيار الآخر فهو تيار معتدل حرص على إجراء الموازنة في الجوانب الروحية والدينية والقومية. وأما التيار الثالث فهو التيار المتطرف المعروف الوثيق الصلة بالغرب، ولا سيما ببريطانيا[٤٤]. وهكذا يتضح لنا، من كل ما تقدم، أن موقف جاويش لم يكن ضد الأقباط بل ضد طروحات متطرفيهم التي كانت تشكل، حقاً، تحدياً لعروبة مصر، وخصوصاً حين بدأت تنال من رؤوس الحزب الوطني، والطعن في مصريتهم، فأرجعت جذور مصطفى كامل إلى البغدادية (نسبة إلى بغداد) وذلك في قصد واضح يهدف إلى إضعاف الحركة الوطنية المصرية (بالتعرض لقائدها الذي يعد وقتذاك انموذجاً أمثل للوطنية والقومية). إذن، فان طروحات جاويش أنما كانت دفاعاً موضوعياً، بطريقته الخاصة، عن النهج الذي آمن به، وهو النهج العروبي[٤٥]، مثلما كانت تصدياً للأخطار التي كانت تحفل بها دعاوى هذه الفئة. أما رفض جريدة **المؤيد** نشر ردود ممثلي هذه الفئة على طروحات جاويش فيمكن تفسيره في التزام الجريدة توجهها العروبي القومي من جهة، وعدم موضوعية هذه الردود من جهة أخرى، خصوصاً حين شككت هذه الردود في مصرية مصطفى كامل، وتعرضت لمحمد فريد في موازنة مغرضة بينه وبين لطفي السيد حين أشارت «بأنهما يتنازعان الملك على دولة الغوغاء في مصر». وبعد أن رفضت جريدة **المؤيد** نشر هذه الردود، توجه أصحابها لنشرها في جريدة **مصر**.

وعلى الرغم من جميع الجهود الكبيرة التي بُذلت لتوسيع أرضية وجماهيرية هذا التيار الانعزالي[٤٦]، إلا أن هذا التيار ظل منطوياً على ذاته، أسير نظراته التعصبية الضيقة، بينما حظيت بالقبول الواسع والرسوخ ردود المفكر العربي الكبير ساطع

---

(٤٣) عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٤٥، وخاطر، حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤٤) هاني المداوي، «الأقباط وقضية العروبة،» الفكر العربي، السنة ١، العددان ٤ ـ ٥ (١٥ أيلول/سبتمبر ـ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٤٥) رجاء النقاش، الانعزاليون في مصر: رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، ص ١٠٣، وصايغ، الفكرة العربية في مصر، ص ١٠١.

(٤٦) المداوي، المصدر نفسه، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣، والنقاش، المصدر نفسه، ص ٢٦.

الحصري، وأحمد زكي «شيخ العروبة»، وعبد العزيز جاويش وأنصارهم، وتعاظمت جماهيريتها[٤٧]. وقد تناولت مناقشات الحصري وأحمد زكي وجاويش طروحات الانعزاليين وأشبعتها محاججةً ودحضاً وتفنيداً منطقياً، وأسقطت عنها الهالة التي حاول الانعزاليون تكليل دعاواهم بها، وخصوصاً دعوى الانتماء الحضاري المصري العريق، والمبالغة المقصودة في الاعتزاز بالتراث الفرعوني وصولاً إلى الارتباط بالغرب، والانضواء تحت بيرقه، والانفصال التام عن الأمة العربية[٤٨].

ولذلك بذلت هذه الفئة الانعزالية جهوداً محمومة، على جبهات متعددة، كان منها التعاون مع بعض القوى المناظرة لتعميق مفهوم الانفصال، وذلك بربط مصر القرن التاسع عشر بمصر ما قبل التاريخ، والاستعانة بالطروحات العنصرية الغربية، وتأسيس عدة صحف لنشر دعاوى الانفصال عن العرب والأمة العربية، وكان منها الجريدة التي أسسها تادرس شنوده، ومجلات كرست صفحاتها لقضايا الطائفة القبطية، وتمجيد التاريخ الفرعوني، ونشر كل شيء يخص الحضارة الفرعونية، وأشهرها المجلة القبطية. وكانت كل هذه الأنشطة والفعاليات حلقة فحسب من حلقات مشروع المعلم يعقوب القبطي[٤٩]. وانطلاقاً من هذه الأسس ذاتها، يمكن اعتبار المحاضرة التي ألقاها مرقص سميكة في الجامعة الأمريكية بمناسبة افتتاح المتحف القبطي في آذار/مارس ١٩٢٦، الحلقة الثانية بعد مشروع المعلم يعقوب القبطي. وقد حاول هذا في محاضرته تأصيل هذا الاتجاه تاريخياً، فقال «مضى على مصر أكثر من ألفي عام، منذ أن فقدت استقلالها بانتهاء حكم الفراعنة، ومن ذلك العصر وهذه البلاد مطمع نظر الفاتحين من يونان ورومان وعرب وأتراك واغريق»[٥٠].

ومن أجل نشر هذه النعرة الانعزالية، وبأوسع نطاق ممكن، أسست عشرات النوادي والجمعيات وكان أشهرها «جمعية التوفيق» التي أسسها جرجس أنطوان، و«جمعية الأعيان» التي أسسها توفيق أسكروس وكرست اهتماماتها لدراسة التاريخ المصري لغرض بيان أثر الأقباط فيه، وإيضاح علاقة مصر الحاضرة بمصر الغابرة.

---

(٤٧) العداوي، المصدر نفسه، ص ٣٣٥ ـ ٣٥٦، وعبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٦٣.

(٤٨) مقابلة مع د. سيد نصار في ٢٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٥، وقرقوط، **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**، ص ٢٣٦.

(٤٩) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٩٩.

(٥٠) مشروع المعلم يعقوب القبطي، هو الحلقة الأولى من سلسلة السعي القبطي لبعث قومية فرعونية، ووطن مصري مستقل عن الشرق، عن تركيا ذلك الحين، ثم عن العرب فيما بعد ترتبط بالغرب حضارياً وربما سياسياً، وقد مارس القبطيون نشاطاً واسعاً لتحسين أوضاعهم الثقافية والاجتماعية لا كمصريين، ولكن كطائفة مستقلة. انظر: المصدر نفسه، ص ٩٩.

ومن الجمعيات الأخرى «الجمعية الخيرية القبطية» التي أسسها بطرس غالي، و«الجمعية الإصلاحية»، و«جامعة المحبة» التي أسسها حبيب جرجس. وإلى جانب ذلك أنشأت عشرات المدارس بشكل فردي، أو تحت رعاية الجمعيات(٥١).

وأكثر من ذلك، فإن ممثلي هذا التيار الانعزالي كانوا قد حرصوا على تشكيل حزب سياسي خاص بهم. وفي ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٠٨ تقدم اخنوع فانوس المحامي بمشروع تأسيس «الحزب المصري»، الذي كان يمثل، في المقام الأول، فكرة الأقلية القبطية في مصر، والذي انطلق إلى الحياة تحت مبرر يزعم بأن الظروف تفرض عليهم تشكيل حزب يمثلهم، بعد نفورهم من الاتجاه الإسلامي الحاد للحزب الوطني(٥٢).

وهكذا، يكون بالإمكان إدراك أبعاد المخطط الشامل لمحاولات طمس عروبة مصر والتيار القومي العروبي، وهي محاولات تلتقي، بالضرورة، بطروحات الغرب الإمبريالي، التي كانت تهدف إلى احتواء الأديان السماوية الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية تحت ظل الخيمة الفرعونية الواحدة. وجدير بالذكر أن اللقى الأثارية وكشوف الدراسات التاريخية القديمة قد أدت دورها هي الأخرى لإذكاء نار التيار الفرعوني، فقد وظفها الانعزاليون لا للصالح الإنساني العام، أو لصالح التراث الحضاري للأمة العربية، بل وظفوها لصالح الادعاء بأفضلية حضارة مصر القديمة على البشرية كلها، وأسبقيتها على الحضارات الأخرى في العالم القديم، الأمر الذي استثمروه، بكل الوسائل، وبمنتهى القوة، لصالح الاعتزاز بالانتماء للحضارة الفرعونية، والافتراق عن الأمة العربية(٥٣).

لقد كانت محاضرة ماسبيرو في القومية المصرية، والتي ألقاها في التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٨، في «نادي رمسيس» رداً على محاضرة أحمد زكي التي ألقاها في جمعية «الرابطة المسيحية» بعنوان «مصريون قبل كل شيء» وانتقد فيها نهج متطرفي الأقباط بادعائهم بأنهم وحدهم المصريون، كما انتقد أفقهم الضيق الذي يمجد الفرعونية دون سواها من أمجاد مصر في تاريخها الطويل، وهو الذي يتجلى بخاصة في إشارة ماسبيرو التي تؤكد «أن معتقدات مصر الفرعونية هي التي تستمر في أكثر أوهام مصر الحالية»(٥٤). وكانت هذه المحاضرة نقطة انطلاق المتطرفين لإرساء دعائم هذا الاتجاه، الأمر الذي تجلى في الطروحات التي أعقبت ذلك.

---

(٥١) نقلاً عن: قرقوط، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

(٥٢) صايغ، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠؛ خاطر، حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر، ص ٦٨، والمعداوي، «الأقباط وقضية العروبة،» ص ٣٥٥.

(٥٤) قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦، ص ٢٣٦، والظاهر، «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية،» ص ١٩.

فجاء رد جرجس عوض بخطابه العنيف الذي رد به على محاضرة أحمد زكي، وأكد فيه أن المصريين «أقباط قبل كل شيء، وأنهم الذرية الحية والذخيرة الباقية من ذخائر الفراعنة»[٥٥]، وأن كلمة «قبط» تعني اسم لجيل من الناس لا لدين من الأديان، أو لمذهب من المذاهب، أو لملة أو نحلة... وأن كلمة «Yheypt» تعني الأقباط، وأن لفظ قبطي مصري محرفة عن اللفظ أجينوس، ولذلك فجميع المصريين، على حد قول مرقص سميكة، أقباط مسلمون والبعض الآخر مسيحيون، وكلهم متناسلون من المصريين القدماء[٥٦]. ولذلك بدأت الكتابات والأبحاث تركز طروحاتها على ما يأتي:

أ ـ الدعوة للأمة القبطية ونشر الآراء التي من شأنها تمجيد التاريخ القديم.

ب ـ ضرورة الحفاظ على اللغة القبطية وتعميمها لتخرج من الإطار القبطي وتشمل المصريين كافة.

ج ـ الإيمان بصحة الدماء النقية والترويج لها[٥٧].

وهكذا يمكن أن نخلص إلى القول بأن أنصار هذا التيار الفكري استهدفوا في المحصلة النهائية وبإجماع آراء العديد من الباحثين المعروفين، عروبة مصر وعزلها عن الأمة العربية. فهي إذن شعوبية جديدة بمعنى أنها نزعة جديدة معادية للعروبة جملة وتفصيلاً، نزعة استهدفت محاربة الفكرة العربية بمعناها العصري، ذلك المعنى الإنساني العميق الذي لا يعتمد على الجنس والدم في تحديد معنى العروبة، وإنما يعتمد اللغة والتراث المشترك والمصلحة المشتركة والمصير الواحد في تحديد معنى العروبة[٥٨]. إن الذين ينادون بالفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والبربرية في المغرب العربي لا يعدون أن يكونوا شعوبيين جداً يسعون إلى تدمير الأمة العربية بتمزيقها من الداخل، وشرذمة شعوبها، وليس في ذلك من مصلحة لأحد إلا للاستعمار وأعوانه والمشتركين معه في المصالح والأهداف من الذين يريدون السيطرة والتحكم في هذه المنطقة من العالم[٥٩].

---

(٥٥) صايغ، المصدر نفسه، ص ١٠٠؛ خاطر، المصدر نفسه، ص ٦٥، وزكي، **مصر والمسألة القومية: بحث في عروبة مصر**، ص ٦٥.

(٥٦) نقلاً عن: قرقوط، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

(٥٧) صايغ، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٥٨) أنور الجندي، **المعارك الأدبية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٦٠)، ص ٤٣؛ بدر، **أمتنا العربية: الحاضر والماضي والمستقبل**، ص ١٦٧؛ عمارة، «العروبة أولاً،» ص ٩٠، والريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٦٧.

(٥٩) منير شفيق، **في الوحدة العربية والتجزئة** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)، ص ٤٤ ـ ٧٥؛ عمارة، المصدر نفسه، ص ٢٤٤، والنقاش، **الانعزاليون في مصر: رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين**، ص ٤٧.

وعلى صعيد آخر، فإن الشعوبية الجديدة تمثل، بالضرورة، وبغض النظر عن إرادة حملتها لقاء غير مباشر على أقل تقدير بالصهيونية، فالصهيونية، هي الأخرى، نظرية عنصرية تقوم على معاداة العرب وتناقض مطامحهم القومية المشروعة وقضيتهم العادلة مناقضة تامة، بل تعمل على تحجيم دورهم وطمس الوجود العربي والحضارة العربية والتراث العربي، بكل الوسائل[٦٠].

لقد واجهت الأمة العربية هذا التيار الشعوبي المعادي للعروبة بقوة وبمزيد من التبصّر. فكانت رؤية المثقفين العروبيين هنا، رؤية علمية، تاريخية، حصيفة، عبّرت عن فهم عميق للتاريخ والتراث وانعكست بجلاء، عبر المعارك الفكرية والأدبية طوال الثلث الأول من القرن العشرين، وامتدت سنين أخرى. وكانت أبرزها المعركة البليغة الدلالة التي دارت عبر الصحافة ومحافل الرأي، والثقافة، ووسائل الاتصال المتيسرة، وقتذاك، بين الدكتور طه حسين والمفكر ساطع الحصري[٦١]. فقد تبنى طه حسين اتجاه هذه الدعوة التي تؤكد تفوق عامل الإقليم على عامل اللغة، حينما أكد «أن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وأنها ستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى». وعارض الذين يطالبون مصر بمغادرة «فرعونيتها» باعتبار أن ذلك يعني في نظره، الطلب إلى مصر أن تهدم «أبا الهول والأهرام، وتنسى نفسها، وتضيع في خطوات الآخرين». ومن الواضح أن طه حسين تأثر، بقوة، بآراء المفكرين الغربيين والمستشرقين الأوروبيين[٦٢]، وبخاصة أولئك الذين يجري نسق تفكيرهم الاستشراقي، تجاه الوطن العربي، على طراز نسق تفكير مارغليوث[٦٣]. وعموماً يؤاخذ طه حسين، بهذا الصدد، لأنه درس الأدب والتاريخ والتراث والقرآن الكريم، بخاصة[٦٤]، وهو

---

(٦٠) قرقوط، «الماسونية العربية محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية في فلسطين،» ص ٢٧، والنقاش، المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٦١) الجندي، **المعارك الأدبية**، ص ٤٣؛ أكرم زعيتر، «كلمة طه حسين عن العرب أثارت معركة تصدرتها الأقلام المصرية،» في: **قراءات في الفكر القومي، الكتاب الثالث: القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية**، مجموعة من المؤلفين، سلسلة التراث القومي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ص ٤٤٩، وزكي، **مصر والمسألة القومية: بحث في عروبة مصر**، ص ٦.

(٦٢) للتوسع انظر: خاطر، **حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر**، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

(٦٣) دافيد صموئيل مارغليوث ولد في لندن عام ١٨٥٨ وتوفي فيها عام ١٩٤٠، من كبار المستشرقين، عضو المجمع اللغوي البريطاني، وعضو المجمع العربي في دمشق، حقق ونشر كتباً كثيرة باللغة العربية أبرزها **معجم الأدباء** لياقوت الحموي، **والأنساب** للسمعاني، اتسمت معظم آرائه بالتطرف والتجريح بالتاريخ والشعر العربي، ردد آراءه الدكتور طه حسين. حول مارغليوث، انظر: نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ٣ مج ([القاهرة]: دار المعارف، [١٩٨١])، ص ٩٣.

(٦٤) طه حسين، **في الأدب الجاهلي** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨)، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

الذي يصور، بدقة، مفهوم الفرعونية ووقائع تاريخها وارتباطها العضوي بالحياة العربية. ومع ذلك لم يبدُ على طه حسين أنه أفاد من ذلك، بل على الضد من ذلك تجاهل كل ذلك ولم يتفهم تلك الحقيقة التي تقول إن القومية العربية لا تنفي التراث التاريخي، أي لا تتعارض معه، فالأمة العربية اليوم وارثة لتراث حضاري غني وواسع يشمل شتى الحضارات التي دخلتها وتفاعلت معها من مصرية وآشورية وبابلية وفينيقية، فالقول بالقومية العربية لا يعني مطلقاً أن نتنكر لتراث الفراعنة ودورهم الحضاري، مثلاً، أو نتبرأ منه(٦٥).

ومن هذا المنطلق جاء رد ساطع الحصري الذي ذكر أن الفكرة العربية لا يمكن أن تتناقض مع آثار بقيت ميراثاً من ماضٍ موغل في القدم، وليس ثمة ضرورة لطلب تناسي هذه الآثار، أو هدمها ليصار إلى تحقيق الوحدة العربية. وأكثر من ذلك، وكما أكد ساطع الحصري «إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا لمصر انسي نفسك، بل انهم يقولون وسيقولون لها: «استزيدي من ثروة نفسك بالعمل على توحيد أبناء أمتك، لم يقولوا لها اتبعينا.. بل يقولون: سيري إلى الأمام ونحن نتبعك في هذا الطريق على الدوام»(٦٦).

وأوغل أحد دعاة الفرعونية والانعزالية في التحامل، فحمل الإسلام تبعة إهمال تاريخ مصر القديم على نحو مقصود، فقال «إن الفتح العربي قد حمل المصريين على أن ينسوا تاريخهم الفرعوني، مثلما جعل الفرس والسوريين واللبنانيين والعراقيين ينسون تاريخ الأكاسرة والآراميين والفينيقيين وأبطالهم ليكونوا مواطنين في الدولة الإسلامية القومية الكبرى، وتعددت الأستار بينهم وبين مواطنيهم بحجة أنهم كفار عبدة أوثان»(٦٧). وتتابعت الدراسات التي تهدف إلى مسخ الشخصية العربية بتزييف الحقائق التاريخية لإثبات كون الشعب المصري فرعونياً باعتباره «ما زال محتفظاً بآثار أجداده الفراعنة على هيئة الجسم وسمة الوجه والتكوين العقلي والنفسي والاتجاهات العاطفية والعادات الاجتماعية»، وتوالت، على نحو كثيف، الدراسات التي أكد فيها أصحابها على ضرورة إحياء الآثار الفرعونية وبعث الأدب المصري القديم، وطبع الأدب الحديث بطابعه، بل حتى التبرؤ من العرب بالادعاء بأن لمصر كيانها الخاص، كيانها

---

(٦٥) عفلق، **في سبيل البعث**، ص ٩٩؛ الياس فرح: **الفكر العربي الثوري أمام تحديات المرحلة الراهنة** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣)، ص ٢٤٩، و**في الثقافة والحضارة**، ط ٢ (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧)، ص ٩ و٦٣، وشفيق، **في الوحدة العربية والتجزئة**، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٦٦) نقلاً عن: خيرية قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» **المستقبل العربي**، السنة ١، العدد ٧ (آذار/مارس ١٩٧٩)، ص ١٢٧ ـ ١٤٠.

(٦٧) نقلاً عن: عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٥٤.

الإنساني، والحضاري والثقافي ذا الخصوصية الخاصة المميزة، وبالزعم بأنه لا تربط هذا الكيان المصري الشديد الخصوصية بالعروبة إلا صلة واهية هي صلة الدين واللغة، بينما الدين في طريقه إلى الضمور في الحياة الاجتماعية المعاصرة، أما اللغة فهي وحدها لا تجعل المتحدثين بها أمة واحدة بحال.

وخاض الفكر الإسلامي والثقافة العربية هذه المعركة المصيرية، بقوة، بالتأكيد، أولاً، على اضطراب وضعف الأفكار التي طرحتها الدعوات الانعزالية و«التيار الفرعوني» بخاصة، وبتفنيد مزاعمها بأن الثقافة أمر معنوي لا يمكن ربطه بالعوامل الجغرافية. وقد حاول المفكرون العروبيون إثبات أن المصريين الفراعنة كانوا فرعاً من فروع الأمة العربية، وأنهم جاءوا أساساً من الجزيرة العربية[٦٨].

وأكدّ هذه الحقيقة التاريخية بعض المفكرين الغربيين، لحسن الحظ، وهم المفكرون الموضوعيون المنصفون الذين أثبتوا، في دراساتهم الانثروبولوجية ـ التأريخية، أن أوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من أرض آسيا إلى وادي النيل. وكان من هؤلاء المفكرين العالم بروكس (من ألمانيا)، وأبيرس ولوث وليبلن (من النرويج)، وبصفة خاصة كان أول من أثبت هذه النظرية هو مل الألماني.

وعلى صعيد آخر، فإن علماء الآثار العرب استطاعوا أن يفندوا ويدحضوا ادعاءات التيار الفرعوني. وتجلى ذلك، بخاصة، في جهود العالم الأثري أحمد كمال باشا، والتي أثبتت الحقائق التي تؤكد تحدر أوائل المصريين الأقدمين من بلاد العرب، وبالذات ـ من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر[٦٩]. وبالإضافة إلى ذلك استطاع هذا العالم المصري أن يثبت في أبحاثه أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة تتحدران من أصل واحد، وأن اللغة المصرية ما هي إلا لغة قبائل الأعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم، وتوصل هذا العالم إلى هذه النتيجة بإرجاع جميع كلمات اللغة المصرية إلى اللغة العربية[٧٠]. وبالفعل، أورد في قاموسه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية الحضرية، إما موافقة تامة، أو موافقة بضرب من

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٦٩) أنور الجندي، أصول الثقافة العربية، الموسوعة الإسلامية العربية؛ ١ (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٧١)، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩؛ دروزة، الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها، ص ٣٤٤؛ عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣)، ص ١٠٢ ـ ٢٠٥، وعبد العزيز الأهواني، «موقفنا من التراث،» الكاتب، السنة ١١، العدد ١٢٨ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١)، ص ١٢ ـ ١٥.

(٧٠) الجندي، المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

التحريف أو القلب والإبدال[٧١].

وهكذا لم يستطع التيار الفرعوني أن يتحول إلى تيار جماهيري، بل ظل قاصراً على بعض المثقفين داخل الأقلية القبطية، أساساً، وخارجها، أيضاً. وللإنصاف والدقة ينبغي القول إن بعض دعاة التيار الفرعوني، أمثال طه حسين ومحمد حسين هيكل وحسين موسى ومحمد أمين حسونة، والعديد من كتاب جريدة **السياسة** قد استبدلوا قناعاتهم الفكرية السابقة بقناعات جديدة أقرب إلى التيار العروبي[٧٢].

وظلّ الطابع الغالب هو التيار العروبي المؤيد للوحدة، أو المتعاطف معها، اما لأسباب وطنية تخدم مصر والدول العربية، أو لأسباب المصير المشترك ومواجهة الأخطار التي تهدد الكيان المصري والعربي معاً. وتجلى ذلك، بخاصة، في العهد الناصري الذي انطفأت فيه جذوة التيار الفرعوني والدعوات الانعزالية الأخرى، والذي باتت فيه هذه الفرعونية، بالذات، نبعاً من منابع الأمة العربية، على الصعيد التاريخي والتراثي والحضاري، وحلقة إبداعية من حلقات وجودها وتواصلها وإبداعها[٧٣].

٣ ـ رابطة البحر المتوسط (الرابطة المتوسّطية)

لقد كانت هذه الرابطة واحداً من أخطر التحديات التي واجهت الأمة العربية. فإن فكرتها لا تعدو أن تكون، في الجوهر، وجهاً من أوجه الغزو الفكري الفرنسي للأقطار العربية المطلة على البحر المتوسط، وهو غزو اعتمد آلية الرابطة الفكرية بين فرنسا وهذه الأقطار وصولاً إلى إحكام الهيمنة السياسية عليها، إنها واجهة حضارية لتحقيق أهداف الاستعمار الفرنسي القريبة والبعيدة[٧٤].

وكما يقول الباحثون المدققون فإن هذه النظرية تعني أن فرنسا، ومعها بلاد الشمال الأفريقي، ومصر، ودول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، إنما تعيش جميعها حول البحر المتوسط، وأنه لو «صنعت» رابطة ما لهذه الأقطار فمن الممكن أن

---

(٧١) جمال حمدان، **شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان** (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨١)، ج ٢، ص ٢٦٨؛ خاطر، **حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر**، ص ١٨، ودروزة، المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٧٢) الجندي، المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٧٣) المعداوي، «الأقباط وقضية العروبة،» ص ٣٧٦، و Richard Hrair Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics* (Albany, NY: State University of New York Press, 1971), pp. 40-51.

(٧٤) أحمد حسن الزيات، «فرعونيون وعرب،» في: **قراءات في الفكر القومي، الكتاب الثالث: القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

«تقارب» وأن يتحول هذا «التقارب» إلى سيطرة فرنسية على هذه الأقطار، وتبعية من جانب هذه الأقطار لفرنسا[٧٥]. ومن هنا طرح المستعمرون الفرنسيون نظريتهم هذه لإثبات أن شمال أفريقيا، والجزائر بالذات، انما هي قطعة من فرنسا وجزء منها، وأن سكانها مسلمون فرنسيون، وأنها الامتداد الفرنسي في أفريقيا. وانطلاقاً من هذه «النظرية» بدأ بعض المفكرين والمنظرين الامبرياليين الفرنسيين بالادعاء أن السوريين ليسوا بعرب وإن كانت لغتهم عربية. واللبنانيون يختلفون عن العرب وعن السوريين في آن واحد، انهم فينيقيون. والمسيحيون منهم من أبعد الناس عن العرب والعروبة لأنهم حفدة الصليبيين الذين أتوا إلى سوريا ولبنان من مختلف البلاد الأوروبية، ولا سيما فرنسا، وأن مصر لأكثر ارتباطاً بفرنسا والبحر المتوسط من أي رابطة «أصلاً وعقلاً وثقافة»[٧٦].

وثمة فرضيات تقول إن جذور هذه النظرية تمتد إلى الحملة النابليونية، وتحركها بمواجهة الأطماع البريطانية في هذه المنطقة. فقد عمل نابليون، جاهداً، على وضع هذه النظرية موضع التطبيق أثناء حملته على مصر. فعلى الرغم من قصر فترة الاحتلال[٧٧]، إلا أن البصمات الفكرية التي خلفها في القطر المصري كانت بالضرورة أعمق بكثير من الآثار السياسية والعسكرية لتلك الحملة[٧٨]. ومن هنا لا يمكن أن يكون صحيحاً الرأي القائل بأن جذور الرابطة المتوسطية تعود إلى الصيحة التي أطلقها الخديوي إسماعيل يوم قال كلمته المشهورة «إن مصر قطعة من أوروبا»، وذلك لأن اسماعيل حين أطلق كلمته هذه إنما كان يمثل المنهج الذي اعتمده محمد علي وخلفاؤه، والذي شكل، بالضرورة، التقاء وامتداداً للنهج الفكري الذي اعتمدته فرنسا، فهو شعار لمنهج فكري اتسع وتعمق كثيراً في عهد سعيد وإسماعيل، واقترن بتعمق الصلات الفكرية بفرنسا، وبمختلف الوسائل. وظل ذلك التأثير واضحاً، بمستويات متباينة، طوال ذلك الوقت حتى اندلاع ثورة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢، التي عملت على صهر هذا الاتجاه عبر المنهج الفكري والخطوات الدؤوبة والحثيثة التي خطاها جمال عبد الناصر[٧٩].

---

(٧٥) فرح، **الفكر العربي الثوري أمام تحديات المرحلة الراهنة**، ص ٢١؛ أبو زيد، «بدايات الفكر القومي العربي في مصر،» ص ٤٣، وعبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٥٤.

(٧٦) عمارة، «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة،» ص ٢٣٨.

(٧٧) عبد الرحمن البزاز، **بحوث في القومية العربية** (بيروت: [د. ن.]، ١٩٥٨)، ص ٢١٨.

(٧٨) عمارة، المصدر نفسه، ص ٢٣٩، وسيد أحمد، «الزحف الإمبريالي على مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،» ص ٥.

(٧٩) عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٥٤؛ عواطف عبد الرحمن، **مصر وفلسطين**، سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠)، ص ٤٤، وسيد أحمد، المصدر نفسه، ص ٩.

لقد كان تأثير التيار المتوسطي عميقاً، جراء تبنيه من قبل المفكرين المصريين البارزين وأبرزهم طه حسين، الذي كان، بحد ذاته، مدرسة فكرية تتلمذ عليها الكثيرون. والدليل على عمق ورسوخ هذا التيار هو أنه لم يكن مجرد نزعة فردية، بل كان نزوعاً احتل مكانه، وتواصل حتى ثورة يوليو، وذلك لأن هذا الاتجاه مثل، في وقته، شريحة من المثقفين بالثقافة الغربية، وبخاصة الفرنسية، آمنت بمنطلقات (الرابطة المتوسطية) وبشرت بها في الوسط الأكاديمي والجماهيري[٨٠].

ويُعدُّ الدكتور طه حسين، والدكتور حسين مؤنس، وسلامة موسى أقوى المعبرين عن هذا الاتجاه[٨١]. فالدكتور طه حسين في كتابه **مستقبل الثقافة في مصر** يقدم رؤيته الخاصة، بهذا الصدد، فيُرجع الأفكار الرئيسية التي تؤلف نسيج هذا الاتجاه إلى عاملين هما: التركيب العقلي، والموروث الثقافي، حيث يقول: «إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط». ثم يستطرد قائلاً: «فإذا لم يكن بد أن نلتمس أسرة للعقل المصري نقره فيها، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم»[٨٢]. ويستنتج من ذلك القول بأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها.

أما الدكتور حسين مؤنس فيسبغ على صلة مصر بالبحر المتوسط التميز والديمومة، مقارنة بصلتها مع أفريقيا وآسيا، فيقول في كتابه **مصر ورسالتها**: «إن تاريخ مصر هو تاريخ البحر الأبيض المتوسط على وجه التقريب»، وإن حياتها لا تستقيم إلا إذا كانت موثوقة الصلة بهذا البحر. «فمصر تنازعت تاريخها ثلاث قوى: افريقيا وآسيا والبحر الأبيض، فأما القوة الأولى فتلاشت في منتصف الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديم، وأما الثانية فقد فرضت (يقصد الإسلام). أما القوة الثالثة وهي البحر الأبيض فهي العنصر الأساسي في تاريخ هذا البلد». ويواصل الدكتور حسين مؤنس تأصيل هذا الاتجاه تأريخياً، فيقول: «إن حضارة الغرب ليست سوى الحضارة المصرية القديمة مطورة في اتجاه واحد مستقيم، لذا فهي ليست غريبة علينا، كما أنها ليست غربية محضاً، فقد أسهمنا فيها برافدين: أحدهما مصري والآخر إسلامي»... «وأنه بإهمالنا البحر وما يجري وراءه، فقد تعرضنا للاحتلال العثماني.

---

(٨٠) عمارة، المصدر نفسه، ص ٢٣٩؛ عبد العزيز شرف، **طه حسين وزوال المجتمع التقليدي** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧)، ص ٥ ـ ٧ و١١، ونجاح عمر، **طه حسين: أيام ومعارك** (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٩)، ص ٥ و٨٤ ـ ٨٥.

(٨١) عمارة، المصدر نفسه، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٨٢) طه حسين، **مستقبل الثقافة في مصر**، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٤)، ص ٩ ـ ١١، صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٣٧.

لذا فإن فراغنا في عالم البحر الأبيض، بضوء الحقائق السابقة لا يمكن أن يملأه غيرنا، فنحن ملتقى الشرق بالغرب ونقطة الاتصال بين قارات ثلاث.. وحدنا نستطيع أن نقوم رسلاً بين الجانبين»[٨٣].

إن هذه الطروحات كان لا بد لها من أن تولد «تقاطعاً» و«تماساً» بينها وبين طروحات «الرابطة الشرقية» التي صارت فيما بعد معبراً نحو اكتشاف ارهاصات التيار العروبي في هذا القطر، وبين أصحاب هذا التيار.

فالدكتور طه حسين يبين لنا أن أصحاب «الرابطة الشرقية» يقعون في وهم كبير حين يؤثرون التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى، لأن وحدة الدين، في نظره، مضافاً إليها وحدة اللغة، لا يصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول[٨٤]، بل إن وحدة الثقافة هي الأساس، ولذلك فإن مصر لا يمكن لها أن تغادر عقليتها الأولى وتصبح أمة شرقية، على الرغم من اتخاذها الإسلام ديناً، والعربية لغة [٨٥]. أما سلامة موسى فقد سخر من الارتباط بالرابطة الشرقية، واعتبرها نوعاً من «التلفيق» ومنى نفسه بتأليف رابطة غربية، لأننا على حد تعبيره «السنا والأوروبيين من دم واحد وأصل واحد فقط، بل ان ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الاسكندرية ومجمع أثينا»[٨٦].

ويبلغ سلامة موسى في غلوّه حدّ اعتباره «المصريين من السلالة الأوروبية، تربطهم رابطة دم واحدة، وأن العلماء انتهوا إلى أن شعوب البحر المتوسط من جهاته الأربع تنتمي إلى أصل واحد»[٨٧]. وأوغل في غلوه عميقاً، فتحدث في كتابه **اليوم والغد** (الذي اعتبره محاولة لبحث جذور الأمة المصرية وانتمائها الحضاري المعاصر)، عن الحضارة الغربية، حديث المنبهر المغالي حد الانضواء تحت راية الغرب المتقدم والتخلص من الشرق المتخلف على حد تعبيره، وقال: «الأمة المصرية، هل هي أمة أوروبية يجب علينا أن نتثقف بثقافتها، أم أمة شرقية؟». واستطرد مبرراً أقواله المغالية: «... كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب، أنه يجب أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوروبا، وأنه كلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأني منها، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب»[٨٨].

---

(٨٣) حسين مؤنس، **مصر ورسالتها**، مع مقدمة بقلم جمال عبد الناصر، سلسلة اخترنا لك؛ ١٧ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣)، ص ٥١ ـ ٦٦.

(٨٤) حسين، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٨٦) نقلاً عن: عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٤٣. حول الموضوع نفسه، انظر: Gray, «Arab Nationalism: Abdin Against the Wafd,» p. 17.

(٨٧) سلامة موسى، **اليوم والغد** (القاهرة: المطبعة العصرية، [١٩٢٧])، ص ٢٣٥.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٧.

ويدعو، في غمرة مغالاته وانبهاره الماسخ لهويته القومية إلى «تجنب الثقافة الشرقية لما تحمل من آثار العبودية والذل والتوكل»، كما يؤكد «ان الدم الشرقي تسرب إلينا من العرب والاخشيديين والمماليك والأتراك العثمانيين، ولكننا مع كل ذلك بقينا أوروبيين في تقاسيم وجوهنا ونزعات نفوسنا. وإذا كنا نحب السير مع أوروبا فليس لأننا والأوروبيين من دم واحد وأصل واحد فقط، بل لأن ثقافتنا تتصل بثقافتهم، وحضارتنا هي حضارة العالم الحديث كله». ويضيف إلى كل هذا، وبلهجة الاستعلاء والتعصب، التي لا يجمعها جامع مع العلم والموضوعية والدقة، أقواله التالية المفرطة في المغالاة: «إن الثقافة العربية الآن مضيعة للشباب ومبعثرة لقواهم. ولذا يجب أن نعود الشباب على الكتابة بالأسلوب المصري الحديث، ونعرفهم بأننا أرقى من العرب، ويجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبي كما ننظر إلى اللغة الروسية. ثم يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصري ويجعله شائعاً لا لون له»[٨٩].

ويُمعن سلامه موسى في غلوه ومزاجيته المعادية للعروبة والشرق عموماً، فيقول «إننا أمة قد سرنا شوطاً بعيداً في الحضارة الغربية التي هي منا ونحن منها. وإذا أراد الشرق أن يسير معنا فنعم ما يفعل»[٩٠]. ويعلن تنكره لانتماء مصر للجامعة الدينية ويعدها وقاحة! ففي رأيه أن الرابطة التي يجب أن ترتبط بها هي رابطة الحضارة والثقافة، وهي رابطتنا بأوروبا. ويرى أن الارتباط بالغرب تقدم وحضارة ورقي. وبهذا الاتجاه والأسلوب ذاته يكرر كثيراً من هذه الأفكار المفرطة في غلوها الانفعالي، فيتنكر لعروبة مصر، ولغتها العربية، وارتباطها الوثيق بالأمة العربية، ويظل يؤكد أن مصر من أوروبا، وأن حضارة جميع الدول المطلة على حوض البحر المتوسط بما فيها مصر، حضارة واحدة، ذات أصل واحد[٩١]، بل ان غلوه الانفعالي هذا يقوده حتى إلى التهوين من الفرعونية فيقرنها بالعروبة، طالعاً بمقولته البالغة التعصب للغرب والانضواء في عالمه بعدمية تامة، والتي تقول بأن تكون مصر جزءاً من أوروبا والغرب في كل شيء[٩٢]. وهكذا فإن المفكرين الإقليميين في مصر انقسموا شيعاً وتيارات، وتفرد سلامه موسى بالرابطة المتوسطية[٩٣].

وعند البحث عن الأسباب التي دعت هؤلاء المفكرين إلى تبني هذه الطروحات التي تفتقد المنطق والرؤية العلمية الدقيقة، فإننا سنجد أنها ناجمة عن آثار العزلة المفروضة امبريالياً على الأمة العربية والتي تهدف إلى تجزئة الوطن العربي وشرذمة

---

(٨٩) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٧.

(٩٠) نقلاً عن: عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٤٥.

(٩١) ساطع الحصري، **العروبة أولاً**، ط ٦ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ١٦ ـ ١٨.

(٩٢) موسى، **اليوم والغد**، ص ٢٣٨.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

جماهيره من خلال الغزو الفكري والثقافي الذي والاه الاستعمار عبر مؤسساته الفكرية، وكانت تبعاته أشد خطورة من الاحتلال العسكري وأقل كلفة.

وفي تحليل هذه الظواهر، من منظور موضوعي دقيق، نجد بعض التبرير - إضافة إلى ما قمنا به من تفسير لبعض رجال الفكر في مصر - في طروحاتهم ومقولاتهم التي حملت الإعجاب البالغ (وحتى الانبهار) بما وصلت إليه الحضارة الغربية من تقدم وارتقاء مقابل التخلف الحضاري والاقتصادي الذي كان يهيمن على الشرق والذي كانت الامبريالية الغربية مسؤولة عن معظمه. وعلى صعيد آخر، لا يمكن استبعاد هاجس الاحساس بالإقليمية الاضطراري، أحياناً، والمفروض، بالضرورة في أحيان أخرى كملاذ للعاجزين عن الرؤية الشمولية للواقع العربي لجميع أبعاده التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، فظنوا، بحسن نية، أن توثيق علاقة مصر بالأقطار العربية المتخلفة من شأنه إيقاف أو تعويق التقدم الذي ينشده القطر المصري، منذ بداية القرن العشرين، غير آخذين باعتبارهم ما كانت تقوم به الآلية الاستعمارية من تكريس لهذا التخلف الذي لم يقتصر على مصر وحدها وإنما شمل الحياة والواقع في جميع أقطار الوطن العربي[٩٤].

لقد كان نبيه بيومي على تمام الحق حين لاحظ «أن البعد المتوسطي حضاري أكثر منه طبيعي، واقتصادي أكثر منه بشري، وهو في النهاية، وعلى خطورته وأهميته، يعد تكميلياً لا يرقى بالضرورة، إلى البعد الآسيوي أو العربي الذي هو أسبق منه وأثبت»[٩٥].

٤ ـ التيار الافريقي (وحدة مصر والسودان)

لقد وظفت القوى الاستعمارية التيار الداعي إلى (وحدة مصر والسودان) لتكريس النزعة الإقليمية[٩٦]، على الرغم من إجماع الرأي العام والأحزاب السياسية، على مختلف اتجاهاتها، على اعتبار السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر وكونهما أرضاً واحدة من الوجهتين الجغرافية والتاريخية.

ومع أن هذه المقومات هي المقومات ذاتها التي تربط الأمة العربية، إلا أن التيار

---

(٩٤) تهدف الرابطة المتوسطية إلى بلورة واقع جغرافي يعمل على تفتيت وحدة الأمة العربية عبر صيغ فكرية هيأت الأرضية اللازمة لإنشاء الكيان الصهيوني، فالرابطة المتوسطية تعني «أن تقوم علاقات مصر مع دوله بشكل متساو، ومعنى ذلك أن تتساوى علاقة مصر بإسرائيل أو تركيا أو فرنسا كعلاقتها بالدول العربية التي تقع على حوضه». انظر: عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٩٦) فرح، **الفكر العربي الثوري أمام تحديات المرحلة الراهنة**، ص ٢١.

الإقليمي الضيق (وحدة وادي النيل ـ أو وحدة مصر والسودان) لم ينظر إليها، من حيث المضمون، مثلما نظرت إليها ثورة تموز/يوليو أو الفكر القومي عموماً، أي باعتبارها جزءاً من الوطن العربي وطليعة للوحدة الشاملة، فلقد عمل هذا التيار الإقليمي الانعزالي على تكريس الإقليمية بوجه التيار العروبي، وتجلى ذلك على مستويات عدة واتجاهات هي[٩٧]:

الاتجاه الأول: وهو الذي ينادي بعودة العلاقات المصرية ـ الإفريقية على أساس العلاقات المصرية القديمة وانتشار الحضارة المصرية في بقاع وأنحاء مختلفة في أفريقيا، مع الدعوة إلى المحافظة على تلك الحدود الحضارية، باعتبار أن مجال مصر الحيوي يقع في أفريقيا وحدها. ولهذا عملت القوى الاستعمارية على تكريس هذه النزعة الإقليمية الافريقية، بمعنى إبعاد مصر (والسودان أيضاً) عن الحياة العربية، والهموم العربية، والوحدة العربية، وترسيخ التجزئة والانعزال بكل معانيه، بالإنفتاح على الحياة الافريقية وحدها، دون غيرها[٩٨]. وهذا ما أدركه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بشكل دقيق، ولذلك استثمر هذا الانفتاح الافريقي، على نحو إيجابي، من خلال توظيفه واحداً من المنطلقات الفكرية لثورة ٢٣ تموز/يوليو، في انفتاحها على أفريقيا خدمة للبناء الحضاري والقضايا المشتركة، دون تقاطع مع الأهداف التي حددتها الثورة، حين أوضحت بأن الدائرة العربية هي أهم الدوائر التي ترتبط بها مصر[٩٩].

الاتجاه الثاني: هو اتجاه الأغلبية، وهو الاتجاه التقليدي، الشعبي والرسمي: «وحدة وادي النيل»، الذي تدعمه أقوى الروابط الاستراتيجية الطبيعية واللغوية والتاريخية والمصلحة المشتركة التي تربط الشعبين. وقد جرى دعم هذا الاتجاه باعتباره يخدم النزعة الاقليمية التي تقر التجزئة والابتعاد عن الحياة العربية. استثمر هذا الاتجاه طروحات حزب مصر الفتاة [١٠٠] التي كانت تدعو إلى بعث الامبراطورية المصرية بالحدود التي تؤشرها أدبيات هذا الحزب من «البحيرات الاستوائية جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً، ومن أعالي الحبشة والبحر الأحمر وحدود سيناء الشرقية شرقاً، ومن الحدود العربية لمصر والسودان غرباً»[١٠١]. وكان الحزب الوطني يدعو هو الآخر إلى

---

(٩٧) طارق البشري، «مصر في إطار الحركة العربية،» في: سعد الدين ابراهيم [وآخرون]، **مصر والعروبة وثورة يوليو**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢)، ص ٢٨.

(٩٨) عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٣١.

(٩٩) أنور الجندي، **تاريخ الحركة الوطنية المصرية في نصف قرن، ١٨٨٢ ـ ١٩٤٦** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٤٧)، ص ٣ ـ ٤.

(١٠٠) أحمد فارس، «رؤية عبد الناصر للنظام الإقليمي العربي، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥،» في: ابراهيم [وآخرون]، **مصر والعروبة وثورة يوليو**، ص ٢٠٠.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

تأسيس «اتحاد نيلي»، ويضم مناطق لا تقع ضمن حوض النيل مثل هرر وديلع ومصوع. وقد استثمرت القوى الاستعمارية هذه الطروحات الفكرية المتباينة لتوظيفها بدعم الاقليمية والابتعاد عن الرؤية العربية بادعائها بأن هذه الطروحات تضم مناطق غير عربية[(١٠٢)].

الاتجاه الثالث: هو الذي يطرح وحدة مصر والسودان على أساس ديني يجمع سكان هذا الوادي منذ أن حل الإسلام في ربوعه، وفي مقدمة طارحي هذا الرأي، وداعميه، بكل الوسائل، جماعة «الاخوان المسلمين»، على مختلف الحقب الزمنية[(١٠٣)].

وعلى الرغم من جميع المحاولات التي بذلتها القوى الاستعمارية لتكريس النزعة الإقليمية (لشكل وحدة مصر والسودان)، إلا أنها لم تحقق غاياتها، ولم تتوصل إلى ما تريد. وبذلك اتجهت إلى إقرار التجزئة والتفتيت، فبدأت محاولاتها لفصل السودان عن مصر، واضعة كل ثقلها في جانب رؤساء القبائل من ذوي النزعة الانفصالية، ملوحة لهم، وقد ارتدت مسوح المدافع عن السودان، بأن لمصر مطامع لا حصر لها في ضم السودان وابتلاعه كلياً[(١٠٤)]. وقد اصطدمت هذه المحاولات الاستعمارية برفض ومقاومة الحركة الوطنية المصرية والحركة الوطنية السودانية على حد سواء[(١٠٥)].

فقد عبرت الأحزاب الوطنية المصرية عن تمسكها بالسودان وعدم التفريط بـ «وحدة وادي النيل»، مؤكدة أن النيل لا يتجزأ (مصر والسودان لنا)[(١٠٦)]. وكانت الحكومة المصرية بدورها هي الأخرى، أكثر تمسكاً والتزاماً، وقد تجلى ذلك في توضيح المفاوض المصري، في العام ١٩٤٦، في أن المصريين يمقتون السيطرة وما «السيادة إلا رمز الوحدة»، وأن المصريين تهمهم رفاهية السودان، واقترح كلمة وحدة بدلاً من سيادة، والتاج المشترك بدلاً من التاج المصري، أي في نطاق الوحدة بين السودان ومصر تحت التاج المشترك[(١٠٧)].

---

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(١٠٣) عاصم أحمد الدسوقي، **مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٦)، ص ٣٠٢.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١٠٥) دروزة، **الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها**، ص ٢٠٧؛ عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٣٥، و John A. DeNovo, *American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1964), p. 367.

(١٠٦) محمد نجيب، **مذكرات محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر**، ط ٥ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨)، ص ٢٧ ـ ٨٤ و٢٧٣ ـ ٢٨٠.

(١٠٧) البشري، «مصر في إطار الحركة العربية،» ص ٣٣، وعبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ٣٥.

أما موقف الحركة الوطنية السودانية فقد كان أشد اندفاعاً من مصر بهذا الخصوص، وقد أوضحه نبيه بيومي عبد الله، حين تعرض لنضال هذه الحركة منذ العام ١٩٢٠ من أجل تحقيق وحدة وادي النيل، فأكد أن هذا النضال برغم الانطباع الخارجي عنه حول مدلوله الاقليمي، إلا أنه كان، من حيث الجوهر، يمثل موقفاً قومياً باعتبار أن هذه الوحدة توحد أجزاء لا تتجزأ من الوطن العربي، وهي تمثل بالضرورة، نواة للوحدة الشاملة وارهاصاً بالوحدة الاندماجية(١٠٨).

وفعلاً إن هذه الوحدة لو تمت لكانت تصلح أن تكون نواة للوحدة الشاملة. وقد اتضح هذا الأمر، بالفعل، من خلال تحول موقف المستعمرين البريطانيين حيال هذه الوحدة، فبعد إخفاق مخططهم بتكريس الإقليمية بمعنى الانفصال عن الأمة العربية، جعلوا يعملون على نشر التجزئة ودعمها، بكل السبل، وعلى كل المستويات، وصاروا يريدون الاستئثار بالسودان لهم، فالوطن العربي ليس مجرد قطعة من الأرض والجغرافيا، بل هو واقع اجتماعي حضاري ثقافي يصنع به الإنسان من الأرض، بالتراث المتواصل، وطناً.

وفي خاتمة المطاف، ونتيجة لنضالات الحركة الوطنية المصرية والحركة الوطنية السودانية معاً، اضطرت بريطانيا للموافقة على الحكم الذاتي للسودان، متجاهلة وحدة وادي النيل التي باتت تخشاها وتخشى دلالتها القومية، وحددت فترة تمتد من عشر سنوات إلى خمس عشرة أو عشرين سنة لحصول الشعب السوداني عليه(١٠٩). وحين اندلعت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بدأ قادة الثورة يطالبون بريطانيا بتطبيق ما كانت تدعي به، وبخاصة حق تقرير المصير للسودانيين، فوافقت على ذلك، في الاتفاق الذي تم في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٥٣ لحل المسألة السودانية.

وهكذا، من كل ما تقدم، يتضح لنا مدى الاهتمام البالغ، الذي أبدته القوى الاستعمارية، وبريطانيا بخاصة، لاستثمار هذا التيار وتكريسه لصالح الانعزالية وابتعاد العرب عن تيار الوحدة العربية وعن كل ما يعززها فكراً وروحاً(١١٠).

---

(١٠٨) عبد الله، المصدر نفسه، ص ٣٥، ويحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢**، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

(١٠٩) الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٢١؛ الشاذلي القليبي، **الثقافة رهان حضاري** (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨)، ص ٩ و١٤؛ فارس، «رؤية عبد الناصر للنظام الإقليمي العربي، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥،» ص ٢٠٠، وسيد أحمد، «الزحف الإمبريالي على مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،» ص ٩.

(١١٠) عبد الله، المصدر نفسه، ص ٣٧، والعراق، دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقية، ملفات البلاط الملكي، الملف رقم ٢٦٦٨، تسلسل الملف ٣١١، موضوع الملف تقرير أسبوعي مقدم من القائم بالأعمال بتاريخ ٣/١/١٩٥٠، الوثيقة رقم ٥٧، ص ١٤١.

إن الاستنتاج الذي يمكن أن نستخلصه من عرضنا لتيارات الاتجاه الاقليمي وتوظيفها، إمبريالياً ومحلياً، ضد التيار العروبي والارتباط بالأمة العربية، والصراع الضاري الذي نشأ بسبب ذلك، إن هذا الاستنتاج لا بد من أن يؤكد دور الامبريالية البريطانية الحاسم في إحداث التجزئة ودعمها وفي تكريس الإقليمية، القطرية بخاصة باعتبارها أقوى الصيغ في آلية إضعاف الإرادة العربية وإحباط النزوع القومي الوحدوي في مصر وسواها من الأقطار العربية[111]. ومن هنا، فإن المعركة العنيفة المستمرة التي انطلقت بين القوى الامبريالية التي تحاول، ما استطاعت، تكريس التجزئة والإقليمية ودعمها بكل الوسائل، وبين جماهير مصر والجماهير العربية، عموماً، في نضالها ضد التجزئة والإقليمية والدسائس الامبريالية البريطانية، إن هذه المعركة كانت في واقعها وجوهرها ومداها الأبعد، تعبيراً عن النزوع القومي الوحدوي العروبي لدى الجماهير المصرية والجماهير العربية عموماً، مثلما كانت كذلك، جزءاً لا يتجزأ من الآلية الامبريالية البريطانية في سبيل فرض التبعية الدائمة على مصر والسودان على حدٍ سواء[112]، لتجمع بذلك بين النقيضين المتناقضين حالة فريدة في التاريخ عموماً، والتاريخ العربي خصوصاً.

وفي استعراضنا فصول المعركة الشاملة المتواصلة برزت في تضاعيفها بعض الأساليب والوسائل الامبريالية المختلفة التي تعرضت لها، بدرجات مختلفة، مقومات الوجود القومي العربي في مصر، كما برزت نزعات مصدرها رد فعل إقليمي ضد أفكار حقيقية أو موهومة تسلحت بمختلف الحجج لحجب دوافعها الكامنة[113]. وذلكم ما أدركه جمال عبد الناصر وانتبه إليه، فوضع هيكلاً فكرياً يجمع الأطر الفكرية المختلفة، ويوحدها ضمن الإطار الفكري القومي[114].

ثانياً: الاتجاه الإسلامي

ترك الإسلام أثراً كبيراً في مصر، بل في الشمال الإفريقي برمته، وذلك لما انطوى عليه من قيم سمحاء، فهو لم يكتفِ بتوحيد المنطقة عقائدياً، وإنما اكسبها

---

(١١١) United States, Department of State, *Foreign Relations of the United States, 1952-1954: Near and Middle East*, vol. 9 (Washington, DC: U. S. Government Printing Office, 1986), part 2, p. 141.

(١١٢) فرح، **الفكر العربي الثوري أمام تحديات المرحلة الراهنة**، ص ١١.

(١١٣) الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٦٨، وبدر، **أمتنا العربية: الحاضر والماضي والمستقبل**، ص ١٦٥.

(١١٤) فارس خليل، **التطوير الثقافي في مجتمعنا الاشتراكي** (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٥)، ص ١٠٢.

طابع العروبة، لا بالمعنى العرقي وإنما بالمعنى الثقافي والنفسي والمصير المشترك، في الوقت الذي عجزت فيه اتجاهات وأقوام أخرى عن تحقيق ذلك.

أصبح الدين الإسلامي ظاهرة بارزة في هذه الأقطار، غطت على ما عداها، لذا لم يكن محض صدفة أن تصبح القاهرة مرتكزاً للفكر العربي الإسلامي تتعمق من خلاله الصلة بين مصر والأقطار العربية الأخرى، ويصبح الأزهر جسراً يعمق باستمرار هذه الصلة، ويؤكد بدون انقطاع أهمية مصر الدينية في الوطن العربي والعالم الإسلامي[(١١٥)]. كما أصبح الأزهر منذ مطلع القرن التاسع عشر أو قبله بقليل، معقل الثورة والثوار، ولكن ذلك لم يمنعه أيضاً من أن يكون بؤرة للثورة المضادة في الوقت ذاته، وذلك بتأثير الشرائح المحافظة ذات الغنى والثراء، أو تلك التي وجدت في الأوضاع الجديدة التي هيأها الاحتلال الأجنبي فرصة مناسبة لكسب النفوذ الشخصي، وجمع المال واقتناء الثروة[(١١٦)]. ولقد أدت ثنائية الجمود والتجاوز في الأزهر دوراً كبيراً في الصراع الفكري والسياسي الذي شهدهُ القطر المصري منذ العقد الثالث من هذا القرن، واستطاعت السلطة، بدعم من الإنكليز وبعض أحزاب الأقلية، أن تدير دفة هذا الصراع لصالحها، وأن تظهر نفسها بمظهر المدافع عن الدين بمواجهة الأفكار الوافدة التي بشر بها مثقفون من الأزهر نفسه من أمثال حسين وخالد عبد الرزاق وخالد محمد خالد، فتبلور تياران متناقضان[(١١٧)]، ومتصارعان فكرياً، لكل منهما حججه التي تنصب في خدمة الإسلام في نهاية المطاف، ولكن من منطلقات وقناعات متباينة، أولهما تيار الإسلام التقليدي، وكان يمثله الأزهر وعدد من الجمعيات الدينية قدر عددها في ذلك الحين بخمسٍ وثلاثين جمعية جعلت من الوحدة الإسلامية، أو الشرقية محوراً لنشاطاتها، مع تبني فكرة الزعامة المصرية للعالم الإسلامي، ولعل أبرز هذه الجمعيات «جمعية الرابطة الشرقية» التي أنشأت فروعاً لها في كثير من مدن فلسطين، فضلاً عن دمشق وبغداد والبصرة، وكذلك جميعة «الشبان المسلمين».

أما التيار الثاني فقد استهدف تسييس الدين، ومثلته جماعة الاخوان المسلمين[(١١٨)] و«الحزب الوطني الإسلامي» (جمعية مصر الفتاة سابقاً) وكان اتجاهاً له عراقته، وهيمنته في مصر وذلك بفضل خطابه السياسي الذي تصدى لتيار القومية المصرية،

---

(١١٥) محمد أنيس والسيد رجب حراز، **ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٩)، ص ١٠.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١١٧) الدسوقي، **مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥**، ص ٢٢٩.

(١١٨) تأسس حزب جماعة الاخوان المسلمين برئاسة الشيخ حسن البنا في مدينة الإسماعيلية سنة ١٩٢٧، وكان ينادي بقومية الإسلام القائمة على وحدة اللغة والعقيدة، فالإسلام من وجهة نظرهم يشكل وطناً وجنسية حيثما يوجد مسلم فثمة أرض الإسلام فهو دين للناس كافة.

مع أنه لم يطرح القضية العربية طرحاً مباشراً، إلا أنه لم يضع، بالمقابل، فكرة الجامعة الإسلامية في سياق مع العروبة، باعتبار الأخيرة متضمنة في الإسلام، وتمثل اتجاهاً يساعد على تحقيق وحدة المسلمين، كما أن هناك تداخلاً بين الاتجاهين العربي والإسلامي، بمعنى أن النزعة العربية كانت تحمل قسمات دينية، والعكس صحيح، فينطلق الاتجاهان من موقع البحث لانتماء سياسي أرحب جغرافياً وحضارياً وأمنياً لمصر، ثم ان تعاطف هذا الاتجاه، ومنذ البدء، مع أحداث فلسطين وحماسها للقضية لأسباب معروفة جعله تياراً جماهيرياً ضخماً لا يقل شأناً عن الوفد، وفي الواقع يمكن القول بأن القضية الفلسطينية، وقضايا أخرى عديدة لم تدخل في نسيج الحياة السياسية في مصر إلا من خلال النزعة الإسلامية[١١٩].

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن هذا الاتجاه بوضعه الأكثر تنظيماً، والأوضح ايديولوجية المتمثل بالإخوان المسلمين، استطاع أن يجد له موقعاً داخل القوات المسلحة[١٢٠]، والتقاء مع حركة الضباط الأحرار ضمن إطار تنظيمها الشعبي قبل حرب فلسطين، وذلك في إطار انفتاح حركة الضباط على الحركات السياسية الأخرى[١٢١].

إلا أن المتغيرات التي حدثت، ولا سيما بعد أن تصاعد المد القومي، أدت إلى انحسار هذا الاتجاه، وافتراق القوميين عنه[١٢٢]، خصوصاً وان هذا الاتجاه، وبمختلف تياراته لم يستطع أن يتجاوز الجمود الفكري والعقائدي الذي قيد عقول المسلمين قروناً عديدة، فمنعهم من العطاء والإبداع رغم إحساسهم بأهميته، فهم لم يحاولوا تجاوز التقليد برؤية جديدة تجمع الأصالة والمعاصرة، فتجاهلوا مدى الحاجة إلى بعث الاجتهاد الإسلامي لتغطية هذه الفجوة، فالأزهر، مثلاً، لم يحاول أن يتجاوز الخطوط السلفية بمعالجة الوضع العلمي والمناهج الدراسية معالجة جذرية لانغماس بعض رجاله في خدمة الدعاية الملكية، وترسيخها في عقول الناشئة من طلبة الأزهر، أو الدعوة لمؤتمر الخلافة الإسلامية الذي كان كثيراً ما يرافقها إثارة قضايا مسرفة في

---

(١١٩) المصدر نفسه، ص ١٩٩، وزكريا سليمان بيومي، **الاخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية، ١٩٢٨ ـ ١٩٤٨** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٨)، ص ١٦٦.

(١٢٠) أحمد حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ٥ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨)، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٤٤، وعبد الله إمام، **عبد الناصر والاخوان المسلمون** (بيروت؛ القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨١)، ص ٣٥ ـ ٤٦.

(١٢١) أنور السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، تقديم جمال عبد الناصر، كتاب الهلال؛ ٧٦ (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧)، ص ١٧٠ ـ ١٧٤، وإمام، **عبد الناصر والإخوان المسلمون**، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(١٢٢) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٣٨ ـ ١٤٥.

ضآلتها، كما لو كانت جوهر مشاكل المجتمع. وبعبارة أخرى ان التيارات الإسلامية لم تحاول الاستجابة لمتطلبات المرحلة التاريخية برؤية معاصرة. فإن الشيخ حسن البنا كثيراً ما كان يتهرب من إعطاء موقف محدد تجاه أي قضية قومية أو وطنية أو اجتماعية، وإذا ما سئل كأي زعيم سياسي عن الرؤية المستقبلية لبرامجه أجاب «نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا منهاج رسول الله ﷺ وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله وكفى». ويؤكد أيضاً «أن الفرد إذا أخذ القرآن بيمينه والسنة المطهرة بيساره، ووضع سيرة السلف أمام عينه لرأيت من كل ذلك ان للإسلام قومية جامعة، ووحدة ورابطة حول العقيدة والمبدأ»[١٢٣].

وهكذا فإن الاتجاه الإسلامي بتوغله بإبراز العامل الديني المجرد كان لا بد من أن يقع في مأزق النعرة الدينية، فما تجسد في موقفه المتطرف من الأقليات الدينية، هو الذي ولد انعكاساً سلبياً بانشطار الرؤية العربية، وأدى ذلك إلى «انصراف أنظار الشعب عن مكافحة الاستعمار، وتحول نضاله إلى مجرى خطر تحارب فيه الأكثرية الأقلية، فترتمي بسببه الأقلية في أحضان المستعمر وما يتبعه من تبديد طاقة النضال في دروب فرعية»[١٢٤]. ومما يؤكد ذلك إصدار الشيخ محمد الغزالي، أحد قادة الإخوان، كتاباً بعنوان **التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام** تضمنت بعض صفحاته أداءه للوحدة الوطنية، وإثارة للنعرة الطائفية فهو القائل «إن اتفاق زعماء المسلمين والنصارى إبان ثورة ١٩١٩ كان على أن ينسى الجميع أديانهم في سبيل طرد العدو، وهو اتفاق اعتبره غريباً، وتنفيذه أغرب»[١٢٥]. وهو القائل أيضاً «إن كثرة الموظفين النصارى في الإدارات المصرية إقصاء للإسلام، وتغليب غيره عليه»[١٢٦].

إن مثل هذه الإيديولوجيا «البعيدة عن متطلبات المرحلة التاريخية، وعن الشعور بالمسؤولية التاريخية، والمتجاهلة عن قصور في الوعي لحركة التاريخ وتناقضات الواقع الراهن، لا بد من أن تلد وهي تحمل معها خطأها الأساس وهو عدم جدليتها وقطعها أوصال العامل الزمني، أي أبعاد الماضي والحاضر والمستقبل لأن التاريخ ديمومة وصيرورة وتطور»[١٢٧].

---

(١٢٣) نقلاً عن: بيومي، **الاخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية، ١٩٢٨ ـ ١٩٤٨**، ص ١٧٥.

(١٢٤) الدسوقي، **مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥**، ص ٣٠٠.

(١٢٥) نقلاً عن: رفعت السعيد، «الاخوان المسلمون في لعبة السياسة،» **آفاق عربية**، السنة ٣، العدد ٧ (آذار/مارس ١٩٧٨)، ص ١٤٤.

(١٢٦) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(١٢٧) الياس فرح، **من قضايا الثورة والإنسان العربي** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ١٤.

وهكذا نرى أن الاتجاه الإسلامي غدا عاجزاً عن أن يضيف جديداً، وظلت طروحاته مجرد افتراضات بعيدة عن متطلبات المرحلة، لذا فإن أغلب الحركات الدينية التي ظهرت في هذا العصر تبدأ من موقع الثورة، ثم لا تلبث أن تنتهي عند موقع القوى المضادة للثورة وحركة التاريخ.

ثالثاً: الاتجاه الاشتراكي

تشير أغلب المراجع إلى أن الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها القطر المصري في الحقبة ما بين الحربين العالميتين، وحتى قيام ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢، كانت منطلقاً أساسياً لظهور تجمعات وأحزاب ذات توجهات اشتراكية بدرجات متفاوتة[١٢٨]، وخصوصاً أن برامج أغلب الأحزاب المصرية كانت تفتقر إلى معالجة المشكلات الاجتماعية بالمستوى المطلوب[١٢٩]. لم يولِ هذا الموضوع المهم ما يستحق من اهتمام، فظل بلا برنامج اجتماعي، منطلقاً من اهتمامه البالغ لتحقيق الاستقلال السياسي للبلاد، وبذلك عبر عن رؤية قاصرة، وأضاع من حياته فترة طويلة من دون أن يكون لنفسه برنامجاً اجتماعياً يعمل في إطاره، كما أنه لم يحاول أن يرتبط بحركات التحرر في آسيا وأفريقيا، وبذلك بقي كفاح الوفد ضد الإنكليز في مصر معزولاً عن الكفاح العربي من ناحية، وعن الحركات التحررية العالمية من ناحية أخرى[١٣٠].

هيأ هذا الواقع، في ظل الوضع المتأزم بشقيه الاجتماعي والاقتصادي في القطر المصري، مناخاً ملائماً لظهور تجمعات وأحزاب حاولت تبني المطالب العمالية والفلاحية والبرجوازية الصغيرة التي تخلت عنها الأحزاب الأخرى، وهو ما يعطي تفسيراً لظهور أول حزب اشتراكي في مصر والوطن العربي في آب/أغسطس ١٩٢١ وتفرع عنه أول حزب شيوعي في الوطن العربي[١٣١].

---

(١٢٨) عبد العظيم رمضان، **صراع الطبقات في مصر، ١٩٣٧ ـ ١٩٥٢** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨)، ص ٥٥٨؛ عصمت سيف الدولة، **الأحزاب ومشكلة الديمقراطية في مصر** (بيروت: دار المسيرة، [د. ت.])، ص ٣٨ ـ ٤٢، وايغور بيليايف وافغيني بريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٤٥.

(١٢٩) لم تتضمن برامج الأحزاب، التي كانت موجودة على الساحة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى، طروحات فكرية لمعالجة المشكلات الاجتماعية الجوهرية، ولا سيما الاقتصادية منها، ويستثنى من ذلك فقط «الحزب الوطني» أثناء قيادة محمد فريد له. فاحتك بالتيارات الاشتراكية العالمية، واشترك في مؤتمرات السلام المعادية للاستعمار التي تبنتها الأحزاب الاشتراكية في أوروبا.

(١٣٠) أنيس وحراز، **ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية**، ص ١٤٥ ـ ١٥٠، والدسوقي، **مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥**، ص ٣٢٤.

(١٣١) رمضان، **صراع الطبقات في مصر، ١٩٣٧ ـ ١٩٥٢**، ص ٥٥٨.

وجد الشيوعيون واليساريون عموماً، المجال مفتوحاً أمامهم للتغلغل في صفوف أبناء الطبقات الكادحة، وذلك بفضل الرؤية غير المتكاملة للأحزاب البرجوازية التي لن تأخذ تناقضات الواقع العربي في سياق جدلي بنظر الاعتبار، ولأنها عزلت موضوعة الاستقلال السياسي عن ضرورات التغيير الاجتماعي والاقتصادي، مما أبعد تلك الأحزاب عن العمال والفلاحين والبرجوازيين الصغار من كتاب وفنانين وغيرهم[١٣٢].

لكن هذا التيار الذي انحسر، وتشرذم بفعل مجموعة كبيرة من العوامل المتداخلة فيما بينها، لم يكن طابعه النسخي ـ النقلي المقلد الذي لم يلامس الواقع العربي في الصميم آخر تلك العوامل، بل كان من أهمها، فقد نجم عن تقليد ميكانيكي لصيغ التحليل المطبقة على المجتمعات الصناعية المتقدمة[١٣٣]، هذا الذي جعل من التيار الجديد عاجزاً عن الإجابة عن كل ما يعانيه الواقع العربي من تناقضات. وقد أدى هذا، إلى جانب الصراع الفكري والسياسي بينه وبين الأحزاب الأخرى، والصراع الداخلي الذي عانته تنظيماته، إلى انسلاخ وتفتيت الحركة الشيوعية في مصر التي تعرضت، فضلاً عن ذلك، إلى ضربات متلاحقة وجهت إليها بقسوة من أطراف متعددة، وخصوصاً من السلطة التي وقفت ضدها دون هوادة، مما أدى إلى نمو روح التطرف في صفوفها، والانعزال والمبالغة في السرية إلى حد مفرط، فأصاب نشاطها الشلل التام، وأبعدها عن الجماهير، وأفقدها موقع قدم في الشارع السياسي[١٣٤].

رابعاً: الاتجاه العربي

يهمنا من هذا الموضوع الواسع جداً، والمتداخل إلى حد كبير بعض الملامح الجوهرية التي تؤشر، قبل كل شيء، افتقار الساحة الإيدلوجية المصرية، وإلى حين قيام ثورة يوليو، إلى منظر واحد، فاعل ومؤثر في حقل القضية القومية بغض النظر عن مدى نضج هذا التنظير، فيما ظهر عدد غير قليل من هؤلاء في المجالين الإقليمي والإسلامي، بل حتى الماركسي. مما يلاحظ أيضاً خلو الساحة الحزبية من حزب قومي ينهض بأعباء النضال العربي في هذا القطر[١٣٥]، وقد نجم ذلك أساساً عن العزلة

---

(١٣٢) غالي شكري، **النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٥٧ و٣٠٦.

(١٣٣) الياس فرح، **الوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى**، ط ٢ (بيروت: [د. ن.]، ١٩٧٠)، ص ٢٣.

(١٣٤) البشري، **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**، ص ٤٢٠.

(١٣٥) الحصري، **العروبة أولاً**، ص ٦٨ ـ ٨٣.

التي فرضت على الفكر القومي العربي[١٣٦]، وعن عدم احتضان مفكري المشرق وقادتهم لمصر عبر كتاباتهم ومواقفهم حينما طرحوا مصر من الخارطة السياسية، أو الأصح من المملكة التي كانوا يسعون إلى تأسيسها[١٣٧]، مما يبدو واضحاً في طروحات نجيب عازوري في كتابه **يقظة الأمة العربية** الصادر عام ١٩٠٥، وادمون رباط في كتابه **الوحدة السورية والمصير العربي**. ولم يعبأ المجتمعون في مؤتمر باريس عام ١٩١٣ بالموضوع على الرغم من المرامي القومية التي جمعتهم، فخلقت إحساساً أثار تساؤلاً داخل المؤتمر من قبل طالب مصري كان يدرس القانون، وهو الدكتور سيد كامل، حول ما إذا كانت مصر تعد بلداً عربياً عثمانياً أم لا، مؤكداً أحقيته في التمثيل وإصدار القرارات، فأجاب الزهراوي رئيس المؤتمر «نحن نحيي اخواننا المصريين ونبدي حرمتنا لآرائهم، ونعرف أن مصر عربية عثمانية، ولكن بما أن لها إدارة لا ينفذ فيها رأي المصريين (يقصد أنها محتلة) لذلك أرجو أن يكون هذا عذراً لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لآرائهم حق التأثير على أحوالهم»[١٣٨].

وفي الوقت ذاته لم تثر مراسلات حسين ـ مكماهون موضوعة مصر، وعندما مثل الأمير فيصل أباه الشريف حسين في مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ فإنه تحدث عن «عرب آسيا» الذين يريدون من الحلفاء أن ينظروا إليهم على أنهم شعب واحد يرنو إلى التوحيد في ظل حكومة واحدة ذات سيادة[١٣٩].

وفي كل الأحوال كان عدم امتلاك الأمة العربية لمنظور موحد عاملاً أساسياً في انشطار الرؤية القومية التي لم تدرك الأطراف المبينة لها حقيقة وحدة الاستعمار، ووجوب مجابهته كوحدة[١٤٠]، لذلك تجزأت رؤية العرب وفق النزوع الذي يمثلونه، والذي كان تأثيره بالغاً في مصر، مما أفقدها ما كان ينبغي أن تقوم به في الميدان العربي، وبما يتوافق مع موقعها كسوق مهم ومكانتها التاريخية، وطاقاتها البشرية

---

(١٣٦) النقاش، **الانعزاليون في مصر: رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين**، ص ٤٧؛ خاطر، **حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر**، ص ١٠٣ ـ ١٠٨، وصايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ١٠٠.

(١٣٧) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ترجمة كريم عزقول (بيروت: دار النهار، ١٩٦٨)، ص ٣٣٣ ـ ٣٧١.

(١٣٨) نقلاً عن: محمد رفعت، **التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة**، مكتبة العلوم السياسية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، ص ١٠٠.

(١٣٩) صايغ، **الفكرة العربية في مصر**، ص ٨٨، وزين نور الدين زين، **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٠)، ص ١٠٢.

(١٤٠) أنيس صايغ، **تطور المفهوم القومي عند العرب** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١)، ص ٧٦.

والمادية. مع ذلك ظهر تياران في هذا الاتجاه، تمثل الأول منهما في نشاط النخبة المثقفة، وإبداعها الفكري من موقع الدفاع عن عروبة مصر، ولقد حمل لواء هذا التيار كتاب وساسة معروفون من أمثال المازني والزيات وعبد الرحمن عزام ومكرم عبيد ومحمد علي علويه وزكي مبارك وأحمد زكي الملقب بشيخ العروبة[١٤١].

واتسمت رؤية هؤلاء للقومية العربية بسمات يغلب عليها طابع الاعتزاز مع الجهل بالمصالح، والحذر من طرح الأسلوب السياسي للوحدة، دون أن يعني ذلك رفضهم لوجود الفكرة القومية، ولكن إيمانهم بالعروبة والميل لتبني القومية العربية كان يعتوره غير قليل من عدم الجدية والغموض والاختلاط الفكري[١٤٢].

أما التيار الثاني في هذا الاتجاه فقد تمثل في الجمعيات التي كانت تحمل عناوينها ما يشير إلى أنها عربية، مثل «الرابطة العربية» و«جماعة الوحدة العربية» و«الاتحاد العربي» و«جامعة أدباء العروبة»، وقد كان تأثير هذه الجمعيات محدوداً جداً، واتسمت هي الأخرى بهشاشة الأفكار، واضطراب في الرؤية[١٤٣]، فبعضها، كالرابطة العربية، دعت إلى توحيد البلدان العربية، وجمع شملها تحت راية مصر، إلا أنها الزمت نفسها والآخرين «بعدم التدخل مطلقاً في أية مناقشة سياسية أو دينية»، وبعضها، كالاتحاد العربي، دعا إلى تكوين اتحاد عربي شعبي يصار من خلاله إلى تجديد فكرة الوحدة، إلا أن منهاجه الصادر في أيار/مايو سنة ١٩٤٤ نص على أن يكون لكل دولة شخصيتها، «فالاتحاد العربي في مظهره الجديد لا يبغي نظاماً واحداً في الحياة، بل تبقى كل أمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار بنفسها ولنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة»، ثم يضمها جميعاً هذا الاتحاد الذي يراد له رغم هذه الولادة المشوهة «أن يكون مجموعة شعبية دولية يحسب لها حسابها» ويكون «قوة تستند إليها الحكومات في مباحثاتها حول الغاية المنشودة».

أما الأحزاب المصرية، فلن تجد من بينها حزباً عرف بموقف قومي لم ينله التشويه واختلاط الرؤية واضطراب البرامج التي ركزت فكرياً على قضيتي الجلاء ووحدة وادي النيل[١٤٤]. ولا يشكل حزب «مصر الفتاة» ذو التسميات المتعددة استثناء كما يفهم من عبارة الدكتور طارق البشري من أنه «عرف باتجاه عربي واضح منذ تكوينه» وأنه «لم يلحظ في تاريخه قط أنه وضع المصرية في تعارض وامتناع مع

---

(١٤١) الحصري، **العروبة أولاً**، ص ٩٣.

(١٤٢) ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٦)، ص ١٣٦ ـ ١٤٢.

(١٤٣) عبد الله، **تطور فكرة القومية العربية في مصر**، ص ١٧٧ ـ ١٨٢.

(١٤٤) للاطلاع على تفاصيل هذه الجمعيات، انظر: المصدر نفسه، ص ١٧٧ ـ ١٨٢.

العروبة». ثم يشير إلى أن هذا الحزب عرف الكثير من اضطراب المفاهيم السياسية بين القومية المصرية وبين القومية العربية، وبين الجامعة الإسلامية، وتلك مسألة لا اختلاف عليها، فبرنامج هذا الحزب يهدف إلى أن تحقق مصر رسالتها التاريخية بأن تصبح دولة قوية، ويدعو إلى تحقيق وحدة عربية شريطة أن تفضي إلى وحدة إسلامية[١٤٥].

من كل ما سبق يبدو واضحاً أن النزعة العربية الوحدوية، بل النزعة العربية على نحو مطلق، لم تجد لها مرتكزاً منظماً في المجتمع المصري، فليس بين الأحزاب والحركات التي عرفتها مرحلة ما بعد الثورة العرابية، وإلى حين قيام ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢، حزب أو تنظيم شعبي جعل من العروبة والوحدة العربية مدار فكره ونضاله، كما لم يظهر من بين كبار مثقفي مصر في المرحلة المنوه عنها من كانت العروبة مدار فكره وعطائه، فالمجتمع والمثقف المصريان توزعهما قطبا المصرية والإسلام دون انفصام بين الاثنين، فقد اضفت لغة القرآن والقضية الفلسطينية والجامعة العربية على المصرية مسحة مميزة جنبتها، وخصوصاً في العقود الثلاثة التي سبقت الثورة، الإقليمية الضيقة، ولكنها في الوقت نفسه طمست الطرح الصحيح لمسألة العلاقة العضوية التي تربط الوطنية المصرية بالقومية العربية بوصفها رافداً من روافدها.

تعاملت التجربة الناصرية مع هذا الوريث الفكري تعاملاً نقدياً، وحددت في ضوء هذا التعامل موقفها منه، مما يبدو واضحاً في ثنايا الوقفات الفكرية المقبلة التي تؤطر صلب الموضوع الذي نحن بصدد معالجته.

---

(١٤٥) البشري، «مصر في إطار الحركة العربية،» ص ١٠ ـ ٢١.

الفصـل الثانــي

حياة جمال عبد الناصر
الأسرة، النشأة، بدايات التطور الفكري

أولاً: حياة جمال عبد الناصر: مسيرة الثائر ومغزاها التاريخي

لم يستأثر قائد عربي في تاريخ الأمة العربية الحديث بالاهتمام مثلما استأثر به جمال عبد الناصر. فمنذ عهد صلاح الدين الأيوبي، رمز البطولة العربية ـ الإسلامية في الحروب الصليبية، لم تُنجب الأمة قائداً واجَهَ التحديات الأجنبية والامبريالية والصهيونية والرجعية بشجاعة استثنائية مثلما واجهها جمال عبد الناصر، ابن الصعيد المصري والمرحلة المعاصرة من الثورة العربية. فهو يستحق، وبمنتهى الجدارة، أن نسمّيه بطل الثورة العربية ورمزها في العصر الراهن، وعلى وجه الدقة في الخمسينيات والستينيات من قرننا العشرين.

ومن هنا فإن دراسة سيرته، وتأثيرها في فكره ـ الفكر الناصري ـ أمرٌ في غاية الضّرورة، لما نراه من ترابط حتمي بين ذلك الفكر ومعالم حياة صاحبه ومعطياتها التاريخية ـ الفكرية.

١ ـ نسبه وأسرته وتعليمه

ينتسب جمال عبد الناصر، كما كتب هو عن نفسه[١] إلى قرية بني مرّ[٢]، إحدى قرى الصعيد المصري. وهي قرية من قرى مديرية أسيوط، صغيرة مجهولة لم يكن لها صدى بين الناس، ومنعزلة، وبعيدة عن العمران[٣]. ومن هذه القرية الموغلة

---

(١) جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة (القاهرة: وزارة الثقافة والإعلام، [د. ت.])، ص ٢٧.

(٢) تقع قرية بني مر شمال شرق أسيوط، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات منها، تبلغ مساحتها ألفي فدان ويسكنها نحو خمسة آلاف مواطن.

(٣) فوزي عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث (بيروت: الشركة اللبنانية للكتاب، [١٩٧٠])، ص ٢٦، و Jean Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World* (London: Martin Co., 1971), p. 81.

في القدم خرج القادة المصلحون والمحررون منذ الأزمان السحيقة، أمثال سيكنين راع وكاموس واحمس محرري وادي النيل، وحتشبتوت صاحبة العمائر السلمية، وراعية عهد السلام، واخناتون الفيلسوف الموحد المعروف[٤].

إن هذه القرية هي ذاتها التي استجابت أولاً واستجابت أخيراً، وهيأت الظروف فيها للحادث الجلل[٥]، هي ذاتها بمبانيها المتهالكة التي يسكنها خمسة آلاف شخص يعيشون على زراعة ألفي فدان. . . وهي ذاتها التي عاشت الحرمان وظلت مساكنها بعيدة عن الثروة والجاه والشهرة[٦].

لقد كان مقدراً لبني مرّ أن ترزح تحت عبء التخلّف والجهل كسواها من قرى الصعيد المصري التي عاشت أحقاباً طويلة محرومة من اهتمام الحكام، على مدى العصور[٧]. كان مقدراً لها أن تغوص في دياجير الجهل والبؤس والتخلف إلى أن تولاها بالإصلاح، وبالغ الاهتمام رجل من خيرة رجالها، هو الحاج حسين خليل سلطان، الرجل التقيّ المؤمن. وكان هذا الرجل الفاضل هو جد جمال عبد الناصر[٨]، وكان وجهاً متميزاً وسط مجتمع القرية الفلاحي الملتصق بالأرض والزراعة، ولذلك تبوأت أسرته مكانة مرموقة بين الناس البسطاء هؤلاء. وقد اشتهرت هذه الأسرة بالكرم والسخاء وشدة البأس، ومن هنا سميت ربوعهم بـ «رحبة آل سلطان»[٩]. وقد عزّ على الشيخ حسين أن تظل قريتهم محرومة من نور العلم والتعليم، ومعرضة في الوقت ذاته لاغتصاب أراضي زارعيها وساكنيها، ومن قبل دهاقنة الإقطاع والبرجوازية العقارية، فقرر إنشاء مدرسة لأطفال القرية، منطلقاً من مفهومه التنويري الإصلاحي، القاضي باعتبار التعليم الطريق القويم لتطوير القرية وانتشال الفلاّحين من وهدة

---

(٤) سنية قراعة، **حارس المجد، جمال عبد الناصر** (القاهرة: مكتب الصحافة الدولي، ١٩٥٩)، ص ٤٢ ـ ٤٣؛ ذو الفقار قبيسي ونجيب صالح، **ناصر، الشهيد الحي** (بيروت: دار الصياد، ١٩٧٠)، ص ٣، وروبرت سان جون، **الرئيس**، تقديم سعد زغلول نصار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠)، ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٥) قراعة، المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٦) المصدر نفسه؛ ولتون وين، **ناصر العرب، البحث عن الكرامة**، نقلته إلى العربية نخبة من الأساتذة الجامعيين (بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٥٩)، ص ٢٣.

(٧) أنور الجندي، **هذا هو جمال** (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٦٠)، ص ٢٣.

(٨) كان والد جمال عبد الناصر من صغار الملاكين في القرية الذين يستثمرون أرضاً لا تزيد مساحتها على خمسة فدادين. انظر: جان لاكوتير، **عبد الناصر** (بيروت: دار النهار، ١٩٧١)، ص ٢٣، والمصدر نفسه، ص ١٦ ـ ١٧.

(٩) وصفت هكذا لرحابة خلقهم وكرمهم، وحسن ضيافتهم، ووردت في بعض المراجع بوصف «رهبة» لشدة وعزم وحزم أهلها. للتفصيل انظر: قراعة، **حارس المجد، جمال عبد الناصر**، ص ٤٥.

معاناتهم المؤلمة المزمنة، وكان هذا المفهوم يبدو متقدماً بالنسبة لعصره، وخصوصاً على خلفية الجهل المستحكم، والنزوح المستمر إلى المدينة، والضرائب الثقيلة وصنوف الأذى البالغ المفروضة على الفلاّحين[١٠].

وهكذا تبلورت فكرة إنشاء المدرسة في ذهن الشيخ حسين خليل سلطان، ففاتح بعض معارفه بها، فلاقت التأييد والاستجابة المتحمسة. وبجهود الشيخ حسين والقرويين تم افتتاح مدرسة متواضعة (كتاب) في عام ١٨٩٨، كانت عبارة عن غرفة صغيرة، فرشت بالحصير، لتعليم الصغار القراءة والكتابة وحفظ القرآن. وقد تطوع الشيخ أحمد قراعة، إمام المسجد، لتعليمهم[١١].

وكان من بين التلاميذ الملتحقين بهذه المدرسة (الكتاب) عبد الناصر، النجل الأكبر للحاج حسين خليل سلطان. وفي ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩٠٣ أنهى عبد الناصر دراسته مستوعباً علوم المسجد، مجيداً القراءة والكتابة وحفظ القرآن. وبانتهاء هذه المرحلة أصبح والد عبد الناصر أمام خيارين: إما أن يعيد ابنه إلى الزراعة، أو يتيح له نهجاً آخر لمتابعة تعليمه. ولما كانت المنطقة تفتقر إلى مدرسة قرر بعثه إلى أصهاره الذين كانوا قد استقروا في الاسكندرية تجاراً، لاتمام تعليمه. وهكذا سافر عبد الناصر إلى أخواله في الاسكندرية في عام ١٩٠٤، ملتحقاً بمدرسة خويصة الابتدائية بالباب الحديد، وكانت تسمى «مدرسة النجاح الأهلية». وكان دخول عبد الناصر المدرسة نقطة التحول الأولى في حياة «بني مر»[١٢]. أما نقطة التحول الثانية في حياته فكانت خروجه من «بني مرّ» راحلاً إلى الاسكندرية، فقد كان لهذا الحدث، كما سنرى، أثره البالغ في تغيير مجرى الأحداث.

وقد واصل عبد الناصر تعليمه حتى أنهى دراسته الابتدائية. وعين، فيما بعد، معاوناً لبريد الاسكندرية، فكان، بذلك، أول أبناء القرية الذين تولوا مهام الوظيفة الحكومية. وكان الالتحاق بالوظائف الحكومية آنذاك أمراً باعثاً على الاحترام، مرغوباً فيه تماماً، لكونه من دواعي الاستقرار الحياتي، والتغيير النوعي في مظاهر الحياة وأسبابها[١٣].

وفي الفترة التي كان عبد الناصر يواصل دراسته فيها بالاسكندرية، كان والده

(١٠) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٢٨؛ قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٦، ولاكوتير، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(١١) قبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٦؛ قراعة، المصدر نفسه، ص ١٤، وعطوي، المصدر نفسه، ص ٢٨.

(١٢) أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ترجمة سامي عمارة (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٣)، ص ٤.

(١٣) قراعة، المصدر نفسه، ص ٤٥.

قد بعث ابنيه الآخرين إلى الكتاب وهما خليل وعبد الباسط[١٤]. وبعد انتهاء دراستهما في الكتاب، أرسل خليل إلى المدرسة الابتدائية بالاسكندرية عند شقيقه الأكبر، بينما استقر عبد الباسط معاوناً لأبيه في شؤون الزراعة. وكان عبد الناصر معروفاً في الأوساط الوظيفية كرجل حازم، صادق، شريف، يعتز بكرامته أشد الاعتزاز، ويرفض الاستغلال والانتهاك والابتزاز على كل المستويات. وثمة حادثة بالغة الدلالة تؤكد ذلك، فقد رفض الاستجابة لاستدعاء أحد أعيان القرية له للقاء به عند محطة السكة الحديدية، وورد بامكانية اللقاء في المكتب الرسمي بالدائرة. ويدلل هذا الحادث، رغم بساطته، على الإباء، والاعتداد بالنفس، والاعتزاز بالكرامة الشخصية، وهو أمر لم يكن مألوفاً عند الموظفين الذين لم يكونوا يستطيعون، في ظروف آنذاك، رفض طلبات الأعيان ذوي السطوة والنفوذ الكبير.

تزوج عبد الناصر[١٥] في عام ١٩١٧ من فهيمة محمد حماد، ابنة تاجر الفحم بمديرية المنيا، الذي استطاع بعد قدومه من الصعيد، وفي فترة قصيرة نسبياً، تكوين ثروة لا يستهان بها، جعلته من التجار المعروفين فيها[١٦]. وكان هذا الزواج سعيداً بين رجل قوي الشخصية وامرأة ذكية حكيمة مدبرة. وإلى ذلك يشير جمال عبد الناصر بقوله: «كنا دائماً أسرة سعيدة يحكمها أبي، ولكن القوة الحافظة فيها كانت أمي التي كنت أنا وإخوتي نتفانى في حبها»[١٧].

وفي الخامس عشر من شهر كانون الثاني/ يناير ١٩١٨، وفي إحدى ضواحي الاسكندرية، المسماة باكوس، وفي شارع الدكتور قنواتي، في المنزل رقم ٨، ولد الابن البكر للعائلة: جمال، في مسكن صغير مؤلف من خمس غرف وحديقة صغيرة، وما زال قائماً لحد الآن[١٨]. وكانت البهجة بالمولود الجديد مضاعفة، كتعويض عن وفاة عم الوليد البكر عبد الباسط.

ولد جمال عبد الناصر في جو عربي صميم. فقد كانت والدته اسكندرانية من الوجه البحري، ووالده صعيدي، من بني مر من الوجه القبلي. وكانت أسرة والده، كما مر بنا، تتميز بالصلابة والجرأة والقوة والشجاعة وعدم الاستكانة للضيم،

---

(١٤) قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٦ ـ ١٠.

(١٥) كان لعبد الناصر شقيقان وهما، كما مرّ بنا، خليل وعبد الباسط، وشقيقة واحدة.

(١٦) نثيلة راشد، جامع، حكاية كفاح ضد الاستعمار، للشباب (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١)، ص ١١، وقراءة، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٧) نقلاً عن: عمر أبو النصر، جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته (بيروت: مكتب عمر أبو النصر للتأليف والترجمة والصحافة، ١٩٦٧)، ص ١٠.

(١٨) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٦؛ عبد الله إمام، حكايات عن عبد الناصر (بيروت: الوطن العربي، [د. ت.])، ص ١٢ ـ ١٣، وأنتوني ناتنج، ناصر، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٢)، ص ٣٠.

ومقاومة المعتدي أياً كان[١٩]. وهكذا كانت العروبة والروح العروبية بمعنى الاعتزاز بالعرب وبالتراث العربي والأخلاق العربية أصيلة، عريقة، في أجواء هذه الأسرة[٢٠].

وبالإضافة إلى هذا الجو العربي المتميز وخصوصيته الدالة، اقترنت ولادة جمال عبد الناصر بخلفية متغيرات دولية وعربية وقطرية، لها دلالتها، هي الأخرى. فالنصف الأول من القرن العشرين كان من أخصب المراحل التاريخية. فعلى الصعيد الدولي شهدت الحرب العالمية الأولى نهايتها الدرامية. والشرخ الذي أحدثته الثورة الاشتراكية الروسية في العالم الرأسمالي. وعلى الصعيد العربي، كان التململ القومي العربي، وجيشان الروح التحررية في الشعوب الآسيوية والأفريقية بعد التقسيم والهيمنة التي فرضتها القوى الاستعمارية على الأمة العربية وقارتي آسيا وأفريقيا. ولعل الحدث الذي أجج الروح القومية العربية كان استيلاء الانكليز على مدينة القدس، وإعلان بلفور وعده السيىء الصيت بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[٢١].

وعلى الصعيد القطري شهد النصف الأول من القرن العشرين صراع الاتجاهات الفكرية ـ السياسية التي تناولنا دراستها بالتفصيل في الفصل الأول. أما سياسياً وعسكرياً فقد كان خضوع مصر للاستعمار البريطاني وعملائه من الملك ورجال السراي والطبقة الحاكمة من الإقطاعيين والبرجوازية الكومبرادورية. وما ان حل يوم الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، وهو يوم إعلان الهدنة، حتى أطلق ثلاثة من قادة الفكر المصريين، وهم سعد زغلول وعلي الشعراوي وعبد العزيز فهمي، وفداً شعبياً إلى دار الحماية، متقدمين بطلب الموافقة على سفرهم إلى مؤتمر الصلح لعرض قضية استقلال مصر، وانجاز الوعد البريطاني المتكرر بالاستقلال. غير أن رد الجنرال اللنبي كان بالغ العنف، الأمر الذي عجل في انفجار الثورة. فخرج المصريون جميعاً يحاربون قوات الاحتلال بالحجارة والعصي والسلاح. ولكن المعركة لم تكن متكافئة، فأخفقت الثورة عسكرياً، ونفي سعد وأبرز أنصاره إلى مالطة[٢٢].

نشأ جمال عبد الناصر وسط هذه الأجواء الدولية والعربية والقطرية، وكان لكل ذلك تأثيره فيه وفي تأملاته الجادة منذ يفاعته[٢٣]. ولم يكن جمال بالطفل العادي، بل

---

(١٩) ناتنج، المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٠) راشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ٤٤ ـ ٥٣، وأبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ١٠ ـ ١١.

(٢١) حمدي حافظ، **ثورة ٢٣ يوليو: الأحداث، الأهداف، الانجازات**، ط ٢ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ٣٥ ـ ٤١، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ١٥.

(٢٢) ناتنج، **ناصر**، ص ٢٣، ولاكوتير، **عبد الناصر**، ص ٢١.

(٢٣) راشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ١٠؛ الجندي، المصدر نفسه، ص ١٤، و Ephraim Avigdor Speiser, *The United States and the Near East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950), p. 61.

كان مشروع ثورة باسم الفقراء العرب الذين لا يأكلون ثمار ما ينتجونه (وكان هو دائم الحديث عن ذلك)، وكان منذ صباه موضع حب الناس وثقتهم، كلما التقوه برفقة أبيه أو جده[٢٤].

وقد حرص والده على تربيته بشكل صارم، وعلى نحو يطور فيه الاستقلالية، وقوة الإرادة، وتحمل المسؤولية. وكان ذلك شائعاً في الصعيد، حيث يعامل الأطفال معاملة الرجال[٢٥].

عاش جمال عالماً متنوّع الأطر والمقومات، وكان لذلك، دون شك، أثره البالغ في بلورة وتشكيل رؤيته، وتكوين فكره. فقد عاش الأجواء الفلاحية في الريف، مثلما عاش الأجواء الاستغلالية البرجوازية في المدينة. وعن كثب لمس ما يعانيه فقراء الريف والمدينة، وعاين ذلك ملياً، فكان كل ذلك واحداً من العوامل الأساسية التي أسهمت في بلورة رؤيته الفكرية ـ السياسية[٢٦]. إن ذكرياته، وإشاراته المتكررة إلى أسيوط، وبني مر، وإلى تردده على المدرسة الابتدائية في أسيوط تؤكد بجلاء الجذر الواقعي ـ الميداني لتطور رؤيته الحياتية وعقيدته[٢٧].

وقد التحق بالمدرسة في حوالى السادسة من عمره، وحين نقل والده من الاسكندرية إلى قرية الخطاطبة، بات طالباً في مدرسة هذه القرية النائية الواقعة على أطراف الصحراء بالقرب من دلتا نهر النيل، وهي المدرسة التي شيدت لأبناء موظفي سكة حديد الخطاطبة، وكان الصف الواحد فيها يضم ستين طالباً. ولجمال عبد الناصر ذكريات حافلة بالشجون عن هذه القرية ومدرستها[٢٨]. وقد أكد معاصروه، ومنهم زميله وصديقه عبد الحميد شاهين[٢٩] الموظف بهندسة سكة حديد قرية الخطاطبة، أن جمال كان القدوة بين أقرانه في الدراسة والسلوك القويم: «كان يعشق المذاكرة وقراءة الصحف والمجلات التي تصل القرية، ويتنزه ساعات عصر كل يوم وعيناه لا تفارقان صفحات كتابه، ودلالات الزعامة كانت واضحة لديه، ولكنه لم يكن يبدو عليه شعور التفوق علينا. لذلك أحببناه، وكان يوقد جذوة المودة الصادقة

---

(٢٤) قراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٤٧، وجاك دومال وماري لوروا، جمال عبد الناصر: الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ترجمة ريمون نشاطي، ط ٦ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٨)، ص ٤٦.

(٢٥) قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ١٨؛ أبو النصر، جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته، ص ٢٢، ودومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٢٦) أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ٦.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٦؛ عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٣٢؛ قراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٥٠، ووين، ناصر العرب، البحث عن الكرامة، ص ٢٢.

(٢٨) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٥.

(٢٩) أبو النصر، جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته، ص ١٨.

في جميع التلاميذ حوله، فكثيراً ما ساعد زملاءه التلاميذ على حل مشكلاتهم... يفعل هذا في إشفاق وحب. وكانت له مواهب فكرية، وملاحظات، وومضات من الفهم تثير دهشة المدرسين، وتجعلهم يعاملونه بتقدير واحترام. وكان المرحوم الشيخ حامد الشافعي، مدير المدرسة حينذاك، يقول لنا: نريدكم جميعاً كجمال عبد الناصر، أريدكم رجالاً مثله»[٣٠].

لقد أدرك جمال عبد الناصر، في وقت مبكر، وفي قرية الخطاطبة بالذات، سر المأساة التي تعصف بالواقع الفلاحي المصري. وساعده على ذلك، أساساً، التصاقه بالبيئة الشعبية واصطدامه بتناقضاتها. لقد عاش عالماً فلاحياً مصغراً، يتسلط عليه التحام الاستغلال الاقطاعي والرأسمالي في شخص واحد. فالرأسمالي كان في الوقت ذاته ملاكاً كبيراً عاتي السطوة. وعلى العموم كانت المصلحة المشتركة في الملكية توحد الطبقتين[٣١]. وقد تجسد ذلك بصور عديدة، كانت إحداها ذات صلة مباشرة بالفتى جمال، وهي صورة دوبييه، الفرنسي اليهودي الذي كان يملك قرية وادي النطرون والدور التي تسكنها العوائل المصرية، ومن بينها عائلة جمال عبد الناصر. وكان دوبييه هذا مستغلاً شرهاً يرفع أجور الدور سنوياً، وبشكل غير متوازن مع الدخول. أما الصورة الثانية التي رسخت في وعي جمال عبد الناصر فهي قصة الفلاح شحاته رجب، التي أشار إليها في كتابه **فلسفة الثورة**، وهي قصة كانت تتكرر باستمرار، فالباشا الاقطاعي كان بإمكانه أن يجبر القائمين بمهام عمدة القرية على خلع أحذيتهم والمشي على الأشواك، فكيف لا يستطيع جلاوزته إجبار شحاته على التخلي عن أرضه ومغادرة القرية[٣٢]. وإلى جانب هذه الصور كانت ثمة صور أخرى رسخت في وجدان الفتى، منها مشاهداته اليومية للفلاحين والرعاة يفترشون الأرض بأسمالهم المهلهلة، ويأكلون الخبز الأسمر الجاف بغير أدام، وبقليل من الملح والجبن القديم والحشائش. وكان يسوؤه جداً أن يرى هؤلاء البؤساء يواصلون أعمالهم في استكانة وخنوع وذلة[٣٣].

كان يتألم وهو يتابع هذه الصور، فترتسم في ذهنه، بالضرورة، علامات استفهام كبيرة لأسئلة لم يجد لها جواباً آنذاك: لماذا نلبس... ويعرى آخرون؟ لماذا

---

(٣٠) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٨ ـ ١٩.

(٣١) ابراهيم عامر، **ثورة مصر القومية** (القاهرة: دار النديم، ١٩٥٦)، ص ٤٣؛
Hedley V. Cooke, *Challenge and Response in the Middle East: The Quest for Prosperity, 1919-1951* (New York: Harper, 1952), p. 54, and Peter Mansfield, *Nasser's Egypt* (Baltimore, MD: Penguin Books, 1965), p. 194.

(٣٢) أبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ١٨.

(٣٣) Cooke, Ibid., pp. 54-55.

يأكل البعض... ويجوع الآخرون؟ لماذا نأكل نحن اللحم... والفلاحون الذين يرعون الماشية لا يأكلون؟[٣٤] وكان والده يجيبه:

ـ هكذا أرادوا لنا يا ولدي... هكذا أرادوا!

ـ من هم الذين أرادوا... هل هناك من تعلو إرادتهم على إرادة الله؟ من هم الذين أرادوا للفلاحين أن يكونوا هكذا... من هم؟![٣٥].

إن هذا الواقع الاجتماعي للقرية المصرية الذي التقطته باصرة جمال ووعيه، انعكس بكل ظلاله وأبعاده على تفكيره، وحفر أخاديده الخاصة في ذهنه، الأمر الذي تجلى، فيما بعد، في تعامله مع القضايا الوطنية والقومية المصرية، وبان، من بين أمور عديدة، في تأكيده على العزة والكرامة، وعلى شعاره الأثير «إرفع رأسك يا أخي، لقد مضى عهد الاستعباد»[٣٦].

ومن المؤكد أن هاجس الاحتلال الاستعماري الذي يلاحقه ويؤرقه قد ترك أثره في تمسك جمال بهذه القيم. فكما يشير زميله عبد الحميد شاهين، فإن الصيغ والممارسات الاستعمارية البريطانية كانت تثير الفتى، كل الإثارة، ويتضح ذلك في تساؤله الدائم عن المعسكرات البريطانية في قريتنا، وعن المفتشين الذين ينقضون كالقراصنة على مكتب البريد الذي يديره والده لينصرفوا وهم يبصقون اشمئزازاً من القرية ومظاهر التخلف الفاجع الذي زرعوه هم وجلاوزتهم من الإقطاعيين والبرجوازيين العقاريين. وكانت قوات الاحتلال البريطانية قد عسكرت في قرية الخطاطبة مرتين[٣٧]، الأولى بدأت عام ١٩١٤ وانتهت عام ١٩٣٠، والثانية بدأت عام ١٩٤٠ وانتهت عام ١٩٤٧، وقد أتاح ذلك لجمال مجابهة القوات الاستعمارية عياناً، وهو بعد في السابعة من عمره. ويؤكد ذلك ثانية، زميله عبد الحميد شاهين، بقوله إن جمالاً كان يصطحبه والزملاء إلى نهاية قرية الخطاطبة ليتأمل المعسكر البريطاني المقام في القرية، ويشهد تحركاتهم ملياً، ويستطرد قائلاً انه فوجىء حين شاهد جمالاً، وقد عاود التأمل ثانية في المعسكرات البريطانية، في عام ١٩٤٦، وبصحبته مجموعة من الضباط، ويضيف، معلقاً، أنه أدرك، حينذاك، ما يدور بذهنه.

---

(٣٤) جورج فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز (بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٠)، ج ١، ص ٤٥.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٥؛ قبيسي وصالح، ص ١٨، و Robert St. John, *The Boss: The Story of Gamal Abdel Nasser* (New York: McGraw, 1960), p. 149.

(٣٦) أبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ١٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٧؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٤٥، ووين، **ناصر العرب، البحث عن الكرامة**، ص ٢٣٩.

وهكذا، فإن الأحداث التي جرت في قرية الخطاطبة كانت واحداً من المنطلقات التي أسهمت في تكوين رؤيته الفكرية الثورية الراديكالية. واضطر الأب لإرساله وقد أشرف على السابعة من عمره، إلى القاهرة، ليكمل دراسته، لعدم وجود مدرسة ابتدائية بمستوى جيد في القرية، إضافة إلى أنه سيعيش في رعاية عمه خليل، الذي التحق بعمله بالقاهرة، موظفاً في وزارة الأوقاف[٣٨].

وعلى رغم القلق المشروع عليه لصغر سنه، إلا أن العائلة باتت متأكدة من توفر الرعاية الخاصة اللازمة[٣٩] له عند عمه خليل الذي كانت علاقته بعبد الناصر وطيدة، لرعاية عبد الناصر له حين تلقى تعليمه بالاسكندرية. وقد التحق، بالفعل، بعمه في العام الدراسي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦، ولم يكن قد بلغ الثامنة. كما تجلت جرأته وقوة شخصيته، منذ تلك السن المبكرة، حين اتخذ مقعده وحده في القطار من قرية الخطاطبة إلى القاهرة[٤٠].

وجد الفتى ما كان ينبغي أن يجده في القاهرة، وهو في أحضان عمه مغموراً بصنوف لا حصر لها من رعايته الخاصة، وأهمها تغذية عالمه الروحي بالتربية الوطنية الثورية. فقد كان مشاركاً في ثورة ١٩١٩، وسجن لقاء هذه المشاركة، الأمر الذي حال دون زواجه. وقد عوض من ذلك بتبنيه محموداً ابن رفيقه الذي استشهد عند المتاريس، أثناء اندلاع الثورة، فأصبح هذا رفيق الفتى جمال[٤١].

التحق جمال بمدرسة النحاسين الابتدائية في شارع النحاسين الضاج بلقط ومعروضات الصناع المهرة ومنتجات إبداعهم الشعبي المتطور صاغة وحدادين ونحاسين وخياطين وهواة ومهرجين. وكان الدراويش يرقصون أمام مسجد الحسين، غير بعيد عن الشارع، أيام الأعياد الشعبية[٤٢]. وكان العم يلهب الحماس الوطني والقومي للفتيين، من خلال حكاياته وتعليقاته على مجريات الأحداث. وثمة تعليق دال ينبغي الإشارة إليه مثلاً لا حصراً، فقد روى الفتيان للعم واقعة دهس عربة انكليزية لفتاة مصرية، وتركها أمام الناس جميعاً تتخبط في دمها، فعلق العم بأن مثل هذا الوضع سيستمر ما دامت الحال هكذا، ولن يكون التغيير إلا بظهور الرجل المنقذ الذي يطرد الإنكليز ويصحح الأمور[٤٣]. وكان العم يؤكد، دوماً، حاجة الأمة إلى بطل، على

(٣٨) أبو النصر، المصدر نفسه، ص ١٨.

(٣٩) أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ٦، وعزيز السيد جاسم، مقتل جمال عبد الناصر، ط ٢ (بغداد: منشورات جريدة العراق، ١٩٨٥)، ص ٧.

(٤٠) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٤١) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧، والسيد جاسم، المصدر نفسه، ص ٧.

(٤٢) قراعة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٥٢.

(٤٣) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٧.

طراز صلاح الدين، يوحد الأمة، ويطهر الأرض من دنس الأجنبي. وهكذا كان تصوره ورؤيته للقيادة التاريخية، وهو أمر ترك دون شك تأثيره البالغ في ذهن جمال بخاصة[٤٤].

وكانت دراسة الفتى جيدة، كما كان الفتى عازفاً عن اللهو واللعب مع الأولاد والأتراب[٤٥]. ولم يفهم (أو لم يرد البعض أن يفهم)، وخصوصاً كتاب السير الغربيون، هذه الحقائق، فزعموا بأن جمالاً كان طفلاً سوداوي المزاج، بل أوغلوا في مزاعمهم إلى حد تفسير إصلاحات القائد جمال عبد الناصر بكونها إجراءات انعكاسية لطفولته العصبية! إنهم لم يفهموا هدوء وصمت الفتى جمال في مدينة كبرى كالقاهرة، ولم يفهموا عزوفه عن اللهو وانصرافه إلى التأمل الحزين منذ بواكير دراسته[٤٦]. ومذ آنذاك بدأ وعيه الطلابي يتبلور باتجاه تفهم مسؤولية الطلبة في التغيير الثوري، وصار يتحين بلوغه السن والمرحلة التي يستطيع فيها المشاركة مع زملائه الطلبة في هذا التغيير[٤٧]، الموضوع الذي نعود إلى تفصيلاته في ثنايا البحث لاحقاً.

وكان من عادته، التي حرص عليها طوال الوقت، مراسلة والديه. وكانت رسائله تحمل همومه ولواعجه وهواجسه في تلك الفترة العصيبة. وتعرضت هذه المراسلة إلى انقطاع اضطراري سبَّب للفتى حزناً وقلقاً[٤٨]، وكان السبب في ذلك وفاة والدته، بعد مرض لازمها اثر ولادة آخر أبنائها، شوقي[٤٩].

وحزن حزناً عميقاً لوفاة والدته التي كان يكن لها احتراماً بالغاً، ويبثها همومه، ويستعين بمشورتها الحكيمة، الأمر الذي أحدث شرخاً في عالمه الروحي، في بواكير حياته، وهو شرخ استطاع القضاء عليه بصبر ودأب وتحمل المزيد من المسؤوليات[٥٠]. وهكذا تحول، منذ مقتبل عمره، مصهوراً ببوتقة الألم والمسؤولية والهموم إلى رجل قبل الأوان، رجل له تفكيره الخاص وشخصيته واستقلاله[٥١].

---

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٧.

(٤٥) قبيسي وصالح، ناصر، **الشهيد الحي**، ص ١٩.

(٤٦) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٩؛ قراءة، **حارس المجد، جمال عبد الناصر**، ص ١٢، وسان جون، **الرئيس**، ص ٣٦.

(٤٧) قراءة، المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٤٨) أبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ٢٠، وقبيسي وصالح، ناصر، **الشهيد الحي**، ص ١٩.

(٤٩) ولد شوقي في ٢١ نيسان/ابريل ١٩٢٦ ليكون الطفل الرابع في أسرة عبد الناصر من السيدة فهيمة الزوجة الأولى.

(٥٠) قبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢١؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٤٦ ـ ٤٧، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٢٠.

(٥١) عز الدين اسماعيل [وآخرون]، **جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٤)، ص ٢٠.

ولم تسعفه الرحلة إلى الاسكندرية، إلى بيت جده لأمه، ولم تخفف عنه مرارة لوعة فقدانه والدته، ولا سيما أن الأجواء البرجوازية التي أطّرت إقامته في بيت جده قد ضايقته[٥٢]. فقرر العودة إلى قرية الخطاطبة ليغادرها إلى بيت عمه بالقاهرة، حيث واصل دراسته حتى صيف عام ١٩٢٨، وحيث كان يجد أجوبة عن أسئلته الاجتماعية والفكرية ـ السياسية[٥٣]. غير أن انتقال عبد الناصر من الخطاطبة إلى السويس، وزواجه للمرة الثانية أدى إلى ابتعاد جمال، لحد ما، عن أسرته[٥٤]. فاضطر والده إلى بعث امرأة من الأسرة، من بني مرّ إلى القاهرة لتقوم برعاية الفتى بعد أن بات ذلك ضرورياً أثناء تغيب عمه خليل في مأمورياته. ومع ذلك فإن جمالاً كان متوتراً أثناء لقاءاته بالأسرة في العطلة الصيفية، حيث كانت زوجة أبيه تعذله عن عدم اهتمامه بوالده[٥٥]، وهو أمر غير عادل، فقد كان الفتى يحب والده، وقد انعكس ذلك في شهادة له، فيما بعد قال فيها «إن عبد الناصر كان رب أسرة لا تشوبه شائبة». وبعد نقل والده إلى الاسكندرية، مرة أخرى، انتقل الفتى إلى مدرسة «رأس التين الثانوية» الكائنة على مقربة من قصر الملك[٥٦].

وكان جمال من الطلبة المتميزين في هذه المدرسة اجتهاداً، والتزاماً، وانضباطاً. وقد ساعده تأمله وهدوؤه في دراسة ما حوله، في تلك الفترة، دراسة عميقة. ولهذا كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته تأسيساً فكرياً. فقد كانت البداية الأولى لتكوين الفكر الناصري. ففي هذه المرحلة بالذات فتح عينيه على العمل السياسي متعاطفاً ومشاركاً، الأمر الذي كان له دوره البالغ في صقل أفكاره[٥٧].

٢ ـ بدايات تكوّن نواة الفكر الناصري

يمكن تحديد البدايات الأولى لطلائع الوعي القومي لتشكل ما يمكن تسميته «إرهاصات الفكر الناصري» الجنينية غير الواضحة ـ أي فكر جمال عبد الناصر القومي، الثوري، الوحدوي، التحرري، كما سيتبلور فيما بعد ـ حين كان طالباً في المراحل المبكرة من دراسته. ففي هذه الحقبة الزمنية المبكرة ارتسمت الخطوط الفكرية

---

(٥٢) أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ٩، وعطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ٣٣.

(٥٣) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٩.

(٥٤) فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٤٩.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٤٩، وأجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٠.

(٥٦) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٠.

(٥٧) راشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ١٠، وقراعة، **حارس المجد، جمال عبد الناصر**، ص ٥٧.

لوعي جمال عبد الناصر القومي، وذلك من خلال تفاعل المقومات التالية:

أ ـ الأجواء السياسية المختلفة والأحداث العديدة التي أسهمت في كشف التناقضات الاجتماعية الأساسية، وبخاصة الاستغلال الإقطاعي ـ الرأسمالي الزراعي المدعوم من قبل السراي والمستعمرين الإنكليز للفلاحين المصريين وأبناء الريف عموماً.

ب ـ القيم الاجتماعية الموروثة التي كان لها دورها الكبير في بلورة الوعي بالدور التاريخي للتراث الكفاحي وفكر المقاومة، على الصعيد النظري، والفولكلوي، والسيكولوجي[٥٨]. فحين كانت الطائرات الإنكليزية تغير على مصر، انطلقت الأهزوجة الشعبية تهتف «يا ربنا يا عزيز... داهية تاخذ الانكليز» وأدرك الفتى مذ آنذاك أنها امتداد لصيغ الرفض الشعبي المتواصل للطغاة والغزاة منذ عهد المماليك، حيث كان الهتاف الشعبي المعبّر يدوي «يا ربنا يا متجلّي... إهلك العثمللّي».

ومذ آنذاك بدأ يظهر في وعي الفتى الطموح طيف الشخصيات التي أسهمت إسهامها الفاعل الأساسي في توحيد أممها، وتحرير شعوبها[٥٩]، وهو يقول في ذلك: «أذكر أنني أعجبت في طفولتي بعدد كبير من الأبطال. أعجبني غاندي كثيراً. وعندما كنت صبياً أتلقى دروس الدين في المدرسة استحوذ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على كل إعجابي وتقديري، فقد كان قائداً وزعيماً كرّس حياته لخدمة قومه، وتحريرهم من ظلمة الجاهلية وضلالها»[٦٠].

لقد عمق عطاء الخالدين في ذاته الطريق الذي ينتهجه، والرسالة التي كان يرنو إليها، وهذا ما أوضحه في كتابه **فلسفة الثورة**، حينما أوضح الترابط الجدلي بين الحلقات الرئيسية الثلاث: المكان، والزمان، والأداة.

ج ـ النهوض القومي المتصاعد، الذي أجج النزعات الوطنية والقومية، والذي كان له دوره الكبير في التعجيل بالثورة. فقد فجرت التظاهرات والاحتجاجات القومية، ومشاركاته الفعالة فيها، وبخاصة منها ما يتعلق بالقضية الفلسطينية أحاسيسه الوطنية والقومية. وهو يشير إلى ذلك بالقول: «... وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية، أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد

---

(٥٨) مارلين نصر، **التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠: دراسة في علم المفردات والدلالة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١)، ص ٨٧.

(٥٩) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر في ١٩٦٦/١٢/٢٣،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ٤ ج (بيروت: الجامعة، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦)، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٦٩، و**الأهرام**، ١٩٦٦/١٢/٢٤.

(٦٠) نقلاً عن: الجندي، **هذا هو جمال**، ص ٢٠ ـ ٢١.

بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين اغتصبته من أصحابه الشرعيين»[٦١].

لقد أثارت الهيمنة الأجنبية سخط العرب وغضبهم مما ألحقته بهم من ضعف ومهانة، ولذلك تكاتفوا وانطلقوا ينشدون الوحدة للخلاص من الاستعمار. وإلى ذلك يشير جمال عبد الناصر بقوله: «دي الوحدة اللي طلعنا عليها واحنا صغيرين، وكانت مداركنا محدودة وبنمشي في الشوارع ونقول: تحيا الوحدة، يسقط وعد بلفور، تسقط فرنسا... أيام ما كانوا بيضربوا دمشق وبيضربوا بيروت... وأيام ما كانوا بيضربوا سوريا وبيضربوا لبنان، كنا لسه في المدارس الثانوي أو في الابتدائي بنطلع ونقول: تحيا الوحدة العربية، تسقط بريطانيا، أيام الثورات اللي كانت بتحصل في فلسطين..»[٦٢].

٣ ـ بدايات العمل السياسي

دخل جمال عبد الناصر، الشاب، ميدان العمل السياسي باشتراكه في مظاهرة جماهيرية معادية للانكليز تنادي بسقوط الاستعمار والخونة، وتهتف بعزة وشموخ مصر والأمة العربية: «يحيا الدستور، تحيا مصر، تحيا الأمة العربية». وقد تعرضت المظاهرة للقمع الدموي على يد رجال الشرطة وقتذاك. وقد جرح جمال وزج به في المعتقل[٦٣]. وفي المعتقل فهم أن منظمي المظاهرة هم أعضاء حزب «مصر الفتاة». وكانت المظاهرة رداً على إجراءات اسماعيل صدقي، رئيس الوزراء آنذاك، في استصداره المرسوم الملكي رقم (٧٠) بإلغاء الدستور وحل البرلمان، والحكم بالقرارات الإدارية، والأمر بسن دستور جديد أقل ديمقراطية. فعم السخط الشعبي والحزبي الوطني الصحافة، وانطلقت التظاهرات في شوارع القاهرة والاسكندرية والأقاليم، وسقط كثير من الشهداء برصاص الإنكليز[٦٤].

وكان لهذه المظاهرة وقعها وتأثيرها الكبير على وجدان جمال. فقد اعتبر الجراح التي أصيب بها وسام شرف بين رفاقه الطلبة، وظل فخوراً بها شاهداً بليغاً على بواكير

---

(٦١) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ٤٢.

(٦٢) «من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر التعاوني في ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٨،» في: جمال عبد الناصر، **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر**، ج ١ ـ ٥ (القاهرة: مصلحة الاستعلامات، [د. ت.])، ص ٤٧.

(٦٣) فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٥٥؛ أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ١١، وراشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ١٢ ـ ١٣.

(٦٤) توفيق الشمالي، **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر** (القاهرة: الشركة التعاونية للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ص ٥٩.

نضاله الثوري واصطدامه الأول بالسلطة. وبالفعل، فإن تلك الجراح كانت جزءاً من التربية السياسية التي تربى بها جمال[65]. وقد حزن أشد الحزن لانحراف بعض ثوار ثورة ١٩١٩ وتحولهم إلى جانب المستعمر البريطاني. ونتيجة الموقف الثوري المنحاز للشعب[66]، والمشاركة في مظاهرات الشعب وما تبع ذلك من إصابة واعتقال، غضب عبد الناصر من ابنه جمال، واستكثر عليه دخوله مضمار السياسة بسن مبكرة[67]، فصار يتابعه بشكل دقيق، بعد أن توسط لإخراجه من معتقله بكفالته ومسؤوليته[68]. وحاول، بكل الوسائل، إبعاده عن معترك السياسة، فنقله من مدرسة رأس التين الثانوية، حيث شارك هو وزملاؤه في التظاهرة، إلى مدرسة الفريدية التي أمضى فيها عامين فقط، نظراً لنقل والده إلى القاهرة في عام ١٩٣٣.

من هنا يمكن القول إن أفكار جمال عبد الناصر الثورية تبلورت في فترة دراسته في الاسكندرية طالباً في المرحلة الثانوية، حيث شارك في الفعاليات السياسية واطلع على برامج الأحزاب السياسية[69].

انتقل جمال برفقة الأسرة إلى القاهرة، بعد نقل والده وترقيته إلى وظيفة رئيس مكتب «الخرنفيش» في حي باب الشعرية، والذي يغص بالأسواق والمتاجر والحرفيين وكثافة السكان. والتحق بمدرسة النهضة الثانوية في حي الظاهر بالقاهرة في العام ١٩٣٣، حيث أنهى دراسته الثانوية، واجتاز امتحان «البكالوريا» بتفوق[70].

وفي تلك الفترة من حياته بدأ توجهه نحو السياسة والعمل بشكل جاد، فقد اشتد وعيه بالظلم والمعاناة التي يعانيها الشعب المصري، والأمة العربية عموماً، تحت

---

(٦٥) للتوسع، انظر: جلال يحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢** (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ١٤٧ ـ ١٦٨؛ هدى جمال عبد الناصر، **الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢** (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٥٠؛ أبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ٢٣، و John A. DeNovo, *American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1964), p. 368.

(٦٦) فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٥٦ ـ ٥٧، وون، **ناصر العرب، البحث عن الكرامة**، ص ٢٦.

(٦٧) راشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ١٢.

(٦٨) اسماعيل [وآخرون]، **جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة**، ص ٣٣، وفوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧.

(٦٩) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٢١.

(٧٠) اسماعيل [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٣٢؛ أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ١٢؛ أحمد فارس، «رؤية عبد الناصر للنظام الإقليمي العربي، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥،» في: سعد الدين ابراهيم [وآخرون]، **مصر والعروبة وثورة يوليو**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢)، ص ٢٠٠، و P. J. Vatikiotis, *Nasser and His Generation* (London: Croom Helm, 1978), p. 52.

النير الامبريالي الغربي وجلاوزته المحتلين[٧١]، فانضم إلى جمعية «مصر الفتاة» ذات النزوع الوطني والقومي المتحرر. وكانت هذه الجمعية قد تأسست في ٢١ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٣ على يد أحمد حسين. وما لبثت أن تحولت إلى حزب «مصر الفتاة» في عام ١٩٣٧، وإلى «الحزب الوطني الإسلامي» في عام ١٩٤٠، ثم عادت لتسمية «مصر الفتاة» وظلت على تلك الحال حتى عام ١٩٤٩، عندما تغير الاسم إلى «حزب مصر الاشتراكي» الذي ذاعت شهرته باسم «الحزب الاشتراكي». وكانت برامج هذه المنظمة السياسية (على مختلف تسمياتها) أقوى البرامج السياسية قبل الثورة، وخصوصاً فيما يتعلق بدور مصر العربي، وعروبة مصر عموماً. فقد تضمن برنامجها، لعام ١٩٣٣، الدعوة لأن تصبح «مصر فوق الجميع امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان، وتحالف الدول العربية، وتتزعم الإسلام، وأنه لا بد من قوة لتحرير بلاد العرب والمسلمين من الاستعمار». وقد جاء تحول «مصر الفتاة» من جمعية إلى حزب سياسي، في عام ١٩٣٧، لتكون أول حزب سياسي مصري ينص في برنامجه على فكرة العروبة. ثم جاء برنامج عام ١٩٤٨، فكان أكثر نضجاً ووضوحاً، حيث ورد فيه «ان غاية الحزب هي أن تكون مصر دولة عظمى تتألف من مصر والسودان حتى أقصى منابع النيل، وتتحالف مع الدول العربية لتشكل دولة عربية متحدة تتزعم الإسلام، وتقود العالمين نحو السلام. وإن الواجب التاريخي المفروض على مصر تجاه البلاد العربية هو تحريرها كلها من كل قيد يمس سيادتها. وندعو لمواصلة الكفاح حتى تتطهر فلسطين وشرق الأردن والعراق وليبيا وتونس والجزائر ومراكش والمحميات السبع من الاستعمار الأجنبي، ودخول هذه الدول في الجامعة العربية، ثم العمل على توحيدها بإزالة الحواجز الكمركية وتوحيد الجنسية والمساواة في الحقوق والواجبات بالنسبة للعرب في الأقسام العربية، وتأليف جيش واحد، وانتهاج سياسة خارجية يشرف على توجيهها مجلس أعلى يضم بالتساوي عدداً من المندوبين عن سائر البلدان العربية». وتأكدت هذه المعاني بدرجة أوضح في برنامج مصر الفتاة ـ الحزب الاشتراكي في عام ١٩٤٩، حيث جاء فيه أن الحزب «يعمل على توحيد الشعوب العربية كلها في ظل دولة واحدة يطلق عليها اسم الولايات العربية المتحدة، حيث يحتفظ كل شخص عربي في ولايته بشخصيته وطابعه واستقلاله بشؤونه الداخلية»[٧٢].

---

(٧١) اسماعيل [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٣٠؛ علي الدين هلال، **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢** (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٧٧)، ص ٢٢؛ أوليج كوفتوفيتش، «مولد زعيم،» نقلاً عن كتاب: **ثورة الضباط الأحرار، المقتطف، عبد الناصر في ذكرى مولده**، مجموعة من المؤلفين (القاهرة: دار صوت العرب للثقافة والإعلام، ١٩٩٣)، ص ٤٤، وناتنج، ناصر، ص ٣٩.

(٧٢) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ٥٨ ـ ٧٧؛ إمام، **حكايات عن عبد الناصر**، ص ١٢ ـ ١٣، وهلال، **السياسة والحكم في مصر، العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**، ص ٢٢٠.

أما مؤسس هذه الجمعية فكان أحمد حسين الذي أشغل مكانةً رفيعة في فكر جمال عبد الناصر، فقد اعتبره أستاذه الذي قاده إلى عالم السياسة[٧٣]، وقال فيه «انه لو لم يكن أحمد حسين لما كان جمال»[٧٤]. والحق أن أحمد حسين كان، باعتراف معاصريه، سياسياً محنكاً، وخطيباً مفوهاً، كرس حياته مناضلاً من خلال الإطار الفكري الذي طرحه للخلاص من السيطرة الأجنبية، بكل صنوفها ومستوياتها، على مصر والأمة العربية. ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى ان البعض وَصَفَ أحمد حسين بالمتلوّن بسبب التغيرات العديدة في التسمية التي خلعها على منظمته، بل ان هذا البعض شكك في علاقته بجمال عبد الناصر. ويُرد على كل هذه التحفظات بالإشارة إلى جملة حقائق لا ينبغي تجاوزها، في تحديد مقومات الإطار الفكري للناصرية، ومنها اعتزاز جمال عبد الناصر بأحمد حسين ومكانته الكبيرة لديه، وتأثر جمال في مطلع شبابه وبدايات تبلور فكره السياسي بمصر الفتاة وأحمد حسين بحيث ذهب إلى حد القول إن أحمد حسين وفكره أولدا جمالاً وفكره كما أسلفنا. وأكثر من ذلك، فإن علاقة جمال بأحمد حسين ظلت وثيقة بعد الثورة[٧٥]، فمن الثابت أن جمال عبد الناصر عرض على أحمد حسين تولي منصب رئاسة الجمهورية، إلا أنه اعتذر بكبر سنه وبحجم المسؤوليات الكبيرة التي يقتضيها هذا المنصب، وبإيمانه بضرورة فتح المجال بأوسع ما يمكن للقدرات الشبابية الثورية في إدارة شؤون البلاد[٧٦]. ومن المفيد أن نشير إلى أن د. مصطفى الوكيل كان يُشغل منصب نائب الرئيس في قيادة حزب «مصر الفتاة»، وكان بدوره شخصية قومية ذات نزوع عروبي قومي[٧٧]، وقد زار العراق أيام انتفاضة مايس (أيار/مايو)، وألقى خطاباً حماسياً من إذاعة بغداد بعنوان «بغداد قودي وسودي»[٧٨].

لقد بدأت رحلة جمال عبد الناصر السياسية بالانضمام إلى جمعية «مصر الفتاة»

---

(٧٣) طارق البشري، «مصر في إطار الحركة العربية،» في: ابراهيم [وآخرون]، **مصر والعروبة وثورة يوليو**، ص ٣٥؛ محمود علي حسن السوداني، **جمال عبد الناصر بين خصوم وأنصار** (القاهرة: المطبعة الكمالية، ١٩٧٧)، ص ٩، و Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, p. 83.

(٧٤) انظر كلمته في منظمة الشباب الاشتراكي بحلوان بتاريخ ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٥، في: عبد الناصر، **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر**، القسم ٤، ص ٤٤٢.

(٧٥) أحمد حسين، **كيف عرفتُ عبد الناصر وعشت أيام حكمه** (القاهرة: دار الأحرار، ١٩٧٣)، ص ١١ ـ ١٠١.

(٧٦) فارس، «رؤية عبد الناصر للنظام الإقليمي العربي، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥،» ص ٢٠٠.

(٧٧) أحمد حسين، **نصف قرن مع العروبة وقضية فلسطين** (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧١)، ص ٧٠ ـ ٧٤.

(٧٨) سمير عبد الرسول عبد الله العبيدي، «محمد صديق شنشل ودوره السياسي في العراق حتى عام ١٩٥٩،» (رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٢)، ص ٥١ ـ ٥٢.

في الصف الثالث ثانوي. وقد أشار جمال إلى ذلك بالقول انه منذ «الثالث ثانوي» اشتغل بالسياسة، وقد حبس مرتين، وان انضمامه إلى جمعية «مصر الفتاة» تم بعد قمع رجال الشرطة المصرية لمظاهرة الجمعية التي كان أحمد حسين يخطب فيها، ومشاركة جمال في هذه المظاهرة واعتقاله بسبب ذلك[٧٩].

وكان لهذه الجمعية تأثيرها الكبير في الشبيبة التي أصابها جمود الأحزاب التقليدية بالإحباط البالغ، بينما جسدت «مصر الفتاة» الرؤية العربية متجاوزة الأطر التقليدية الضيقة، فكانت واسعة الجماهيرية جراء ذلك، بل ان شبيبة الجمعية، أصحاب القمصان الخضر، كانت من القوة والنفوذ بحيث ان حزب الوفد اضطر لتشكيل منظمته الشبابية «القمصان الزرق» لاستقطاب جماهير الشبيبة، والتقليل من نفوذ الجمعية. وبالطبع، فإن الحقيقة لا تكمن في القمصان بقدر ما تكمن في الشمولية السياسية لخطاب الجمعية الذي كان يمثل الهموم الوطنية والقومية معاً. وإلى ذلك يشير جمال عبد الناصر في احدى خطبه بالقول «كنت أبحث عن العزة القومية وذهبت إلى مصر الفتاة»[٨٠]. ومن الثابت أن جمال عبد الناصر قد مارس نشاطاً سياسياً متميزاً، أثناء انخراطه في تنظيم «مصر الفتاة». وقد اعترف، غير مرة، بذلك، قائلاً: «لقد انضممت مدة عامين بعد مظاهرة الاسكندرية إلى جماعة مصر الفتاة»[٨١]. وقد نشرت جريدة **الجمهورية** (القاهرية) في ٧ آب/أغسطس ١٩٧٥ صورةً له بالزي الخاص لفرق القمصان الخضر التابعة للجمعية. وكان من أبرز نشاطاته، خلال فترة انضمامه إلى الجمعية، توزيعه صحيفة **الصرخة** ، لسان حال الجمعية[٨٢].

لقد كانت حياة جمال عبد الناصر في مدرسة النهضة نقطة تحول في البناء الفكري ـ السياسي لشخصيته القيادية. فقد استطاع، بفضل ثقافته السياسية والصيغ التنظيمية التي اعتمدها، أن يعزز قدراته القيادية لاستقطاب الجماهير الطلابية، من

---

(٧٩) انظر كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في منظمة الشباب الاشتراكي بحلوان، بتاريخ ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٥، في: عبد الناصر، **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر**، ص ٤٤٢ وانظر أيضاً حديثه إلى ديفيد مورغان، مندوب صحيفة الـ *Sunday Times* في حزيران/يونيو ١٩٦٢، في: المصدر نفسه، ص ١١٠، و Richard Hrair Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics* (Albany, NY: State University of New York Press, 1971), p. 20.

(٨٠) يحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢**، ص ١٧٧؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٨٥؛ وين، **ناصر العرب، البحث عن الكرامة**، ص ٢٩، و: Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World,* p. 83.

(٨١) انظر حديث جمال عبد الناصر إلى ديفيد مورغان، مندوب صحيفة الـ *Sunday Times* في حزيران/يونيو ١٩٦٢، في: عبد الناصر، المصدر نفسه، القسم ٤، ص ١١٠.

(٨٢) محمد حسنين هيكل، **عبد الناصر والعالم** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٢)، ص ٤١؛ فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٥، و Lacouture, Ibid., p. 31.

خلال ممارسته مسؤوليته رئيساً للجنة التنفيذية بالقاهرة، ومندوباً للجنة طلبة المدارس الثانوية، بالإضافة إلى المسؤولية التنظيمية حينما كان مسؤول الحلقات السياسية. وكان واسع النشاط، يعقد الاجتماعات في ساحة المدرسة، أو يدعو زملاءه إلى بيته في شارع خميس العدس، أو حديقة مسجد الظاهر، أو حديقة مسجد سيد الشعراوي ليشرح لهم أبعاد السياسة المصرية والعربية، محدداً مسؤوليتهم التاريخية[٨٣].

إن هذه التجربة الحزبية قد أدت دوراً كبيراً في صقل بناء جمال عبد الناصر الفكري، لأنها هيأت الأجواء اللازمة لاحتكاكه المباشر، ومتابعته الميدانية للحركات والأحزاب السياسية حين كان يؤم بيوت زعمائها، على رأس وفود الطلبة، مطالباً إياهم الاتحاد من أجل مصر[٨٤]. وكانت لقراءاته التاريخية ـ السياسية دورها البالغ في تحفيز ملكاته القيادية. فقد اتجه إلى قراءة سير العظماء ورواد وحدة شعوبهم، وبخاصة سيرة بسمارك رجل الوحدة الألمانية، وسيرة غاريبالدي رجل الوحدة الإيطالية، ووقف طويلاً عند سير رواد الفلسفة الغربية في عصر النهضة وما بعده، وتعمق في دراسة التاريخ العربي وسير رجاله العظام، وظل يتأمل واقع الأمة العربية ويتدارس تراثها ويتفهم ويستوعب روحها من خلال رحلته الفكرية ـ الثقافية الطويلة، والأجواء النضالية التي عاشها[٨٥].

ويُجمع مؤرّخو سيرة جمال عبد الناصر على أنه كان قارئاً نهماً، شغوفاً بالمطالعة منذ سن الخامسة عشرة. فقد قرأ جميع الكتب التي ضمتها مكتبة مدرسة النهضة، آنذاك، بل كان يستعير الكتب حتى من أساتذته ـ أحمد حسنين القرني، وموسى الحميدي، ونجيب ابراهيم وغيرهم، وكان يحاول استيعاب مضامينها.

من المفيد أن نشير هنا إلى أن جمال عبد الناصر اعترف في رسالة كتبها، وهو رئيس الجمهورية، بفضل استاذه أحمد حسنين القرني الذي درسه مادة اللغة العربية لمدة سنة بمدرسة النهضة، وأشار إلى أهمية الدور الذي أداه في إنماء وصقل الحس القومي لديه من خلال توجيهه لدراسة الكتب التي تمجد الأمة العربية، وتدعو إلى العدالة الاجتماعية، وأبرزها كتب مصطفى كامل وعبد الرحمن الكواكبي[٨٦].

تأسيساً على ما تقدّم، يمكن الخروج باستنتاج يفيد أن الكتب التي قرأها جمال في الحقبة من تثقيفه الذاتي (مرحلة الدراسة الثانوية ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦) تنتظم في ثلاث مجموعات:

---

(٨٣) هيكل، المصدر نفسه، ص ٤١، وفوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٦.

(٨٤) قراعة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٦٤، والجندي، هذا هو جمال، ص ٢١.

(٨٥) اسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة، ص ٢٤.

(٨٦) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ٣٦؛ هيكل، عبد الناصر والعالم، ص ٤٤، والجندي، المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

المجموعة الأولى: مجموعة كتب وسير تاريخية ذات طابع سياسي لمؤرخين ومفكّرين عرب كان لهم دورهم الكبير في إغناء التاريخ العربي والإسلامي، مثل كتب مصطفى كامل ومقالاته التي تترجم نضاله السياسي، وبخاصة كتاب **المدافعون عن الإسلام**، وهو كتاب، كان قد نشره وقدمه مصطفى كامل بهدف تذكير الشعب المصري بماضيه العريق، والدعوة إلى استلهام التراث العربي الإسلامي. ومن مجموعة هذه الكتب أيضاً، كتابا عبد الرحمن الكواكبي **أم القرى** و**طبائع الاستبداد**، وكتب أحمد أمين عن زعماء الاصلاح في العصر الحديث (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده)، وكتاب علي الغاياتي **وطنيتي**[(٨٧)].

المجموعة الثانية: مجموعة كتب وسير تاريخية لمفكرين وكتّاب غربيين ذات طابع ومضمون سياسي. وكان استاذه احمد حسنين القرني قد ساعده، هنا، أيضاً، فأشار عليه بقراءة كتب وسير أحرار فرنسا الكبار والمفكرين الذين أعدّوا للثورة الفرنسية، وأبرزهم فولتير وروسو. وصادف ذلك هوى في نفسه، فقد كان بالغ الإعجاب بفولتير، الذي كان قد كتب فيه مقالة منذ كان طالباً في السنة الرابعة من الفرع الأدبي الثانوي ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ونشرها في مجلة مدرسة النهضة التي كان يرأس تحريرها، وأبرز فيها إعجابه بصفات فولتير، ولا سيما ثورته ضدّ الفساد في الحكم والروتين والمنحرفين من رجال الدين والكنيسة. وجاء فيها كثير من الجمل والعبارات والمقولات الدّالة، أمثال:

ـ «لقد كافح هذا المفكّر طويلاً كي يبقى دائماً مفكراً حراً من كل قيد».

ـ «إن روسو وفولتير اللذين أعدّا إعداداً كافياً ثورة ١٧٨٩، يأتيان في طليعة قادة القرن الثامن عشر».

وحينما سُئل عمّن حاز إعجابه من السياسيين الفرنسيين: دانتون أم روبسبيير، أجاب بما يمكن أن يُستَشفّ منه نزوعه السياسي في المستقبل قائداً للثورة، فقد قال: في الواقع لا هذا ولا ذاك، لقد أعجبني فولتير لأنه كان هادئاً ولم يلجأ إلى استخدام القسوة والعنف كبقية الزعماء الذين اعتادوا على القتل وسفك الدماء. وعلى العموم، كان إعجاب جمال عبد الناصر بفولتير كبيراً، كما أنه تأثر بعمق بآراء روسو[(٨٨)]. ولم يكتف جمال بهذا، بل تناول دراسة سير نابليون بونابرت، والمهاتما غاندي، والاسكندر الكبير، ويوليوس قيصر. ومن شدة إعجابه بشخصية يوليوس قيصر انبرى، في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٣٥ لأداء دور قيصر في الحفلة السنوية التي أقامتها مدرسة النهضة على مسرح (برنتانيا) ورعاها وزير التعليم العالي، نجيب الهلالي، وقتها.

---

(٨٧) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦١.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٦٤.

وحين كان جمال يطالع سير تلك الشخصيات كان يتأمل ويبحث كشاب يتطلّع الى بناء الحياة بشكل أفضل. وكان يستقصي، مذ آنذاك، أفضل الحلول لبناء مجتمع جديد بمنظور جديد[٨٩]. وتضاف إلى هذه القراءات الدّالة، قراءته رواية **البؤساء** لفكتور هيغو، بترجمة الشاعر حافظ ابراهيم، ورواية تشارلز ديكنز **قصة مدينتين** ، التي تدور وقائعها بين باريس ولندن، في عام ١٧٩٣. وكان لهذه القصة بالذات تأثيرها البالغ في أعماق جمال، حينما خرج منها باستنتاج يؤكّد أهمية إنهاء صورة القسوة والبشاعة وأعمال العنف والإرهاب، كما يؤكّد أن السياسة الفضلى هي التي تتجنّب إراقة الدماء. وهذا ما سيحرص، فيما بعد، على إرسائه في البناء السياسي للدولة. وأشار إلى ذلك بالقول «لقد علّمتني هذه القصّة شيئاً ـ أننا، إذا شرعنا في القتل وإراقة الدماء فإنه سيكون من الصعب حقن الدماء»[٩٠].

المجموعة الثالثة: مجموعة كتب أدبية في الشعر والرواية والتراجم. فقد كان مُعجَباً بأشعار أحمد شوقي وحافظ ابراهيم، وقرأ باهتمام كتب عباس محمود العقّاد وطه حسين، وأُعجب كثيراً بقصّة **المعذّبون في الأرض** لطه حسين وبعصاميّته وكفاحه. وبالمثل، كان إعجابه واهتمامه كبيراً بإبداع توفيق الحكيم، كاتبه المفضّل[٩١].

لقد كان جمال عبد الناصر يهوى المطالعة الواسعة، ولذلك اعتمد برنامجاً في تبادل الكتب مع أصدقائه، إعارةً واستعارة. وهذا ما أكّده صديقه الشخصي وزميله حسن النشّار بقوله: «كان جمال يشتري كتب توفيق الحكيم، وبعد أن يقرأها يعطيها لي، وأشتري كتب العقّاد ثم أعطيها له ليقرأها، حتى استقرّت كتب توفيق الحكيم عندي واستقرّت كتب العقّاد لديه. وما زلت حتى الآن أحتفظ بكل كتبه»[٩٢]. كان يهوى القراءة ويواليها بشكل متواصل، ولا سيّما فيما يتعلّق بالمفكّرين والكتّاب، وكما ذكرنا كان إعجابه بتوفيق الحكيم، بخاصّة، عظيماً[٩٣]، لأن توفيق الحكيم مثّل الرؤية العاطفية والواقعية والانتقادية، عبر رواياته ومسرحياته، مثل رواية **يوميّات نائب في**

(٨٩) قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٢٦؛ المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥؛ إمام، **حكايات عن عبد الناصر**، ص ١٤، ومزيد عبد العزيز الظاهر، «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية،» (رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، ١٩٨٢)، ص ١٢٧.

(٩٠) نقلاً عن: فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥.

(٩١) حظي توفيق الحكيم بمكانة رفيعة في قراءات جمال عبد الناصر ومتابعاته الأدبية عموماً، وكان الحكيم أول من منح من رجال الأدب وشاح النيل، بعد أن كان وقفاً على رجال السياسة من الدرجة الأولى. للتوسع انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٧١.

(٩٢) قبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.

الأرياف التي انتقد فيها الإدارة المحلية في الريف، ومسرحياته **شهرزاد**، **وأهل الكهف وبجماليون**، التي مُثّل بعضها في سالزبورغ وباريس. أما رواية **عودة الروح** فقد حظيت بأقصى اهتمام جمال عبد الناصر[٩٤]. فقد كان مضمونها الواقعي الانتقادي قد ترك أعمق الأثر في وجدانه، وترسّخ من خلال الموضوعات التي أثارها: الواقع الذليل المرّ، التراث العظيم الخالد، ضرورة ظهور زعيم للمصريين يستطيع توحيد صفوفهم وقيادتهم في النضال من أجل الحرية والوحدة القومية[٩٥].

استهوت جمالاً فكرة الزعيم الشعبي المنقذ، البطل الظافر العادل المعبود، أو حسبما يصفه توفيق الحكيم في الرواية «الكلّ في واحد»، وهيمنت على مشاعره، وقرّبت توفيق الحكيم من نفسه، باعتباره مبدع الفكرة التي سيحاول جمال تحقيقها، فيما بعد، وعند انتصار الثورة. وللمزيد من التدقيق والتوثيق نشير إلى ما كتبه زميل جمال القديم، حسن النشار، بخصوص زمالتهما الثقافية في مشروع التثقيف الذاتي، فقد قال (استطراداً، وتكملةً لما أسلفنا الإشارة إليه بخصوص تبادل الكتب):
«. . . كان جمال يضع خطوطاً تحت العبارات التي تثير في نفسه كوامن معيّنة، أو تلك التي تستحق وقفة التأمّل والتفكير، ومن الحوادث التي استوقفته ووضع خطوطاً غليظة تحتها، ذلك الحوار الذي يطرح فكرة البطل المنقذ، والذي دار بين عالم الآثار الفرنسي السيد فوكيه ومهندس الري الإنكليزي السيد بلاك»[٩٦].

وإلى جانب هذه المؤلّفات وأمثالها، كان جمال الفتى يلتهم كل ما تكتبه الصحف الوطنية الوفدية، والصحف ذات الميول الاشتراكية. ويُلاحظ على هذه القراءات أنها تكاد تكون مخطّطة، وقد هدفت إلى فهم الحياة ودراسة المجتمع[٩٧]. كما يُلاحظ عليها أنها لم تكن قراءة عشوائية، بل كانت تستجيب لرغبات دفينة في نفس الفتى، الذي بدأ، خلال هذه الفترة، يعيش أول تجاربه الحزبية، لذا غلب الطابع السياسي التحريضي الثوري على هذه القراءات، وقد طغى هذا الطابع حتى على قراءاته الأدبية.

ويرى فوشيه، بحقّ، أن هذه القراءات المبكرة هي التي غرست في أعماقه «حب الأعمال المجيدة، وألهَبَت فيه الروح الوطنية، وبَلورت في ذهنه فكرة الالتحاق بالكلية الحربية ليكون واحداً من الذين يسهمون في إغناء الحياة العربية»[٩٨]. وإذا كان

---

(٩٤) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧١.

(٩٥) راشد، جامع، **حكاية كفاح ضد الاستعمار**، ص ٧.

(٩٦) حسن النشار، «ذكرياتي عن عبد الناصر،» **صباح الخير** (القاهرة) (١ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٠)، ص ١٩.

(٩٧) فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٦٤.

(٩٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩.

ذلك صحيحاً على صعيد الجانب الفكري، فإن جمالاً، على صعيد النضال السياسي، كان يراقب الحياة السياسية في مصر، ويُعاين الاهتزاز السياسي والمشاكل التي خلقها الاستعمار الطويل، ويرى أولئك النهّازين المتصارعين فوق جثث ضحايا وشهداء الشعب المصري، لذلك انبرى للقيام بدوره الطليعي في قيادة الجماهير الطلابية. ففي هذا الظرف التاريخي أدرك الفتى جمال عبد الناصر، وجعل يميّز: من هم أصحاب الكلمة العليا في الوطن، ومن هم الحاكمون الذين يكمّمون الأفواه ويقمعون معارضة الشعب، لذلك تملّكته روح الثورة، فعمل على توسيع دائرة عمله النضالي، محرّضاً على الثورة، وكان في ذلك قيادياً مؤثراً، مقنعاً[٩٩]. ولذلك يبدو مبرّراً تماماً أن توصف تلك المرحلة من عمر جمال عبد الناصر بأنها مرحلة تحوّله من متظاهر إلى ثائر[١٠٠].

لقد استطاع الثائر الشاب أن يحرز شعبيةً بالغة بين زملائه الطلبة لمبدئيته العميقة والتزامه الثوري، وبات «قدوة للذين كان يجد آذاناً صاغية عندهم»[١٠١]. وقد سحر زملاءه باندفاعه المخلص وحماسه الثوري واقتحاميّته وتضحيته، وبرغم جميع النصائح بوجوب التفرّغ للدراسة كان يؤكّد أن مصر فوق كل شيء، وانه يكفّ عن كل شيء إلا السياسة، فهي الطريق المعتمد لديه إلى تحرير مصر وإسعاد شعبها وتحرير الأمة العربية أيضاً. وكان أساتذته ومدير المدرسة يعذلونه بسبب فرط حماسه، بل ان المدير منعه عن عقد الحلقات السياسية للطلبة في حرم المدرسة، فنَقلها إلى بيته في حارة خميس العدس، أو إلى الحدائق العامة، او إلى مسجد الشعراوي، حيث كان يُطلِعُهم على حقيقة الأوضاع السياسية، وما ينبغي عمله من أجل التغيير الثوري المطلوب[١٠٢].

وكانت الفترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ فترة عصيبة جداً، فقد كانت المعركة محتدمة فيها بين الشعب المتمسّك بحقوقه من ناحية، وبين الملك والمستعمرين الإنكليز من ناحية أخرى، كما كانت البلاد تعاني أزمة اقتصادية خانقة، وخلافات مستحكمة بين الأحزاب عملت على تشتّت الوحدة الوطنية. ولذلك وُصفت تلك الفترة بأنها إحدى الفترات السود في تاريخ الحياة المصرية. فبعد اسماعيل صدقي جاء عبد الفتاح يحيى، وتلاه في الحكم محمد توفيق نسيم الذي افتتح عهده بإلغاء دستور ١٩٣٠، ليواصل

---

(٩٩) قراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٦٨، وقبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٢٦.

(١٠٠) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٤٥.

(١٠١) قبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١٠٢) الشمالي، ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٤٠.

حكم البلاد بدون دستور وبدون برلمان. لذلك شهدت البلاد موجة سخط عارم أنذرت بنشوب ثورة شعبية. فالشعب المصري أدرك أن مقاليد الأمور مرهونة بيد انكلترا، فهي وحدها التي تقرّر العمل بالدستور أو عدمه[١٠٣]. وتأكّد ذلك حين فوجىء المصريّون بتصريح انكليزي خطير أدلى به وزير خارجية بريطانيا، صاموئيل هود، في صباح يوم ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، قال فيه «.. لا صحّة لما زعموا من أننا نعارض في أن يعود إلى مصر النظام الدستوري المناسب لحاجتها الخاصة، فنحن بتقاليدنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً من ذلك... على أننا لما استُشرنا كانت نصيحتنا ضد إعادة دستور عام ١٩٢٣ ودستور ١٩٣٠ ... لأن الأول ظَهَرَ غير صالح للعمل به، ولأن الثاني ضدّ رغبة الأمة بالإجماع». ولذلك عمّت مصر موجه سخط بالغ ضدّ المستعمرين الإنكليز وأذنابهم، ضد تصريح هود وضد وزارة نسيم»[١٠٤].

لقد هالَ شبيبة مصر هذا الموقف الخطير المستهتر بحياة بلادهم ومستقبلها وحقوقها، فانتفض الطلبة يقودون الثورة على هود، ومحمد توفيق نسيم ورجال حكومته، ويندّدون ببعض رجال الأحزاب بعد أن غلّبوا التناقض الثانوي بينهم على التناقض الأساسي بين الشعب المصري والاستعمار الانكليزي. فقد اندلعت التظاهرات الطلابية الدامية منّددة بالاستعمار وأعوانه، وداعيةً الزعماء إلى الاتحاد ضد الانكليز، ومهددةً بتأليف الجبهة الوطنية التي تشكّلت فعلاً في خضم الانتفاضة. وهنا أدى الشاب جمال دوراً بارزاً بين أقرانه في تأجيج نار النضال الثوري، الأمر الذي يشكّل في رأي العديد من المتابعين نقطة التحوّل الثانية في حياة الشاب الثائر جمال عبد الناصر[١٠٥]. فقد قاد المظاهرات الصاخبة، وتعرّض لرصاص الجنود، وراح يتنقل بين المعتقلات حاملاً الطعام إلى رفاق نضاله المعتقلين. وكان أول الداعين إلى انعقاد مؤتمر الطلبة للمناداة بمواصلة الكفاح، وتناسي الأحقاد، ووحدة الزعماء من أجل حرية مصر وحقوق شعبها. وكانت انطلاقة المظاهرات من مدرسة النهضة الثانوية بحيّ الظاهر، وقد تجمع الطلبة من شتّى المدارس المحيطة بها، وانطلق الهتاف بسقوط هود وأعوانه[١٠٦].

والتفّ الطلبة حول جمال الذي كان يقود المظاهرة الحاشدة الكبيرة التي سارت

---

(١٠٣) عبد الناصر، الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢، ص ٤١ و٥٠ ـ ٥١، و DeNovo, *American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939*, p. 368.

(١٠٤) قراعة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٩٥.

(١٠٥) الشمالي، ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٢٨.

(١٠٦) قراعة، المصدر نفسه، ص ٦٦.

مخترقة الشارع الرئيسي حتى ميدان المحطّة. وتصدّى لها رجال الشرطة دون جدوى. فقد تعاظمت المظاهرات بالتالي، وتواصلت على مدى ثلاثة أيام متوالية. حيث تعطّلت جميع المدارس. وكان الهدف لهذه الانتفاضة الطلاّبية الشعبية الظفر باحتجاج حكومي على تصريح هود، وإعادة الدستور الملغيّ، لا لكونه خير الدساتير، ولا باعتباره الضامن لحرية البلاد واستقلالها، وإنما باعتباره أول وثيقة قانونية نالها الشعب معلنةً بعض حقوقه. لقد وجد جمال متنَفَّسه في الانتفاضة الطلاّبية التي أظهرت، بالضرورة، مواهبه القيادية المبكّرة. فقد لَمع دوره الوطني، مذ آنذاك، عاملاً على استجماع عرى الوحدة الوطنية وشدّ أزرها. ومن ذلك أنه في مساء يوم الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥ التقى، بصفته مندوب اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية، بعبد العزيز الشوربجي، مندوب اللجنة التنفيذية لطلبة الجامعة[١٠٧]. واتفق المندوبان على عقد مؤتمر بميدان الاسماعيلية (التحرير)، يضم طلبة الجامعة والمدارس الثانوية لوضع الخطوط الرئيسية للحركة الوطنية التي ستضطلع بمهمة المطالبة بعودة الدستور.

وبالفعل، اجتمع الطلاب المنتفضون في مؤتمر عام، عقد مساء يوم الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، قرّروا فيه مواصلة النضال والانتفاضة حتى تجاب مطالبهم على نحو كامل، وبالإضافة إلى ذلك تحرّك الطلبة المنتفضون على طريق إرساء دعائم الوحدة الوطنية، بالتوجّه إلى زعماء الأحزاب وحملهم، تحت ضغط الانتفاضة، على نبذ خلافاتهم الحزبية جانباً، وإعلان اتحادهم النضالي بالوقوف صفاً واحداً يعمل لخير مصر. وقد اختير جمال عبد الناصر، وقتها، ضمن وفد الطلبة الذي توجّه إلى بيوت الزعماء بهدف إقناعهم بالاتحاد من أجل مصر[١٠٨].

وكان جمال في مقدّمة الطلبة المنتفضين وفي الذروة منهم حماسةً وتواصلاً. وإلى ذلك يشير عبد العزيز الشوربجي المحامي لدى محكمة النقض، في معرض حديثه عن ذكرياته مع جمال عبد الناصر، فيقول: «بعد انعقاد المؤتمر استثمر جمال عبد الناصر ثورة الطلاب المجتمعين ليعبّروا عن احتجاجهم وثورتهم لبلوغ الهدف، إذ دعاني لكي أخطب بالجماهير الطلابية. وحينما لم أجد مكاناً عالياً أقف عليه، دفعني جمال

---

(١٠٧) أبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ٢٤ ـ ٢٥. كان أبرز أعضاء اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية، بالإضافة إلى جمال عبد الناصر... كل من حسين عباس، أحمد الشافعي، محمود الشبوني، وعبد الرؤوف جبرائيل. انظر: عطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ٤٤. أما عبد العزيز الشوربجي، مندوب الجامعة، فكان طالباً في كلية الحقوق، وعضواً في جمعية «مصر الفتاة» (الحزب الوطني)، انتخب فيما بعد عضواً في اللجنة العليا. تعرف على جمال عبد الناصر أثناء العمل الطلابي، وروى عن ذكرياته معه حين أصبح محامياً لدى محكمة النقض.

(١٠٨) أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ١٤؛ يحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢**، ص ١٦٩ ـ ١٨٣، وكوفتونوفيتش، «مولد زعيم،» ص ٤٤.

عبدالناصر إلى عمود النور وأعانني على تسلّقه. وحينما ابتدأت بالخطابة ملأت قوّات الشرطة الميدان، وانقضّوا على الطلبة بعصيّهم الغليظة، وأصيب الكثير منهم. وبدأت مطاردة الشرطة، وحينما سقط منظاري، بحث عنه جمال وأعطاني أياه، وظلّ ثابتاً يحثّني على الاستمرار في الخطابة، ويحثّ زملاءه على الثبات . . . إلى أن هال رجال الشرطة روعة الموقف، فراحوا يهتفون معنا بحياة مصر، وذهبت أوامر رؤسائهم بضربنا أدراج الرياح»[١٠٩].

وعلى العموم، فإن النشاط الطلاّبي تصاعد بوتائر متسارعة، وبات يشكل قلقاً متعاظماً، ولذلك لاحظت الحكومة أن استمرار الطلاب في مدارسهم إنما يعني استمراراً مؤكداً للانتفاضة التي كانت تتعاظم يوماً بعد يوم، فلم تجد بداً من تعطيل الدراسة في المدارس والجامعات لمدة شهر[١١٠]. ومع ذلك فإن قرار الوزارة النسيمية بإغلاق المدارس والجامعات لم يُجدِ في إيقاف تيار الانتفاضة الجارف، وكان جمال يعمل، بالمقابل، على تصعيد النضال السياسي بشتّى الصيغ والأساليب، ومنها خطبه الملتهبة في تجمّعات الطلبة[١١١] التي كان حريصاً على إقامتها ومواصلتها على طريق تحقيق الهدف[١١٢]. وهكذا عُقد المهرجان الخطابي في مدرسة النهضة الثانوية، في صباح يوم الأربعاء الموافق للثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، أي بعد انعقاد المؤتمر بيوم واحد[١١٣].

وفي هذا المهرجان وقف جمال في فناء المدرسة يهتف في جموع الطلبة «تحيا مصر حرّة»، وردّد الطلبة الهتاف، ثم اتخذ السلّم منصّة للخطابة فيهم ليثير حماسهم بعد أن شرح الموقف السياسي، فحملوا عَلَمَ المدرسة، وحمل جمال العَلَم المصري، وتقدّم حشود الطلبة مخترقاً شوارع العاصمة في طريقه إلى جامعة القاهرة ليضمّ الحشود الطلاّبية التي كان يقودها إلى الطلاب المعتصمين هناك. فلما بلغت الحشود الروضة وجدت أن الشرطة قد اتخذت اجراء مانعاً بغية الحيلولة دون الاستمرار بالمظاهرة، وذلك بفتحها ـ كوبري عباس ـ المفضي إلى الجامعة لذلك وجّه جمال بضرورة الإفلات من الحصار وتوزيع المسؤوليات، مشيراً إلى بعضهم بالانصراف، مؤكداً أهمية تجمّعهم القادم الذي سيكون في بيت الأمة[١١٤]. أما جمال فاستأجر، مع عدد من رفاقه،

---

(١٠٩) نقلاً عن: عطوي، المصدر نفسه، ص ٤٦. وحول الموضوع نفسه، انظر: أبو النصر، المصدر نفسه، ص ٢٥، وقبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٢٣.

(١١٠) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٥، وقبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(١١١) عطوي، المصدر نفسه، ص ٤٦، وأبو النصر، المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١١٢) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٠١.

(١١٣) أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ١٤، وقبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١١٤) بيت الأمة، هو بيت سعد زغلول، زعيم ثوار مصر في ثورة ١٩١٩، وهو الذي جعل بيته بيتاً للأمة، لذلك كان مقراً لانطلاق التحركات الجماهيرية السياسية.

مركباً عبروا به النيل يتعقبّهم رصاص البنادق، بينما استطاع بعض طلبة كلية الهندسة إغلاق الكوبري، فاندفع عليه الطلبة وأدركوا جمالاً ورفاقه. وكان رجال الشرطة يحاولون، وسعهم، منع عبور المتظاهرين، مما جعلهم هدفاً للأحجار التي شرع الطلبة في قذفهم بها. لذلك هرعت القوات المكلفة بقمع الانتفاضة بفتح النار على الطلبة المتظاهرين، فسقط الشهيد محمد عبد المجيد مرسي، الطالب بكلية الزراعة، وانحنى عليه محمد عبد الحكيم الجراحي، الطالب بكلية الآداب، فأصابته رصاصة مزّقت أمعاءه فاستشهد بعد خمسة أيام.

وكان الرصاص يتعقّب جمالاً ورفاقه، لذلك لجأ هو وزميله حسن النشار إلى بيت صديق لهما، حتى اذا انتهى إطلاق الرصاص مضى إلى بيته ليهيىء الطعام للمعتقلين في قسم الموسكي. وتوجّه فيما بعد إلى بيت الأمة وهو يقود مجموعة كبيرة من الطلبة لحضور المؤتمر الوطني الذي عقد بمناسبة عيد الجهاد، واصطدموا بالشرطة للمرة الثانية[١١٥]. لقد كان تجمعاً واسعاً، فالجماهير المحتشدة لبثت أمام بيت الأمة تنتظر ما سيعلنه النحّاس باشا. وكانت الشوارع المحيطة بالمكان تغصّ بالجماهير المحتفلة، وتم نصب سرادق بالميدان المواجه للبيت جَلَسَت فيه أرملة الزعيم سعد زغلول وكبار قادة حزب الوفد. وقد طوّق الجنود التجمّع الجماهيري. وحينما بدأ النحاس باشا بإلقاء خطابه تعالى هتاف الجماهير بعزّة مصر وسقوط الانكليز. وعند ذاك شرع الجنود بتفريق المحتشدين الذين تسلحوا بأعمدة السرادق لمواجهة الجنود. وسرعان ما تراجع الجنود ليبدأوا إطلاق النار على المحتشدين، مستهدفين العناصر القيادية فيهم، منهم جمال عبد الناصر الذي سدّدوا إطلاقة على رأسه أصابت جبهته واخترقت فروة رأسه، فسالت الدماء تغطّي عينيه، فأسرع به رفاقه لإسعافه في دار صحيفة **الجهاد** [١١٦] التي صادف وقوع الحادث بجوارها. وفي مكتب صاحب الجريدة ضمّد رجال الإسعاف جرح جمال ونصحوه بالمضي إلى مستشفى قصر العيني، لكنه رفض متعلّلاً بأن كل من يمضي إلى هناك يتعرّض لملاحقة الشرطة والاعتقال فالسجن[١١٧].

تفاقمت الأحداث وتصاعدت الانتفاضة، فاضطر الملك، في خاتمة المطاف، إلى

---

(١١٥) قبيسي وصالح، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١١٦) عطوي، جمال عبد الناصر: **رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ٤٨؛ أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٤، واسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: **الحب والخير والثورة**، ص ٣٧.

(١١٧) يحيى، **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢**، ص ١٦٩ ـ ١٨٥؛ عبد العظيم رمضان، **الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤** (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٧٥)، ص ٢٥؛ عطوي، المصدر نفسه، ص ٤٩، وأبو النصر، **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**، ص ٢٨.

التنازل عن بعض مواقفه، ليحتفل الشعب المصري بانتصاره. فجاء الوفد ثانيةً إلى السلطة وفي عام ١٩٣٦ أبرَمَت حكومة النحاس باشا معاهدةً جديدة[١١٨]، هي معاهدة ١٩٣٦ المصرية ـ الإنكليزية. وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة كانت تعني، رسمياً، إنهاء الاحتلال العسكري البريطاني لمصر، إلاّ أنها كانت تكفل بقاء القواعد العسكرية الإنكليزية، الأمر الذي يعني أن الاستقلال الذي نالته مصر كان صورياً. وسرعان ما أدرك المصريون ذلك، عملياً، حيث لم يتغيّر شيء في البلاد تقريباً[١١٩]. وكانت المعاهدة تنصّ على خضوع الجيش المصري لقيادة مصرية، إلاّ أنها أخضَعَت تدريب الجيش للمشرفين الانكليز، كما كان الأمر سابقاً، أي أن الأمر في الجوهر لم يتغيّر، على الرغم من أن تقرير البعثة العسكرية الإنكليزية اعترف صراحة بأن الجيش المصري الذي استغرقت فترة تدريب الإنكليز له خمسين عاماً لم يتطور نوعياً، وظل في حالٍ يُرثى لها. فكتائبه الإحدى عشرة للمشاة كانت سيئة التسليح، أما المدفعية فكانت تنقصها الذخيرة وقطع الغيار، إلى جانب نقص ملحوظ في الدبابات والمدافع المضادة للطائرات. أما على صعيد السلاح الجوي فقد كان محدوداً جداً، فطائراته الأربع والثلاثون كانت، هي الأخرى، غير قادرة على إدارة المعارك الجوية. وأما فيما يتعلق بالتجنيد الإجباري فكان الفلاّحون المصريون يرون فيه عبئاً أشبه بالكارثة، بينما كان الضبّاط المتحدرون من أسر الأعيان يعدون الخدمة في الجيش وسيلةً تكفل لهم تَبوّأ مكانة راقية في المجتمع[١٢٠].

هكذا كانت الأوضاع السائدة في البلاد في عام ١٩٣٦ حين اعتقل جمال قُبَيْل إنهائه دراسته الثانوية ببضعة أشهر. ولعلّ سؤالاً يثار عن دور جمال أثناء المفاوضات الممتدة من تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٥ لغاية ١٩٣٦. وفي الجواب عن مثل هذا السؤال نشير إلى أن جمالاً واصل نشاطه السياسي عبر الصيغ التنظيمية التي أسلفنا الإشارة إليها، وأضاف إليها انفتاحه على الحركات السياسية، من خلال الأحزاب، وقيامه بالدعاية والتثقيف الذي استقاه من الخطاب الفكري ـ السياسي لهذه الأحزاب،

(١١٨) وافقت كل الأحزاب السياسية على الخطوط الأساسية لمعاهدة ١٩٣٦، وأسموها معاهدة الشرف والاستقلال، ما عدا الحزب الوطني. للتوسع انظر: فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١٣.

(١١٩) عبد الناصر، **الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢**، ص ٣٥ ـ ٧٥؛ DeNovo, *American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939*, p. 368; J. W. D. Gray, «Arab Nationalism: Abdin Against the Wafd,» *Middle East Forum*, vol. 37, no. 2 (February 1961), p. 17, and Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 18.

(١٢٠) رمضان، **الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمـــة مـــارس ١٩٥٤**، ص ٢٥؛ Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, p. 83, and DeNovo, Ibid., p. 318.

وتنظيمه لجان الطلبة الثانويين، الذين كان يتولّى رئاسة لجنتهم التنفيذية[١٢١].

لقد حاول أساتذته، ما وسعهم، أن يثنوه عن مهمّة الدفاع عن الدستور والنضال من أجل الاستقلال، وأن يدع ذلك للساسة المتمرّسين، إلاّ أن جمالاً الذي عُرف باجتهاده والتزامه وانضباطه لم يُصغِ، مع ذلك، إلى هذه النصائح، وانصرف بكل قواه إلى العمل الدعائي. ولكن هذا الاندفاع بدأ بالتلاشي حين اكتشف جمال زيف خطاب تلك الأحزاب الذي كان يتوشّح ظاهراً بالوطنية، بينما يقصد، في الحقيقة، الوصول إلى الحكم فحسب!

هال جمالاً هذا الاكتشاف، لكنه كان ضرورياً جداً لصحوته الفكرية ـ السياسية الثورية. وكان هذا الموقف من أهم المواقف التي أحدثت تحولاً في الإطار الفكري الذي بناه، لأنه شكل انقلاباً في فكره الثوري الشاب على الحياة الحزبية البرجوازية ـ الإقطاعية التي ترفض الانصهار في بوتقة الاتحاد الوطني الشعبي، الذي يمثل الرؤية الوطنية الشاملة ـ أحد أهم أسس النهج الناصري فيما بعد، وهو النهج الذي كان مقوّمه الأساس الفكرة التي تقول ان مستقبل شعب مصر مرتبط ببطل قويّ عادل.

لقد أدرك جمال في تلك الحقبة سرّ المأساة التي كان يعانيها شعب مصر، والتناقض بين مصالح هذا الشعب الكادح الصابر المضحّي، ومصالح الزعماء ذوي الأصول البرجوازية ـ الإقطاعية[١٢٢]. وقد وضع جمال، مذ آنذاك، رهانه على الجماهير الشعبية باعتبارها صاحبة القرار، وصاحبة المصلحة في حاضر مصر ومستقبلها، وبانية الحياة ومنتجتها والمدافعة عنها بكل ما تستطيع وبكل ما تملك[١٢٣]. وكان كل هذا الإدراك والانحياز إلى الجماهير الشعبية جذراً أساسياً من جذور الفكر الناصري.

وبهذا الصدد يمكن إيراد نصّ وثيقة في غاية الأهمية تعزز صدقية ما ذهبنا إليه، وهذه الوثيقة هي رسالة كتبها جمال عبد الناصر في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٥، إلى زميل صديق له في مدرسة النهضة، وهي تلخص المرتكزات الأساسية في تفكير الشاب جمال وقتذاك، وتكشف بعض أسس الفكر الناصري في إرهاصاته الأولى[١٢٤]:

---

(١٢١) يحيى، أصول ثورة يوليو ١٩٥٢، ص ٦٩ ـ ١٨٣.

(١٢٢) كوفتوفيتش، «مولد زعيم،» ص ٤٥، وقراعة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٦٨.

(١٢٣) ناتنج، ناصر، ص ٣٨، ومحمد فريد شهدي، تأملات... في الناصرية، المفكر العربي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣)، ص ٢٧ ـ ٢٨ و٦٤.

(١٢٤) كوفتوفيتش، المصدر نفسه، ص ٤٦؛ لاكوتير، عبد الناصر، ص ٥١؛ عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٥١، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 19.

«أخي علي

قال الله تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فأين هي تلك القوة التي نستعد لهم بها؟! إن الموقف دقيق، ومصر اليوم في موقف أدق ... ونحن نكاد نودّع الحياة ونصافح الموت، فإن بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء؟! إن في مصر حكومة قائمة على الفساد والرشوة ... فأين من يغير هذا الحال؟! إن الدستور معطل والحماية على وشك الإعلان ... فأين من يقول للاستعمار: قف عند حدّك، فإن في مصر رجالاً ذوي كرامة لا يريدون أن يموتوا كالأنعام؟! أين الوطنية التي كانت سنة ١٩١٩ تشتعل ناراً في الصدور؟! بل أين الذي يذود بلسانه وخطوات قلبه عن حياض هذا الوطن العزيز ... مضحياً الحياة والعمر في سبيل الاستقلال؟ أين من يخلق خلقاً جديداً ... حتى يصبح المصري الخافت الصوت الضعيف الأمل الذي يطرق برأسه ساكناً صابراً على حقّه المهضوم يقظاً عالي الصوت، عظيم الرجاء، مرفوع الرأس ... يجاهد بشجاعة وجرأة في طلب الاستقلال والحرية؟! يقولون ان المصري يجزع من حفيف ثيابه في وضح النهار ... ولكن يجب أن يتقدم من يقودونه إلى مواقف الدفاع ومواطن الكفاح ... فيكون له صوت أعلى من صوت الرعد، تتداعى لقوته أبنية الظلم والاستبداد ... فكل روح سكنت جسماً جاء من أبوين مصريين لا ترضى بحالتنا الراهنة، وتبذل نفسها قرباناً للوطن العزيز والجامعة الوطنية المقدسة ... قال مصطفى كامل «لو نُقِلَ قلبي من اليسار إلى اليمين، أو تحرك الهرم من مكانه المكين، أو تغيّر مجرى النيل فلن أتغير عن المبدأ» ... كل ذلك مقدمة طويلة لعمل أطول وأعظم ... فقد تكلّمنا مرات عديدة عن عمل يوقظ الأمة من غفوتها، ويضرب على الأوتار الحساسة من القلوب، يستثير ما كمن من القوى في الصدور ... ولكن كل ذلك لم يدخل في حيز العمل إلى الآن ... وعلى ذلك فأنا منتظرك في منزلي يوم ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٥، الساعة الرابعة مساءً، لكي نتباحث في هذا الموضوع، وأملي أن تحضر في الموعد المحدد»[١٢٥].

من خلال هذه السطور نستشفّ الخطوط الفكرية الأولية التي حدّدها جمال عبدالناصر لتكون فيما بعد إطاراً فكرياً لبناء الحياة العربية.

لقد نذر جمال نفسه وحياته وطاقاته للعمل الوطني، لتحرير مصر وإسعاد شعبها. وقد اقتضاه ذلك تضحيات جمة، كان منها السجن وما رافقه ولحقه من انقطاع عن الدراسة، والتعرض للمشاق وشظف العيش. ولما عاد إلى المدرسة أعلن مديرها

---

(١٢٥) نص الرسالة في: عطوي، المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢، وقراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٦٩ ـ ٧٠.

سليمان زكي عدم السماح له بدخولها لكونه مفصولاً منها، بتهمة تحريض الطلبة على الثورة. وحينما علم الطلاّب بقرار المدير أعلنوا اعتصامهم في الصفوف، وقذفوا المقاعد إلى ساحة المدرسة مهدّدين بإحراقها إذا لم يعد زميلهم المفصول بسبب الوطنيّة[١٢٦].

استدعى مدير المدرسة الشرطة، فجاء ضباط القسم المسؤولون وحاولوا ثني الطلبة عن قرارهم، ولكنهم أصرّوا على التمسّك بمطالبهم. ولما لم يجد مدير المدرسة سبيلاً لإقناعهم اضطرّ للرضوخ إلى مطالبهم، وأمر بعودة جمال إلى المدرسة. غير أن الطلبة واصلوا اعتصامهم موضحين للمدير مطالبهم بوجوب عودة جمال عياناً إلى الدوام في المدرسة باعتباره مسؤول اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية[١٢٧]. ولذلك، وخشية امتداد الاعتصام إلى المدارس الثانوية جميعاً، مضى ضابط الشرطة عباس أبو سعدة إلى بيته لإحضاره، وكما تشير المصادر عاد جمال برفقة الضابط، في موكب من طلبة مدرسة النهضة، بينما كان أبناء الحي يحيّونه في الطريق لما عرفوه فيه من وطنية وحماس ثوري[١٢٨].

كان كلّ هذا هو الجواب المنطقي عن السؤال الذي طالما أشغل باله في طفولته ويفاعته، وكان يوجّهه لأبيه: «لماذا نأكل نحن اللحم والفلاحون الذين يرعون الماشية ويربّونها لا يأكلونها؟» فيأتيه جواب أبيه «هكذا أرادوا يا ولدي» [١٢٩]. والمقصود أن جمالاً أدرك السر، من خلال التجربة، في التناقض، ووضع إصبعه على مكمن الداء، واختار طريق النضال الثوري لتحرير الشعب وإسعاده.

وعلى أية حال، فإن جمالاً حَسَم القضية الأخرى، قضيته هو مواطناً يسعى لتحرير شعبه. فقد ناضل بكل قواه، لينجح بتفوق[١٣٠]، وليتم دراسته الثانوية في نهاية العام الدراسي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ (مجتازاً الامتحان العام: البكالوريا ـ القسم الأدبي)[١٣١]. وكان اختياره هنا، مرتبطاً أوثق الارتباط باختياره طريق النضال الثوري من أجل حرية الوطن والشعب. كان ذلك جدلية الاختيار، وتلاحم الذات،

---

(١٢٦) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٠٤؛ أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ١٦، وقبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٢٢.

(١٢٧) أبو النصر، جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته، ص ٢٩، وفوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٤.

(١٢٨) قراعة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٧١، وعطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٥٢.

(١٢٩) قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٢٥.

(١٣٠) أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ١٦، وقراعة، المصدر نفسه، ص ٧١.

(١٣١) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٦، وناتنج، ناصر، ص ٣٨.

والموضوع. فإن جمالاً اختار التقدم إلى الكلية الحربية، فقد كان يحلم بأن يكون ضابطاً يصنع الحرية لشعبه. كان يهوى العسكرية، باعتبارها كما يراها هو، الطريق الوحيد للتحرير واسترداد الكرامة، طريق العظام الذين كان لهم دورهم المتميز في إسعاد شعوبهم، طريق الثائر العظيم أحمد عرابي، الذي يتمجّد به كلّ العسكريّين الأحرار من مصر وسواها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان يهوى العسكرية بالذات لأن الروح العسكرية، في رأيه، تجرّد صاحبها من حبّ الترف والنزوع إلى الخمول، وتخلق فيه القوّة الدافعة إلى العمل الجدّي المثمر، والتسابق في ميادين التنافس لخير الوطن، وتفجّر فيه الطاقات الثورية للنضال من أجل الشعب. لكلّ هذا اتجه جمال عبد الناصر إلى الجيش مقدّماً أوراقه للالتحاق بالكلية الحربية[١٣٢].

كان صغير السن، رياضي التكوين، فارع الطول، قويّ البنية، وادع القسمات. وقد قبل مسؤولو الكلية أوراقه، وحدّدوا له موعداً لإجراء الفحص الطبي للتعرّف على لياقته البدنية. وبعد الفحص قرّرت اللجنة صلاحيته من كل النواحي، وأبلغته بموعد آخر لإجراء امتحان «المظهر» أو «الهيئة». لكن التقارير السرية كانت قد سبقته إلى لجنة فحص المظهر والمقابلة، فقد أعدّ مركز شرطة الجمالية، بالفعل، تقريراً عن نشاط جمال السياسي، أوضح فيه أنه عضو في حزب احمد حسين، وقد نظم المظاهرات الطلابية، أيام دراسته الثانوية، وهو لذلك غير منضبط، وأوصى بالتالي بعدم قبوله[١٣٣]. وبالفعل، أُخضع جمال لمقابلة تميّزت أسئلتها وتحرّياتها بالصرامة والتدقيق، وكانت توحي، بطبيعتها، بعدم القبول. فقد سأله رئيس اللجنة عن عمل أبيه، واستعلم عما إذا كان موظفاً كبيراً. كما سأله عن وضع أسرته الاجتماعي والاقتصادي، وعن السبب الذي يحدوه ليكون ضابطاً بالجيش، وعما إذا كانت أسرته تضمّ ضابطاً كبيراً في قوامها. وبالاضافة إلى ذلك سأله عما إذا كان ثمة من توسّط لقبوله. ولكن السؤال الأهم والأقوى، والذي حسم المسألة لغير صالح جمال كان عن المشاركة في مظاهرات الطلبة. وكانت إجابات جمال واقعية، فقد أفاد أن أباه موظف صغير بمصلحة البريد، وأن الأسرة تتحدر من قرية «بني مرّ» بأسيوط، وأنهم فلاحون، ليس بينهم ضابط كبير، وليس لديهم أملاك، فهم «من أبناء الشعب» على حد قول جمال، وليس لديهم واسطة، وقال نصاً: «أنا واسطتي ربنا». كما أجاب جمال بصراحته الثورية، وبدون مواربة، بالإيجاب عن مشاركته في المظاهرات الطلابية.

---

(١٣٢) حتى العام ١٩٢٧ كانت هذه المؤسسة تحمل اسم «الكلية العسكرية» وكان شرط القبول فيها حيازة شهادة الدراسة الابتدائية، إلا أنه منذ العام ١٩٢٨ أصبحت شهادة البكالوريا ضرورية للقبول في الكلية.

(١٣٣) قراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٧٢، وعطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٥٣.

وبالطبع، وتساوقاً مع منطق الأسئلة وعقلية لجنة المقابلة ومنطوق التقرير السرّي الصادر عن مركز شرطة الجمالية، فإن الرأي النهائي كان الرفض: «كده . . . طيب اتفضّل»[١٣٤].

فَهَمَ جمال، من خلال آليّة المقابلة ونمط الأسئلة، أنه مرفوض في القبول، فهو فلاّحي التحدر، والأسرة لا تملك أملاكاً وأبوه موظف بسيط، إضافة إلى الأمر الأهم والحاسم في رفض قبوله ـ وهو مشاركته في التظاهر ضدّ السلطة. وقد أدرك جمال أن الجيش، آنذاك، وبقيادته المرتبطة بالمستعمرين الإنكليز لا يقبل ثائراً في الجيش، كما أن الانكليز لا يريدونه جيشاً قوياً[١٣٥]. وصحّت توقّعات جمال، فلم يكن اسمه بين المقبولين، وكان ذلك أمراً بالغ الإيلام بالنسبة له، وقد اختزنته ذاكرته عاملاً من عوامل حقده الشخصي والطبقي والاجتماعي على الاستعمار وأعوانه[١٣٦]. وأمام حيرته في تحديد النهج الذي سينهجه، تواردت اقتراحات الأسرة والأقارب بالالتحاق بكلية الشرطة، لتماثلها في رأيهم مع الكلية الحربية وللوضع المثير لضباط الشرطة، إلا أن جمالاً رفض ذلك لتماثل ضوابط الكليتين في القبول، كما أنه، أصلاً، لا يهوى هذه الكلية، لكون ضباطها كانوا دائماً أداة قمع سلطوي للطلبة، وذاكرته مليئة بكل ما يعزّز ذلك، ثم انه لا يريد التداخل بين المهام الوطنية والوظيفية، ولكل ذلك اضطر للبحث عن طريق آخر[١٣٧].

وما لبث أن قرّر الالتحاق بكلية الحقوق باعتبارها المنفذ الوحيد، المتبقي لديه، وقتذاك، لتحقيق أهدافه الوطنية والقومية، وذلك لأن المجال أمام الحاصلين على شهادة الحقوق أوسع في إصدار الصحف والمجلاّت، وتشكيل الأحزاب والمنظّمات الاجتماعية[١٣٨]. وهكذا التحق بالكلية في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٦، وبدأ دراسة القانون فيها باهتمام بالغ. ومع ذلك ظل يحلم بالعسكرية والجيش.

وسرعان ما استجدت مستجدّات مهمة أعانته في تحقيق حلمه أخيراً. فبعد مضيّ نصف العام الدراسي تقريباً، نُشر إعلان عن قبول دورة إضافية بالكلية الحربية، وكانت بواعث ذلك تكمن، كما اتضح الأمر فيما بعد، في اقتراب شبح الحرب

---

(١٣٤) أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٦؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١٠٧، ولاكوتير، **عبد الناصر**، ص ٣٦.

(١٣٥) كان جمال عبد الناصر يرى أن الجيش المصري في الثلاثينيات بخاصة «جيش لا يملأ العين، لكن ما حيلتنا وقد أراده الإنكليز هكذا لأنه ليس في مصلحتهم أن يكون لنا جيش قوي». انظر: لاكوتير، المصدر نفسه، ص ٣٦.

(١٣٦) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٨، وناتنج، **ناصر**، ص ٣٩.

(١٣٧) أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ١٨.

(١٣٨) لاكوتير، **عبد الناصر**، ص ٣٠.

العالمية الثانية، وسوء حالة الجيش المصري ونقصه الشديد في الضباط، إضافة إلى المتغيرات التي أحدثتها معاهدة ١٩٣٦ المصرية ـ الإنكليزية التي جعلت مصر حليفة بريطانيا، وصار من الطبيعي أن يتضاعف جيشها بعد أن حال الإنكليز دون ذلك منذ ثورة عرابي. وفي ضوء ذلك كله وجرّائه بدأت الكلية الحربية بقبول أعداد إضافية[١٣٩]، في دورة جديدة تضم في صفوفها أربعة وأربعين طالباً إلى جانب الدورة الأساسية التي تم افتتاحها في خريف ١٩٣٦، والتي ضمت واحداً وخمسين طالباً[١٤٠].

قرّر جمال خوض غمار تجربة التقديم إلى الكلية، ثانية، ملهماً بتشجيع رفاقه الوطنيين الذين كانوا موقنين، سويةً مع جمال، بأن الفرصة متاحة للعسكريين، أكثر من غيرهم، لاستخدام القوة للتخلص من الاستعمار والساسة الانتهازيين معاً[١٤١]. وتصرّف جمال في هذه المرة على نحو آخر لغرض ضمان قبوله، وتجنّب المعوقات السابقة. فاستجمع كل ما لديه من جرأة وشجاعة، وتوجّه إلى منزل وكيل وزارة الحربية المصري، وقتذاك، اللواء ابراهيم خيري باشا[١٤٢] المعروف باهتمامه بتربية الكوادر الوطنية بين ضباط الجيش. وعند استقباله له قال جمال: «أفلا تقبل الكلية الحربية الطلبة إلا إذا كانت لديهم وساطة، أم أن هناك قواعد عامة تسري على الجميع؟». فسأله اللواء: «لماذا هذا السؤال، هل سَبَق لك وقدمت طلباً للالتحاق؟» فقال جمال: «أجل، ونجحت في الفحص الطبي، ولكن فحص الهيئة يحتاج إلى الواسطة وليس لي واسطة . . ومعنى ذلك أن أعود إلى كلية الحقوق»[١٤٣]. لقد أثار اللقاء إعجاب اللواء ابراهيم خيري باشا بجمال عبد الناصر، لما لمسه فيه من الشجاعة

---

(١٣٩) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٠٩ ـ ١١٠؛ دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٥١، وناتنج، ناصر، ص ٤١ ـ ٤٢.

(١٤٠) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣)، ص ٤٥٦.

(١٤١) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٩، والشمالي، ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٦٨.

(١٤٢) ابراهيم خيري باشا، وكيل وزارة الحربية، هو من الضباط الوطنيين المعروفين بالاستقلالية والحصافة، وكان له دوره المتميز في تطوير الجيش المصري من خلال اهتمامه بتربية الملاكات الوطنية في الجيش، والإسهام في تشكيل نادي الضباط على طريق خلق المناخ الاجتماعي والفكري الوطني الضروري لتطوير الضباط الشبان بعيداً عن أجواء القصر والفساد الحكومي المستشري، والإسهام في التطوير النوعي لمختلف صنوف أسلحة الجيش، وقد اضطر بسبب تقاطعه مع جلاوزة الاستعمار إلى الاستقالة في العام ١٩٣٩.

(١٤٣) نقلاً عن: الشمالي، المصدر نفسه، ص ٦٨؛ عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٥٥، وناتنج، ناصر، ص ٣٩.

وقوّة الشخصية والصلابة، لذلك أصغى إليه باهتمام لاقتناعه بوجاهة إصراره، وجدّيته، وردّ عليه ببساطة، بالترحيب بالطلب مجدّداً إلى الكلية ووعده خيراً[١٤٤]. وبالفعل، تقدّم جمال مرة ثانية، بطلبه، وأثناء مقابلة لجنة فحص الهيئة فوجىء بأن رئيس اللجنة هو اللواء ابراهيم خيري باشا نفسه، وقد أمر هذا بقبوله فوراً في الكلية الحربية[١٤٥]. وبهذا ابتدأ جمال عبد الناصر مرحلة نضالية جديدة.

٤ ـ الحياة العسكرية

بدأت رحلة جمال عبد الناصر العسكرية بالتحاقه في السابع عشر من آذار/ مارس ١٩٣٧ بالكلية الحربية، الدورة الثانية (التي ضمّت أربعاً وأربعين طالباً، ضمن السرية الثانية). وكما أسلفنا القول، فإن التحاقه بالكلية الحربية، بالذات، كانت له دلالته البالغة، فهو ليس مسألة نزوة أو مزاج، وليس سعياً وراء الامتيازات، أو الشكليّات أو التباهي أو تطمين عقد مستحكمة من قبيل البحث عما يُشبع الحاجة إلى الاحترام والهيبة والسيطرة على الآخرين، أو التعويض من ذلّةٍ وهوانٍ سابقين، أو التشبه بالبونابرتية بكل احتقاناتها الذاتية المرضية وما تهيئه من جذور للنزوع نحو الدكتاتورية والاستبداد. قطعاً لم تكن الأمور في خلفيّة السعي المستمر للالتحاق بالكلية الحربية، برغم أهميتها في واعيات وكامنات عسكريينّ آخرين زملاء لجمال عبد الناصر، أو عسكريين آخرين في الوطن العربي عموماً، إنما التحاقه بالكلية الحربية (وهو أمر ناضل من أجله طويلاً، وأصرّ عليه، وضحّى بأمور كثيرة من أجله بما فيها دراسة القانون وغير ذلك) كان نابعاً من إيمانه العميق بأهميّة تحرير مصر والأمة العربية، حرصاً منه على اختيار الطريق الأقصر لبلوغ الأهداف الثورية، وفي طليعتها التحرير. فقد كان يؤمن، أعمق الإيمان، أن تحرير الأرض وإسعاد الشعب لن يكونا إلا بالقوة. كما كان موقناً أن وسيلة هذه القوة هي الجيش، بكل ما يوفره من عناصر للحسم الأسرع ولتعزيز الانجازات القتالية على كل الجبهات. ولكلّ ذلك آمن به واتجه اليه وسعى بكل قواه للالتحاق به. وعلى صعيد الفكر السياسي الثوري يمكن القول

---

(١٤٤) عطوي، المصدر نفسه، ص ٥٥؛ لاكوتير، **عبد الناصر**، ص ٤٦، أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ١٨، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٥٥.

(١٤٥) أجمعت جميع المصادر على سرد هذه الرواية، باستثناء أجاريشيف الذي أشار إلى أن جمالاً ذهب بصحبة عمه خليل ليسعيا سوية لمقابلة اللواء ابراهيم خيري باشا. أما رأينا فهو الاتفاق مع إجماع المصادر على مضيّ جمال وحده، وذلك لأن جمالاً كان يمتلك الجرأة على مقابلة الشخصيات المهمة، وهو أمر كان يفعله باستمرار أثناء رئاسته اللجنة التنفيذية للطلبة الثانويين ومقابلته قادة الأحزاب والمنظمات، كما أن هذه الجرأة والمدخل القويم لبحث المسألة أثار إعجاب اللواء وكسب موافقته. للتوسع انظر: أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ١٨؛ الجندي، المصدر نفسه، ص ٥٥؛ لاكوتير، المصدر نفسه، ص ٤٦؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١١، وعطوي، المصدر نفسه، ص ٥٥.

إن نزوع الثوار للاستعانة بالجيش والقوات المسلحة، على مختلف مستويات هذه الاستعانة، كان وما زال سمة مميزة للثورات الشعبية في العالم الثالث، وبخاصة في الوطن العربي، بما في ذلك مصر التي تحتفظ بتاريخ غاية في التميز على تحقيق التغيير الثوري عن طريق الجيش منذ ثورة عرابي. ويمكن القول، بالمقابل، ان هذا النزوع الثوري وتنفيذه على أيدي الثوار المعاصرين عزز دور الجيش والقوات المسلحة عموماً في الكفاح الشعبي والتغيير الثوري[١٤٦].

لقد كان يقين جمال عبد الناصر قوياً بأن الجيش يمكن، وينبغي أن يقوم بدور الطليعة. ويمكن أن يستمر في الطليعة حتى تحقيق آمال الوطن العربي وأحلامه كافة. كان اعتقاده بذلك راسخاً، بدأ منذ يفاعته ورافقه طوال عمره السياسي. وهو يشير إلى ذلك بالقول: «في سنة ١٩٣٥ كنت طالباً بجامعة القاهرة، ثم تركت الجامعة، وكان يجول بخاطري دائماً الطريق الذي نسير فيه والمصاعب التي تقف في سبيلنا، كانت أمامنا كل المصاعب في هذا الوقت، وكان الطريق إلى تحرير الوطن شاقاً طويلاً . . .»[١٤٧]، فقد كان «طريق الجيش هو السبيل الوحيد لهدم القوة الغاشمة الخائنة، فنظّمنا أنفسنا نحن الضباط الأحرار، نعاون اخوة لكم في جيشكم لكي يحققوا الآمال التي كانت تجيش بصدوركم أنتم، ويمحو الذل الذي كنا نرسف فيه»[١٤٨].

إن «طريق الجيش» «سبيلاً وحيداً لهدم القوة الغاشمة الخائنة»، أي التغيير الثوري بواسطة الجيش، قد استحق العديد من الكتب والمتابعات، كتبها كتابها، بمختلف اللغات، وكان معظمها متعاطفاً مع هذه التجربة التاريخية المصرية الراديكالية. ومن هذه الكتب كتاب البرت حوراني **الفكر العربي في عصر النهضة**[١٤٩]، حيث نقرأ في خاتمة الكتاب «الماضي والمستقبل» مثل هذه الكلمات البالغة الدلالة والمغزى:

« . . . ان هناك سبباً إيجابياً وطبيعياً لذلك، هو تطلّع الراغبين في إحداث تغييرات سريعة، في منطقة لم يكتمل وعيها السياسي بعد، إلى قوة ما تستطيع أن تحقق بنفسها ما يحققه ضغط الرأي العام المثقف والمنظم في بلدان أخرى. وفي ذلك يقول أحد مراقبي الحياة السياسية العربية: «إن طبقة الضباط العرب النبهاء غَدَت مستودع القوة السياسية الواعية في وقت كانت فيه الطبقة الحاكمة التقليدية قد أفلست، ولم تكن القوى الأخرى النامية قد تبلورت بعد، فأخذت الجماهير ترى

---

(١٤٦) الجندي، المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٢٩، ولاكوتير، المصدر نفسه، ص ٣٦.

(١٤٧) نقلاً عن: الجندي، المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٤٨) اسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: **الحب والخير والثورة**، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(١٤٩) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ترجمة كريم عزقول، ط ٣ (بيروت: دار النهار، ١٩٧٧).

بالفعل هذه الطبقة «المخلص المنتظر». والواقع أن الفئة العسكرية المصرية كانت، من بين جميع الفئات العسكرية التي تسلمت الحكم في مختلف البلدان، الفئة التي أحرزت أقصى النجاح في استقطاب آمال القومية العربية وأمانيها ومطامحها»[١٥٠].

لقد كان جمال عبد الناصر بالغ الجد والدأب في دراسته العسكرية، متميزاً بين أقرانه منذ لحظة التحاقه بالكلية الحربية[١٥١]. وكان حريصاً على اجتياز فترة الاختبار التي دامت خمسة أشهر لتقر صلاحيته لمهنة العسكرية، بعد أن رصدت جميع تصرفاته وميوله النفسية ومستويات استيعابه للعلوم العسكرية التي تلقاها، والتمارين العسكرية التي أداها. وبعد اجتياز فترة الاختبار هذه، انتقل إلى القسم الإعدادي بالكلية، حيث تعرف على الأسس المشتركة للوحدة الصغرى في جميع الأسلحة، وتدرّب بصورة عملية على جميع أعمال الميدان، وتعلم صفات القيادة ومقوماتها، واصطلاحات الحرب وأساليبها الفنية والتكتيكية سواء أكان المقاتل فرداً في الجيش أم قائداً له[١٥٢].

ثم انتقل جمال من القسم الإعدادي إلى القسم المتوسط في الكلية، وتدرب في هذا القسم على قيادة فرقة المشاة، وأصبح مؤهلاً ليكون قائد فصيلة في الميدان، ملماً بوسائل الميدان الخاصة بمواد الحرب، وهذه الوسائل هي الإشارة وهندسة الميدان والطوبوغرافيا وفن القتال. وبانتقال جمال من القسم المتوسط إلى القسم النهائي في الكلية الحربية تسلح كزملائه بكفاءات عسكرية رفيعة المستوى. وكان متميزاً بينهم، وهذا أمر فطنت إليه إدارة الكلية الحربية[١٥٣]، فقد حظيت قدراته التنظيمية العسكرية برفيع تقديرها[١٥٤]، الأمر الذي يتضح مما كتبه عبد الواحد عماد، عميد كلية الحربية ومدرس المدفعية والفنون العسكرية آنذاك، عن جمال، طالب الكلية، حيث نقرأ: «الطالب جمال عبد الناصر حسين ذو النظرة الجدية للحياة منذ رأيته، ومنذ التحق بالكلية الحربية في آذار/مارس عام ١٩٣٧ وأنا أراه لا يميل للمزاح، فلا يأتي بحركات تخرج عن حدود الرزانة والوقار، وهو رفيق مثالي يحبه رفاقه وأساتذته جميعاً. ومما عرفته أنه يعمل لكل شيء حساباً، ويقدر العواقب، ويعمل وفق ما يرضي ضميره وربّه»[١٥٥]. كل هذه المواصفات جعلت من جمال قائداً، لذلك كان لا بد أن يأخذ دوره الطليعي والطبيعي بين زملائه حينما بدأ يتدارس معهم هموم الأمة. هذا من جانب، ومن جانب آخر كان إلمامه واسعاً بالشؤون العسكرية، لذلك أصبح ذا

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(١٥١) ناتنج، **ناصر**، ص ٩.

(١٥٢) فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١١٣.

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ١١٣، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٥٦ ـ ٥٨.

(١٥٤) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤.

(١٥٥) نقلاً عن: الجندي، المصدر نفسه، ص ٣٨، والشمالي، **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر**، ص ٦٨.

أصبح ذا كفاءات عسكرية عالية جعلت المسؤولين في الكلية الحربية يسندون إليه سلطات قائد الجماعة (عريف). وهي رتبة عسكرية لا تمنح عادة إلا للمتفوقين من الطلاب، وهي تؤهلهم لتعليم الطلاب المستجدين وتدريسهم مبادىء العسكرية ومبادىء القيادة. إن هذا الموقع جعله ينفتح على عموم الطلبة، لذلك اكتسب شعبية واسعة وصداقات عميقة مع رفاقه في المسيرة. وكان عبد الحكيم عامر أقرب أصدقاء جمال في تلك الحقبة، مما لاحظه الجميع[١٥٦]، وكانت مكتبة الكلية ملتقاهما المفضل، وذلك لميلهما المشترك إلى المطالعة التي جعلت منهما صديقين حميمين. كان جمال ذا شخصية قوية وتأثير كبير في زملائه بحكم الموقع الذي تبوأه (قائداً للجماعة)، وبسبب عقله الراجح، وقدرته على الإقناع والحوار المتميز. وفي قاعة المطالعة بمكتبة الكلية تعرف على رفاق دربه، وبدأ باستمالتهم بحوار ذكي متبصر بجدية للبحث عن وسيلة لخلاص الأمة من خلال المواضيع التي تتناول مستقبل مصر والأمة العربية، وسبل الخلاص[١٥٧].

بدأت قراءات جمال عبد الناصر في مكتبة الكلية الحربية تنحو منحى أكثر جدية واتساعاً من ذي قبل، نظراً لوضوح الرؤية لديه من جهة، ولقدرته على القراءة بلغة أجنبية، من جهة أخرى. وهنا، وفي هذه المرحلة، بدأت أفكاره الكثيرة حول النهج وتحديد ماهيته ومعالمه، كما ازداد اهتمامه، وبصورة استثنائية بدراسة سير العظماء أو «البطل في صورة مقاتل» بتعبير توماس كارليل، إذ ان النهج طغى على معظم قراءاته[١٥٨]. وحينما نستشير الجدول الإحصائي الذي وضعه فوشيه نجد أن عدد الكتب التي قرأها في تلك الفترة، في هذا الحقل، عشرون كتاباً من مجموع خمسة وثلاثين كتاباً. وتأتي في مقدمة هذه الكتب مؤلفات عن نابليون، الذي قرأ عن سيرته خمسة كتب، وعن ونستون تشرشل ثلاثة كتب، وعن غوردون[١٥٩] كتابين، وكتباً عن بسمارك، وأتاتورك، وغاريبالدي، ولورنس، وفوش[١٦٠]، والاسكندر، وهندنبورغ[١٦١] وغيرهم. أما الكتب الأخرى الباقية التي بلغ مجموعها خمسة عشر

---

(١٥٦) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤.

(١٥٧) اسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة، ص ٤٦.

(١٥٨) ناتنج، ناصر، ص ٣٩؛ فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٨ ـ ١٢١، ولاكوتير، عبد الناصر، ص ٣٧.

(١٥٩) تشارلز جون غوردون (١٨٣٣ ـ ١٨٨٥) قائد بريطاني شهير، اشترك في العديد من الحروب المعروفة، بما في ذلك حرب القرم، عين حاكماً عاماً للسودان وقتل على يد قوات المهدي.

(١٦٠) فرديناند فوش (١٨٥١ ـ ١٩٢٩) قائد فرنسي معروف، أدى دوراً متميزاً في معارك الحرب العالمية الأولى على الساحة الفرنسية، عيّن قائداً عاماً لقوات الحلفاء في آذار/مارس ١٩١٨.

(١٦١) بول فون هندنبورغ (١٨٤٧ ـ ١٩٣٤) قائد ألماني معروف، عيّن في العام ١٩١٦ قائداً عاماً لجيوش دول الوسط، انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٢٥، عيّن هتلر رئيساً للوزراء في كانون الثاني/يناير ١٩٣٣، بقي بعد ذلك رئيساً اسمياً للدولة حتى وفاته.

كتاباً فكان معظمها متعلّقاً بالتاريخ العسكري، إذ استحوذ تاريخ الاستراتيجية الألمانية في الحرب العالمية الأولى على قسم منها، واحتفظ التاريخ العسكري للشرق الأوسط بما تبقى، ولا سيما سوريا وفلسطين وسيناء. وفي رأي غير باحث، أنه من خلال التاريخ العسكري وصل جمال عبد الناصر إلى طريق فلسطين، قبل أن يمشي خطوة واحدة على ترابها(١٦٢).

في هذه المرحلة بدأ الفكر القومي التحرّري يحتل حيّزاً في فكر جمال عبد الناصر، إذ لم يكن هذا الفكر قبل ذلك الوقت سوى فكر استراتيجي تحركه الوطنية المصرية التقليدية أكثر من أي شيء آخر، ولكنه تركز لديه وتبلور مقوماً أساسياً بنتيجة المحصلة التي أغنتها قراءات لاحقة اهتمت بدراسة التاريخ العربي والقومية العربية(١٦٣)، وأبرزها مؤلفات المفكر القومي العروبي ساطع الحصري(١٦٤)، فقد كان معجباً بكتاباته التي أسهمت في صقل وبلورة البناء القومي والعربي لديه(١٦٥). ومن المفيد أن نشير إلى أن جمال عبد الناصر التقاه فيما بعد، وأمر بتكريمه، ومنحه جائزة الدولة لعام ١٩٦٥، وهي جائزة تشجيعية لا تمنح عادة إلا للمصريين(١٦٦).

وكان من جملة فقرات برنامج جمال الأخرى في المتابعة الفكرية ـ السياسية في تلك الحقبة من حياته قراءة كتب في تاريخ مصر، وكان أبرزها كتاب **تاريخ الثورة المصرية** بأجزائه الثلاثة للمؤرخ المصري المعاصر عبد الرحمن الرافعي(١٦٧). كما ضم البرنامج سبعاً من المجلات العربية والأجنبية، وقد أسهمت قراءاته هذه، دون شك،

---

(١٦٢) الظاهر، «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية،» ص ٢٩، ولاكوتير، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٦٣) جمال عبد الناصر، **يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**، تقديم محمد حسنين هيكل (باريس: مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٧٨)، ص ١٩ و١١٥ ـ ١١٩.

(١٦٤) مفكر قومي عروبي رائد، كان مؤمناً بوحدة الأمة العربية وبطلان الحواجز وجوازات السفر التي تفصل بين أبناء الأمة الواحدة. وضع برنامجاً فكرياً يكاد يكون متكاملاً للارتقاء والنهوض بالأمة العربية عبر الصيغ التربوية، وهو يعد أول مفكر عربي معاصر عمل على إرساء دعائم نظرية الوحدة بعد الحرب العالمية الأولى، كتب مؤلفات عربية أكدت، دوماً، على عروبية نهجه، وعلى حتمية انتصار العروبة في الصراع الدائر بينها وبين أعدائها. من هنا كان جمال عبد الناصر يستلهم أفكاره خصوصاً في بدايات تبلور الفكر الناصري.

(١٦٥) أكد جمال عبد الناصر ذلك شخصياً أثناء لقائه بكريمة الحصري في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨. مقابلة مع سلوى ساطع الحصري بتاريخ ١٠ حزيران/يونيو ١٩٩٥.

(١٦٦) **ألف باء** (بغداد) (١٥ أيار/مايو ١٩٩٥)، ص ١٠ ـ ١١.

(١٦٧) عرف باتجاهاته الوطنية، اشترك في ثورة ١٩١٩، تعرض للاعتقال، دخل البرلمان نائباً معارضاً، حاز على جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية في عهد جمال عبد الناصر بتاريخ ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣.

وانطلاقه من منظور قومي عربي تحرري.

ساعد هذا كله في بلورة رؤية جمال عبد الناصر السياسية الجديدة التي تجلت في قناعاته المتأثرة جدلياً بروح العصر ومفهومه حولها[١٦٨]. وكانت رؤيته هذه تقوم على ثلاثة مقومات تاريخية ـ جيوبوليتيكية، مترافدة التأثير والتأثر، هي:

أ ـ ضرورة التركيز على الارتباط بالمشرق العربي، باعتبار ذلك أمراً تحتمه الضرورة الأمنية، وبخاصة بعد زرع الكيان الصهيوني الذي حول فلسطين إلى عازل بين جناحي الوطن العربي: مشرقه ومغربه.

ب ـ ارتكاز الدفاع عن مصر على الشام وفلسطين، بالضرورة. فقد بات يعتقد أن خط غزة بير سبع، تحديداً، هو الخط الأخير للدفاع عن مصر، إذ لا يوجد بعده إلا خط المضايق، الذي يدافع عن قناة السويس والقاهرة.

ج ـ الإيمان بالتلاحم، في قضية الأمن القومي، بين مصر وسوريا بالذات، وبصفة خاصة، لأن الدفاع عن مصر وتأمينها إنما يكون من أرض فلسطين وسوريا، فإن وجود قوة معادية لمصر في فلسطين يهدد أولاً شبه جزيرة سيناء، ويهدد ثانياً استقلال مصر[١٦٩].

والحق أن هذه المقومات الثلاثة في رؤية جمال عبد الناصر السياسية الجديدة، أثناء دراسته في الكلية الحربية، إنما تدين، في كثير منها لطروحات ساطع الحصري ورجال مدرسته، مثلما يمكن اختصارها، من جهة أخرى، في الإيمان بجدلية الأمن القومي العربي، وهو، هنا وفيما يخص مصر بالذات، يعني الاعتماد المتبادل بين أمن مصر وأمن سوريا وفلسطين، باعتبار أن هذه الأقطار العربية الثلاثة تشكل منظومة أمنية قومية واحدة، ويشكل كل منها للآخر عمقاً استراتيجياً[١٧٠].

واستطراداً، يمكن القول إن جمال عبد الناصر كان في تطبيقات فكره العروبي يعي، منذ البداية، أبعاد ربط الانتداب البريطاني في فلسطين بسيناء «وجعلها قوة عازلة، يمتد إليها النفوذ البريطاني، لأمن مصر، ولكن من فلسطين، وأقاموا خطاً للسكة الحديد وضعوه في أيدي حكومة فلسطين رغم وجوده على أرض مصرية،

---

(١٦٨) جوزف أبو خاطر، **لقاءات مع جمال عبد الناصر في صميم الأحداث**، ط ٢ (بيروت: دار النهار، ١٩٧١)، ص ٣٠.

(١٦٩) ابراهيم أمين غالي، **سيناء المصرية عبر التاريخ** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، ص ١٩٨.

(١٧٠) فؤاد مطر، **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ١١٩ ـ ١٢١.

وتشييده بأموال وعمالة مصرية، وفرضوا على المسافرين شرقاً من مصر أن يقدموا تأشيرات سفرهم لا عند رفح، أو حتى العريش، ولكن في القنطرة على ضفاف قناة السويس . . »[١٧١].

ولا شك في أن قضية الأمن هذه والتي بدأت مصرية وانتهت قومية عند جمال عبد الناصر، هي التي قادت فيما بعد، وخلال بلورة الانتماء القومي لديه، والاحساس العميق بالتزاماته، إلى إحساس بوحدة الأمن العربي، ثم إلى إحساس بوحدة المصير العربي[١٧٢]. قد يثار السؤال: هل هذه أفكار جديدة على الحياة السياسية في مصر، وما هو موقف رجال الفكر القومي حينذاك؟

الحقيقة أن هذه الأفكار لم تكن جديدة، وإنما كانت شيئاً من لغة الحوار السائد في تفكير رجال الفكر القومي في ضوء المتغيرات التي شهدتها الساحة العربية، وقتذاك، وباتت تشكل مسألة ملتهبة بين المسائل المطروحة، ولا سيما القضية الفلسطينية التي أصبحت محور نشاط رجال الفكر القومي، وأبرزهم، آنذاك، محمد حسين هيكل. في تموز/يوليو ١٩٣٧ قدم هذا استجواباً إلى مصطفى النحاس، رئيس الوزارة الوفدية وقتها، حول الوضع في فلسطين، فأجابه النحاس بأنه يبدي اهتماماً بالغاً بفلسطين، وهو اهتمام يعود إلى سنوات سابقة، إذ يجري، بشكل متواصل، حواراً مع السفير البريطاني ورجال الخارجية البريطانية[١٧٣]. وفي ٢٤ تموز/يوليو ١٩٣٧، أوضح النحاس للسفير البريطاني السير مايلز لامبسون «أنه لا يستطيع أن يحس بالاطمئنان وهو يفكر في قيام دولة يهودية على حدود مصر، إذ ما الذي يمنع اليهود من أن يدعوا لهم حقاً في سيناء فيما بعد». وأعرب لوزير الخارجية البريطانية عن عدم رضاه عن مشروع تقسيم فلسطين، وصرح بأن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي تجاه ما يجري في فلسطين، وانها تؤيد الشعب الفلسطيني. وأكدت حكومة مصر الوفدية ذلك أيضاً في عصبة الأمم في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٣٧، بعد انضمامها إليها. وبالطبع، فإن أهمية هذا الموقف ليست ناجمة عن تأييد مصر لقضية الشعب الفلسطيني، فحسب، بل تتجلى أهميته كذلك في إبراز مدى إدراك الجانب المصري، حكومة وشعباً، للأخطار المحدقة بسيادته الوطنية، كقطر قائم بذاته، من وجود دولة يهودية متاخمة لحدوده[١٧٤].

---

(١٧١) عبد الناصر، **يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**، ص ١١٨.

(١٧٢) مطر، المصدر نفسه، ص ١٢٠ و١٣٤ ـ ١٣٥.

(١٧٣) نقلاً عن: رمضان، **الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤**، ص ٣٥٦.

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

أما الجديد الذي أتى به جمال عبد الناصر من قراءاته السياسية والعسكرية والفكرية التاريخية، في تلك الحقبة، فهو بدايات تبلور إيمانه العميق بوحدة الأمة العربية من الخليج إلى المحيط. وتجلى ذلك بوضوح من خلال الرؤية الناصرية للمسألة، وهي التي تؤكد، كما مر بنا، جدلية ارتباط قضية الأمن المصري وقضية الأمن القومي العربي، على صعيد التاريخ والجغرافية والسياسة، فإن المنطقة العربية، وبخاصة مصر والمشرق كانت، ولا تزال، على مدى العصور، وحدة جيوبوليتيكية واحدة. وهذه الجدلية هي التي أدت في الرؤية الناصرية القومية المتبصرة إلى إسقاط مسألة «عزلة مصر أو حيادها» التي كانت تلقى قبولاً في الأوساط الرسمية الحاكمة، ولحد ما في بعض الأوساط الشعبية[(١٧٥)]. إن إيمان جمال عبد الناصر بأن من يسيطر على الشام يهدد مصر استراتيجياً، بمثل ما يهددها هيدرولوجياً من يسيطر على السودان، إن هذا الإيمان هو الذي حسم هذه المسألة نهائياً خلال العهد الناصري، على الأقل، لصالح جدلية الأمن القومي العربي.

كانت الكلية الحربية تعد طلبتها في ثلاث سنوات، إلا أنها وبسبب المتغيرات التي ألمحنا إليها، وأهمها حاجة الجيش المصري إلى ضباط لتنظيم وتدريب الدورات الجديدة من الجنود، أدت إلى تقليص المدة إلى ستة عشر شهراً. وهكذا، وبعد انقضاء هذه المدة، دخل جمال الامتحان، ليتخرج في الكلية في أول تموز/يوليو ١٩٣٨. وقد عين برتبة ملازم ثان في سلاح المشاة، ثم في سلاح الفرسان، ونقل بعدها إلى منقباد على مسافة بضع كيلومترات من أسيوط وقرية بني مر ليبدأ رحلته المهنية العسكرية[(١٧٦)]، ولتتبلور أيضاً أفكاره وطروحاته من يوم إلى آخر.

ثانياً: ولادة الفكر الناصري

تعد الحقبة الزمنية ١٩٣٨ ـ ١٩٥٢ مرحلة حاسمة في تاريخ جمال عبد الناصر الفكري والسياسي، فهي تشكل المرحلة الثالثة من مراحل تكون الفكر الناصري، وهي المرحلة التي تتسم بأنها الأشد خصوبة من سابقتيها، لأنها شهدت ولادة الفكر الناصري الذي بدأ يمهد ويخطط لتفجير ثورة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢[(١٧٧)].

ابتدأت هذه المرحلة بتخرج جمال عبد الناصر في الكلية الحربية والتحاقه بالخدمة

---

(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٦، ومطر، المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(١٧٦) لاكوتير، عبد الناصر، ص ٣٧، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 20.

(١٧٧) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٢٩، وقراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ١٢٩.

العسكرية النظامية ضابطاً على ملاك (الكتيبة الثالثة بنادق)، لينقل فيما بعد إلى الكتيبة الخامسة في منقباد بأسيوط. كانت هذه الفترة، في بدايتها، حافلة بالتأمل في ما آل إليه حال مصر، وحال فلاحيها الذين تعاظم واقعهم مرارةً وبؤساً، وتحول إلى أسوأ من ذي قبل (أيام طفولته ودراسته الابتدائية) خصوصاً بعد أن زاد إحكام ارتباط مصر بالسوق الرأسمالية العالمية واشتدت هيمنة القطاع الكومبرادوري في الاقتصاد المصري[١٧٨].

ففي الفترة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، بالذات، وفي عشية نشوب الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر في مصر، كما في العديد من الدول الرأسمالية والتابعة، بوادر أزمة اقتصادية جديدة، فقد تكدست كميات هائلة من القطن بلا تصريف، حتى هبط سعر القطن إلى مستوى عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠. وعلى ذلك فقد انخفض دخل الفلاحين الذي كان منخفضاً في الأصل. وكانت حملة محصول القطن عام ١٩٣٩ أقل بأكثر من مليوني قنطار[١٧٩] عن محصول عام ١٩٣٧. وفي تلك الأعوام تدهور بشدة وضع العمال، وازداد عدد العاطلين. وبينما انخفضت الأجور ظلت أسعار السلع الأساسية على مستواها السابق، بل ارتفعت في بعض الأحوال. وأخذت حكومة محمد محمود الاقطاعية الكومبرادورية تشدد مطاردة العمال ومنظماتهم، وقامت بإلغاء التنازلات الطفيفة التي كان العمال المصريون قد انتزعوها فيما مضى. كما حرمت الاجتماعات العمالية. وفي مدن كثيرة عمت الاضرابات التي أخذت نطاقاً واسعاً، وبصورة خاصة في عام ١٩٣٨. وفي خريف ١٩٣٨ شهدت القاهرة مظاهرة ضمّت عدة آلاف، تعرضت لهجوم من جانب قوات الجيش والبوليس، وقد أسفر الصدام عن كثير من الجرحى، كما اعتقل المتظاهرون بالمئات[١٨٠]. وفي آب/أغسطس ١٩٣٨ عقدت حكومة محمد محمود اتفاقية جديدة مع بريطانيا أدخلت تعديلاً على معاهدة ١٩٣٦ في اتجاه توسيع الإنشاءات البريطانية في مصر ذات الطابع العسكري الاستراتيجي، بينما ازدادت التزامات مصر في تغطية نفقاتها[١٨١]. وكانت تأملات جمال عبد الناصر، الضابط الشاب المتخرج تواً، في هذا الواقع المأساوي، مقترنة بخطواته الأولى لتكوين عصبته الشبابية العسكرية التي ستكون بذرة جماعة «الضباط الأحرار» فيما بعد. وكانت منقباد التي نقل الضابط جمال إليها شاهدة على تجمعات هذه العصبة العسكرية الشابة،

---

(١٧٨) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، مجموعة من المؤلفين (موسكو: أكاديمية العلوم السوفياتية، معهد الاستشراق، ١٩٧٦)، ج ٢، ص ٢٩، والجندي، هذا هو جمال، ص ٣٩.

(١٧٩) القنطار الواحد يعادل ٤٤,٩٢٨ كلغ.

(١٨٠) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، ج ٢، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(١٨١) محمد مصطفى صفوت، مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة: التطور السياسي، ١٨٨٢ ـ ١٩٥٨، الألف كتاب؛ ٢٤٠ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩)، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

التي كان الضابطان أنور السادات، وزكريا محيي الدين أبرز أعضائها، مما جعل لمنقباد هذه دوراً تاريخياً كبيراً[١٨٢]. ويمكن القول إن منقباد شهدت بدايات ولادة الفكر الناصري المتكامل، الوليد الشرعي للإرهاصات والتطورات والمعاناة الطويلة السابقة، فقد ساعدت أحداث منقباد في استجماع واستقطاب المنطلقات الفكرية للشبيبة المصرية الرافضة والثائرة على صيغ الإذلال الوطني والقومي، عبر الإطار الفكري الذي رسمه جمال عبد الناصر.

ومن الضروري أن نشير إلى أن مواصفات منقباد البيئية الجغرافية قد ساعدت في تهيئة المناخ اللازم لتعميق عرى الصداقة الوطيدة بين الضباط من خلال لقاءاتهم الترفيهية التي كانوا يتبادلون فيها مختلف الآراء، ويكشفون خفايا الحياة اليومية ومؤشرات التردي الشامل[١٨٣]. وكانت تلك اللقاءات، في جوهرها، جلسات حوار فكري عملت، بطريقتها الخاصة، على بلورة المنطلقات الفكرية النضالية في أذهان الضباط الشباب، من خلال الحوار الذي كان يثيره بذكاء وباستمرار جمال عبد الناصر، في نقده الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر آنذاك. وكان الحوار ساخناً، بصفة خاصة، حين يتناول مرابطة القوات الانكليزية المحتلة في القطر، وما يتبع ذلك ويتعلق به من صيغ الإذلال القومي جراء الهيمنة الاستعمارية المطلقة[١٨٤].

لقد كان بارعاً، حقاً، في إثارة الحوار ومواصلته، مستثمراً كل اللقاءات والمناسبات، على شتى المستويات، لاستقطاب محاوريه من الضباط الشباب. ونشير، مثلاً لا حصراً، إلى إحدى المناسبات ذات الدلالة، فبينما كان زملاؤه يحتفلون بعيد ميلاده العشرين (في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٨)، وقد استغرقوا في المرح الشبابي، على جبل الشريف، انتهز جمال الفرصة ليطرح عليهم، بصوت هادىء رزين، فكرته قائلاً: «لنغتنم هذه الفرصة ونخلق بيننا رابطة متينة، ليكن اجتماعنا هذا تاريخياً، وليحرص كل منا على أن يبقى أميناً للصداقة التي تربطنا وتوحد فيما بيننا». واستطرد يقول: «وبفضل هذا الاتحاد سننتصر ونذلل جميع العقبات»[١٨٥].

---

(١٨٢) أنور السادات، ثورة على النيل، ٢ ج (بغداد: الشركة الشرقية للطباعة، [د. ت.])، ص ٨ ـ ٩.

(١٨٣) أنور السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، تقديم جمال عبد الناصر، كتاب الهلال؛ ٧٦ (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧)، ص ٣٠، يقدم الكتاب وصفاً دقيقاً للواقع الجغرافي في منقباد. انظر أيضاً: Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, pp. 84-85.

(١٨٤) سان جون، الرئيس، ص ٤٠ قراءة، حارس المجد، جمال عبد الناصر، ص ٩، وفوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(١٨٥) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ١٢، وفوشيه المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٣.

وهكذا استطاع جمال عبد الناصر، أن يحول منقباد إلى مركز فكري اجتذب واستقطب الضباط الشباب المفعمين بالحيوية والآمال والتطلعات والتلهف للتغيير الجذري والآفاق الثورية الواسعة، والذين باتوا مرتبطين، بالتالي، بوشائج الصداقة والعهد والاتحاد لبناء الحياة الجديدة ضمن الإطار الفكري الجديد[(١٨٦)].

والملاحظ أن تلك المرحلة كانت بالغة الغنى بعطائها الفكري والسياسي، وذلك ناجم عن كونها قد مثلت، آنذاك، مرحلة مخاض فكري لميلاد الفكر العربي الثوري الجديد للتعبير عن هموم الأمة والنهوض بتطلعاتها. ففي سوريا ولد فكر البعث العربي، وفي مصر ولد الفكر الناصري في الفترة ذاتها تقريباً. ويمكن القول إن هذين الفكرين وليدا المرحلة التاريخية نفسها، وقد شغلا مكانيهما بجدارة، ونجحا، لحد كبير، في تبني هموم الأمة العربية وتجسيد طموحاتها الثورية، لذلك ان خصوصية المرحلة التاريخية فرضت أطراً فكرية للعمل السياسي الثوري قد تكون متباينة في السياقات، إلا أنها تلتقي في المسار المشترك لتحقيق الغاية المشتركة، فتكون بذلك وجهين لعملة واحدة[(١٨٧)].

لقد بدأ جمال عبد الناصر نشاطه السياسي الثوري على المستوى القيادي، بإعداد رجاله وأنصاره داخل الجيش إعداداً فكرياً ـ سيكولوجياً، كي تتبلور عند الجميع رؤية سياسية واحدة، وكي يلتزم الجميع بخط فكري واحد. وكانت وسائله إلى هذه الغاية، في المدى القريب، اللقاءات الشخصية، والرسائل الشخصية، والمنشورات التي كان يكتبها بنفسه ويوزعها بمعونة أصدقائه.

وقد تمحور برنامجه الفكري آنذاك، حول محور أساس هو تخليص مصر من الهيمنة الاستعمارية وتوحيد التيارات الفكرية في إطار فكري سياسي واحد، ليذيب مصر في حياة الأمة، ويجمع الأمة العربية حول مصر[(١٨٨)]. ولذلك بدأ خطاه الأولى، بهذا الخصوص، بإقرار النهج الذي رسمه لتحرير مصر من القيود الاستعمارية والفكرية والعسكرية. وهذا ما أكده السادات بقوله: «لم يكن أحد منا يجهل أن الانكليز سبب تعاستنا، وكنا جميعاً نبغضهم، ولكن جمال هو الذي قالها، ويقوله آنئذ

---

(١٨٦) أجاريشيف، **جمال عبد الناصر،** ص ٢١، واسماعيل [وآخرون]، **جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة،** ص ٥١.

(١٨٧) مقابلة مع د. الياس فرح في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤؛ الشمالي، **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر،** ص ٢؛ فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١، وسعد الدين ابراهيم، **مصر والوطن العربي: مقالات في رحاب المنتدى** (عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٩٠)، ص ٤٨.

(١٨٨) السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية،** ص ٣٤.

كأنه كلفنا بمهمة كبرى لا يجوز لأحد منا أن يتهرّب من الاشتراك فيها»(١٨٩).

لقد تمتع جمال عبد الناصر، مذ آنذاك، بمقومات قيادية وسمات فكرية خاصة أهلته لاستقراء حركة التاريخ قائداً قادراً على استقطاب الشباب. فقد كان هادئاً، رصيناً مؤثراً وكان يبدو ـ على حد قول السادات ـ أنضج وأعمق تفكيراً من رفاقه الملازمين، فكان، بالتالي، القلب النابض لحركة التمرد، وعقلها الديناميكي الخلاق(١٩٠). وكان جمال عبد الناصر يعمل، ويدعو لبعث الحياة الجديدة التي تؤمن الحرية والسعادة للجميع، وقد اهتم بالبحث عن المعنى والتعريف والمضمون السياسي لحركة التمرد الثوري. وقد بات الذين تعنيهم فكرة الثورة والتمرد الثوري يحسون، فعلاً، بوجود إرادة جماعية للتغيير تختمر في النفوس، وتتربص الفرص لتحقيقه. وكان ذلك أيضاً من مؤشرات بداية انطلاق الفكر الناصري(١٩١).

وهكذا يتضح جلياً أن جمال عبد الناصر استطاع أن يطلع بالفكر الناصري عبر الخطوط الفكرية الخاصة التي رسمها، فهو وإن لم يربط أنصاره بعمل معين، ولا بزمن محدد، إلا أنه استطاع أن يربطهم، فعلاً، برسالته التحريرية، التي جسد فيها، بطريقته الخاصة، آمال أمة تتعرف على طريقها الثوري نحو النصر(١٩٢).

ومن هنا بات لزاماً على الضباط الشباب الملتفين حول جمال عبد الناصر، العمل على توسيع إطار حركتهم بتجميع الأنصار حول هذه الحركة. كان كل واحد منهم يتحرك على عدد من الضباط، ويكون في محيطه خلية صغيرة منهم يطرح فيها أفكار الحركة للتعرف على مديات استعدادهم للعمل والتضحية والفداء، في نشاط سري بالغ التحوط والاحتراز. وبالرغم من السرية الشديدة التي أحاطت عملهم، إلا أن نشاطهم كان واسعاً، كما كان تأثيرهم كبيراً في أوساط الضباط. وكان جمال عبد الناصر بالغ التميز بينهم، ولذلك ورد اسمه ضمن القائمة السوداء وتعرض مراراً للنقل الإداري، مع عدد من زملائه وأنصاره. فقد نقلت المجموعة الأولى إلى الاسكندرية، والثانية إلى طنطا، والثالثة إلى القاهرة، والرابعة إلى مرسى مطروح(١٩٣). وهكذا فقد تم نقل جميع الضباط الثوار الأصدقاء من منقباد إلى مختلف أنحاء مصر،

---

(١٨٩) المصدر نفسه، ص ٣٤، والسادات، ثورة على النيل، ص ١٣.

(١٩٠) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٣٤، واسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة، ص ٤٧.

(١٩١) السادات، ثورة على النيل، ص ١٢.

(١٩٢) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٣٥ ـ ٣٧، وأجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ٣١ ـ ٣٥.

(١٩٣) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٣٦ ـ ٣٧، والجندي، هذا هو جمال، ص ٤٦.

بينما نقل جمال عبد الناصر إلى أمبابة، وبعد شهر واحد نقل منها إلى العلمين حيث لبث أربعة أشهر، ثم نقل إلى أبو زعبل، ومنها نقل إلى السودان حيث استقر أخيراً.

وبرغم هذا التشتيت والإبعاد، فإنهم ظلوا يعملون على توسيع حركتهم ضمن مواقعهم الجديدة. وكان هدفهم واضحاً ومحدداً وهو تحرير البلاد من الهيمنة البريطانية، وكانت آلية عملهم بسيطة، دون تعقيد، وقد استثمروا فيها المتغيرات التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية، واقترابها من الأرض المصرية. فعلى الرغم من حرص الحكومة المصرية، وقتذاك، على عدم التدخل، تجنباً لويلات الحرب، إلا أنها لم تستطع تفاديها لارتباطها بمعاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا(١٩٤). فقد ضغطت بريطانيا على مصر لتغيير سياستها في عدم التدخل، وللتحول نحو الانضواء الكامل تحت الهيمنة البريطانية والإسهام الفعال في تنفيذ مشاريعها في مصر والمنطقة، وكان من وقائع الضغط البريطاني إبراق اللورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية، آنذاك، إلى السفير البريطاني في مصر كيلرن بالعمل على إقالة وزارة علي ماهر، المنادية بعدم التدخل. واستقالت الوزارة فعلاً، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل جاء تصعيد بريطاني جديد تجسد في إصدار الأوامر بسحب الفرقتين المصريتين اللتين تقومان بالدفاع عن القطاعين البريين لتحتلهما القوات البريطانية لتنفرد بريطانيا بالدفاع عن المنطقة كلها هناك(١٩٥).

تفاقم التصعيد الاستعماري البريطاني بإصدار الأمر بترك الضباط والجنود المصريين أسلحتهم عند انسحابهم لتسليمها إلى القوات البريطانية المكلفة باحتلال القطاعين. وبالطبع، فإن هذه القرارات البريطانية التعسفية تركت أسوأ الوقع في نفوس العسكريين المصريين ضباطاً وجنوداً. لذلك كان رد فعلهم، بالضرورة، غاضباً وعنيفاً، فقد صمموا على رفض الأوامر مهما كلف الثمن، حتى لو كلفهم ذلك الاستشهاد في سبيل الوطن(١٩٦)، وقرروا السيطرة على جميع المرافق العامة أثناء انسحابهم إلى القاهرة، وفرض حكومة علي ماهر من جديد. وفي شهر أيلول/ سبتمبر، حين صدرت الأوامر بتسليم الأسلحة للبريطانيين، رفض الضباط المصريون ذلك وتقدموا إلى القاهرة، لكن الظروف الذاتية والموضوعية غير المؤاتية آنذاك، أوضحت لهم أن فرضهم سيطرتهم على المرافق العامة سيؤدي إلى تدميرهم وتدمير البلاد في معركة غير متكافئة، واختلال في توازن القوى في غير صالحهم قطعاً(١٩٧).

---

(١٩٤) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١٩٥) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ٥ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨)، ج ١: مصر والعسكريون، ص ٩٤ ـ ٩٧.

(١٩٦) عطوي، المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٩٧) المصدر نفسه، ص ٦٥ ـ ٦٦.

وهكذا اضطروا إلى تغيير آلية عملهم، ونهجهم في النشاط الثوري. لقد باتوا أكثر سرية وكتماناً، وانصرفوا إلى العمل على توسيع دوائر نشاطهم في القاهرة من جديد، ما عدا جمال عبد الناصر الذي ظل يراقب سير الأحداث والحركة الثورية منذ التحاقه بعمله في السودان في الثالث من آذار/مارس ١٩٣٩. وقد أدرك جمال في هذه المرحلة من تأملاته الفكرية المتبصرة أن الوطنية ومصلحة الوطن فوق الانفعالات غير المتروية، لذلك كان يوجه رفاقه بالمزيد من التروي، ونشير، مثلاً، إلى رسالته الموجهة إلى أحد أصدقائه من الخرطوم في آذار/مارس ١٩٤١ مؤنباً أياه بشدة غير معهودة «أرجو ألا تكون قد اندفعت بغير عقل، أو تندفع بغير رويّة..»(١٩٨).

وهو، بهذه الحيطة والتبصر، إنما كان يعد العدة لفتح آفاق جديدة للعمل الوطني والقومي، وخلق انموذج الثائر الجديد الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا ينحني إلا لله وضميره الوطني(١٩٩). وكان هدفه، في المدى القريب، تحويل الجيش المصري من جيش استعراضات يتحكم فيه القصر والرجعية المصرية إلى جيش ثائر يكرس أسلحته وقواه لقضايا الوطن والأمة. وقد أكسبته فترة عمله في السودان والعَلَمين خبرة ضخمة في معرفة الناس والبلاد، حيث عايَن عن كثب الآثار المدمرة للهيمنة الاستعمارية البريطانية(٢٠٠). وفي السودان، بالذات، تهيأ له الوقت وشروط الأمان النسبي، بعيداً عن مركز الأحداث في مصر، لمزيد من العمل الذهني والتأمل المثمر، ولا سيما بعد نقل عبد الحكيم عامر، صديقه الحميم، إلى حيث يعملان سوية. وقد تبلور اتفاقهما الفكري، وقتئذ، في قرارهما الذي انتهيا اليه، معاً، في وجوب القضاء على الفساد في مصر(٢٠١).

وفي ظل هذه العزلة الإجبارية قرأ جمال وزميله العديد من الكتب، التي شكلَت بالنسبة لجمال، بخاصة، حلقات متواصلة مع الحلقات الفكرية التي ارتبط بها في فترة دراسته بالكلية الحربية. وكانت الكتب الجديدة التي قرأها قد فتحت لذهنه آفاقاً جديدة في دراسة الحروب والتكتيك والوقائع والأعمال الضخمة التي قام بها الاسكندر وخالد ونابليون. وعلى صعيد آخر، كانت تلك القراءات فرصة للتحضير لكلية الأركان. وعلى العموم، فإن «الفترة السودانية» في حياة جمال العسكرية قد أهلته، بقراءاتها وتأملاتها المنتجة ودراساتها وتطبيقاتها الميدانية، للتبشير بفكره الثوري المتحرّر، وأكثر من ذلك لدخول طور صراع جديد، مرتبط بالضرورة بصراعه ضد الامبريالية

---

(١٩٨) نقلاً عن: الجندي، هذا هو جمال، ص ٤٢.

(١٩٩) اسماعيل [وآخرون]، جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة، ص ٤٢.

(٢٠٠) وين، ناصر العرب، البحث عن الكرامة، ص ٣٨، والجندي، المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢٠١) السادات: ثورة على النيل، ص ١٧ ـ ٢٣، وأسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، ووين، المصدر نفسه، ص ٣٨.

البريطانية، وهو صراعه، أيضاً، ضد الطبقة التقليدية «الطبقة القديمة في الجيش»، الأمر الذي أسفر عن نقله، هو وزميله عامر، إلى جبل الأولياء، وهو مركز ناءٍ في الريف السوداني بالقرب من سد مصري على النيل.

وقد ساعدته فترة عمله في مركز جبل الأولياء في إغناء فكره بالمزيد من التأمل المثمر، والتدارس الخصب لأفكاره الثورية، وللتجارب العربية والعالمية في التحول الثوري التحرري[٢٠٢]. ولكن جبل الأولياء والخرطوم لم يتيحا له الفرصة، قط، لتوثيق روابط الصداقة والتضامن بين العسكريين المصريين وأشقائهم العسكريّين السودانيين، برغم توفّر الهدف المشترك ووضوحه. وكانت الأسباب في ذلك ذاتية وموضوعية معاً. فإن الوحدات السودانية التي يشرف عليها ضباط بريطانيون بقيت معزولة، كما كان وعيها السياسي الذاتي متخلفاً نسبياً. وعلى صعيد آخر كانت القوات البريطانية والخبراء العسكريون البريطانيون حريصين كل الحرص على منع الاتصال بين الوحدات السودانية والوحدات المصرية، كي لا يمتد وهج الثورة والتضامن الكفاحي إلى الوحدات السودانية. وثمة عامل آخر وهو انشغال القوات السودانية بأجواء الحرب وحراسة حدود السودان أثناء الحرب العالمية الثانية، إضافةً إلى الاستثمار العسكري البريطاني لها بزجها لحماية المصالح البريطانية في مختلف الجبهات القتالية في العالم[٢٠٣].

وفي تلك الفترة رُقي جمال عبد الناصر في أول أيار/مايو ١٩٤٠ إلى رتبة ملازم أول وقاد في السودان فصيلاً عسكرياً، ثم خدم كنائب آمر في الفوج المصري الأول في الخرطوم، ومن ثم رقيّ إلى رتبة يوزباشي (نقيب) في عام ١٩٤٢. وبالرغم من صغر سنه أسند منصب رئيس أركان حرب الكتيبة اليه. وأخيراً نُقل من السودان إلى الصحراء الغربية[٢٠٤].

وبينما كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يواصلان خدمتهما العسكرية في السودان، بعيدين عن الحياة العامة، حصلت أحداث جسام في العالم، بصورة عامة، وفي مصر بصورة خاصة، وواكبتها أحداث فيما بعد، كان لها تأثيرها الكبير في مسار الحركة الفكرية عموماً، وفي مسار الرؤى الفكرية لجمال عبد الناصر خصوصاً[٢٠٥].

---

(٢٠٢) السادات، ثورة على النيل، ص ٢٠، والجندي، المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٠٣) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٤٠؛ عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٩٢، والشمالي، ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٦٩.

(٢٠٤) قبيسي وصالح، ناصر، الشهيد الحي، ص ٣٨ ـ ٤٠، وسان جون، الرئيس، ص ٤٠.

(٢٠٥) لاكوتير، عبد الناصر، ص ٤٠، وعطوي، المصدر نفسه، ص ٩٢.

١ ـ المرحلة الأولى من انطلاق الفكر الناصري: من ٤ شباط/ فبراير ١٩٤٣ حتى حرب فلسطين

لقد كان للأحداث التاريخية دور كبير في انطلاق الفكر الناصري، لأنها فجرت الطاقات الثورية الكامنة في نفوس الضباط المصريين. وكان من أهم هذه الأحداث، حادث ٤ شباط/ فبراير ١٩٤٢ الذي أحدث وقعاً عميقاً في نفوس المصريين، وأجج وهج الثورة في الجيش المصري بخاصة جراء الإذلال المشين الذي تعرض له الجيش والشعب بعامة، تحت الحراب البريطانية[٢٠٦]. وخلاصة الحادث أن البريطانيين كانوا يدركون موقف الشعب المصري الرافض لوجودهم، ولهيمنتهم على مقدرات مصر، لذلك كان استياؤهم كبيراً حينما وجدوا تقارباً كبيراً بين الملك والجيش من جهة، وبين الشعب والملك من جهة ثانية، فقد كان الملك فاروق، وقتها شاباً مندفعاً، ذا نزوع وطني استقلالي نسبياً، وبذلك كان يتمتع بالشعبية بين الجماهير وداخل الجيش أيضاً. ومما زاد من شعبيته ظهوره بمظهر المناوىء للسياسة البريطانية والاحتلال[٢٠٧]. وكان من شأن هذا كله أن يزيد في سخط بريطانيا أمام هذا التلاحم الشامل. فبدأت تخطط لإحداث شرخ كبير في البنية السياسية الشعبية المصرية وذلك باحتواء أقوى التيارات السياسية في مصر، وتشويه صورته أمام الجماهير. فكانت الدسيسة البريطانية، هنا، تقوم على استدعاء أكبر الأحزاب المصرية شعبيةً وتأثيراً، حزب الوفد، وفرض الحكومة التي يؤلفها رئيس الحزب مصطفى النحاس على الملك محيّثةً ذلك بنصوص معاهدة ١٩٣٦ التي أقرتها حكومة النحاس باشا وقتها. وكان من شأن نجاح هذه الخطة إضعاف سلطة الملك ومكانته، بفرض الوزارة التي تبتغيها بريطانيا، الأمر الذي يحدث بالضرورة شرخاً بالغاً للسيادة الوطنية، وتشويهاً كبيراً للحركة الوطنية والتضامن الشعبي السياسي الشامل، وإحباطاً عميقاً للتطلعات الجماهيرية. وقد استثمرت بريطانيا هذه الورقة الحساسة، المضمونة بالنسبة للمصالح البريطانية، فالوفد لا يجرؤ على الرفض لإقراره معاهدة عام ١٩٣٦ والتزامه بها، والملك لا يستطيع الرفض، هو الآخر، لأن رفضه المطالب البريطانية يعني خسرانه عرشه. أما الموافقة فكانت تعني، عملياً، الاستسلام التام، من جانب الملك، ومن جانب الوفد

(٢٠٦) عبد العظيم رمضان، مصر في عهد السادات: آراء في السياسة والتاريخ (بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦)، ص ٤٥ ـ ٤٦؛ حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ٩٨، ودومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٥٣.

(٢٠٧) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٦٤؛ محمد أنيس، ٤ فبراير ١٩٤٢ في تاريخ مصر السياسي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، ص ٨ و٣٠؛ البشري، الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد، ص ٤٦١، و Gray, «Arab Nationalism: Abdin Against the Wafd,» pp. 19-20.

أيضاً للمخططات البريطانية في مصر والمنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية[٢٠٨].

وبالفعل وضعت الخطة البريطانية موضع التطبيق. فقد أوضحت بريطانيا، على لسان سفيرها في مصر كيلرن عدم رغبتها في استمرار عمل حكومة علي ماهر المتأثر بالنزعة الفاشية، مخافة أن يزيد ذلك في متاعب البريطانيين آنئذٍ، في الشرق الأوسط. وابتدأ تنفيذ الخطّة بطلب السفير البريطاني مقابلة الملك فاروق في الساعة الواحدة ظهراً ليتقدّم بالمطاليب التالية:

أ ـ تأليف وزارة تدين بالولاء للمعاهدة (معاهدة ١٩٣٦)، وتكون قادرة على تنفيذها لفظاً ومعنى.

ب ـ أن تكون هذه الوزارة قوية وقادرة على الحكم، وتمتلك شعبية قادرة على استقطاب الجماهير.

ج ـ أن يتمّ ذلك قبل ظهر الغد.

د ـ أن يتحمّل الملك مسؤولية قيام أية اضطرابات قد تحدث أثناء تلك الفترة[٢٠٩].

وتعني هذه المطاليب، في واقع الأمر، أن الحكومة البريطانية قرّرت إرغام الملك على تكليف مصطفى النحاس زعيم الوفد، حزب غالبيّة الشعب آنذاك، بتأليف الوزارة! وبذلك يبدو النحاس وكأنه رجل بريطانيا في مصر، فتنشأ الهوة بينه وبين الجيش، وتتصدّع بذلك الجبهة الموحدة المرتقبة نتيجة التقارب بين الملك من جانب، والجيش والشعب من جانب آخر.

ومع ذلك، فإن بريطانيا وجدت ضرورياً، لغرض تمرير الخطّة، إيجاد المبرّرات الموجبة، وخلق الظروف الملائمة لتطبيق الخطّة، فافتعلت مظاهرات سيّرها أنصارها في البلاد تهلّل للقائد العسكري الألماني «رومل» المتقدّم آنذاك نحو مصر الخاضعة للاحتلال البريطاني[٢١٠]. وانطلقت المظاهرات ليلاً، وبدلاً من توجّه السلطات المحتلّة لتفريق المتظاهرين، تحرّكت إلى القصر لتفرض على الملك، بواسطة سفيرها كيلرن، خياراً بين تاجه وبين تكليف النحاس بتأليف الوزارة! ولم يرضخ الملك فوراً، وحاول الالتفاف على القرار باستدعاء رؤساء الأحزاب السياسية لبيان رأيهم وتحميلهم مسؤولية الموقف، بغية كسب الوقت لمعالجة الموضوع. وعلى الرغم من أن هذا القرار كان يترجم، في

(٢٠٨) رمضان، المصدر نفسه، ص ٣٧ ـ ٤٥، ودومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢٠٩) السادات، المصدر نفسه، ص ٦٥، وأنيس، المصدر نفسه، ص ٩ ـ ١٠ و٣٨.

(٢١٠) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ٩٨، والشمالي، ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٤٢.

جوهره، أمل الملك بحسم نتيجة الحرب لصالح المحور، والحفاظ، بذلك، على استقلالية الملك، إلا أنه كان يتعاطف، في التفسير الشعبي، مع الرغبة العامة بعدم الرضوخ لإرادة المحتلّين البريطانيين وغطرستهم.

وحين لاحظت بريطانيا موقف الملك الالتفافي أمرت السفير بتسليم رئيس الديوان الملكي المصري آنذاك، أحمد حسين إنذاراً بهذا النصّ: «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساءً أن النحاس باشا دُعي لتأليف الوزارة، فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث». وكان مجرّد توجيه الإنذار بهذه اللهجة، وهذا النص، يعني تأزّم الموقف تأزّماً خطيراً. وقد زاد الأمر تفاقماً استدعاء الملك رؤساء الأحزاب إلى القصر للتشاور بشأن الإنذار والردّ عليه[٢١١]. وفي ضوء الإنذار البريطاني الاستفزازي والقراءة العامة المنزعجة للغاية لصيغة الإنذار وروحه، وضع رؤساء الأحزاب المصرية، وبضمنهم النحاس رئيس حزب الوفد المدعوّ لتأليف الوزارة بحماية البريطانيين، قراراً مكتوباً موجّهاً إلى الملك يتضمّن مشورتهم وموقفهم برفض الإنذار على أساس أن توجيهه يُعَدُّ «إخلالاً كبيراً بالمعاهدة البريطانية المصرية واستقلال البلاد»، وقد تمخّض عن هذا الموقف، بالضرورة، وكما هو متوقّع، ان ساق الإنكليز دباباتهم إلى ساحة عابدين في الرابع من شباط/فبراير ليلاً لفرض حكومة وفدية برئاسة النحاس على الملك فاروق تنفيذاً لإنذارهم. وهكذا انجلى الموقف، أخيراً، بأنْ اعتلى الوفد منصّه الحكم على أسنّة الرماح الإنكليزية[٢١٢].

ومهما اختلفت التفسيرات في تحليل مغزى هذا الحدث الخطير في تاريخ مصر والمنطقة، سواء أصدر اقتراح باستدعاء النحاس وإسناد الوزارة إليه عن الملك فاروق وليس عن السفير البريطاني، أم أن النحاس قد قبل الحكم على أسنّة الحراب الانكليزية، أم أن هذه الحراب كانت موجودة لغرض آخر وهو خلع الملك فاروق، فإن ذلك لن يغيّر من المسألة شيئاً ذلك أنه لولا الإنذار البريطاني وتخاذل الملك والتفافه على الحقيقة ومحاولته إخفاء الوجه الآخر للمسألة عن النحاس عندما كلّفه بتشكيل الوزارة، وعلم النحاس بأن هذا التكليف لم يأت طواعية وإنما تم تحت ضغط وتهديد

---

(٢١١) محمد نجيب، مذكرات محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر، ط ٥ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨)، ص ٦٠ - ٦١؛ أنيس، المصدر نفسه، ص ١٢ - ١٣ و٢١؛ محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ٢ ج (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨)، ص ٢٣، وعبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٨ (بيروت: الوطن العربي، ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٦٠ - ٦١.

(٢١٢) الأهرام، ٢٣/١١/١٩٤٥؛ المصري، ٢٤/١١/١٩٤٥؛ أنيس، ٤ فبراير ١٩٤٢، في تاريخ مصر السياسي، ص ٢٢ - ٢٣؛ محمد مصطفى عطا، مصر بين ثورتين (القاهرة: دار المعارف، [د. ت.])، و Gray, «Arab Nationlism: Abdin Against the Wafd,» pp. 19-20.

بريطانيّين، لما اتخذ حدث ٤ شباط/فبراير هذا الطابع المأساوي الذي كان عاملاً من العوامل المؤثرة التي أسهمت بآثارها، على المدى الطويل، في تشكيل المأزق التاريخي الذي حاولت ثورة تموز/يوليو الخروج منه بطريقتها الخاصة[٢١٣].

لقد أولد هذا الحدث، بكلّ ملابساته ومضاعفاته الخطيرة، استياءً بالغاً لدى الشعب والجيش معاً، واختزنت ذاكرة الشعب المصري هذا الحدث، في أعماقها، مثلما اختزنت وقائع الصراع الدائر بين السياسيين المجتمعين في قصر الملك، والمواقف المثيرة التي أفرزتها جلساتهم[٢١٤].

قوّم العسكريون المصريّون الحدث بأنه ضربة عسكرية معادية استهدفتهم بالذات، واستهدفت كرامتهم وشرفهم كعسكريين ومواطنين مصريين، وقد ثاروا وتمرّدوا، وأحس بعضهم بإحباط بالغ هانت معه الاستقالة من الجيش تخلصاً من المسؤولية. وكان أولهم في ذلك محمد نجيب الذي قال في ذلك «... وفي اليوم التالي، قبل أن يدخل النحاس مقرّ الحكومة، قال: الحقيقة أن الملك سمح للسفارة البريطانية أن يسلبوه سلطته... وعندما رأيت كل هذا، أحسست باحتقار وقرف من بدلتي العسكرية، وكتبت استقالتي، احتجاجاً على ما حدث، وقلت للملك في الاستقالة: حيث إني لم أستطع أن أحمي مليكي وقت الخطر فإني لأخجل من ارتداء بدلتي العسكرية والسير بها بين المواطنين، ولذا أقدم استقالتي»[٢١٥].

وانتهج ضباط آخرون نهج التمرد الثوري، وبدأت الاجتماعات تُعقَد علناً في نادي ضباط الجيش لمناقشة الموقف، وتقرير ما ينبغي عمله. والحقيقة أن هذا الحدث التاريخي الخطير ترك أثره العميق في عقول الضباط المصريين وضمائرهم، وطرح بالضرورة السؤال الكبير: ما العمل؟ رداً على الإهانة، وثأراً للكرامة والشرف المهان[٢١٦].

---

(٢١٣) أنيس، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨ و٢٥، ورمضان، مصر في عهد السادات: آراء في السياسة والتاريخ، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢١٤) يشير عبد العظيم رمضان إلى مسألة الرد الشعبي على هذا الحديث بشكل آخر، ففي رأيه أن الناس استقبلوا عودة الوفد إلى الحكم «بالفرحة العارمة والترحاب البالغ». انظر: رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٨، ج ٢، ص ٢٢٠. ويشير علي الدين هلال إلى مثل ذلك أيضاً وهو يستشهد بالدراسة التاريخية لمركز البحوث بالأهرام والمنشورة في عام ١٩٧٣. انظر: هلال، السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢، ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٢١٥) نجيب، مذكرات محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر، ص ٦١.

(٢١٦) النشار، «ذكرياتي عن عبد الناصر،» ص ٣؛ السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ١٥؛ حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ٩٩، ولاكوتير، عبد الناصر، ص ٤٠.

وهذا ما صوّره الضابط جمال عبد الناصر في رسالته التي بعثها من السودان، حيث كان وقتئذٍ، إلى صديقه حسن النشّار، إذْ تطالعنا فيها أوصاف غاية في الواقعية والدقّة للمشاعر التي أولدها ذلك الحدث، وانعكاساته ومضاعفاته في النفوس، حيث يقول: «إن خطابك جعلني أغلي غلياناً مرأ، حتى كنت على وشك الانفجار من الغيظ، ولكن أشعر بالخزي والعار لأن جيشنا سكت على هذا الاعتداء وارتضاه، ولكنني مسرور، على أيّة حال، فقد كان ضبّاطنا يشغلون أوقات فراغهم بالحديث عن ساعات اللهو والمسرّات، فبدأوا الآن يتحدثون عن الانتقام لا من أجل القصر، ولكنْ من أجل مصر»(٢١٧). وإلى هذه الحادثة نفسها، يشير جمال عبد الناصر في مناسبة أخرى، إذ يقول: «إن هذا اليوم ـ اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي أبعد من حادث ٤ شباط/فبراير ١٩٤٢، الذي كتبت بعده خطاباً إلى صديق قلت له: ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين؟»(٢١٨).

ويمكننا القول بأن الحوار الدائر في ذهن جمال عبد الناصر انما شكّل الاستجابة الواقعية التي ينبغي لمضاعفات ٤ شباط/فبراير وإفرازاته، وهي الاستجابة التي نستخلصها من خلال السؤال الذي طرحه جمال في رسالته إلى صديقه حسن النشار، «ما العمل؟»(٢١٩).

وعلى الرغم من أن الإجابة في حينها لم تكن واضحة تماماً إلا أننا نلمح أن التضحية تشكّل الركيزة الأساسية في هذا العمل، فلو قابل المصريون «القوّة بالقوّة» لانسحب، كما يرى عبد الناصر، الاستعمار البريطاني، لأنه لم يكن يقصد من وراء هذا الحادث غير التهديد فقط(٢٢٠).

وبطبيعة الحال، فإن جمال عبد الناصر كان لا شك يدرك، وقتها، أن القوّة لا يمكن «استحضارها» خلال وقت قصير، فهو حتى وقوع الحادث يعرف جيداً أن «الإخلاص معدوم، والذمة مفقودة، والضمير لا تسمع عنه في الوسط العسكري آنذاك». وأكثر من ذلك فإن نظريات الإصلاح التي كان جمال يطرحها كرد فعل على الواقع المتخلّف، والتي كان يقدّر عشر سنوات لها لكي تغدو حقيقة واقعة، صار يقدر لها، في عنفوان الصدمة والخيبة، مائة سنة لتتحقق في خلفيّة هذا التردي الذي جعل يعانيه في ضوء الحادث المشهور.

---

(٢١٧) النشار، المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٢١٨) نقلاً عن: عطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ٦٧.

(٢١٩) نشر جورج فوشيه بدوره مقتبسات مهمة من رسالة حسن النشار المذكورة. انظر: فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١٣.

(٢٢٠) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ١٥.

بيْد أن هذا الحادث الخطير، على كل المستويات، والذي يرقى إلى مصاف الحدث التاريخي الكبير كان لا بد من أن تكون له، بالضرورة، امتداداته وتأثيراته في المدى القريب والمدى البعيد، أيضاً، ولا سيما في الجانب الروحي - القيمي - الفكري، فقد ساعد التأمل فيه، وفي إفرازاته في تكوين وتعميق رؤية جديدة تنزع لبناء المجتمع الجديد. وهذا ما أشار إليه جمال عبد الناصر، فيما بعد، في كتابه **فلسفة الثورة**، حينما أكد أن أصداء الحادث وامتداداته في النفوس أحدثت «تأثيراً جديداً في الروح المعنوية، بعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة، وأصبحت تراهم وكلهم ندم، لأنهم لم يتدخلوا، مع ضعفهم الظاهر، ويردوا للبلاد كرامتها ويغسلوها بالدماء»[٢٢١]. لقد كان حادث ٤ شباط/ فبراير «درساً قاسياً» و«طعنة» (كما يصفه جمال عبد الناصر) «ردت الروح إلى بعض الأجساد وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها»[٢٢٢]. وتعدى رد الفعل على هذا الحادث «الحدود المسموح بها».

لقد شكّلت تلك الفترة، إذن، مرحلة بلورة الفكر الناصري وانطلاقه باتجاه العمل المنظم[٢٢٣]. فذلك الحادث بلور في ذهنه فكرة إقامة تنظيم «الضباط الأحرار»، فجعل يصوغ الهيكل التنظيمي لها معتمداً خطةً يكون التنظيم بموجبها سرياً يضمّ عدداً من الضباط مهمتهم التغلغل في جميع أسلحة الجيش، وإحكام السيطرة عليه. وكانت الخطّة بأن تقام التشكيلات السرية على أساس نظام الخلايا في تسلسل هرمي يؤمّن المزيد من الحصانة والحماية الأمنية، ويخضع لقيادة عليا، فلا يعرف أعضاء الخلايا أسماء أعضاء القيادة. كما حدد جمال عبد الناصر التشكيلات الإدارية لإقامة تنظيم حركي فعّال يقوم على أسس مبدئية، وعلى النحو التالي[٢٢٤]:

١ - **الإدارة الاقتصادية**: ومهمّتها تمويل التنظيم بجمع المال من الاشتراكات وغيرها، واستثماره بوسائل مأمونة لخدمة المسيرة التنظيمية والعاملين المتفرغين فيها.

---

(٢٢١) المصدر نفسه، ص ٧.

(٢٢٢) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٠ (مقتطفات من رسالة عبد الناصر إلى صديقه حسن النشار).

(٢٢٣) عبد الناصر، المصدر نفسه، ص ١٥، ودومال ولوروا، **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**، ص ٥٣.

(٢٢٤) السادات: **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، ص ١٣٨ - ١٣٩، و**ثورة على النيل**، ص ٨؛ البشري، **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ - ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**، ص ٤٦٢؛ دومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٥٣، وايغور بيليايف وافغيني بريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٣٥ - ٤٠.

إن هذه الإدارة تعمل كخزانة للحركة ويشرف عليها جمال عبد الناصر بشكل مباشر.

٢ ـ **إدارة التشكيلات**: وكانت مهمّتها بالغة الأهمية، فهي التي تضطلع بكسب العناصر الصالحة من الضباط من الصنوف والأسلحة المختلفة، وهي التي تعرف جميع الأنصار وتجمعهم لا على أساس اختيارات الجمعيات السرية المختلفة، ولكن على أساس الصداقات القائمة بينهم. وهي تتولّى، كذلك، متابعة المسيرة التنظيمية، فهي تراقب مسار التشكيلات في ضوء المعلومات المتوفّرة لديها عن عمل الضباط المنضمّين للتنظيم، فإذا اتضح لها بأن هناك ما يعيق عمل الضباط الأحرار تعمل على تذليله وصولاً لتحقيق الأهداف التي تنشدها.

٣ ـ **إدارة الدعاية**: ومهمّتها الاتصال بالمنظمات المهنية والاجتماعية، والتحرّك على التجمّعات الشعبية والمنابر العامة، ومناقشة الأوضاع ونقدها عبر وسائل إعلام وقتذاك، وبخاصة المتاح منها (الصحف والمجلات)، من خلال الحوار مع الضباط وغير الضباط، توصلاً لنشر الأفكار التي يدعو إليها تنظيم الضباط الأحرار.

٤ ـ **إدارة الإرهاب**: وهي التي تتولّى حماية المسيرة الوطنية، وغرس الروح الفدائية لدى الشباب لدفعهم نحو الأعمال البطولية في التصدّي للتحديات التي تواجه الوطن، وتصفية العناصر المضادّة للحركة الوطنية[٢٢٥].

واستقراءً لسيرة جمال عبد الناصر وفكره الثوري التحرري، يمكن القول إن تسمية «إدارة الإرهاب» لم تكن موفّقة، لأنها لا تنسجم مع سيرته وفكره وآفاق الحركة التي قادها، ولأنها تأتي بمردود سلبي للغاية لا يتّفق مع تطلّعات جمال عبد الناصر الوطنية والقومية، فإن مهمّات هذه الإدارة فدائية وليست إرهابية تدميرية تقوم على الإرهاب لأجل الإرهاب. ولعل المرحلة الأولى لانطلاق الفكر الناصري كانت مضطرة بسبب محدوديتها لأن تستعين في البداية بشيء من الإرهاب لغرض تمهيد الطريق أمام تعميق النزوع الوطني البطولي لدى الشباب. وكان ذلك أمراً خاطئاً تجاوزه ناصر نفسه ودانه في أحاديثه اللاحقة بعد الثورة، عندما قال: «لعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف. إن الاغتيالات السياسية توهّجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة، على أنها العمل الإيجابي الذي لا مفرّ من الإقدام عليه، إذ كان يجب ان ننقذ مستقبل وطننا. وفكرّت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا ومستقبله، ورحت أفنّد جرائمهم، وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالهم وعلى الأضرار التي ألحقتها بهذا الوطن، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب أن يصدر

---

(٢٢٥) السادات: أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ١٣٩ ـ ١٤٢، وثورة على النيل، ص ١٩؛ فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٨٢ ـ ١٨٣، وأجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ٢٩.

عليهم. ولم أكن وحدي في هذا التفكير. ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير إلى التدبير. وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام، وما أكثر الليالي التي سهرتها أعدّ العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة . . . كانت حياتنا في تلك الفترة كأنّها قصة بوليسية مثيرة، كانت لنا أسرار هائلة، وكانت لنا رموز، وكنا نتستّر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به. وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه، وما زلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا، ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته. والحق أنني لم أكن في أعماقي مستريحاً إلى تصوّر العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعيّن علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا. كانت في نفسي حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة، عوامل من الوطنية، ومن الدين، ومن الرحمة، ومن القسوة، ومن الإيمان، ومن الشكّ، ومن العلم، ومن الجهل . . . ورويداً رويداً، وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهّجت في خيالي تخبو جذوتها، وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر»[٢٢٦].

وتحوّل جمال عبد الناصر بعد ذلك نحو طريق الثورة والعنف الثوري ونبذ الإرهاب الفردي نهائياً، خصوصاً بعد إخفاق محاولة اغتيال حسين سري عامر التي وافق عبد الناصر نفسه على تنفيذها[٢٢٧].

٥ ـ **إدارة الأمن**: ومهمتها مراقبة الحركة والانعكاسات والتأثيرات التي تحدثها في الساحة الوطنية، فهي كالمفتاح لجهاز المراقبة.

وكان جمال عبد الناصر يشرف على هذه الإدارات، جميعاً، وكانت الخيوط كلها تنتهي في يديه، فهو يعرف كل شيء عن المنضمّين للتنظيم، ويمسك بمفاتيح الرقابة كلها، ولا يصرف أي مبلغ من المال دون موافقته أيضاً[٢٢٨].

ابتدأ جمال عبد الناصر، بعد ذلك، انتقاء العناصر الجيدة المؤهّلة تمهيداً لإقامة «الهيئة التأسيسية»، أو «اللجنة التأسيسية» كما يسميها هيكل[٢٢٩] لتنظيم الضباط

---

(٢٢٦) نقلاً عن: حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ٩٩. أعاد العديد من المؤلفين العرب وغير العرب نشر هذا التصريح لجمال عبد الناصر نصاً كاملاً أو جزئياً نظراً لأهميته البالغة لفهم مسار تطور الفكر الناصري. انظر على سبيل المثال: عطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ٨٠ ـ ٨١؛ أجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, pp. 19-20.

(٢٢٧) خالد محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ٩/١٢/١٩٩٢.

(٢٢٨) السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، ص ١٣٩ ـ ١٤٢، والبشري، **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**، ص ٤٦٢.

(٢٢٩) يقول هيكل «تنظيم الضباط الأحرار عبارة عن لجنة تأسيسية وخلايا ضباط أحرار». انظر: مطر، **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل**، ص ٣٣.

الأحرار[٢٣٠]. ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن عام ١٩٤٢ هو نقطة انطلاق الفكر الناصري، بمعنى نقطة البدء بمرحلة التفكير بالثورة وإيجاد تنظيم قادر على تفجيرها. ويمكن القول، بالتالي إن حادث شباط/فبراير ١٩٤٢ إنما شكل نقطة تحول حاسم في البناء الفكري لعقيدة جمال عبد الناصر السياسية، ونقطة تحول، كذلك، في الذهنية السياسية لجماهير مصر[٢٣١].

وقررّ جمال، بعد ان انتهى من تشكيل البنية الهيكلية للتنظيم ومفاصلها الرئيسية، ممثلةً في الإدارات الخمس المذكورة آنفاً، أن يسمّي هذا التنظيم العسكري الوطني الثوري «الضبّاط الأحرار»[٢٣٢]. وكان يرى أن تسمية «الضبّاط الأحرار» مناسبة تماماً للتنظيم الذي قام بتشكيله بين ضباط الجيش، ذلك أنها تعكس ما هو متفق عليه بين الضباط ذوي الأفكار الوطنية، والمنتمين إلى جميع الاتجاهات السياسية المعارضة، مثلما تعكس الخطوط الأولية من الإيديولوجية التي حددها جمال عبد الناصر وارتضاها في تلك الحقبة الزمنية، وكان تنظيم الضباط الأحرار يقوم حينذاك على ثلاثة أسس:

الأساس الأول: الصداقة التي تجمع الضباط الأحرار وتوحدهم.

الأساس الثاني: السرية التامة.

الأساس الثالث: الحب المتفاني للوطن والشعب[٢٣٣].

بعد مدة تحولت هذه القاعدة الضيقة، القائمة على أساس العلاقة والنظرة في إطار العمل والحياة، إلى قاعدة فكرية أشمل تضم أناساً أبعد، وتنطوي على اتجاهات وقناعات أوسع. نورد بهذا الصدد ملاحظة سجلها محمد حسنين هيكل نظراً لأهميتها، باعتبارها رأياً صادراً من مفكر قريب جداً من صانع القرار في تنظيم الضباط الأحرار، جمال عبد الناصر، والذي يقول نصه:

«في تقديري أن اختيار أعضاء الخلية الأولى تم على أساس الصداقة والتعاطف الشخصي بين مجموعة متجانسة من ضباط الجيش. والخلية الأولى تتألف من ستة أو

---

(٢٣٠) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٧١، والجندي، هذا هو جمال، ص ٤٦.

(٢٣١) دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٥٧، والبشري، الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد، ص ٤٦٣.

(٢٣٢) لاكوتير، عبد الناصر، ص ٤٠؛ البشري، المصدر نفسه، ص ٤٦٣، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, pp. 19-20.

(٢٣٣) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٣٨، وأجاريشيف، جمال عبد الناصر، ص ٢٥ ـ ٢٦.

سبعة ضباط بينهم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وخالد محيي الدين وحسن ابراهيم وحسن التهامي[٢٣٤]. وعشية قيام الثورة أصبحت اللجنة تضم عناصر تمثل معظم التيارات السياسية في مصر، هنالك من يمثل اليسار، وهنالك المتعاطف مع الاتجاه الإسلامي، وهنالك المقرب من الوفد، وهذا التمثيل ضمن لحركة الضباط الأحرار تمثيلاً عريضاً في الرأي العام. وسواء جاء هذا التمثيل بشكل عفوي، أو كان متعمداً فإنه أفاد كثيراً، لقد استقطبت الحركة قبل أن تقوم الثورة معظم التيارات السياسية في مصر»[٢٣٥].

لقد أفاد جمالاً تكتّمهُ الشديد، وتأمّله الطويل المثمر في تاريخ وحاضر مصر، وفي التجارب الثورية العربية والعالمية السابقة والمعاصرة. وحين قرّر أن يبدأ العمل التنظيمي فإنه كان قد هيّأ مستلزمات نجاحه التام. يقول أنور السادات بهذا الصّدد: «والذين يعرفون جمال يعرفون أنه رجل لا يبدأ عملاً حتى ينتهي تماماً من بحث جميع تفاصيله، ولا يخطو خطوة حتى يدرس الأرض التي سيخطو عليها، ويتبيّن جيداً معالم طريقه، ويدرس، قبل كل هذا، ما سبقها من خطى»[٢٣٦].

وبينما كان منصرفاً إلى اجتذاب الضباط الوطنيين المعارضين إلى تنظيمه الجديد منطلقاً من مقولة «ان الضباط الأحرار مدعوّون إلى العمل فوراً»[٢٣٧]، فإنه كان يتحوط ويحاذر كثيراً، حاسباً لكل شيء حسابه، ومن ذلك النقل إلى موقع آخر. ولكنه عُيّن مدرساً في الكلية الحربية[٢٣٨]، وابتدأ عمله الجديد في ٧ شباط/فبراير ١٩٤٣ مدرساً بالسرية الأولى، حيث تتلمذ على يديه كثيرون من ضباط الجيش كانوا يرون فيه مثالهم الأعلى. وكان يدرّس تلامذته الفنّ العسكري، ولا سيما في استعمال الأسلحة الخفيفة، وقد ترك تأثيراً بالغاً في أذهان الدارسين الذين كانوا يفخرون، عند تخرّجهم، أنهم كانوا من تلامذة جمال عبد الناصر[٢٣٩]. ومن هؤلاء كان علوي حافظ الذي قدّم شهادته بالشكل التالي: «سمعت اسمه قبل أن أراه، فقد ترك سيرة مشرفة في الخرطوم وجبل الأولياء لما أمضى زمناً هناك، وكان الضباط يردّدون الكثير عن كفاءاته العسكرية العالية، وقوة شخصيته، وقدرته على اجتذاب القلوب إليه. والتقيته

---

(٢٣٤) وفق خالد محيي الدين ضم الاجتماع الأول للخلية الأولى لتنظيم الضباط الأحرار كلاً من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وعبد المنعم عبد الرؤوف وخالد محيي الدين نفسه. انظر: محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ١٩٩٢/١٢/٩.

(٢٣٥) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٣٦.

(٢٣٦) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ١٣٨.

(٢٣٧) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٨٥.

(٢٣٨) السادات، المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٢٣٩) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ١٦٩.

في القاهرة في مدرسة الشؤون الإدارية، فقد جاء دوري للرمي . . . والشرط أن اجتاز فرقتين أولاهما شؤون ادارية، والثانية تكتيك في مدرسة المشاة، وكان جمال عبد الناصر مدرساً لفرقتنا في الشؤون الإدارية، كان نحيلاً . . . سامقاً ومحاضراً قوياً في مادته، شيقاً في سرده . . .»، ثم يروي ما يوضح بشكل دقيق عمق نظره في تقويم الأمور[٢٤٠].

وفي الوقت الذي كان يقوم بوظيفته في الكلية الحربية، كان النقيب جمال عبد الناصر يستعدّ لامتحان الدخول إلى كلية أركان الحرب[٢٤١]. وتعد فترة السنوات الخمس ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ التي قضاها أستاذاً في الكلية الحربية (بعد حصوله على رتبة نقيب أركان) فترةً مهمة على كلّ المستويات، ولا سيّما على المستوى الفكري والثقافي. فقد قرأ الكثير من الكتب التي كانت تزهو بها خزانة الكلية الحربية[٢٤٢]. وفي لائحة الكتب التي قرأها، وأحصاها فوشيه، يحتلّ الرايخ الثالث الألماني وهتلر محلّ نابليون والثورة الفرنسية في قراءاته السابقة، كما استحوذت على اهتمامه الثقافي ثلاثة كتب في اليابان والقوة الذاتية اليابانية، وسبعة كتب في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، وثمانية كتب في تاريخ مصر ومشاكلها. ووقف قارئاً متأملاً، مستوعباً وقفات مطوّلة عند الكتب عن معارك اللنبي في مصر وفلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، بما فيها دراسات ويفل الذي أصبح ماريشالاً في ما بعد[٢٤٣]، وكذلك كتابي ارنولد ولسن عن الحملات العسكرية البريطانية على العراق[٢٤٤]، وكتب المذكّرات عن

---

(٢٤٠) علوي حافظ، **مهمتي السرية بين عبد الناصر وأمريكا** (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٧٦)، ص ٢٧ ـ ٣٢.

(٢٤١) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٩، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٤٦.

(٢٤٢) فوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٤ ـ ١٢٨، والنشار، «ذكرياتي عن عبد الناصر،» ص ٣ ـ ٥.

(٢٤٣) ايرل ارشيبال ويفل (١٨٨٣ ـ ١٩٥٠) قائد بريطاني أسهم في حرب جنوب افريقيا وفي الحرب العالمية الأولى بالجبهة الغربية، كما عمل تحت قيادة الجنرال اللنبي (١٩١٧ ـ ١٩١٨) في عمليات فلسطين فخبر استراتيجية الصحراء، عيّن قائداً للقوات البريطانية بفلسطين في أثناء الصراع العربي ـ الصهيوني (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)، اشترك في الحرب العالمية الثانية، نصب قائداً عاماً لقوات الحلفاء في الشرق الأقصى، وأخيراً حاكماً عاماً للهند في عام ١٩٤٣. من مؤلفاته: **العمليات الحربية في فلسطين** (١٩٢٨) **والجنرال اللنبي** (١٩٤٠) **والقادة والقيادة** (١٩٤١). من هنا جاء اهتمام جمال عبد الناصر الكبير بتاريخ حياة ويفل ومؤلفاته.

(٢٤٤) قرأهما عبد الناصر بالإنكليزية، وقد ترجمهما فؤاد جميل إلى العربية فيما بعد، وأصل عنواني الكتابين بالإنكليزية هو: Arnold Talbot Wilson: *Loyalties; Mesopotamia, 1914-1917: A Personal and Historical Record* (New York: Oxford University Press, 1931), and *Mesopotamia, 1917-1920: A Clash of Loyalties* (New York: Oxford University Press, 1931).

حرب الفدائيين في البوير، وعن السويس وبنما. واستأثر باهتمامه البالغ كتاب لمؤلفه بونيه عن الانماء الاقتصادي في الشرق الأوسط. وانصرف، أيضاً، إلى المراجع وأمّهات الكتب في اختصاصه الدقيق في الثقافة العسكرية، فقرأ مؤلّفات فولر[٢٤٥] وليدل هارت[٢٤٦] وغيرهما من القادة، وحرص على أن يقرأ بانتظام أهم النشرات الرسمية البريطانية.

ومن الكتب التي حظيت باهتمامه ومتابعته كتاب **مغامرات في المتوسط** لريتشارد ماكميلان، فقد رأى فيه مصدر اغناء للتجربة العسكرية، وبخاصة الفصل الذي يتحدث فيه مؤلّفه عن جيوش افريقيا حديث العارف المدقق وهو يقدم خلاصة تجربته الشخصية، باعتباره أحد العاملين في «العلمين» في عام ١٩٤٢[٢٤٧].

وكما يؤكد الباحث الدكتور أنور عبد الملك، ان هذه القراءات شكّلت إغناءً لذهنيّة عبد الناصر، لأنها حددت المقومات الأساسية التي ينبغي توفرها في القائد، وهذه المسألة بالتأكيد شكلت «قيمة خاصة في نظر الضباط الشباب الذين بدأ عبد الناصر يختار من بينهم من سيشكّلون فيما بعد منظمّة الضبّاط الأحرار»، ويقودون الثورة[٢٤٨]. فإن جمال عبد الناصر لم يكتفِ بدراسة التاريخ العسكري وتقنيّته، وكتب التاريخ العام، وتاريخ الوطن العربي وافريقيا والشرق الأوسط، وكتب التراجم والسير الذاتية، بل إن قراءاته امتدّت أحياناً إلى الكتب التي تبحث الجوانب النفسية والاجتماعية والسيكولوجية أيضاً، فقرأ كتباً معروفة في ذلك، منها كتاب ديل كارينجي، الباحث الأمريكي المشهور في علم النفس وعلم الاجتماع والتعامل البشري **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس**[٢٤٩]، وقرأ كتباً في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منها الأجزاء الخمسة من كتاب **الثورة العربية** لأمين سعيد[٢٥٠]. وابتداء من العام ١٩٤٨، أخذ عبد الناصر، كما قال لأحد سائليه، يطالع، بإمعان، آثار هارولد

---

(٢٤٥) جون فردريك تشارلس فولر قائد بريطاني، اشترك في حرب البوير بجنوب افريقيا، وفي الحرب العالمية الأولى. أولى الحرب الآلية اهتماماً خاصاً.

(٢٤٦) مؤلف واستراتيجي انكليزي معروف، اشترك في الحرب العالمية الأولى، عمل فيما بعد مراسلاً عسكرياً لأهم الصحف اللندنية، اهتم بدوره بالحرب الآلية، له عدد من المؤلفات نال بها شهرة فائقة، وقد ترجم قسم منها إلى اللغة العربية.

(٢٤٧) أنور عبد الملك، **المجتمع المصري والجيش، ١٩٥٢ - ١٩٧١**، ترجمة محمود حداد وميخائيل خوري (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤)، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢٤٨) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٢٤٩) كتاب معروف على نطاق واسع، نشر نصه الإنكليزي لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٦، ومنذ ذلك الحين نقل إلى معظم لغات العالم، وغدا يحتل في كل مكان صدر قائمة الكتب الأكثر مبيعاً.

(٢٥٠) مجدي حسنين، «عبد الناصر علمنا القومية العربية والاشتراكية،» **السفير**، ١٩٧٩/٩/٢٨.

لاسكي، وجواهر لال نهرو، وبيغان، كما إبتدأت كتب الأفكار الاشتراكية ذات الطابع الاصلاحي تدخل دائرة قراءاته، لتسهم في صياغة وجدانه(٢٥١).

ومن الكتب التي أحدثت انطباعات عميقة في ذهنه رواية **الزهرة القرمزية** التي تدور أحداثها حول شخصية الزعيم الخفي الذي يتزعّم المقاومة دون أن يضطر إلى الكشف عن نفسه. وكان تأثير هذه الرواية في وجدانه بالغاً ومميزاً، فإن ظل «الشخصية القرمزية» وجد طريقه، وفق نظرية «العدوى في الفن» لتولستوي، إلى وعي جمال عبد الناصر، فظلّ «كالزهرة القرمزية متوارياً عن الأنظار، مجهولاً إلا من بعض رفاقه في حركة الضباط الأحرار»(٢٥٢). ويعد ناتنغ هذا «التخفي» مأثرة متميّزة من مآثر عبد الناصر، فبفضلها «بقي تنظيم الضباط الأحرار خفياً لا يعلم بأمره، ولم يكتشفه أحد»(٢٥٣).

وعلى صعيد آخر، وبشكل متمّم لتأثير رواية **الزهرة القرمزية** في وجدان عبد الناصر، كانت رائعة الكاتب الإيطالي بيير أنديللو(٢٥٤) مسرحية **ست شخصيات تبحث عن مؤلف** قد أسهمت، هي الأخرى، بدورها، إضافةً إلى رائعة توفيق الحكيم **عودة الروح** وسير الأبطال في صورة مقاتلين، في تجديد فكرة الدور الباحث عن بطل يتقمّصه، بعد أن أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا إلى أن استقر به المطاف متعباً منهوك القوى «على حدود بلادنا، يشير إلينا أن نتحرّك وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسنا، فإن غيرنا لا يستطيع القيام به»(٢٥٥).

ومع كثرة تلك الشخصيات التاريخية التي وعت، بطريقتها الخاصة، مكانها المهم الذي تحتلّه في التاريخ، ومنهم كرومويل صانع الأحداث الحقيقي الذي كان يعد نفسه أداةً في يد الإرادة الالهية، فإننا نجد عبد الناصر يبرّر قدرته على اداء الدور بـ «حكم المكان»(٢٥٦). والمكان المقصود، هنا، هو الوطن العربي، وليس القطر المصري، كما أساء فهم ذلك الدكتور غالي شكري(٢٥٧).

---

(٢٥١) إمام، **حكايات عن عبد الناصر**، ص ١٢ ـ ١٣.

(٢٥٢) غالي شكري، **اعترافات الزمن الخائب** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ٦٧.

(٢٥٣) ناتنج، **ناصر**، ص ٥٧.

(٢٥٤) بيير أنديللو لوتيشي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٦) شاعر وروائي ومؤلف مسرحي إيطالي، فاز بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤، تعد مسرحية **ست شخصيات تبحث عن مؤلف** التي كتبها سنة ١٩٢٢ من أعظم مؤلفاته، وقد ترجمت إلى العربية، وهي، مثل العديد من مؤلفاته الأخرى، تتسم بالعمق الفلسفي، مع العلم أنه اعتنق المذهب الفاشي في عهد موسوليني.

(٢٥٥) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ٢٧.

(٢٥٦) الظاهر، «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية،» ص ٣٣.

(٢٥٧) شكري، **اعترافات الزمن الخائب**، ص ٦٧.

إن الوطن العربي وإمكاناته الضخمة، ومصادر القوة الكبيرة فيه، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وتحريره وإسعاده، هو الذي كان يشغل ذهن الثائر جمال عبد الناصر، مؤسس منظمة «الضباط الأحرار». وقد أشار هو إلى ذلك، باستمرار، مؤكداً، غير مرة، ان الحدود العربية هي حدود بلادنا[٢٥٨]. ويتصل بذلك، أوثق الاتصال، ان فكرة البطولة، والدور المنتظر للقائد المحرر، ظل، دائماً، الهاجس الذي يسكن وعي جمال عبد الناصر ووجدانه. وباعتقادنا المتواضع لم يأتِ ذلك بمعزل عن التراث العربي الذي أدى القائد فيه، دوماً، الدور الريادي الذي كان يراه جمال ضرورياً لتحقيق الغايات المنشودة، ولا نستبعد أبداً بأنه كان يحلم بذلك الدور عن ثقة وإيمان، ومن أجل مصلحة الوطن أكثر من اي اعتبار آخر.

وقد وجد عبد الناصر من ساعده على أداء هذا الدور في ظروف النضال السري، وبعد الثورة. فبالاضافة إلى رفاق نضاله في تنظيم الضباط الأحرار فإن زوجته تحية، أخت صديقه عبد الحميد كاظم الوطني الذي يشاطره آراءه، قد وفّرت له أفضل الأجواء الممكنة لمواصلة نضاله في جميع مراحله اللاحقة، مانحةً له خمسة أبناء، في منزلهم المأجور في «منشية البكري»[٢٥٩].

٢ ـ اتساع نشاط الحركة

لقد تعاقبت، في تلك الظروف، أحداث كان من شأنها أن تزيد سخط الجماهير والجيش بصفة خاصة، الأمر الذي دفع منظمة الضباط الأحرار وسواها لتوسيع نشاطها، ولتنظيم الرد الشعبي على الهجمة الشرسة لأعداء الحركة الوطنية[٢٦٠].

وهكذا ففي عام ١٩٤٤ شهدت الحركة توسيعاً للقاعدة بين الضباط لخلق رأي عام واع في أوساطهم، مثلما شهدت معالجة فعالة لحل مشكلة التوحّد مع الشعب، وتجاوز إفرازات عمل الانكليز والقصر والرجعية المتواصل من أجل عزل «الجيش عن الشعب وتسخيره دائماً ضد كل حركة شعبية تقوم في البلاد»[٢٦١].

في ضوء ذلك قررت قيادة الحركة بذل كل جهد ممكن على طريق بثّ الوعي

---

(٢٥٨) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢٥٩) قبيسي وصالح، **ناصر، الشهيد الحي**، ص ٣٢، وفوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١٧٠.

(٢٦٠) عبد الناصر، المصدر نفسه، ص ١٥؛ السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، ص ١٧٠ ـ ١٧٢، وأجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ٢٩.

(٢٦١) عبد الناصر، المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٦؛ السادات، المصدر نفسه، ص ١٧١ ـ ١٧٢، وقراعة، **حارس المجد، جمال عبد الناصر**، ص ٩٣.

بين الضباط وإشعارهم بمسؤوليتهم كمواطنين، مع مراعاة السرية في العمل، والعمل على إثارة المناقشات العامة لجميع مشاكل الدولة السياسية[٢٦٢].

ومع تعاظم السخط السياسي العام جيشاً وشعباً، كان لا بدّ للحركة من أن تعيد ترتيب قواها، وأن ترصّ وتوسّع صفوف جماهيرها على أسس جديدة، وعلى مستويَين متلاحمَين: المستوى **الأول** العمل داخل الجيش، أما المستوى **الثاني** فالعمل خارج الجيش، بين الجماهير.

بدأت الحركة التنظيمية خطاها بشكل دقيق، وعلى نحو واسع، متخذة صيغة العمل على أساس الخلايا، كما أسلفنا التلميح إلى ذلك. وكانت كل خلية تضم ثلاثة إلى خمسة ضباط، ولم يكن يعرف هؤلاء سوى المسؤول عن تشكيل الخلية والأعضاء، طبعاً، أما جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فكانا الوحيدين اللذين يملكان كل المعلومات الخاصة بالخلايا وتشكيلها. أما مستوى العمل خارج الجيش، بين الجماهير، فكان يتميّز بالانفتاح والتحرك على الجماهير الشعبية والتنظيمات السياسية باعتماد صيغة الاتحاد والجبهة الشعبية العريضة، للتخلّص من الهيمنة الاستعمارية والرجعية تحت خيمة حركة الضباط الأحرار، وقد تولّى مسؤولية هذا القطاع النضالي الواسع أنور السادات، بإشراف ومتابعة عبد الناصر. فقد كان جمال عبد الناصر قد خرج من عمله السابق في صفوف «مصر الفتاة» بزعامة أحمد حسين، ودراسته لتجربة الإخوان المسلمين، بجملة من الاستنتاجات أغنت فكره السياسي والتنظيمي معاً. إن هذا العمل عمق وعيه وإدراكه، وهيأ له الإلمام الواسع بالأطر الفكرية التي تمثلها الأحزاب السياسية التي كانت تطرح برامجها في الساحة المصرية[٢٦٣]. وعلى صعيد آخر، فإن تجاربه في هذا المنطلق النضالي وتماسّه المباشر بالزعماء السياسيين من قادة الأحزاب، والاحباطات التي تراكمت في وعيه الفكري والسياسي وقراءاته المعمقة، جعلته يتناول بالنقد البنّاء التجارب الحزبية من خلال التحاور الفكري، ومكّنته من التحول من متظاهر إلى ثائر ـ مفكر، امتلأت نفسه يقيناً بأن مصر لن تحصل على استقلالها الحقيقي بالخطب والمهاترات، بل بالاتحاد والقوة، وهي التي يمثلها الجيش الوطني الواعي لمهمته، والملتحم بشعبه. وكما قال هيكل فإن حركة الضباط الأحرار هدفت إلى السيطرة على الجيش لتحوّله إلى أداة تغيير من أجل تحرير مصر[٢٦٤].

---

(٢٦٢) خالد محيي الدين، «والآن أتكلم»، الرأي، ٥/١٢/١٩٩٢، و Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, pp. 33-34.

(٢٦٣) وين، ناصر العرب، البحث عن الكرامة، ص ٤٠.

(٢٦٤) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٣٢.

كانت الروح الثورية تغلب على كلا مستويي التنظيم في الحركة، ليزداد، ويتعزز في خضم ذلك الاعتماد على النفس، ويصبح أمراً أساسياً في جوهر العمل. يقول أنور السادات: «كنا قد بدأنا نعتمد على أنفسنا، كل الاعتماد، إثر أحداث وأحداث. كنا قد رسمنا خطتنا القريبة على أن ننشأ تشكيلاً شعبياً وتشكيلاً عسكرياً يعملان جنباً إلى جنب، كلٌ بوسائله وكلٌ بخططه، ولا يرتبط أحدهما بالآخر أي ارتباط ظاهر حتى تأتي اللحظة المناسبة لذلك»، وهو يُسهب في توضيح المنطلقات الأساسية لعمل الضباط الأحرار في المرحلة الجديدة من عملهم بوحي من أفكار جمال عبد الناصر[٢٦٥].

وفي العمل التنظيمي تجلت صفات جمال عبد الناصر القيادية الرفيعة، وهي صفات متميّزة بشكل دائم في قيادة الثورة وبناء دولتها، ومحاولة تأسيس المدرسة الناصرية النضالية. وكان في طليعة هذه الصفات القيادية الهدوء والتروي، وعدم تعجّل الأمور، والتدارس الشامل للمسائل من كافة وجوهها، والسرية البالغة والتحوط الشديد والاستشراف المستقبلي للأحداث[٢٦٦]. يقول السادات: «كنت أتعجّل الخطى وكان جمال يتريّث. وكان جمال عبد الناصر حريصاً على العمل في سرية تامة وفطنة شديدة»، موضحاً أبعاد ذلك في المرحلة الجديدة من عملهم الفكري والتنظيمي[٢٦٧]. وبعد جلسات حوار طويلة، ومناقشات مستفيضة، استطاع جمال عبد الناصر أن يحقق الإجماع بالنسبة للهدف الأساسي للتنظيم، وهو الحرية والاستقلال الحقيقي، وذلك عن طريق:

- طرد الانكليز.
- تطهير القوات المسلحة.
- تشكيل حكومة وطنية[٢٦٨].

وكان من رأي جمال أنه من غير المفيد أن يتوسّع التنظيم بصياغة برنامج اجتماعي اقتصادي موسع، أو بالتطرق للمسائل الفلسفية والايديولوجية، وارتأى

---

(٢٦٥) السادات: أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٦٦ ـ ٦٩، وثورة على النيل، ص ٢٠ ـ ٣٠.

(٢٦٦) محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ١٩٩٢/١٢/٥.

(٢٦٧) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٦٤ ـ ٧٠.

وردت إشارة صريحة إلى الموضوع ذاته في عدد من المصادر الأجنبية المعنية. انظر على سبيل المثال:
Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, pp. 19-20.

(٢٦٨) وين، ناصر العرب، البحث عن الكرامة، ص ٣٨، وعبد الحميد بكداش، جمال عبد الناصر، رجل في أمة (بغداد: منشورات مكتبة النهضة، ١٩٦١)، ص ٢٥ ـ ٢٦.

الاكتفاء بهدف محدد هو تحرير مصر فحسب، والمزيد من التحوط وتجنب الاصطدام بما يمكن أن يُجهز على الحركة وهي في مهدها. ولذلك كله عمل جمال على تحصين الحركة، وحل التنظيمات الأخرى للضباط وقبولهم في تنظيم الضباط الأحرار فرادى. يقول خالد محيي الدين بهذا الصدد ان جمال عبد الناصر لم يعترض على انضمام الضباط المنتمين إلى الإخوان المسلمين، أو إلى الشيوعيين، لكن كأفراد وليس كمجموعة منظمة[٢٦٩].

حرص عبد الناصر في هذه المرحلة على تأمين النجاح والتطور للحركة، وتفادى كل ما يمكن أن يسبب البلبلة، أو المهاترة، أو المعارك الجانبية على حساب المعركة الكبرى الواحدة ضد العدو الواحد ـ معركة مصر كلها والشعب المصري بأسره ضد الاستعمار البريطاني. وقد أظهر جمال عبد الناصر مهارة فائقة في التنسيق بين التشكيلين: العسكري والشعبي، وقد رفض السماح للخلافات العقائدية بعرقلة سير الحركة، ويعود الفضل له في إبداء منتهى الحزم والصبر والقدرة على الاقناع في منع رفاقه من القيام بمحاولة مبكرة فاشلة للاستيلاء على الحكم[٢٧٠].

أدت توجيهات جمال عبد الناصر الجديدة، في مجالي الفكر والتنظيم، إلى نتائج إيجابية ملموسة، فقد تم جمع عدد كبير من الضباط الشباب، ممن كانوا يمثلون مختلف العقائد السياسية التي تراوحت بين جماعات الإخوان المسلمين والشيوعيين ومصر الفتاة والاشتراكيين المعتدلين والوفديين، بل حتى بعض المحافظين، حول راية منظمة الضباط الأحرار، لتغدو فكرة خلق مصر حرة القاسم المشترك الذي يجمعهم على صعيد واحد[٢٧١]، وهذه تجربة فريدة في بابها، إذ من الصعب، عادة، الجمع بين الشيوعيين والإخوان في إطار عمل سياسي موحد.

وعلى رغم تحفظنا على رأي ولتون وين الذي يذهب إلى التأكيد على أن جمال عبد الناصر كان يتحاشى نصب زعامة له، أو كسب أنصار[٢٧٢]، لأن هذا أمر غير وارد بالنسبة إلى منطقة ما يزال مذهب عبادة «الزعيم المنقذ» يؤلف أسهل أشكال التعبير السياسي، وحيث الولاء يرتدي، عادة، طابع الرضوخ للزعامة أكثر منه

---

(٢٦٩) محيي الدين، «والآن أتكلم»، الرأي، ٩/ ١٢/ ١٩٩٢.

(٢٧٠) وين، المصدر نفسه، ص ٣٨؛ Mansfield, *Nasser's Egypt*, p. 18, and Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, pp. 83-84.

(٢٧١) دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٥٤، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, pp. 19-20.

(٢٧٢) وين، المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩.

رضوخاً للعقيدة[٢٧٣]، إلا أن ما يسجل لعبد الناصر في هذا المضمار هو أنه كان يرى أن تنصيب نفسه زعيماً لجماعة ما بالتحديد، أو التمسك بطروحاتها أكثر من غيرها سيحد كثيراً من حركة الضباط الأحرار وفاعليتها، لأنه يحول دون كسب الأعضاء من الأحزاب والجماعات الأخرى إلى جانب أفكاره، وكان يتفادى في هذا السياق، وعن إدراك للواقع الفكري على الساحة المصرية، أن يكون منافساً لزعيم الإخوان المعروف حسن البنا.

وهكذا جعل عبد الناصر من حركة الضباط الأحرار مركز استقطاب لتجمّع الحركات السياسية من أجل عزّة مصر وحريتها، كما جعل من نفسه وسيطاً يتعاون مع الكثيرين باسم ضابط كبير متستّر مقرّب من القصر سيضغط زناد الثورة في الوقت المناسب، ولكن هذا الضابط الكبير ظلّ سنين عديدة غير موجود على الإطلاق[٢٧٤].

وبذلك كله، استطاع جمال عبد الناصر أن يكوّن قاعدة شعبية واسعة، وأن يكوّن، كذلك، قاعدة تنظيمية في الجيش يناهز عدد أعضائها الألف ضابط، وطليعتها تناهز الثلاثمائة عضو عدداً. وكان كل عضو من هؤلاء الأعضاء يدفع اشتراكاً شهرياً.

ومع تفاقم الأوضاع السياسية في البلاد، في الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، تعاظم نشاط حركة الضباط الأحرار باتجاه الحسم. وكان بعض شبابها يطمح للارتباط بشكل ما بالمحور، خصوصاً حينما كانت جيوش المحور على أبواب مصر[٢٧٥]. ولم يكن هذا التطلع وليد اعجاب بايطاليا الفاشية أو المانيا النازية، بل كان بسبب التقاء المصالح، وعملاً بالمثل الذي يقول «عدوّ عدوّي صديقي»، فقد وجد هؤلاء في تحالفهم مع دول المحور فرصة للقضاء على المستعمرين البريطانيين، ولتحرير مصر من الاحتلال الأجنبي، فأعدّوا لهذه الغاية خططهم، حتى انهم أجروا بعض الاتصالات مع خبراء المانيا وممثليها لهذا الغرض. وكان ثمة اقتراحات بتمرد بعض فرق الجيش المصري واحتلالها القاهرة. وقدّم أنور السادات، المسؤول عن التشكيل الشعبي، مشروعاً لنسف السفارة البريطانية، وقتل جميع منتسبيها. وكانت أي خطوة من هذه الخطوات كافية لأن ترتدّ بنتائجها السلبية الماحقة على القائمين بها، وبذلك تودي بحركة الضباط الأحرار[٢٧٦].

---

(٢٧٣) من المفيد أن نشير إلى أن الأحزاب العقائدية المصرية المعروفة، كحزب الاخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة ركزت ولاءها للشيخ حسن البنا وأحمد حسين.

(٢٧٤) خالد محيي الدين، «جمال عبد الناصر كما عرفته،» **الكاتب**، السنة ١٠، العدد ١١٦ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠)، ص ١٢.

(٢٧٥) أجاريشيف، **جمال عبد الناصر**، ص ٢٩؛ وين، المصدر نفسه، ص ٣٩، و John C. Campbell, *Defence of the Middle East: Problems of American Policy*, 2nd ed. (New York: Harper, 1960), p. 31.

(٢٧٦) السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، ص ١١٣ ـ ١١٤، وفوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ١٧٢.

بَيْدَ أن جمال عبد الناصر المعروف بحذره ودقته في اختيار الأوقات المناسبة لتنفيذ الخطوات الثورية والفعاليات السياسية التي تقوم بها التشكيلات السرية المختلفة، رفض تنفيذ هذا الاقتراح(٢٧٧)، وكان رفضه محيّثاً بالحرص على سلامة ملاكات الحركة العاملة، ومستقبل الحركة عموماً، وانتظار الوقت المناسب للقيام بفعاليات أشد جذرية وحسماً(٢٧٨).

لقد كان جمال عبد الناصر يرى أن خلاص الأمة من الاستعمار لا يمكن تحقيقه بهذه الأساليب، بل بعمل مدرك، منظم يضطلع به الجيش، ويحظى بتأييد الشعب، لذلك ظل محتفظاً بقوّة التنظيم، وعناصره العاملة، وجماهيره، وكان ذلك في أقصى الضرورة، ولا سيّما بعد المتغيرات التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية على الساحتين المصرية والعربية. فعلى الساحة المصرية ظلّت مصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني، ولذلك شهدت هذه الساحة تعاظم النضال الشعبي في القطرين الشقيقين من أجل الاستقلال والحرية(٢٧٩).

أما المتغيّرات التي ألّمت بالساحة العربية فتمثلت في ظهور تحدٍ جديد من تحديات القوى الامبريالية يستهدف وجود الأمة العربية بما فيها مصر والسودان، حين غرست هذه القوى الكيان الصهيوني «اسرائيل» في قلبها، في فلسطين، وتعهّدته بأقصى صنوف الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي، وبدأت مصر تواجه صراعاً وطنياً وقومياً في آن معاً.

---

(٢٧٧) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٧٢.

(٢٧٨) السادات، المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٢٧٩) وين، ناصر العرب، البحث عن الكرامة، ص ٣٩ ـ ٤٠؛ Jules Davids, «The United States and the Middle East, 1955-1960,» *Middle Eastern Affairs*, vol. 12 (May 1961), pp. 130-140, and Vladimir Mikhailov, «The Soviet Union and the Arab World,» *Middle East Forum*, vol. 36, no. 3 (March 1960), p. 27.

الفصل الثالث

تطور الرؤى الفكرية لدى جمال عبد الناصر بعد نكسة فلسطين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢

أولاً: تأثير حرب فلسطين في تطور الفكر الناصري

واجه الشعب المصري، بعد الحرب العالمية الثانية، تحدياً خطيراً آخر من تحدّيات الاستعمار هو الصهيونية، وباتت فلسطين بالتالي مشكلة مصر الرئيسية، فقد فرضت تطورات القضية الفلسطينية أحداثاً ومتغيرات على الساحة العربية عموماً، والساحة المصرية خصوصاً[(١)].

وبالطبع، فإنه ليس مطلوباً منا عرض جميع وقائع تطورات القضية الفلسطينية وملابساتها، فذلك خارج نطاق بحثنا، إلا أننا بصدد معرفة المؤثرات التي صنعتها هذه القضية ومتابعتها وتحليل أثرها في الفكر الناصري العروبي الذي تبلور، على نحو حاسم، في أرض فلسطين، وبات مرتبطاً كل الارتباط بهذه القضية[(٢)].

لقد أدرك العرب، منذ وقت مبكّر، وفي تلك المرحلة التاريخية بالذات ـ مرحلة المجابهة العسكرية مع الصهيونية ـ مخاطر التوجّه الامبريالي ـ الصهيوني ومخطّطاته[(٣)]. ونتيجة لاشتداد الضغط العربي على الدول المتحالفة مع الصهيونية في الأمم المتحدة، تشكلت لجنة تحقيق دولية أوصت بإنهاء الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين إلى منطقتين، تقوم في إحداهما دولة عربية، وفي الأخرى دولة يهودية، وبإبقاء القدس خاضعةً لنظام دولي خاص. واقترنت هذه التوصيات بموافقة الولايات المتحدة والاتحاد

---

(١) طارق البشري، «مصر في إطار الحركة العربية،» في: سعد الدين ابراهيم [وآخرون]، **مصر والعروبة وثورة يوليو**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢)، ص ٢٧ ـ ٤٢.

(٢) جمال عبد الناصر: «خطاب جمال عبد الناصر في قطاع غزة بتاريخ ٢٩/٥/١٩٥٥،» في: جمال عبد الناصر، **فلسطين: من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**، كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ٣٠٢، ط ٢ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [ـ ١٩٦])، ص ١٦.

(٣) **الكاتب**، السنة ٧، العدد ٧٥ (تموز/يوليو ١٩٦٧)، ص ١٤ ـ ١٥.

السوفياتي، وأقرتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، بأكثرية ثلثي الأعضاء.

لقد واجه العرب قرار التقسيم بالرفض، بينما رحبت به الدوائر الصهيونية وهللت له[٤]. وفي خضم السخط العربي والهوس الصهيوني، تمادت بريطانيا في التواطؤ مع القوى الصهيونية، حيث أعلنت أنها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، كي يصبح كلا الطرفين وجهاً لوجه أمام مسؤولياته[٥]. وكان هذا القرار موضع نقد عربي شديد، إذ انه خلق حدوداً معقدة، غير منظمة، وأضاع الكثير من الحقوق العربية. ومن هنا، فإنه أثار سخط الجماهير العربية واستياءها الشديد، مثلما أثار احتجاج الحكومات العربية ورفضها، واحتجاج الهيئة العربية العليا في القدس (التي تمثل السكان العرب المسلمين والمسيحيين). وبالنتيجة، أعلنت جامعة الدول العربية قرارها بمقاومة مشروع التقسيم بكل الوسائل، حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة. وبالمقابل، فإن الصهاينة برغم ترحيبهم بمشروع التقسيم وقراره، إلا أنهم عدوه مرحلة مهمة فحسب من أجل إنشاء «دولة إسرائيل»، وخطوة أولية لا أكثر لتنفيذ المخطط الصهيوني بالهيمنة على فلسطين بالكامل! ومن هنا فإن الوكالة اليهودية، والفرق العسكرية النظامية التي أنشأتها المنظمات الإرهابية اليهودية (الهاغانا، والارغون، وشتيرن) التي كانت تطالب بفلسطين كلها ولم تتقبل قط تدويل القدس، بدأت على الفور تنفيذ مخططها الإرهابي بارتكاب جرائم المجازر الوحشية المدبرة عمداً وقصداً لإبعاد العرب عن فلسطين (مجازر دير ياسين، والقسطل، وقبية، وحيفا وغيرها)، وكان ذلك دليلاً قاطعاً على التحول الجديد[٦] في التعامل الصهيوني مع الشعب الفلسطيني، وهو تعامل بالغ الوحشية ساعد في ترسيخه التواطؤ الامبريالي البريطاني بصورة خاصة. فقد عَجَّل انسحاب الجيش البريطاني تحت جنح الظلام، وتركه المرافق الأساسية في البلاد في أيدي الصهاينة، بإعلان دافيد بن غوريون، رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، إنشاء دولة يهودية في فلسطين باسم «اسرائيل» عاصمتها تل أبيب[٧]. وسرعان ما هبّ يهود العالم إلى مساندة الدولة اليهودية المعلنة

---

(٤) اسماعيل صبري عبد الله، **في مواجهة إسرائيل**، اقرأ؛ ٣١٩ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩)، ص ٢٧.

(٥) أحمد حروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ٥ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ - ١٩٧٨)، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٦) عبد اللطيف البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ٢ ج (القاهرة: المكتب المصري الحديث، [١٩٧٧])، ص ٢٧.

(٧) جورج فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز (بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٠)، ج ١، ص ١٨٩ - ١٩٥، وجاك دومال وماري لوروا، **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**، ترجمة ريمون نشاطي، ط ٦ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٨)، ص ١٧ - ١٩.

في فلسطين، كما أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اعترفا بها، واعترف بها، كذلك، عدد كبير من الدول المؤيدة لسياسة كلتا الدولتين الكبريين. وأمام كل هذه المتغيرات أدرك العرب أنه لا بد من تدخّل جيوشهم النظامية وخوض الحرب ضد «الدولة الجديدة»، وهي حرب كانت نتيجتها تواطؤاً دولياً جديداً قضى بقيام الهدنة بين العرب و «اسرائيل»[8].

وكان المصريون، متطوّعين وجنوداً، من بين العرب الذين واجهوا الصهيونية بالحرب وقتذاك. فقد ساهم المصريون في هذه الحرب، وكان لما لاقوه وعاينوه في وقائع وتضاعيف معاركها أثر كبير في تعاظم الاستياء والسخط الشعبي والعسكري، على حدٍ سواء، ولا سيما أن ذلك كان قد وقع في ظل العهد الملكي، عهد الملك فاروق، المتآمر، هو الآخر، على الشعب والجيش. وقد تركت هذه الحرب جروحاً عميقة لدى جميع المقاتلين، حتى تكاد تكون لكل واحد منهم قصة حافلة بالدروس والعبر. فما يصوره جمال عبد الناصر في **فلسفة الثورة** وفي مذكّراته عن حرب فلسطين إنما يشكّل صوراً دقيقة غاية في الواقعية والوثوق لمعاناة شعب وكفاح أمة. ومن ناحية أخرى، فإن آثار هذه المعاناة قد أدت دورها الحاسم في إنضاج الحس القومي لدى جمال عبد الناصر، وكانت من جملة الممهّدات لتبلور الثورة في وعي جمال عبد الناصر ومعظم الضباط المشاركين في هذه الحرب[9]. يقول محمد حسنين هيكل (القريب جداً من جمال عبد الناصر منذ ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢ حتى وفاته في عام ١٩٧٠): «قبل عام ١٩٥٢، وبالتحديد في المرحلة التي سبقت حرب فلسطين عام ١٩٤٨، كان جمال عبد الناصر وطنياً مصرياً. وكان من الطبيعي ألا يكون البعد القومي واضحاً في ذهنه خلال تلك الفترة. لكن البعد القومي بدأ يتكوّن لدى جمال عبد الناصر تدريجياً منذ قرار التقسيم عام ١٩٤٧. وملامح ذلك كانت عندما عرض تدريب متطوعين لكي يحاربوا في فلسطين. وهذا العرض له قصّة. كان الحاج أمين الحسيني في ذلك الوقت لاجئاً في مصر. وكان يشكّل مجموعات تحارب في فلسطين ضمن قوات «الجهاد المقدّس». وكان بالتعاون مع عبد القادر الحسيني يسعيان لدى

---

(٨) فوزي عطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث** (بيروت: الشركة اللبنانية للكتاب، [١٩٧٠])، ص ١١٨؛ بيتر مانغولد، **تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط**، ترجمة أديب يوسف شيش (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٥)، ص ٦١؛

Jules Davids, «The United States and the Middle East, 1955-1960,» *Middle Eastern Affairs*, vol. 12 (May 1961), pp. 130-140, and Sam E. Salem, «Return to Arab-American Friendship,» *Middle East Forum*, vol. 38, no. 6 (June 1962), pp. 15-17.

(٩) جمال عبد الناصر: **فلسفة الثورة**، كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ٣٠٣ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [١٩٥٤])، ص ٢٧ ـ ٢٨ و٤٣، **ويوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**، تقديم محمد حسنين هيكل (باريس: مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٧٨)، ص ١٠٥ و١١٩ ـ ١٤٠.

الحكومة المصرية لمدّهما بضبّاط تدريب للمتطوعين. وكلّفت الحكومة بعض الضباط تولي المهمة. ومن دون علم الحكومة ذهب عبد الناصر إلى الحاج أمين الحسيني وقال له إنه مستعد للمشاركة في تدريب المتطوعين. وكان له ما أراد. حتى هذه البادرة منه لا تمثل البعد القومي. يمكن النظر إليها كعملية تعاطف مع الشعب الفلسطيني . . . يضاف إلى ذلك أن جمال عبد الناصر كان في ذلك الوقت يتولى تدريس حملات اللنبي في الكلية الحربية، ومن الطبيعي أنه كان مدركاً تماماً أهمية فلسطين في الدفاع عن مصر. من الصعب تحديد الدافع الذي جعل عبد الناصر من دون علم الحكومة يتصل بالحاج أمين عارضاً عليه تدريب عناصر للعمل في قوات «الجهاد المقدس»، هل هي العاطفة القومية أم الحس الاستراتيجي؟ ولكن من المؤكد أن البعد القومي بدأ يتكون في تفكيره عندما حارب على أرض فلسطين»[١٠].

يؤكد محمد حسنين هيكل هذه الحقيقة، مرة أخرى، وعلى نحو أكثر تفصيلاً وأشد إقناعاً: «إن القول إن عبد الناصر اكتشف البعد العربي بعدما حارب على أرض فلسطين هو الأقرب إلى الواقع. وفي **فلسفة الثورة** نلاحظ قوله إنه في تلك الفترة رأى الفلسطيني يحارب إلى جانب العراقي إلى جانب السوري إلى جانب المصري إلى جانب الأردني. وعلى أرض فلسطين اكتشف حقيقة الوجود الإسرائيلي وحقيقة الاستعمار، وشاهد موقف الأطراف القومية حيال قضية فلسطين. وعلى أرض فلسطين تكونت لديه حقيقة أساسية هي: أن الدفاع عن مصر مرتبط بالوضع في سوريا، وفلسطين هي التي تربط هاتين الحلقتين، أي مصر وسوريا. وعلى أرض فلسطين تكونت لديه قناعة أن العالم العربي وحدة. ولم يطل به الأمر لتكريس هذه القناعة. ففي **فلسفة الثورة** عام ١٩٥٣ تحدث عن دوائر ثلاث: الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الافريقية. واستحوذت الدائرة العربية على تفكيره ومشاعره لأنه بدأ يقتنع تماماً بأن الساحة الكبرى والأولى للصراع مع الاستعمار هي الأرض العربية»[١١].

يتّضح مما تقدم، ومن شهادة هيكل البليغة، أن تجربة الحرب الفلسطينية ١٩٤٨ تركت، فعلاً، أعمق الآثار في ذهن جمال عبد الناصر، بل بلورت، بشكل حاسم، البعد القومي العربي في عقيدته السياسية ـ الفكرية. ويؤكد عبد الناصر نفسه ارتباط هذه التجربة الوثيق ببداية وعيه السياسي القومي في الاحتجاج على وعد بلفور، حين كان طالباً في الثانوية[١٢]، الموضوع الذي أسلفنا الإشارة إليه في حديثنا عن العوامل

---

(١٠) فؤاد مطر، **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١.

(١٢) عبد الناصر، **يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

التي أسهمت في تكوين فكر جمال عبد الناصر القومي.

وثمّة بعض التفصيلات الدالة، بهذا الخصوص، فقد أكّد جمال عبد الناصر في مذكّراته أن الضباط الأحرار عقدوا اجتماعاً خاصاً، على ضوء صدور قرار تقسيم فلسطين في أيلول/سبتمبر ١٩٤٧ لبيان موقفهم من الأوضاع العربية، فاتفقوا على مساعدة المقاومة الفلسطينية. لذلك ذهب عبد الناصر في اليوم التالي للاجتماع إلى دار الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، رئيس الهيئة العربية العليا، وكان يعيش في «الزيتون» آنذاك، ليبلغه موقف الضباط الأحرار واستعدادهم لدعم المقاومة الفلسطينية، قائلاً له «إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون المعارك، ويدربون المتطوعين، وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع، وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء!» فكان رد الحسيني بإعلان سعادته بهذا الموقف وهذه الروح، غير أنه طلب المهلة لاستئذان الحكومة المصرية في ذلك. وكان رد الحكومة المصرية هو الرفض. لكن ذلك لم يثن قرار عبد الناصر ورفاقه، فقد كان الاندفاع الشعبي لدعم الفلسطينيين عنيفاً، وكان سيل التطوع الشعبي (مدنيين وعسكريين) عارماً[١٣].

وفي البداية، لم يكن قد تقرر أن يخوض الجيش هذه المعركة، إلا أن الحكومة كانت في موقف لا تستطيع معه منع الجماعات الثائرة من الشباب من الانخراط في التطوع، وكان أبرزهم جمال عبد الناصر، فقدم استقالته ليشارك في التطوع مقاتلاً بنفسه. وبعد أن رفض طلبه مرتين، كمتطوع، شارك في القتال مع القوات المصرية[١٤]. وقبل مشاركة القوات كان الضباط الأحرار قد سارعوا في التطوع مع البطل أحمد عبد العزيز[١٥] الذي كان تجسيماً حياً للتضحية والفداء، وقد أشار إليه جمال عبد الناصر في **فلسفة الثورة** لاحقاً[١٦]. وعلى صعيد آخر، كان الكثيرون من رفاقه، أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار (والذين أصبحوا أعضاء مجلس قيادة الثورة فيما بعد)، قد هبّوا لنجدة فلسطين، وهم حصراً: حسن ابراهيم، وعبد اللطيف البغدادي، وزكريا محيي الدين، وقد أبدى هؤلاء وسواهم ضروباً مشهودة من البطولة[١٧].

---

(١٣) أنور الجندي، **هذا هو جمال** (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٦٠)، ص ٥٠، وتوفيق الشمالي، **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر** (القاهرة: الشركة التعاونية للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ص ٦٩.

(١٤) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ١٢ ـ ١٣.

(١٥) أحمد عبد العزيز (١٩٠٧ ـ ١٩٤٨) تخرج في المدرسة الحربية سنة ١٩٢٨، درس التاريخ الحربي بالكلية الحربية، ثم تخرج في كلية الأركان، اختير في حرب فلسطين قائداً لقوات المتطوعين برتبة عقيد، أبلى بلاء حسناً إلى حين استشهاده بالفالوجة، دفن في البداية بغزة، ثم نقلت رفاته فيما بعد إلى ضريح الشهداء بمقبرة الخفير، تحول إلى أحد رموز الفداء المصري من أجل فلسطين.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٥.

وقد كشف جمال عبد الناصر، الذي كان في صميم المعركة السياسية والعسكرية من أجل فلسطين، تفاصيل الحقائق عن القتال في فلسطين وملابساته، كما أوضح حقيقة موقف السلطة الحاكمة في مصر وقتذاك. لقد كان عام ١٩٤٨ عاماً ساخناً شهد صراعاً ضارياً بين الأمة العربية والصهيونية في حرب فلسطين، وشهد المجازر الوحشية لطرد العرب من فلسطين، مثلما شهد، بصفة خاصة، انطلاقة الحماس القومي لشباب مصر (مدنيين وعسكريين) دفاعاً عن فلسطين والعروبة ومصر[١٨].

ومن معطيات حديث عبد الناصر بهذا الصدد، نفهم أن حركة الضباط الأحرار تولّت، فعلاً، تدريب الشبّان المتطوعين للقتال، وقيادتهم خلال المعركة. كما أنها بدأت بالعمل على انتشار حركتهم وطنياً، وتعميق علاقاتها قومياً لخدمة الأمة العربية[١٩]. فوطنياً بدأت الحركة بتعميق صلاتها بجماعة الإخوان المسلمين وحركات وجهات أخرى[٢٠]. وكان من مظاهر ذلك عقد اجتماعات في بيت حسن البنا زعيم الإخوان، بين قادة الحركة وجمال عبد الناصر الذي كان حينذاك في كلية أركان الحرب، وكمال الدين حسين ضابط المدفعية، وبعض الضباط المنتمين للإخوان[٢١]. وقومياً، أنشئت ووطدت الصلات بين الحركة وأمين الحسيني مفتي فلسطين، وبين الحركة والجامعة العربية. وكانت الحركة تهدف بهذه الصلات إلى تكوين تنظيمات وتشكيلات مسلحة وتدريبها وإعدادها إعداداً كاملاً بكل ما تحتاج إليه من خبرة وسلاح، قبل التطوع لخوض غمار المعركة القومية. أما دور الضباط الأحرار فقد علق لحين إعلان الدولة المصرية مساهمتها في القتال بإعلان الحرب رسمياً واشتراك الجيش فيها. وكانت الحكومة المصرية في غاية التردد، وقتذاك، إلا أنها اضطرت أمام ضغوط الضباط الأحرار وسواهم، وأمام سيل طلباتهم التي تقدموا فيها باستقالاتهم أو الإحالة على الاستيداع وقبول تطوعهم مصطحبين أسلحتهم إلى ميدان المعركة[٢٢]، وحيال المجازر الصهيونية الوحشية في فلسطين، اضطرت لاتخاذ الموقف الذي ارتأته، وهو بعث جماعة من ضباط سلاح المهندسين إلى فلسطين لاستكشاف واقع الحال، إلا أنها

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ١١ ـ ٢٠؛ عبد الناصر، يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين، ص ٩ ـ ٣٥، وعبد الله الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» الكاتب، السنة ٨، العدد ٨٧ (حزيران/يونيو ١٩٦٨)، ص ٧١.

(١٩) أنور السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، تقديم جمال عبدالناصر، كتاب الهلال؛ ٧٦ (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧)، ص ١٩٤، وعبد الغني سعيد، «ثورة ٢٣ يوليو وقضية فلسطين،» الكاتب، السنة ٧، العدد ١٧ (آب/أغسطس ١٩٦٧)، ص ٥٢.

(٢٠) Carl Leiden, «Egypt: The Drift to the Left,» *Middle Eastern Affairs*, vol. 13, no. 10 (December 1962), p. 292.

(٢١) السادات، المصدر نفسه، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦ ـ ١٩٧، وسعيد، «ثورة ٢٣ يوليو وقضية فلسطين،» ص ٥٣.

عدلت عن ذلك ووافقت، بدايةً، على قبول طلبات المتطوعين بإحالتهم على الاستيداع، أو قبول استقالاتهم والسماح لهم بالذهاب إلى الميدان بأسلحتهم كمتطوعين[٢٣]. وهكذا تم استدعاء المتطوعين، وكان في مقدمتهم جمال عبد الناصر، لمقابلة الفريق عثمان المهدي (باشا) رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري، وقتذاك. ورافقه إلى المقابلة أحمد عبد العزيز، الذي عين قائداً لقوات المتطوعين في فلسطين، فيما بعد، فأبلغهم الفريق عثمان بالموافقة على طلباتهم وبضرورة تهيئة أنفسهم للتطوع للقتال.

وكانت الجامعة العربية وقتذاك قد بدأت بتنظيم تشكيلاتها بالاشتراك مع مفتي فلسطين. وكان قد تقرر تقسيم فلسطين إلى أربعة قطاعات بأربع قيادات ميدانية، على أن تخضع القيادات الأربع للجنة العسكرية التي اتخذت مقرها في دمشق، ومثل مصر فيها اللواء صالح حرب، وكان القطاع المصري في فلسطين هو قطاع الجنوب الذي عينت الجامعة لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل[٢٤].

وعلى رغم الصعوبات التي نشأت نتيجة الخلاف بين اللواء سبل وضابط مخابراته اليوزباشي النقيب مصطفى كمال صدقي، وعدم التنسيق بين قوات المتطوعين بقيادة الشهيد احمد عبد العزيز وقيادة اللواء سبل[٢٥]، وعدم السماح بتجهيز المتطوعين بالأسلحة الثقيلة، إلا أنه في آخر الأمر، برغم كل ذلك كانت المعنويات عالية والحماس في ذروته، فقد كانت روح الفداء طاغية على الجميع الذين كانوا يتمثلون بمقولة الشهيد أحمد عبد العزيز «انكم لا تذهبون لقتال عدو فحسب، ولكنكم ذاهبون لتكتبوا التاريخ»[٢٦]. وهذا ما أكده عبد الناصر أيضاً وفي غير مناسبة[٢٧].

تُرى، ما الذي أفادته حركة الجيش في ثورة ٢٣ يوليو (فيما بعد)، من المشاركة المصرية (متطوعين وجيشاً نظامياً) في حرب فلسطين ١٩٤٨؟ في الجواب عن هذا السؤال نقول إن ما أفادته الحركة من هذه المشاركة، بالشكل الذي جرت به، وطبقاً لمقولات كبار المشاركين والخبراء والمختصين، كان عظيماً حقاً بكل ما حفل به من عبر ودروس واستنتاجات وقناعات أدت في تضاعيفها وتطوراتها إلى تهيئة المناخ الفكري اللازم لثورة يوليو. فقد كانت إحباطات هذه المشاركة ومستجداتها ومتغيراتها على

(٢٣) السادات، المصدر نفسه، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢٤) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٢٤.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٢٧) عبد الناصر: فلسفة الثورة، ص ١٧ ـ ١٨، ويوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين، ص ٢٥ ـ ٢٨.

صعيد المتطوعين وعلى صعيد الجيش أيضاً كافيةً لدفع الضباط بقناعة فكرية إلى الموت في سبيل تغيير الأوضاع القائمة في البلاد إذا عاد من الحرب سليماً، مما تحول إلى جزء ثابت في فكر جمال عبد الناصر وآرائه(٢٨).

وكانت لمشاركة الجيش المصري في حرب فلسطين دروسها الأشد ألماً وعبرة، والأكبر من حيث المغزى والدلالة. فالخيانة عجلت بإظهار وجهها الأسود، والفساد كشّر عن أنيابه فاضحاً كل شيء - من البيروقراطية والمساومة إلى الأسلحة الفاسدة التي ترتد نيرانها على مطلقيها، والآليات القديمة التي لم تعد تصلح للحرب الحديثة، وبالذات لمواجهة عدو شرس مسلح بأحدث الأسلحة، ومجهز بالوسائل التقنية الممتازة، الأمر الذي أدى إلى استشهاد العدد الكبير من المقاتلين(٢٩). وينبغي الإشارة إلى أن الأسلحة الفاسدة كانت سبباً رئيسياً، إلى جانب العوامل الأخرى، في الإعداد للثورة(٣٠). لقد كانت فضيحة الأسلحة الفاسدة، حقاً، إحدى الخمائر الأساسية للثورة، فبين خطوط القتال وخنادق الحرب نمت عوامل الثورة(٣١).

لقد كشفت ملابسات الحرب الفلسطينية والقضية الفلسطينية، عموماً، الدور الحقيقي، الفكري والعملي، لجمال عبد الناصر، وأكدت في رؤيته القومية حاجة العرب (لا مصر فحسب) إلى القائد والزعيم والمنقذ. وعلى صعيد آخر عمقت بين العرب وحدة التفكير، والثقة، والاتحاد الكفاحي التحرري(٣٢).

ففي هذه الحرب التي انتهت بنكبة العرب وهزيمة الأنظمة العربية (ملوكاً ورؤساء)، لأنهم لم يكونوا على مستوى المسؤولية القومية، ولم يكونوا متحدين اتحاداً حقيقياً، أدرك جمال عبد الناصر، بحسه التاريخي وبصيرته الثاقبة، أن معركة مصر

---

(٢٨) مقابلة مع اللواء المتقاعد طلعت أحمد مسلم، قائد القوات المسلحة المصرية سابقاً، ومقرر المكتب السياسي لحزب العمل المصري في ٣ حزيران/يونيو ١٩٩٥.

(٢٩) عبد الرحمن الرافعي، مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢، الكفاح في القنال، حريق القاهرة. . .، ط ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤)، ص ١٩٩ - ٢٠٠، وسامي أبو النور، دور القصر في الحياة السياسية في مصر، ٢ ج (القاهرة: مطبعة أطلس، ١٩٨٨)، ج ٢: ١٩٣٧ - ١٩٥٢، ص ٤٠٤.

(٣٠) Temple Wanamaker, *American Foreign Policy Today,* with a preface by Dean Rusk (New York: Bantam Books, [1964]), p. 195; Richard Hrair Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics* (Albany, NY: State University of New York Press, 1971), p. 20, and Emile Bustani, «Arab-American Relations,» *Middle East Forum,* vol. 37, no. 3 (March 1961), pp. 39-40.

(٣١) محمد نجيب، مصير مصر (بغداد: دار العقاب للطباعة والنشر، [د. ت.])، ص ٩١، والجندي، هذا هو جمال، ص ٥١.

(٣٢) مقابلة مع د. الياس فرح في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤.

الداخلية والمعركة القومية واحدة، وأن الوطن المهزوم أمام الصهاينة على الحدود هو الوطن المهزوم على أيدي الخونة والرجعيين والملك في الداخل[٣٣]. وكان جمال عبد الناصر شاهداً ميدانياً على مجريات معركة فلسطين التي عاشها منذ يومها الأول حتى الأخير: منذ السادس عشر من أيار/مايو ١٩٤٨ حتى السادس من آذار/مارس ١٩٤٩[٣٤].

وفي فلسطين، ومن خلال الحرب الفلسطينية ١٩٤٨، كان ذهن جمال ـ كما أسلفنا ـ قد تفتح على القضية القومية، وأدرك أن مصر ما زالت تعاني فكرة الانعزال، وأنه ينبغي أن يكون مؤكداً أن مصر عندما تقاتل من أجل فلسطين فإنها لا تقاتل من أجل قطعة أرض غريبة، وإنما تقاتل من أجل مصر، ففلسطين هي البوابة الجغرافية والتاريخية لمصر، وعندما تغزى مصر فهي تغزى من البوابة الفلسطينية[٣٥]. والحق أن القتال في فلسطين من أجل سيادة الأرض الفلسطينية واستقلالها ووحدتها كان أفضل فرصة لتأكيد الرؤية القومية عند جمال، لتأكيد رسوخ بصمات الأفكار القومية التي صاغها عزيز المصري، أحد القوميين العرب الكبار الأوائل[٣٦]. كما أن هذه المعركة أكدت حقيقة الإيمان بالثورة والحل الثوري خلاصاً من المعاناة الشعبية الشاملة التي يفرضها النظام العميل[٣٧].

وعلى الصعيد الذاتي أكدت المعركة حقائق مهمة بالغة الدلالة بالنسبة للشخصية الناصرية والفكر الناصري العروبي، فهي منحته الفرصة لتجارب جديدة، وللإشراف الميداني، والتطبيق الحي لدروس القيادة العسكرية. فقد كانت المعركة الأولى التي يخوضها هو، ويخوضها معه الجيش المصري. وكان لها أن تجسد (أو يفترض أن تجسد) كل ما درسه في كلية الأركان، مطبقاً على الطبيعة وبشكل واقعي عملي. لقد كشفت هذه المعركة، إقدام جمال واستعداده للتضحية وقدراته العسكرية القيادية. فقد تجلت، في خضم القتال، روحه ومعنوياته العالية، وشجاعته الخارقة، وحضوره الدائم في القتال، في طليعة جنوده، مما أدى إلى إصابته برصاصة فوق القلب، فأرسل إلى

---

(٣٣) مقابلة مع الفريق أمين الحافظ، رئيس الجمهورية العربية السورية السابق في ٣١ آب/أغسطس ١٩٩٤.

(٣٤) عبد الناصر: **يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**، ص ١١٨ ـ ١١٩، و**فلسفة الثورة**، ص ١٧ ـ ١٨.

(٣٥) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ١٢ ـ ١٣ و٥٨ ـ ٦١.

(٣٦) مقابلة مع اللواء المتقاعد طلعت أحمد مسلم في ٣ حزيران/يونيو ١٩٩٥؛ سعيد، «ثورة ٢٣ يوليو وقضية فلسطين،» ص ٥٣، وعبد الغفار شكر، **فلسطين في فكر عبد الناصر: دراسة وثائقية**، قضايا قومية؛ ١ (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٢)، ص ١٠ ـ ١٣.

(٣٧) مقابلة مع اللواء المتقاعد طلعت أحمد مسلم في ٣ حزيران/يونيو ١٩٩٥.

مستشفى غزة للنقاهة لمدة شهر، لكنه لم يُمضِ إلا بضعة أيام ليعود مصراً، وبمعنويات أرفع إلى ميدان القتال في الفالوجة[٣٨].

إن المتابعة التاريخية الدقيقة لفكره في مطلعه العسكري القيادي تقتضي التوقف شيئاً عند معركة الفالوجة التي قال فيها هو: «ها نحن في هذه الجحور محاصرون، لقد غرر بنا، ودفعنا إلى معركة لم نعد لها. لقد لعبت مطامع ومقدرات وشهوات، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح»[٣٩]. كان جمال، وقتذاك، يتولى مهام أركان حرب الكتيبة السادسة بنادق، التي حوصرت في عراق المنشية، وهوجمت مرتين، وقد انتصر فيها بتخطيطه الموفق، ودقة مناورته. ففي هذه المعركة استدعى نصف القوات المعسكرة في الجانب الآخر من حدود المعركة، واقتحم بالمدد الجديدة وانتصر في هجومه المضاد لفك الحصار[٤٠]. وإلى ذلك أشار بالقول: «كان أحرج موقف هو ليلة ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨، كنت رئيس أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تحتل عراق المنشية في منطقة الفالوجة المحاصرة، وكان عراق المنشية يبعد عن الفالوجة بحوالى ٣ كيلومترات. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أبلغني قائد إحدى السرايا أن اليهود قاموا بهجوم ليلي، وأنهم قد استطاعوا أن يتسللوا خلال سريتهم، وأنهم يندفعون إلى داخل عراق المنشية، ولم يكن عندي احتياط سوى عشرين جندياً فقط، ولكنني تمكنت بواسطة هذا الاحتياطي الصغير أن أسد المنافذ المؤدية إلى رئاسة الكتيبة. وبعد ساعة كان اليهود يحتلون ثلثي البلدة، ونحن نحتل الثلث الآخر، وكانت قواتنا موجودة في خنادقها حول البلدة. كان الموقف في غاية الخطورة والحرج. وكان الحل الأول هو طلب معونة الفالوجة، إذ ان لديها قوات احتياطية كبيرة. وقد وعدوني بإرسال قوة أستطيع بها أن أقوم بهجوم لطرد قوات العدو من البلدة. وبدأت أنفذ خطة أخرى هي سحب بعض الأفراد من القوات الموجودة بالخنادق لتعزيز الاحتياطي الموجود حول مركز رئاسة الكتيبة، وحتى الساعة الرابعة لم يصل أي شيء من الفالوجة. واستنتجت أنهم لم يبتوا في: هل يرسلون قوة أم لا يرسلون، وكان تفكيرهم أنهم لو فعلوا ذلك سيكون مصيرهم مثل مصيرنا وهو القتل أو الأسر. ولم يكن أمامي غير حل واحد في هذا الوقت العصيب الحرج، هو اعتمادنا على أنفسنا، فأصدرت الأوامر بسحب جميع قوات الكتيبة من الخنادق وتجمعها في ثلث البلد الذي لا يزال في أيدينا. وقد تم سحب هذه القوات بكل هدوء. وعند أول ضوء من الصباح كانت جميع أفراد الكتيبة تقريباً تكون قوتين متقاربتين، وبدأنا في تنفيذ خطة الهجوم المضاد لطرد اليهود. وكانت مفاجأة مذهلة لليهود . . .

---

(٣٨) الجندي، **هذا هو جمال**، ص ٥١.

(٣٩) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ١٣ ـ ١٤.

(٤٠) الجندي، المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢.

ودامت المعركة الحامية من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وانتهت بقتل ثلاثمائة يهودي وأسر خمسة منهم، وفرت باقي القوات المعادية التي كانت في قلب البلدة، وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً استعادت قواتنا مراكزها حول البلدة . . .»[٤١].

وفي غضون تلك الحقبة الزمنية كانت حركة الضباط الأحرار توالي تأدية مهماتها في تطوير ذاتها بما يخدم النزوع الوطني والقومي. وإلى ذلك أشار عبد الناصر بالقول: «لقد كنا نحارب في فلسطين، ولكن أحلامنا كانت في مصر. كان رصاصنا يتجه نحو العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت حول وطننا الذي تركناه للذئاب ترعاه، ففي فلسطين وبرغم الظروف الصعبة التي عشناها كانت خلايا الضباط تواصل اجتماعاتها في الخنادق والمراكز مسلطة أضواءها على نقد الحياة السياسية قطرياً وعربياً من خلال المعاناة اليومية. لذلك حينما عدنا من فلسطين في آذار/مارس ١٩٤٩ أدركنا أن ميدان الجهاد الأكبر هو مصر، ولذلك بدأنا نعمل على ارتقاء الإطار الفكري والمسيرة التنظيمية»[٤٢].

هكذا كان بعض أثر الحرب الفلسطينية في فكر ناصر عموماً، وبخاصة فيما يتعلق بالتنظيم السري للضباط الأحرار، الذي كان يقوده. لقد نضجت لديه رؤية العمل الداخلي في مصر وكيفية توجيهه، كما نضجت لديه رؤية العمل القومي. فقد تم تحديد مسار خطه الفكري القومي، لتوثيق ارتباط مصر ببقية أجزاء الوطن العربي الواحد، باعتبار شعب مصر جزءاً حياً وحيوياً من الأمة العربية. ولم يكن هذا التحول الثوري هو التغير الوحيد الذي أحدثته حرب فلسطين في تفكيره، بل كان ثمة مستجدات أخرى. فقد كان، وهو في خنادق القتال، يبحث عن العوامل التي كانت وراء عدم وجود التنسيق بين الجيوش العربية، وصار يدرك أن ما حدث في فلسطين لا يمكن عزله عما يحدث في مصر[٤٣]، وأن العرب لن يستطيعوا، يوماً، الدفاع عن أنفسهم إلا بتوحيد جهودهم، وبخلاف ذلك فإن الدول العربية ستظل متشرذمة غير موحدة الجهود، الأمر الذي يتيح للاستعمار، والأعداء عموماً، الانفراد بها الواحدة بعد الأخرى[٤٤]. وفيما يتعلق بذلك، ونتيجةً له، فإن عبد الناصر شدد، بمختلف

---

(٤١) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤٢) نقلاً عن: الشمالي، **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر**، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٤٣) جمال عبد الناصر، «خطاب جمال عبد الناصر في مهرجان الشباب بتاريخ ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر،» في: عبد الناصر، **فلسطين: من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**، ص ٩٧ ـ ٩٨، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 20.

(٤٤) الريماوي، «الإقليمية الجديدة،» ص ٧١؛ سعيد، «ثورة ٢٣ يوليو وقضية فلسطين،» ص ٥٢ ـ ٥٤، وأنتوني ناتنج، **ناصر**، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٢)، ص ٥٣.

الوسائل والمستويات على ضرورة إنهاء الوجود الصهيوني من المنطقة العربية، وتوحيد الصفوف في النضال المشترك الموحد ضد العدو الصهيوني وضد أي غزو أجنبي آخر[٤٥].

إذن، فإن الاستنتاج الأساس هو الإسهام الكبير للحرب الفلسطينية ١٩٤٨ في إغناء فكر ناصر بالبعد العروبي القومي، وانفتاحه على هموم وقضايا الوطن العربي، وكان ذلك إيذاناً بخروج مصر وطليعتها (الضباط الأحرار) بقيادة ناصر من شرنقة القطرية، وتوحد الهموم المصرية والعربية في بوتقة واحدة. يقول هيكل مؤكداً ما سبق أن ألمح إليه: «... حتى حرب فلسطين لم نكن ندرك في مصر الخطر الإسرائيلي، وجاءت الحرب لتشكل نقطة تحول أساسية. ... إن عبد الناصر كان مأخوذاً بالوطنية المصرية ولم يكتشف أهمية فلسطين إلا بعد ما حارب على أرضها، وهناك أيضاً اكتشف البعد القومي (لقضية الوطن)... وفي فلسطين شاهد عبد الناصر الخطر وعاد بقناعة قومية»[٤٦].

وبالنتيجة، فإن الحرب الفلسطينية وآثارها جعلت جمال عبد الناصر واحداً من أبرز دعاة الوحدة العربية الشاملة، ففي فلسطين بالذات أدرك أبعاد التجزئة وخطورتها البالغة، لذلك كرس قواه للوحدة مثلما كرسها للحرية العربية، فذلك وحده هو الضمان بتأمين القوة اللازمة لمصر وغيرها من الدول العربية، لصيانة أمنها في عالم يهددها بالخطر[٤٧]. وهكذا يمكن القول إن الحرب الفلسطينية جعلت فلسطين والقضايا العربية تسيطر على ذهن عبد الناصر، وعلى أهم مفاصل فكره السياسي متساوية في ذلك مع القضية المصرية وتحرير مصر، وكان ذلك علامة مميزة لجدلية الحرية والوحدة في الفكر الناصري في تلك الحقبة الزمنية وامتداداتها اللاحقة. يقول هيكل: «لم تكن فلسطين في نظر جمال عبد الناصر البلد الذي له حدود، إنما كانت القضية بكل ما تعنيه في العالم العربي. فلسطين عبد الناصر كانت القضية المحورية. ولقد شاءت الأقدار أن تكون فلسطين هي بؤرة الصدام العربي مع الاستعمار والصهيونية. إنها نقطة الصراع. وهكذا نظر إليها وبنى تحركه وسياسته على هذا الأساس»[٤٨].

وكان لا بد لكل ذلك أن يجد انعكاسه في فكر جمال عبد الناصر التنظيمي، في

---

(٤٥) مقابلة مع د. الياس فرح في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤.

(٤٦) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٢٠.

(٤٧) يقر هذه الحقيقة جميع الذين قابلتهم دون استثناء.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

تجسيد جدلية وتفاعلية الفكر السياسي والعسكري والتنظيمي القيادي الناصري.
وهكذا، وما إن عاد جمال عبد الناصر إلى مصر حتى بدأ خطاه الأولى بإعادة الهيكل التنظيمي وفق البرنامج الجديد الذي اختطه على هدي المتغيرات الجديدة التي فرضتها آثار الحرب الفلسطينية، وقد أشار إلى ذلك بالقول: «وعدنا من فلسطين في آذار/مارس ١٩٤٩، وبدأنا نجمع صفوفنا بعد أن تفرقت جموعنا، وقتل في الحرب عدد كبير من الضباط الأحرار، وتخلف البعض منا في الطريق، إذ رأى أنه لا أمل لنجاح خطتنا إلا بالاتصال بالملك السابق والاتحاد معه في حربنا مع المستعمر وأعوانه من الخونة، واتصلوا برجال الملك السابق فساقتهم شروره ومفاسده، وحادت بهم عن خطهم، لقد كانوا وطنيين، ولكن الغواية أضلتهم عن الطريق الصحيح، ورأينا إزاء ذلك أن نحيط أعمالنا بكثير من الحذر، لأن البعض يعرف الكثير من أسرارنا وهو متصل بالملك ورجاله . . . وتظاهرت أنا وزملائي، أمام هذه الجماعة، بأننا صرفنا التشكيلات التي كنا أقمناها، وأنه أصبح لا هم لنا إلا أكل العيش . . . وبهذا الشكل تظاهرنا لنبدأ خطانا الجديدة، فهزيمة فلسطين كانت هي الشر الذي ينبثق منه الخير، فهزيمة فلسطين بصفحاتها السوداء كوة النور الذي لمع فيها شعاع الثورة . . . كانت بداية النهاية لعهد ونظام حكم وملك . . كانت علامة الغروب لظلم وفساد وخيانة . . كانت مأساة فلسطين هي المسمار الأخير في نعش دولة الخونة الذين حكموا الشعب وقتلوا جنوده وضباطه، ومزقوا كرامته وسخروا من مقدساته»[٤٩].

هكذا ساعدت نكسة فلسطين على تعميق الوعي القومي لدى جمال عبد الناصر، وزادته إيماناً بضرورة التغيير الذي قدر توفر جميع مستلزماته في ظروف مصر آنذاك، لكن الأمر كان يقتضي تعزيز تنظيم صفوف الضباط الأحرار، فتركزت أفكار عبد الناصر في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات على هذا الجانب المهم الذي كان يعتمد عليه تحقيق آرائه وأحلامه بخصوص مستقبل الوطن والأمة.

ثانياً: تعزيز التنظيم وتوسيع نطاق التبشير

بذل عبد الناصر جهوداً كبيرة في ميدان التنظيم والتوجيه من أجل تهيئة أداة التغيير الثوري المطلوب، وبالفعل بدأ بتنفيذ البرنامج الذي صاغه بتشكيل الهيكل الهرمي، وفق تنظيم جديد يكفل السيطرة على الجيش كنقطة البدء لتحرير مصر[٥٠].

إن اعتماد الجيش قوةً فاعلة أساسية للتغيير الثوري، المستند إلى دعم الشعب

---

(٤٩) نقلاً عن: الجندي، **هذا هو جمال**، ص ٥٣.

(٥٠) عطوي، **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**، ص ١٣١، و Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 2.

وتأييده، كان هو الفكرة التي هيمنت، كأثر من آثار الحرب الفلسطينية والهزيمة وتضاعيفها، على ذهن قائد تنظيم الضباط الأحرار، جمال عبد الناصر. وقد لقيت هذه الفكرة أوسع القبول لدى رفاقه في تنظيم الضباط الأحرار. ولم تكن هذه الفكرة، في معرض التحليل الموضوعي، رومانسية خيالية أو «سنديكالية» نقابية بمعنى الانحياز للمهنة والصنف، أو انعزالية أرستقراطية، بمعنى الابتعاد عن جماهير الشعب والاستعلاء عليها، بل كانت واقعية، موضوعياً، تختار منطقها وتعتمد مبرراتها التاريخية. فالجيش وحده آنذاك، كان القوة المعتمدة للقيام بدور الانقلاب والتغيير، باعتباره يملك السلاح والكوادر البشرية المدربة، ويتحلى بالانضباط العسكري والطاعة والكتمان، والابتعاد عن المهاترات والتحزبات[٥١].

لم يكن تنظيم الضباط الأحرار، بهذا المعنى، التنظيم الوحيد ولا الأخير، ولكن تنظيم الضباط الأحرار في مصر بشكله المعروف كان فكرة ناصرية بالكامل. يقول هيكل: «كان عبد الناصر يقول: إن الجماهير جاهزة لاستقبال الثورة، لكنها خائفة، خائفة من أي شيء؟ خائفة من الملك لأن العصابة في يده، والسلاح في يد العصابة، والعصابة هي الجيش. ولكي يتبدد خوف الجماهير، فإن الخطوة الأولى المطلوبة هي تجريد الملك من سلاحه القوي، أي أخذ الجيش منه. وهكذا كان»[٥٢].

ولكل ذلك، وانطلاقاً من عقيدته السياسية ـ الفكرية ـ التنظيمية، قرر جمال عبد الناصر اتخاذ التدابير اللازمة لقطع العلاقات بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين والأحزاب السياسية الأخرى[٥٣]، وكان ذلك مبرراً بعاملين: **الأول**: عقيدة عبد الناصر المسيطرة على فكره التنظيمي آنذاك، ونعني اختيار واعتماد الجيش قوة تغيير حاسمة متحلية بالضبط العسكري، بعيدة عن المهاترات والانحيازات المسبقة. **والثاني**: الحملة التي شنتها الحكومة المصرية لقمع «الإخوان المسلمين» اثر اغتيال رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي[٥٤]، والتي كانت تعكس تخاوف الملك من العسكريين العائدين وانتماءاتهم، ولا سيما بعد انقلاب حسني الزعيم في سوريا[٥٥].

---

(٥١) ايغور بيليايف وافغيني بريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٣٥ ـ ٣٨.

(٥٢) مطر، **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل**، ص ٤٢ ـ ٤٤.

(٥٣) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٣٨ ـ ١٤٥، ودومال ولوروا، **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**، ص ٦٧.

(٥٤) محمود فهمي النقراشي (١٨٨٦ ـ ١٩٤٨) سياسي ومرب مصري معروف، تعاون مع الوفد في البداية، ثم أسس مع أحمد ماهر «حزب السعديين»، تقلد مناصب وزارية عديدة، وأصبح رئيساً للوزراء إلى حين اغتياله.

(٥٥) البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ١، ص ٣٧؛ كامل اسماعيل الشريف، **المقاومة** =

كل ذلك أدى إلى أن يتعرض جمال عبد الناصر للمساءلة على أعلى المستويات حال عودته من فلسطين. فما كاد يصل الى بيته حتى حضر لزيارته من كان موفداً لاستدعائه لمقابلة عثمان المهدي باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش، الذي طلب اليه مقابلة رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكري العام ابراهيم عبد الهادي باشا، حيث جرى توجيه الاتهام له بتشكيل جمعية سرية، والتآمر على القصر، وتدريب المواطنين المدنيين على حمل السلاح، والتواطؤ مع الإخوان في الاضطرابات الأخيرة التي أحدثوها، وتدريبهم أثناء الحرب الفلسطينية وقبيل قيامها[٥٦]. وإلى ذلك أشار عبد الناصر، ببعض التفصيل، نورد ما ذكره نظراً لأهميته في مسار تطور الناصرية فكراً وتنظيماً، فقد قال:

«كان هذا أول تحقيق معي، وأنا ضابط، ولو أنه لم يكن أول تحقيق معي، فقد أجروا معي عدة تحقيقات من قبل، وأنا طالب بالمدارس الثانوية. حضر إلي أحد الضباط نحو الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٥ أيار/مايو، وأخبرني أن رئيس أركان الحرب يطلبني لمكتبه، وسألني، وهو مضطرب، عما اذا كنت قد عملت شيئاً يستحق المؤاخذة! فطلبت من زوجتي ان تبلغ عبد الحكيم عامر بأمر استدعائي اذا لم اعد حتى الساعة الرابعة، فقد أحسست بالخطر. وكانت التهمة الموجهة إلي في ذلك الوقت تدريب المجاهدين في فلسطين. وأجرى رئيس الوزراء التحقيق بنفسه معي. وقد دام هذا التحقيق سبع ساعات في حضور الفريق عثمان المهدي، رئيس هيئة أركان حرب الجيش، وحضر اللواء أحمد طلعت رئيس البوليس السياسي جانباً منه. لقد كانت أعصاب رئيس الوزراء ثائرة في ذلك اليوم. وكان يسألني عن الضباط الذين اشتركوا معي في التدريب، وكان يهددني باحالتي إلى النيابة والبوليس لتؤخذ الاجراءات معي، وقد كانت هذه الاجراءات تعني الذي كان الشعب بأجمعه على علم به. ولقد كنت مالكاً لأعصابي في ذلك اليوم. وطلبت منه أن يواجهني بالمبلغين. وسألني في التحقيق: هل عندي أسلحة في منزلي، فقلت له: عندي ذخيرة يهودية من فلسطين تبلغ حوالى ٢٠٠ طلقة مدفع ستيل. ولقد فقد رئيس الوزراء الكثير من أعصابه في ذلك اليوم. وكان يقول لي، بعد أن ضاق صدره من اصراري وصمودي أمام تهديداته

= السرية في قناة السويس، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤، ط ٢ (بيروت: [د. ن.]، ١٩٥٧)، ص ١٠؛ بيلياييف وبريماكوف، مصر في عهد عبد الناصر، ص ٤٠ ـ ٤٢، و Ephraim Avigdor Speiser, *The United States and the Near East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950), p. 234.

(٥٦) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨؛ حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٣٧ ـ ١٣٨؛ عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٣٧، ودومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٦٣.

لا أدري ماذا أعمل معك، ضابط كبير مثلك قد تصدر إليه الأوامر فجأة لمقاومة أي حركة ثورية! كيف يكون الوضع، وكيف نطلب من الانجليز الخروج، والوضع على هذا الحال؟ انكم تقولون انني جبان، ولكنني لست بجبان إلا في حالة واحدة فقط، وهي يوم يعتدي علي انكليزي واحد، حتى ولو كان مرتدياً بنطلوناً مقطعاً! وكان رئيس الوزراء يقول في ثورته: هل تريدون أن يحتل الانكليز القاهرة والاسكندرية؟ ... لقد وجدت في قصر الملك مفرقعات، وأنا أود أن أعرف ما الذي نعمله اذا جرى حاجة للملك ... وبعد سبع ساعات، وكنت قد خرجت من مكتبه ليقوم رئيس هيئة أركان حرب الجيش بمحاولة اقناعي بالاعتراف، ثم طلبني ابراهيم عبد الهادي مرة أخرى، وقال: روح يا ابني. وطلب مني الفريق عثمان المهدي أن يتوجه معي لاحضار الذخيرة الموجودة في منزلي، والتي حفظت في خزانة مدير المكتب، القائمقام عبد العزيز فتحي، حين استولينا يوم ٢٣ يوليو (تموز) على رئاسة الجيش ووجدها عبد الحكيم عامر في خزينة مدير مكتب رئيس هيئة اركان حرب الجيش. وانتهى التحقيق في الساعة الثامنة، وتوجهت إلى منزل عبد الحكيم فوجدته قد اتصل ببعض الضباط الأحرار الموجودين في القاهرة وكانوا مجتمعين به في منزله، وكان هذا أول يوم لي في الاجازة التي أخذتها من عملي في الاسماعيلية، وكانت لمدة شهر»[٥٧].

ويستطرد جمال عبد الناصر في تبيان الاجراءات الاحترازية التي اتخذها تنظيم «الضباط الأحرار» تحت قيادته وبوحي من فكره التنظيمي ـ السياسي، فيقول: « ... وقد بدأنا في وضع خطّتنا في ذلك اليوم. وفي نهاية الشهر كان شملنا قد اجتمع. وفي يوليو (تموز) ١٩٤٩، حينما بدأ الملك فاروق سياسة إزالة التوتّر، شكّل الضباط الأحرار لجنة تنفيذية من تسعة أعضاء. وقد وضعت هذه اللجنة في شهر تشرين الأول/اكتوبر خطة للاستيلاء على الحكم بعد خمسة أعوام لتعبئة ضباط الجيش حتى تستطيع التخلّص من النظام كله، أي أننا سنقوم بحركتنا في عام ١٩٥٤، وليس في عام ١٩٥٢، كما دفعتنا الظروف والحوادث إلى التفكير في تنفيذ الخطة. وتعددت بعد ذلك اجتماعاتنا في كل مكان، وفي منازل متعددة»[٥٨].

ومع نقل جمال عبد الناصر في شهر آب/أغسطس من السنة ذاتها إلى القاهرة تبدأ حقبة جديدة في نشاطه الفكري والتنظيمي الذي أحاطه، في الظروف الجديدة،

---

(٥٧) نقلاً عن: الجندي، هذا هو جمال، ص ٥٥.

(٥٨) نقل العديد من المؤلفين مقتطفات أساسية من أقوال جمال عبد الناصر هذه نظراً لأهميتها بالنسبة إلى حركة الضباط الأحرار. انظر على سبيل المثال: السادات، المصدر نفسه، ص ٢٠٩؛ دومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٦٣؛ الجندي، المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧، و: Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics*, p. 21.

بمزيد من التدابير الاحترازية والأمنية. يصف جمال عبد الناصر نفسه ذلك بالقول:

« . . . بدأنا في أيلول/سبتمبر ١٩٤٩ في التنظيم الجدي والخروج بالحركة إلى نطاق واسع. فبثثنا العيون في كل مكان، في القصر، وفي القيادة العامة للقوات المسلحة، وفي البوليس السياسي، وفي مختلف الأسلحة والوحدات، وكانت هذه العيون تنقل إلينا كلّ المعلومات التي تصل إلى المسؤولين، في ذلك الوقت، عن حركة الضباط الأحرار. كما صدرت التعليمات لبعض أعضاء اللجنة التنفيذية بالاحتفاظ بعلاقاتهم مع الدوائر الحاكمة في البلاد، وذلك بهدف الحصول على المزيد من المعلومات، ومن أجل صرف الأنظار عنهم، وكانت هذه الوسيلة الاحتياطية لا بدّ منها، سيّما وقد بدأ التنظيم بالانتشار على نطاق واسع»(٥٩).

وتطبيقاً لتوجيهات قائد منظمة «الضباط الأحرار» التنظيمية، بدأ أعضاء المنظّمة بنشر آرائهم ودعواتهم بين صفوف الضباط، على نطاق واسع، عن طريق المنشورات السرية، كما جمعوا مبلغاً لشراء آلة رونيو لطبع المنشورات وآلة كاتبة أيضاً، وَوُضع كل ذلك في منزل البكباشي حمدي عبيد الذي كان متصفاً بالمرح الشديد والتنكيت وحبّ التسلية، وهي أمور كانت تساعد في دفع شبهات العمل السياسي عنه. وصارت المنشورات تُطبع في داره بكوبري القبة(٦٠).

وفي غضون تلك الفترة أنهى جمال عبد الناصر صياغة أسس تنظيمه السري وأهدافه، وطُبع أول منشور للضباط الأحرار في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩، تضمّن التالي:

أولاً: تضمن تحليلاً ووصفاً للحالة والمأساة في فلسطين.

ثانياً: تحديد أهداف حركة الضباط الأحرار في النقاط الرئيسية التالية:

١ ـ القضاء على الاستعمار الاجنبي وأعوانه من المصريين.

٢ ـ تكوين جيش وطني قوي.

٣ ـ إيجاد حكم نيابي سليم.

ثالثاً: تحديد النظام الأساسي للتشكيل الثوري على هذا النحو:

١ ـ السرّية المطلقة في كل شيء.

٢ ـ تخصيص كل ضابط من ضباط مجلس قيادة التشكيل لسلاح من أسلحة

---

(٥٩) نقلاً عن: الجندي، المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧، ودومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٦٣.

الجيش، يكون هو المسؤول عن تنظيمات التشكيل فيه.

٣ ـ الأخذ بنظام الخلايا، ووجوب عقد اجتماعات الخلايا اسبوعياً وبانتظام.

٤ ـ تكليف كل ضابط من ضباط مجلس القيادة بتقديم تقرير اسبوعي إلى المجلس يوضح فيه مدى تقدّم التشكيل في داخل سلاحه، وعدد المنضمّين، وتحديد عدد ما يرى عدم صلاحيتهم لاستبعادهم.

٥ ـ وجوب ضمّ أعضاء جدد في كل أسبوع.

٦ ـ إصدار المنشورات بصفة منتظمة أسبوعياً[٦١].

لقد لاحظ المتابعون والمراقبون السياسيون، عن حقّ، أن هذه المضامين التي اندرجت في منشور تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩، كانت المرتكز الأساسي لانطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي أضحت، فيما بعد، الثورة الرائدة للثورات العربية وحركات التحرّر في الأقطار العربية، وأقطار العالم الثالث على حدٍ سواء[٦٢].

وبالإضافة إلى ذلك، كان جمال عبد الناصر يتدخّل، بمعطيات فكره التنظيمي الثاقب، في تفاصيل الإجراءات الدقيقة في نشر مضامين رسالة «الضبّاط الأحرار» إلى الجيش والشعب، في آنٍ معاً. فقد حدّد، منذ وقتٍ مبكّر، أعضاء المجموعة التي تشرف على عملية الكتابة والطبع، وهم ـ جمال عبد الناصر، وحمدي عبيد، وخالد محيي الدين. وحدّد، أيضاً، أعضاء المجموعة التي تتولّى توزيع المنشورات على صناديق البريد، وعلى فروع التوزيع في الوحدات والأسلحة المختلفة، وهم ـ عبد الحكيم عامر، وصلاح سالم، وكمال الدين حسين. وهو كان يرمي من وراء كل ذلك ضمان أفضل الوسائل للتبشير بالأفكار الجديدة، وتطويرها. فمن أجل ذلك حُدّد لكل ضابط من الضبّاط الأحرار مهمته الخاصة، فكان على بعضهم مراقبة الضباط عند قراءتهم المنشورات، ونقل تعليقاتهم على مضامينها، بينما كان بعضٌ آخر يُكَلّف باستقطاب العناصر التي تبدي التأييد للحركة، ووضعهم بعد ضمّهم تحت المراقبة[٦٣].

لقد والى «الضبّاط الأحرار» إصدار منشوراتهم، التي تحوّلت في نهاية عام ١٩٥٠ إلى نشرة دورية تصدر بانتظام بعنوان «صوت الضبّاط الأحرار»[٦٤]، بصورة

---

(٦١) السادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ أنور السادات، ثورة على النيل، ٢ ج (بغداد: الشركة الشرقية للطباعة، [د. ت.])، ص ١٣٩، وعطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٣٨.

(٦٢) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٤؛ الجندي، هذا هو جمال، ص ١٣٨، ودومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٦٣) حمروش، المصدر نفسه، ص ١٤، والجندي، المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٦٤) دومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٦٣.

دورية منتظمة. فأدركت السلطة الحاكمة في مصر، وقتذاك، أن وراء هذه المنشورات فكراً وتنظيماً قوياً مقتدراً، وخصوصاً بعد ان ضبطت هذه المنشورات، في إحدى المرات، عبر البريد. لذلك شدّدت المراقبة، وبدأت تبحث عن وسائل لكشف التنظيم السري، فأرسلت، ذات مرة، عنصراً معروفاً بالوطنية وبعدم الالتزام، في آن، وهو مصطفى كامل صدقي، وأوصته بالامتزاج بجمال عبد الناصر، والتعرّف ما إذا كان هو الذي يتولّى قيادة «الضباط الأحرار»، إلا أن جمال عبد الناصر المشهور بدقّته وبالغ حذره رفض التعاون معه، مؤكداً له بأنه ترك المهام السياسية وتفرّغ للمهام الشخصية. وكان لذلك ما يبرّره، فقد كان جمال عبد الناصر قد كشف حقيقة هذا العنصر المدسوس، من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن عبد الناصر كان في وقت مبكر قد اتخذ قراره الحاسم بفك ارتباط حركته بالأحزاب السياسية والجمعيات السرية، لأسباب أمنية اقتضتها المرحلة التاريخية التي أسلفنا الإشارة إليها.

وبالنتيجة، اتخذ جمال عبد الناصر عدة قرارات لحماية الضباط الأحرار وكانت: تغيير طريقة توزيع المنشورات في البريد، وتغيير سكن الضابط حمدي عبيد الذي كانت تطبع المنشورات في بيته بنقله من كوبري القبة إلى حي يكاد يكون غير معروف فيه وهو الجيزة، حيث استمرت المطبعة في عملها، في منزله، حتى تفجير ثورة ٢٣ يوليو[٦٥]. كما أن قائد التنظيم، جمال عبد الناصر، واصل العمل على توسيع نطاق التنظيم ونشر الدعوة وضم العناصر الجديدة المتميزة حتى عام ١٩٥٢. وانحصر العمل في جبهتين: **الأولى** الاستمرار في التحرك السياسي والتطوير الفكري والاستعداد العسكري، **والثانية** ضم أكبر عدد ممكن من الضباط إلى التشكيل على أساس خلايا خماسية متكاثرة، بمعنى أن كل خلية تتألف من خمسة عناصر، وكل عنصر من عناصر هذه الخلية يرأس خلية ثانية مؤلفة بدورها من خمسة عناصر لا يعرفون من عناصر الخلية الأولى إلا العنصر الذي يرأسهم. وكان لهذا الطراز من التنظيم الدقيق أكبر الأثر في الحفاظ على سرية الحركة، وفي نجاحها يوم الثورة[٦٦].

ووضعت لجنة التنظيم التنفيذية المسؤولة، في اجتماعها في شهر تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٤٩، خطة للسيطرة على الحكم بعد خمس سنوات. لذلك، ومن أجل إزالة الشكوك وإبعاد الأجهزة الأمنية للسلطة عن مراقبتهم، وبالذات مخابرات القصر، ومخابرات الجيش، زود بعض أعضاء اللجنة بتعليمات تنص على الاحتفاظ بعلاقاتهم مع السلطات الحاكمة في البلاد، بهدف الحصول على المزيد من المعلومات منها وتزويدها بمعلومات استخبارية خاطئة. فتم تكليف صلاح سالم بكسب ثقة حيدر

---

(٦٥) عطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٤٠، والجندي، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٦٦) دومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ١٤، وعطوي، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

باشا، قائد الجيش، لتجهيزه بمعلومات مضللة، وتكليف أنور السادات بمداومة اتصاله بالدكتور يوسف رشاد، رجل القصر، للغرض ذاته[٦٧].

ويورد عضو اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار، خالد محيي الدين في مذكراته تفصيلات حول الموضوع فيقول ان حيدر باشا زار رفح حيث كان صلاح سالم، واجتمع بصلاح لمدة طويلة، وطلب منه أن يصارحه بشكاوى الضباط حتى يمكن حلها. وكان صلاح مشتهراً بين الضباط بأنه تصادمي و «سليط اللسان»، وتوقع حيدر ان يكون صلاح على علاقة ما بالضباط الأحرار، وقرر مد جسور للعلاقة معه. وناقشنا الأمر وقررنا أن يواصل صلاح سالم علاقته بحيدر باشا، وظلت هذه العلاقة متصلة حتى قيام الثورة، والحقيقة أن هذه العلاقة قد تركت أثرها في صلاح سالم، إلى درجة أنه قد صمم بعد الثورة على عدم محاكمة حيدر باشا[٦٨]. ويورد خالد محيي الدين بخصوص أنور السادات، أيضاً، ما يفهم منه أن جمال عبد الناصر كان حذراً بخصوصه، إلا أنه يرى أن التنظيم يحتاج إليه لخطورة وأهمية اتصالاته، فيقول: « . . . الغريب في الأمر أن جمال أسر لي بعد فترة وجيزة أنه يشك في السادات وأنه كسول، ولا يقدم للحركة شيئاً، فسألته: لماذا ضممته إذن؟ فأجاب: لأنه مصدر مهم للمعلومات، فهو على علاقة بيوسف رشاد وبمستر سمبسون السكرتير بالسفارة البريطانية، وكان سمبسون هذا يمثل المخابرات البريطانية في مصر في زمن الحرب العالمية الثانية. وكان أنور يعرفه منذ حادثة القبض عليه هو وحسن عزت عام ١٩٤٢ . . . وسألت عبد الناصر: ألا تخشى منه؟ فقال: ربنا يستر، بس لازم نبقى صاحبين»[٦٩].

وعلى أية حال، فإن فكر عبد الناصر التنظيمي القيادي كان من المرونة بحيث إن تشكيل الضباط الأحرار تحت قيادته لم يفلت فرصة تساعد على صرف أنظار القصر وقيادة الجيش عن التشكيل إلا واستثمروها على النحو الأفضل والأكمل، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة المعتمدة للحفاظ على سرية التنظيم وأمنه، وتجلت أهمية كل ذلك، بصفة خاصة، حين حان الحين للتنظيم السري للخروج من الظلام، ففي نهاية عام ١٩٤٩ تلقى كبار الضباط وعدد كبير من مرؤوسيهم نسخاً من منشور يحمل توقيع «الضباط الأحرار» جاء فيه بالنص: «ما هو واجبنا الأول بعد التجربة المريرة للحرب الفاشلة؟ الجواب طرد الانكليز، وإعادة بناء القوات المسلحة، والقضاء على الإسراف في أموال الدولة، ورفع مستوى المعيشة»[٧٠].

---

(٦٧) دومال ولوروا، المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٦٨) خالد محيي الدين، «مذكرات خالد محيي الدين، والآن أتكلم،» الرأي، ١٢/١٢/١٩٩٢.

(٦٩) المصدر نفسه.

(٧٠) ناتنج، ناصر، ص ٥٧.

وقد أثار هذا المنشور غضب الملك فاروق، ولا سيما أن البوليس لم يستطع أن يميط اللثام عن تنظيم الضباط الأحرار لسريته المتناهية ومناورته الدقيقة. كما أن أسلوب التخفي «الذي اعتمده عبد الناصر» وراء شخصية عسكرية مجهولة كبيرة، قوية، مقربة إلى القصر، باسم «زغلول» أبعد الشك عن جمال عبد الناصر، الذي كان يواصل حياته العسكرية بنجاح كبير. فقد كان في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ يواصل إلقاء المحاضرات في مدرسة أركان الحرب، كما أن عكوفه على المطالعة في أوقات فراغه، أبعد الشكوك عنه. وكان في هذه الفترة يطالع الكتب السياسية المختلفة، وبخاصة الكتب السياسية من تأليف لاسكي ونهرو[٧١]. ولكل ذلك، وللتخفي والتكتم الشديدين، فإن التقارير الاستخبارية لم تكن تستهدفه، بيد أن المتغيرات السياسية التي وقعت أجرت تحولاً في التخطيط، والتنفيذ الذي اعتمده تنظيم الضباط الأحرار، فقد قرر التنظيم تقديم تنفيذ موعد الثورة إلى عام ١٩٥٢، ولا سيما بعد أن نشر ديوان المحاسبة تقريره في «المتاجرة المعيبة» التي كشفتها تضاعيف حرب فلسطين[٧٢]. فكتب اللواء محمد نجيب، وهو من جرحى حرب فلسطين، ويتمتع بشعبية كبيرة في صفوف ضباط الجيش سلسلة مقالات هاجم فيها الفساد الذي اجتاح الدوائر الحاكمة، والحالة المؤلمة التي وصلت إليها القوات المسلحة، وطالب الرأي العام بإجراء تحقيق بشأن هذا الفساد. وبدأ التحقيق، فعلاً، في وزارة الحربية، إلا أنه توقف، فور بدئه، بناءً على أوامر من الملك فاروق خشية أن يفضح التحقيق الدور الخطير الذي أداه أفراد حاشيته[٧٣].

وفي ظل التصعيد المحتم الذي لم يكن ثمة مناص منه، كان لا بد من أن يحصل التصادم المتوقع بين الكتلة الوطنية في الجيش (تنظيم الضباط الأحرار وأنصاره) وبين بطانة الملك ومرتزقتها والانتهازيين المنتفعين منها. وكان هؤلاء قلة مفضوحة، معزولة، أمام الكتلة الوطنية الكبيرة في الجيش التي يترأسها تنظيم الضباط الأحرار الذي حاز قبولاً واسعاً.

ويتضح من ذلك أن منظمة «الضباط الأحرار» حازت شعبية بالغة في أوساط الجيش المصري، كما أن الظروف كانت مؤاتية للتصعيد، ولاستثمار أي فرصة سانحة يتيحها التوتر القائم المتعاظم بين الشعب والكثرة الكاثرة من منتسبي الجيش من جهة، والملك والطبقة الحاكمة من جهة أخرى. وكان التيار يجري لصالح التغيير في ظل

(٧١) المصدر نفسه، ص ٥٧ ـ ٥٨، وعطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ١٤٠.

(٧٢) نجيب، مصير مصر، ص ٩١، وطارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣)، ص ٣١٥.

(٧٣) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٤٥.

تفاقم أزمة الحكم القائم. فكان التغيير الوزاري السريع، والعجز في حل المشكلات الداخلية، وتأجيل الانتخابات النيابية المرة بعد الأخرى دليلاً إضافياً في نظر جمال عبد الناصر على أن الفئات العليا في مصر تمر بأزمة متصلة بحيث لم يعد في مقدورها أن تحكم بالطريقة المعتادة.

وهكذا فإن الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة التي عاشتها مصر في مطلع العقد السادس زادت جمال عبد الناصر قناعة بضرورة التعجيل في التغيير، كما زادته قناعة بأفكاره وآرائه، وخصوصاً أن بعض ظواهر تلك الأزمة أدت إلى تعزيز الاستقطاب الفكري العام لصالح الحركة الوطنية المصرية، بما في ذلك «حركة الضباط الأحرار». فقد شهدت البلاد موجة عارمة من المظاهرات والاجتماعات والاضرابات التي رفعت شعارات جديدة، من ذلك اضرابات ومظاهرات القاهرة والاسكندرية في آذار/مارس ١٩٥٠، واضراب حوالى الفين وخمسمائة عامل في منطقة القناة في نيسان/ابريل من العام نفسه، واضراب عمال النفط والنقل في حزيران/يونيو ١٩٥١، والمظاهرات والاجتماعات الحاشدة التي رفعت شعار تأميم المنشآت النفطية ووسائط النقل في تموز/يوليو من العام نفسه، فضلاً عن المظاهرات التي كانت تنفجر بين الحين والآخر في كبريات المدن للمطالبة بإلغاء المعاهدة المصرية ـ البريطانية لعام ١٩٣٦.

ولم تكن المؤسسة العسكرية عموماً، و «حركة الضباط الأحرار» خصوصاً بمعزل عن هذا المد الثوري، فلقد جاشت في صدور الضباط الأحرار وأنصارهم في الجيش مشاعر الغضب والاستياء والعنف الثوري، وكانوا يعبرون عن هذه المشاعر في مناسبات عديدة، معززين مكانتهم داخل القوات المسلحة، وكاشفين، في الوقت ذاته، زيف النظام وخيانته. وحانت الفرصة في السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٥١، لاستثمار انتخابات اللجنة التنفيذية لنادي ضباط الجيش لصالح «الضباط الأحرار»، وصالح التغيير الثوري الحاسم. فقد دفع الملك بمرشحه حسين سري عامر لرئاسة نادي الضباط. وكان حسين سري هذا وكيلاً لسلاح الحدود، حينما كان محمد نجيب يتولى قيادته، وكان اسمه يقترن بأشنع صفحات الفساد، من تهريب المخدرات، إلى بيع الأراضي بوسائل غير مشروعة، إلى الرشوة والتزوير، بل ان لجنة التحقيق في الجرائم التي ارتكبت داخل سلاح الحدود نسبت أغلب هذه الجرائم (وكانت في حدود الستمائة) إلى حسين سري هذا. وقد رفع محمد نجيب، مدير سلاح الحدود وقتذاك، تقريراً بذلك إلى صهر الملك فاروق، اسماعيل شيرين ليرفعها هذا إلى الملك، الذي لم يأخذ بالتقرير، بل بالعكس أمر بترقية حسين سري استثنائياً، وبتعيينه مديراً للحدود، بدلاً من محمد نجيب . . . وقد تم ذلك كله بتأثير الصلات العميقة التي تربط حسين سري بالملك وحاشيته[٧٤].

---

(٧٤) فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ٢٧٩.

إلا أن ميزان القوى كان يعمل لصالح الكتلة الوطنية في الجيش التي يقودها تنظيم الضباط الأحرار. فحين أجريت انتخابات نادي الضباط لم يفز حسين سري، مرشح الملك، إلا بثمانية وخمسين صوتاً، مقابل مائتين وثمانية وسبعين وصوتاً حازها محمد نجيب، مرشح تنظيم الضباط الأحرار. وكان أن تألف مجلس إدارة نادي الضباط من محمد نجيب رئيساً، وخمسة من الضباط الأحرار هم: زكريا محيي الدين، حمدي عبيد، جمال حماد، حسن ابراهيم، أمين شاكر(٧٥). فغضب الملك فاروق مستاء من هذه النتائج، وبإجراء تعسفي ألغى الانتخابات الشرعية. غير أن الضباط الأحرار لم يكترثوا للإلغاء، لأن ممارسة الانتخابات كانت، بالنسبة لهم، وسيلةً فعاله للتعبير عن سخطهم، ومديات التفاف الجيش حولهم، من خلال تفوق الأصوات التي كانت تدل بوضوح على أن أربعة أخماس زملائهم كانوا يؤيدونهم ويتفقون معهم في مجابهة القصر. وكان ذلك إشارة فصيحة إلى المعارضة العسكرية العلنية للملك، وبياناً في منتهى الجلاء حول اتجاه ميزان القوى ضد حكم القصر وأعوانه، واختباراً حقيقياً لقوة تنظيم الضباط الأحرار ضد القصر، وشيوع أفكاره، وقبول شعاراته داخل المؤسسة العسكرية عموماً باتجاه التغيير المرتقب الذي قربت أحداث خطيرة موعده.

ثالثاً: خطط جمال عبد الناصر الأخيرة في ظل تفاقم الأزمة السياسية قبيل الثورة

في هذا الوقت شهدت الساحة المصرية حدثين خطيرين خدما خطط جمال عبد الناصر إلى حد كبير، **الأول** تفجر العمل الفدائي في منطقة قناة السويس، **والثاني** حريق القاهرة. فتحت زخم الحركة الوطنية قدمت حكومة زعيم «الوفد» نحاس باشا(٧٦) في الثامن من تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٥١ لائحة إلى البرلمان تقضي بإلغاء المعاهدة المصرية ـ البريطانية لعام ١٩٣٦، وكذلك الغاء اتفاقية عام ١٨٩٩ الخاصة بالحكم الثنائي المصري ـ البريطاني للسودان، وإعلان فاروق ملكاً على مصر والسودان بدلاً منها.

---

(٧٥) نجيب، **مصير مصر**، ص ٩٦ ـ ٩٧؛ محمد نجيب، **كلمتي للتاريخ** (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، [د. ت.])، ص ٢٦ ـ ٢٨، وحمروش، المصدر نفسه، ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٧٦) تشكلت وزارة نحاس باشا في ١٤ كانون الثاني /يناير ١٩٥٠ على أثر فوز «حزب الوفد» بأكثرية المقاعد البرلمانية في الانتخابات التي جرت في ذلك الشهر، وبقيت في الحكم حتى ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢. بدأت حكومة الوفد هذه خطاها بمحاولة إيجاد بعض الحلول لمشاكل البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتفاقمة دون جدوى. حول الموضوع، انظر: الرافعي، **مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢**، **الكفاح في القنال**، **حريق القاهرة...**، ص ١٩٠، ومحمد مصطفى صفوت، **مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة: التطور السياسي، ١٨٨٢ ـ ١٩٥٨**، الألف كتاب؛ ٢٤٠ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩)، ص ١٦٤.

جاء رد فعل الحكومة البريطانية على ذلك قوياً، فقد عززت القوات البريطانية وجودها في مصر، وقامت باحتلال أهم المناطق السوقية في البلاد. أدى ذلك إلى هبة جماهيرية واسعة عبرت عن ذاتها بأشكال متباينة، كان أخطرها الشروع بأعمال فدائية ضد القوات البريطانية في منطقة القناة، والتي بلغ تعدادها ثمانين ألف عسكري. ومن أجل تصعيد وتائر العمل الفدائي طالب المتظاهرون في المدن بتسليح الشعب، فقد انطلقت مظاهرات حاشدة في شوارع القاهرة والاسكندرية في آن واحد، بتعداد أكثر من مليون متظاهر في القاهرة، واكثر من ربع مليون في الاسكندرية. وطالبت الجماهير الطلابية بقبول تطوعها لحمل السلاح، وبإتاحة الفرصة لها للتدرب على القتال، وشاركت الجماهير العمالية في التعبير عن سخطها، ومقاومتها ضد المحتلين، بمقاطعة العمل، فقد قدم خمسون الفاً من العمال المصريين الذين كانوا يعملون في ثكنات الجيش البريطاني وفي المنشآت المختلفة للقاعدة البريطانية في منطقة القنال، استقالاتهم، وعاد قسم منهم إلى القاهرة[٧٧].

تحول العمل الفدائي هذا إلى حركة مسلحة منظمة تحمل جمال عبد الناصر جانباً مهماً من عبئها الثقيل[٧٨]، فقد تعاظم زخم انطلاق كتائب العمل الفدائي لمقاومة قوات الاحتلال متلقية تدريبها على أيدي ضباط أحرار متطوعين في الكفاح المسلح. وبتنفيذ العمليات الفدائية ليلاً بات حرس المعسكرات البريطانية يتساقطون، وصارت الانفجارات تدوي معلنة عن المزيد من الإصابات بين جنود الاحتلال، مما دفع القضية المصرية إلى واجهة الأحداث العالمية في سياق فرض تساؤلات فكرية لدى الرأي العام البريطاني نفسه الذي بدأ يناقش جدوى بقاء القاعدة البريطانية في منطقة القناة، وعن مديات ضرورة هذه القاعدة أصلاً في هذا العصر الذري، وهل أن كل ذلك يستحق، فعلاً، هذه التضحيات من العسكريين البريطانيين، إضافة إلى هدر الأموال الطائلة[٧٩].

في خضم هذه الأحداث التي كانت تمثل، بحد ذاتها، تحولاً نوعياً في الفكر والعمل بغض النظر عن مداه، كان قائد منظمة «الضباط الأحرار» دائم الحضور، شديد التنبه، يراقبها قائداً للعمل الفدائي، ومشاركاً في الإجراءات الثورية الحاسمة، وقد توصل إلى قرار لا رجعة فيه بضرورة تكريس الضباط الأحرار كامل طاقاتهم

---

(٧٧) محمد حسنين هيكل، **ملفات السويس**، حرب الثلاثين سنة (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٦)، ص ١١٢ ـ ١٣٦؛ الشريف، **المقاومة السرية في قناة السويس، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤**، ص ١٠، وعزيز السيد جاسم، **مقتل جمال عبد الناصر**، ط ٢ (بغداد: منشورات جريدة العراق، ١٩٨٥)، ص ٨٧.

(٧٨) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٤.

للعمل ليس من أجل طرد البريطانيين من البلاد فحسب، بل القيام بعمل ثوري من أجل تغيير هيكل البلاد السياسي، وخصوصاً أن أزمة النظام الملكي القائم بلغت الحد الذي لا مجال بعده لأي اصلاح، او تغيير جزئي ان يمتص سخط الجماهير الوطنية التي ارتقت إلى مستوى الإرادة التاريخية المعبرة.

ويمكن قراءة النقطة الأخيرة ذات المدلول الفكري من خلال متابعة الأحداث السياسية التي مهدت الطريق للثورة. فإن الوفديين استمروا على موقفهم، وطالبوا بالانسحاب الكامل للقوات البريطانية، والاعتراف بمطالب مصر والسودان، كما بادروا في الوقت ذاته إلى إطلاق سراح المعتقلين الذين أدوا دوراً كبيراً في المقاومة المسلحة في منطقة القناة، بما في ذلك المنتمون إلى جماعة الاخوان المسلمين(٨٠). لكن ذلك لم يعنِ أن الوفد ارتقى إلى مستوى الاضطلاع بإنجاز مهمات المرحلة. وكان البريطانيون يقدرون ذلك حق قدره، لذا فإنهم حاولوا مساومة حكومة الوفد للالتفاف بذلك على الحركة الوطنية، فطرحوا، بمساندة حلفائهم، مقترحاً يقضي بإنشاء منظمة دفاعية في الشرق الأوسط متعددة الأطراف يكون قبول مصر لها، ودخولها فيها شرطاً لجلاء بريطانيا عنها(٨١). رفض النحاس الاقتراح، وأصر على الجلاء الذي لم يكن بالأمر الهين بالنسبة لبريطانيا، خصوصاً بعد أن عاد ونستون تشرشل رئيساً للوزراء(٨٢).

اتخذت الأحداث بعد ذلك منحى خطيراً لها، ولم تعد الحكومة تسيطر على مشاعر الشعب الذي بلغ به الغضب والسخط حداً لم تفلح معه كل مناورات التخدير والتطمين، وتأجيل المجابهة المحققة. ولم يكن إدراك ذلك أمراً صعباً، فقد بات الجميع يقرأونه في وجوه المصريين، ذلك أن إعصار الغضب لم يتجه ضد المحتلين البريطانيين فحسب، بل توجه أيضاً ضد جميع الزعماء المهادنين والتوفيقيين، فقد حملهم الناس مسؤولية ما حدث ويحدث لمصر، ودانهم لتغليب مصالحهم الشخصية والحزبية على مصلحة الشعب ككل(٨٣).

---

(٨٠) الرافعي، **مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢**، **الكفاح في القنال، حريق القاهرة...**، ص ١٩٠، وصفوت، **مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة: التطور السياسي، ١٨٨٢ ـ ١٩٥٨**، ص ١٦٤.

(٨١) أنطوني ايدن، **مذكرات ايدن**، ترجمة خيري حماد (بيروت: [د. ن.]، ١٩٦٠)، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٨٢) على اثر فشل «حزب العمال» في انتخابات عام ١٩٥١ انتقل الحكم من جديد إلى المحافظين الذين احتفظوا به لغاية العام ١٩٦٤، وكان تشرشل أول رئيس وزراء لهم، وقد بقي في الحكم لغاية ١٩٥٥.

(٨٣) محمد أنيس، **حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢)، ص ١١٣ ـ ١١٩؛ أحمد مرتضى المراغي، **غرائب في عهد فاروق وبداية الثورة المصرية** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٦)، ص ١٢٣ ـ ١٢٤؛ فوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ص ٢٩٧، ومحمد زكي عبد القادر، **محنة الدستور، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**، ط ٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٧٣)، ص ٢٠٤.

وعندما ذاع نبأ واقعة المجابهة المصرية الشعبية مع القوات البريطانية المحتلة في الاسماعيلية، التهبت مشاعر الشعب، وتفجر غضب الجماهير العارم في القاهرة. وكان «الإخوان المسلمون» وجميع التنظيمات الشعبية الجماهيرية قد استطاعت إقناع الجماهير الجائعة، المحرومة، أصلاً، بأن ضرر المهادنة مع المستعمر المحتل أبلغ، وان زمن الاجراءات الدبلوماسية قد انتهى، وان الخلاص يأتي بالمجابهة والعنف الثوري. فانطلقت المظاهرات، التي تسللت إليها عناصر مندسة، مخربة بتوجيه من أجهزة القصر المرتبط بالأجهزة الاستخبارية البريطانية، واشتعلت، بالتالي، الحرائق في كل مكان[٨٤]، مما سمي «حريق القاهرة» (السبت الأسود ٢٦ كانون الثاني/ يناير). لقد انتشرت ألسنة لهيب أربعمائة حريق في سماء القاهرة، مرة واحدة، وقد تركزت في أماكن تجمع البريطانيين في القاهرة (نادي السباق، وفندق شبرد وغيرهما)، وانتهت في مساء ذلك اليوم بعدد من الضحايا المدنيين: سبعة وستون شخصاً (منهم ١٧ من الأجانب و٥٠ من المصريين). وأجهزت الحرائق على معظم الحانات والمطاعم ودور السينما والمنتديات التي كان البريطانيون والأثرياء من المصريين والأجانب يرتادونها[٨٥].

لقد أثار حريق القاهرة الكبير الكثير من تساؤلات المؤرخين والمراقبين العرب والأجانب، فهذا الحريق المتعمد الشامل (الذي يشبه من حيث السعة، ويختلف من حيث الأسباب والدوافع عن حريق موسكو الشامل أيام الغزو النابوليوني لروسيا) لم يحظَ بالاتفاق في تحليل دوافعه وأغراضه. فثمة من يرى أن الملك فاروق بعد ان ضاقت به السبل، إزاء الوضع الثوري المتفجر، وبعد أن ضاق ذرعاً بحزب «الوفد» واصطدم به غير مرة، صار يشجع كل ما يعتقد أنه سيصرف الأنظار عن المشاكل الرئيسة، ويجهض الانتفاضة الشعبية الثورية الماثلة أمام الجميع، وهكذا شجع، عمداً، إحراق القاهرة الذي أراد منه إنهاء الصراع، ونزع الثقة من حكومة الوفد، وإبعادها عن الحكم، والتقرب إلى الجناح الغربي والانكليز[٨٦]. وثمة رأي آخر، مناقض لذلك، يقول بأن فؤاد سراج الدين وزير الداخلية والمالية الوفدي المتنفذ، هو الذي حرض على المظاهرات والحريق بهدف نزع الثقة من الملك. ويأتي رأي ثالث بما يماثل

---

(٨٤) للتفصيل، انظر: أنيس، المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١٢٣.

(٨٥) جمال الشرقاوي، حريق القاهرة: قرار اتهام جديد (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦)، ص ٢٧ ـ ٢٩، وحمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٦٩ ـ ١٧٢.

(٨٦) نجيب، مصير مصر، ص ٩٨ ـ ١٠٢؛ الرافعي، مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢، الكفاح في القنال، حريق القاهرة. . .، ص ١٩؛ فوشيه، جمال عبد الناصر في طريق الثورة، ج ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٢٠؛ ناتنج، ناصر، ص ٥٦، ودومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٥٥.

الرأي الأول، وهو الذي يقول بأن المخابرات البريطانية بالذات، وبتواطؤ مع الملك، هي التي أحرقت القاهرة. وربما كان ذلك صحيحاً، فقد تواترت الشهادات على أن بعض المجندين لأعمال التخريب قد شوهدوا منطلقين في شوارع القاهرة يحرضون الناس على إشعال النار والقتل! وثمة شهادة لها دلالتها بهذا الخصوص، فإن الدكتور سامي أبا النور يؤكد أن المخابرات البريطانية أقامت معسكراً خاصاً في منطقة القناة في (كسفريت) جمعت فيه عدداً من المغامرين المحترفين لتدريبهم على أعمال النسف والتخريب[٨٧]. إضافةً إلى ذلك، كانت هناك جمعية «إخوان الحرية» التي ترأستها فريا ستارك، مسؤولة المخابرات البريطانية، وكانت هذه الجمعية وراء حريق احدى منشآت السويس في يوم الرابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢. وعلى الرغم من أن مجلس الوزراء أمر بحلها في الحادي عشر من كانون الثاني/ يناير إلا أنها واصلت عملها، وكانت وراء حريق القاهرة[٨٨].

ومهما يكن من أمر فإن حريق القاهرة جاء بمثابة القشة الأخيرة التي قصمت ظهر النظام الملكي في مصر، فإن الشعب حمل الملك فاروق كامل مسؤولية الحريق، خصوصاً انه حاول استثمار الوقائع لصالحه وصالح الانكليز، فما ان أعلن النحاس الأحكام العرفية وتولى منصب الحاكم العسكري حتى استبعده الملك فاروق، وعين مكانه علي ماهر، وبذلك حقق بعض أهدافه، كإبعاد حكومة الوفد، والحفاظ على سلامة علاقاته مع الانكليز.

تابع الضباط الأحرار تطورات الأحداث بشكل دقيق، وقد أسعفهم وعيهم السياسي، وخبرات تجاربهم المريرة في حرب فلسطين، في إدراك المرامي القريبة والبعيدة للملك فاروق ودسائسه ومؤامراته لتفرقة صفوف الشعب والتخلص من أعدائه، والحفاظ على عرشه. فقد قدروا أنه كان يبتغي، بكل ما حدث، أن يتحول تدخل الجيش في يوم «السبت الأسود، حريق القاهرة ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢» إلى صدام مسلح بينه وبين الشعب، وبذلك يتخلص من «شر» الاثنين: الشعب والجيش! وقد انتبه الضباط الأحرار لذلك، في وقته، فوجهوا، في الحال، نداءً إلى القوات المسلحة ليحبطوا الخطة التي رسمها الملك، وهذا ما أشار إليه نص النداء:

«إن الخيانة تأمل في النصر باستخدامها الجيش . . . إن واجب الجيش ليس إلا تحرير البلاد وصيانة الاستقلال . . . فإذا خرج الجيش في الشوارع فلمواجهة الخونة، ولن تطلق رصاصة، حتى ولا رصاصة واحدة على المتظاهرين، كما أنه لن يقبض على

---

(٨٧) أبو النور، دور القصر في الحياة السياسية في مصر، ج ٢: ١٩٣٧ ـ ١٩٥٢، ص ٤٠٢ ـ ٤١٩.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٤٠٦ ـ ٤٢١، وفوشيه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٢٠.

فرد حتى ولا فرد واحد من هؤلاء المتظاهرين بواسطة الجيش، فليفهم الجميع ذلك جيداً! إن الجيش هو منذ اليوم مع الشعب، وسيظل معه إلى الأبد!»[٨٩].

لبّت القوات المسلحة هذا النداء واستجابت له، فكان هذا عاملاً جديداً من العوامل الملحة بضرورة تعجيل الحدث الحاسم. بيد أن حقيقة عدم استعداد الضباط الأحرار لتفجير الثورة قبل عامين أو ثلاثة أعوام على الأقل، مارست ضغطها الكبير على الضباط الأحرار بتأجيل ثورتهم، ومع ذلك فإن جمال عبد الناصر أرسل مبعوثاً إلى سكرتير «الوفد» فؤاد سراج الدين بعد إبعاد حكومة الوفد، يبلغه أنه إذا ما تعاون النحاس معهم فإنه مع رفاقه في الجيش على أتم الاستعداد للقيام بانقلاب عسكري يعيد النحاس والوفد إلى الحكم[٩٠]. نقل سراج الدين رسالة عبد الناصر إلى زعيمه على الفور، إلا أن النحاس كان يخشى أن يخوض غمار هذا المعترك الخطير، وأبلغ سراج الدين أنه لا يرغب في ذلك حتى لو كان الانقلاب لمصلحته. وربما كان السبب الذي حدا النحاس على اتخاذ هذا الموقف تخوفه من آثار ما سيحدث والخشية من التورط في حرب مدمرة، وكذلك عدم ثقته في الضباط الأحرار وقلة تجربتهم[٩١].

وهنا ينبغي أن نسأل ـ ما هي العبرة من كل هذا؟ وما هو الدرس الذي استنتجه الضباط الأحرار؟

كانت العبرة هي إعادة قراءة الوضع السياسي الراهن، آنذاك، وخصوصاً الخارطة الحزبية وخطابها السياسي. وقد انتهى الضباط الأحرار، هنا إلى التخلي عن هذه الفكرة، بعدما أظهر حزب «الوفد» عدم تعاونه. وكان الدرس هو اقتناع عبد الناصر والضباط الأحرار بأن نظام الحكم أكثر ضعفاً وهشاشة مما كانوا يحسبون، وأن البلاد أشد تهيؤاً للثورة من ذي قبل.

من جانب آخر أظهرت وقائع النضال المسلح في منطقة القناة، فضلاً عن إفرازات حريق القاهرة أن الأحزاب الاقطاعية البرجوازية في مصر عاجزة عن قيادة النضال الشعبي في سبيل التحرر والاستقلال الناجز. وفي الواقع أن وجود عدد كبير من الأحزاب السياسية من هذا النمط، والصراع الدائم فيما بينها كانا، في ظروف الحكم الملكي المهترىء، مصدر إضعاف لجبهة النضال التحرري للشعب وقواه الفاعلة

---

(٨٩) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، ودومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ٧٠.

(٩٠) حمروش، المصدر نفسه، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٩١) المصدر نفسه، ص ١٧٩ ـ ١٨٠، وعطوي، جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث، ص ٤١.

على الساحة، كما أتاحا للرجعية المصرية إمكانيات واسعة للمناورة، الأمر الذي استنتجه جمال عبد الناصر بقراءة فكرية واضحة[٩٢].

لم تفد الرجعية مناوراتها بسبب حالة التفكك والعزلة الخانقة التي كانت تعيشها. يكفي لتوضيح هذا الواقع أن نشير إلى أن البلاد شهدت في غضون الأشهر القليلة الممتدة بين أواخر كانون الثاني/يناير وأواسط تموز/يوليو ١٩٥٢ تأليف أربع وزارات غير حزبية متعاقبة هي وزارات علي ماهر باشا (٢٧ كانون الثاني/يناير ـ ١ آذار/مارس)، ووزارة نجيب الهلالي باشا (٢ آذار/مارس ـ ٢٨ حزيران/يونيو)، ووزارة حسين سري باشا (٢ تموز/يوليو ـ ٢٠ تموز/يوليو)، ووزارة نجيب الهلالي باشا مرة أخرى (٢٢ تموز/يوليو ـ ٢٣ تموز/يوليو) دون أن تستطيع أي من هذه الوزارات أن تخفف من آثار الأزمة العامة القائمة، مع العلم أن نجيب الهلالي كان يتمتع بثقل سياسي كبير، فهو من رجال الوفد السابقين المعروفين بجرأتهم، ومقتهم الفساد، فاتخذ بعض الإجراءات ضد الفساد، ولم يبتعد برنامجه عموماً عن برنامج «حزب الوفد» ووزارة نحاس باشا[٩٣]. ومما يذكر أن الهلالي أخذ التيار الوطني في صفوف الجيش بنظر الاعتبار، لذا فإنه أراد أن يدخل اللواء محمد نجيب معه في الحكم بأن يعهد إليه وزارة الحربية، فيما كان الملك فاروق يميل إلى تعيين حسين سري في ذلك المنصب[٩٤]. وحين كلف الملك حسين سري بتأليف الوزارة التي خلفت وزارة الهلالي فإنه، بدوره، لم يستطع إلا اقتراح تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية في وزارته ليهدىء بذلك من سخط الجيش المتعاظم، غير أن سري لم يمكث في رئاسة الوزراء سوى أكثر من أسبوعين بسبب شجار دار بينه وبين الملك، فاستبعد بمذكرة كتبها كبير خدم الملك.

على الرغم من جميع هذه التغييرات التي اعتمدها الملك فاروق، إلا أن الوقت كان قد فات لإنقاذ الملكية، ولم تسعف النظام أيضاً الإجراءات التعسفية التي كانت تمارسها بصورة منتظمة. كان أمراً طبيعياً أن تمتد آثار إجراءات السلطة الحاكمة لاحتواء الأحداث الأخيرة لتشمل قادة الضباط الأحرار وحركتهم. فعلى الرغم من أساليب التكتم الشديد التي انتهجها جمال عبد الناصر في حركة التنظيم ونشاطه إلا أن الشبهات حامت حوله باعتباره واحداً من العناصر المحركة الأساسية[٩٥]. وفي مقابل ذلك لجأت السلطة الى إجراءاتها المعهودة في تشتيت أنصاره وغيرهم من المعارضين وغير محسومي الولاء بنقلهم إلى أماكن متباعدة، وعدم إتاحة أيما فرصة للمشتبه بهم

(٩٢) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، مجموعة من المؤلفين (موسكو: أكاديمية العلوم السوفياتية، معهد الاستشراق، ١٩٧٦)، ج ٢، ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٩٣) المراغي، غرائب في عهد فاروق وبداية الثورة المصرية، ص ١٣٩.

(٩٤) نجيب مصير مصر، ص ١٠٢.

(٩٥) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٧٧ ـ ١٧٩.

بالتقدم، أو احتلال مواقع قيادية في الجيش بخاصة، والدولة بعامة(٩٦).

لم يحل ذلك دون نشاط الضباط الأحرار المتواصل، لذا بدأ القصر يفكر في اعتقال قادتهم. ولدى تسرب المعلومات حول ذلك اجتمعت اللجنة التنفيذية لتنظيم الضباط الأحرار، واستعرضت الظروف والامكانيات الراهنة، فوجدت أن الظروف باتت مهيأة، الآن، لتفجير الثورة، الأمر الذي جعل جمال عبد الناصر ورفاقه في وضع أكثر مؤاتاة لتقديم موعد الثورة إلى شهر آب/أغسطس من العام ١٩٥٢، وأعد التنظيم بالمناسبة بياناً مثل الرؤية الفكرية والسياسية للتغيير الثوري المزمع(٩٧).

هنا كان لا بد من قراءة فكرية متمعنة لتناسب القوى على الصعيد الدولي اضطلع بها جمال عبد الناصر بجدارة تستحق التقدير. فإنه بدأ يقوم بدقة مضاعفات وعواقب ما هو عازم على القيام به، متحوطاً، متحسباً لكل المتغيرات والمستجدات المتوقعة. فالثورة ستبعد الملك عن العرش، بالضرورة، وإبعاده سيولد العديد من المشاكل والمتاعب، ولا سيما أن الملك خطط بدقة كيفية الحفاظ على العرش، وكانت آليته في ذلك تنتهج نهج الموازنة بين سيادة مصر والسودان وعلاقتها ببريطانيا، وبين وجود القوات البريطانية في منطقة القناة. ولذلك كان إصرار الملك على ربط سيادة مصر على السودان بجلاء بريطانيا أمراً مقصوداً منه الحيلولة، واقعياً، دون نجاح أيما مفاوضات تجري في لندن. وكان ذلك يعني، عملياً، الاحتفاظ بالقوات البريطانية في مصر، أملاً في أن تهب هذه القوات لمساعدته عند وقوع أي ثورة. وإذا كان الاعتقاد الرسمي عند الوزراء ينص على أن مصلحة مصر الحيوية تتوقف على سيطرتها على وادي النيل، فإن الملك، بالمقابل، كان يوظف هذه المطالبة بالسودان لصالحه، ضامناً لنفسه البقاء على العرش مدعوماً بقوات الاحتلال البريطانية(٩٨). ولذلك، وفي ضوء احتمالات تدخل القوات البريطانية وتحريكها من منطقة القناة إلى القاهرة لإحباط العملية الثورية في محض بدايتها، اتخذ الضباط الأحرار قرارهم بابلاغ السفارة البريطانية في يوم تنفيذ الثورة، بناءً على حسابات ذكية وضعها جمال عبد الناصر في ذهنه. فتم تكليف زكريا محيي الدين بإبلاغ بريطانيا بالأمر عبر رسالة شفوية، وتكليف علي صبري بإبلاغ الولايات المتحدة الأمريكية(٩٩). وكان لذلك منطقه في جدلية

---

(٩٦) نجيب، المصدر نفسه، ص ٣١؛ السادات، ثورة على النيل، ص ١٢٤، وأبو النور، دور القصر في الحياة السياسية في مصر، ج ٢: ١٩٣٧ - ١٩٥٢، ص ٤٥٩ - ٤٦٣.

(٩٧) البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، ج ١، ص ٢١ - ٢٣، والسادات، أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، ص ٢٢٤ - ٢٤٣.

(٩٨) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٧٧ - ٢٠٨.

(٩٩) نجيب، مصير مصر، ص ١٠٦؛ البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦. وحول مقدمات الموضوع، انظر: ظاهر محمد صكر، «السياسة الأمريكية تجاه مصر، ١٩٤٥ - ١٩٥٢،» (أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٥)، ص ٢٢٦ - ٢٨٤.

الثورة بالآلية والكيفية والمنهجية التي اعتمدها قائد الضباط الأحرار، جمال عبد الناصر، حيث تمثل ذلك في اتجاهين متوازيين غير متقاطعين، يخدمان غرضاً واحداً هو حماية الثورة. فكان الاتجاه الأول هو ضمان تأييد السفارة الأمريكية، أما الاتجاه الثاني فهو تحذير الجانب البريطاني من مغبة التدخل. وبالفعل، أبلغ علي صبري السفارة الأمريكية، عن طريق الملحق الجوي الامريكي د.ل. ايفانز الذي كانت تربطه بعلي صبري علاقة زمالة سابقة في أمريكا، لينقل هذا إلى السفير الأمريكي جيفرسون كافري (بالهاتف، حيث كان في الاسكندرية) الرسالة التي تتضمن توضيحاً للحركة وبواعثها وأهدافها لضمان التأييد من جانبه لهذه الحركة التي كان مفروضاً أن الجانب الأمريكي يتوقعها من خلال استقراءاته المدققة لأوضاع مصر الداخلية آنذاك[١٠٠].

أما إشعار السفارة البريطانية برسالة الثورة، فقد كان في فحواه يؤكد أن الجيش سيبدي مقاومة منظمة لأي تدخل بريطاني، وأن حركة الجيش لن تتعرض للسياسة الخارجية حيث إنها انطلقت، أساساً، للقضاء على الفساد الداخلي في البلاد. وقد أسفرت مخاطبة السفارتين الأمريكية والبريطانية، بهذا الشكل، وعلى النحو الذي تمت به، عن نتيجة ايجابية، فقد أدى تدخل السفير الأمريكي لدى السفارة البريطانية إلى إقناعها بأن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة داخلية، كما أن القائم بالأعمال البريطاني أشار على حكومته بضرورة التروي وعدم التعجل في تأييد الملك[١٠١]. ويشير محمد نجيب إلى أن غياب السفير البريطاني السير رالف ستيفنسن في إجازة ببلاده قد ساعد في أن يكون الموقف البريطاني أقل ميلاً للتدخل[١٠٢].

بَيْدَ أن ثمّة حملة تشكيك كبيرة بالثورة، وتشويه الصورة الرمزية للقيادة التاريخية التي مثلها جمال عبد الناصر، تتجلى في العلاقة الخاصة التي تربط الضباط الأحرار ببريطانيا وبالولايات المتحدة بصفة خاصة[١٠٣]. ولعلّ الرد الأفضل على هذه الحملة يكمن في ما كتبه شاهدان معاصران موضوعيان كبيران، وثيقا الصلة بجمال عبد الناصر هما خالد محيي الدين، عضو اللجنة التنفيذية لتنظيم «الضباط الأحرار»،

---

(١٠٠) عبد الله إمام، علي صبري يتذكر: بصراحة عن السادات (القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٨٧)، ص ٨ ـ ٩، وخالد محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ٢٣/١٢/١٩٩٢.

(١٠١) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٤٩.

(١٠٢) نجيب، مصير مصر، ص ١١٣.

(١٠٣) مطر، المصدر نفسه، ص ٤٨؛ محيي الدين، «والآن أتكلم،»؛ مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، ترجمة مروان خيري (بيروت: الانترناشونال سنتر، ١٩٧٠)، ص ٨٤ ـ ٨٦، ومحمد جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية (علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية) (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨)، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ و١٣١.

حسنين هيكل القريب جداً من عبد الناصر، صديقاً ومستشاراً شخصياً له ومرافقاً للأحداث منذ لحظة الثورة الأولى، بل منذ حرب فلسطين. ولا بد من أن نعرج بعدئذ على ما يقوله ممثلو الفكر السياسي العالمي بصدد هذا الموضوع الحساس للغاية، لأنه يصور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكأنها لعبة أمريكية، وبذلك يشوه الفكر الناصري القومي التحرري، ويطعنه في الصميم.

يقول خالد محيي الدين، في شهادته الفصيحة، في مذكراته: «عندما تحركنا تحركاً فعلياً من أجل الإعداد للانقلاب كانت تساورني أنا، وعديد من الضباط الفرسان، مخاوف حقيقية من إمكانية تدخل القوات الانجليزية ضدنا. وكنا نناقش هذا الأمر بجدية، وكان ثروت عكاشة هو أكثر من توقف عند هذا الموضوع طالباً التأني في فعل أي شيء خوفاً من أن نتحرك، فتؤدي حركتنا إلى عودة الانجليز لاحتلال كامل البلاد من جديد، لكن عبد الناصر كان يتلقى هذه المخاوف بهدوء غريب . . . وعندما اجتمعنا لإنجاز خطط التحرك الفعلي كنا في منزل حسن ابراهيم، وتحدثت طويلاً عن مخاوف ثروت عكاشة من تدخل الانجليز، وكان عبد الناصر هادئاً، وعلق على كلامي بكلمة واحدة هي: طيب! ثم قال: اذا كان ثروت قلقاً بلاش يشتغل. ثم التفت إلى بغدادي، وسأله: إيه أخبار علي صبري؟ كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم. وسألت: من هو علي صبري؟ وأجاب بغدادي: انه مدير مخابرات الطيران وهو معنا أخذ بعثة في أمريكا، وهو على علاقة حسنة بالأمريكان، وإنه من خلال علاقته بالملحق الجوي في السفارة الأمريكية سمع منه تلميحات، بأنه في حالة تحرك الجيش فإنهم سيطلبون من الانجليز عدم التدخل إذا كانت الحركة غير شيوعية، ولا تهدد مصالحهم . . . وانتهز بغدادي الفرصة ليعود إلى المطالبة بعدم مهاجمة الأمريكان، ذلك أنه لا داعي لإثارة عداء الأمريكان، وعندما حاولت الرد عليه، قال عبد الناصر: معلهش، بلاش حكاية الامريكان دي حتى تنجح حركتنا، وبعدها نقول ما نريد ونفعل ما نريد . . .»[١٠٤].

وواضح من هذا الذي يثبته خالد محيي الدين كحقيقة موضوعية لا تقبل المماحكة ان مسألة الاتصال بالامريكان كانت مسألة مناورة براغماتية مقصود منها تأمين كل شيء لإنجاح الحركة أولاً، «وبعدها نقول ما نريد ونفعل ما نريد» على حد تعبير قائد الحركة عبد الناصر.

ويعود خالد محيي الدين لحسم «الموضوع الأمريكي» (أي موضوع الاتصال بالأمريكان) حسماً نهائياً، فيقول بالحرف وبعد استقالة علي ماهر[١٠٥]: «بدأنا رحلة

---

(١٠٤) خالد محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ١٦/١٢/١٩٩٢.

(١٠٥) كان علي ماهر أول رئيس وزراء في العهد الجديد، بقي في منصبه لغاية ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٥٢ ليحل محله بعد ذلك محمد نجيب.

البحث عن رئيس وزراء جديد . . . وكان أول المرشحين هو الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا رئيس مجلس الدولة . . لكن قصة السنهوري تجرنا إلى موضوع خطير هو علاقتنا بأمريكا والسفير الأمريكي مستر كافري. والحقيقة أن جمال عبد الناصر كان قد رتب ـ كما قلت ـ وقبل الثورة علاقةً مع الأمريكيين، عن طريق علي صبري ومنحهم قدراً من التطمينات من أن الثورة القادمة لن تقف ضدهم. والحقيقة أيضاً أن كافري كان يتصرف ـ بالحق أو بالباطل ـ على أساس أنه يمتلك نفوذاً في صفوف الثورة . . . ولقد أدهشني أن طالعت فيما بعد، في بعض وثائق وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية، أن كافري كان يزهو أمام السفراء الغربيين موحياً لهم بأنه على علاقة خاصة جداً مع الثورة، بل لقد كان يتحدث عنا قائلاً "My boys" (أي أولادي). والحقيقة أنه كان مبالغاً في ذلك أشد المبالغة، فلم نكن «أولاده» ولم يكن يمارس علينا نفوذاً حقيقياً، لكنه استفاد من غموض الموقف، ومن بعض العلاقات، ليتظاهر بأنه يمتلك نفوذاً ما! . . .»[١٠٦]. ويكمل خالد محيي الدين الحديث، وهذه المرة عن اجتماع مجلس القيادة: «كنا في جلسة «مجلس القيادة» . . . وكان الدخول ممنوعاً بطبيعة الحال، وأبلغنا الحارس الواقف على الباب أن علي صبري يريد جمال عبد الناصر لأمر مهم وعاجل. وكان عبد الناصر منهمكاً في الحديث، فخرجت أنا لأستطلع الأمر، وكان علي صبري يلح في مقابلة عبد الناصر فوراً. وقلت إن هذا مستحيل. فألح وقال ان الأمر هام جداً وعاجل للغاية، فرفضت وقلت إنه من غير الممكن إخراج عبد الناصر من الجلسة. فقال: إذن أبلغه وعلى وجه السرعة أن السفير الأمريكي غير راض عن اختيار السنهوري رئيساً للوزراء، فالأمريكيون يعتبرونه شيوعياً لأنه وقع على «نداء السلام». فقلت: لكنني أنا أيضاً وقعت على هذا النداء! فرد علي صبري: لكن أنت لم تكن معروفاً في ذلك الحين. وكافري يقول إن الرأي العام الأمريكي يتعاطف الآن معكم، وهم يعتبرون أن كل من وقع على نداء السلام شيوعياً، فلا تخسروا الرأي العام الأمريكي بهذه السهولة! . . . دخلت إلى الاجتماع، وأبلغت الرسالة وأنا منفعل جداً، وقلت: انني أرفض بشدة قبول هذا، لأن معناه الحقيقي أن السفارة الأمريكية تتحكم فينا وفي قرارنا، وهذا أمر خطير جداً. ورد جمال عبد الناصر بهدوء: وانا أيضاً غير موافق . . . لكن الذي حدث بعد ذلك انهم ناقشوا السنهوري وأبلغوه برأي السفير الأمريكي، ولعلهم نقلوا له الأمر بحيث يدفعونه إلى الاعتذار. وقد اعتذر فعلاً مبدياً دهشته قائلاً: ان الأمر كان بسيطاً للغاية، وأنه فوجىء بهذه الضجة، فقد كان جالساً في أحد المقاهي عندما مر عليه شاب يحمل عريضة يجمع عليها توقيعات للمطالبة بعدم استخدام السلاح النووي في أية حرب مقبلة. ووقع السنهوري ولم يكن يعرف أن هذا التصرف البسيط سوف يعتبر

(١٠٦) محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي، ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٢.

عند الأمريكيين عملاً خطيراً بحيث يضعون صاحبه في مصاف الشيوعيين، ولم يكن يعرف أن هذا التوقيع سوف يحرمه بعد أكثر من عام من منصب رئيس الوزراء. وعلى أية حال اعتذر عبد الرزاق السنهوري، حتى لا يسبب لنا حرجاً، بل لعل البعض قد أحرجه لكي يتخذ موقف الاعتذار . . . وقبل ان انتقل من هذا الموضوع، أود أن أقرر أنني لم أعتقد يوماً ان عبد الناصر كان خاضعاً للأمريكيين، لكنه كان رجلاً يعرف كيف يتفاهم مع القوى المختلفة، بل ومع الأضداد، محاولاً أن يستخلص مصلحته هو من مثل هذا التفاهم . . .»، «وكان عبد الناصر حريصاً على تحييد امريكا، وتحييد طرف ما شيء والخضوع له شيء آخر، وعندما عرض عليه الأمريكيون فكرة الأحلاف العسكرية كسبيل لتحقيق الاستقرار في مصر والمنطقة، ولضمان مقاومة الشيوعية، استخدم عبد الناصر معهم ذات الفكرة التي طرحها من قبل . . بأن تحقيق الاستقرار ومقاومة الشيوعية، يكون بالاصلاحات الاجتماعية وليس بالأحلاف العسكرية، وكان يؤكد لهم في مناقشاته ضد فكرة الأحلاف أن الشعب لا يشعر بأن الاتحاد السوفياتي عدو، إنما أعداؤه: الانجليز واسرائيل . . . لكن عبد الناصر لم يكن يرغب في القطيعة مع أمريكا. . .». ويختتم خالد محيي الدين حديثه بالقول: «. . . وباختصار، كانت سياسة عبد الناصر الضابط قبل الثورة، والحاكم بعدها هي هي: ان يقيم علاقات مع كل الأطراف وحتى مع الخصوم. وكان يرى أن إقامة العلاقات لا تعني الخضوع ولا تعني العمالة. . .»[١٠٧]، وهذا، دون شك، تبصر فكري واقعي لتناسب القوى على الصعيد الدولي كانت مصالح الوطن العليا تقتضي أخذه في الاعتبار بصورة جادة، وهو يذكر، بصورة أو بأخرى، بمواقف تيتو في يوغسلافيا، بعد الحرب العالمية الثانية.

وعلى نحو مماثل يدلي هيكل بشهادته في الموضوع نفسه، فيقول: «. . . كان عبد الناصر يرى الأمر ببساطة كالآتي: ان مصر تحت ظل الاستعمار الانكليزي، وكانت قبل ذلك تحت السيطرة العثمانية، والفرنسيون حاولوا غزو مصر. كان يرى الاستعمار متمثلاً في الدول الأوروبية التقليدية، يراه في انكلترا، في البرتغال، في فرنسا، في هولندا. أما أمريكا فكانت في تلك الفترة شيئاً آخر، كانت في سبيل تحقيق نوع من الاستعمار المتطور هو الاستعمار المالي . . . وبدأت الولايات المتحدة تتغير. وأذكر أنه عندما جاء جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا إلى القاهرة عام ١٩٥٥، تحدث مع عبد الناصر في مسألة الاشتراك في حلف ضد روسيا. وأجابه عبد الناصر إنه لا يفكر الآن إلا بالثمانين ألف عسكري انكليزي المرابطين في مصر. ورد عليه دالاس قائلاً ما معناه ان الخطر الروسي يهدد الجميع. وهنا قال عبد الناصر: أنا مستعد للتسليم معك بأنه خطر، ولكن كيف تطلب مني أن أحارب الخطر

---

(١٠٧) المصدر نفسه.

البعيد خمسة آلاف ميل عني وأترك الواقف على بعد مئة ميل عني؟ . . . وعندما بدأت الولايات المتحدة تمارس دورها الامبريالي تصدى لها جمال عبد الناصر وعاملها على انها الاستعمار الجديد . . .»[١٠٨].

ويأتي القول الفصل في شهادة سوفياتية على صفحات كتاب **تاريخ الأقطار العربية المعاصر** في بحث ثورة يوليو ١٩٥٢: «كان مجلس قيادة الثورة مصيباً في تقديره لميزان القوى القائم في البلاد وعلى الصعيد الدولي، كي يستطيع الاحتفاظ بالسلطة، ذلك أن مجيء ماهر إلى الحكم، وهو معروف بميوله المعادية لبريطانية والمائلة لأمريكا، كان من شأنه أن يخلق وهماً بأن الانقلاب العسكري ذو طبيعة موالية لأمريكا. ومعروف بأن علي صبري قد توجه ليلة ٢٣ يوليو إلى السفارة الأمريكية في القاهرة، مندوباً عن «الضباط الأحرار»، وطلب من السفير الأمريكي ابلاغ الانجليز بأن الانقلاب عمل داخلي مصري بحت، وبأنه سوف يكفل أمن وممتلكات الأجانب. في ذلك الوقت قام جيفرسون كافري، السفير الأمريكي في القاهرة، بنشاط عاصف. وكان الدبلوماسيون والزعماء السياسيون الأمريكيون يعتقدون أن القادة المصريين الجدد سوف يساعدون على تقوية النفوذ الأمريكي في البلاد (على حساب النفوذ البريطاني) وانهم سوف يتعاونون مع الغرب على إقامة الأحلاف العسكرية في الشرق الأوسط. ولكن هذا الوضع بالذات كان من شأنه أن يدرأ التدخل العسكري البريطاني المحتمل. وقد اعترض بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة على ترشيح علي ماهر رئيساً للوزراء. لكن الترشيح أقر في نهاية الأمر. وهكذا كان تحرك الجيش المصري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يوحي في مظهره بانقلاب عادي يجري في قمة نظام الحكم. ولكن تطور الأحداث فيما بعد أظهر أنه كان ثورة معادية للامبريالية، معادية للإقطاع، فقد جاء انقلاب ٢٣ يوليو تتويجاً لمرحلة تاريخية طويلة في تطور الحركة الوطنية التحررية في مصر في سنوات ما قبل الثورة»[١٠٩].

وأخيراً فإن القراءة الفكرية الصحيحة لجمال عبد الناصر هذه يجب أن تقوم في إطار زمانها عندما كان يسود التزمت الستاليني «من ليس معي فهو ضدي» على مجمل الفكر التقدمي العالمي. مع ذلك فإن الأمر بحد ذاته لم يخلُ من مناورات وتمويه، مما يلاحظ في سير التطورات السريعة التي سبقت الثورة مباشرة، وهي بدورها تبرر الدوافع الموضوعية لعبد الناصر.

---

(١٠٨) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٦٢.

(١٠٩) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، ج ٢، ص ٧٩ ـ ٨٠.

رابعاً: التعجيل بالثورة والمهمات الملحّة

يؤكد علي صبري في مذكراته أن الملحق الجوي في السفارة الأمريكية بالقاهرة ايفانز استفهم منه قبل اندلاع الثورة بأيام معدودة عن وجود حركة في الجيش، فرد عليه بالنفي مشيراً إلى أن الأمر لا يعدو بقايا وتضاعيف معركة انتخابات نادي الضباط. وكان هذا التمويه المقصود ضرورياً، لأن علي صبري كان يدرك عمق العلاقة التي تربط السفير الأمريكي جيفرسون كافري بالملك فاروق[١١٠]. واتصل علي صبري بعبد اللطيف البغدادي ليبلغه بأن المعلومات تسربت إلى الأمريكان، وبالتأكيد ستصل إلى الملك، وهذا ما عجل بتفجير ثورة يوليو[١١١].

وقد تدارس الضباط الأحرار أمراً هاماً يتصل بشخصية رئيس الحركة الانقلابية، باعتبار أن تقديم الرئيس ـ الواجهة إلى الملأ سيحدد هوية الثورة، وهو بالتالي لا بد من أن يكون شخصية مؤثرة، ذات شعبية واسعة، تكسب للثورة التأييد في داخل الوطن وخارجه. فقدم جمال عبد الناصر اللواء فؤاد صادق مرشحاً لهذا الدور، نظراً للمقومات القيادية التي يتمتع بها ودعمه الواسع لحركة الضباط الأحرار، إضافة إلى ماضيه الوطني وإخلاصه وكفاءته خلال الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨، فقد كان قائد القوات المصرية فيها. وبعث عبد الناصر صلاح سالم للتفاوض معه، إلا أنه اعتذر لترشيحه لرئاسة أركان حرب الجيش، وهو منصب قيادي حاسم بالغ التأثير. ولذلك تم ترشيح اللواء الركن محمد نجيب بناءً على اقتراح من عبد الحكيم عامر الذي تعرف عليه في حرب فلسطين، وأثنى على الترشيح جمال عبد الناصر[١١٢] الذي كان قد تعرف عليه بعد عودته من الفالوجة، ويبدو أنه لم يكن على يقين من أن محمد نجيب يملك كل المقومات التي ينبغي توفرها فيه ليكون المرشح الأول، لذلك جعله بديلاً لفؤاد صادق. وكان لمحمد نجيب[١١٣]، دوره المتميز في الحركة الوطنية، من خلال الآراء الحرة التي أبداها، والمواقف التي سجلها، والمقالات التي كتبها[١١٤]، إضافة إلى انتمائه (ولو متأخراً) إلى تنظيم الضباط الأحرار. وقد تقرر اختيار اللواء الركن محمد

---

(١١٠) إمام، علي صبري يتذكر: بصراحة عن السادات، ص ٦ ـ ٧.

(١١١) البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، ج ١، ص ٥٦؛ نجيب، مصير مصر، ص ٣١؛ أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ترجمة سامي عمارة (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٣)، ص ٥٣؛ ناتنج، ناصر، ص ٥٩، وحمروش، ثورة ٢٣ يوليو، ج ١: مصر والعسكريون، ص ١٨١.

(١١٢) نجيب، المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٢، وحمروش، المصدر نفسه، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(١١٣) من مواليد الخرطوم في السودان سنة ١٩٠١، تخرج في الكلية الحربية ثم في كلية أركان الحرب في العام ١٩٢٩، تسلم مناصب قيادية عديدة في الجيش، آخرها قائد القوة البرية في ١٩٥٠ ـ ١٩٥١.

(١١٤) نجيب، المصدر نفسه، ص ٢٦، وأجاريشيف، المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤.

نجيب ليمثل الثورة من خلال ترؤسه قيادة الدولة، فتمت مفاتحته بذلك في شهر حزيران/ يونيو ١٩٥٢، أي قبيل الثورة بمدة وجيزة.

هنا ينبغي أن نسجل حقيقة مهمة نظراً لأهميتها بالنسبة لموضوعنا عموماً، وهي أن محمد نجيب أدرك منذ البداية أن جمال عبد الناصر هو مهندس الثورة ومفكرها. سجل لنا محمد نجيب بهذا الصدد ما نصه:

«في أحد الأيام جاءني عامر ومعه صديق ليقابلاني، وكان ذلك الصديق شاباً برتبة صاغ، اتذكر أنني قابلته بالفالوجة بفلسطين، واسمه جمال عبد الناصر، وسرعان ما أدركت، دون أن يخبرني أحد بذلك بأن عبد الناصر هو زعيم المنظمة . . . وأنه جاء يقابلني»[١١٥]. وافق محمد نجيب على ما اقترحه عليه الضباط الأحرار دون تردد، فتم تقديمه إلى الضباط الشباب الثمانية الآخرين، أعضاء اللجنة التنفيذية لتنظيم الأحرار[١١٦]، الذين سيتولون معه المهمة الكبرى، مهمة تفجير الثورة[١١٧].

اختير اللواء الركن محمد نجيب رئيساً للجنة التنفيذية للضباط الأحرار في يوم تفجير الثورة، لضرورات تأمين نجاح الثورة في تقديم الرئيس ـ الواجهة ذي الشعبية الواسعة ـ بينما تنازل عبد الناصر عن قيادة الحركة بعد أن تم انتخابه لعامين متتالين (١٩٥١ و١٩٥٢)، فأصبح نائباً للرئيس ورئيساً للأركان[١١٨]. وفي يوم ١٥ تموز/ يوليو ١٩٥٢ بدأت الاستعدادات الشاملة للثورة التي تقرر تفجيرها في آب/ أغسطس ١٩٥٢[١١٩]. وطرحت خطتان للتنفيذ، كانت الأولى منهما تقضي بقيام الجهاز الخاص

---

(١١٥) نجيب، المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(١١٦) وهم كل من البكباشي (المقدم) أنور السادات من قرية ميت أبو الكوم من محافظة المنوفية (من مواليد ١٩١٨)، والبكباشي جمال سالم (من مواليد السودان سنة ١٩١٨)، والبكباشي عبد اللطيف البغدادي من قرية شوا بمحافظة الدقهلية (من مواليد ١٩١٧)، والصاغ (الرائد) حسن ابراهيم من الإسكندرية (من مواليد ١٩١٧)، والصاغ خالد محيي الدين من ناحية كفر شكر بميت غمر (من مواليد ١٩٢٢)، والصاغ صلاح سالم (من مواليد السودان سنة ١٩٢٠)، والصاغ عبد الحكيم عامر من قرية اسطال في محافظة المنيا (من مواليد ١٩١٩) والصاغ كمال الدين حسين (من مواليد ١٩٢١) بمدينة بنها في دلتا النيل. وقد تقرر في ١٥ آب/ أغسطس ضم خمسة من الذين أسهموا بقدر كبير في نجاح الثورة، وهم كل من: محمد نجيب، حسين الشافعي، زكريا محيي الدين، عبد المنعم أمين، ويوسف صديق. للمزيد من التوسع انظر: حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢٣٥.

(١١٧) محيي الدين، «والآن أتكلم،» **الرأي**، ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٢.

(١١٨) السادات، **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**، ص ٢٢٧، والبغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ١، ص ٥٥.

(١١٩) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠ ـ ٥٤، وحمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٨٨ ـ ١٩٣.

للتنظيم باغتيال جميع الخونة المصريين، بينما تقضي الثانية بقيام جميع الضباط الأحرار بالعمل على تغيير النظام بأجمعه[١٢٠].

وقد وافقت اللجنة التنفيذية على تنفيذ الخطتين معاً، لكن جمال عبد الناصر قائد التنظيم، قائد الثورة، وعقلها المدبر، لم يوافق إلا على الخطة الثانية، مرتئياً إلغاء الخطة الأولى. وقد حيّث قراره هذا بأن النظام سيبقى مهما قتل من أنصاره، وستكون النتيجة حملة ارهاب دموي شامل في صفوف الجيش والشعب معاً، الأمر الذي سيجعل الضرر الذي يحل بالبلاد كبيراً. لذلك اقترح الاكتفاء بتنفيذ الخطة الثانية فقط. ولأغراض أمنية تؤمن النجاح الشامل للثورة اقترح اعتقال العناصر العسكرية الكبيرة عند تفجير الثورة. ولأغراض التنسيق في التنفيذ، ضم عبد الناصر إلى اللجنة التنفيذية المكلفة بالعملية الثورية، ممثلين لكل سلاح أو صنف من أسلحة القوات المسلحة أو صنوفها: الفرسان والمشاة والمدفعية والطيران[١٢١]. وتوخياً للدقة وسرية العمل لم يكشف عبد الناصر تفاصيل الخطة إلا للضباط التسعة المشرفين على التنفيذ، ولمجموعة أخرى من الضباط الأحرار أوكلت إليهم مهمات رئيسية. وحمّل عبد الناصر الضباط المنفذين مسؤولية رسالة الثورة التحريرية الكبرى فأسمى الخطة «كوديا» أو نصر[١٢٢].

وعلى رغم جميع الاحتياطات الدقيقة، تسربت بعض المعلومات عن خطة تنفيذ الثورة إلى السلطات العليا[١٢٣]، في اليوم الذي أعيد نجيب الهلالي فيه لتولي رئاسة الوزراء ثانية[١٢٤]، وأبلغ أحمد أبو الفتح، رئيس تحرير جريدة **المصري**، وهو شخصية وطنية ذات ارتباطات بالجهات العليا، أحد أقربائه الذي كان يعمل في صفوف الضباط الأحرار، ثروت عكاشة، بأن الملك وكبار المسؤولين يدركون تخطيط الضباط الأحرار لتنفيذ الثورة، وأن الخطر يتهددهم سريعاً. لذلك جاء رد فعل جمال عبد الناصر فورياً، حينما حدد موعد الثورة في اليوم التالي مباشرة، أي في يوم

---

(١٢٠) حمروش، المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٨٩ ـ ١٩٠، والجندي، **هذا هو جمال**، ص ٦٠.

(١٢٢) محيي الدين، «والآن أتكلم» الرأي: ١٦/١٢/١٩٩٢ و٢٣/١٢/١٩٩٢، والبغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ص ٥٠ ـ ٥٤.

(١٢٣) تسربت المعلومات حول موعد قيام الثورة عن طريق العقيد الطيار صالح محمود صالح، شقيق الملازم أول حسن محمود صالح، أحد ضباط المدفعية، الذي شاركت وحدته في الحركة، وكان العقيد محالاً للاستيداع وقتها، فسارع للاتصال بضباط الحرس الملكي لإبلاغ الملك في الإسكندرية لتدارك الموقف، إلا أن آماله تبددت صباح يوم ٢٣ تموز/يوليو، وتم القبض عليه. للتفاصيل انظر: البغدادي، المصدر نفسه، ص ٥٧، وحمروش، المصدر نفسه، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٦٩.

(١٢٤) كلف نجيب هلالي باشا بتأليف وزارته الثانية في تلك المرحلة يوم ٢٢ تموز/يوليو ١٩٥٢ كما سبق وأشرنا إلى ذلك.

٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢[١٢٥]. وهذا ما تضمنه منشور «الضباط الأحرار» السري والأخير الذي أوضحوا فيه للملأ ـ أن مهمة الجيش هي تحقيق استقلال البلاد كاملاً.

وانطلق الضباط الأحرار لتنفيذ الثورة، حسبما هو متفق عليه، بعد أن وزع جمال عبد الناصر الأدوار طبقاً للخطة. فأرسلت قوة لسد الطريق الممتد من منطقة القناة خشية محاولة القوات البريطانية التدخل لصالح الملك. وأرسل الأخوان صلاح سالم وجمال سالم لتولي أمر الوحدات في سيناء. وفي القاهرة اتخذ بقية أعضاء اللجنة التسعة ومساعدوهم مواقعهم المحددة: عبد اللطيف البغدادي وحسن ابراهيم في سلاح الطيران، وخالد محيي الدين وحسين الشافعي في سلاح الفرسان، وكمال الدين حسين في سلاح المدفعية. أما جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فقد توليا سلاح المشاة. ولم يتغيب عن المجموعة قبيل التنفيذ إلا انور السادات، فهو لم يدرك التغيير الذي حصل في موعد الثورة، وعند عودته إلى القاهرة توجه إلى أحد دور السينما[١٢٦]. وعلى الرغم من دقة وحساسية الموقف، وتباين وجهات النظر في غيابه، وفي مجمل موقفه هذا، خصوصاً أنه كان يشغل مسؤولية سلاح الإشارة، إلا أن عبد الناصر، كما يبدو، لم يقلق لذلك. وشُغل الجميع، وعلى رأسهم قائد الثورة، بالتنفيذ والسيطرة على أهم المفاصل، وخصوصاً مقر قيادة الجيش. وكان هذا المقر هدف الثوار الأول، حيث بقيت أنواره ساطعة حتى منتصف ليلة الأربعاء ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢، لتعطي الإشارة بالتنفيذ. فانطلقت الثورة من ثكنات الجيش بالعباسية، وتوجهت كما هو مخطط لها، لاعتقال كبار الضباط في مراكزهم وفي منازلهم، وتم نقلهم إلى مبنى الكلية الحربية وحجزهم في غرف منفصلة، مما أتاح للثوار حرية التحرك، بعد أن أصبح الجيش تحت تصرفهم. فالقوات المسلحة انتشرت واحتلت المراكز الاستراتيجية في القاهرة: مراكز الهاتف والتلغراف، ومحطة القاهرة، والكباري، ومدخل المدينة، والمطارات، ومركز شرطة ماركوني. ولحسن الحظ لم يحدث أي طارىء خارج إطار الخطة المرسومة، وكان الضباط الأحرار قد أدوا مهماتهم بحماس رفيع، ومعنويات عالية، ففي الساعة الرابعة صباحاً، أصبحت القاهرة في قبضة الثوار بقيادة جمال عبد الناصر[١٢٧]. ومنعاً للتدخل البريطاني أبلغت السفارة البريطانية، كما أسلفنا الاشارة، بأن التغيير قضية داخلية، وأن رجال الثورة ملتزمون

---

(١٢٥) نجيب، **مصير مصر**، ص ٣٢؛ البغدادي، المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤، ومحمد مصطفى عطا، **مصر بين ثورتين** (القاهرة: دار المعارف، [د. ت.])، ص ١٠٥.

(١٢٦) عبد الله إمام، **حقيقة السادات**، ط ٢ (القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٨٦)، ص ٦٧، وغالي شكري، **الثورة المضادة في مصر** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٣١ ـ ٣٢.

(١٢٧) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣ ـ ٥٤، وحمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ١: **مصر والعسكريون**، ص ١٩٣ ـ ١٩٦.

بحماية أرواح الرعايا البريطانيين وسواهم وممتلكاتهم، وبأنه لا مبرر للتدخل وإلا فإن الشعب والجيش معاً سيدافعان عن كل شبر من أرض مصر. وتولى علي صبري (كما أشرنا آنفاً) إبلاغ سفارة الولايات المتحدة بالموقف وبضرورة تأمين عدم التدخل من أي جهة، وخصوصاً من جانب بريطانيا(١٢٨).

وفي تمام الساعة السابعة صباحاً، أصدرت قيادة الثورة بيانها الأول الذي أذيع بصوت أنور السادات، وكان أهم ما ورد فيه ما يلي: «اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش. وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين. وأما في فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم. ولا بد أن مصر كلها ستتلقى الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب. وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجرداً من أي غاية. وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر، وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس. وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، والله ولي التوفيق...»(١٢٩).

وبعد ذلك، أذيع البيان التالي من القائد العام للقوات المسلحة: «باسم القوات المسلحة أبعث بتحيتي إلى جميع الذي توّجوا بهدوئهم وثباتهم العمل الذي قمنا به لمصلحة الوطن دون إراقة دماء. لقد طفت شوارع القاهرة في صباح اليوم، ويسرني كل السرور أن وجدت الأمن يسود كافة أرجائها، والهدوء يملأ كل سكانها، والتعاون لإنجاح مهمة القوات المسلحة يربط الجميع من رجال الأمن والمدنيين وإخواننا الأجانب والعسكريين برباط قوي متين. ورجائي إلى مواطني الا يستمعوا إلى الإشاعات المغرضة، فالحالة هادئة في كل مكان. حقق الله لمصر ما نصبو إليه من

---

(١٢٨) محيي الدين، «والآن أتكلم،» الرأي: ١٦/١٢/١٩٩٢ و٢٣/١٢/١٩٩٢؛ البغدادي، المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٥؛ حمروش، المصدر نفسه، ص ١٩٣ ـ ١٩٦، وفوشيه، **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**، ج ١، ص ٣٣٢.

(١٢٩) نجيب، **مصير مصر**، ص ١١٦؛ حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٠٧، والسيد جاسم، **مقتل جمال عبد الناصر**، ص ٩٢.

آمال وجعل النصر حليفها»[١٣٠].

أما الخطوة الأخيرة التي اتخذها جمال عبد الناصر في إعداد الثورة فهي قيام اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار بمهام «مجلس قيادة الثورة» الذي يأخذ على عاتقه تنفيذ الأفكار التي أدى هو الدور الأول في بلورتها. اقتضت الضرورات إجراء بعض التغيير في قوام المجلس المقرر، بحيث إنه أصبح يتألف، بعد نجاح الثورة، من اللواء محمد نجيب رئيساً، وجمال عبد الناصر نائباً، وعضوية كل من عبد الحكيم عامر، وجمال سالم، وصلاح سالم، وعبد اللطيف البغدادي، وحسن ابراهيم، وخالد محيي الدين، وكمال الدين حسين، وانور السادات، وزكريا محيي الدين، ويوسف صديق، وحسين الشافعي، وعبد المنعم أمين[١٣١].

كلف علي ماهر لتولي مهام رئاسة أول وزارة بعد نجاح الثورة باعتباره مناوراً سياسياً بارعاً، ورجل الأزمات المعروف الذي اشتهر كرجل سياسة محنك منذ أيام الحرب العالمية الثانية. وكانت المهمة العاجلة لحكومة علي ماهر التخلص من احتمال تدخل البريطانيين، كما كان عليها أن تباشر فوراً بإعادة دستور ١٩٢٣، وإلغاء الأحكام العرفية والرقابة، وإلغاء البوليس السياسي، والإفراج عن السجناء السياسيين، والأهم من ذلك كان خلع الملك[١٣٢].

وحين سمع الملك بأنباء الثورة، وهو في مصيفه في الاسكندرية، فإنه لجأ إلى جميع الوسائل التي تصور أنها تمكنه من إنقاذ العرش. فلما تناهى إلى سمعه أن مقر قيادة الجيش في القاهرة تحاصره وحدات مدرعة بقيادة حسين الشافعي، أرسل إلى محمد نجيب تحذيراً بوقف الثورة خشية أن يتدخل البريطانيون، كما فعلوا ضد ثورة أحمد عرابي، في عام ١٨٨٢. وحين لم يجد الملك لهذا التحذير، الذي تكرر عبر الهاتف من الاسكندرية، الاستجابة المطلوبة، فإنه استدعى السفير الأمريكي جيفرسون كافري وطلب منه أن يبلغ الحكومة البريطانية استعانته، وأنه في أمس الحاجة إلى مساعدتها. وحين رفض الطلب، بعد مشاورات عاجلة بين لندن وواشنطن حاول الملك فاروق اغراء محمد نجيب بعرضه عليه تولي مهام وزارة الدفاع، ومنحه عصا المارشالية[١٣٣].

---

(١٣٠) ورد نص البيان في: نجيب، المصدر نفسه، ص ١١٦؛ حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٠٧، والسيد جاسم، المصدر نفسه، ص ٩٢.

(١٣١) أُجري اختيار عدد منهم لأشغال عضوية المجلس في ١٥ آب/أغسطس ١٩٥٢ بسبب دورهم في إنجاح الثورة. انظر: حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(١٣٢) البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ١، ص ٦٦ ـ ٧٠، والرافعي، **مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢، الكفاح في القنال، حريق القاهرة...**، ص ١٣١ ـ ١٣٨.

(١٣٣) نجيب، **مصير مصر**، ص ١١٩؛ السادات، **ثورة على النيل**، ص ٢٦٨، و United States,
= Department of State, *Foreign Relations of the United States, 1952-1954: Near and Middle East,*

ومع كل ذلك، وعلى رغم جميع الطرق التي اعتمدها، والأساليب التي انتهجها، فإن الملك فاروق استسلم آخر الأمر، وأذعن لإرادة الثوار ومشيئة الثورة. فقد تمت محاصرته بكتيبة مدرعة يقودها زكريا محيي الدين، انتقلت إلى الاسكندرية، تعززها المدفعية والمشاة، لقصر الملك فاروق. وبإذعانه فإنه وافق، مكرهاً، على اختيار علي ماهر لتولي رئاسة الوزارة، واستبعاد نجيب الهلالي رئيس الوزراء السابق. وما لبث علي ماهر أن غادر القاهرة إلى الاسكندرية ليعرض على الملك مطالب مجلس قيادة الثورة بالتخلي عن العرش.

وفي ٢٥ تموز/يوليو ١٩٥٢، انتقل محمد نجيب إلى الاسكندرية، يرافقه نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة، للإشراف على المستلزمات الأساسية للتنازل وإعلان مجلس الوصاية. أما جمال عبد الناصر ونصف أعضاء مجلس قيادة الثورة الباقين فقد واصلوا مهامهم في القاهرة للسيطرة على الموقف بدقة. ومع محاصرة زكريا محيي الدين لقصر رأس التين، وجه علي ماهر إلى الملك انذاراً اتهمه فيه بالخيانة والفساد، وطالبه باسم الجيش، باعتباره ممثلاً لإرادة الشعب، بأن يتنازل عن العرش لابنه الأمير احمد فؤاد (الذي يشرف عليه مجلس وصاية) وان يغادر مصر في الليلة ذاتها[١٣٤]. وافق الملك فاروق على قرار العزل بشرط أن يسمح له بمغادرة البلاد على ظهر اليخت الملكي «المحروسة»، وأن تطلق المدفعية في وداعه (٢١) إطلاقة، وأن يشارك محمد نجيب في وداعه، بنفسه. وافق مجلس قيادة الثورة على هذه الشروط، على أن يتعهد الملك بإعادة اليخت، بعد وصوله إلى أي مكان يبتغيه، لأن اليخت ملك للشعب. وغادر الملك فاروق مصر للمرة الأخيرة وإلى الأبد، عشية السادس والعشرين من شهر تموز/يوليو ١٩٥٢، تصحبه زوجته الجديدة ناريمان، وابنه احمد فؤاد، وبناته من زوجته الأولى فريدة: فريال، وفوزية، وفادية، مع عشرات الصناديق والحقائب[١٣٥].

استمر مجلس الوصاية في أداء مهماته حتى يوم الثامن عشر من حزيران/يونيو ١٩٥٣، عندما أعلن مجلس قيادة الثورة إلغاء النظام الملكي في البلاد، وقيام الجمهورية المصرية[١٣٦]. وفي هذا اليوم شكل محمد نجيب وزارته[١٣٧]، وبدأت ثورة

---

vol. 9 (Washington, DC: U. S. Government Printing Office, 1986), p. 1943; note 2, Summary of = Tel. from S. S. to Holmes, Washington, July 22 and 23, 1952, pp. 1843-1844.

(١٣٤) نجيب، المصدر نفسه، ص ١١٩، والسادات، **ثورة على النيل**، ص ٦٥.

(١٣٥) السادات، المصدر نفسه، ص ١٦٦ ـ ١٦٨، ونجيب، المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٣.

(١٣٦) البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ١، ص ٧٧، وعصمت سيف الدولة، «تطور مفهوم الديمقراطية من الثورة إلى عبد الناصر إلى الناصرية،» في: علي الدين هلال [وآخرون]، **الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٤، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، ص ١٣٤.

(١٣٧) أحدثت أزمة آذار/مارس ١٩٥٤ تصدعاً في الرؤية الفكرية بين محمد نجيب وأعضاء مجلس =

يوليو خطاها، كثورة وطنية التحمت بالثورة القومية ذات المضمون التقدمي، وبحركة التحرر الوطني والقومي العالمية. وهذا هو ما صورته الرؤية الفكرية لقائد الثورة عموماً باسم «الناصرية»، عبر المنطلقات الفكرية ـ السياسية، التي حددها جمال عبد الناصر، في الدوائر الثلاث في **فلسفة الثورة** الوطنية والقومية والعالمية، وصولاً إلى الرؤية الفكرية **لبيان ٣٠ مارس** (آذار) ١٩٦٨[١٣٨].

= قيادة الثورة انتهت بقبول استقالة محمد نجيب من جميع مهامه في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٥٤ وتولى عبد الناصر رئاسة الوزراء إلى جانب قيادته لمجلس قيادة الثورة. انظر: محمد نجيب، **مذكرات محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر**، ط ٥ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨)، ص ٢٢٣ ـ ٢٧٠، وعبد العظيم رمضان، **عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤** (القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٧٦)، ص ١٨٥ ـ ٢٢٢.

(١٣٨) سيف الدولة، المصدر نفسه، ص ١٣٤، وغالي شكري، **عروبة مصر وامتحان التاريخ** (بيروت: دار العودة؛ طرابلس: دار الكتاب العربي، ١٩٧٤)، ص ١٩.

الفصل الرابع

تطور الفكر الناصري من الثورة حتى النكسة (١٩٥٢ ــ ١٩٦٧)

تقديم

تمثّل المرحلة الممتدّة بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٧٠ المرحلة الرابعة من مراحل الفكر الناصري، مرحلة البناء الفكري والسياسي للحياة العربية. وتُوصَف هذه المرحلة بأنها من أصعب المراحل، بعد اضطلاع عبد الناصر بمسؤولية الحياة المصرية والعربية فكراً وسياسة. ففي هذه الحقبة التي امتدت ثمانية عشر عاماً، استطاع جمال عبد الناصر، من خلال التحامه بالجماهير العربية التي كرّس لها خطابه السياسي واهتمامه الاستثنائي وفق الرؤية الفكرية التي حدّدها في كتابه **فلسفة الثورة** ابتداءً، و**بيان ٣٠ مارس** انتهاءً، أن يتخذ موقعاً متميّزاً في حياتها، رمزاً للقيادة التاريخية. وفي هذه الفترة استطاع، كذلك، أن يعمّق ثقافته التي أسهم في إغنائها مكتب خاص مؤلف من تسعة وتسعين شخصاً كان يزوّده بأهمّ ما كانت تعرضه الصحافة المصرية والعربية والأجنبية، وبالخلاصات، هي عشرون صفحة، لأهم الكتب الصادرة باللغات الأجنبية، فإذا ما أثار الكتاب اهتمامه ترجمه المكتب كاملاً له[١].

كما أن خلفية عبد الناصر الفكرية والتاريخية والسياسية والثقافية، منذ أوقات مبكّرة، وفهمه، واهتماماته المتواصلة، ورغبته، مكّنته من تكوين وترسيخ ثقافة شاملة واسعة، وتطويرها وهو في الحكم. وبفضل هذه المميزات استطاع جمال عبد الناصر بالتالي أن يتجاوز نفسه باستمرار وأن يحوز شرائط المثقف النموذجي الذي يعرف «شيئاً من كل شيء وكلّ شيء عن شيء معيّن» على حد تعبير أنيس صايغ[٢]. فكان جميع الذين التقوه، دون استثناء، يذهلون بسبب قدرته على مناقشة عميقة وطويلة في أعمالهم الفكرية أو أهدافهم أو مشكلات بلدانهم[٣]. وربما تجاوزت تلك المعرفة إلى

---

(١) أنيس صايغ، «ثلاث لقاءات مع عبد الناصر،» **تاريخ العرب والعالم**، السنة ٢، العدد ١٥ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقابلة مع اللواء الركن ناجي طالب بتاريخ ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٤؛ مقابلة مع حسين =

القضايا العائلية أيضاً، حتى لو كان الشخص الذي يحاوره مواطناً عادياً، أو مجرد رجل فكر أو مبدع.

أولاً: الفكر الناصري والتنظيمات السياسية الناصرية المبكرة بعد نجاح الثورة

إن **موسوعة الهلال الاشتراكية**، وهي موسوعة فكرية ـ سياسية شارك في تحريرها مجموعة من أبرز علماء مصر[٤]، تقول في تعريف «الفكر» : «. . . الفكر كظاهرة عامة بناء فوقي للمجتمع يعكس الأوضاع الاقتصادية والأبنية الاجتماعية في المجتمع. والفكر السائد يُعبّر عن النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد. وهذا الفكر السائد هو انعكاس لهذا النظام، وهو كذلك وسيلة لتدعيمه وتثبيته وحمايته»[٥]. وقد ورد تعريف مقارب لهذا التعريف للفكر كذلك في **الموسوعة الفلسفية**[٦].

وفي التطبيق، نجد أن الفكر الناصري لا يشذّ، كغيره، عن منطوق هذه المقولة. فالفكر الناصري ابن عصره ومجتمعه، وهو فكر ناصر ومدرسته، وقد كان بناءً فوقياً للمجتمع في عهد ناصر، عاكساً الأوضاع الاقتصادية والأبنية الاجتماعية في المجتمع. وبالفعل فقد عبّر عن النظام الاقتصادي والاجتماعي الناصري السائد وقتها، وكان انعكاساً أميناً لذلك النظام. ووسيلة فعالة لتدعيمه وحمايته.

لقد انعكس الفكر الناصري في شتّى الميادين، والصعد، ومن ذلك صعيد التنظيم (وهو ما بحثناه في فكر ناصر التنظيمي لتشكيل «الضباط الأحرار»)، وصعيد الفكر العسكري (أيام الحرب الفلسطينية ١٩٤٨ وما بعدها)، وصعيد الفكر السياسي والعملياتي الثوري (أثناء قيادته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢). ومن جملة ما وجد انعكاس الفكر الناصري فيه التنظيمات السياسية الثورية، التي رافقت عهود الثورة (ثورة يوليو) كافة حتى رحيل عبد الناصر بوفاته في عام ١٩٧٠. ان لجوء عبد الناصر إلى إقامة تنظيماته السياسية الشعبية الخاصة بعهده عكس، بالضرورة، طريقة تفكيره، والنمط الفكري ـ السياسي المميز له ولعهده. فقد اصطدم منذ البداية بعقليات قادة الأحزاب السياسية قبل الثورة وبعدها. وقد ساعد استشراء المهاترات الحزبية والشخصية،

= جميل بتاريخ ٢٤ آذار/مارس ١٩٩٥، ومقابلة مع مسعود محمد بتاريخ ٢٧ نيسان/ابريل ١٩٩٥.

(٤) بينهم كامل زهيري ود. راشد البراوي ود. أحمد عبد الرحيم مصطفى ود. محمود أمين العالم وابراهيم عامر ود. محمد حلمي مراد.

(٥) **موسوعة الهلال الاشتراكية**، راجعها كامل زهيري (القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٠)، ص ٣٩٢.

(٦) **الموسوعة الفلسفية**، إشراف م. روزنتال وب. يودين؛ ترجمة سمير كرم، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ٣٣١.

والسعي وراء المغانم الذاتية والفئوية، والصدامات الحزبية المستمرة، على ترسيخ فكرة الابتعاد عن الحزبية، بل تحين الفرص للقضاء عليها، والاتجاه الحثيث نحو وحدانية التنظيم. يقول محمد فريد شهدي في كتابه **تأمّلات في الناصرية**، الصادر بعد وفاة ناصر، وفي معرض بحث التراث الحزبي في مصر: «إن التراث الحزبي في مصر لم يكن تراثاً مشجعاً... فإذا ما طرحنا جانباً أحزاب الرجعية «الأحرار الدستوريين» و«السعديين» التي لم يكن لها أي نفوذ جماهيري ... فإننا نجد أنفسنا أمام الوفد... والوفد تراث نضالي ضد الاستعمار، لكنه لم يكن حزباً بالمعنى المفهوم للكلمة ... فلا بطاقات عضوية ولا حتى قوائم بالأعضاء، مجرد لجان قيادية تتربع فوق تراث من المحبة الجماهيرية التي تجمّعت خلف الوفد بمجرد وجودها وإحساسها القومي المرهف بأنه أفضل من الآخرين، لكنه وعلى أية حال لم يكن ـ وخاصةً في أواخر أيامه ـ الحل الأمثل في نظر الجماهير. ولقد ظل الوفد منبراً للعمل الأكثر تشدّداً ـ نسبياً ـ ضدّ الاحتلال وضدّ السراي، وقد أكسبه ذلك جماهيرية لم يحظَ بها حزب سياسي في مصر... لكن الجماهير التي منحت حبّها للوفد صُدمت عشرات المرات، فعُتاة الرجعيين استطاعوا أن يتسلّقوا إلى قمة الوفد، وكان هذا طبيعياً طالما أنه لا برنامج اجتماعي على الإطلاق، ولا حتى شعارات وأهداف متجدّدة متواكبة مع الأحداث، وإنما مجرد شعارات عامة مبهمة مطاطة... وهكذا وفي ظل هذه الخيمة الهائلة من الكلمات المطّاطة... تسلّق الرجعيون... إلى قمّة الوفد وأفسدوا الكثير من سمعته ومن ميراثه النضالي ... كانوا في أغلب الأحيان، إما «حكّاماً»، واما في انتظار ان يصبحوا حكّاماً، ساعين إلى الحكم أو ممتطين صهوته، ولا شيء غير ذلك... كانت السياسة في مصر، وكما أسماها شعب مصر الذكي اللمّاح «بوليتيكا» وهي عبارة مرادفة للنصب والاحتيال.. ولقد أدى ذلك كله بالضباط الشبّان إلى نبذ الحزبية، وإلى معاداتها، وإلى التمسك بفكرة أن يحكموا منفردين. وقد مكّنهم ذلك كله أيضاً من أن يشنّوا حملات ناجحة بالفعل ضد الحزبية والفساد الذي صاحبها، وضد ساستها وقادتها، وكان ذلك كله تمهيداً لاستئثارهم بالسلطة»[7].

وبالفعل، فإن القطيعة قد بدأت تتحقّق عملياً بين مؤسسات الفكر الناصري، بعد الثورة، وبين الأحزاب المصرية.

بعد نجاح الثورة أتيحت الفرصة لهذه الأحزاب لإصلاح نفسها ذاتياً، لكن ذلك لم يتحقق لأسباب معروفة، أهمها أن أفكار التنظيمات السياسية لا يمكن لها أن تتغير بقرارات رسمية، ثم إن الفرصة التي أتيحت للأحزاب تلك كانت، في واقع

---

(٧) محمد فريد شهدي، تأملات... في الناصرية، المفكر العربي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣)، ص ٩٦ ـ ٩٧ و٩٩.

الأمر، فرصة شكلية[8]. وفي الحقيقة كان هناك تقاطع بين هذه الأحزاب وبين قيادة الثورة، خصوصاً على صعيد الفكر السياسي والاجتماعي، الأمر الذي تجسد بوضوح عند إقرار قانون الإصلاح الزراعي الأول، وتحديد الملكية بمائتي فدان فقط، ومعارضة الأحزاب ذلك[9].

لكن العنصر الأكثر فاعلية في هذا المضمار كان نابعاً في الأساس من العقلية العسكرية لقادة الثورة، تلك العقلية التي تتطلب الانضباط الصارم، وعدم المعارضة، والانضواء التام تساوقاً مع ذلك استقر الرأي على إلغاء الأحزاب السياسية، وتحريمها مستقبلاً. ففي السابع عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٥٣ أعلن القائد العام للقوات المسلحة، بصفته المتحدّث باسم الثورة، حل جميع الأحزاب السياسية، ومصادرة أموالها لصالح الشعب. وفي اليوم التالي، أي في الثامن عشر من كانون الثاني/يناير في العام نفسه صدر مرسوم بقانون يحظر على قادة الأحزاب السياسية المنحلّة، والمنتمين إليها القيام بأي نشاط حزبي على أي صورة كانت[10].

كان لا بد من ملء الفراغ السياسي الفكري الذي حدث على الساحة المصرية نتيجة هذه التطورات، وغيرها من التطورات بعد نجاح الثورة التي أفرزت، بحكم الواقع، حاجات ومتطلبات جديدة، ووفرت مستلزمات تحقيق ذلك، وكانت هذه الأخيرة من نمط يختلف كلياً عما كان سائداً في مصر ما قبل الثورة.

١ ـ صيغة «هيئة التحرير»

كانت الصيغة الأولى للتشكيلات السياسية التي ارتضت قيادة الثورة اعتمادها، لاستقطاب الجماهير وتأمين الدعم الشعبي المستمر للثورة، هي صيغة «هيئة التحرير» التي أدى أنور السادات دوراً كبيراً في إقناع عبد الناصر بإنشائها، بديلاً من الأحزاب القديمة، وقدوةً ونموذجاً. وكان السادات قد اضطلع بمهمة إنشاء تشكيل شعبي مؤيد لمنظمة «الضباط الأحرار» قبل الثورة. إن صيغة «هيئة التحرير»، كتنظيم سياسي، أقرب إلى صيغة «هيئة التحرير القومي الفرنسية»، التي تكونت حول الجنرال ديغول،

---

(٨) اعتقل معظم قادة الأحزاب بعد انتصار الثورة مباشرة ولا سيما قادة الوفد المعروفين.

(٩) سليمان محمد الطماوي، **ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بين ثورات العالم** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٤)، ص ٩٧، وأحمد كمال أحمد، **الناصرية والعالم الثالث** (بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦)، ص ١٥١.

(١٠) جمال الشرقاوي، «فكر جمال عبد الناصر والميثاق الوطني،» في: مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا، الموسوعة الناصرية: **نضال عبد الناصر** (بيروت: دار الحكيم، ١٩٧٣)، القسم ١، ص ١١١ ـ ١١٤.

باعتبارها تنظيماً سياسياً تشكل حول شخص واحد قائداً أو زعيماً[11].

وعلى أية حال، فإن «هيئة التحرير» كانت أول تنظيم سياسي شعبي عكس فكر عبد الناصر السياسي في تلك المرحلة المبكرة من عهد ما بعد الثورة. وكان المقصود من إنشائه دعم الثورة، وملء الفراغ السياسي بعد تعطيل الأحزاب. وتوصف «هيئة التحرير» بأنها ليست حزباً يستهدف الحكم، بل هي برنامج لتنظيم قوى الشعب وإعادة بناء مجتمعه على أسس جديدة، وقد شبّه ناصر هذه الهيئة بالمدرسة التي يمارس الشعب فيها ويتعلم كيفية انتخاب ممثليه[12]. ومهما كان الأمر، فإن صيغة «هيئة التحرير» كانت ضرورةً مسّت الحاجة إليها في محاولة عبد الناصر إعادة صياغة وجدان الشعب المصري بعيداً عن الأحزاب. هكذا كان لسان حاله يقول في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٢، تعبيراً عن شعوره بضرورة طرح صيغة تنظيمية تدعو الثورة والجماهير للالتزام بها بعد عجز الأحزاب عن التكيف مع الوضع الثوري الجديد[13]. وتحددت أهداف «هيئة التحرير» في تعبئة الشعب تحت شعار «الاتحاد، النظام، العمل»، وحول النداء «كلّنا هيئة تحرير»، وهي إشارة إلى أن هيئة التحرير هي تنظيم للشعب كله. وكان قد أذيع أول بيان حولها في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٣، ثم أُعلن عن تكوينها في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٣، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور ستة أشهر على قيام الثورة. والملاحظ أن التصريح لهيئة التحرير التي أعلن عنها عبر بيانها الأول، كان قد تم قبل إلغاء الأحزاب السياسية بيوم واحد، وذلك بأمل أن تستقبل الهيئة جماهير هذه الأحزاب المعطلة[14].

وقد حدّد إعلام الثورة، وقتها، الدوافع الأساسية لإنشاء «هيئة التحرير» والاستعانة بها، وكانت تنحصر في تجميع القوى الشعبية جميعاً، باستثناء الاقطاعيين والقيادات الحزبية السابقة، لهدف محدد هو طرد الاستعمار والتصدي لكل القوى المضادة للثورة[15]. واعتبر الفكر الناصري، وقتذاك، أن المنتمين إلى الفئات الوطنية التي تضمها «هيئة التحرير» هم أصحاب المصلحة الحقيقية في طرد الاستعمار. وبما

---

(١١) شهدي، **تأملات... في الناصرية**، ص ١٠٤.

(١٢) علي الدين هلال، «تطور الأيديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» في: اسماعيل صبري عبد الله [وآخرون]، **مصر من الثورة... إلى الردة** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ٤٠ ـ ٤١.

(١٣) الشرقاوي، «فكر جمال عبد الناصر والميثاق،» ص ١١٤.

(١٤) جمال سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢)، ص ٢٣ ـ ٢٥، وعبد المنعم شميس، **الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو** (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣)، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(١٥) عبد الله إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، تقديم ضياء الدين داوود (القاهرة: دار الشعب، ١٩٧١)، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

أن فكر الثورة لم يتبلور حتى آنذاك في نظرية سياسية، أو يتجسد في شكل من أشكال التنظيم، وبناءً على الضرورة الماسة لتجميع القوى الشعبية المؤمنة بأهداف ثورة يوليو لمواجهة الاستعمار، وفق الرؤية العسكرية الفوقية المتحكّمة، لذلك كله أعلن في الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير، أي بعد أسبوع من حل الأحزاب، ميثاق «هيئة التحرير». وعلى العموم، فإن قيادة الهيئة خطّطت لحل الكثير من مشكلات الجماهير المنضوية في صفوفها، إضافة إلى الإيفاء بالمهمة الأساسية ـ التعبئة الوطنية وحشد الطاقات من أجل معركة الاستقلال، بما في ذلك تدريب المواطنين على القتال وتوعيتهم[16].

يتألف ميثاق «هيئة التحرير» من مذكرة تفسيرية حول تشكيل هذا التنظيم، وخلاصة بأهدافه، وشعاره «الاتحاد، النظام، العمل» والأهداف الداخلية والخارجية. لقد عبّر هذا التنظيم فكرياً، وقتذاك، عن طبيعة مرحلة التجمع الوطني. وكان هدفها الأول بالشكل الذي حدده ميثاقها، هو تحرير مصر كاملاً، وإجلاء قوات الاحتلال البريطانية، ومنح السودان حق تقرير مصيره. أما الأهداف الخارجية فقد عبّرت عن الموقف من الأمة العربية، ورؤية واضعي الميثاق تجاه جامعة الدول العربية، وعلاقة مصر بدول العالم وبميثاق الأمم المتحدة. لقد أفلحت الثورة في معالجة المشكلة الأهم ـ القضاء على الاحتلال والسيطرة البريطانية، والتخلص من ثمانين ألف بريطاني، وتأمين الاستقلال السياسي كاملاً[17].

لقد استطاع عبد الناصر، انطلاقاً من رؤيته الفكرية لميثاق هيئة التحرير وأنشطتها، تحقيق بعض ما حلم به جيله، جيل ما بعد ثورة ١٩١٩، ولا سيما الاستقلال.

٢ ـ «الاتحاد القومي»

كانت التجربة الثانية التي مارسها الفكر الناصري في تشكيل التنظيمات السياسية الداعمة له، هي تجربة تشكيل «الاتحاد القومي»، وتعتبر هذه المرحلة مرحلة تأكيد الاستقلال، بمعنى إكمال الاستقلال السياسي بالاستقلال الاقتصادي، ففيها تم تأميم قناة السويس، وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ مصر، وخطوة إيجابية، دون شك،

---

(١٦) أسعد عبد الرحمن، الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية (الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٧)، ص ٣٩.

(١٧) حسن الفكهاني، موسوعة جمال عبد الناصر: مصر الثورة من الزعيم الخالد إلى خليفته الثائر (القاهرة: الدار العربية للموسوعات، ١٩٧٢)، ج ١، ص ٢٢ ـ ٢٣؛ شميس، الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو، ص ٩٠ ـ ٩١، وعبد الله بلال، تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١)، ص ٧٩ ـ ٩٠.

على طريق القضاء على الاستغلال والاحتكار الامبريالي وسيطرة رأس المال الأجنبي. وفيها، كذلك، تمت تصفية العدوان الثلاثي (الانكليزي ـ الفرنسي ـ الصهيوني) على مصر، واجتثاث آثاره وتحرير بورسعيد عام ١٩٥٦[١٨].

واتسمت هذه المرحلة بالسعي الحثيث لبناء مجتمع جديد، واقتصاد جديد قائم على التصنيع، وللقضاء على التخلف والتبعية التي عاناها الشعب المصري أمداً طويلاً، من خلال تصفية الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومجموع العلاقات الاقتصادية الخارجية التي تشكل قاعدة التبعية الاقتصادية والتخلف الاجتماعي. كما اتسمت هذه المرحلة بالسعي لفرض سيطرة الشعب على المصالح والاحتكارات الأجنبية في مصر وتأميمها. وقد أكدت كل هذه الانجازات صدقية المبدأ الرابع من المبادىء الستة للثورة، وهو المتعلق بما يسميه البعض تجوّزاً بالاتجاه الاشتراكي، والمقصود به إقامة شيء من العدالة الاجتماعية، إذ لم تكن الاشتراكية مطروحة أمام قيادة الثورة. وكانت الوسيلة إلى هذه العدالة الاجتماعية هي تنمية اقتصاد وطني قوي يكون لكل مواطن فيه نصيب عادل، ويكون أساسه العمل على تقليل حدة الفوارق، واقتران التنمية بعدالة التوزيع. وكان لا بد لكل ذلك من أن يسفر عن انتشار المد التحرري القومي في الوطن العربي، وبخاصة بعد إحباط العدوان الثلاثي على مصر، الأمر الذي أدى، بالضرورة، إلى ارتقاء حركة التحرر العربية إلى مواقع أكثر تقدماً، وهي مواقع يصفها بعض الباحثين بأنها تجمع بين تصفية الاستعمار والعداء لرأس المال، وتلكم أمور كان للفكر الناصري في مرحلته الجديدة هذه فضل بلورتها ونشرها، ولا سيما بعد تأميم القناة، ومجابهة العدوان الثلاثي[١٩].

وجدت قيادة ثورة ٢٣ يوليو الحاجة ماسة إلى تنظيم سياسي ـ شعبي جديد، في صورة تحالف جديد يضم فئات الشعب الوطنية هو «الاتحاد القومي» الذي كان مطلوباً منه في رؤية ناصر الفكرية السياسية أن يكون الأداة الشعبية الجماهيرية الفعالة في تعجيل عملية التغيير الثوري وبناء المجتمع الجديد[٢٠]. فيكون الثامن والعشرون من

---

(١٨) أحمد حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ٥ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨)، ج ٢: **مجتمع جمال عبد الناصر**، ص ٢٨٢؛ شميس، المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١؛ إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٣٩١، ومحمد عبد الحكيم دياب، **الثورة العربية المعاصرة: الأبعاد الفكرية والتنظيمية** (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٨)، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

(١٩) شميس، المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١؛ دياب، المصدر نفسه، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩؛ Peter Mansfield, *Nasser's Egypt* (Baltimore, MD: Penguin Books, 1965), p. 19, and William Roe Polk, *The United States and the Arab World*, American Foreign Policy Library (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1965), pp. 209 and 274-276.

(٢٠) محمد السيد سليم، **التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية**، سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣)، ص ٨٣.

أيار/مايو سنة ١٩٥٧، اليوم الذي أعلن فيه قرار تشكيل «الاتحاد القومي»، بداية المرحلة الثانية من مراحل التنظيم وفق تصور الفكر الناصري. وكان «الاتحاد القومي» كما أريد منه، انعكاساً لتجمع ونشاط القوى الاجتماعية والاقتصادية، على النحو الممكن في ظروف وقتذاك، وكالتالي:

أ ـ المهنيون والمثقفون الذين لا يمكن الاستغناء عن خبرتهم وجهودهم، فقد ارتبطت مصالحهم بشكل مباشر بخطط التنمية والتصنيع، فالتنمية ستتيح مجالات جديدة للعمل والقضاء على البطالة الحقيقية، الأمر الذي سيؤدي، بالضرورة، إلى رفع مستواهم المادي والاجتماعي[٢١].

ب ـ العمال وتتوزع قوة عملهم في القطاع الصناعي: الغزل والنسيج، ووحدات الانتاج الحرفي، والصناعات الاستهلاكية، وقطاع الخدمات. والعمال هم أصحاب المصلحة الحقيقية في التصنيع الجديد، وتطوير الصناعة القديمة. وقد اتخذت قيادة الثورة وقتذاك اجراءاتها التي استهدفت معالجة مشاكل العمال، وأصدرت قوانين التمصير المختلفة بما يعزز الاتجاه في خلق اقتصاد مصري متين، كما أصدرت قوانين العمل بما يدعم حقوق العمال في المشاريع الصناعية.

ج ـ الفلاحون: وقفت الثورة في جانب الفلاحين المصريين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان، ويعيشون في مستوى اقتصادي ـ معاشي بالغ التدني، في ظل الإقطاع العريق المستبد. وكان تعبير الثورة عن نصرتها للفلاحين هو إصدار قوانين الإصلاح الزراعي، والتي استهدفت القضاء على الهيمنة الإقطاعية، وتحرير الفلاح، وحددت أجور العمال الزراعيين، للمرة الأولى في تاريخهم، وواجهت مشكلة المستأجر الزراعي بتحديد القيمة الإيجارية له، وأصبح آلاف الفلاحين، بالتالي، ملاكاً للأرض التي يعملون فيها[٢٢].

د ـ الرأسمالية المصرية: لم يكن التعامل مع أبناء هذه الشريحة الاجتماعية المهمة أمراً سهلاً، خصوصاً ان القرارات الفكرية العامة والخاصة لقادة العالم الثالث، ومنهم جمال عبد الناصر، لم تكن لتسمح لهم، على الأقل في البداية، الوقوف على دقائق أساليب عملهم الذكية المتأتية من وعيهم، وخبراتهم المتراكمة بحكم موقعهم الاجتماعي. فبدءاً ينبغي علينا أن نأخذ في الاعتبار أن البرجوازية المصرية تسيدت

---

(٢١) عبد الله إمام، **الناصرية وتحديات العصر** (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٨)، ص ٨ ـ ١٣.

(٢٢) إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٣٩١ ـ ٣٩٣؛ جمال سليم، **الناصرية الجديدة وتحديات العصر** (القاهرة: المطبعة الفنية، ١٩٧٧)، ص ٨ ـ ١٠، و Gabriel S. Saab, «Egyptian Agrarian Reform,» *Middle East Forum*, vol. 37, no. 7 (July-September 1960).

الموقف في معظم الأحيان لعوامل موضوعية وذاتية في ظل مجتمع مثل المجتمع المصري الذي عاش قبل الثورة استقطاباً واضحاً أفرز شرائح ذات مصالح متناقضة بينة، وحيث تعودت فئات البرجوازية الوسطى أن ترتدي المسوح التي يريدها الحكام، أي حكام، وتستطيع أن تتأقلم وتتلون سريعاً بحيث تصبح أكثر مرونة من النظام ذاته، وأكثر مبادرة منه، وأكثر قدرة على الحركة، وهي استمرت على هذا المنوال بعد الثورة أيضاً كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً[٢٣].

ومهما يكن من أمر لم يتخذ قادة الثورة، والرؤية الفكرية الناصرية في تلك المرحلة بالذات، موقفاً مضاداً ضد أي شريحة من شرائح البرجوازية، بما في ذلك الرأسمالية المصرية التي أفادت فعلاً من قرارات التمصير. ومنذ البداية كانت البرجوازية المصرية تريد أن تستحوذ على كل شيء، فقد زحف ممثلوها بقوة وسرعة، للاستئثار بالمراكز القيادية والهامة في «الاتحاد القومي» والمجتمع عموماً.

التقت كل هذه الفئات في المرحلة الثانية من مراحل «التنظيم الناصري» اذا جاز التعبير، فطبيعة المرحلة، وحدود الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية فرضت آنذاك إيجاد مثل هذا التنظيم السياسي، والتجمع القومي. ويمكن اعتبار هذه المرحلة التي مر بها الفكر الناصري بالنسبة للتنظيم السياسي مرحلة تجمع القوى الوطنية، أساسها أن التناقضات بينها ليست عدائية، فالتناقض العدائي الأساس هو بينها وبين الاستعمار، وتبريرها ـ الأخذ بصفة التحالف بين قوى الشعب العاملة بديلاً من الحزب الواحد، وكانت هذه الصيغة، في الحقيقة، الصيغة الأكثر انسجاماً مع خصوصية التجربة الناصرية، والفكر الناصري آنذاك[٢٤].

تنبغي الإشارة، في معرض بحث وتأريخ خلفيات تشكيل «الاتحاد القومي» الناصري، إلى أن ظهور هذا التشكيل لم يأتِ عبثاً، ولم يبدأ من الصفر. ففي السادس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٥٦، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر نهاية المرحلة الانتقالية، وطرح للاستفتاء الدستور الجديد، الذي حرّم إنشاء الأحزاب السياسية، ونص على تشكيل «الاتحاد القومي» بمثابة إطار وطني يضم جميع القوى الشعبية التي أسلفنا الإشارة إليها، باستثناء العناصر التي تثبت خيانتها للشعب. فقد تضمنت المادة ١٩٢ من الدستور، الذي يترجم، دون شك، رؤية ناصر الفكرية السياسية على أن

---

(٢٣) حول هذا الموضوع، انظر: شهدي، **تأملات... في الناصرية**، ص ١١١ ـ ١١٣؛ أنيس صايغ، **في مفهوم الزعامة السياسية: من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر** (بيروت: جريدة المحرر، ١٩٦٥)، ص ١٧٦، وعبد العزيز رفاعي، **القومية العربية وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢**، كتب قومية؛ ٣٣٨ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦)، ص ٨٥.

(٢٤) إمام، **الناصرية وتحديات العصر**، ص ٩ ـ ١٣.

«يكون المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة، ولحث الجهود ولبناء الأمة بناءً سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية[25].

وتقوم فلسفة «الاتحاد القومي» في منظور الرئيس جمال عبد الناصر على ركيزتين: **الأولى**: تتمثل في مفهوم الاتحاد للوحدة الوطنية، باعتباره إطاراً لصيانة الوحدة الوطنية والقومية بطريقة تتناسب مع طبيعة المجتمع وخصوصيته، مع استبعاد الأخذ بتجربة «الحزب الواحد» أو تجربة «تعدد الأحزاب»، لكي يمكن تفادي عيوب التجربتين وفق قناعته، حيث يقول: «من هذه التجربة في حياتنا وفي المعارك التي قابلناها كان نظام الحزب الواحد لا يتناسب لأنه عبارة عن احتكار السياسة، ولأن نظام الأحزاب المتعددة لا يناسبنا لأنه سيكون وسيلة في الوقت الحاضر إلى داخل بلدنا ليهدم هذه القاعدة التي بنيناها، والتي نعبىء عليها الشعب، وكان لا بد أن ندخل التجربة الجديدة ـ تجربة تقينا عيوب الحزب الواحد، وتقينا في نفس الوقت من عيوب تعدد الأحزاب، تجربة عبارة عن نظام يشترك فيه جميع أبناء الوطن، بحيث لا نعطي الفرصة للتسلل، وبحيث نحافظ على وحدتنا، ولا نمكن الأجنبي من أن يفرق ويعمل على ضمنا داخل مناطق النفوذ، وكانت هذه التجربة هي الاتحاد القومي»[26]. وتواصلاً مع الفكرة ذاتها يقول في الخطاب نفسه: «ان الاتحاد القومي هو إطار يصون الوحدة الوطنية. إن مجرد قيامه لا يحل المتناقضات في مجتمعنا، إنه لا يمنع تصادم المصالح ولا تعارض الآراء، إنما هو مجرد إطار من الوحدة القومية يسمح للمتناقضات أن توازن نفسها، ويسمح للمصالح المتصادمة والآراء المتعارضة أن تجد نقطة لقاء بينها في حماية الوحدة الوطنية بطريقة تتلاءم مع طبيعة شعبنا. . . ولقد كان إيماننا أنه يمكن في إطار الوحدة الوطنية أن تتفاعل الطبقات بما يقرب بينها، وأن يقل التناقض بطريقة سليمة لا مصادرة فيها، ولا سفك دماء، أن يتم الاتجاه إلى الاستقرار الوطني القائم على العدل الاجتماعي»[27].

وفي منظور عبد الناصر الفكري، فإن هذا الاتحاد انما هو أداة لإقامة المجتمع المنشود، بالحد من الخلافات الطبقية والفئوية وتقليصها إلى أقل درجة ممكنة، والتأكيد على أهمية مشاعر التضامن والوحدة بين المواطنين. وقد أكد عبد الناصر باستمرار على

---

(٢٥) هلال، «تطور الايديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» ص ٤١، وسليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٢٦) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٩، في: **الأهرام**، ١٩٥٩/١١/٢٨.

(٢٧) المصدر نفسه.

شمولية تجربة الاتحاد، وقوميتها، وتجاوزها الحدود القطرية لتحقيق اتفاق قومي عام، فالمصريون يقولون ـ على حد تعبير الرئيس جمال عبد الناصر: «كلنا نعمل من أجل هذا الوطن، وكلنا نعمل من أجل رفعة هذا الوطن ... ولا عمل للأحزاب ... وكلنا نعمل من أجل أمتنا»[٢٨].

ومن خلال كل ما تقدم، يتضح أن «الاتحاد القومي» تنظيم سياسي جماهيري عام، أنشأته السلطة الناصرية بهدف تحقيق الوحدة الوطنية والإسهام في تحقيق الوحدة العربية، وهو تنظيم اعتقد عبد الناصر أنه يوفر الإطار والمجال المناسبين للأمن القومي[٢٩].

وعلى صعيد آخر، يتضح من خلال تصريحات عبد الناصر العديدة بخصوص مديات حزبية هذا الاتحاد، انه انما أوجد لغرض تعبئة الشعب، والإسهام في تحقيق أهداف الثورة، وتدريب القيادات على المستويات المختلفة لدراسة المشاكل المحلية وحلها، وانه لن يكون حزباً لطبقة ما أو جماعة ما[٣٠].

وفي ضوء مغالاة عبد الناصر في التهوين من الأحزاب والحزبية ومعاداتها، فإنه كان يعتقد أن هذا «الاتحاد القومي» يمكن أن يكون تنظيم الشعب بأسره، وهو الذي سيعيد صياغة وجدان الجماهير، خلفاً لهيئة التحرير، وتجنباً للأحزاب والحزبية، فقد قال، ذات مرة: «لا أريد أن تتمزق وحدة وطننا من أجل مصلحة هذا البلد الأجنبي أو ذاك، وانما أريد صيانة وحدة هذا البلد حتى تثبت الفكرة الوطنية المنبثقة من أعماقه وتترسخ»[٣١].

والحق أن رؤية عبد الناصر الفكرية بخصوص التنظيمات السياسية التي أنشأها في عهده (هيئة التحرير، والاتحاد القومي) ثم (الاتحاد الاشتراكي، والتنظيم الطليعي)، تكشف موقفه تجاه الحزبية والتعددية والرأي الآخر. ان شخصية عبد الناصر الوطنية والقومية الثورية شخصية عملاقة، وقد أدى الرجل دوره الكبير في إنجاح ودعم حركات التحرر القومي العربي، ومشاريع الوحدة العربية، والوحدة الأفريقية، وحركة عدم الانحياز، ومؤتمر باندونغ، والحركات التحررية في العالم

---

(٢٨) انظر تصريح الرئيس جمال عبد الناصر لجريدة *New York Times* في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٩، في: الأهرام، ٢٤/١١/١٩٥٩.

(٢٩) Richard Hrair Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics* (Albany, NY: State University of New York Press, 1971), pp. 51-52.

(٣٠) انظر خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة الذكرى السابعة لقيام الثورة في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٩، في: الأهرام، ٢٤/٧/١٩٥٩.

(٣١) مقابلة مع الرئيس عبد الناصر أجراها مندوبو التلفزيون الأمريكي بتاريخ ٧ نيسان/ابريل ١٩٥٨، في: الأهرام، ٨/٤/١٩٥٨.

الثالث، ودعم السلام العالمي. لكن هذا لا ينفي أن تكون له ولفكره قصورات، أو ثغرات، أو خلل ما في الرؤية الفكرية وإطارها السياسي. فحتى محمد حسنين هيكل يعترف بموضوعية فيقول «. . . صحيح أن عبد الناصر بقوته وهيبته فرض آراءه في البداية بحيث إن قضايا كثيرة لم تناقش بالقدر الكافي، لكن ذلك لا يعني التجريح به، ولا بأس من المناقشة . . . أجل، بقي من عبد الناصر فكر وانجازات وأخطاء . . .»[٣٢] كما قال، وللقول دلالته البالغة: «ان جمال عبد الناصر له أخطاؤه، ومن يقول أن لا أخطاء لعبد الناصر يكون متجنياً على الانسانية. عبد الناصر له أخطاء سياسية كبيرة أو صغيرة»[٣٣].

ومع أن هيكل يحاول، ما وسعه، تبرير موقف عبد الناصر تجاه الحزبية والأحزاب، الا إنه لا يفلح في إقناع المتلقي. فهو يضرب الأمثلة بأحزاب الأقلية المتواطئة مع الاستعمار والسراي في مصر، وهو يؤكد أنه «كانت لعبد الناصر القدرة على تعبئة الجماهير بالإنجازات»[٣٤]. وكل ذلك لا يمكن أن يقنع أحداً بالاستغناء عن الحياة الحزبية، بمعارضتها بالانجازات فقط!! يقول محمد فريد شهدي في ملاحظة دقيقة له أبداها بهذا الصدد: «لقد صوُرت فكرة الحزبية وكأنها فكرة برجوازية لا تليق بمقام البناء الاشتراكي . . . والأخطر من ذلك أن كتابات منظّري الثورة قد اتخذت اتجاهاً منافياً للواقع التاريخي، محاولةً أن تلوي عنق التاريخ لتبرهن على أن مصر قد لفظت دوماً الحزبية، وان كفاح مصر لم يكن أبداً إلا من خلال تنظيم واحد للأمة كلها . . .»[٣٥].

فرض هذا التوجه الفكري غير الواقعي على الساحة المصرية في تلك المرحلة. ففي كتيب بعنوان **نظرة تاريخية إلى تطور التنظيم السياسي في الجمهورية العربية المتحدة بعد ثورة عام ١٩٥٢** يقول الكاتب: «ومن هنا يمكن القول بأنه استناداً إلى الظروف التاريخية لمجتمعنا فإن الحزب الواحد كان هو التعبير الطبيعي الذي يجسد وحدة الجماهير، ووحدة آمالها وأهدافها، وأن تعدد الأحزاب ليس إلا انعكاساً للانقسام بين المصالح الطبقية. ولذلك فإن التنظيم السياسي الواحد هو في الحقيقة عودة إلى الوضع الطبيعي الذي يعكس وحدة القوى الوطنية، ووحدة اتجاهها في طريق التطور بعد أن سقطت الطبقات المستغلة المتحالفة»[٣٦].

---

(٣٢) فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٢٠٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٦ و١٠٤.

(٣٥) شهدي، تأملات... في الناصرية، ص ١٠٩.

(٣٦) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

إن هذا التخريج، الذي تردد مثله كثيراً في ذلك الحين، انما كان يستهدف تشويه الصورة الحقيقية للحياة الحزبية، وعرضها وكأنها «شر مطلق» في جوهرها. ثم إن الحقائق التاريخية نفسها تنفي ذلك كله، فلقد عرفت مصر تعدد الأحزاب منذ ثورة عرابي، ومنذ مطلع القرن العشرين وجدت الأحزاب السياسية في مصر ممثلة لمختلف الطبقات الاجتماعية.

يواصل محمد فريد شهدي حديثه الدال بصدد هذا الموضوع الفكري المهم، فيقول: «هكذا كان محور تفكير الناصرية هو وحدانية الحزب، وقد تشبثت بهذه الفكرة إلى غير ما حد . . .». ويروي محمد حسنين هيكل ان كامل الجادرجي قد قدم إلى القاهرة، وعرض خلال مباحثاته مع الرئيس عبد الناصر إقامة اتحاد فدرالي بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية العراق على أساس أن يكون هناك رئيس واحد، وان تكون وحدة كاملة في قيادة القوات المسلحة، وتوجيه واحد لسياسة الاتحاد، ومقابل ذلك يسمح للأحزاب بأن تباشر نشاطها في داخل هذا الاتحاد (**الأهرام** ٣١/ ١/١٩٥٩). ورفض عبد الناصر . . . فإن قضية التنظيم الواحد كانت مبدأ لا يمكن التنازل عنه من وجهة نظره . . .»[٣٧].

وننتقل الآن إلى الركيزة **الثانية** في فلسفة «الاتحاد القومي» بالشكل الذي صاغه به عبد الناصر. وتتمثل هذه الركيزة في مفهوم الاتحاد للديمقراطية الاجتماعية. فقد اعتقد عبد الناصر أن الديمقراطية السياسية لا يمكن تحقيقها ما لم تقرن بشروط ومتطلبات اجتماعية واقتصادية تدعمها، فهو يقول: «ان الفرد إذا تحرر فلا يستطيع أي فرد آخر أن يملي عليه إرادته، إذا أردت أن أحرره فيجب أن أحرره أولاً اقتصادياً واجتماعياً حتى يستطيع أن يكون قادراً على أن يباشر الحرية السياسية»[٣٨]. وزاد في ذلك فقال: «الاتحاد القومي مبني على تحرير الفرد من الاستغلال الاقتصادي والاستغلال الاجتماعي والاستغلال السياسي . . . وهو تنظيم وطني . . . كل الشعب يحمي وحدته»[٣٩].

ويتضح مما عرضناه لحد الآن، ان الفكر الناصري قد اتسم، في هذه المرحلة، بثلاث سمات مترابطة:

السمة الأولى: رفضه مفهوم الصراع الطبقي.

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣٨) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٩، في: **الأهرام**، ٢٤/ ١١/١٩٥٩.

(٣٩) نقلاً عن: سليم، **الناصرية الجديدة وتحديات العصر**، ص ١٠٠.

السمة الثانية: النظر إلى المجتمع ككيان عضوي ذي مصلحة واحدة.

السمة الثالثة: تطور المجتمع مرهون بوحدة وتنسيق جهود المواطنين[٤٠].

لقد افترقت أهداف «الاتحاد القومي» عن أهداف «هيئة التحرير»، بحكم افتراق طبيعة المرحلتين، لكن التنظيمين توحّدا في الغاية الواحدة، على المدى البعيد، وهي دعم النظام الناصري وفكره المرحلي وخدمة دولته، فقد صيغت الأهداف التالية للاتحاد القومي:

أ ـ إقامة حياة ديمقراطية سليمة (تجسيداً للمبدأ السادس من المبادىء الستة للثورة).

ب ـ ضمان حق كل فرد في الإسهام في بناء وطنه، وفي ممارسة حرية الكلمة وحرية الصحافة وإبداء الرأي والمناقشة والتقيد برأي الأغلبية.

ج ـ ضمان حقوق كل عضو في لجان القرى بمناقشة مشاكل قراهم ومشاكل البلاد، كذلك، وصولاً لتحقيق هدف واحد هو (المجتمع التعاوني).

د ـ تحقيق وحدة الشعب العربي المتحرر من كل أثر من آثار الهيمنة الاستعمارية.

هـ ـ تخطيط السياسة العامة للبلاد. وتتولى السلطة التنفيذية تنفيذ المسائل المخططة، وتنظيم القانون والإدارة المحلية في جميع المستويات. وتكون مهمة المجالس المحلية للاتحاد تنفيذ السياسة العليا للدولة.

و ـ مشاركة «الاتحاد القومي»، من خلال المجالس المحلية، في تعزيز الصلة الوثيقة بين القيادة والشعب، على أساس التعاون، لبناء الأمة بناءً سليماً من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية[٤١].

تقويم «الاتحاد القومي»: على الرغم من أن تنظيم «الاتحاد القومي» كان أكثر نشاطاً وحيوية من تنظيم سَلَفه «هيئة التحرير» إلا أن القصورات والتناقضات كانت متماثلة، بل زادت عمقاً وحدة، مع تقدم مسيرة الثورة ورسوخها. فقد أكد القرار

---

(٤٠) عصمت سيف الدولة، «تطور مفهوم الديمقراطية من الثورة إلى عبد الناصر إلى الناصرية،» في: علي الدين هلال [وآخرون]، **الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي**، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، ص ١٣٣ ـ ١٤١.

(٤١) إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ ايغور بيليايف وافغيني بريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ١٥١، والطماوي، **ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بين ثورات العالم**، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

بإنشاء «الاتحاد القومي» رفضه مفهوم الصراع الطبقي كما مر بنا ذلك آنفاً، وبذلك تحول التنظيم إلى مستوطنة تعايش سلمي بين جميع الطبقات، كما جرى «تجميل» للصراع الطبقي القائم فعلاً، ومحاولة القفز على التناقضات وحرق المراحل(٤٢). الأمر الذي أدى عملياً الى ازدياد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، فحصل التقاطع، بالضرورة، بين المبادىء والواقع، واهتزت صدقية شعارات الثورة وقيادتها بقوة، ولا سيما بعد تجريد القرار باستثناء العناصر الرجعية من مضمونه الاجتماعي(٤٣). وقد انتبه لذلك كتّاب ومفكرون مصريون بارزون، انطلقوا من منهجيتهم العلمية الموضوعية في تحليل الوقائع ومتابعتها. وكان من هؤلاء أنور عبد الملك، ومحمد فريد شهدي.

من هنا يمكن فهم الصعوبة البالغة في إنجاح التعاون أو حتى «التعايش السلمي» مع القوى المعادية في إطار الاتحاد، لاستمرار التناقض بين مصالح الرأسماليين والعمال. لقد اتضح ذلك، مثلاً لا حصراً، في وقوف الرأسماليين ضد أي إجراء ينقل مركز الثقل إلى قوى الشعب كما حدث عام ١٩٥٨ عندما صدر التنظيم الصناعي، وعام ١٩٥٩ مع قانون تحديد أرباح الأسهم(٤٤). ويتعزز هذا الاستنتاج ذو الدلالة البالغة بكلمات الرئيس جمال عبد الناصر، نفسه، بهذا الصدد، حيث يقول: « . . . لقد أنشأنا الاتحاد القومي كمنظمة شعبية، وكشكل يحد من الصراع الطبقي. ويتمثل خطؤنا في أننا قد سمحنا للقوى الرجعية، ليس لبعض الأشخاص المنفصلين بل للقوى (!) بالدخول في الاتحاد القومي، وتحايلوا على شل نشاطه الثوري وحولوه إلى منظمة لم تتمش أعمالها مع مطالب الشعب الحقيقية»(٤٥). وبالفعل فقد ساعد في حدة التناقض تسلل العديد من الممثلين النشيطين للقوى المعادية، واحتلالهم مواقع قيادية في الاتحاد، ومن خلاله تمكنوا من فرض إرادتهم وقراراتهم في الحفاظ على الامتيازات الاستغلالية للرأسماليين. وقد برز ذلك بصفة خاصة في الإقليم الشمالي، حيث احتلت القوى المحافظة القيادة في الاتحاد القومي، وتساقطت على طريق التحول الاجتماعي الحقيقي بعد قرارات ١٩٦١ الاشتراكية، وأدى كل هذا إلى انفصال الاتحاد عن مطالب الشعب الحقيقية، بالرغم من محاولة بعض عناصره تقديم الخدمات للمواطنين، مع العلم أن التنظيم لم تنحصر أهدافه في تقديم الخدمات، بل كانت أهدافه أكبر من ذلك بكثير. وقد أشار الرئيس عبد الناصر إلى ذلك بقوله: «لم يصبح الاتحاد وحدة سياسية، أو وحدة سياسية متحركة، أو وحدة

---

(٤٢) هلال، «تطور الايديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» ص ٤٥.

(٤٣) بيليايف وبريماكوف، المصدر نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٤٤) سليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٤٥) حديث الرئيس جمال عبد الناصر في جريدتي: الأهرام، ٦/١٠/١٩٦١، والأخبار (بغداد)، ٦/١٠/١٩٦١.

ثورية أبداً، بل نتج عن هذا ان الاتحاد القومي انفصل عن الشعب»[٤٦]. واذا رجعنا إلى آلية «التجربة والخطأ» التي اعتمدها عبد الناصر والفكر الناصري عموماً، فإننا سنتحقق من خطأ نظرية مهادنة الرجعية مقابل قبولها بالوحدة الوطنية، ومن فشل «الاتحاد القومي» عملياً بعد الانفصال.

لم تتمكن القوى الثورية في مواجهة عملية التغيير أن تحدد دليلاً ومنهاجاً تفصيلياً للعمل تلتقي عنده الجهود الجماعية على أساس فكري واحد لتصدر عنه إرادة شعبية مؤثرة، بل كان مجرد تجمع شعبي غلب عليه الطابع الثوري مع غياب الالتزام الفكري للتنظيم[٤٧]، وشاعت فيه المزاجية والارتجال وعدم بلورة الإطار التنظيمي وفق صيغ هيكلية تحدد علاقة القيادة بالجماهير ومسؤوليتها، وساده غياب أيما رابطة تربط لجان «الاتحاد القومي» بالشعب لتحقيق الغرض من إنشاء الاتحاد، وهو أن يكون درعاً واقياً لمبادىء الثورة، وأداة دعم كبرى لها، ولحمايتها من الأخطار المتربصة، فالأطر التنظيمية تعد من أولويات وجود التنظيم السياسي.

لقد كان غياب الايديولوجيا السياسية في العمل الثوري في تنظيم «الاتحاد القومي» أحد أسباب انهياره الأكيد[٤٨]. فقد كانت الحقبة التي امتد فيها نشاط «الاتحاد القومي» مجرد مرحلة مخاض، على طريق ولادة الاتجاه الذي ينبغي اعتماده. فعملياً حصل تطور كبير في تقدم حركة الوعي التحرري، وقد تم ذلك عبر كثير من الأخطاء والتضحيات كان أحد أسبابها الرئيسة غياب الديمقراطية، وعسكرة التنظيمات، واعتماد الاصلاحات الفوقية بالطريقة الادارية البيروقراطية. ومع ذلك كله فإن جدلية الممارسة، وما أعطته، بالضرورة، من خبرات في عملية التغيير والبناء، ساعدت، وإن لم يكن ذلك بالقدر الكافي، في بلورة معالم البحث عن طريق جديد[٤٩].

وأدى عدم تعاون بعض الشرائح الاجتماعية المهمة، والمثقفون بخاصة، نتيجة عزلها عملياً، والنظرة الاستعلائية التشكيكية تجاهها، إلى شيوع شكل من أشكال السلبية، المفروضة عليها فرضاً، تجاه القيادة الثورية الجديدة[٥٠].

---

(٤٦) نقلاً عن: إمام، الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري، ص ٣٠٢.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٤٨) هلال، «تطور الايديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» ص ٤٧، وبيليايف وبريماكوف، مصر في عهد عبد الناصر، ص ١٥٢.

(٤٩) جمال الأتاسي، «الناصرية: الاستمرارية بالتجاوز،» الغد العربي (عمان؛ القاهرة)، العدد ١ (أيلول/سبتمبر ١٩٩٠)، ص ٢٨.

(٥٠) شهدي، تأملات . . . في الناصرية، ص ٧٦؛ غالي شكري، «عبد الناصر . . والمثقفون، ثلاث كلمات لغالي شكري،» دراسات عربية، السنة ٧، العدد ١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، ص ٨١ ـ ٩٤، وألفريد فرج، «ثورة يوليو . . والثقافة،» ٢٣ يوليو (لندن)، العدد ٢١ (٢٣ تموز/يوليو ١٩٧٩)، ص ٤٠ ـ ٤٢.

وقد انتقد الرئيس عبد الناصر ذلك وأشار، بخاصة، إلى «كليات الحقوق» التي اكتفت بتدريس النظريات، بينما كانت مصر تمر بتجارب عسيرة، ومرحلة مخاض مؤلم. وجاءت ملاحظات عبد الناصر هذه في أعقاب حوار فكري دام طوال عام ١٩٦٠، وكان هيكل يترجم ذلك في كتاباته في **الأهرام**. وعموماً فقد تركز انتقاد عبد الناصر واستهدف، بالذات، ممارسات المثقفين السلبية تجاه القيادة الثورية، وعدم تحمسهم للعمل، على الرغم من ان معظمهم قد قدموا ولاءهم السياسي للثورة، لكن ذلك كان ولاءً عاماً، يفتقر إلى المشاركة الفعالة في تطوير المجتمع، واغناء الايديولوجية الثورية بطروحاتهم لتعميقها، وتطوير ممارساتها التجريبية.

وعلى أية حال، فإن انتقاد عبد الناصر للمثقفين، وقتذاك، كان انتقاداً للنتيجة لا للسبب الذي جعلهم يحجمون عن الإسهام الفعال في العملية الثورية. فالآلية التي اعتمدتها القيادة، آنذاك، كانت تقوم على عسكرة النظام، وعلى الحل العسكري لكل شيء، بمعنى ضمان الطاعة، والتنفيذ الكامل وعدم المناقشة اطلاقاً. كما ان تلك الآلية التي اعتمدتها القيادة منذ أيام الثورة الأولى لم توفر، عملياً، ومن الناحية التاريخية، أي دور للمثقفين في الثورة، فقد تم استبعادهم، بصفتهم من أهل الخبرة وليس من أهل الثقة، والمقصود بذلك انهم مجرد فنيين وتكنوقراط، وليسوا من الضباط الأحرار وأجهزة القيادة السياسية التي استأثر بها العسكريون كلياً. وقد أدى كل ذلك إلى شيوع نوع من الاغتراب السياسي بينهم[٥١].

ثانياً: المفهوم الناصري النظري في الاشتراكية والديمقراطية

في تلك المرحلة ظهرت أجواء فكرية جديدة في مصر بفضل قرارات التأميم ذات الطابع الاشتراكي، والتي كان من المتوقع أن تشد جماهير أوسع إلى أفكار عبد الناصر ونظام حكمه من منطلق أن القرارات تلك استهدفت خدمة مصالحها بالأساس.

١ ـ قرارات التأميم

دفعت مجمل التطورات التي شهدتها الساحة المصرية في شتى الميادين على مدى حوالى عقد من عمر الثورة، ولا سيما مناورات الأعداء الداخليين والخارجيين

---

(٥١) للتوسع انظر: عادل حمودة، **أزمة المثقفين وثورة يوليو** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥)، ص ١١٣ ـ ١٥٢؛ هلال، «تطور الايديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» ص ٤٨ ـ ٥٠، و Jean Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World* (London: Martin Co., 1971), pp. 124-126.

المتواصلة، الرئيس جمال عبد الناصر إلى إعادة في العديد من مواقفه وأفكاره باتجاه التعميق والتثوير، مما توافق مع الأجواء العامة التي هيأت أمزجة الأكثرية في العالم الثالث خصوصاً لتقبل الأفكار الاشتراكية. وقد نجم ذلك عن إخفاق الأنظمة القائمة في إيجاد حلول ناجحة لمشكلات المجتمع الأساسية، وعن مواقف الدول الرأسمالية غير الودية، وعن بعض النجاحات التي حققها الاتحاد السوفياتي، ولا سيما في ميدان الفضاء[٥٢]، وما رافقها من دعاية واسعة.

في مصر تحديداً صدرت في تموز/يوليو ١٩٦١ مجموعة من القوانين الاشتراكية[٥٣]، مما يعد نقلة نوعية في مسار تطور الفكر الناصري الذي بدأ يرنو إلى تغيير المجتمع والاقتصاد المصريين تغييراً جذرياً. فبمقتضى قوانين يوليو انتقلت إلى الدولة ملكية جميع المصارف وشركات التأمين الخاصة، وتسع وأربعون ومائة شركة صناعية وتجارية كبرى بصفة كلية أو جزئية. وتقرر تحديد الحد الأقصى لما يملكه أي شخص طبيعي، أو معنوي من أسهم بما لا يزيد على عشرة آلاف جنيه مصري، أو مائة ألف ليرة سورية. كذلك فقد احتكرت الدولة القطن وعمليات الاستيراد كافة، كما أسقط الالتزام الممنوح لشركة ليبون، وشركة ترام القاهرة، وانتقلت إلى أيدي الدولة تجارة الجملة، والمحلات التجارية الضخمة. وأخذت الدولة بمبدأ الضريبة التصاعدية على الدخل المرتفع، حتى أصبحت نسبة الضريبة ٩٠ بالمئة إذا زاد إيراد الفرد على عشرة آلاف جنيه.

وثمة أهمية واضحة للاجراءات التي اتخذتها حكومة جمال عبد الناصر في مجال العلاقات الزراعية. ففي الخامس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٦١ صدر قانون زراعي جديد خُفض بموجبه الحد الأقصى للملكية للفرد إلى مائة فدان، وبعد أقل من عام تقرر أن يصبح الحد الأقصى مائة فدان للأسرة.

وطوال الحقبة الممتدة بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٤ اتخذت حكومة عبد الناصر سلسلة من التدابير المكملة، والمطوّرة لقرارات يوليو، أسفرت كلها عن سيطرة الدولة على النظام المالي كله، وجميع المؤسسات الضخمة، وعدد كبير من المؤسسات المتوسطة والنقل، وبعض الشركات الإنشائية. وبفضل هذه الإجراءات أصبح القطاع العام

---

(٥٢) في الحادي والعشرين من آب/أغسطس ١٩٥٧ جرب الاتحاد السوفياتي بنجاح أول صاروخ عابر للقارات في العالم، وفي الرابع من تشرين الأول/اكتوبر من العام نفسه أطلق الاتحاد السوفياتي بنجاح أول صاروخ إلى الفضاء الخارجي في العالم، وفي الثاني عشر من نيسان/أبريل ١٩٦١ نجح يوري غاغارين لأول مرة في التاريخ في الانطلاق إلى الفضاء الخارجي، والدوران حول الأرض، مما ترك صدى عالمياً منقطع النظير.

(٥٣) انظر نصوص تلك القوانين في: شميس، **الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو**، ص ٢٢٩ - ٣٩٥.

يعطي في عام ١٩٦٥ حوالى ٥٨ بالمئة من جملة الانتاج الصناعي. وفي آذار/مارس ١٩٦٤ صدر قانون يلغي التعويض المنصوص عليه في قانوني ١٩٥٢ و١٩٦١ عن الأراضي المستولى عليها من الاقطاعيين، وفي الوقت نفسه تم تخفيض البدل الذي كان على الفلاحين دفعه نظير الأرض التي حصلوا عليها طبقاً لقانون الإصلاح الزراعي.

واقترنت القوانين والمراسيم الصادرة في الحقبة ذاتها بسلسلة من التدابير الاجتماعية المطبقة لصالح الجماهير الكادحة. فقد تقرّر جعل أسبوع العمل اثنتين وأربعين ساعة، ولأول مرة حصل العمال على الحق في المعاش (التقاعد)، والإجازة السنوية المدفوعة الأجر، كما حدد الحد الأدنى للأجر اليومي بخمسة وعشرين قرشاً، وأصبح العاملون بالقطاع العام يحصلون على ٢٥ بالمئة من الأرباح. وازداد عدد العمال والموظفين الأعضاء في مجالس إدارة الشركات والمؤسسات التي حظر على إدارتها ان تقوم بفصل تعسفي للعمال العاديين.

وفي السياق ذاته ينبغي أنْ نُشير إلى أن أحد قوانين تموز/يوليو ١٩٦١ نص على تحديد الحد الأقصى لما يجوز أنْ يتقاضاه رئيس مجلس إدارة أي شركة، أو مؤسسة، أو العضو المنتدب في المجلس، أو أي شخص يعمل في أي هيئة أو شركة أو جمعية، بحيث لا يتجاوز خمسة آلاف جنيه مصري، أو خمسين ألف ليرة سورية. وفي الحادي والعشرين من تموز/يوليو صدر قانون عدم جواز الجمع بين وظيفتين.

كان هذا الاندفاع في التحول الاشتراكي، او بالأحرى التطور غير الرأسمالي يعني، بشكل من الأشكال، وبلغة عبد الناصر وفكره في مراحل تطوره الجدلي، أن ثورة التحرر الوطني ما زالت مستمرة في ثورة التحرر القومي، وتتواصل كلتاهما في الثورة الاشتراكية.

أما فهم عبد الناصر للاشتراكية العلمية التي اعتمدها فكره السياسي منهجاً للبناء والتطوّر، فهو فهم يتصل أوثق الاتصال بفهمه للديمقراطية. لقد كانت بصمات عبد الناصر الفكرية السياسية واضحة في جدلية فهمه للاشتراكية والديمقراطية. فاشتراكية عبد الناصر التي يسميها «الاشتراكية العلمية» بعيدة عن الاشتراكية الماركسية، وعن الماركسية اللينينية بالذات، وبكل متطلّباتها في دكتاتورية البروليتاريا، والمادية التاريخية، وإلغاء الملكية الفردية، والموقف من الدين . . . الخ، بل كانت مزيجاً من الاشتراكية الوطنية (المصرية الفلاحية) واشتراكية تيتو، ومفاهيم نهرو وسوكارنو، خصوصاً فيما يتصل بتأميم المؤسسات والمشاريع الاحتكارية الامبريالية. فقد جاء في كتابات الباندیت نهرو في عام ١٩٣٣: «ان الحكومة الوطنية التي تترك المصالح الأجنبية كما كانت عليه قبل الاستقلال، يصبح استقلالها شبحاً من الأشباح»[٥٤].

إن طريق عبد الناصر إلى الاشتراكية طريق خاص، بالضرورة، توصّل إليه عن

---

(٥٤) نقلاً عن: موسوعة الهلال الاشتراكية، ص ١١٦.

طريق تجربته الخاصة، وانفتاحه على التجارب الاشتراكية العالمية. فهو يؤكد في الميثاق «ان الحلّ الاشتراكي هو المخرج الوحيد إلى التقدّم الاقتصادي والاجتماعي، وهو طريق الديمقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية». اما معالم الديمقراطية فتتحدّد لديه في الآتي:

أ ـ تحرر المواطن من الاستغلال بجميع صوره.

ب ـ إتاحة الفرصة المتكافئة له في نصيب عادل من الثروة الوطنية.

ج ـ تخليص المواطن من أيّما قلق يبدّد أمن المستقبل في حياته.

د ـ ان تكون الديمقراطية سلطة مجموع الشعب وليست سيطرة طبقة على طبقة.

وأما آلية البناء الاشتراكي في فكر عبد الناصر فتتحدّد، أساساً، فيما يلي:

ـ خلق قطّاع عام قادر يقود التقدم في جميع المجالات ويتحمّل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية.

ـ وجود قطّاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطّة الشاملة لها من غير استغلال.

ـ وجود قطاع الملكية التعاونية.

ـ فرض رقابة الشعب الشاملة على القطاعات الثلاثة بما يحقّق الصالح العام، وبالذات مصلحة الطبقات والشرائح الوطنية صاحبة المصلحة في بناء الاشتراكية[٥٥].

مهّد الرئيس عبد الناصر لمفهومه النظري هذا في الاشتراكية والديمقراطية بتأميم المصالح الأجنبية، وإجراءات يوليو الاشتراكية وقراراتها، وإنشاء «الاتحاد الاشتراكي العربي» باعتباره تنظيماً مطلوباً للاضطلاع بمهمات المرحلة القادمة الصعبة في ضوء ميثاق عمل وطني محدد.

٢ ـ ميثاق العمل الوطني

قادت قوانين وقرارات تموز/ يوليو ١٩٦١ الرئيس جمال عبد الناصر إلى إعادة النظر في عدد من الأفكار والمؤسسات السياسية ليطوّر نظام حكمه «على الطريق نحو

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١١٦ و١٧٠ ـ ١٧٦؛ **تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠**، مجموعة من المؤلفين (موسكو: أكاديمية العلوم السوفياتية، معهد الاستشراق، ١٩٧٦)، ص ١٢٣، وحمدي حافظ، **الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة** (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.])، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

الأهداف الكبرى» التي توخاها من تلك القوانين[٥٦]. لم تؤدِ عملية انفصال الإقليم السوري في الثامن والعشرين من ايلول/سبتمبر العام نفسه، والتي لم تجر بمعزل عن قرارات التأميم نفسها، دوراً أقل من ذلك في حصول انعطافٍ حاسم في تطوّر الفكر الناصري السياسي بخاصة، فقد تحوّل عبد الناصر من الوحدة، وقتياً، إلى تطوير الواقع المصري والمجتمع المصري[٥٧].

يمكن تفسير هذا التحول بإدراك عبد الناصر أن البناء والامتداد الأفقي لا يجدي مع استمرار التخلّف والتفاوت الاجتماعي والطبقي العميق، وان الأجدى هو تكريس الطاقات للبناء والامتداد العمودي، أي البناء داخل المجتمع المصري ذاته، وتحويله، بالاصلاحات ذات الطابع الاشتراكي، إلى «منارة إشعاع» للأقطار العربية[٥٨].

ليس من الصعب ملاحظة ظواهر هذا التحول في القناعة الفكرية السياسية لعبد الناصر. ففي خطابه «الى الشعب والأمة العربية» في السادس عشر من تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦١ اضطر عبد الناصر للإعلان صراحة عن وجود صراع طبقي، وللإقرار بوقوع أخطاء يمكن تجاوزها عن طريق رفض مصالحة الاستعمار والرجعية المحلية، وقال بهذا الصدد: «لا بدّ أن نقاتل الاستعمار في قصور الرجعية»[٥٩]، مما يؤلف تحولاً نوعياً في النظرة والتوجه. كما أقرّ عدم كفاءة التنظيم السياسي الحكومي، إذ قال «يجب أن يكون الاتحاد القومي[٦٠] أداة ثورية للجماهير الوطنية وحدها صاحبة الحق في التغيير الثوري». واعترف بعدم بذل الجهد الكافي في توعية الجماهير الواسعة بحقوقها، مؤكداً انه «إذا توقفت الثورة الشعبية قبل بلوغها أهدافها فإنها لا بد أن تنتكس». وفي السياق ذاته اعترف باستمرار العمل بنظم ولوائح وطرق قديمة، الأمر الذي سلب الجهاز الحكومي القدرة التي كان من شأنها أنْ تحوّله إلى «أداة فعالة للثورة» وتحول دون تسلل الانتهازيين إلى صفوفه، فإن «الثمن الذي دفعناه» كان «غالياً لتسلّل بعض العناصر الانتهازية» كما قال نصاً.

كانت هذه بداية مرحلة جديدة، نوعياً، يمكن وصفها بأنها بداية مرحلة النقد الذاتي ومواجهة الحقائق كما هي في الواقع، مما يعني إعلاناً رسمياً عن إخفاق نظرية

---

(٥٦) هلال، «تطور الايديولوجية الرسمية في مصر: الديمقراطية والاشتراكية،» ص ٤٨٤؛ سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ٣٧ ـ ٣٨، وعبد المنعم شميس، **الفجر الأبيض: ٢٣ يوليو**، كتب قومية؛ ٣٤٦ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦)، ص ٥٢ ـ ٥٤.

(٥٧) بيليايف وبريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، ص ٢٥١.

(٥٨) عبد الكريم أحمد، «التيارات الفكرية التقدمية في البلاد العربية في الستينات،» **الكاتب المصري**، العدد ١٢٨ (١٩٧١)، ص ٥، ورفعت السعيد، **في الناصرية**، ص ١٠٨.

(٥٩) انظر نص الخطاب في: **الأهرام**، ١٧/١٠/١٩٦١، و**الأخبار**، ١٧/١٠/١٩٦١.

(٦٠) كان الاتحاد القومي في ذلك الوقت هو التنظيم القائم.

التصالح الطبقي، ووجوب إجراء التغيير الحاسم. فقد أطلق عبد الناصر عبارته الشهيرة «لقد دقت ساعة العمل الثوري».

لم يأتِ هذا المخاض السريع اعتباطاً. فقبل كل شيء أثبت انفصال سوريا لعبد الناصر أن هناك مسافة كبيرة بينه كثائر، وبين أنْ يصبح حاكماً في نظام مستقر لا تزعزعه الانقلابات. وأثبت له، أيضاً، أن القوانين الاشتراكية كانت بذوراً صالحة، لكنها أُلقيت في أرض غير ممهدة، وليس هناك من يرعاها لتنمو وتثمر بصورة طبيعية(٦١).

وتوالت الإجراءات من أجل وضع أسس متكاملة للتغيير المرتقب في المرحلة القادمة. ففي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١ أصدر عبد الناصر بياناً سياسياً، معلناً عن خطة شاملة لإعادة تنظيم الحياة السياسية في مصر استهدفت:

أ ـ تشكيل لجنة تحضيرية لمؤتمر وطني يُعقَد للقوى الشعبية، مهمّتها اتخاذ التدابير لانتخاب ممثلين عن الشعب لمؤتمر عام يعقد في كانون الثاني/يناير ١٩٦٢.

ب ـ عقد مؤتمر وطني عام، يقدّم فيه الرئيس عبد الناصر ميثاق العمل الوطني في جلسة الافتتاح لمناقشته في جلسات علنية تُحدَّد فيها الأهداف وآليّة العمل اللاحقة(٦٢).

كان عبد الناصر يهدف من تشكيل اللجنة التحضيرية للإعداد لعقد مؤتمر وطني للقوى الشعبية تطوير التفاعل بين الجماهير وقيادة الثورة تمهيداً للانتقال إلى المرحلة الجديدة. وكان على اللجنة أن تتولى تعريف قوى الشعب الوطنية (من عمال وفلاحين وجنود ومثقّفين وبرجوازية وطنية)، وتحديد مَنْ هم الرجعيون، وستحدّد قيادة الثورة، في المنشور الذي ستصدره، أهدافها وبرامج عملها. كما ستتولّى اللجنة التحضيرية المقترحة (التي سيحضر جلساتها الرئيس عبد الناصر)، الإعلان عن المؤتمر والمنشور المقترح وإقراره، إضافة الى انتخاب اعضاء مجلس الأمة من داخل المؤتمر العام المقترح باعتباره الممثّل الحقيقي للشعب. وكان الاتجاه العام لدى أعضاء مجلس قيادة الثورة هو الإبقاء على نظام الدوائر الانتخابية والانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الأمة، وتقديم المرشّحين من (الاتحاد القومي)، مع السماح للمرشحين من خارجه بالمشاركة

---

(٦١) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٢: مجتمع عبد الناصر، ص ٢٠١؛ مقابلة مع مصطفى حمدون بتاريخ ٢٤ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٤، ومقابلة مع محمد الجراح بتاريخ ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤.

(٦٢) توفيق الشمالي، دقت ساعة العمل الثوري، تقديم كامل مهدي (القاهرة: الشركة التعاونية للطباعة والنشر، ١٩٦١)، ص ١٠، ٢١ و٣٩٣، وخالد محيي الدين، «جمال عبد الناصر كما عرفته،» الكاتب، السنة ١٠، العدد ١١٦ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، ص ١٦ ـ ١٧.

كمرشّحين من قوى الشعب بحسب التعريف المتفق عليه(٦٣). وكذلك تمّ الاتفاق على الخطوات التي ستُتخذ، وهي: إعلان البيان، وأعضاء الحكومة الجديدة، وإعداد المنشور، ثم الإعلان عن المؤتمر العام الذي سيقوم بمناقشته، وإعداد كشوفات بأسماء من مسّتهم القوانين الاشتراكية لمراجعتها، والنظر في أمر ما سيُتخذ تجاه بعضهم(٦٤).

عُقد الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١، ولم يعد مجلس الأمة قائماً. شُكّلت اللجنة من ٢٦٠ عضواً، منهم ٥٥ عسكرياً يعملون في مراكز مدنيّة، إلى جانب الوزراء والمحافظين، و٣٩ من أساتذة الجامعات، و٢١ من ممثّلي العمال، و١٩ من الجمعيات التعاونية للإصلاح الزراعي (كممثّلين عن القطاع الزراعي)، و٧ من رجال الصحافة والإعلام، و١١ سيدة. ولم يكن في اللجنة أحد من رجال الأحزاب. وقد عينّ أنور السادات أميناً عاماً للجنة، وعبد السلام بدوي سكرتيراً عاماً لها، وهو أحد الضباط أيضاً(٦٥).

تمّت مناقشة «ميثاق العمل» في ثماني عشرة جلسة مناقشة، عقدتها اللجنة التحضيرية للفترة من الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر ولغاية الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦١. وقد جرت المناقشات في أجواء من الصراحة التامة، عرض فيها الرئيس عبد الناصر أفكاره عن وجود صراع بين الطبقات ينبغي العمل على حلّه سلمياً، وعن تحديد المقصود بالشعب: هل هو الشعب كله؟ أم الطبقات صاحبة المصلحة في التحوّل الاشتراكي؟ كما طالب الرئيس عبد الناصر، من خلال مشاركاته في المناقشات، بأن يكون الحوار ديمقراطياً، وأن يجري بحرية تامة، قائلاً: «كل واحد يقول ما يريد أن يقول، وقد نصحّح وقد نردّ، نقول الكلام ونقول الرد، وبعد ذلك يقتنع ليعود ويقول إني اقتنعت...». كما أكّد الرئيس عبد الناصر أن الحرية ليست مطلقة «لأن الاشتراكية نفسها معناها عملية تنظيم للمجتمع بحيث تكون هناك كفاية، ويكون هناك عدل». ونقلت أجهزة الإعلام المختلفة مناقشات اللجنة، وشاهدت الجماهير رئيس البلاد يشارك، لأول مرة، في حوار مفتوح مع أعضاء اللجنة، حول التجربة النضالية المصرية. وقد أثارت المناقشات روحاً من الحوار الطلق، وأجواء ديمقراطية لم تشهدها مصر ما بعد الثورة(٦٦).

---

(٦٣) عبد اللطيف البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، ٢ ج (القاهرة: المكتب المصري الحديث، [١٩٧٧])، ج ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٦٥) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٢: مجتمع عبد الناصر، ص ٢٠١، وأحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الاشتراكية (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٣)، ص ٩٤.

(٦٦) سليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ٣٠.

وانتهت مناقشات اللجنة التحضيرية إلى اقتراح التالي:

ـ **العضوية**: يتكون المؤتمر الوطني من ألف وسبعمائة وخمسين عضواً، منهم الف وخمسمائة عضو منتخب، ويتوزّعون على قوى الشعب العاملة كلها بالإضافة إلى مائتين وخمسين عضواً من اللجنة التحضيرية(٦٧).

ـ **مواجهة القوى المضادة للثورة**: وضعت اللجنة قواعد لحرمان البعض من الحقوق السياسية. وفي ضوء ذلك صدر في كانون الثاني/يناير ١٩٦٢ قانون العزل السياسي للفئات التي حددّتها اللجنة ومنعها من مباشرة حقوقها السياسية لمدة عشر سنوات، وحرمانها من عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي، ويشمل ذلك الفئات التي تتقاطع مصالحها مع مرحلة البناء الاشتراكي(٦٨).

ـ **مشروع ميثاق العمل الوطني**: كوثيقة لبرنامج عمل ينطلق التحالف لتحقيقه وحمايته والدفاع عنه، والسير به إلى أمام باتجاه تحقيق آمال الجماهير وتطلّعاتها نحو الحرية والاشتراكية والوحدة(٦٩).

وفي الحادي والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٢ انعقد المؤتمر الوطني، حيث قدم الرئيس عبد الناصر مشروع ميثاق العمل الوطني، الذي أقرّه المؤتمر بعد مناقشة مستفيضة، ودون تعديل في المتن. وقال الرئيس عبد الناصر، خلال مناقشات المؤتمر: «إن المبادىء الواردة فيه عامة، ونتيجة تطلعات إلى مستقبل مملوء بالأماني، ووسيلة نقل من مجتمع متخلّف اجتماعياً واقتصادياً إلى مجتمع متقدم اجتماعياً واقتصادياً». كما أشار إلى أن هناك تناقضات في المجتمع «يجب أن نعمل على حلّها بالوسائل السلمية، ما أمكن»(٧٠).

كان الميثاق شاملاً إلى حدٍ بعيد، وكان ثمرة مناقشات معمقة تناولت ماضي المجتمع المصري وحاضره ومستقبله، وكانت رعاية الرئيس عبد الناصر للمؤتمر الذي تمخضت مناقشاته عن مولد **الميثاق**، دافعاً قوياً لإدامة حيوية الحوار، وترسيخ راديكالية اتجاهاته. فقد كشف **الميثاق** انحرافات الماضي ودانَها، وحدّد، كذلك، خطوات العمل الوطني واجراءاته لصيانة المكاسب الثورية(٧١).

---

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٦٨) إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٦٩) جلال يحيى، **الثورة والتنظيم السياسي**، المكتبة السياسية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٧٠) جمال عبد الناصر، «مناقشة اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني، نوفمبر ـ ديسمبر (تشرين الثاني ـ كانون الأول) ١٩٦١، وثائق عبد الناصر،» في: إمام، المصدر نفسه، ملحق، ص ٥٠١ ـ ٥٤٤.

(٧١) سعد التائه، «الناصرية والاشتراكية،» **الكاتب**، السنة ١١، العدد ١٢٩ (١٩٧١)، ص ٤٩ ـ ٥٠، وشميس، **الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو**، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

يتألف الميثاق من عشرة أبواب هي:

الباب الأول: نظرة عامة: في معطيات التجربة الثورية الرائدة في جميع المجالات، التي بدأها الشعب المصري، وواصلها في ظروف بالغة الصعوبة[٧٢].

الباب الثاني: في ضرورة الثورة التي تستطيع بها الأمة العربية ان تخلّص نفسها من الأغلال ومن رواسب الاستعمار والرجعية، وتعوّض من التخلّف الطويل السياسي والاجتماعي والاقتصادي[٧٣].

الباب الثالث: في جذور النضال المصري وارتباط مصر بالوطن العربي ارتباط الجزء بالكل عبر العصور المختلفة الممتدّة عبر التاريخ[٧٤].

الباب الرابع: في درس النكبة التي أعقبت ثورة ١٩١٩، والإشارة إلى حالة من اليأس تخنق كل حوافز الرغبة في التغيير، أو تلحق بها الشلل الذي يمنعها من الحركة[٧٥].

الباب الخامس: عن الديمقراطية السلمية. يعالج هذا الباب النظام السياسي الذي كان سائداً في مصر، وتحالف الإقطاع مع رأس المال المستغل تحت حماية الاستعمار، وتحديد مقوّمات الديمقراطية السليمة التي ينبغي أن تكون أساس الحكم في عهد الجمهورية بعد أن تمّ القضاء على الاستعمار والاقطاع[٧٦].

الباب السادس: في حتميّة الحلّ الاشتراكي طريقاً إلى الحرية الاجتماعية. فقد كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع والآمال العريضة للجماهير، وظروف العالم في النصف الثاني من القرن العشرين[٧٧].

الباب السابع: في الانتاج والمجتمع: حيث إن معركة الإنتاج هي التحدّي الحقيقي الذي سوف يثبت فيه الإنسان مكانه الذي يستحقه تحت الشمس[٧٨].

الباب الثامن: عن التطبيق الاشتراكي ومشاكله، وعن كون العمل الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع كي يحقّق أهدافه، كما أن الديمقراطية يجب أن تتحقّق في جميع

---

(٧٢) جمال عبد الناصر، الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ (القاهرة: الاتحاد الاشتراكي العربي، ١٩٦٢)، ص ٥ ـ ١٤.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ٢٣.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٣٦.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٨.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٦٨.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٨٤.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ١١٠.

مراكز الإنتاج، وضرورة تعرف القيادات على مشاكل الجماهير لحلّها[79].

الباب التاسع: عن الوحدة العربية وتحديد مسؤولية مصر في صنع التقدّم وحمايته في العالم العربي[80].

الباب العاشر: في السياسة الخارجية لشعب مصر باعتبارها انعكاساً أميناً وصانعاً لعمله الوطني وهي: الحرب ضد الاستعمار والسيطرة، والعمل من أجل السلام والمشاركة في التعاون الدولي من أجل الرخاء[81].

ولقد كان **الميثاق**، كما أسلفنا، خطوة متميزة، حقاً، على طريق الديمقراطية، وكان، مع قرارات يوليو الاشتراكية، علامة على التحول الفكري العميق في الناصرية باتجاه المزيد من الديمقراطية، والاقتراب من الاشتراكية، بالشكل الذي يفهمها به عبد الناصر. إن الجوهر الذي كرّس له عبد الناصر أقصى اهتمامه، واعتمده، في وثيقته الفكرية عن الميثاق ـ هو تحديد القوى الاجتماعية ـ الطبقية التي يضمها التحالف الوطني الديمقراطي الواحد، وهم: العمال والفلاحون والمثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية، وهذه قوى وشرائح اجتماعية تستطيع بتحالفها، فعلاً، تحقيق الثورة الوطنية الديمقراطية. وتبقى خارج هذا التحالف العناصر الاقطاعية والبرجوازية الكومبرادورية المتحالفة مع الاستعمار، والتي طُبقت عليها القرارات والاجراءات الاشتراكية. وكان هذا الإجراء، لو طُبق بشكل دقيق، كفيلاً بإبعاد الرجعية عن المشاركة والتأثير في الحياة السياسية. لكن الذي حصل هو غضّ النظر، والتساهل، الذي أدّى، بالضرورة، إلى تسلل الغرباء والمعادين، وتم ذلك، أحياناً ليست بالقليلة، عن طريق التزوير والتزييف. وحسبنا، هنا، أن نشير إلى ما يقوله أحد المراقبين الموضوعيين للخطاب الناصري، والبناء الوطني تحت المظلة الفكرية للناصرية السياسية: «ولم تكن الجماهير وحدها هي التي أدركت ذلك، بل ان عبد الناصر نفسه قد أدركه ربّما متأخراً بعض الشيء، لكنه أدركه على أية حال عندما قال: «أنا بقول إذا أردنا لنسبة الـ ٥٠ بالمائة المكفولة بالميثاق، ميثاق العمل الوطني للعمال والفلاحين أن تؤدي دورها في تحقيق التوازن بين قوى الشعب العاملة، ودفع التطور، فإنه لا بد من مقياس جديد يكفل ذلك أكثر، والتعريف الماضي سمح للكثيرين من كبار الزراع والملاك والرأسمالية الوطنية والموظفين أن يدخلوا عن العمال، وأنا بحثت وفكرت ووصلت إلى شيء مبدئي»[82].

---

(٧٩) المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١٢٣.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٢٧ ـ ١٣٢.

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٣٥ ـ ١٤٤.

(٨٢) شهدي، **تأملات... في الناصرية**، ص ١١٦.

يلاحظ انعطاف في الفكر الناصري في الميثاق والاجراءات الأخيرة، فقد بدأ يميل إلى حل التناقض بالعنف. لقد فرض منطق الأحداث نفسه على مجريات السياسة، وعلى عقلية القيادة ذاتها. فبعد الانفصال، وبعد إخفاق «الاتحاد القومي»، وبعد أن كشّرت الرجعية عن أنيابها، انتبه عبد الناصر إلى وجوب التغيير، ومواجهة الصراع الطبقي والاجتماعي بوسائل ثورية متقدمة، بما فيها العنف. وهكذا يمكن ان نفهم تصريح الرئيس عبد الناصر، وقتذاك، حيث قال: «نحن في الميثاق لا نستبعد العنف، وقلنا إذا الرجعية لم تَسِرْ معنا، إذا أخذت فترة لتهاجمنا وتهاجم مجتمعنا، بندخل معها في العنف إلى أقصى حد ممكن»[٨٣]. وقد تجسد هذا، بصورة أو بأخرى، في أعمال «الاتحاد الاشتراكي العربي» و «التنظيم الطليعي» بصورة خاصة.

٣ ـ «الاتحاد الاشتراكي العربي»

تحوّل الميثاق الوطني، الذي تم إقراره بصورة نهائية في الثلاثين من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٢، إلى البرنامج الفكري ـ السياسي للاتحاد الاشتراكي العربي الذي أعلن الرئيس عبد الناصر تشكيله بعد مرور أربعة أيام على إعلان الميثاق، ليكون بذلك التنظيم السياسي الثالث في عهد الثورة بعد «هيئة التحرير» و«الاتحاد القومي». قام أساس الاتحاد على الالتزام الكامل بمبادىء الميثاق الوطني بهدف تأليف كتلة قوية من أبناء الشعب، تذوب فيها الفوارق الاجتماعية، وتبعث روح العمل والاخلاص بين المواطنين من ذوي الوعي الاجتماعي الخصيب، ممن يرنون إلى حل مشكلات المجتمع، وتجاوز آفاته.

في ضوء ذلك بلور الرئيس عبد الناصر مهمات وفلسفة ومسؤوليات «الاتحاد الاشتراكي العربي» على النحو الآتي:

أ ـ إن الاتحاد الاشتراكي هو الإطار السياسي الشامل لعمل قوى الشعب المتحالفة (الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسماليون الوطنيون). يقول الرئيس عبد الناصر في ذلك «التنظيم . . يساعد على أن رغبة الشعب وإرادة الشعب تكون موجودة»[٨٤]. وهكذا فإن الاتحاد هو تنظيم سياسي لتكتل قوى الشعب العاملة لتجسيد مصالحها وأهدافها.

ب ـ ان طبيعة «الاتحاد الاشتراكي» ذات خصوصية خاصة، فقد قال الرئيس عبد الناصر في تحديدها، ان «الاتحاد الاشتراكي ليس حزباً، لكنه تحالف». فإنه

---

(٨٣) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٨٤) جمال عبد الناصر، «مناقشة اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، مايو (أيار) ١٩٦٢، وثائق عبد الناصر،» في: إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري،** ص ٥٠٠ ـ ٥٤٤.

يختلف عن تنظيمات الحزب، فهو يفتح أبوابه لجميع أفراد قوى الشعب العاملة، ويرفض مبدأ سيطرة طبقة على طبقة، ويعتمد على فكرة التفاعل السلمي بين قوى الشعب لتحقيق أهداف الميثاق[٨٥]. واستطرد يقول: «ان الوحدة الوطنية التي يصنعها تحالف هذه القوى الممثلة للشعب هي التي تستطيع أن تقيم الاتحاد الاشتراكي العربي ليكون السلطة الممثلة للشعب والدافعة لامكانيات الثورة، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة»[٨٦]. وإذن، فإن «الاتحاد الاشتراكي» يضم، كتنظيم سياسي شعبي، قوى الشعب العاملة المتحالفة في إطار الوحدة الوطنية، وهو يتخذ من الميثاق دليله في العمل باعتباره محصلة تجربة وتطلعات الشعب[٨٧].

ج ـ إن «الاتحاد الاشتراكي» بناء جماهيري كامل تقيمه الجماهير الثورية ديمقراطياً وتقوده بآمالها، ليكون أداتها بعد ذلك في قيادة العمل الوطني. فقد أكّد الرئيس عبد الناصر في الباب الخامس من الميثاق ذلك بقوله: «ان الحاجة ماسّة إلى خلق جهاز سياسي جديد داخل إطار الاتحاد الاشتراكي يجنّد العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها، ويطور الحوافز الثورية للجماهير، ويتحسس احتياجاتها، ويساعد على إيجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات»[٨٨].

د ـ «الاتحاد الاشتراكي» هو الطليعة الاشتراكية لقيادة الجماهير، وهو الذي يعبر عن إرادتها، ويوجه العمل الوطني، ويتولى متابعة سيره في خطه السليم في ظل مبادىء الميثاق.

وحدد جمال عبد الناصر، انطلاقاً من منظوره الفكري ـ السياسي، واجبات «الاتحاد الاشتراكي» على النحو التالي:

ـ رفع العمل الثوري ودعمه.

ـ حماية مبادىء الثورة وأهدافها.

ـ تصفية آثار تحكم الرأسمالية والإقطاع.

---

(٨٥) جمال عبد الناصر، **حول مفهوم العمل السياسي** (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٩٣)، ص ١٨ ـ ١٩، وسليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ٣٢.

(٨٦) عبد الناصر، «مناقشة اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، مايو (أيار) ١٩٦٢، وثائق عبد الناصر،» ص ٥٠٠ ـ ٥٤٤.

(٨٧) عبد الناصر، **الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢**، الباب ٥: «الديمقراطية السليمة،» ص ٥١ ـ ٦١، وإمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٣١١.

(٨٨) عبد الناصر، **الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢**، ص ٥١ ـ ٦١، والشرقاوي، «فكر جمال عبد الناصر والميثاق الوطني،» ص ١٢٦.

ـ النضال ضد تسلل النفوذ الأجنبي.

ـ النضال ضد تسلل الرجعية التي تم إسقاطها.

ـ النضال ضد تسلل الانتهازية.

ـ مقاومة السلبية والانحراف.

ـ منع الارتجال في العمل الوطني(٨٩).

كان لا بدّ لفاعلية التنظيم في مجموعه أن تنظّمها ضوابط محدّدة وجدت تجسيدها في مبادىء العمل في «الاتحاد الاشتراكي» الذي أشرف عبد الناصر بنفسه على معظم فعالياته، وصاغ وناقش معظم فقرات أنظمته، انطلاقاً من حقيقة وجوب تأدية التنظيم الجديد «دوره القيادي والتوجيهي والرقابي الفعّال» على أساس الالتزام بميثاق العمل الثوري الوطني(٩٠)، وقد تبلورت مبادىء العمل هذه في مقدمة قانون «الاتحاد الاشتراكي»(٩١).

وجاءت على النحو التالي:

ـ احترام الأقلية لإرادة الأغلبية، حتى لا يكون هناك أي مجال لقيام دكتاتورية في منظمات الاتحاد.

ـ كسب ثقة الشعب عن طريق الإقناع، لأن هذه الثقة هي السبيل إلى طاعة الجماهير لقيادتها طاعة ليست وليدة خوف، ولكن وليدة الاقناع، ولا تعطى القيادات في أي مستوى من المستويات حقوقاً مكتسبة تقيم دكتاتوريات داخل تنظيمات الاتحاد.

ـ النظام والطاعة في العلاقات بين القيادة والطليعة الاشتراكية، والاستعداد للبذل والتضحية وإقناع الجماهير.

ـ العمل على قيام علاقات سليمة بين منظمات الاتحاد وبين الشعب العامل.

ـ العمل على حل مشاكل الجماهير.

---

(٨٩) قانون الاتحاد الاشتراكي العربي، المادة رقم (٤)، «واجبات العضو العامل في الاتحاد الاشتراكي،» ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، وابراهيم جمعة، الميثاق والاتحاد الاشتراكي العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت.])، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٩٠) عبد الناصر، المصدر نفسه، الباب ٥: «الديمقراطية السليمة،» ص ٥١ ـ ٦٨، ويحيى، الثورة والتنظيم السياسي، ص ٣٢٩.

(٩١) عبد الكريم أحمد، «الميثاق في المعركة،» الكاتب المصري، السنة ١١، العدد ١٢٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١)، ص ٩.

ـ العمل على استمرار الدفع الثوري لدى الجماهير.

ـ اطلاع الجماهير على حقائق الأمور.

ـ عدم فرض السلطة أو ممارسة أي نوع من التعالي على جماهير الشعب العامل.

ـ الاعتراف بالأخطاء والمبادرة إلى إصلاحها[٩٢].

قام الهيكل التنظيمي للاتحاد الاشتراكي على الأسس التالية:

العضوية: يحقّ لكل مواطن من قوى الشعب العاملة الانتماء للاتحاد، شريطة الإيفاء بالشروط التالية:

ـ كونه مواطناً من رعايا الجمهورية العربية المتحدة.

ـ ان لا يقل عمره عن ثمانية عشر عاماً، وله حق الانتخاب.

ـ ان يكون مواطناً صالحاً غير مستغِلّ، وغير محكوم عليه بأحكام مخلة بالشرف.

ـ ان يؤمن بالميثاق، ويتعهد بالعمل في منظمات الاتحاد، ويعمل على تحقيق أهدافه.

ـ أن يقدم طلباً خطياً للانضمام إلى عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي[٩٣].

ويكتسب المنتمي للاتحاد العضوية إما بمستوى «عضو عامل» له حق الترشيح لمنظمات الاتحاد الاشتراكي العربي، وحق انتخاب أعضاء هذه المنظمات، أو بمستوى «عضو منتسب»، له حق انتخاب أعضاء منظمات «الاتحاد الاشتراكي العربي»، ولا يحق له الترشيح لها[٩٤].

واجبات العضو العامل في الاتحاد الاشتراكي العربي:

ـ أن يكون متمسكاً بالقيم الروحية والإنسانية.

ـ أن يطبّق القانون الأساسي للاتحاد الاشتراكي العربي.

ـ أن يحافظ دائماً على وحدة الاتحاد وتماسكه.

ـ أن يبذل قصارى جهده في تنفيذ ما يقرره الاتحاد الاشتراكي العربي، وما يكلف به من واجبات.

ـ أن يدرس قرارات منظمات الاتحاد باستمرار، ويتولى شرحها للغير.

---

(٩٢) قانون الاتحاد الاشتراكي العربي، المادة رقم (٤): «واجبات العضو العامل في الاتحاد الاشتراكي».

(٩٣) المصدر نفسه، المادة رقم (١): «عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي».

(٩٤) المصدر نفسه، المادة رقم (٢): «عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي».

ـ أن يقبل قرار الأغلبية حتى لو كان مخالفاً لرأيه.

ـ أن يكون قدوة حسنة لغيره، ومثالاً للمواطن الاشتراكي يحتذى به في محيط عمله.

ـ أن يعمل على رفع مستواه الفكري والعقائدي، وان يتعمق في فهم مبادىء الميثاق الوطني، ويتولى شرحها للغير[٩٥].

يقوم «الاتحاد الاشتراكي العربي»، كما حدد الميثاق، على أساس الانتخاب والمناقشة الحرة المفتوحة في كل المستويات. وتبدأ تنظيمات الاتحاد في الوحدة الأساسية ـ قاعدة تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي، وهي التي تتكون من القرية أو ما يماثلها في المؤسسة الجماهيرية. وتحدد هذه الوحدات وفق القرارات التنظيمية التي تصدرها اللجان التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي، ويجوز ان تشكل الوحدة الأساسية في القرية أو ما يماثلها في المؤسسة الجماهيرية وحدات فرعية للقرارات التنظيمية التي تصدرها اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي[٩٦].

وتتسَلْسَل **منظمات الاتحاد** من الأدنى إلى الأعلى كالتالي:

أ ـ مؤتمر ولجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي» للوحدة الأساسية في القرية، أو ما يماثلها في المؤسسة الجماهيرية.

ب ـ مؤتمر ولجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي» للمدينة أو القسم، أو ما يماثلها في المؤسسة الجماهيرية التي تتشكل منها أكثر من وحدة أساسية.

ج ـ مؤتمر ولجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي» للمركز.

د ـ مؤتمر ولجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي» للمحافظة[٩٧].

هـ ـ مؤتمر قومي عام ولجنة عامة ولجنة تنفيذية عليا «للاتحاد الاشتراكي العربي» للجمهورية[٩٨].

وتتمتّع مؤتمرات «الاتحاد الاشتراكي العربي» في جميع مستوياته، من القاعدة إلى المؤتمر العام، بالسلطة الشعبية العليا، كل في نطاق مسؤوليته. وتنعقد المؤتمرات دورياً لتحديد سياسة العمل وأهدافها في مجالسها، وتناقش التقارير المقدمة من لجانها التنفيذية

---

(٩٥) المصدر نفسه، المادة رقم (٤): «واجبات العضو العامل في الاتحاد الاشتراكي».

(٩٦) جمال عبد الناصر، الديمقراطية، من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر، كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣)، ص ١٠٥.

(٩٧) قانون الاتحاد الاشتراكي العربي، المادة رقم (٦).

(٩٨) المصدر نفسه، المادة رقم (٧).

عن سير العمل سياسةً وأهدافاً، محتفظةً بسلطة التوجيه وسلطة الرقابة.

ويُعتبر مؤتمر الاتحاد الاشتراكي للوحدة الأساسية أعلى سلطة على مستوى الوحدة، ويتكوّن من جميع الأعضاء العاملين في الوحدة الأساسية، وينعقد دورياً كل أربعة أشهر، أو يعقد دورات غير عادية بناءً على طلب لجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي» للوحدة الأساسية، أو ثلث عدد أعضاء المؤتمر. وتنبثق عن مؤتمر الوحدة الأساسية للاتحاد لجنة «الاتحاد الاشتراكي العربي»، وهي القيادة الثورية المحلية للنشاط والعمل، وهي الحلقة الأولى للاتصال بالشعب، ومنها تتكون القاعدة لكل منظمات الاتحاد، وعن طريقها يتم الاتصال الدائم بين جميع منظمات «الاتحاد الاشتراكي العربي» وجماهير الشعب العامل. وتتكون لجنة الاتحاد للوحدة الأساسية من عشرين عضواً وفق القرارات التنظيمية التي تصدرها اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي، ويشترك في انتخابها جميع المواطنين المقيدين في جداول الانتخابات العامة بالوحدة. وتجري الانتخابات العامة في الوحدة كل سنتين، وينتخب أعضاء اللجنة من بينهم أميناً مساعداً، وتجتمع اللجنة مرتين على الأقل شهرياً.

ويتبينّ من كل ما تقدم، أن إنشاء «الاتحاد الاشتراكي العربي» وآلية عمله، بالشكل الذي عرضنا له، كان خطوة متقدمة في اجتهادات عبد الناصر الفكرية، وحلقة متطوّرة بالنسبة للتنظيمين السالفين: «هيئة التحرير» و«الاتحاد القومي».

كان المطلوب من «الاتحاد الاشتراكي العربي»، في فكر عبد الناصر التنظيمي والسياسي في الستينيات، أن يكون الإطار السياسي الذي يدعم ويحمي المبادىء التي شرعها الميثاق الوطني، ويحول فكر الثورة إلى أعمال ملموسة تتحسسها الجماهير. فهل تمكن «الاتحاد الاشتراكي» فعلاً من وضع تنظيماته في مواقعها الصحيحة بين أجهزة الدولة؟ وهل عكس هذا الاتحاد فكر عبد الناصر في هذه المرحلة؟

لقد أُريد من «الاتحاد الاشتراكي العربي» أن يكون القوة الشعبية التي توحّد العلاقات بين سلطات الدولة الأساسية الثلاث: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية. ويتضح ذلك جلياً في ضوء «وظائف» هذا الاتحاد، التي لخصتها مقدمة قانونه[٩٩]، حيث نقرأ: «ان الاتحاد الاشتراكي العربي هو الطليعة الاشتراكية التي تقود الجماهير، وتعبّر عن إرادتها، وتوجه العمل الوطني، وتقوم بالرقابة الفعالة على سيره في خطه السليم في ظل مبادىء الميثاق . . . وهو الوعاء الذي تلتقي فيه

(٩٩) طعيمة الجرف، ثورة ٢٣ يوليو ومبادئ النظام السياسي في الجمهورية العربية المتحدة، ط ٢ (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٥)، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، وأديب ديمتري، «برنامج العمل الوطني وتقدم الثورة،» الكاتب المصري، السنة ٧، العدد ١١٧ (تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧١)، ص ١٨ ـ ١٩.

مطالب الجماهير واحتياجاتها. . .»[١٠٠]. ويمكن تحديد «اختصاص» الاتحاد الاشتراكي العربي من خلال علاقته بكل من السلطات الثلاث، على النحو التالي:

أ ـ علاقة الاتحاد بالسلطة التشريعية

حدد قانون «الاتحاد الاشتراكي» هذه العلاقة بهذا النص، الذي يقول: «ان الاتحاد الاشتراكي العربي، وهو السلطة الشعبية، يقوم بالعمل القيادي والتوجيهي، وبالرقابة التي يمارسها باسم الشعب، بينما يقوم مجلس الأمة، وهو سلطة الدولة العليا (من ناحية التشريع ورقابة تنفيذ التشريعات)، بتنفيذ السياسة التي يرسمها الاتحاد الاشتراكي. ومجلس الأمة هو الهيئة التشريعية، وباعتباره السلطة المسؤولة دستورياً عن التشريع، يشرّع وبحرية كاملة ما هو حق طبيعي له، ولا ينازعه فيه منازع ما دام ملتزماً بالقواعد والمبادىء التي أرستها الإرادة الشعبية، وضمنها ميثاق العمل. وتؤدي السلطة التشريعية وظيفتها وفق الدستور، ومهمتها رسم السياسة العامة للحكومة، والمشروعات التي ترى القيام بها، ومن بينها إقرار الميزانية العامة للدولة. وعندما يتولى مجلس الأمة تشريعاً للتوصيات الصادرة عن المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي فإن تلك التوصيات تأخذ صفة الإلزام باعتبارها صادرة عن الإرادة الشعبية. كما أن الدستور ضمن التزام مجلس الأمة بتنفيذ السياسة التي يرسمها الاتحاد الاشتراكي العربي باعتباره التجسيد الحي الدائم للإرادة الشعبية، كما أن القانون كفل المدى الذي يتحرك الاتحاد الاشتراكي في داخله ليؤدي مهمته في تحقيق سلطة الشعب بالرقابة والتوجيه بحيث لا يكون ثمة مساس من أي نوع بقدسية السلطة التشريعية[١٠١].

ب ـ علاقة الاتحاد الاشتراكي بالسلطة التنفيذية

وتتحدد هذه العلاقة من خلال المستويات التالية:

(١) علاقة تنظيمات القمة في الاتحاد الاشتراكي العربي بالمجلس التنفيذي وبالوزارات.

(٢) علاقة تنظيمات الاتحاد في مستوياتها القاعدية (في الوحدات الأساسية في القرى والمراكز والمدن والمحافظات) بفروع الوزارات في هذه المستويات.

(٣) علاقة تنظيمات الاتحاد الاشتراكي في مستوياتها المختلفة بهيئات الحكم المحلي في هذه المستويات[١٠٢].

---

(١٠٠) قانون الاتحاد الاشتراكي العربي، «علاقة الاتحاد بسلطات الحكم،»، وجمعة، الميثاق والاتحاد الاشتراكي العربي، ص ٢٥٨.

(١٠١) جمعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

لقد كرّس فكر عبد الناصر، على صعيد الدولة، وأولى أقصى الاهتمام لتنظيمات الاتحاد الاشتراكي في مختلف مستوياتها، مانحاً إياها، على صعيد النظرية والتنظير، حسبما نصّت قوانين الاتحاد والميثاق والتوجيهات والتفسيرات والقرارات المتعلقة بذلك، سلطات كبيرة، تكاد تكون استثنائية. فالميثاق يقول في باب «الديمقراطية السليمة»: «إن سلطة المجالس الشعبية المنتخبة يجب أن تتأكد باستمرار فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية، فذلك هو الوضع الطبيعي الذي ينظم سيادة الشعب»[١٠٣].

وقد تبلور هذا الاهتمام الاستثنائي بتنظيمات «الاتحاد الاشتراكي العربي» وصلاحياتها وسلطاتها ومكانتها في الدولة، بما يمكن تحديده في التالي:

ـ ان «الاتحاد الاشتراكي» في مستوى القيادة له الحق الشرعي، الذي استمده باعتباره تنظيماً شعبياً منتخباً يعلو بحكم تكوينه وغايته على كل المجالس الشعبية المنتخبة، ان يتقدم بتوصياته إلى المجلس التنفيذي والوزارات، لتشكّل الأساس في نشاط المجلس والوزارات. وتكون توصيات «الاتحاد الاشتراكي» ملزمة للمجلس والوزارات، وعدم الأخذ بها يدعو إلى مساءلة القائمين على الأجهزة التنفيذية من الوزراء وأعضاء المجلس التنفيذي، وبالشكل الذي يقرره الدستور.

ـ للاتحاد الاشتراكي العربي في مستوياته القاعدية (من الوحدات الأساسية في القرى والمراكز والمدن والمحافظات)، الحق الشرعي بتقديم توصياته ورغباته «المعبّرة، أساساً، عن رغبات الشعب» إلى فروع الوزارات لتكون أساساً لنشاطها، متسمةً بسمة الإلزام للأجهزة التنفيذية، وفق ما يقرره الدستور أو يحدده القانون.

ـ كما ان للاتحاد الاشتراكي، في أي مستوىً من مستوياته، وباعتباره تنظيماً شعبياً، الحق الشرعي في تقديم توصياته إلى هيئات الحكم المحلي. وهذه الهيئات شعبية ذات طابع تنفيذي، وهي تتلقى توصيات الاتحاد الاشتراكي التي تترجم الإرادة الشعبية، لتعمل على وضعها موضع التنفيذ، ولتجعلها الأساس في نشاطها، دون أن يتنافى ذلك مع الطبيعة الشعبية لهيئات الحكم المحلي هذه، ذلك أن لهذه الهيئات طبيعة أخرى تنفيذية، ومن ثم جاز إخضاعها لتوجيه ورقابة «الاتحاد الاشتراكي العربي».

ومن هنا، وتأسيساً على ما تقدم، فإن آلية الاتصال بين الاتحاد الاشتراكي، بمختلف مستوياته، وبين فروع الوزارات، وكذلك بين تنظيمات الاتحاد الاشتراكي وهيئات الحكم المحلي، تحتاج إلى ضبط محكم ومتابعة دقيقة صارمة، بحيث يؤدي كل منها وظيفته بيسر، دون مشاكل أو عقبات. ومن البديهي، وفي ضوء كل ما تقدم

---

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

شرحه، أن يكون للاتحاد الاشتراكي الحق في توجيه الأجهزة التنفيذية، وأن يكون من واجب هذه الأجهزة العمل على وضع توصيات وقرارات وتوجيهات تنظيمات الاتحاد الاشتراكي موضع التنفيذ[١٠٤]. ان «الاتحاد الاشتراكي العربي»، بطبيعة تكوينه، هو السلطة الشعبية التي تقوم بالعمل القيادي والتوجيهي والرقابة التي يمارسها باسم الشعب، وتقع عليه مسؤولية متابعة العمل الوطني في مختلف مجالاته، ودفعه إلى أهدافه. وباعتباره «وعاء كل السلطات»، وانطلاقاً من صلاحياته وامتيازاته الكبيرة للغاية، فإنه يملك الحق حتى في توجيه ومراقبة السلطتين التشريعية والتنفيذية، لأن هاتين السلطتين هما عماد التنظيم السياسي. بيد ان تحديد العلاقة بين «الاتحاد الاشتراكي العربي» وبين السلطتين التشريعية والتنفيذية يتطلب التدقيق البالغ، باعتبار ان الاتحاد الاشتراكي ليس بالسلطة التشريعية أو التنفيذية، وانما هو سلطة شعبية تعمل من خلال جماهير الشعب بهدف تنظيم حركتها السياسية، واستمرار الدفع الثوري لها. وعلى صعيد آخر، فإن أجهزة «الاتحاد الاشتراكي العربي» في مستوياتها المختلفة تعمل من خلال هاتين السلطتين التشريعية والتنفيذية. كما أن دستور الجمهورية ينص على وجوب منح الأجهزة الفنية، في نطاق السلطتين التشريعية والتنفيذية، قدراً من الاستقلال، بهدف الوصول إلى توازن معقول، وحدود واضحة. وهذا أمر جوهري لنجاح الدفع الثوري وعدم التضحية بالاعتبارات الفنية، التي هي، أيضاً، شرط جوهري لنجاح العمل الثوري. وبالإضافة إلى كل ما تقدم، فإن وجود رئيس الجمهورية، جمال عبد الناصر، نفسه، على رأس «الاتحاد الاشتراكي العربي» يضمن التعاون والتنسيق بينه وبين المؤسسات الأخرى، وخصوصاً مع السلطة التنفيذية المسؤولة عن تنفيذ قرارات وتوصيات وتوجيهات الاتحاد الاشتراكي ذي الصلاحيات الواسعة للغاية، وتسيير ماكنة الدولة وفق ما ترتئيه رئاسة الجمهورية، التي تترأس، بموجب قانون الاتحاد الاشتراكي، كما رأينا، الهيئة العليا لهذا الاتحاد.

ج ـ علاقة الاتحاد الاشتراكي بالسلطة القضائية

إن الديمقراطية لا تستقيم ولا تزدهر، بعيداً عن شتى امكانيات الانحراف عند التطبيق، إلا في ظل سيادة القانون. ولا تتحقق سيادة القانون عملياً إلا اذا قام على تطبيق القانون قضاة مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون، ولا يجوز لأية سلطة التدخل في قضايا العدالة أو شؤونها. وقد أكّد الميثاق استقلالية القضاء وسيادة القانون ركناً هاماً من أركان الحرية، بل ان توكيد هذه السيادة ودعمها هو «الضمان النهائي لهذه الحرية». بيد ان صلاحيات الاتحاد الاشتراكي وسلطته الواسعة، بموجب قانونه وبناء على دعم رئاسة الجمهورية، تفرض وجوب نشر السيادة الشعبية.

---

(١٠٤) شميس، الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو، ص ١٠٧ ـ ١١١.

ويقتضي كل هذا تطويع السلطة القضائية للرغبات الشعبية، عبر قرارات الاتحاد الاشتراكي، وذلك من حيث «تطوير التشريعات لتنسجم مع الأوضاع الجديدة في المجتمع الديمقراطي الاشتراكي»، ولتعاد صياغتها على ضوء المفاهيم الجديدة، فيستمد التشريع روحه وحدوده وضوابطه من واقع المجتمع ومتغيراته ومستجداته. وفي ضوء كل ما تقدم، فان إعادة صياغة النظرية العامة للقانون (صياغة التشريعات واللوائح) بما يتلاءم مع المفاهيم الثورية الجديدة أضحت أمراً محتماً[١٠٥]. ولما كانت السلطة القضائية وأجهزة العدالة مستقلة بحكم الدستور، فإن علاقة الاتحاد الاشتراكي تظل غير مباشرة. ولكن الوسيلة المثلى لتوكيد السيادة الشعبية ودعمها تكون بتطوير التشريعات لتلائم الأوضاع الجديدة وتطوراتها، ويكون ذلك من خلال توصيات واقتراحات الاتحاد الاشتراكي إلى المجلس التشريعي ليمارس سلطته في تشريع القوانين الجديدة، بينما يمارس الاتحاد الاشتراكي حق التوجيه والرقابة ومتابعة تنفيذ التشريعات، وضمان إعطاء كل ذي حق حقه، ونشر العدل بين الجميع[١٠٦].

د ـ علاقة الاتحاد الاشتراكي بالنقابات والتعاونيات

ينص المبدأ الرابع من مبادىء العمل في «الاتحاد الاشتراكي العربي» على حقيقة مهمة، تؤكد المزيد من خصوصية الاتحاد، وعلى «ان الاتحاد الاشتراكي العربي لا يحل محل النقابات والتعاونيات أو منظمات الشباب»، ذلك أن الميثاق كما قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في الحادي والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٢، يؤكد، بما لا يقبل الشك، على أن هذه التنظيمات الشعبية مستقلة، كبيرة بدورها، أصيلة بخصوصيتها. فالميثاق يقول، مثلاً، «إن التنظيمات الشعبية وخصوصاً التنظيمات التعاونية والنقابية تستطيع أن تقوم بدور مؤثر وفعال في التمكين للديمقراطية». ويؤكد الميثاق، أيضاً، أن نمو الحركة التعاونية والنقابية معين لا ينضب للقيادات الواعية التي «تلمس بأصابعها مباشرةً أعصاب الجماهير وتشعر بقوة نبضها»[١٠٧]. كما يؤكد، استطراداً، وفيما يخص المزارع التعاونية للفلاحين، «ان تعاونيات الفلاحين ـ فضلاً عن دورها الانتاجي ـ هي منظمات ديمقراطية، قادرة على التعرف على مشاكل الفلاحين، وعلى استكشاف حلولها»، «... وقد آن الوقت لكي تقوم نقابات للعمال الزراعيين». ويثمّن الميثاق دور العمال ونقاباتهم في البناء، والنضال الوطني، فيقول في ذلك: «... إن العمال لم يصبحوا سلعة في عملية

---

(١٠٥) جمعة، المصدر نفسه، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(١٠٧) عبد الناصر، الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢، الباب ٥: «الديمقراطية السليمة،» ص ٦٦.

الإنتاج، وانما أصبحت قوى العمل مالكة العملية الإنتاجية ذاتها، شريكة في إدارتها، شريكة في أرباحها تحت أوفى الأجور، وأحسن الشروط من ناحية تحديد ساعات العمل»، و «ان نقابات عمال الصناعة والتجارة والخدمات قد توصلت بقوانين يوليو العظيمة، إلى مركز طليعي في قيادة النضال الوطني». وهكذا يجعل القانون الأساس للاتحاد الاشتراكي العربي من النقابات والجمعيات التعاونية شخصيات معنوية بدعمها قيام الاتحاد، ولا يخل بنشاطها النوعي، ويشد أزرها، على كل المستويات، انطلاقاً من حقيقة «ان منتسبيها هم أصحاب المصلحة الحقيقية في الاشتراكية»(١٠٨).

وعلى صعيد آخر، فإن قيام «الاتحاد الاشتراكي العربي» لم يلغ المنظمات المهنية والجماهيرية، فهو مُنشأ ليكون التنظيم الأعلى الذي يشرف على كل التنظيمات، ويجعل منها حلقة الوصل بينه وبين القواعد الشعبية، متحولاً، بالتالي، إلى المنظمة الكبرى العليا التي تكون الإطار العام لكل المنظمات الشعبية التي تظل تمارس نشاطها المهني المتطور، بكل خصوصياته، في ظل «خيمة الاتحاد الرحبة». وحين يتيح الاتحاد لهذه المنظمات الشعبية المهنية الجماهيرية ممارسة نشاطها فإنه يهدف، بذلك، إلى تمكينها من تأمين الحرية والديمقراطية لممارساتها وكسب خبراتها في مجالات عملها، وتحقيق الكفاية الإنتاجية التي يتطلبها المجتمع الاشتراكي. وتظل مهمة الاتحاد الاشتراكي الكبرى مناقشة المسائل العامة على مستوى الجماهير(١٠٩). وفي المقابل تظل مهمة التعاونيات والنقابات، إضافةً إلى ممارسة نشاطها المهني المتطور، التوعية الثورية وتثقيف جماهيرها بما ورد في الميثاق عن الديمقراطية، والتحول الاشتراكي، والعمل والإنتاج، وتنمية الدخل القومي لرفع مستوى المعيشة، وما يعانيه انتقال ملكية المؤسسات إلى الشعب، والحفاظ على الكفاية الإنتاجية لهذه المؤسسات لإثبات أهلية الشعب لملكية القطاع العام التي ضمنتها قوانين يوليو الاشتراكية، مضافاً إلى أهمية التدريب المهني بأنواعه، منطلقاً أساساً، لتوفير أعظم قدر من الكفاية لتحقيق أهداف الانتاج ورفع مستواه، فضلاً عن «نشر الأخلاق والسجايا الاشتراكية» ليتعرّف النقابيون والتعاونيون على ما يجب توفيره في المواطن العامل الذي «قامت من أجله» الثورة السياسية، والثورة الاجتماعية، ليحتل مكانه الذي ينبغي في التنظيم السياسي الشعبي، ولإتاحة «الفرص المتكافئة» له «ليطوّر شخصيته وأسرته في المنطلقات الجديدة الرحبة»(١١٠).

---

(١٠٨) عبد الناصر، حول مفهوم العمل السياسي، ص ٧٣ ـ ٧٥، وجمعة، المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(١٠٩) إمام، الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(١١٠) عبد الناصر، حول مفهوم العمل السياسي، ص ٧٣ ـ ٧٥، وجمعة، المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٩.

هـ ـ علاقة الاتحاد الاشتراكي بمنظمات الشباب

إن علاقة «الاتحاد الاشتراكي» بمنظمات الشباب شبيهة بعلاقته بالنقابات والتعاونيات، التي أسلفنا الحديث عنها. فالاتحاد لا يلغي منظمات الشباب ولا يحل محلها، بل يقف منها «موقف الأب الراعي والموجه لأبنائه». إن الاتحاد، بموقفه هذا، يدرك أن للشباب في دور التكوين العديد من النشاطات البدنية والفكرية والروحية، يمارسونها في منشآتهم وأنديتهم. وبحكم قيام الاتحاد بالتوجيه والرقابة فإن صلته وثيقة بجميع تنظيمات الشباب، وهو يطوّر هذه الصلة باستمرار من أجل تنشئة الشباب «تنشئة ديمقراطية واشتراكية» وفق ما حدده الميثاق. وتتأكد هذه التنشئة وتزدهر بخاصة في الأطر التي رسمها قانون اتحاد الشباب الاشتراكي.

وعموماً كان من المتوقع أن يدعم نجاح وازدهار جميع هذه المنظمات الشعبية للعمال والفلاحين والشباب والشرائح الاجتماعية الأخرى، مهمات «الاتحاد الاشتراكي العربي» وخططه في «العمل الاشتراكي والتربية الاشتراكية»[١١١].

ومن هذا المنطلق كان من المتوقع للاتحاد الاشتراكي العربي أن يؤدي دوراً متميزاً في جميع المجالات، بما في ذلك الفكر والوعي لدى قطاع واسع من المصريين الذي قُدر عدد المنتمين منهم إلى الاتحاد بحوالى ستة ملايين ونصف مليون عضو حين وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في عام ١٩٧٠، غير أن صراع القمة المستفحل قد تحول إلى عقبة كأداء أمام تحقيق ذلك الحلم الرفيع.

ثالثاً: تجربة إنشاء «التنظيم الطليعي»

١ ـ توزيع مسؤوليات قيادة التنظيم والفكر في الاتحاد الاشتراكي وصراع القمة

كان جمال عبد الناصر هو الرئيس الأعلى للاتحاد الاشتراكي العربي، أما علي صبري فكان الأمين العام للاتحاد، وضمت أمانة الاتحاد في عضويتها كلاً من:

ـ كمال رفعت ـ أمين الدعوة والفكر، وتولّى مسؤولية أمانة الدعوة والفكر وشُعبها في المحافظات والوحدات الأساسية والجماهيرية، وهو المسؤول عن اختبار أمناء الدعوة والفكر في المحافظات وإبلاغهم التوجيهات، وتزويدهم بالنشرات والمطبوعات التي تدرس وتقرأ كمادة للمناقشات.

ـ عباس رضوان: أمين الاتصال للوجه القبلي، والمشرف على أمانات المحافظات

(١١١) جمعة، المصدر نفسه، ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

للوجه القبلي، ككلّ، من الجيزة إلى أسوان.

ـ كمال الحناوي: أمين الاتصال للوجه البحري والمشرف على أمانات محافظاته.

ـ أحمد طعيمة: أمين شؤون الموظفين والرأسمالية الوطنية، صاحب التاريخ المشهود في «هيئة التحرير»، وأحداث آذار/مارس ١٩٥٤ [١١٢].

ـ شعراوي جمعة: أمين أمانة التنظيم (للاتحاد)، وأمين التنظيم السري، مهمته قبول الأعضاء وإقرار عضويتهم، وفصلهم، ومحاسبتهم، اضافةً إلى مسؤوليته وزيراً للداخلية. وبهذه الصفات، مجتمعةً، كان عملياً أقوى شخصية في «الاتحاد الاشتراكي».

ـ علي السيد: أمين العمال، مهمته توثيق علاقات «الاتحاد الاشتراكي» مع نقابات العمال ووحداتهم في المؤسسات والشركات.

ـ حسين ذو الفقار صبري، شقيق علي صبري: أمين العلاقات الخارجية، المسؤول عن الاتصالات الخارجية بالأحزاب والمنظمات ووزارة الخارجية وغيرها.

ـ فتحي الديب: أمين الشؤون العربية، المسؤول عن الاتصالات بالمنظمات العربية في الخارج.

ـ عبد الفتاح أبو الفضل، أمين شؤون الأعضاء، وبالتحديد: الرقابة على نشاط الأعضاء وتحركاتهم، أو ما يسمى بأمن التنظيم.

ـ عبد المجيد شديد: أمين الشؤون الإدارية والمالية.

ـ د. ابراهيم سعد الدين: أمين المعاهد الاشتراكية.

ـ د. حسين كامل بهاء الدين: أمين الشباب.

ـ عبد الحميد غازي: أمين الفلاحين [١١٣].

وكان من المتوقع ان يقع الصدام بين أقطاب تنظيم «الاتحاد الاشتراكي» بسبب الخلاف في وجهات النظر بين كمال رفعت وعلى صبري، الذي سحب من رفعت سلطة ترشيح واختيار أمناء الدعوة والفكر بالمحافظات بذريعة أن لأمين الدعوة في كل محافظة صلاحية الدعوة والفكر فيها منطلقاً من الطابع الخاص لكل محافظة، وعليها أن

---

(١١٢) المقصود بأحداث آذار/مارس ١٩٥٤ الاضرابات المعاكسة التي وقعت لمجابهة محمد نجيب، ولقد أدى أحمد طعيمة دوراً سياسياً في تنظيمها. للمزيد من التفصيل، انظر: عبد العظيم رمضان، **عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤** (القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٧٦)، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(١١٣) سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ١١٥ ـ ١١٦.

تضع فكرها بما يتفق مع مجتمعها وبيئتها، بينما كان رأي كمال رفعت أن تبقى المسألة مركزية، فلا يمكن القبول بأن تكون محافظة ما اشتراكية، وأخرى رأسمالية. وكانت غاية علي صبري الأساسية، أن يمسك بأعنّة الحياة السياسية بصفته الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي كان يضم ملايين الأعضاء. وفي تضاعيف هيمنته على هذا التنظيم الجماهيري الواسع أدخل إلى الاتحاد، ووضع موضع التطبيق فكرة المكاتب التنفيذية، وتفرُّغ أعضائها للعمل السياسي، والتي تناظر مجلس الأمة. وكان من الطبيعي، والحال هذه، أن يقع الصراع بين علي صبري وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة لشتّى الأسباب، وأولها وأكبرها السلطات الكبيرة التي تجمّعت في يَدَي علي صبري. فعملياً كان علي صبري الرجل الثاني في مصر للفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧. وقد أثارت صيغة المكاتب التنفيذية قلق أنور السادات رئيس مجلس الأمة الذي كان يعتبره مملكته الخاصة. وعلى صعيد آخر، كان المشير عامر ينظر اليه بحذر شديد، متخوفاً من امتداد سلطات صبري الواسعة إلى داخل الجيش. وهكذا اكتسب علي صبري، نتيجةً لطموحه والآلية التي اتبعها في الحكم، عداء المؤسستين البرلمانية برئاسة السادات، والعسكرية برئاسة عامر![١١٤].

تحول هذا الصراع، الذي كان يفتقر إلى خلفية فكرية واضحة المعالم، إلى أحد الأسباب المهمة التي دفعت عبد الناصر إلى أن يقتنع بضرورة وجود تنظيم أضيق من «الاتحاد الاشتراكي العربي» يضمن تطبيق أفكاره وتطويرها بصورةٍ أفضل من جهة، ويحجم دور المؤسسة العسكرية من جهة أخرى، فكان ميلاد «التنظيم الطليعي» عبر مخاض غير سهل يعبر في واقعه عن الصراعات الخفية القائمة، والتي ظلت تؤلف حتى النهاية واحداً من أهم العوائق أمام تطور الفكر الناصري.

٢ ـ «التنظيم الطليعي» وتفاقم صراع القمة

ظل «الاتحاد الاشتراكي العربي» يحتل المكانة التي ينبغي له في ذهنية عبد الناصر ورؤيته الفكرية في الستينيات. وكان عبد الناصر يوصي، باستمرار، بتوسيع ملاكات هذا التنظيم السياسي، وبتغلغله في أوسع أوساط الجماهير الشعبية. ولما كان التوسع في منح العضوية للعاملين في «الاتحاد الاشتراكي العربي»، بموجب قانون الاتحاد باعتباره التنظيم الجماهيري الواسع الذي يشمل جميع القوى المتناقضة في مصالحها والموحدة في وطنيتها، ولكي يكون «الاتحاد الاشتراكي العربي» تجسيداً حقيقياً لقوى الشعب كلها، فإن نجاح العمل السياسي يقتضي وجود عناصر قيادية تحتاج إلى صفات لا تتوفر في الكثيرين، كما يتطلب بذل الجهود لكشف هذه القيادات القادرة على إقامة

---

(١١٤) المصدر نفسه، ص ١١٥ ـ ١١٦؛ شميس، **الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو**، ص ١١٦ ـ ١٢٤، وبلال، **تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة**، ص ١٦٦ ـ ٣١٢.

الروابط مع الجماهير، والدفع بها إلى مقام الصدارة لتكون بمثابة المحرك للجهاز كله، وتلك هي مهمة مرحلة الانطلاق[115]. ولما كان الفكر الناصري في الاتحاد الاشتراكي قد اعتمد صيغة التحالف لحشد الجماهير ودفعها للمشاركة في المجال السياسي، وفي عمليات البناء الاشتراكي، وبسبب شعور قيادة البلاد بعدم كفاية الاتحاد الاشتراكي، وبضعفه لاحقاً، فإنها جعلت تبحث عن أشكال جديدة لتنشيط العمل السياسي. ولذلك، فقد أشار الرئيس عبد الناصر إلى أنه «لا بد ان يقوم داخل التنظيم الجماهيري «تنظيم آخر ملتزم» تتوطد أفكاره، وغاياته تكون أكثر صلابةً وإيماناً وقدرةً على العمل، ووعياً بأهداف الثورة، وبمتطلبات النضال ليقود الجماهير ويكون وسيلة قوى الشعب العاملة لتحقيق الاشتراكية، كما أنه قلب تحالفها . . . الذي يحركه ويبعث فيه الحياة. .»[116]. وعلى صعيد آخر، فقد ورد في **الميثاق** أيضاً «ان الحاجة ماسة إلى خلق جهاز سياسي جديد داخل إطار الاتحاد الاشتراكي العربي يجنّد العناصر الصالحة للقيادة، وينظم جهودها، ويبلور الحوافز الثورية للجماهير، ويتحسس احتياجاتها، ويساعد على إيجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات»[117].

وعلى صعيد التطبيق، فان الرئيس جمال عبد الناصر دعا، فعلاً، في حزيران/ يونيو ١٩٦٣، الى عقد اجتماع ضم مجموعة من العناصر ذات الميول الفكرية المتباينة ممن تتوفر لديها خبرة في التنظيم والتجنيد الحزبي لمناقشة مسألة الجهاز السياسي الذي ورد ذكره في الباب الخامس من **الميثاق**[118]. فكان ثمة رأيان محددان:

الأول: إنشاء حزب سياسي حقيقي خارج الاتحاد الاشتراكي.

والثاني: إنشاء هذا الحزب في إطار الاتحاد الاشتراكي.

وقد ضمّت هذه المجموعة كلاً من علي صبري (آمر جناح، يعمل مديراً لمكتب الرئيس عبد الناصر، لم يرتبط بأي عمل جماهيري من قبل)، ومحمد حسنين هيكل (الإعلامي الكبير والمقرّب من الرئيس عبد الناصر، والميّال نحو الديمقراطية الغربية)، وأحمد فؤاد (الماركسي الوحيد، الذي كان يوصف بالاشتراكي، عضو الحركة

---

(١١٥) جمال عبد الناصر، «محضر الجلسة التي عقدها الرئيس جمال عبد الناصر في الهيئة البرلمانية في القاهرة ١١/٣/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ٤ ج (بيروت: الجامعة، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦)، ج ٣، الوثيقة رقم ٧٧، ص ١٤١ ـ ١٤٢، والأهرام، ١٣/٣/١٩٦٥.

(١١٦) عبد الناصر، المصدر نفسه، ص ١٤٢ ـ ١٥٨.

(١١٧) عبد الناصر، **الميثاق**، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢، ص ٦٥، وجمال عبد الناصر، **على طريق الاشتراكية: من أقوال جمال عبد الناصر**، كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤)، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١١٨) سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ٦١ ـ ٦٢.

الديمقراطية للتحرر الوطني «حدتو» قبل الثورة، تولّى رئاسة مجلس إدارة **روز اليوسف** ورئاسة مجلس ادارة بنك مصر)، وسامي شرف (ضابط مخابرات عيّنه الرئيس عبد الناصر سكرتيراً للجنة). ولم يكن حسين الشافعي موجوداً في الاجتماع باعتباره الأمين العام للاتحاد الاشتراكي، لأن الرئيس عبدالناصر لم يطلب منه أن يحضر.

إن هذه المجموعة التي اعتمدها عبد الناصر نواةً للتنظيم السياسي، كانت متباينة الميول الفكرية. وقد استفسر احمد فؤاد من الرئيس عبد الناصر عن مدى التجانس بين عناصر المجموعة، فأشار عبد الناصر إلى ان «علي صبري ومحمد حسنين هيكل هما أكثر الناس تأثراً بفكري. وبرغم أصولهما الفكرية البعيدة عن الاشتراكية، الا انهما يعبران عن مرحلة من مراحل التحول الفكري إلى الاقتناع بها»[119].

استقرّ اعضاء اللجنة على الرأي الثاني، أي إنشاء ما يسمى بالتنظيم السياسي السري في إطار الاتحاد الاشتراكي، وبالفعل، بدأت قيادة البلاد مساعيها بهذا الاتجاه[120]. ومن حيث الجوهر، فإن فكرة الجهاز السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي تتشابه مع تنظيم رابطة الشيوعيين اليوغسلاف داخل الاتحاد الاشتراكي في يوغسلافيا. وفي مصر أطلق على هذا الجهاز اسم «طليعة الاشتراكيين»[121]، أو «التنظيم السري السياسي»، أو «الجهاز السري»[122]. وقال الرئيس عبد الناصر لأحمد فؤاد انه يبتغي تنظيماً منضبطاً مثل التنظيمات الشيوعية، وانه لا يجد في نفسه خلافاً شديداً مع الماركسية. وتم الاتفاق في الاجتماع على قيام كل واحد من المجتمعين بالاتصال بمجموعة من الذين يثق بهم، وان يتم تشكيل خلايا منهم لا يتجاوز عدد أعضاء كل خلية العشرة، واشترط الرئيس عبد الناصر ان يكون التنظيم سرياً، والا يقبل الأعضاء فيه الا بعد موافقته الشخصية. وكانت دوافع عبد الناصر الى التزام هذه السرية الشديدة، وكما قالها لأحمد فؤاد، وأعلنها فيما بعد في مؤتمر المبعوثين في الاسكندرية في آب/أغسطس ١٩٦٦، تنحصر فيما يلي:

أولاً: منع تكتّل القوى ضد العناصر المختارة في طليعة الاشتراكيين، ومحاولة الإساءة إلى سمعتها.

ثانياً: الحرص على ألاّ يستغلّ أحد وجوده في الجهاز السياسي سواءً في مكان عمله، أم في أي مكان آخر[123].

---

(١١٩) نقلاً عن: حروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢٤١، ومحمد جلال كشك، **كلام لمصر** (بيروت: دار الوطن العربي، [١٩٧٥])، ص ١٦١.

(١٢٠) بيليايف وبريماكوف، **مصر في عهد عبد الناصر**، ص ١٥٤.

(١٢١) حروش، المصدر نفسه، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١٢٢) إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**، ص ٣٢٦.

(١٢٣) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

وتمّ الاتفاق على تشكيل لجنة خاصّة ضمّت كلاً من أحمد فؤاد، وأحمد حمروش، والدكتور عبد المعبود الجبيلي. وكان الرئيس عبد الناصر يولي هذا التنظيم السياسي أقصى الاهتمام، ويعقد عليه آمالاً كباراً.

وقد تم التأكيد على خصوصية تشكيل جماعات الأعضاء في التنظيم الجديد، وهي خصوصية السرية البالغة والتكتّم والاتصال عن طريق القادة فقط. وتمّ تشكيل الخلايا السرية داخل القوات المسلحة والوزراء وجريدة الأهرام. وكان المشير عبد الحكيم عامر قد علم بإجراءات تشكيل التنظيم الطليعي، من الرئيس عبد الناصر نفسه. فاتصل عامر بشمس بدران ليكلّفه بتكوين الجهاز السري داخل القوات المسلحة. واتصل شمس بدران بعباس رضوان الذي بدأ بتشكيل مجموعة كان من بين أعضائها شعراوي جمعة، محافظ السويس. أما على صعيد الوزراء، فقد شكل علي صبري مجموعته من عبد المنعم القيسوني، واحمد توفيق البكري، وعبد المحسن أبو النور، ومحمد فايق، وعبد المجيد فريد، ومحمد أبو نار، وعبد المجيد شديد (عضو أمانة الاتحاد الاشتراكي)، اضافةً إلى ثمانية ضباط. وأما على صعيد جريدة الأهرام، فقد اتصل رئيس تحريرها محمد حسنين هيكل بعدد محدود من منتسبيها، وهم: محمد الخفيف، والدكتور ابراهيم سعد الدين، والدكتور ابراهيم الشربيني، والدكتور عبد الرزاق حسن. وانتهى التشكيل القومي لتنظيم الجهاز السري، في مرحلته الأولى، إلى عدد من الشخصيات المحيطة بالرئيس عبد الناصر، لتكليفهم بمسؤولية الاختيار والتجنيد، وهم: علي صبري واحمد فؤاد وكمال رفعت وعباس رضوان ومحمد حسنين هيكل. وتمخّض كل ذلك عن تشكيل أمانة الجهاز السري برئاسة شعراوي جمعة، وكان في قمة الأمانة الرئيس عبد الناصر نفسه، وعلي صبري. وكان أعضاء هذه الأمانة هم: أحمد حمروش، والدكتور حسين كامل بهاء الدين، وأحمد شهيب، وأحمد كامل، ومحمد المصري، ومحمد عروق، والدكتور عبد المعبود الجبيلي، وسامي شرف، وأمين عز الدين، وكمال الحناوي، ومحمود أمين العالم، ويوسف غزول، وحلمي السعيد[١٢٤].

ومما تقدّم نستنتج بأن القاعدة الأساسية للتنظيم الطليعي كانت تتشكّل من جماعات عمل منفصلة، الواحدة عن الأخرى، مكونة، وقتذاك، بتعليمات خاصة من الرئيس عبد الناصر، لإعداد مقترحات وتوصيات فيما يتعلّق بالايديولوجيا والبناء الحزبي. واتّسم عمل أمانة الطليعة الاشتراكية بطابع النشاط البالغ، فقد كانت تعقد اجتماعاتها الدورية الأسبوعية وترفع، باستمرار، تقاريرها السياسية إلى المستويات

---

(١٢٤) لتفصيلات هذه القضايا، انظر: سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ٦٤ ـ ٦٥ و٦٧ ـ ٧٢.

الأعلى للدراسة، فكان الرئيس عبد الناصر يؤشر عليها ملاحظاته في اليوم ذاته لترسل إلى الوزراء المختصين. وكان التنظيم يصدر نشرة دورية سرية (مرقمة، بطريقة تكشف عن صاحبها في حالة فقدانها أو انتقالها أو تسربها)، يجري توزيعها على أعضاء التنظيم السري. ولم تكن هذه النشرة السرية الوحيدة التي يتم توزيعها على أعضاء التنظيم السري، بل كانت توزع عليهم، كذلك، نشرات المكاتب التنفيذية. وكانت هذه المكاتب شكلاً تنظيمياً في «الاتحاد الاشتراكي» أوجده علي صبري ليواجه به مجلس الأمة، حيث كانت قيادة هذه المكاتب هي التي تقود العمل في الاتحاد وتخضع لعلي صبري نفسه. وقرر علي صبري مبدأ التفرغ السياسي لأعضاء المكاتب، ومنح رواتب لهم بمعدل راتب نائب وزير لأمين كل محافظة، وللمنتدب ما بين ١٠ بالمئة و٢٥ بالمئة من ذلك الراتب.

لقد أشغل التنظيم الطليعي مكانةً رفيعةً في فكر عبد الناصر، وكان دائم الاهتمام به وبتوسيع ملاكاته. وبادر عبد الناصر نفسه فضم إلى التنظيم بعض الضباط المقربين اليه، وهم: أمين هويدي وزير الإعلام، وحلمي السعيد وزير الكهرباء، وعبد المجيد فريد أمين القاهرة، وسامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات، ومحمد فايق سكرتير الرئيس لشؤون افريقيا، وعلي السيد علي ممثلاً للعمال[١٢٥]. وكان الهدف الأساس من كل ذلك هو خلق اتصال مستمر ووثيق بين القاعدة والقيادة. بما يمكّن القيادة من تلبية طلبات القاعدة، وبما يعزّز اتجاهات القيادة وفكرها. وتغيّر تركيب الأمانة لتغدو مشكّلة من تسعة ضباط، عمل خمسة منهم في المخابرات، إضافةً إلى أربعة مدنيين. وكان من واجبات التنظيم الأساسية كتابة التقارير إلى مركز السلطة باعتبارها السند الرئيس للشخصيات المختلفة، وتقديم المعلومات والأخبار. وأصبح أهم نشاطات أعضاء التنظيم كتابة التقارير عن اتجاهات الرأي العام إلى السلطة، فتحوّل التنظيم، في إحدى أهم وظائفه، إلى جهاز لنقل المعلومات، وخصوصاً بعد تولي ضباط المخابرات السابقين المسؤولية السياسية فيه. وعندما عين شعراوي جمعة أمين التنظيم في الاتحاد الاشتراكي، وأمين أمانة طليعة الاشتراكيين، في الوقت ذاته، وزيراً للداخلية، فإن جميع سلطات الأمن السياسي وغير السياسي تجمعت في يديه، كما ان التنظيم الذي يترأسه الرئيس عبد الناصر ضمّ أعضاء مجلس قيادة الثورة جميعهم، باستثناء الذين خرجوا قبل تموز/يوليو ١٩٦٣.

وكان التنظيم السري في ميدان الصحافة مرتبطاً بعبد الناصر، ثم أُسندت مهمته إلى علي صبري، وبعد ذلك توزّعت مسؤوليته بين علي صبري وشعراوي جمعة وكمال حناوي وأمين هويدي. وكان الرئيس حريصاً على إنشاء التنظيم في كل منطقة، أو

---

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٦٤ ـ ٦٧.

مؤسسة، أو وزارة، حيث كلّف كل وزير، وكل ضابط من الضباط الأحرار، وكل مسؤول بذلك. فأنشأ علي صبري رئيس الوزراء، آنذاك، التنظيمات في الوزارات والقطاع العام، وأنشأ زكريا محيي الدين تنظيماً داخل الجهاز المركزي للشباب الذي كان يشرف عليه. كما أنشأ السادات رئيس مجلس الأمة شعبة للتنظيم، بعد اختياره عدداً من الأعضاء لها، كان بينهم حافظ بدوي، وعدد من نواب الوجه القبلي. وتحوّل التنظيم نوعياً (أي إلى تنظيم ذي صفة نوعية) ليشمل جميع القطاعات (الزراعة، والصناعة، والثقافة، والصحافة، والخدمات... الخ)، ثم أصبح جغرافياً ليكون كل عضو تابعاً للتنظيم في مقر عمله أو إقامته. بينما بقي التنظيم في الصحافة نوعياً لأنه اقتصر على ضمّ العاملين في المؤسسات الصحفية[١٢٦].

لقد كانت الاجتماعات تُعقَد اسبوعياً لكل شعبة، ويتم عقدها في بيوت الأعضاء، بالتبادل، ويُكتَب محضر بما يدور في الاجتماع، ويُسلَم إلى ضابط الاتصال، الذي يقوم بتوصيل التقارير إلى المسؤول الأعلى، ويتسلّم منه النشرة، أو أي شيء مطلوب ايصاله إلى أعضاء الشعبة. وكان الموضوع الأساس الذي تتمّ مناقشته في الاجتماع بتوجيه من المسؤول الأعلى، ثم تتم مناقشة بقية الموضوعات. وكانت نشرة «طليعة الاشتراكيين» تصل إلى الأعضاء كل اسبوعين، الا في الحالات الاستثنائية. ويوقع كل عضو على استلام النشرة في كشف يُسلَم إلى المسؤول الأعلى.

وعلى الرغم من الضوابط الصارمة العديدة لقبول الأعضاء، ولا سيما الشرط الأساس الذي لا يُتسامَح فيه أبداً، وهو الإخلاص لعبد الناصر، فإن التنظيم الطليعي، بالشكل الذي طُرح فيه، كان يستحق هذا التشدّد المفرط. فالآمال التي كان عبد الناصر يعقدها عليه كانت كبيرة، منها قناعته بأن أعضاء التنظيم سيوجّهون، بالتأكيد، جميع جهودهم ونشاطاتهم للتعبئة الجماهيرية، وضمان نجاح التحوّلات الاقتصادية الثورية في ميادين الحياة المختلفة. وكانت احدى المهمّات الأساسية التي كان ينبغي للتنظيم الطليعي الاضطلاع بها، هي حماية النظام ودعمه، والدفاع عنه، وكشف القوى المعادية له. وكان أعضاء التنظيم في حالة استعداد دائم لدفع خطر العناصر التي تحاول التطاول على النظام، إضافةً إلى مهمة التعرّف الدائم على اتجاهات الرأي العام. ومع ذلك، فإن النشرة المسمّاة **طليعة الاشتراكيين**، والصادرة بمناسبة زيارة شو إن لاي إلى القاهرة قد تسرّبت إلى موسكو عن طريق الملحق الثقافي السوفياتي في القاهرة. وقد تضمنت النشرة بعض الآراء المناهضة للسوفيات، تحت عنوان «الاستفادة من التناقض الصيني ـ السوفياتي»[١٢٧]. ولدى التحليل، نجد ان

---

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٦٧ و٧٠ ـ ٧٢.

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٧٢.

دوافع التسرّب تؤكد لنا ان صراع القمة كان حاداً بين قادة التنظيم الطليعي، لأنها قيادات مختلطة تجمع بين السلطة والحزب، إضافةً إلى الثغرات في مسألة اختيار الكوادر القيادية، وهذا يعني قدرة قادة التنظيم الطليعي لتحويل التنظيم السري بما يخدمهم، ويحولهم إلى مراكز قوى لخوض صراع السلطة، على النقيض تماماً لرغبة عبد الناصر وقناعاته الفكرية.

ولما كانت «طليعة الاشتراكيين» قد أنشئت للحاجة الماسّة لإيجاد تنظيم داخل **الاتحاد الاشتراكي**، يوجّه خطواته ويقودها، فإن هذا التنظيم كما أراده الرئيس عبد الناصر ليكون السَّند القوي لثورة يوليو، والبديل من الجيش، قد أثار حفيظة المشير عبد الحكيم عامر الذي كان يرى في الجيش القاعدة والسّند الأكيد لثورة يوليو، بغضّ النظر عن الطريق الذي سارت فيه ثورة يوليو بعد صدور **الميثاق** في العام ١٩٦٢، وهو ما سمّي بالطريق العربي إلى الاشتراكية، حيث كان أمراً بالغ الصعوبة، إنْ لم يكن مستحيلاً، اقتناع قادة الجيش بأن يفلت الحكم من قبضتهم ليكون في أيدي تنظيمات سياسية بعضها علني، وبعضها الآخر سرّي تعتمد على التمثيل الشعبي، وتستند إلى فكرة وعقيدة ينهض بها ثوريون ودعاة، أداتهم الحوار والإقناع بدلاً من السلاح.

كان ثمة صراعٌ حاد على صعيد القمّة بين المؤسّسة العسكرية والمؤسّسة السياسية. وكانت المؤسّسة العسكرية تمثّل في القيادة السياسية بالقائد العام للقوّات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر، الذي كان واسع النفوذ في أوساط الجيش، قادراً بحكم منصبه وصلاحياته الكبيرة على اتخاذ قراراته مستقلاً عن المؤسّسة السياسية[١٢٨]. وعندما علم المشير عامر من الرئيس عبد الناصر بالخطوات الجادّة المتّخذة في بناء التنظيم السياسي داخل «الاتحاد الاشتراكي»، فإنه فهم أن الرئيس عبد الناصر إنما يريد بذلك ان يجعل للمؤسّسة السياسية قوّة تستطيع بها مواجهة المؤسسة العسكرية لتقليص دور الجيش في ممارسة السلطة الفعلية، وإسنادها إلى مؤسسات شعبية حقيقية. وقد تأكّد ذلك للمشير عامر حين أُلحقت بنصوص **الميثاق** فقرة بالغة الأهمية والدلالة، تسجّل تطوراً نوعياً كبيراً في الفكر السياسي الناصري. وهي التي تقول: «إن جماعية القيادة أمرٌ لا بدّ من ضمانه في مرحلة الانطلاق الثوري. إن جماعية القيادة ليست عاصماً من جموح الفرد فحسب، وإنما هي تأكيد للديمقراطية على أعلى المستويات،

---

(١٢٨) للتفصيل حول مواقف عبد الحكيم عامر من «التنظيم الطليعي»، انظر: البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ٢، ص ٦٦٧؛ عبد الرحمن، **الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية**، ص ١١٠، وابراهيم سلامة، «مناداة الخريف في مصر،» **الدستور** (بيروت) (٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٢)، ص ١٠.

كما انها، في الوقت ذاته، ضمان للاستمرار الدائم المتجدد»[129]. وحين انطلق التنظيم إلى الوجود تحقّق المشير من جديّة التحوّل. ومع ان الرئيس عبد الناصر أبلَغَ المشير عامر بنفسه بتشكيل التنظيم وضرورة إنشاء فرع له داخل القوات المسلّحة، كما أسلفنا القول، ومع أن الرئيس عبد الناصر ظنّ ان المشير عامر سيأخذ ذلك مأخَذَ الجد، إلا أن المشير لم يمتثل، ذلك أنه لم يكن يعمل وحده، بل كان تحيط به مجموعة من الضباط كان همّها الوحيد تنصيب الجيش ولياً شرعياً على مصر، وبالمقابل لم تكترث بواجبها الأساس: الدفاع عن البلاد وبناء جيش قويّ يأخذ في الاعتبار التطوّر الهائل في الأسلحة وصناعة آلة الحرب في مواجهة «العدو الاسرائيلي» المسلّح بأفضل صنوف الأسلحة الحديثة وأشدّها فتكاً. وعلى العموم أيقن المشير بأن الرئيس عبد الناصر سيتخذ موقفاً حاسماً، وما دام التنظيم السياسي الجديد هو أحد المواقع الاستراتيجية الهامة في حكم الشعب، فإن عليه أن يتسلّل إليه! وقد عهد المهمة إلى شمس بدران الذي عقد اجتماعاً خاصاً لمجموعة من الضباط الذين تضخّمت ثرواتهم جراء الامتيازات وألوان الإغداق المختلفة، واتخذوا قرارهم الذي ترجموه عملاً تخريبياً، بعدم تسييس الجيش، وعرقلة عمل «التنظيم الطليعي» داخل الجيش وخارجه[130]. وقد عبّر هذا الموقف عن نفسه مراراً في قضايا جوهرية أخرى[131]، مما تحول إلى عقبة كأداء أمام تطبيق أفكار عبد الناصر ومشاريعه.

أدى اليسار المصري في تلك المرحلة دوراً مغايراً، مما يؤشر تطوراً واضحاً في مسار انفتاح الفكر الناصري، وتجاوزاً لمرحلة سابقة ارتكب فيها الجميع أخطاء فكرية مختلفة بدرجات متفاوتة. وهذا تحولٌ مهم يسجل الفضل الأول لوقوعه لشخص الرئيس عبد الناصر دون منافس، وهو عودة إيجابية إلى النهج الذي انتهجه قبل الثورة مع جميع قوى المعارضة، بل انه تجاوز بعض ظواهر حساسياته وحذره السابق في هذه المرحلة، بحيث إن التعامل الجديد اختلف نسبياً ودرجياً عن الحالات السابقة كافة. فقد وزّعت داخل «التنظيم الطليعي» توجيهات صادرة من القيادة السياسية للثورة بعنوان «دراسة دخول الشيوعيين في التنظيم الطليعي من عدمه»، وتم الإفراج عن الماركسيين المصريين وغيرهم من اليساريين[132].

أظهرت المناقشات داخل مجموعات «التنظيم الطليعي» بأن الشيوعيين قد تلقوا

---

(١٢٩) عبد الله إمام، ناصر وعامر (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٥)، ص ٥٦؛ البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٢ و١٧٢، وعبد الرحمن، المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٣٠) إمام، المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٣١) نعود إلى تفصيلات بعض جوانب هذا الموضوع فيما بعد.

(١٣٢) تم اعتقال العديد منهم في ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠.

وعداً بدخولهم فوراً في التنظيم الجديد، وإشغالهم فيه المراكز القيادية التي يستحقّون شريطة حلّهم التنظيمات الشيوعية السرية. وجاء ذلك نتيجة للمداولات التي أجراها الرئيس عبد الناصر سراً مع الشاعر كمال عبد الحليم، أحد قادة التنظيم الشيوعي المعروف بـ «الحركة الديمقراطية للتحرّر الوطني» (حدتو)[١٣٣]، حول حل التنظيم. كما قام العقيد يوسف صدّيق، عضو مجلس قيادة الثورة السابق، بدور هام في التوسط بين حدتو وعبد الناصر. وفي بادىء الأمر رفض كمال عبد الحليم حلّ التنظيم. وقدّم مبرّرات مقنعة للرئيس عبد الناصر، وقد اقتنع بها، إلا أن إصرار يوسف صديق على ضرورة وحدة الحركة الثورية لمواجهة المؤامرات التي تحيط بالوطن، وإقناعه قادة الحركة، مكّنه من التوصّل إلى صياغة بيان الحل[١٣٤]. وقد كتب يوسف صدّيق مسودة البيان، حيث استعرض المشاكل التنظيمية التي رافقت الحركة الشيوعية، ووضع تقويماً لثورة يوليو ودورها في حركة عدم الانحياز وحركة التحرر الوطني. واختير الشاعر كمال عبد الحليم رمزاً لتنظيم «حدتو»، بينما استُبعد أحمد حمروش بسبب ما قيل عن «دوره التخريبي في الحركة الديمقراطية»، وكان ذلك خطأً كبيراً، واساءة بالغةً لا يستحقها حمروش، الذي كان أحد ضباط ثورة يوليو، وزعيم أحد أجنحة اليسار المصري، والذي عرف بسعيه الحثيث المخلص لتقديم خدماته لثورة يوليو، إضافة إلى توليه القيادة لقوات الاسكندرية ليلة الثورة، كما كان له دور واضح في إصدار قانون الإصلاح الزراعي الأول، وفي اقتناع ثوار يوليو بإقامة تنظيم اشتراكي.

وبعد صدور البيان بحلّ «حدتو»، وتنفيذاً لأوامر الرئيس عبد الناصر، تولّى علي صبري تنفيذ شرط الاتفاق الذي ينصّ على:

أولاً: الافراج عن الشيوعيين مقابل انضمامهم إلى التنظيم الطليعي.

ثانياً: إسناد مواقع قيادية للشيوعيين في التنظيم الطليعي مقابل تحويل قاعدته إلى جهاز لقياس الرأي العام[١٣٥].

أثار هذا الاتفاق اعتراضات عديدة في قاعدة التنظيم الطليعي، فقد أدركت هذه القاعدة ان قيادة التنظيم الممثلة في علي صبري وشعراوي جمعة واحمد كامل يسيرون في اتجاه مغاير، وقد يكون السير في تنفيذ الاتفاق أملاً في السير لتحقيق نجاح أكبر. فقد تحقق الشرط الأول من الاتفاق، أما الشرط الثاني منه فقد أثار تخاوف قاعدة التنظيم الطليعي التي كانت ترى ضرورة انضمام الشيوعيين إلى «الاتحاد الاشتراكي»

---

(١٣٣) سليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ٧٩.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨٤.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٩٥.

أولاً، ومن ثم الانضمام إلى «التنظيم الطليعي» ذلك أن انضمامهم مرةً واحدة إلى التنظيم السري الذي كان يمثل في واقعه حزباً للقوى الوطنية التقدمية بايديولوجية اشتراكية عامة ليست ماركسية بالضرورة، سيمكّنهم من نقل خلافاتهم وصراعاتهم القديمة إلى داخل التنظيم. كما ان هدفهم ـ في رؤية قاعدة التنظيم ـ هي الهيمنة على قيادة التنظيم. الأمر الذي لن يكون (في رؤية القاعدة) خطوة إلى الأمام بل إلى الوراء. وهكذا فإن الخلاف كان عميقاً واكبر من أن يختفي وراء الايديولوجيا الاشتراكية التي يفترض أنها تجمع الجناحين: الجناح الوطني التقدّمي العام، والجناح الماركسي. فالجناح الماركسي ـ في رؤية القاعدة ـ يأخذ بآراء جاهزة من النظرية العلمية العامة، بينما القاعدة (الجناح الوطني التقدمي العام) تؤمن بالملكية الثلاثية لوسائل الإنتاج (الملكية العامة أو القطاع العام، والملكية التعاونية، والملكية الخاصة)، وليس التحدّد بالملكية العامة فقط.

وعلى صعيد آخر كانت القاعدة تتطيّر من سيطرة الشيوعيين على قيادة التنظيم الطليعي، كونه الجهاز السياسي الفعّال «والعمود الفقري للتنظيم السياسي» على حد ما يقول الرئيس عبد الناصر[١٣٦]، بل ان هذه القاعدة (الجناح الوطني التقدمي العام) باتت تتقاطع مع علي صبري لأنه احتضن فعلاً مجموعة الماركسيين، وهو في الحقيقة كان ينفّذ الاتفاق بين عبد الناصر وتنظيم «حدتو» الذي مر بنا آنفاً، وبالفعل فقد عيّن الدكتور محمود أمين العالم مستشاراً لشعراوي جمعة، وزكي مراد مستشاراً لشؤون تنظيمات الدعوة والفكر، والدكتور شريف حتاته مسؤولاً للتجنيد في «التنظيم الطليعي». ومع حصول الخلافات، وحتى الصّدامات في الآراء والآلية[١٣٧]، بين جماعة اليسار الوطني التقدمي ومجموعة الماركسيين الذين كان يرعاهم علي صبري، إلا أن الهدف العام كان واحداً، وهو إعادة بناء المجتمع، وإعادة صياغة وجدان الشعب طبقاً لنص **الميثاق** وروحه، ودعم الثورة وتوجّهات عبد الناصر الفكرية بالذات.

وعلى العموم يمكن القول، في غمار المتابعة التاريخية التقويمية، ان العلاقة التي كانت تربط جميع الأجنحة والقوى قاعدةً وقمةً، في «التنظيم الطليعي»، كانت علاقة تسوسها البراغماتية السياسية. فعلي صبري وجماعته لم يكونوا يرعون الماركسيين اعترافاً بفكرهم وعقيدتهم، وبالمقابل لم يكن ولاء الماركسيين لعلي صبري ورهطه صادقاً، فقد كانت السلطة تضع أسماء اليساريين على لوائح الاعتقال، بمناسبة وبدونها، وبالنتيجة لم يكن الماركسيون يثقون بأمثال على صبري وبالعسكر عموماً، ويعدّونهم دخلاء على السياسة، وأطفالاً في مدرسة الايديولوجيات، وعلى الرغم من كل ما تقدم فإن

---

(١٣٦) إمام، **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري،** ص ٤٧٦.

(١٣٧) للتفصيل حول ذلك، انظر: سليم، المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٦.

العلاقة التي كانت توحّد الجميع كانت علاقة تكتيكية، براغماتية، تقوم على الانتفاع المتبادل[١٣٨].

لقد دخلت شريحة كبيرة من اليسار الوطني إلى «التنظيم الطليعي»، وتحول الماركسيون، بالفعل، الى جهاز لقياس الرأي العام[١٣٩]. ويمكن القول إن قوى اليسار الوطني لم تستوعب الفكر الناصري في تلك المرحلة، وخصوصاً تجاه قضية الديمقراطية والتنظيم السياسي. وكان عبد الناصر قد هدف من تحالف قوى الشعب العامل لأن يجسد إرادة تحالف استراتيجي يقوم على التراضي والاتفاق على النضال المثابر، برغم فداحة التضحيات، ومن أجل تحقيق الديمقراطية والاشتراكية بالمفهوم الناصري، كما كان يريد لهذا النضال أن يغتني باستمرار بمعطيات الممارسة، فالنظرية تغتني بالتطبيق، والعلاقة جدلية أبداً بين التنظير والتطبيق. وكانت الممارسة ركناً أساسياً في أركان الفكر الناصري على هدي قاعدة «التجربة والخطأ».

لقد كان «التنظيم الطليعي» وثيق الصلة بالسلطة العليا، وكان أحد مجساتها الدقيقة المعتمدة لتحولات الرأي العام، وكان المعول فيه على قوى اليسار الوطني والماركسي[١٤٠]. وقد أدّى دخول الماركسيين فيه إلى قيام التنافس البنّاء بين قوى اليسار الوطني واليسار الماركسي[١٤١]، مع الالتقاء في أهم قضايا الوطن وهمومه. فقد أدرك الجميع أن تغيير المجتمع ومشاركة الجماهير في العمل السياسي لا يمكن أن تتم ونسبة ٧٦ بالمئة منها ترزح في دياجير الأمية، وهكذا قرّ القرار على بدء حملة كبرى شاملة لمحو الأمية. ولكن الآلية والوسائل التي اتُبعت في هذه الحملة ذات المدلول الحضاري ـ الاجتماعي ـ السياسي الكبير كانت بدائية لا تنسجم مع عظمة الهدف، اذ تم الاتفاق على أن يقوم كل عضو في التنظيم بتعليم عشرة، وكل واحد من هؤلاء العشرة يعلم عشرة، بينما كان المفروض فتح أوسع عدد من المدارس، وفق مناهج معدّة معتمدة، لمحو الأمية بأسرع وأشمل ما يمكن. وعلى أية حال، فإن ضغط الحاجة البالغ، وحجم الأمية الكبير جداً، فرضا نهجاً أقرب إلى إقامة (الصفوف الخاصة)، لكنها ظلّت محدودة كماً، وإنْ تميّزت نوعاً، فقد كانت الدراسة فيها مكوّنة من حصّتين: واحدة لتعليم القراءة والكتابة، والأخرى للتثقيف السياسي الذي استحوذ الفكر الناصري على حيز كبير فيه[١٤٢].

---

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ٨٩.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٤١) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٢: مجتمع عبد الناصر، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٢.

(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦.

وأفرزت نشاطات «التنظيم الطليعي»، في التطبيق، جملة مسائل بالغة الأهمية والدلالة. فقد تكوّنت مجموعة من صحفيّي جريدة **الجمهورية**، للبدء بمشروع إعادة كتابة التاريخ، الذي اقتضى، بالضرورة، تجميع الوثائق الرسمية، وأوراق الزعماء والساسة ومذكراتهم في دار الوثائق. وكان ذلك من معطيات ونتائج جس الرأي العام. فقد كان ثمة تخريب متعمّد تقوم به الرجعية مدعومةً، من طرف خفي، بأنشطة الغزو الثقافي الامبريالي. وكان من معالم هذا التخريب الواضحة للعيان تسريب الوثائق المهمة إلى الخارج، وتجنيد سماسرة الوثائق ومهربيها لشراء مذكرات رجال مصر الوطنيين، وبناة النهضة المصرية عموماً، لحساب الجامعة الأمريكية في القاهرة، بهدف ربط الباحثين وطلبة الدراسات العليا والدارسين عموماً في الجامعات ومراكز البحث والمعاهد المصرية بالجامعة الأمريكية ومكتبتها. وكان الطريق إلى ذلك توفير الوثائق التاريخية وحصرها بالجامعة الأمريكية، واغراء واجتذاب الدارسين إلى هذه الجامعة وإلى الثقافة الأمريكية وإلى الطريق الامريكي في الدراسات السياسية والانتقائية والبراغماتية الأمريكية في السياسة والفكر، على حساب الثقافة القومية وانجازات ثورة ٢٣ يوليو العلمية والثقافية. وقد أكّدت مجموعة محرري جريدة **الجمهورية** وكتّابها أهمية إيقاف هذا التخريب الفكري ـ السياسي واجتثاث جذوره بتنسيق الجهود بين الجامعات المصرية ووزارة الثقافة المصرية، وبإصدار قانون لجمع الوثائق وايداعها. وتولى الدكتور محمد أنيس [١٤٣] وضع مسودة القانون الذي صدر فيما بعد. ولأهمية الموضوع سياسياً وفكرياً وحضارياً تكونت، بتوجيه من القيادة السياسية، لجنة مختارة في جريدة **الجمهورية** ضمّت الدكاترة محمد انيس، وأحمد مصطفى، وجمال المنشد وغيرهم، وتم الاتفاق مع رئيس مجلس ادارة **الجمهورية** كمال الحناوي، الذي كان وزيراً في دولة الوحدة، على تكريس صفحة يومية لنشر كل ما يتعلق بهذا المشروع التاريخي الحضاري. لكن ذلك جوبه بمضايقات من قبل الإدارات البيروقراطية في مؤسسات الدولة. وخاضت الصحافة (جريدة **الجمهورية** بخاصة) معركة طويلة الأمد مع البيروقراطية في مفاصل الدولة، وفي المؤسسة العسكرية أيضاً، التي كانت، عملياً، «دولة داخل الدولة». فقد استنكرت هذه المؤسسة مطالب الصحافة بالتغيير الثوري وباجتثاث أوكار البيروقراطية، وكانت، بذلك، تحارب «التنظيم الطليعي» الذي كان عدد لا يستهان به من الصحفيين قد ارتبط به. وكانت هذه المؤسسة بقيادة عامر، بخاصة، وبطريقة تفكيرها، بعامة، بمن فيهم قادة الثورة التي كانت انقلاباً عسكرياً، في الأصل، ترى أن الاصلاح يأتي من فوق، وانه ليس على الجماهير الا انتظار ما يعطى لها، وليس المطالبة والانتقاد والمجابهة[١٤٤].

---

(١٤٣) مؤرخ تقدمي معروف، صاحب كتاب حريق القاهرة الشهير، استقدمته جامعة بغداد في السبعينيات.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦.

وكانت واقعة نقل مائة وخمسين صحفياً إلى مؤسسات رفض رؤساؤها استيعابهم، ثم نقلهم إلى مؤسسات غير صحفية، حيث أنيطت بهم مهمة إدارات العلاقات العامة بمؤسسات القطاع العام...[١٤٥]، كانت هذه الواقعة، مضافةً إلى قضية المعلمين والموقف منها، دليلاً اضافياً، بين العديد من الأدلة، على الموقف البيروقراطي المتعسّف للمؤسسة العسكرية عموماً، ولذهنية العسكر، والإدارات البيروقراطية من المنتفعين والانتهازيين وذوي المحسوبية تجاه الشعب، وجميع طبقاته وشرائحه الاجتماعية، بمن فيهم نقابة الصحفيين ونقابة المعلمين وغيرهم. فبالنسبة إلى قضية المعلمين، وهي تختلف نسبياً عن قضية الصحفيين، كان عدد من الكتّاب المخلصين للثورة و«التنظيم الطليعي»، قد كتبوا سلسلة من المقالات حول تحرير الثقافة المصرية، وإعادة النظر بمقررات التعليم العالي، وأوضاع الجامعات والإدارات الجامعية ومناهج التعليم الجامعي والدراسات العليا. وقد نشرت هذه المقالات في مجلة الكاتب، التي كان كمال رفعت يشرف عليها، واحمد عباس صالح يرأس تحريرها. وقد أحدثت هذه البحوث والمقالات أصداءها الايجابية، وأسهمت في تغيير الأفكار تجاه الجامعة المصرية والثقافة العلمية المصرية عموماً. وكان مما ساعد في ذلك اهتمام الرئيس عبد الناصر، نفسه، بها، وبتولي العناصر الاشتراكية مسؤوليات أجهزة الإعلام، والصحافة بخاصة. فقد أشاد الرئيس عبد الناصر بالثقافة الاشتراكية الجديدة، وأكّد، في إحدى خطبه بدمنهور، «الحاجة إلى ثورة ثقافية تكون بمستوى الثورة الاقتصادية والاجتماعية». واستجاب الكتّاب والصحفيون لنداء عبد الناصر فكتبوا مطالبين بالتغيير، وبتحرير الثقافة من الأفكار الرجعية[١٤٦]. وبعد المجابهة مع البيروقراطية، والمؤسسة العسكرية، المتطاولة على ميدان الصحافة، الذي لا يمتّ اليها بصلة، تدخّل الرئيس عبد الناصر بنفسه لحسم الموقف، في السابع عشر من أيار/مايو ١٩٦٥ لصالح الصحفيين الملتزمين[١٤٧]. وأصبح المسؤولون في الصحف، جميعاً، بالتالي، أعضاء عاملين في «طليعة الاشتراكيين». وقد أدّت هذه الطليعة دوراً مهماً وبارزاً في حشد الشباب والكتّاب والصحفيين، بحيث أصبح التيار التقدمي سائداً في مجال الثقافة والإعلام، وفعالاً ومؤثراً في تحويل الثقافة الجديدة إلى عامل أدى دوره في خدمة التطور والتنمية باتجاه الاشتراكية[١٤٨].

---

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(١٤٦) سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ و١١٢.

(١٤٧) حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦.

(١٤٨) «حديث الرئيس جمال عبد الناصر (الجزء المتعلق بالسياسة الداخلية) أمام الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكي العربي في القاهرة ١٦/ ٥/ ١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٣، الوثيقة رقم ١٥٩، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠، و**الأهرام**، ٢٠/ ٥/ ١٩٦٥.

ويلاحظ أنه على الرغم من أن «طليعة الاشتراكيين» قد ضمّت كبار المسؤولين، غير انها لم تستطع ان تفرض ايديولوجيتها على أعضائها الإداريين الكبار، فقد تركّز اهتمام هؤلاء على الموقع الإداري الذي كانوا يحتلّونه، بينما كان الانتماء إلى «طليعة الاشتراكيين» واجباً اضافياً، وفرصة لدى البعض للتسلط والمزيد من الهيمنة وكسب المغانم الشخصية. وبشكل عام لوحظ ضعف القدرات القيادية في «طليعة الاشتراكيين»، وعدم توفر الأيديولوجية الواضحة، والقواعد التنظيمية المتينة(١٤٩) أما «الاتحاد الاشتراكي» فقد غطت أجهزته العليا في ظلمات البيروقراطية، وضاعت كفاءاته بين الخطط المحبّرة على الورق، والمناقشات والاجتماعات العقيمة، مما أفقد الجماهير اهتمامها به يوماً بعد آخر. وفي مقابل ذلك، واصلت المؤسسة العسكرية اهتمامها بلعبة السياسة، بالتدخّل كلما سنحت الفرصة، فضلاً عن سعي المشير عامر الحثيث لتوسيع نفوذه في مجالات العمل الداخلي، ومنع دخول الفكر الاشتراكي الى الجيش على رغم ما ورد في الميثاق. وإلى ذلك كله، فإن الإقطاع والبرجوازية الكبيرة استمرا في مقاومة التحوّل باتجاه الاشتراكية، وتتبع الأخطاء والانحرافات، ومما ساعد في ذلك بقاء بعض العناصر في مفاصل السلطة والدولة، وسكوت الرئيس، وقتذاك، عن المنحرفين والقطاع العام. وقد قال الرئيس عبد الناصر في خطابه في مجلس الأمة عن هؤلاء انهم حزب رجعي منظّم أفاد من الضغوط الامبريالية الخارجية(١٥٠). وكذلك فإن العلاقة بين أمانة التنظيم ووزارة الداخلية لم تؤدِ إلى رفع وعي الشرطة، كجهة اجرائية، وظلّت، في غمرة التناقضات والمفارقات، تحكم قبضتها على الاشتراكيين وتلاحقهم، وهم الأعضاء في «التنظيم الطليعي».

وصف الرئيس عبد الناصر اشتراكيته بأنها اشتراكية علمية، وهي تطبيق مصري عربي للاشتراكية العلمية كما أسلفنا، غير أن تطبيق هذه الاشتراكية الفوقي في غيبة تنظيم موحد الفكر، مع وجود عناصر مضادة في مختلف الأجهزة الحكومية والسياسية من القاعدة إلى القمة جعل هذا التطبيق قاصراً، أعرج(١٥١)، وظلّت التناقضات تنخر في كيانه، مما استوجب إيجاد تنظيم إضافي داخل «التنظيم الطليعي».

٣ ـ «تنظيم الدعاة» ومغزاه الفكري السياسي

دعا كمال رفعت إلى تشكيل «تنظيم الدعاة» داخل «التنظيم الطليعي». وكان كمال رفعت من الضباط ذوي التاريخ النضالي الوطني، والتراث المجيد في تنظيم

(١٤٩) حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٦.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

المقاومة ضد الانكليز في القناة. وقد اعتمد عليه الرئيس عبد الناصر في إقامة علاقات بين مصر وحركات التحرير العربية. واحتفظ كمال رفعت بعلاقات واسعة بالمنظمات العربية والاشتراكية. وكان أميناً لأمانة الدعوة والفكر في «الاتحاد الاشتراكي»، وهي الأمانة الوحيدة التي بدأت عملها ونشاطها منذ اليوم الأول لتكوين «الاتحاد الاشتراكي»[١٥٢].

وقد حُدّدت أهداف تنظيم الدعاة «باختيار وإعداد جماعة الدعاة للقيام بأعباء الدعوة الاشتراكية» طبقاً لما ورد في نصوص الميثاق، وبخاصة فيما يخص قطاعي العمال والفلاحين، حيث اشترط الميثاق تنظيمهم تنظيماً جاداً ودقيقاً باعتبارهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الاشتراكية. واتفق على أن يتولى تدريبهم المعهد الاشتراكي وفق منهج مناسب. وتولى تثقيفهم محمد نصير، الضابط السابق في البوليس الحربي، الأمين المساعد للدعوة والفكر ورئيس مكتب التثقيف والدعاة، الذي ضم في قيادته عدداً من الصحفيين والكتاب المرموقين هم: فاروق القاضي، وعبد المنعم القصاص، وجمال سليم، ويوسف صدّيق، وفهمي حسين. وكانت مهمة المكتب في البداية إعداد الندوات والمحاضرات التي تتناول المشاكل التي يواجهها في تطبيق الميثاق. وفي مرحلة متأخرة ضم اليه أحد أقطاب «حدتو»، بناءً على طلب قيادة «التنظيم الطليعي». وكانت مهمة المكتب، جوهرياً، هي إعداد الدعاة وتنظيمهم[١٥٣].

وقد بذل كمال رفعت غاية جهده لإنجاح «تنظيم الدعاة»، فأنشأ في أمانة الدعوة ثمانية مكاتب، وعين لكل مكتب رئيساً من الذين عملوا معه في المراحل المختلفة من ثورة يوليو[١٥٤]. كان أول هذه المكاتب هو «مكتب المطبوعات والنشر»، وقد اختار كمال رفعت له أحد الصحفيين والكتاب البارزين ليكون رئيساً له وهو سامي داود، الذي أنيطت به مهمة اصدار نشرة **الاشتراكي**[١٥٥]، وهي النشرة التي استمرت تصدر ست سنوات كاملة (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠). وقد استعان سامي داود بعدد من الكتاب والصحفيين لمعاونته في اصدار النشرة والكتابة فيها. وكانت النشرة توزع تنظيمياً على وحدات «الاتحاد الاشتراكي» في المدن والقرى بمعدل نسخة واحدة لكل وحدة جماهيرية أو أساسية، ووصل توزيعها رقماً قياسياً هو مائتا ألف نسخة. وتطور ازدهار نشرة **الاشتراكي** بحيث باتت تصدر كتاباً شهرياً باسم **كتاب الاشتراكي** يتناول

---

(١٥٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢ ـ ٢٩٠.

(١٥٣) سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**، ص ١١٧.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(١٥٥) وتسمى جريدة، أو صحيفة أيضاً كما سبق الذكر.

موضوعاً سياسياً أو قضية من قضايا الساعة الملتهبة[١٥٦].

أما المكتب الثالث فهو «مكتب الفنون والآداب»، وكان يضم عدداً من الأدباء والفنانين الملتزمين. وأما المكتب الرابع فكان «مكتب الاتصال بأجهزة الإعلام». واختص المكتب الخامس بالمؤسسات التعليمية والثقافية (كمكتب الثقافة العمالية). وأسمي المكتب السادس «مكتب التجارب الاشتراكية في الخارج» الذي ضم كلاً من أحمد عباس صالح، وحسين عبد الرزاق، ومحمد عوده، وسامي داود، والدكتور محمد أنيس. أما المكتب السابع فقد دعي «مكتب الشؤون الدينية» برئاسة الدكتور عبد العزيز كامل، بينما دعي المكتب الثامن، وهو الأخير من مكاتب أمانة الدعوة والفكر «مكتب التدريب والبحوث»، وقد ترأسه أبو الفضل الجيزاوي[١٥٧].

تكمن قيمة «تنظيم الدعاة» في كونه صيغة تنظيمية جديدة في الفكر الناصري، وقد جاء ترجمةً لاتساع جماهيرية الفكر الناصري، واعتبر تجديداً لكل من «الاتحاد الاشتراكي» و«التنظيم الطليعي»، اللذين ترهلا، وباتا، بمشاكلهما العديدة وبإدارتهما البيروقراطية المفروضة فوقياً، عبئاً على العمل الوطني في أواسط الستينيات فصاعداً، كما شكّل «تنظيم الدعاة»، بدوره، سلاحاً أشد مضاءً في تصفية أوكار الثورة المضادة بجميع تياراتها.

لقد أدى «تنظيم الدعاة» دوره بنجاح في بداية تأسيسه، وساعد في ذلك كون أعضائه على درجة رفيعة من الإخلاص والوعي والحماس. فلم يكن هدفهم السلطة، أو المنصب الإداري، أو تقديم الولاء، بل كان شعارهم هو النقد والنقد الذاتي سواء أكان ذلك من خلال كتاباتهم الصحفية، أم كان من خلال الندوات واللقاءات التي كانت تعقد باستمرار في «قاعة الشعب» وسواها لتنظيم «ليالي سياسية» كان لها صداها البالغ في أوساط «الاتحاد الاشتراكي» بأماناته ولجانه ومكاتبه، وكذلك في أوساط القوات المسلحة، والجيش بخاصة. وضاق علي صبري ذرعاً بنجاح كمال رفعت في «تنظيم الدعاة» وبالنقد الذاتي والديمقراطية النسبية، فافتعل رجال الأمن، بتوجيه منه، الذرائع للقبض على مجموعتي «داسوق» و«دمنهور» الماركسيتين![١٥٨]، وهكذا حصل التقاطع الذي تطورت وقائعه، فيما بعد، على نحو سريع وعنيف، الأمر الذي استدعى إقامة اجتماع موسع لتنظيم الدعاة لمناقشة المشاكل التي أخذت تعترض العمل السياسي، منها اعتقال رجال الأمن لـ «الدعاة» بناءً على طلب أمناء «الاتحاد الاشتراكي» في المحافظات، ووضع شتى العقبات التي تعيق تحركهم وكأنهم أعداء!

---

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٨.

وبالنتيجة توصلت قيادة «تنظيم الدعاة» إلى الرأي بأن العمل الفكري ـ السياسي في ظل هذه الظروف الصعبة أمر غير ممكن، وبخاصة بعد نشر ما يسيء إلى الدعاة وحركتهم في الصحف، ولا سيما في جريدة **الأهرام**[159].

وتقدم كمال رفعت في النهاية بعرض إلى علي صبري يتضمن مطلبين:

أ ـ حل حركة الدعاة وإلحاق أعضائها بمكاتب أمانات المحافظات، التابعين لها.

ب ـ اعتبار الدعاة موجهين سياسيين.

وبالفعل انضم الدعاة إلى المكاتب التنفيذية على الرغم من عدم ارتياحهم، واستمر ذلك حتى عام ١٩٦٧[160].

وفي تقويم «تنظيم الدعاة» ودوره وإنجازاته والمشاكل التي اعترضته، يمكن القول إن الصراع السياسي كان حاداً وقوياً على مراكز صنع القرار، والاقتراب منها. وقد كشفت حركة «تنظيم الدعاة» التناقضات ذاتها التي رافقت حركة تنظيم «الاتحاد الاشتراكي العربي» و«التنظيم الطليعي»، فاعتماد القيادة السياسية، ممثلة في شخص الرئيس عبد الناصر، على الأصدقاء أمثال عامر، وضيقها بالديمقراطية الحقيقية (التي لا بديل منها في كل الظروف والعوالم)، وحكمها بذهنية العسكر، وبالمنهجية البراغماتية السياسية والفكرية، وعدم حسمها الأزمات التي يفتعلها الأصدقاء وغيرهم، وخصوصاً المشير عامر، وتعليق المشاكل دون حلها . . . كل ذلك جعل «تنظيم الدعاة» يتراجع مثلما تراجع، أو فقد مضمونه قبله «الاتحاد الاشتراكي العربي» و«التنظيم الطليعي»[161].

كان أمراً طبيعياً أن يلقي صراع القمة وآثاره الفكرية والسياسية المدمرة، بظلاله على جميع الظواهر والمؤسسات الجديدة التي ظهرت في الستينيات استجابةً لمتطلبات المرحلة، وباتجاه إجراء تغييرات مطلوبة في هيكل الدولة ومؤسساتها لتواكب التحولات الأخيرة ـ قرارات التأميم والانفصال.

رابعاً: محاولات تطوير هيكل الدولة في ضوء التحولات الجديدة

كان من آثار الانفصال في رؤية عبد الناصر الفكرية ـ السياسية، اتخاذه بعض الإجراءات اللازمة لحماية مسيرة الثورة وأمنها، ومنها قضية إدارة مؤسسات الدولة

---

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٢٤، وحروش، المصدر نفسه، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٨.

(١٦٠) حروش، المصدر نفسه، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٨، وسليم، المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(١٦١) شهدي، تأملات. . . في الناصرية، ص ١١٤ ـ ١١٩.

وتنظيمها(١٦٢). فقد فرضت الأوضاع الجديدة التي نشأت بعد الانفصال، بواقعها المتغير نوعياً وخصوصياته الخاصة، على الفكر الناصري إعادة النظر في مجمل تصوراته النظرية والحركية، وأدواته وأساليبه في العمل السياسي والإداري، والتي أسفرت في بعض نتائجها عن التأكيد على جماعية القيادة ومسؤوليات الشعب، والعلاقة بينه وبين التنظيم السياسي. قال عبد الناصر لأعضاء مجلس قيادة الثورة بهذا الصدد:

«إننا متفقون على ضرورة إعادة التنظيم، والأولوية فيه هو الجيش، ولا يمكن إجراء أي شيء قبل حل مشكلته»(١٦٣).

وكان من نتائج المناقشات في مجلس قيادة الثورة اتخاذ بعض الاجراءات التي عكست الخلفية الفكرية الناصرية بعد الانفصال، بخاصة، وهي تشكيل مجلس تخطيط أعلى، ومجلس دفاع أعلى، إضافة إلى مجلس الوزراء، واجتماع الرئيس بالمجلسين الأولين بين حين وآخر. وكذلك بناء التنظيم على أساس اللامركزية في التنفيذ، ومنح المجالس المحلية سلطات واسعة على مختلف المستويات لمناقشة المسائل المتعلقة بمصالحهم وشؤونهم، وإصدار القرارات اللازمة، وتنفيذ بعض المشروعات باعتبار ذلك تربية سياسية لهم. وكان من هذه الإجراءات، أيضاً، إعادة تنظيم «الاتحاد القومي»، واستبعاد كل من مسّتهم القوانين الاشتراكية الأخيرة من عضوية الاتحاد، وإطلاق الحرية للصحافة لممارسة دورها في كشف الأخطاء من خلال النقد البناء الهادف إلى حماية المصلحة العامة، وليس لحماية «أحد المنحرفين». وكذلك نصّت على إبعاد بعض الوزراء لاعتمادهم المحسوبية والتواطؤات والانتفاعات المتبادلة، مما يقضي على مفعول مبدأ تكافؤ الفرص، وفقدان الشعب ثقته في الدولة وفي نهج العدالة الاجتماعية الذي اعتبره الفكر الناصري من أسس الاشتراكية التي يلتزم بتطبيقها(١٦٤).

سبّب الانفصال انطلاق موجة من الشائعات ضد الناصرية وفكرها وثورتها، ومنها تلك التي تقول ان الثورة قد انتهت! وقد دفع ذلك كله إلى عقد عبد الناصر سلسلة اجتماعات مع أعضاء مجلس قيادة الثورة اطلعهم فيها على حقائق الوضع الجديد المؤلمة. وقال في ذلك «ان ثورتنا برجوازية ... وقد آن الأوان لأن نحولها إلى

---

(١٦٢) للتفصيل، انظر: البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ٢، ص ١٤٠ ـ ١٤٢؛ صلاح نصر، **عبد الناصر وتجربة الوحدة** (القاهرة: الوطن العربي، ١٩٧٦)، ص ٥٠ ـ ٥٩؛ إمام، **ناصر وعامر**، ص ٥٤، وكمال شاتيلا، **دراسات في الناصرية** (بيروت: دار الهدى للنشر والطباعة، ١٩٧٠)، القسم ١، ص ١١ ـ ١٢.

(١٦٣) نقلاً عن: البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٢.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص ١٤٣ ـ ١٤٤؛ نصر، المصدر نفسه، ص ٦٥؛ ثروت بدوي، **ثورة ٢٣ يوليو وتطور الفكر الثوري في مصر** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٤)، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦، وكمال الدين رفعت [وآخرون]، **٢٣ يوليو: خمسة أبعاد**، دراسات سياسية (بيروت: دار القدس، ١٩٧٤)، ص ٩.

ثورة جماهيرية»[١٦٥]، كما حذر من نشاط القوى التنظيمية والسياسية اليمينية التي اعتبرها المستفيدة والعاملة على تحقيق الانفصال، وقرن نشاط هذه القوى في سوريا بنشاطها في مصر ذاتها، باعتبار جدلية المصالح المشتركة للقوى الرجعية في الاقليمين الشمالي (سوريا) والجنوبي (مصر)، والمتحالفة مع الامبريالية. وقال في ذلك، وللقول دلالته ومغزاه فكرياً وسياسياً: «ليس أمامنا من حل غير القضاء عليهم باعتقالهم جميعاً ووضعهم في منطقة الوادي الجديد، وتجميد أموالهم وتحويل سندات الأراضي والشركات التي أخذت وأُمّمت منهم إلى الدّين العام، وعدم صرف الفائدة لهم»، مستشهداً بما قاله لينين في القضاء على الرجعيين والرأسماليين، وعندما أخفق في محاولته بالتعاون معهم في بداية الثورة البلشفية، مؤكداً اعتقاده في البداية بخطأ لينين، لكنه استطرد يقول: «وعندها تبين لي الآن انه كان على صواب وأنا المخطىء»[١٦٦]. وقد حدد الأخطاء التي وقع فيها، في خطابه إلى الأمة العربية، حيث قال: «أبينا دائماً مهادنة الاستعمار ولكننا هادنا الرجعية. لقد وقعنا نتيجة وهم خطير، اعتقدنا انه على الرغم من الخلافات بيننا وبين الرجعية . . . اننا جميعاً اخوة مصير واحد. لقد غيّر الاستعمار من أشكال مقاومته لنا، أما نحن فلم نغيّر أساليب مقاومتنا له. لقد قاومنا الأحلاف والقواعد، بينما تستّر الاستعمار وراء الرجعية وتسلل الينا عبر قصور الرجعية . . . لقد سمحنا لأنفسنا بأن تخدعنا الرجعية»[١٦٧].

كما نادى الرئيس عبد الناصر «بضرورة تحقيق ثورة جديدة»[١٦٨].. «نتدافع بها عن الثورة الاجتماعية»، لأن الطبقات القديمة مستعدة للقتال دفاعاً عن مصيرها وبقائها في المنطقة، ما دامت هذه الطبقات تنتظر ثورة جديدة. فقد قال «فلنأخذ زمام المبادرة ونقوم نحن بهذه الثورة. . . ونبدأ العمل بروح ثورية وإعادة تشكيل مجلس الثورة ونعمل مجالس ثورية في كل الأماكن المختلفة لزيادة عدد أعضاء مجلس الثورة بعد سنة إلى مائة عضو، ثم مائة وخمسين، ثم مائتين حتى يكون في النهاية مجلس الثورة مثل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي». وأشار في الختام إلى أن ذلك كله سيلقيه في بيان على الشعب[١٦٩].

لقد هدف الرئيس عبد الناصر، من خلال ما تقدم، إلى تأكيد الضرورة الماسة

---

(١٦٥) نقلاً عن: البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٤ و١٤٧.

(١٦٦) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(١٦٧) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ١٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦١.

(١٦٨) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٧؛ أحمد حمروش، **ثورة يوليو وعقل مصر** (القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٨٥)، ص ٣١، وشميس، **الفجر الأبيض: ٢٣ يوليو**، ص ٥٤ ـ ٥٦.

(١٦٩) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٧ ـ ١٤٨؛ حافظ، **الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة**، ص ٣١٤، وإمام، **ناصر وعامر**، ص ٦٢.

لتدعيم الدور القومي والوطني للعمال والفلاحين في بناء دولة الشعب وتوطيدها، لضمان ان تكون الغالبية السائدة في جميع هيئات البلاد السياسية من القوى الكادحة، باعتبارها صاحبة المصلحة الحقيقية في التغيير.

تواصلت الاجتماعات والمناقشات بين الرئيس عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة، وكان لبعض الآراء وجاهتها وسدادها، ومغزاها السياسي المهم. فقد عارض عبد اللطيف البغدادي قيام هذه المجالس: «لأن السلطة فعلاً في أيدينا . . . وكيف نفتعل قيام ثورة وضررها سيكون أكثر من نفعها، وسيضعف ذلك من قوة النظام وهيبته. ليس مهماً وجود مجلس ثوري، بل الأهم منه هو الفعل الثوري، وان نتصرف كثوار لدفع عجلة العمل بروح ثورية يحس بها المواطنون . . هذا الطريق يمكننا من ان نسترد ما خسرنا من هيبتنا، كما أن الأشخاص الذين سيتم اختيارهم من الصعوبة الاعتماد عليهم مبدئياً. . . وهذا ما يدفع الشعب للمقارنة بين المجلس المقترح ومجلس الثورة، وسيشكل ذلك عامل ضعف لا عامل قوة للنظام»[١٧٠]. بينما تساءل زكريا محيي الدين عن المدى الذي ستصل اليه الاشتراكية بما يمكن كل فرد من الشعب تحديد طريق المستقبل لنفسه. وعارض كمال الدين حسين قيام هذه المجالس، أصلاً، لصعوبة «توفر الأفراد الذين نعتمد عليهم» بحسب تعبيره. أما عبد الحكيم عامر فقد كان مؤيداً لفكرة عبد الناصر، مضيفاً إلى ذلك اقتراحه بتكوين لجنة عامة تعقد اجتماعات مفتوحة وجلسات علنية، ولجنة فعلية تكون اجتماعاتها وجلساتها سرية[١٧١]، وتحديد فترة انتقالية لمدة سنة، وتحديد الفئات التي تعمل لصالح الاشتراكية، والفئات التي ستعارضها، والمديات التي تصل الاشتراكية اليها. أما انور السادات فقد تحمس لفكرة قيام مجلس ثورة، بينما لم يبين حسين الشافعي رأيه.

وفي هذه الصفحة من صفحات تطور الفكر الناصري نجد أن اقتراح عبد الناصر بإقامة «مجلس الثورة» الجديد انما يعكس نزوعه نحو التغيير، وتحوله الراديكالي نسبياً، بما فيه تجديد دم الثورة وتفعيل نشاطها، في خط الفكر الناصري طبعاً. وفي تضاعيف المناقشات حول تسمية مجلس الثورة الجديد، والمؤسسات التنظيمية التي يضمها في إطاره، وردود افعال المواطنين عند الإعلان عن قيام مثل هذا المجلس، تبين ان اقتراح إنشاء هذا المجلس غير وارد، ولا يحقق الغرض المطلوب، ولم يتم التوصل إلى حل[١٧٢].

وعلى الرغم من ذلك، تواصلت المناقشات باتجاه إحداث التغيير، ودعم الخط

---

(١٧٠) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢.

(١٧١) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

الصحيح للثورة. لقد كان عبد الناصر يريد أن يفعل شيئاً جديداً وجذرياً، وكان يعني بذلك، كما أثبتت مجريات الأحداث، البحث عن طريق لإعادة تغيير المؤسسة العسكرية، وإبعاد عامر عنها، خصوصاً بعد ان تجلى للجميع اتجاه المؤسسة العسكرية بقيادة عامر وجماعته إلى دعم نفوذها ليس على صعيد الجيش فحسب، بل على صعيد الدولة أيضاً، بما في ذلك الصعيد الاقتصادي ذي الأهمية البالغة[١٧٣].

كان على الرئيس عبد الناصر أن يجد مخرجاً لهذا الموضوع الحساس الذي كان يعتمد عليه مستقبل مؤسسات الثورة الفكرية والسياسية والإدارية دون استثناء. فبعد مداولات أجراها بهذا الخصوص عرض على عبد الحكيم عامر الاحتفاظ بوزارة الحربية[١٧٤]، مع تشكيل قيادة عسكرية مشتركة من قادة الأسلحة الثلاثة ـ الطيران والبرية والبحرية، وإلغاء منصب «القائد العام للقوات المسلحة»، مع العلم أن القادة الذين استشارهم بصدد هذا الأمر كان من رأيهم عرض وزارة الإدارة المحلية على المشير عامر على رغم عدم تمرسه في الحياة المدنية[١٧٥].

كان عامر من جانبه متعصباً لرأيه، يضيق بالنقد ضيقاً شديداً ويرفض أي حوار، أو نقاش، وكان يقدم استقالته الشفوية لعبد الناصر عقب كل مناقشة، أما ناصر الذي أتى به منذ البداية وعينه قائداً للجيش، بصفته صديقه التي يأتمنه، ويكن له كل معاني الود[١٧٦]، فكان يتركه أياماً ليعود إلى نفسه، فيأتي معترفاً بتسرعه لينتهي كل شيء!![١٧٧]. وهكذا يفرض الحل التهادني نفسه متساوقاً مع القيم الذاتية لعبد الناصر، ومتعارضاً مع قيم التعامل السياسي وضوابطه.

وقد جاء حل المشكلة الأخيرة في السياق ذاته، فبعد أن رفض عبد الحكيم عامر العرض صارحه عبد الناصر بمسؤوليته في حماية القيادات التي أخطأت في حرب السويس، وفي أحداث الانفصال، مما أحرج موقف عامر الذي لم يتعود على مثل هذه المصارحة، فتراجع عن إصراره، وأجريت فعلاً بعض التغييرات، وأبقى عبد الناصر على عامر قائداً للجيش لأنه رأى في تراجعه «حلاً موفقاً»[١٧٨]، وهو بعمله هذا أبقى المشكلة دون حل، وحاول تجاوزها بأساليب أخرى، مع العلم أنه كان من المفروض ان يزاح عامر عن الطريق منذ أيام الانفصال الذي كان يمثل انتكاسة قومية

---

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، وإمام، المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٧٤) تولى حقيبتها منذ ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٥.

(١٧٥) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٢، وإمام، المصدر نفسه، ص ٦١.

(١٧٦) حتى انه سمى أحد أولاده باسمه تيمناً بوشائج صداقتهما.

(١٧٧) إمام، المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦١.

(١٧٨) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٤.

بالنسبة للفكر الناصري، والذي كان عامر وبطانته يتحملون وزره أكثر من غيرهم. وربما كان على عبد الناصر ان يتعظ من تلك التجربة المرّة التي كشفت عن قدر واضح من الخلل في الرؤية السياسية ـ الإدارية إبان تجربة الوحدة، مما تجلى بصورة خاصة في اعتماده على أناس غير مبدئيين(١٧٩)، وعلى الصداقات الشخصية لحل الأزمات الداخلية العميقة في حالات غير قليلة، الأمر الذي بقي يلقي بظلاله على الفكر الناصري، ويعيق تطوره الطبيعي، وهذا ما نلاحظه أيضاً في موضوع مهم آخر يتعلق بتشكيل ما عرف بـ «مجلس الرئاسة».

١ ـ مجلس الرئاسة

ارتبطت صفحة جديرة بالانتباه من صفحات التطور السياسي للفكر الناصري تحت تأثير المتغيرات التي ميزت الستينيات، بالإعلان الدستوري في السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢، والقاضي بتشكيل «مجلس الرئاسة»(١٨٠).

تألف «مجلس الرئاسة» من جمال عبد الناصر رئيساً، وعضوية أحد عشر عضواً، بينهم تسعة عسكريين، ومدنيان، وهم كل من عبد اللطيف البغدادي، وعبد الحكيم عامر، وزكريا محيي الدين، وحسين الشافعي، وكمال الدين حسين نواباً لرئيس الجمهورية، وأنور السادات، وحسن ابراهيم، وعلي صبري ـ رئيس المجلس التنفيذي للاتحاد الاشتراكي العربي ورئيس الوزراء، والدكتور نور الدين الطراف، والمهندس أحمد عبده الشرباصي، وكمال الدين رفعت(١٨١).

كانت اجتماعات «مجلس الرئاسة» شهرية، وكان أحد الدوافع الأساسية لتشكيله هو إقرار التنظيم السياسي الجديد للمرحلة التالية بعد انفصال سوريا(١٨٢)، باعتماد الدولة على مؤسسات سياسية ضماناً لمستقبل البلاد، وتنفيذاً لما ورد في **الميثاق الوطني**. ويعد «مجلس الرئاسة» الهيئة العليا لسلطة الدولة، التي تختص برسم السياسة العامة ومتابعتها، والموافقة على القوانين والقرارات قبل إصدارها من قبل رئيس الجمهورية.

وكان تعيين علي صبري رئيساً للمجلس التنفيذي بعد تشكيل «مجلس الرئاسة»، بدايةً لسحب السلطات التنفيذية والإدارية من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ليقتصر

---

(١٧٩) منهم، فضلاً عن عبد الحكيم عامر، عبد الحميد السراج، الذي كان الشعب السوري يرى فيه جلاداً، طاغية.

(١٨٠) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢١١ ـ ٢١٢، ود. ك. كارنجيا، **كيف نجح عبد الناصر**، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، [د. ت.])، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(١٨١) حمروش، المصدر نفسه، ص ٢١٢، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٨ ـ ١٨٠.

(١٨٢) حمروش، المصدر نفسه، ص ٢١٢.

عملهم على متابعة الشؤون السياسية، وما يعرض عليهم من متعلقاتها، باستثناء عبد الحكيم عامر الذي ظل في موقعه وزيراً للحربية. وقد اعتُبر قرار الرئيس عبد الناصر بتعيين علي صبري رئيساً لمجلس الوزراء، محاولةً من جانب عبد الناصر للإشراف على مجلس الوزراء عن طريق علي صبري. ومن دلالاته أنه يعتبر أول تكليف لعسكري من خارج مجلس قيادة الثورة بإدارة سياسية رفيعة، وإيذاناً بالاستعانة بعدد من العسكريين الجدد في مناصب وزارية على الرغم من عدم إخراج الوزراء العسكريين القدامى[(١٨٣)]. وطبقاً للنظام الجديد فإنه كان يقضي بتعيين قائد عام جديد للجيش بدلاً من المشير عامر[(١٨٤)].

إن من أهم الدلالات الأخرى لتشكيل هذا التنظيم السياسي الجديد أنه يعد، في مغزاه في المدى القريب، تغيراً واضحاً في نهج النظام، ونقطة تحول بارزة في الفكر الناصري في ترسيخ مبدأ القيادة الجماعية بالشكل الذي فهمه به عبد الناصر، بتركيز السلطات في أيدي مجلس الرئاسة.

لقد كان هذا التنظيم السياسي الجديد عاملاً حاسماً في اهتزاز الثقة، وبلوغ الصراع ذروته بين الرئيس عبد الناصر والمؤسسة العسكرية التي يرأسها المشير عبد الحكيم عامر. وكان من جملة ما أراده الرئيس عبد الناصر من خلال التنظيم الجديد هو الحد من سلطات المؤسسة العسكرية التي يقودها المشير، ووضعها في حجمها الطبيعي. وكان الرئيس عبد الناصر غير راغب في القيام بذلك وحده لاعتبارات الصداقة المتينة التي تربطه بعامر، والمعروفة لدى الرأي العام المحلي والعالمي، فجعل ذلك من اختصاص مجلس الرئاسة باعتباره السلطة العليا في البلد، ضامناً بذلك وقوف جميع أعضاء مجلس الرئاسة ضد المشير الذي كان القوة الحقيقية للمؤسسة العسكرية، بينما كان عبد الناصر يمثّل الزعامة السياسية[(١٨٥)].

بعد شهرين من إعلان تشكيل مجلس الرئاسة تفاقم الخلاف لحد كبير بين الرئيس عبد الناصر والمشير عامر[(١٨٦)]. وتحت وطأة ضغوط هذا الخلاف وملابساته، قدّم الرئيس عبد الناصر إلى اجتماع مجلس الرئاسة المعقود في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٢ عدداً من مشروعات القوانين، كان بينها مشروع خاص بقانون الطوارىء، ومشروع آخر خاص بالتعزيزات، ومشروع ثالث يختص بسلطة مجلس الرئاسة في الترقيات والتعيينات والتنقلات والانتدابات والاحالة على المعاش (التقاعد)

---

(١٨٣) المصدر نفسه، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(١٨٤) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ و١٨٩.

(١٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ١٩١ ـ ١٩٢ و١٩٤؛ حمروش، المصدر نفسه، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢١٢، وإمام، **ناصر وعامر**، ص ٦٤ ـ ٦٥.

في الجيش، والبوليس، والخارجية، والوظائف المدنية من الدرجة الثالثة فما فوق، وما يعادلها في الجيش والبوليس، لكي تشعر القيادات على مختلف المستويات والدرجات أن ولاءها للقيادة الجماعية وليس لفرد، وهو المبدأ المتفق عليه(١٨٧).

تولى عبد اللطيف البغدادي، بحكم منصبه وأقدميته رئاسة اجتماع مجلس الرئاسة، الذي لم يحضره الرئيس عبد الناصر، والذي عقد خصيصاً لبحث مشروعات القوانين المشار إليها آنفاً(١٨٨). وقد أثار امتعاض المشير عبد الحكيم عامر المشروع الخاص بالجيش، ذلك لأن تطبيقه كان يعني سحب سلطاته الواسعة، وتحويلها إلى «مجلس الرئاسة»، فيما لم يكن عامر مقتنعاً بالقيادة الجماعية، وقد ضرب ستاراً حول الجيش الذي حوله عملياً إلى مملكته الخاصة، لذا ظل يقاوم مشروع القانون بشتى السبل، وازداد إصراره على موقفه، بل إنه تمادى في ذلك التحدي إلى حد رفضه حضور اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي المنعقد في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٢ للبت في الموضوع، فقد سافر إلى الاسكندرية لـ «الراحة والاستجمام»(١٨٩). وفيما بعد هدد مراراً بالاستقالة، واندفع أخيراً إلى حد تقديمها فعلاً في العاشر من كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه(١٩٠). أرفق عبد الحكيم عامر «رسالة سياسية» باستقالته إلى عبد الناصر، تحدث فيها، بشكل مباشر وصريح، عن الأوضاع السياسية في البلاد، وعن «التكتلات الحزبية» التي يلمسها في مجلس الرئاسة، وعن «الديمقراطية ووجوب العمل على تحقيقها»، وتنفيذ ما ورد في الميثاق، وتحقيق حرية الصحافة، والتنظيم السياسي للمرحلة المقبلة وتحديده بأن «يكون نظاماً جمهورياً، أو رئاسياً، أو برلمانياً» لعدم وجود نظام آخر غير هذه الأنظمة، مع أهمية الاستفادة من تجارب الدول الأخرى في التنظيمات السياسية، و«عدم ابتكار نظام فريد من نوعه لأنفسنا». لكن عامر أكد، في الوقت نفسه، ضرورة وجود الرئيس عبد الناصر على رأس التنظيم السياسي نفسه مهما كان شكله، و«عدم عزل الرئيس نفسه عن أبناء الشعب» كيلا يحكم عليهم من أسمائهم فقط، أو مما تذكره التقارير عنهم دون معرفة حقيقية لأشخاصهم، أو ظروفهم». وفي ختام رسالته أكد عامر أنه «يودعه بذلك» وأن كل ما ذكره فيها إنما «يترجم رأيه فيما يعتقد أنه يحقق الصالح العام»(١٩١).

---

(١٨٧) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩١ ـ ١٩٢ و١٩٤، وإمام، المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٨٨) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٢: مجتمع عبد الناصر، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(١٨٩) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٠ ـ ٢١٠.

(١٩٠) المصدر نفسه، ص ١٩٥، وسليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ٩٠ ـ ٩١.

(١٩١) إمام، ناصر وعامر، ص ٤٢ ـ ٨٩.

انطوت «الرسالة السياسية» هذه على حقائق مهمة أشرت العديد من ظواهر الخلل في الفكر الناصري على صعيد التطبيق، لكن صاحب الرسالة نفسه لم يكن مبدئياً في أي مما عرض، بل ان رسالته كانت مجرد غطاء للتحدي والإحراج والابتزاز، وإلا فإن «اهتمام» عامر وزمرته العسكرية بمصالح الشعب لم يكن حقيقياً لأنهم، في واقع الأمر، كانوا يشكلون جماعة بيروقراطية، منتفعة، متكتلة، تدافع عن مكاسبها وامتيازاتها، وتحارب كل مشاريع الإصلاح، وإجراءات المساءلة والمتابعة التي تهدد مصالحها، بل ان أطماعها امتدت حتى إلى محاولة الهيمنة على مقدرات البلاد بوجود ناصر، أو من دونه[١٩٢]، وهي كانت مستعدة فعلاً للمجابهة، معتمدة على ثغرات النظام، وعدم استعداد الرئيس عبد الناصر لمواجهة عامر وكتلته العسكرية على نحو مباشر، ومبالغته في الاتكاء على علاقات الصداقة القديمة التي كانت تربطه بالمشير، مما كان يعكس، مرة أخرى، إفراطه في الأخلاقية القروية. والتزامه حتى آنذاك تقاليد الصداقة بينه وبين عامر. واعترف ناصر نفسه انه هو المساهم في بناء قوة عامر السياسية، لاعتقاده بأنهما شخص واحد، ولم يتوقع يوماً بلوغ الحال ما بلغته[١٩٣].

لم يتخلَّ جمال عبد الناصر، مع ذلك، عن هذا النهج الذي أثر سلباً في تطوير أفكاره وتطبيقها، فقد ظل يبحث عن حلٍ وسط للأزمة التي انفجرت بسبب مواقف عبد الحكيم عامر. ومن أجل ذلك توالت اجتماعات عبد الناصر بعامر، حتى ان اجتماعهما في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٢، اي في اليوم الذي اتبع يوم تقديم عامر لاستقالته، قد استمر لمدة تسع ساعات[١٩٤].

جاء الحل الوسط مرة أخرى على حساب الأفكار والمبادىء والمصلحة العامة، ففي نهاية المطاف بقي المشير عبد الحكيم عامر يحتفظ بمواقعه المتميزة ليشكل، كما كان، عقبة أمام تطور الفكر الناصري وتطبيقاته. فقبل كل شيء جاء الحل الوسط على حساب مشروع القيادة الجماعية، الممثلة في «مجلس الرئاسة»، فقد أضعف، بالضرورة، من قوته، وجعل دوره ثانوياً، على الرغم من كونه أعلى سلطة في البلاد بحكم قرار تشكيله[١٩٥].

---

(١٩٢) من المفيد أن نشير إلى أن عبد الحكيم عامر كان يجتمع بمدير المخابرات صلاح نصر بصفة مستمرة في تلك المرحلة، ووضعت هواتف أعضاء «مجلس الرئاسة» تحت مراقبة متواصلة، كما ان جماعة عامر كانت توالي نشر الشائعات عن مرض عبد الناصر، وانهياره العصبي، الأمور التي أكدها عبد الناصر نفسه أكثر من مرة. حول ذلك، انظر: البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧؛ سليم، المصدر نفسه، ص ٩٢، وعبد الرحمن، **الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية**، ص ١٠٢ ـ ١٢٥.

(١٩٣) حول ذلك انظر: عبد المجيد فريد، معد، **من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٧٩)، ص ٢٨٣ ـ ٢٩٤.

(١٩٤) سليم، المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(١٩٥) البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ٢، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

كما أن الحل الوسط، الذي اختاره عبد الناصر، لم يؤدِ، بحكم طبيعته، الى حسم الخلافات السياسية بين أعضاء «مجلس الرئاسة»، مما ترك بالغ الأثر في جهود عبد الناصر، وأضعفها، وشتت الرؤية الناصرية في التغيير، وفك، جزئياً، عُرى الوحدة بينه وبين باقي المجموعة[196]. لا ينكر ان جمال عبد الناصر كان يرنو، بإخلاص، الى التوفيق بين رفاقه جماعة الضباط الأحرار الذين أثارت روحهم الجماعية، وتلاحمهم في ثورة يوليو ١٩٥٢ إعجاب الشعب المصري البالغ، مثلما أثار تدهور تماسكهم الحيرة والأسى، وخصوصاً أن ذلك كان بسبب دوافع شخصية غير فكرية، أهمها الصراع على السلطة.

وأخيراً فإن الحل الوسط الذي اختاره أدى في تضاعيفه إلى الاستعانة بالتكنوقراط (أهل الخبرة)، وبغيرهم أكثر فأكثر[197]، مما كان يعني، في المحصلة النهائية، تركيز السلطة السياسية بيد عبد الناصر.

وعلى الرغم من كل ما سبق أسهم حل خلافات القمة بالصورة التي تم بها في تهيئة الظروف المناسبة لإصدار دستور جديد يأخذ بنظر الاعتبار التحولات الفكرية والتنظيمية النوعية الأخيرة بما يتجاوز نصوص دساتير الثورة السابقة.

٢ ـ دستور آذار/ مارس ١٩٦٤

وضع أول دستور لمصر في عام ١٩٢٣ بعد إعلان الاستقلال[198]، أتبعه دستور عام ١٩٣٠ في عهد صدقي باشا، الذي أُلغي العمل به في عام ١٩٣٤. وتقررت العودة إلى الدستور السابق ليبقى نافذ المفعول لغاية قيام الثورة التي أعلنت في العاشر من شباط/ فبراير ١٩٥٣ أول دستور مؤقت، ثم صدر دستور عام ١٩٥٦، أتبعه دستور مؤقت في الخامس من شباط/ فبراير ١٩٥٨ بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وقد عدل في الخامس من آذار/ مارس من العام ذاته.

استمر العمل بالدستور الأخير لغاية الثالث والعشرين من آذار/ مارس عام ١٩٦٤ حين صدر دستور جديد جاء في ديباجته ان العمل به موقوت لحين الانتهاء من وضع دستور دائم للجمهورية.

ويشتمل الدستور الجديد، عدا المقدمة والديباجة، على تسع وستين ومائة مادة

---

(١٩٦) تجسد ذلك بصورة خاصة في استقالة كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي، لعدم رضاهما وانسجامهما مع المتغيرات الجديدة.

(١٩٧) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٢: **مجتمع عبد الناصر**، ص ٢٣٢.

(١٩٨) صدرت قبل ذلك لوائح دستورية في مصر، بدءاً بلائحة تأسيس مجلس شورى النواب وانتخاب أعضائه في ٢٢ تشرين الأول/ اكتوبر عام ١٨٦٦.

تتضمنها ستة أبواب هي: الدولة (المواد ١ ـ ٥)، والمقومات الأساسية للمجتمع (المواد ٦ ـ ٢٣)، والحقوق والواجبات العامة (المواد ٢٤ ـ ٤٥)، ونظام الحكم (المواد ٤٦ ـ ١٦٠)، وأحكام عامة (المواد ١٦١ ـ ١٦٦)، وأخيراً أحكام انتقالية (المواد ١٦٧ ـ ١٦٩)[١٩٩].

تكمن قيمة هذا الدستور في كونه قد حدّد شكل الدولة وجوهر نظامها تحديداً دقيقاً يلتزم بنصّ وروح الميثاق الوطني وفلسفته. فقد جاء في مقدمة الدستور انه توكيد «للميثاق الذي أقرّه مؤتمر القوى الشعبية والذي تمّ استخلاصه من قلب معارك النضال ومن صميم ممارسة التغيير الواسع والعميق لأوضاع المجتمع المصري ليكون دليلاً فكرياً يقود خطى المستقبل»[٢٠٠].

وتكمن قيمته ومغزاه، أيضاً، في كونه قد أبرز المعاني والاتجاهات الوطنية والقومية، مترجماً التحوّل الفكري في السياسة والمدرسة الفكرية الناصرية باتجاه الديمقراطية، والاشتراكية، والالتزام بهما وحمايتهما ودعمهما بكل الوسائل. فقد نصّت المادة الأولى من مواد هذا الدستور على ان «الجمهورية العربية المتحدة دولة ديمقراطية اشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب». وفي هذا تأكيد على ما وصف بـ «الديمقراطية السليمة»، وعلى دعم حقوق قوى الشعب وطبقاته الاجتماعية، وحماية النظام الاشتراكي.

كما نصّت الفقرة الثانية من المادة الأولى ذاتها، على ان «الشعب المصري جزء من الأمة العربية». ويعني هذا، ولا شكّ إبراز الكيان العربي لمصر، وانتماءها القومي العربي.

وكذلك، أكّدت المادة الثانية من الدستور على «ان السيادة للشعب»، وتكون «ممارستها على الوجه المبيّن في الدستور»، ويعني ذلك منح السلطة الكاملة للشعب من الوجهة القانونية.

وكانت المادة التاسعة أشدّ جلاء واكثر تحديداً على صعيد تحديد الموقف من الاشتراكية، وأكثر من ذلك على صعيد تبنّي الاشتراكية ـ بالشكل الذي كان يفهمه عبد الناصر به ـ منهجاً معتمداً للبناء والتنمية الوطنية والتطوّر الديمقراطي المستقلّ. فقد نصّت على «ان النظام الاقتصادي للدولة هو النظام الاشتراكي».

---

(١٩٩) «دستور الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٦٤،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٢، رقم الوثيقة ٦٣، ص ١١١ ـ ١١٨، والأهرام، ٢٤/٣/١٩٦٤.

(٢٠٠) الفكهاني، **موسوعة جمال عبد الناصر: مصر الثورة، من الزعيم الخالد إلى خليفته الثائر**، ج ١، ص ٣٠ ـ ٣١.

وهكذا تحدّد اتجاه النظام الناصري، في مرحلة الستينيات، كما تبلور منهج البناء والتخطيط والتنمية باتجاه الاشتراكية. ففضلاً عما سبق عدّت مواد دستور الثالث والعشرين من آذار/مارس جميع الممتلكات المؤممة بموجب قرارات يوليو/تموز ١٩٦١ وما بعدها «ملكاً للشعب»، لكن الدستور الجديد أقرّ، في الوقت نفسه، حق التملك الفردي، وكذلك ملكية الجمعيات التعاونية. وكان الفكر الناصري يرى في «خلق قطاع عام، وقادر يقود التقدم في جميع المجالات، ويتحمل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية» و«وجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال» و«على ان تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين، مسيطرة عليهما معاً» الطريق الأسلم للوصول إلى «الحل الاشتراكي» كما ورد في نص الميثاق والدستور الجديد.

في السياق ذاته أقرّ دستور الثالث والعشرين من آذار/مارس بوضوح لا لبس فيه العديد من حقوق وواجبات الشغيلة ـ العمال والفلاحين الذين اعتبرهم، مع الجنود والمثقفين و«البورجوازية غير المستغلة» قاعدة «مجتمع العدل الأساسية»[٢٠١].

تقويم تحولات مرحلة ما بعد التأميم

تؤلف تحولات الستينيات، دون شك، نقطة مهمة في مسار تطور الفكر الناصري، تنطوي على ما هو إيجابي وما هو سلبي كأي حالة مشابهة أُخرى بغض النظر عن الزمان والمكان. ففي ميدان التنظيم كان تأسيس «الاتحاد الاشتراكي العربي» يؤلف، في وقته، خطوة متقدمة بالنسبة إلى سلفية «الاتحاد القومي» و«هيئة التحرير»، فقد انطوى على قدرٍ من التطور الفكري فرضته التجارب، وحالات التعثر السابقة بغض النظر عن حجمها، ونوعها، وأسبابها. تجسد ذلك، قبل كل شيء، في الإنجازات التي تحققت لمصر في ظل «الاتحاد الاشتراكي» وقرارات التأميم على مدى حوالى عقد سبق انتكاسة عام ١٩٦٧. ففي تلك الحقبة يلاحظ ان مصر اندفعت بقوة نحو التصنيع، إذ بلغ معدل النمو في الانتاج الصناعي ٩,٣ بالمئة سنوياً، وزاد متوسط الدخل الحقيقي بأكثر من ٣ بالمئة سنوياً بعد ركود طويل لفترة تقرب من خمسين عاماً. وظهرت في البلاد قطاعات صناعية جديدة مثل التعدين، وصناعة بناء الآلات والماكنات، والصناعات الكيمياوية والحربية وغيرها[٢٠٢].

---

(٢٠١) عبد الغني سعيد، «وضع الطبقة العاملة في الدستور،» الكاتب المصري، العدد ٦٥ (١٩٦٦)، ص ٦٨ ـ ٧٢.

(٢٠٢) جلال أحمد أمين، المشرق العربي والغرب: دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩)، ص ٥١.

وثمة أهمية معنوية خاصة أفرزتها الإجراءات التي اتخذتها حكومة عبد الناصر في تلك الحقبة، وهي ان الفرد المصري العادي بدأ يدرك إلى حدٍ واضح موقعه الحقيقي، ودوره ووزنه في المجتمع، ليتجاوز بذلك حالة الخنوع التي كان يوصم بها في حالات غير قليلة. ولا يمكن عزل هذا التطور عن حقيقة مهمة أخرى تكمن في الإفلاس النهائي لبقايا الفكر الاقطاعي في المجتمع المصري بفضل التحولات التي شهدتها البلاد يومذاك. كما تحقق قدر كبير من الاستقرار السياسي الذي كان يفتقر إليه معظم بلدان العالم الثالث في تلك المرحلة.

ساعد كل ذلك على بروز مصر على الصعيد العربي والدولي، وأصبح نظام عبد الناصر يحظى باحترام خاص، او يحسب له حسابه من الجميع، ويعد ذلك، دون شك، من مؤشرات نجاح الفكر الناصري.

وقد انطوت مؤسسات «الاتحاد الاشتراكي العربي»، وقرارات التأميم، مع ذلك، ومنذ البداية على ثغرات ومآخذ ظهرت نتائجها فوق السطح أثناء الممارسة والتطبيق. فعلى الرغم من ان «الاتحاد الاشتراكي» كان يمثل خطوة إلى أمام، إلا انه لم يكن في المحصلة النهائية أكثر من تنويع على موضوع سلفيه «الاتحاد القومي» و«هيئة التحرير» ذاته بمعنى انه لم يأتِ بجديد نوعي تماماً، بل جاء بفارق دَرَجي، فهو لم يتخلص من أمراض سلفيه، ولم يستفد من التجارب والأخطاء التي رافقت إنشاءهما، وكل فترة نشاطهما، كما نبين ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد.

وعلى الغرار نفسه لم تؤد الاصلاحات التي نفذت في مرحلة الستينيات الى النتائج المطلوبة إلا في ما ندر. إن قوانين الإصلاح الزراعي، مثلاً، قد أمنت مستأجري الأراضي الزراعية على دخولهم، ورفعت نصيب الأجور الزراعية إلى إجمالي الدخل الزراعي، لكنها لم تؤد حتى منتصف العقد السابع إلى إعادة توزيع اكثر من ١٢ بالمئة من إجمالي الأراضي الزراعية[٢٠٣]. ولم تكن مشكلات التصنيع بدورها قليلة، وشهد إشراف الدولة المباشر على تجارتي التصدير والاستيراد صعوبات، وحالات تعثر، وهبطت أسعار العملة المصرية في الأسواق العالمية هبوطاً لم يشهد النقد المصري له مثيلاً من قبل[٢٠٤].

وصحيح ان العمال حققوا فوائد من قرارات التأميم، ولكن ما نالوه فعلاً من أرباح الشركات بلغ ١٠ بالمئة لا ٢٥ بالمئة كما كان مقرراً، لأن النسبة المتبقية

---

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢، وتاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، ج ٢، ص ١١٤ ـ ١١٥ و١١٨.

(٢٠٤) أحمد أبو الفتح، جمال عبد الناصر (بيروت: لجنة مصر الحرة، [د. ت.])، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

خصصت، بحسب القانون، لخدمات اجتماعية وتأمينية، فضلاً عن ان التشريعات حرمتهم من العمل الإضافي[٢٠٥]. وكان تمثيل العمال في مجالس إدارة الشركات شكلياً، بينما شهدت المرحلة، بالمقابل، انتشار البيروقراطية الادارية، واستشراء الفساد. ويكمن السبب في كل هذا في ان التنفيذ جاء ميكانيكياً لقرارات الإصلاح، بل بالأسلوب العسكري (إذا جاز التعبير) الذي يفترض الطاعة التامة وعدم النقاش. وقد سجل الدكتور عبد الأمير السعد ملاحظة دقيقة عن التعارضات التي ترافق ميكانيكية التطبيق بالضرورة، وكيف ان ذلك يؤدي في المحصلة النهائية الى «فقدان الدور التحفيزي لعلاقات الإنتاج، بل تحولت في بعض جوانبها إلى أداة[٢٠٦] بيروقراطية كابحة لتطور قوى الإنتاج من جهة، ومن جهة أخرى أشاعت موقفاً ابتذالياً مفاده أن أي تغيير في الميكانيزم الاقتصادي يعني تراجعاً عن الاشتراكية . . . في الوقت الذي نفهم، على الصعيد النظري، ان تغيير الميكانيزم الاقتصادي لعلاقات الإنتاج بالشكل الذي يستجيب لطابع تطور القوى المنتجة، هو عنصر أساسي في تعزيز الاشتراكية عملياً. تحت ظل هذه التعارضات تفشت مظاهر مثل ضعف الانتاجية، الفساد والرشاوى، واقتصاديات الظل . . . الخ، وبالتالي تمت السيادة لنموذج الآمرية الإدارية. . .»[٢٠٧].

أدت عقلية الهيئات القيادية للاتحاد الاشتراكي دوراً كبيراً في إفراز مثل هذه الظواهر السلبية. فإن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد في الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤، مثلاً، كانت تضم ثمانية عشر عضواً، اثنا عشر منهم كانوا من الضباط السابقين. وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٦ خُفض عدد أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد إلى سبعة أعضاء كانوا جميعاً، دون استثناء، ضباطاً سابقين. أما الأمانة العامة للاتحاد فقد كانت تضم في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٦٤ خمساً وعشرين عضواً، ستة عشر منهم كانوا من الضباط السابقين. كما كان منصب السكرتير الأول، أو الأمين العام للاتحاد من نصيب العسكريين دوماً[٢٠٨].

هنا نلجأ مرة أخرى إلى شهادة معبرة لمحمد فريد شهدي الذي سجل بصدد هذه الظاهرة تعليقاً نتفق معه تماماً، والذي يقول نصه:

«انني لا أعتبر كون المرء ضابطاً سابقاً تهمةً على الاطلاق، بل لعلها شرف

---

(٢٠٥) كانت الساعة الإضافية من العمل تحسب أحياناً بأجر مضاعف لساعة العمل الأصلية.

(٢٠٦) في النص: كأداة.

(٢٠٧) عبد الأمير السعد، «قضايا القطاع العام والخاص والتنمية،» دراسات عربية، السنة ٢٦، العددان ٥ ـ ٦ (آذار/ مارس ـ نيسان/ ابريل ١٩٩٠)، ص ٧٥.

(٢٠٨) شهدي، تأملات. . . في الناصرية، ص ١٢٢ ـ ١٢٥.

عظيم لهؤلاء الذين أسهموا في خلق تنظيم الضباط الأحرار، وفي قيام ثورة يوليو . . . لكن الخطر يكمن في التكوين الفكري غير السياسي، وغير الجماهيري لجماعة الضباط الذين تربوا، وليس هذا ذنبهم، على مبدأ الطاعة التامة للقائد، وعلى مبدأ الانصياع المطلق من القاعدة. . . وبرغم نجاح البعض في تخطي هذا الحاجز، فإن الكثيرين ظلوا، دوماً، يمارسون عملهم السياسي بعقلية العسكر، ولقد ساعد على ذلك، بغير شك، انهم كانوا دوماً الغالبية، وانهم كانوا دوماً أصحاب السطوة، فلم تُتَحْ للعناصر الأخرى الفرصة للتأثير فيهم، ولا في أساليب عملهم»[٢٠٩].

تكمن الأهمية الكبيرة لهذه الملاحظة في انها صادرة من مراقب دقيق وشاهد عيان من الداخل «والعيان يغني عن البيان»، من مفكر مع الثورة وليس ضدها، بالغ الحرص على نجاح مسيرة الناصرية وازدهار فكرها بالاتجاه الديمقراطي الحقيقي. وتكمن في النقطة الأخيرة تحديداً علة العلل غياب الديمقراطية. فقد سادت الساحة العسكرية البيروقراطية، المفتونة بالإصلاح الفوقي، وبإصدار الأوامر التي لا تحتمل النقاش، ولا المعارضة بأي حال من الأحوال، لذا بقيت التنظيمات السياسية والتشريعية تمثل مجرد واجهات شكلية توحي بوجود العمل السياسي، فاختفت المبادرات في التعبير وإبداء الرأي.

كان «الاتحاد الاشتراكي العربي» يفتقر إلى قواعد المركزية الديمقراطية، ولم تكن هنالك قنوات حقيقية بين القيادة والقاعدة، وظلت القيادات الوسطى للاتحاد في حالة تمزق بين مطالبات الجماهير وإعراض قيادة التنظيم. ولم يتضمن قانون الاتحاد أصلاً ايّ نص يُمكن القاعدة من مساءلة القيادة، كما لم يتضمن ما يكفل للقاعدة حق الحصول على إجابات عن استفساراتها، او ما ينظم حقوقها في نشر رأيها والتعبير عنه، مما أوجد هوة سحيقة بين التنظيم والجماهير على الرغم من إيمان الأكثرية الساحقة بالثورة وبشخص جمال عبد الناصر وأفكاره. إن هذا النفور من «الاتحاد الاشتراكي»، ومن القطاع العام، الذي تحدثت عنه التقارير الأمنية الخاصة[٢١٠]، صب الماء، بالضرورة، في قنوات طواحين القطاع الخاص، والمخربين، وأعداء الفكر الناصري من شتى الصنوف، كما خلق، بالمقابل، ما يمكن وصفه بحالة وهن في الضمير المهني، وقد تجلى ذلك «في ضعف إنتاجية العاملين في القطاع العام، وهي تعبر عن كونها نوعاً من «إضرابات الصمت» في ظروف تغييب الديمقراطية، وتهميش المشاركة الشعبية تخطيطاً وتنفيذاً ورقابةً على النشاط الاقتصادي العام والخاص»[٢١١].

---

(٢٠٩) المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢١٠) أبو الفتح، جمال عبد الناصر، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢١١) السعد، «قضايا القطاع العام والخاص والتنمية،» ص ٨٧. وحول الموضوع نفسه، انظر: عبد المنعم سيد علي، «تطور دور الدولة في النشاط الاقتصادي في مصر والعراق والجزائر، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٨،» دراسات عربية، السنة ٢٦، العددان ٥ ـ ٦ (آذار/ مارس ـ نيسان/ ابريل ١٩٩٠).

في مثل هذه الأجواء كان أمراً متوقعاً أن تؤدي بعض المنطلقات الفكرية، والقرارات المتخذة الى نتائج معكوسة، وغير محسوبة، منها عدم تأثر مصالح بعض فئات المجتمع الاستغلالية بقرارات التأميم، بل انها قد ازدادت بعد الإصلاحات قدرة، خصوصاً انها تمكنت بذكاء من أن تكيف نفسها مع الأوضاع الجديدة. وقد ورد في دراسة سوفياتية بهذا الصدد:

« ان هناك قوة خطيرة جداً لم تتأثر بالاصلاحات . . . وهي فئة كبار الملاك الرأسماليين وأثرياء المزارعين» الذين تحولوا بذلك إلى «عماد الرأسمالية» في مصر[٢١٢].

وفي سياق المقارنة يجوز القول ان هناك خيوطاً مشتركة تجمع، بصورة أو بأخرى، بين تجربتي مصر ناصر والاتحاد السوفياتي السابق، فإن البيروقراطية في التطبيق كانت سمة مشتركة بين الحالتين، كما ان «الاتحاد الاشتراكي العربي» كان يقوم، عملياً، بدور الحزب الشيوعي السوفياتي الذي كان يعاني بقوة أمراض البيروقراطية والآمرية نتيجة غياب الديمقراطية الحقيقية، والرأي الآخر، والحوار البناء، مما أدى إلى ظهور، ومن ثم شيوع وتفاقم ظواهر المزاجية والبطانات، وافتقار الأصالة في التعامل الإنساني، وتغطية كل ذلك باسم «الصالح العام» و«مصلحة الاشتراكية» و«الحفاظ على ثورة البروليتاريا وأهدافها». وهكذا فإن غياب الديمقراطية في الحالتين ادى إلى إجهاض عدد من المنجزات، وتقليل الفائدة المتاحة من العدد الآخر، وذلك بغض النظر عن جميع النيات الصادقة.

وإذا قيل ان تربة روسيا الأوروبية ذات التقاليد الرأسمالية لم تكن صالحة لبذرة الاشتراكية، وبأن التجربة السوفياتية كانت تخطياً لأفكار كارل ماركس وتوقعاته[٢١٣]، فماذا عسى أن يقول المرء بالنسبة لتجربة الناصرية في ميداني التأميم والتنظيم في حقبة الستينيات؟ إن هذا الموضوع بحاجة، دون شك، إلى دراسات معمقة تحتمل شتى أنواع الاجتهاد والرأي. لكن ذلك لا ينفي، بالطبع، الحق في التأكيد على ان الاشتراكية ينبغي أن تعتمد كماً هائلاً من التطور الحضاري في شتى ميادين المجتمع والاقتصاد، وبالتالي الفكر والوعي، وهي بحاجة ماسة إلى «نارٍ هادئة» من أجل أن يؤتى أُكلها، مما لا يتلاءم أبداً مع إصدار القرارات الجاهزة التي تحمل في أحشائها، عادة، عوامل إخفاقها.

يبدو أن جمال عبد الناصر قد أدرك هذه الحقيقة قبل انتكاسة عام ١٩٦٧، لكن

---

(٢١٢) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، ج ٢، ص ١١٨.

(٢١٣) لمزيد من التفاصيل حول الموضوع، انظر: «انهيار الاتحاد السوفياتي ومسألة حقوق الإنسان،» حقوق الإنسان (بغداد)، العدد ٣ (آذار/ مارس ١٩٩٥).

ذلك لا ينفي مسؤولية عبد الناصر عما حدث بغض النظر عن صدقيته هو، وحسن نياته وإخلاصه وتفانيه وثباته الذي ليس بوسع أحدٍ أن ينكره. إنه، على سبيل المثال، كان يؤمن بالتطور وضرورته لتجاوز الإخفاق، لكنه قلما طبقه على أرض الواقع بإصرار لأسباب مختلفة بعضها كانت ذاتية مؤثرة. فبالنسبة للنقطة الأخيرة لم يعمل عبد الناصر على خلق ناصريين عمالقة، مؤثرين وفاعلين بمستوى جمال عبد الناصر، أو بما يقارب من مستواه، مع العلم أن ذلك لم يكن أمراً عصياً بالنسبة لقائد متميز مثله يقف على رأس شعب عملاق، حافل بالعبقريات الفذة مثل الشعب المصري، بل ان دائرة مقربيه نفسها لم تخل من عناصر ذات كفاءة عالية كان بوسعها ان تؤلف، مع غيرها، مؤسسة ثابتة تعمل على تطوير الفكر الناصري والتبشير به. وهنا ينبغي ان نشير أيضاً إلى ان العديد من الوطنيين العرب المخلصين، من غير المصريين، ابدوا استعدادهم المطلق للتعاون مع عبد الناصر في هذا المضمار لما كانوا يعلقونه من آمال جسام على فكره بالنسبة لمستقبل الأمة بأسرها[٢١٤].

نعود مرة أخرى ونقول على الرغم من كل الهفوات والمآخذ، فإن جمال عبد الناصر قد تحول في مرحلة الستينيات إلى رمز مهم من رموز الفكر والوطنية على صعيد مصر والوطن العربي والعالم الثالث، فتزايد حجم زعامته محلياً وقومياً وعالمياً من يوم إلى آخر بفضل أفكاره ومواقفه الثورية الجريئة التي جعلته مقبولاً في أعين الأكثرية. ثم ان الفكر الناصري بحدوده، وآفاقه التي كانت تؤطره في الستينيات، وفي ظروف تكالب الأعداء، قد أوفى بغير قليل مما كان ينبغي عليه.

وأخيراً ينبغي القول إن انتكاسة عام ١٩٦٧ تحمل في طياتها أكثر من مؤشر جاد يبرر مجمل تقويمنا السابق بغض النظر عن جميع الضغوط الخارقة، الداخلية والخارجية، الاقليمية والدولية، التي مهدت الطريق لحالة الإنتكاسة تلك، وفرضتها فرضاً باتجاه دخل فيه النَيل من الفكر الناصري ضمن أولويات اهدافها.

---

(٢١٤) مقابلة مع فيصل فهمي سعيد بتاريخ ١٤ نيسان/ابريل ١٩٩٦، ومقابلة مع أمير الحلو، رئيس تحرير مجلة ألف باء، بتاريخ ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧.

الفصـــل الخامـــس

العوامل التي مهدت للنكسة وانعكاساتها على آراء عبد الناصر ومواقفه

أولاً: الصراع مع إسرائيل في الفكر الناصري

احتلّت الصهيونية و «اسرائيل»، بالضرورة، موقعها في رؤية عبد الناصر الفكرية التي ظلّت، طوال الوقت، منذ الصبا فالشباب وحتى ثورة يوليو وبعدها، تسم الصهيونية وكيانها «اسرائيل» بالعدوان، وبالجسم الغريب المعادي وسط الوطن العربي. والحق ان الدعوة الصهيونية تركّز كل التركيز على الاستيطان الاستعماري الذي تخطط له في وادي نهر «النيل» بداية ووادي نهر «الفرات» في العراق نهاية (الشعار الصهيوني المعروف «من النيل إلى الفرات»). وأحياناً، وفي فترات التوسع الصهيوني وظروفه التي بدت، وقتئذ، مؤاتية، جرى التعديل على حدود هذا الشعار فصارت نهايته سائبة، غير محدّدة، ترجمها القائد العسكري التوسّعي الصهيوني دايان بالقول «الى الحد الذي تصل اليه جزمة الجندي الاسرائيلي». ومع ذلك فالبداية ظلّت من النيل. هذا على صعيد المكان، أما على صعيد الزمان، فإن الصهيونية، كما وضع ايديولوجيتها مؤسّسوها في القرن التاسع عشر، كانت قد أخذت العبرة لصالحها من عهد محمد علي وتجاربه الوحدوية. تقول الموسوعة السياسية ان «الصهيونية فكرة ودعوة وحركة سياسية عنصرية ثيوقراطية، أطلقها تيودور هرتزل في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بقصد تعبئة يهود العالم من أجل الاستيلاء على فلسطين واستعمارها لإقامة دولة يهودية فوق أراضيها، وذلك بتأييد الدول الاستعمارية الأوروبية، وخاصة بعد تجربة محمد علي الوحدوية»[1].

قاوم جمال عبد الناصر الصهيونية في مختلف المراحل والحقب الزمنية التي عاصرها، قاومها في صباه وشبابه بانخراطه في التظاهرات ضد المشاريع الصهيونية،

---

(١) عبد الوهاب الكيالي [وآخرون]، موسوعة السياسة، تحرير وإشراف عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري؛ اشترك في التحرير أسعد رزوق [وآخرون]، ٧ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤)، ص ٣٤٩.

وقاومها ضابطاً مقاتلاً في حرب ١٩٤٨، ومتعلّقاتها (في حصار الفالوجة الشهير كما مر بنا). وإلى هذه الحرب يعود الفضل في ترسخ البعد العربي في الرؤية الفكرية الناصرية كما يقول هيكل[٢]. وظلّ يقاومها حتى «استُشهد» بسبب الجهاد ضدّها، ومحاولاته رأب صدع الصف العربي استمراراً في القتال ضدها. لقد كان عبد الناصر مبدئياً بأرفع ما تكون المبدئية في رفض الصهيونية وكيانها المغروس غرساً متعمداً في قلب الوطن العربي. وكحصيلة لقراءاته النظرية السابقة قبل الثورة، وقراءاته الميدانية، بخاصة، في الفالوجة والحرب الفلسطينية الأولى، فإنه توصل، شأنه شأن غيره من القادة الثوريين في الوطن العربي وسواه، إلى أن «اسرائيل» لا تعدو أن تكون كياناً دخيلاً وسط الوطن العربي، وقلعة أمامية للامبريالية الأمريكية، لا تكف بحكم تركيبها، وجوهرها الاستغلالي عن التوسع، وتشكل خطراً دائماً يهدد الأقطار العربية والأنظمة الوطنية فيها، وفي مقدمتها النظام المصري[٣].

وفي الخلفيّة التاريخية والجيوبوليتيكية للمقاومة الناصرية ضد الصهيونية، ينبغي الإشارة إلى أن «الوفد» أدى دوراً كبيراً، مع عدد من الأحزاب الوطنية الأخرى، في تأجيج نار هذه المقاومة، ولو ان ذلك لم يتبلور بمصطلحات سياسية عصرية، فقد اختلط بالاعتبارات الدينية، وبالتنافس التجاري الاقتصادي. وبعد حرب ١٩٤٨ التي دخلتها مصر الفاروقية بطريقتها الخاصة، فإنها لم تعد قادرة على الخروج من دائرة الصراع العربي الشامل ضد «اسرائيل» لأسباب مرجعها السياسة الداخلية والعلاقات مع الأقطار العربية[٤].

ان التحام الفكر الناصري بقضية الوحدة كان التحاماً صميمياً، فقد استطاعت الناصرية ان تحوّل مفهوم العروبة الفضفاض إلى مفهوم الوحدة القومية العربية المحدد، وقد أدى هذا المفهوم دوره، بالضرورة، في تصعيد درجة العداء ضد «اسرائيل» وإبقاء

---

(٢) فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٩٠.

(٣) «مؤتمر الرئيس جمال عبد الناصر الصحفي حول أزمة الشرق الأوسط في ٢٨/٥/١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ١١ ج (بيروت: الجامعة، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧)، ج ١، الوثيقة رقم ٢١٢، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠؛ عبد الغفار شكر، فلسطين في فكر عبد الناصر: دراسة وثائقية، قضايا قومية؛ ١ (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٢)، ص ٧؛ الأهرام، ٢٩/٥/١٩٦٧، و Emile Bustani, «Arab-American Relations,» *Middle East Forum,* vol. 37, no. 3 (March 1961), p. 39.

(٤) عصمت سيف الدولة، مشكلة فلسطين من وجهة نظر قومية (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٩١)، ص ٣ ـ ٥، ومطاع صفدي، «الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو،» ورقة قدمت إلى: ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل (ندوة) (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٦٦١ ـ ٦٦٣.

هذا العداء حياً متواصلاً، بشكل أو بآخر. وفي إطار الاتجاهات الوحدوية القومية المتبادلة التأثير والتأثر، أصبحت حتى الأنظمة العربية الرجعية ملزمة أدبياً بالاحتفاظ بموقف عدائي، ولو بالحد الأدنى (لفظياً) تجاه «اسرائيل».

وعاشت مصر والعرب الحقبة التي كان فيها مفهوم العروبة يعني التضامن العربي، فإن وجود «اسرائيل» كان يعد بمثابة إهانة للعرب، وعلامة فشل لعدم استطاعتهم الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني أمام الخطر الصهيوني. ولكن خلال الحقبة التالية، التي تصاعد فيها المد القومي، أصبح مفهوم «العروبة» يعني نضالاً بزعامة مصر من أجل الوحدة العربية، وأصبح وجود «اسرائيل» حاجزاً طبيعياً يحول دون تحقيق هذه الوحدة. ولولا هذا التطور في مفهوم الوحدة العربية لظل الصراع مع «اسرائيل» يدور، أبداً، في حلقة مفرغة من اللاسلم واللاحرب. لكن هذا التطور الفكري السياسي في مفهوم الوحدة ومضمونها الاجتماعي التاريخي المعاصر أدخل المنطقة في مرحلة صراع أيديولوجي حاد بين مصر، التي كانت تهدف لتوحيد الوطن العربي وجعله القوة الدولية الكبيرة التي ينبغي ان تحتل مكانها في مسرح السياسة والاقتصاد، وبين «اسرائيل» التي كانت تعتقد بأنها تقاتل من أجل بقاء كيانها، وانتزاع شرعيته بالقوة[٥].

وعلى الرغم من شعور الخيبة الذي تولد لدى قادة ثورة يوليو، جراء الانفصال السوري في عام ١٩٦١، الا ان مصر الناصرية استمرت في اعتبار «اسرائيل» حاجزاً أساسياً في طريق الوحدة العربية. فوجود «اسرائيل» في نظر عبد الناصر كان، وسيبقى عاملاً مشجعاً لكل انفصال، وكل خرق، وانتهاك للوحدة والتضامن العربيين والعمل العربي المشترك، وكان بالتأكيد عاملاً مشجعاً للانفصاليين في سوريا. كما اعتبر عبد الناصر ان وجود «اسرائيل» بالذات هو الذي منع قيام الثورة في الأردن في عام ١٩٥٨. وبرغم كل هذه الاعتبارات والعوامل المهمة، فإن مصر لم تحضّر، في هذه الفترة، لحرب شاملة ضد «اسرائيل»، فان لديها ما يكفيها من المشاغل المحلية، اضافة إلى السبب الأهم وهو عدم تكامل قدرتها العسكرية[٦].

---

(٥) جمال عبد الناصر، فلسطين: **من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**، كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ٣٠٢، ط ٢ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [-١٩٦])، ص ٤٤ ـ ٥٧؛ أحمد صدقي الدجاني، **عبد الناصر والقومية العربية** (بيروت: دار الوحدة، ١٩٧٣)، ص ١١٨ ـ ١٢٣، وحاتم صادق، **قضايا ناصرية** (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨١)، ص ٥٥ ـ ٥٩.

(٦) **نضال البعث** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٦)، ج ٦: **القيادة القومية، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢: من تشكيل القيادة القومية حتى نهاية الانفصال**، ص ١٧٥ ـ ١٧٨؛ مصطفى دندشلي، «حزب البعث العربي الاشتراكي، ١٩٤٠ ـ ١٩٦٣: المساهمة في نقد الحركات السياسية في الوطن العربي،» (أطروحة دكتوراه، جامعة السوربون، ١٩٧٥) الجزء الأول: «الايديولوجيا والتاريخ السياسي،» ص ٢٨٧ ـ ٢٩٥، نقلت إلى العربية عام ١٩٧٩، وصفدي، «الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو،» ص ٦٦٦ ـ ٦٦٨.

وطوال الحقبة الممتدة بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٧ كان الصراع ضد «اسرائيل» يحتل مقاماً يأتي بعد مقام القضيتين الأساسيتين: السعي لتحقيق الوحدة العربية، والعمل على تطبيق اللوائح الاشتراكية التي سنّها **ميثاق العمل القومي**، وهي اللوائح التي تضمنت قوانين التحولات الاجتماعية والاقتصادية لمصر. وفي الفكر الناصري عموماً كان اشتراط الوحدة العربية متطلباً أساساً لتحرير فلسطين. وهذا ما دعا الرئيس عبد الناصر للإسراع في إقامة الوحدة مع سوريا في عام ١٩٥٨[٧] وعلى الرغم من عدم استمرار هذه الوحدة لأكثر من ثلاث سنوات، فإنه لم تحصل مواجهة عسكرية مع إسرائيل، بل شهدت الحدود السورية ـ الإسرائيلية، والحدود المصرية ـ الإسرائيلية فترة من الهدوء التام[٨]. وعندما طرح عليه بعثيو سوريا والعراق، بعد تسلمهم السلطة، في عام ١٩٦٣ مشروع الوحدة الثلاثية، استجاب عبد الناصر في البداية، غير انه أبدى بعض الممانعة والتردد[٩].

١ ـ الصراع وبواكير التسوية في الفكر الناصري

توالت المحاولات الأمريكية والغربية باستمرار على دعوة مصر و«اسرائيل» الى تسوية سياسية للصراع بينهما. وقد بدأت هذه المحاولات بشكل جاد منذ بداية عام ١٩٥٦. وفي الحقيقة، فإن الولايات المتحدة والدول الغربية المتحالفة معها لم تكن راغبة في ايقاف، بل حتى تخفيف حدة الغارات الصهيونية ضد قطاع غزة، فهي كانت واثقة من ان السياسة العسكرية «الاسرائيلية» ستتمكن، آخر الأمر، من الإطاحة بالنظام الناصري، فإن لم يمكن هذا، فإنها ستدفع مصر إلى الشعور بالإحباط، بسبب عدم القدرة على مواجهة «اسرائيل»، الأمر الذي سيضطرها، في النهاية، إلى طلب مساعدة الغرب، على الرغم من ان الرئيس عبد الناصر كان قد رفض إدخال بلاده في أية أحلاف أجنبية. وعلى صعيد آخر، فإن الوضع الدولي لمصر كان حرجاً عموماً، فإذا كان الغرب يتربص بها، محاولاً جعلها محمية تابعة اسرائيلية ـ غربية، فإن السوفيات لم يقدموا إلى عبد الناصر، في البداية، أية أسلحة، معتبرين النظام الناصري

---

(٧) «خطب وأحاديث الرئيس جمال عبد الناصر»، خطابه في ١٩٥٩/٤/٢١، في: جمال عبد الناصر، **عبد الناصر والثورة، من أقوال الزعيم الخالد (يوليو ١٩٥٢ ـ سبتمبر ١٩٧٠)** (القاهرة: لجنة منظمة الشباب الاشتراكي، [د.ت.])، ص ٢٣٧.

(٨) جمال عبد الناصر، **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر** (القاهرة: مصلحة الاستعلامات، [د.ت.])، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٩) **محاضر الوحدة مارس (آذار) ـ ابريل (نيسان) ١٩٦٣** (القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٦٣)، ص ١٠٢ ـ ١١٠، والجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ٤ ج (بيروت: الجامعة، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦)، ج ١، الوثيقة رقم ٤٧، ص ١٠٩ ـ ١١٢، **والأهرام**: ١٩٦٣/٣/١٤، و١٩٦٣/٤/١٧.

نظاماً معادياً للديمقراطية، غير شعبي. وهكذا فاللوحة كانت حافلة بالتهديد والابتزاز، فقد كان شرط بريطانيا لتزويد مصر بالأسلحة هو قبولها الدخول في حلف دفاعي اقليمي تنضم اليه الدول الشرق أوسطية الأخرى، غير ان رد عبد الناصر كان رفضه العرض البريطاني، ادراكاً منه لعمق المشاعر الوطنية المصرية والعربية المعادية للكيان الصهيوني، ولأية قواعد، أو أحلاف تابعة للغرب في المنطقة(١٠). ولكن الدبلوماسية الناصرية المستقلة المعادية للامبريالية كسبت الجولة آخر الأمر. لقد كان الفكر الناصري شديد العداء، شديد التوجس من الامبريالية الغربية ومشاريعها في التكتل والأحلاف، وكان عبد الناصر مؤمناً برؤيته الفكرية هذه كل الايمان، وكان يجادل أكبر القوى الامبريالية الغربية عن قناعة عميقة بذلك. يشهد هيكل بوقائع الاجتماع الأول بين ناصر ودالاس في عام ١٩٥٥، فيقول: «... وفي الاجتماع الأول بين عبد الناصر ودالاس ... طرح وزير الخارجية الامريكية مشروع الأحلاف. ورد عليه عبد الناصر: أحلاف ضد من؟ واجاب دالاس: ضد الاتحاد السوفياتي والشيوعية. وقال عبد الناصر: التهديد الذي أشعر به ناتج من وجود قاعدة انكليزية في منطقة قناة السويس، اما الشيوعية فإنها لا تهددني، ولا الاتحاد السوفياتي يهددني. واذا كان الاتحاد السوفياتي ليس قادراً على ان يؤثر في الدول الملاصقة له، فكيف يؤثر علينا.. . كان دالاس يعتقد ان المشكلة الأساسية في المناقشة هي ان عبد الناصر غير مدرك لخطر الشيوعية. وهو عندما قال لعبد الناصر: اذا كنت ضد الأحلاف، فما هو البديل اذن؟ أجابه عبد الناصر: عندنا الجامعة العربية، وكل الدول العربية ممثلة في هذه الجامعة. وهناك ميثاق الدفاع العربي الذي يحتاج إلى تنشيط. قال له دالاس: دفاع ضد من؟ أجابه عبد الناصر: يدافع ضد أي خطر يهدد المنطقة أياً كان مصدره»(١١). وواضح من مثل هذه الشهادة الحاسمة ان عبد الناصر كان شديد الحساسية تجاه الاستقلالية، وانه لا يريد ان يفرط بذلك حتى لو كان الثمن صداقة الغرب، الذي كان في حقيقة الأمر حليفاً استراتيجياً راسخاً «لاسرائيل»، وحامياً لها وضامناً لمصالحها.

وعلى أية حال استطاع عبد الناصر بتأييد من الدولتين الاشتراكيتين: الصين والاتحاد السوفياتي، وقتذاك، كسر احتكار السلاح الغربي، فقد أعلن الرئيس

---

(١٠) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٧٠؛ B. K. Narayan, *Anwar El Sadat: Man with a Mission* (New Delhi: Vikas Pub. House, 1977), p. 53, and D. W. Crowley, *The Background to Current Affairs* (London: Macmillan, [n. d.]), p. 144.

(١١) مطر، المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣، ومحمد حسنين هيكل، ١٩٦٧: سنوات الغليان، حرب الثلاثين سنة (القاهرة: مؤسسة الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨)، ج ١، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

عبد الناصر في السابع والعشرين من ايلول/ سبتمبر ١٩٥٥ بأن مصر قد عقدت اتفاقاً مع تشيكوسلوفاكيا للحصول على صفقة من الأسلحة السوفياتية الصنع مقابل تزويدها بالقطن والرز المصري، بعد إخفاق جميع المساعي المصرية في الحصول على الأسلحة الغربية[١٢].

لقد رفضت الولايات المتحدة تقديم السلاح لمصر الناصرية الا بشرط دخولها في أحلاف عدوانية عسكرية تديرها هي، او الدول الغربية المتحالفة معها، مثل «حلف بغداد». ومع ان عبد الناصر لم يكن يريد المواجهة المباشرة وقتها، كما مر بنا آنفاً، مع الكيان الصهيوني، الا انه كان يريد الاستعداد والتحصين الكافي والتزود بالسلاح الثقيل اللازم، قبل الاشتباك في المجابهة المباشرة. ويفسر هيكل ذلك كالآتي: «كان الاستعداد للمواجهة شاغل عبد الناصر، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى ان اسرائيل لن تتركه يحدث معدلات النمو الاجتماعي والاقتصادي. وكان يردّد في استمرار انه لن يسعى إلى المواجهة، ولكن يجب ان يكون مستعداً لها لأنه لا يقبل ان يتحول شعب مصر إلى لاجئين»[١٣].

وكان موقف الفكر الناصري على أرفع مستوى من الموضوعية في تقويمه مسألة التجهز بالأسلحة السوفياتية، ورده على انتقادات المتحيزين. الجماهير العربية ... أيدت الخطوة بحماسة لأن عبد الناصر كسر بذلك احتكار السلاح. وفي حين كان هذا موقف الجماهير العربية فإن الأنظمة الرجعية بتشجيع من أمريكا بدأت تتحدث عن السلاح الكافر. وهذا ما حمل عبد الناصر على ان يقول «ان السلاح ليس بالمصدر الذي يأتي منه، وانه يكتسب جنسية الذي يستعمله، وان السلاح السوفياتي في يد المصري يصبح مصرياً. ولو ان هذا السلاح كان أمريكياً لكان أصبح مصرياً في يد الجندي المصري. ان السلاح أداة صماء، والذي يستعمله هو الذي يحدد جنسيته»[١٤]. ان عبد الناصر بمثل هذه المقولة كان رائداً، منذ وقت مبكر جداً، في الموقف الفكري تجاه تحديث التكنولوجيا ونقلها.

وتطوّرت المواقف الامريكية بشكل متسارع، متوتر، يعكس الايديولوجية المتشددة التي هيمنت على القصر الأبيض وقتذاك، وتجسيداتها السياسية تجاه أقطار الموقف الثالث، والمجموعة العربية ومصر بخاصة. فقد أعلن جون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية بأن دخول أسلحة سوفياتية الى الشرق الأوسط يشكل بداية

(١٢) صفدي، «الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو،» ص ٦٥٩.

(١٣) مطر، المصدر نفسه، ص ٧٤.

(١٤) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٧٧.

لمرحلة خطيرة من سباق التسلح[١٥]. وفي الوقت ذاته رفض دالاس الطلب الذي تقدم به ايدن بانضمام الولايات المتحدة رسمياً إلى «حلف بغداد»، بل ان دالاس قرر التوسط لدى البنك الدولي لتمكين مصر من الحصول على قرض لتمويل بناء السد العالي. وكان ذلك مقترناً، طبعاً، ببعض الشروط، منها ان يكون للولايات المتحدة الحق في مراقبة كيفية انفاق المبلغ بدقة، وذلك في محاولة امريكية واضحة لضمان عدم استخدام مصر القرض من أجل تمويل شراء صفقات الأسلحة السوفياتية. وقد رفض الرئيس عبد الناصر هذا الشرط. وفي اعقاب زيارة أوجين بلاك، مدير البنك الدولي، الى القاهرة، تم الاتفاق في التاسع من شباط/فبراير ١٩٥٦ على منح مصر قرضاً قيمته مائتا مليون دولار، لمدة عشرين عاماً.

وكان ايدن قد قدم، في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٥، مقترحاً بتعديل الحدود العربية مع الكيان الصهيوني، وبأن تقدم الولايات المتحدة وبريطانيا ودول غربية أخرى تعهدات مشتركة الى الأطراف المتنازعة تضمن فيها أمن وسيادة جميع دول المنطقة. ولم يحظ المقترح بالنجاح لتقاطعه مع الاقتراح الفرنسي الذي قدمه انطوان بينيه، وزير الخارجية الفرنسي، يدعو فيه الى ضم الاتحاد السوفياتي الى التصريح الثلاثي لعام ١٩٥٠، حول التوازن في الشرق الأوسط، واتخاذ قرار مشترك، بعد ذلك، تلتزم بموجبه هذه الدول بعدم بيع السلاح الى دول المنطقة. ولم يكتب لهذا المشروع النجاح، فقد أعلن الصهاينة ان صفقة الأسلحة السوفياتية الى مصر ستزيد من حدة التوتر في المنطقة، وهي موجهة بخاصة ضد كيانهم كدولة، وان رحيل العسكريين البريطانيين في أواخر حزيران/يونيو ١٩٥٦ انما هو بداية لمرحلة من الصدامات العسكرية المباشرة بين مصر و «اسرائيل»[١٦]. ونتيجةً لذلك طلبت الحكومة الصهيونية المزيد من الأسلحة من الغرب، وبخاصة من فرنسا لتعديل ما أسمته بالتوازن العسكري في المنطقة. وفي الوقت نفسه طلبت من بريطانيا منحها تعهدات تضمن حرية الملاحة الاسرائيلية في قناة السويس قبل انتهاء سحب القوات البريطانية من منطقة القناة، كما طلبت من الولايات المتحدة تعهداً بضمان أمن «اسرائيل» ضد أي تهديد عربي، وذلك في حالة عقدها أي حلف عسكري مع بعض الدول العربية! ولم تكتفِ «اسرائيل» بذلك، ففي الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٥ حذر بن

---

(١٥) رندولف تشرشل، سقوط ايدن، مع مقدمة بقلم الزعيم العمالي اتلي، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٥٩)، و William Roe Polk, *The United States and the Arab World*, American Foreign Policy Library (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1965), p. 209.

(١٦) موشي دايان، سيرة حياتي، ترجمة مركز الدراسات الفلسطينية (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٨٦)، ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

غوريون بأن «اسرائيل» لن تسمح بأن تقاد الى مجزرة على أيدي الدول العربية. وفي اليوم التالي مباشرة احتل الجيش الإسرائيلي منطقة العوجة على حدود سيناء، التي كانت بموجب اتفاقيات الهدنة منطقة منزوعة من السلاح[١٧].

٢ ـ الفكر الناصري وآلية الصراع ضد اسرائيل

اتخذ الفكر الناصري، والناصرية عموماً، في الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧ آلية معيّنة في المجابهة والصراع ضد اسرائيل، تميّزت في أهم معالمها، بإحكام السيطرة على عملية المجابهة، وتطويق مضاعفاتها، والحيلولة دون الانزلاق الى الحرب دون الاستعداد الكامل لها، وضمان النصر فيها. فقد اعتبر الرئيس عبد الناصر بأن عهد إدارة جونسون في الولايات المتحدة عهد مساندة مطلقة للكيان الصهيوني، على الرغم من محاولات التهدئة والاتصالات الجانبية. وكانت رؤية عبد الناصر الفكرية ـ السياسية وقتذاك ترى إمكانية استمرار التعامل مع إدارة جونسون دون الانضواء تحت المظلة الأمريكية، وضرورة مواصلة ذلك لمواجهة الضغوط المحيطة بمصر والأمة العربية.

لم تفرّط الرؤية الفكرية الناصرية بالقضايا القومية، في عهد المهادنة (١٩٥٧ ـ ١٩٦٧). فإزاء إعلان «اسرائيل»، وقتذاك، قرب استكمال المرحلة الأولى من «مشروع المياه القومي» الذي تمكّنت بموجبه من تحويل مياه نهر الأردن[١٨] والمضاعفات المحتملة، اتخذ الرئيس عبد الناصر خطوات مهمة في ميدان السياسة العربية، وطمأن سوريا والدول العربية، آنذاك، بالشروع بتحويل نهر الأردن داخل الأراضي العربية[١٩]، فقد دعا الى عقد مؤتمر القمة العربي الأول في الثالث والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، بناءً على طلب الحكومة السورية، ومن أجل بحث امكانية التنسيق والقيام بعمل عربي عسكري مشترك لإحباط الخطة الصهيونية، وإقامة قيادة عربية موحدة، ومساهمة الدول العربية في تنفيذ المشروعات[٢٠].

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

(١٨) أحمد حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٨)، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٨٤ ـ ٨٥؛ جميل مطر، «ثورة يوليو والصراع العربي الإسرائيلي،» ورقة قدمت إلى: **ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل**، ص ٧٦٣ ـ ٧٦٥، و Narayan, *Anwar El Sadat: Man with a Mission*, p. 84.

(١٩) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٦٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٢، الوثيقة رقم ٢٢٨، ص ٤٥٢، والأهرام، ٢٣/٧/١٩٦٦.

(٢٠) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في عيد العمال مايو (مايس) ١٩٦٤،» في: المصدر نفسه، الوثيقة رقم ٨٨، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٨، والأهرام، ٢/٥/١٩٦٤.

عقد المؤتمر في القاهرة للفترة من ١٣ الى ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، بمشاركة ثلاث عشرة دولة عربية، وصدرت قراراته الجماعية بدعم التضامن العربي، وتنقية الجو القومي من الشوائب، وتوفير وسائل العمل العربي المشترك، وبأن تحويل الكيان الصهيوني مياه نهر الأردن عدوان خطير على المياه العربية، وإضرار بالغ بحقوق المنتفعين بهذه المياه، واقامة مشاريع استغلال مياه نهر الأردن التي تجري في الأراضي العربية للحيلولة دون تمكين ذلك الكيان من نهبها. وأعلن كذلك عن تشكيل «القيادة العربية الموحدة»، توحيداً للعمل العسكري العربي، ووضع خطة عسكرية شاملة، واستخدام الوسائل السياسية والاقتصادية والاعلامية لنصرة السياسة العربية في فلسطين، وتصفية بقايا الاستعمار في الوطن العربي. كما وافق المؤتمر على انشاء منظمة التحرير الفلسطينية[٢١]. وقد تعرّضت رؤية الرئيس عبد الناصر الفكرية في تضبيط السيطرة على آلية الصراع ضد اسرائيل، لضغوط كبيرة من الرئيس السوري أمين الحافظ الذي قدم جملة مقترحات لشنّ حرب شاملة ضد الكيان الصهيوني، الا ان عبد الناصر رفض هذه المقترحات رفضاً باتاً، مفسراً رفضه بأن حرباً كهذه لو وقعت آنذاك ستنتهي بهزيمة محتمة للجيوش العربية، وقد تؤدي إلى تدخل عسكري أجنبي لصالح ذلك الكيان، وقد حظي، رأي الرئيس عبد الناصر هذا بتأييد المؤتمرين[٢٢].

جاء مؤتمر القمة العربي الثاني، الذي عقد في الاسكندرية بتاريخ ٥ ـ ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤، داعماً للمؤتمر الأول، ومؤكّداً رؤية عبد الناصر الفكرية ـ السياسية في لَمّ الشمل العربي، وتقليص الخلافات العربية على طريق التضامن العربي، والعمل العربي المشترك ضد الكيان الصهيوني في السياق ذاته. فقد أعلن هذا المؤتمر الالتزام بخطة العمل العربي المشترك، مع استخدام جميع إمكانيات العرب وطاقاتهم وقدراتهم لمواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية. لكن قصور جديّة بعض الدول العربية جعل تأثير قرارات المؤتمرين محدوداً. وقد استطاعت «اسرائيل» التأكد من ذلك بطريقتها المعروفة ـ الاستفزازات العسكرية على الحدود السورية بخاصة، فبعد اختتام مؤتمر القمة الثاني بشهرين بلغ عدد الهجمات والاشتباكات الصهيونية أربعة عشر اشتباكاً. ولم يكن الرد في المستوى، ووظّفت «اسرائيل» كل ذلك لصالحها، مطالبةً الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية، بدعمها مقابل التحركات العربية المعادية،

---

(٢١) سيد نوفل، **العمل العربي المشترك: ماضيه ومستقبله** (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨)، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢٢) مقابلة مع الفريق أمين الحافظ بتاريخ ١١ آب/أغسطس ١٩٩٤؛ عمر الخطيب، **مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣** (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧)، ص ٣١، ومطاع صفدي، **التجربة الناصرية والنظرية الثالثة** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا؛ منشورات دار الحكيم، ١٩٧٣)، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ و١٧٨ ـ ١٧٩.

فزاد تدفّق الأسلحة الغربية والأمريكية الى الكيان الصهيوني، بما في ذلك طائرات «سكاي هوك»، الأمر الذي شجّع الكيان الصهيوني على المزيد من هجماته على الأردن[٢٣].

واصل عبد الناصر تمسكه برؤيته الفكرية في الصراع ضدّ الكيان الصهيوني، القائمة على ضبط النفس، وعدم الانجرار الى الحرب دون الاستعداد التام لها، والمزيد من التسلح بالأسلحة الحديثة واستيعابها، والمزيد من توحيد الصف العربي. وانطلاقاً من هذه الرؤية رفض الرئيس عبد الناصر فكرة إرسال قوات كوماندوس مصرية - سورية مشتركة لتدمير المفاعل النووي الصهيوني في ديمونة. فقد رأى عبد الناصر ان أمراً كهذا سيكون من شأنه تعريض مصر وسوريا لغارات انتقامية صهيونية مدمرة لا يقوى القطران على الرد عليها كما ينبغي. وقد أدى موقف عبد الناصر المحدد هذا، وهو موقف فكري - سياسي متزن ومسؤول، وفي مستوى الحدث آنذاك، أخذ في الاعتبار واقع تناسب القوى على الصعيد الدولي، اضافة الى عوامل داخلية، الى احتضان سوريا لطلائع الفدائيين بإقامة قواعد تدريبهم، وقواعد انطلاق لهم من داخل أراضيها. ولم يكن ذلك متسقاً مع رؤية عبد الناصر، وقتذاك، للمسألة الفلسطينية والصراع ضد «اسرائيل»، فكان يرى ذلك ضرباً من العمل المغامر، غير المنظم، وغير المسؤول، وهكذا رد على ذلك باستدعاء أحمد الشقيري، طالباً منه الإسراع في تنفيذ القرار الذي وافق عليه مؤتمر القمة، وهو إنشاء «منظمة التحرير الفلسطينية»، التي تضطلع رسمياً بمسؤولية تمثيل الشعب الفلسطيني. وتم ذلك فعلاً في عام ١٩٦٤، كما تم إنشاء جيش تحرير فلسطيني تابع للمنظمة ليمثل الجناح العسكري[٢٤].

يتّضح من كل ما تقدم ان موقف الرئيس عبد الناصر الذي يترجم رؤيته الفكرية - السياسية للمسألة الفلسطينية والصراع ضد الكيان الصهيوني كان يقوم، آنذاك، على تجنّب الحرب حتى يستكمل الاستعداد اللازم لها على جميع المستويات، وعلى تفادي الانجرار والتورّط في حرب عشوائية يختارها العدو، ويؤقّت لها، ولذلك لا ينبغي السماح لأي كان، بمن في ذلك الفدائيين، بإشعال حرب لا يفيد منها الا العدو، ولا تنتهي إلا بالخذلان. وعلى وجه الدقة، لم يكن الرئيس عبد الناصر يريد الحرب في ذلك الوقت، لأن مثل هذه الحرب السابقة لأوانها كانت تعني الوقوع في المصيدة. وكان يبني استراتيجيته على اساس العمل المنظّم، وكسب الوقت اللازم للتسليح الحديث واستيعابه، واختيار الوقت المناسب، بعد التأكّد من كل شيء،

(٢٣) حروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٨٥، ومحمد حسنين هيكل، الطريق إلى رمضان، ترجمة يوسف الصباغ (بيروت: دار النهار، ١٩٧٥)، ص ١٧ - ٣١.

(٢٤) الخطيب، المصدر نفسه، ص ٣٢.

وتأمين جميع العوامل السوقية واللوجستية لكسب الحرب. وبالفعل، كان عبد الناصر يعدّ للحرب، بمفهومه هو، وبالشروط التي أشرنا اليها، من موقعه قائداً للثورة والدولة. يشهد هيكل بذلك فيقول:

«. . . لكي نعرف، أو نتحدث عن طموحات عبد الناصر للمستقبل، يجب ان نلاحظ ما الذي كان يفعله قبل ١٩٦٧، أو بالتحديد من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٦. في هذه الفترة نلاحظ ان مصر كانت مندفعة بأقصى قوة نحو التصنيع. ونلاحظ أن عملية التحول الاشتراكي تسير بشكل جيد. ونلاحظ التزاماً مثالياً من جانب مصر بحركة التحرر الوطني، وبالتعاون الآسيوي ـ الافريقي، وبحركة القومية العربية في مواجهة الاستعمار. ونلاحظ أيضاً تقدماً ملحوظاً في عملية تطوير المجتمع، بحيث إنه في الوقت الذي تتم فيه إعادة توزيع الثروة على الجماهير كانت مصر توسع دائرة اهتمامها بالتكنولوجيا، وتتجه نحو آفاق جديدة. وفي الأعوام ١٩٦١ و١٩٦٢ و١٩٦٣ كان عبد الناصر حريصاً جداً على أن تتمكن مصر من تصنيع الصواريخ والطائرات. وكان حريصاً أيضاً على أن يتطوّر المفاعل الذري في استمرار. ولم ينظر عبد الناصر الى مسألة الصواريخ والطائرات من زاوية حربية، إنما من زاوية اللحاق بالتكنولوجيا، ودخول العصر الجديد، ومن هنا كانت حماسته للاستعانة بالعلماء الالمان لتصنيع الصواريخ»[٢٥].

وجاء مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء بتاريخ ١٣ ـ ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٥، معززاً الاستراتيجية الناصرية في وحدة العمل العربي، فقد قرر المؤتمر عقد «ميثاق التضامن العربي»، سلاحاً للعمل العربي المشترك. وقد استثمرت «اسرائيل» مؤتمرات القمة العربية، بما فيها المؤتمر الثالث، للمطالبة بمزيد من التسليح الأمريكي لكيانها، حيث جهزتها الولايات المتحدة بدبابات «باتون» وسواها، في استراتيجية محكمة تقوم على تشكيل قوة ضاربة تهيىء لها القدرة على شن حرب خاطفة. يقول الكاتب الاسرائيلي ألبير بييري في كتابه **ضابط في الجيش في السياسة والمجتمع العربي**: «ان الرئيس عبد الناصر انتهج سياسة تفادي المواجهة المباشرة السريعة مع اسرائيل، على الرغم من مواقفه وتصريحاته التي كانت تتحدث عن الحرب مع اسرائيل، مثل تصريحه لمندوب اذاعة وتلفزيون كولومبيا في الثاني عشر من تموز/يوليو ١٩٦٥ الذي قال فيه «ان الحرب هي الحل الوحيد للمشكلة الفلسطينية»، غير ان هذا لا يعني الاندفاع اليها، بل ان دوافع هذه التصريحات هي في إطار حرصه للاحتفاظ بزعامته الشعبية، ورغبته في ان تبقى قضية فلسطين ملتهبة غير خامدة. وقد كان الرئيس

(٢٥) نقلاً عن: مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٨٥ ـ ٨٦.

عبد الناصر وخلال سنوات طويلة، حريصاً على عدم مواجهة اسرائيل لقناعته باستمرار بتمتّعها بتفوق عسكري واضح على الدول العربية، مما كان يمنعه من التفكير الجدي في القيام بعمل عسكري ضد اسرائيل، يعد قاصراً الا اذا توفرت له ثلاثة عوامل: تفوق عسكري عربي، وتحقيق الوحدة والتضامن العربي، وعزل اسرائيل عن القوى الغربية»[٢٦].

ويؤيّد محمد حسنين هيكل هذه الفرضية، في ما كتبه تحت عنوان **لمصر. . لا لعبد الناصر** حيث يرى ان الرئيس عبد الناصر كان حريصاً، في تلك الفترة موضع التدارس، على تجنّب الصدام مع الكيان الصهيوني[٢٧] لعدة أسباب، منها ترجيحه احتمال التدخل الأمريكي لصالح «اسرائيل» عند المواجهة، وهو تدخّل يهدف القائمون به في الجوهر الى فرض الهزيمة على العرب، أو سلبهم ثمار النصر اذا استطاعوا[٢٨]. وكان الرئيس عبد الناصر يرى دوماً، وكما سبق الذكر، ان نجاح المواجهة المسلحة مرهون بظرف دولي وعربي ملائم[٢٩] يضمن ضعف احتمال تدخل واشنطن.

وتنبغي الإشارة، في معرض بحث تفاصيل الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية للصراع ضد الصهاينة وآليته، إلى أن الرئيس عبد الناصر كان يرى أن القوات المسلحة المصرية تحتاج إلى خمسة عشر عاماً، في الأقل، لاستيعاب الأسلحة المتطورة التي حصلت عليها من الاتحاد السوفياتي، وقد أوصى بقياس هذه المدة لا من تاريخ أول صفقة سلاح عقدتها مصر في عام ١٩٥٥، بل منذ عام ١٩٥٧، وهكذا تكون الفترة المتوقعة للمواجهة المسلحة في تقديره ما بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٥.

وهوّنت الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية وقتذاك من شأن «اسرائيل»، مؤكدةً ان مقاطعتها، وإحكام الحصار حولها، وتشديد الضغط اليومي عليها سيؤدي الى سقوطها! ولا شك في ان ذلك يتناقض مع الاعتراف بتفوق «اسرائيل» العسكري، وتقدمها العلمي، والدعم الأمريكي القوي المطلق لها، وضرورة تجنب خوض الحرب ضدها وقتذاك لأنها محسومة مقدماً لصالحها.

وباختصار، فقد كانت هذه الرؤية بخصوص «اسرائيل»، وقراءة واقعها وآفاقها، متناقضة، متقاطعة في اكثر من جانب. ولكن هذه الرؤية كانت منسجمة مع إيمان

---

(٢٦) نقلاً عن: حروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٧٩.

(٢٧) محمد حسنين هيكل، لمصر. . لا لعبد الناصر: **الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟**، ط ٥ (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٥)، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢٨) حروش، المصدر نفسه، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٢٩) جاك دومال وماري لوروا، **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**، ترجمة ريمون نشاطي، ط ٦ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٨)، ص ١٤٢.

عبد الناصر بوحدة الصف العربي سبيلاً أساساً لا يمكن التفريط به، ولا التهوين من شأنه على طريق مجابهة الكيان الصهيوني بشتى مستويات المجابهة. ومن هنا كان عبد الناصر شديداً صارماً تجاه منتهكي وحدة الصف، والعابثين بالتضامن العربي. ففي الاحتفال بعيد الوحدة، في عام ١٩٦٦، ألقى الرئيس عبد الناصر خطاباً هاجم فيه الملك السعودي فيصل، والرئيس التونسي بورقيبة، وذلك لتوجيه فيصل، في مطلع عام ١٩٦٦، نداء يدعو فيه البلدان الإسلامية للدخول في حلف إسلامي دعته الولايات المتحدة هو وشاه ايران لإنشائه طبقاً لمعطيات الصحافة الأمريكية، بينما كانت ايران الشاه قد فتحت فرعاً للوكالة اليهودية في طهران. أما بورقيبة فكان قد نادى جهاراً بالتفاوض مع الكيان الصهيوني على رغم إعلانه في مؤتمر القمة العربي استعداد تونس لإرسال وحدات من جيشها دفاعاً عن فلسطين![٣٠].

وينبغي القول ان اهتمام عبد الناصر الاستثنائي بوحدة الصف العربي في مجابهة «اسرائيل» لم يكن يعني، في ذلك الوقت، الدعوة للحرب فوراً والانخراط فيها. بالعكس كان يعني الاستمساك بهذه الوحدة سبيلاً لمقاتلة «اسرائيل» دون الاندفاع الى حرب شاملة غير محسوبة النتائج، ومن دون استعدادات كافية تؤمن النصر. وقد مرت بنا وقائع عديدة تؤكد ذلك، وثمة وقائع جديدة أبلغ دلالة على هذا الصعيد. فقد ظل موقف ناصر الاستراتيجي ثابتاً لم يتغير، وهو الموقف المتوازن، الذي لم يكن ميالاً إلى الحرب في ذلك الوقت، دون الإذعان لدسائس الرجعية العربية، أو التورط في مزايدات المزايدين والمغالين. وكما يقول انتوني ناتنغ في كتابه ناصر فإن عبد الناصر كان يحذر كمائن أصدقاء الغرب من العرب، مثلما كان يحذر كمائن المغالين، وخصوصاً أولئك الذين قبضوا على أعنة السلطة في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦[٣١]. وعلى رغم مضاعفات الانفصال وآثاره في رؤية ناصر الفكرية، الا انه آثر الارتباط بنظام سوريا الجديد بقصد تحجيم اندفاعاته غير المحسوبة، والتي قد تجر الى حرب ضد «اسرائيل» تكون سوريا فيها هي البادئة، الأمر الذي يجعل الرأي العام العالمي في موقف معاد للعرب، مثلما يمكن الغرب، وخصوصاً الولايات المتحدة الامريكية من الاقتصاص الأقوى من ناصر. وكان رجال الحكم الجدد في سوريا يتهمون ناصر بالتهرب من المعركة، ويهاجمون السعودية باعتبارها، في رأيهم، معقل الرجعية التي تحتمي بمؤتمرات القمة[٣٢]. وبشكل مغاير بعض الشيء حدث أمرٌ مماثل مع الأردن.

---

(٣٠) «خطاب الرئيس عبد الناصر في مدينة النصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر ١٢/٢٣/ ١٩٩٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٦٤ ـ ٩٧٦، والأهرام، ١٩٦٦/١٢/٢٤.

(٣١) أنتوني ناتنج، ناصر، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٢)، ص ٤٣٩.

(٣٢) «خطاب الدكتور نور الدين الأتاسي، رئيس الدولة في الجمهورية العربية السورية، في المسيرة الشعبية في دمشق حول «ثورة الأردن» والقضية الفلسطينية بتاريخ ١٩٦٦/١٢/٧،» في: الجامعة الأميركية =

فقد اتهم وصفي التل، رئيس وزراء الأردن، القيادة المصرية، والرئيس عبد الناصر بالذات، بعدم اتخاذ أي موقف، وبعدم الاكتراث عموماً أثناء العدوان الصهيوني على قرية السموع في الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦[٣٣]. وقد رفض محمود رياض هذه الاتهامات، ورد بالقول انه بالتنسيق مع خطط القيادة الموحدة، فإن مسؤولية الرد على الاعتداءات الاسرائيلية تبقى على عاتق كل دولة على حدة، طالما ان مثل هذه الاعتداءات لا تؤدي الى احتلال أراضٍ عربية[٣٤].

وكان من معالم الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية ضد اسرائيل وقتذاك اتخاذ الاجراءات الرادعة التي تمنع العدوان أصلاً، وبذلك يتم كسب الوقت للمزيد من تحديث أسلحة الجيش والصناعة العسكرية، والاستعداد للمعركة الفاصلة. وكان من جملة هذه الاجراءات الرادعة، بمنطلق الناصرية الفكرية، تعزيز وحدة الصف العربي، وفي الميدان العسكري بخاصة، عن طريق عقد المواثيق واتفاقيات الدفاع المشترك بين الدول العربية، ولا سيما دول المواجهة. وهكذا عقدت مصر مع سوريا، في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦، اتفاقية دفاع مشترك. كما عقدت قبله، في الثالث من أيار/ مايو ١٩٦٦ اتفاقية دفاع مشترك مع الأردن، عدت الهجوم على احدى الدولتين هجوماً على الأخرى.

وقد أثارت هاتان الاتفاقيتان، كما هو متوقع، «اسرائيل»، فنظمت حملة دعائية عالمية واسعة تصور العرب متربصين لإبادتها، وتبرر، مقدماً، حرباً وقائية لاجتثاث الاخطار المحدقة[٣٥].

وفي الوقت الذي استطاع فيه الرئيس عبد الناصر تضبيط وإحكام السيطرة على آلية ومقدرات الصراع ضد «اسرائيل»، فان الامبريالية استطاعت، بالمقابل، وبالتنسيق مع الأنظمة الرجعية تجميد التزامات هذه الأنظمة تجاه مؤسسات مؤتمر القمة العربي لتطوي صفحة المؤتمرات القومية من ناحية، ولتصعيد هجومها على عبد الناصر من ناحية أخرى، محاولةً استدراجه إلى كمين مدبّر لتوريطه في حرب كارثيّة. لقد عانى

= في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٤٢، ص ٩١٣، والأهرام، ١٩٦٦/١٢/٨.

(٣٣) انظر الحديث الذي أدلى به وصفي التل، رئيس الوزراء الأردني، في مؤتمر صحفي عقده في ١٩٦٦/١١/٢١ حول الاعتداء الصهيوني على الأردن، في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والادارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٩٩، ص ٨١٤ ـ ٨١٧.

(٣٤) انظر كلمة محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة التي ألقاها في اجتماع مجلس الدفاع العربي بتاريخ ١٩٦٦/١٢/٧، في: المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٤٢، ص ٩١٣، والأهرام، ١٩٦٦/١٢/٨.

(٣٥) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ١٣٦ ـ ١٥٤.

الفكر الناصري من آثار هذه الهجمة الامبريالية الشرسة، وكانت محنته ومعاناته أشد تجاه الحرب النفسية، والتضليل الدعائي الذي مارسته الرجعية العربية، وقوى اليمين العربي المتحالف مع الامبريالية، التي بلغ بها الحقد على الفكر الناصري، والمد القومي التحرري المتصاعد بتأثير الناصرية، حد ان تقدم السعودية، وقتها، مبالغ طائلة إلى مؤسسة امبريالية امريكية[٣٦]، لتنظيم دعاية مضادة لمصر في الولايات المتحدة، وتوزيع منشورات أثناء الحج ضد النظام الناصري. وقد صدمت عبد الناصر كل هذه الوقائع وسالفاتها، والتي لم يتستر عليها المسؤولون السعوديون، آنذاك، بل واجهوا بها عبد الناصر نفسه رسمياً، بشهادة هيكل في كثير من كتاباته. يقول هيكل، بخصوص التمويل السعودي للانفصال السوري، مثلاً: «هناك المبالغ الضخمة التي أنفقت لتحقيق الانفصال ومصدر هذه المبالغ. ففي مناقشة جرت بعد ذلك بين عبد الناصر والملك سعود قال عبد الناصر مخاطباً الملك: «انت دفعت في مؤامرة الانفصال سبعة ملايين جنيه». فردّ الملك قائلاً: «طال عمرك اثني عشر مليوناً، وليس سبعة ملايين!»[٣٧].

ويؤكد هيكل ان الرجعية العربية المتحالفة مع الولايات المتحدة لم تكتف بتمويل الانفصال، بل هاجمت الفكر الناصري مهاجمة ضارية: «فالرجعية العربية تقوم بعملية تشهير ضد عبد الناصر والوحدة والحركة الثورية. وكان أهم مسارح التشهير مؤتمر شتورة»[٣٨]. وقد دفعت كل هذه الوقائع، وأمثالها، الرئيس عبد الناصر الى إلقاء خطاب بليغ الدلالة في الثالث والعشرين من كانون الاول/ديسمبر ١٩٦٦، تصدى فيه للرجعية العربية، مستنكراً دسائسها وتواطؤاتها الخيانية، ومعلناً عدم قدرته الجلوس مع أقطابها في مؤتمرات القمة المقبلة. واتخذت مصر الاجراءات المطلوبة بالتنسيق مع الجامعة العربية بتأجيل عقد مؤتمرات القمة حتى إشعار آخر[٣٩]. وبالفعل، لم ينعقد مؤتمر القمة الرابع الذي كان مقرراً عقده في الجزائر (في الخامس عشر من ايلول/سبتمبر ١٩٦٦)، فطويت صفحة مؤتمرات القمة، إلى حين، وتم استبدالها بمؤتمرات وزراء الخارجية، التي عقد أولها في يوم العاشر من أيلول/سبتمبر ١٩٦٦، بعد أيام من احتفال الكيان الصهيوني بافتتاح الكنيست الجديد في القدس، إعلاناً منه باعتبار

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٣٧) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٣٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٣٩) لمزيد من التفاصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في مدينة النصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر في ٢٣/١٢/١٩٦٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، الوثائق العربية، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٦٤ ـ ٩٧٦.

القدس عاصمةً لكيانه على رغم قرارات الأمم المتحدة. ولم يتخذ هذا المؤتمر الا القرار الذي يعلن فيه رفض الأمة العربية التسليم بالأمر الواقع المتمثل في قيام «اسرائيل» باعتبار القدس عاصمة لها، مؤكداً، ان «مدينة القدس عربية، وجزء من فلسطين العربية، والقدس الجديدة جزء لا يتجزأ من بيت المقدس». وفي الوقت ذاته، كان للفدائيين أسلوبهم الخاص الجديد لمقاتلة الصهاينة، فقد شنوا هجماتهم داخل «اسرائيل»، يقودهم تشكيل عسكري باسم «العاصفة»، ومنظمة «الصاعقة» التي تكونت برعاية النظام السوري، بينما كانت قوات فدائية أخرى تنطلق من الأردن دون موافقة النظام الأردني. وكانت «اسرائيل» تقابل ذلك كله بشن غاراتها الانتقامية ضد سوريا(٤٠).

لقد دلّلت الوقائع على ان مواثيق الدفاع المشترك كان سلاحاً شديد الفعالية في الرؤية الفكرية الناصرية للصراع العربي ـ الصهيوني. ومن ناحية أخرى فإن متغيرات واقع الصراع، ومستجداته المتسارعة الوتائر هي التي فرضت، إضافة إلى عوامل أخرى، قبول هذه المواثيق، وانطلاقها الى حيز الوجود. فقد شهدت الحدود السورية مع الكيان الصهيوني توتراً عسكرياً ملحوظاً نتيجة الهجمات المتبادلة، ومضاعفة ذلك الكيان غاراته على الحدود الأردنية والسورية منذ أيار/مايو ١٩٦٦، وتصعيد الخطاب السياسي والدعائي، وتزايد عنفه في كل من سوريا و«اسرائيل». ويضاف إلى ذلك كله تعرض الحدود اللبنانية، بدورها، للخرق من جانب «اسرائيل». وهكذا اضطرت سوريا لإعلان مواجهتها الاستفزازات الصهيونية بـ «وسائل ثورية رادعة»، ولتهديد «المصالح الاستعمارية في المنطقة . . . بالدمار التام». وبالفعل أحاطت سوريا السفارات المعتمدة في دمشق بالحشود العسكرية الصهيونية على الحدود المجاورة، والتي كان واضحاً أنها انطلقت إثر الإعلان عن المساعدات الروسية الممنوحة إلى سوريا لتنفيذ مشروع بناء سد ضخم على نهر الفرات(٤١). وسرعان ما تصاعدت الأحداث، فقد دارت معركة جوية بين الطائرات السورية والاسرائيلية فوق مواقع تحويل نهر الأردن، ويبدو ان الطيران السوري قد وقع في كمين نصب بدقة، محدثاً آثاره العسكرية المباشرة، وآثاره السياسية في فكر القيادة السورية وقتذاك. وتجددت المعارك في يوم الخامس عشر من آب/اغسطس ١٩٦٦ جواً فوق بحيرة طبرية بين سوريا وطيران العدو(٤٢). وقد دفع كل ذلك بالقيادة السورية في السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر

---

(٤٠) حروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٩١ ـ ٩٤.

(٤١) دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤٢) محمد حسنين هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، حرب الثلاثين سنة (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠)، ص ٣٦٠.

١٩٦٦، وبعد قناعة تامة أملتها الأحداث، إلى السعي للتنسيق التام مع مصر، والرجاء بأن يوافق الرئيس عبد الناصر على استقبال وفد سوري في الثامن والعشرين من تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٦، بعد عودته من الهند. وقد رحب الرئيس عبد الناصر بذلك، وبخاصة لأن المبادرة والخطوة الأولى للتقارب وتنسيق الجهود بدأتها سوريا[٤٣]. وعلى صعيد آخر، فإن الدوافع التي دعت الرئيس عبد الناصر لإحياء ميثاق الدفاع المشترك الذي كان قد عقد بين البلدين في عام ١٩٥٥، مع تدعيمه بما ينسجم مع التطورات والمتغيرات التي ألمت بالبلدين والمنطقة والعالم منذ ذلك الوقت، كانت، أساساً، تعزيز دوره التاريخي البارز، وزعامته السياسية في الوطن العربي، التي كانت قد تأثرت، دون شك، بآثار الانفصال. يضاف إلى ذلك كله عدم إحرازه نتيجة حاسمة في حرب اليمن، وتردي الموقف السياسي في العراق آنذاك وخلاف بغداد المستحكم مع دمشق، وتصاعد الدعوة لإقامة الحلف الاسلامي الذي كان يستهدف العراق بقوة. وكانت الشعارات عالية[٤٤]، بمعنى تعاظم الدعوة للتنسيق العربي المشترك وتصاعد تأييد الرأي العام في كلا البلدين، وفي مصر، بخاصة، لهذه الدعوة. فكان من الصعب على الرئيس عبد الناصر، والحال هذه، رفض العرض السوري للدفاع المشترك. وكان في رؤيته الفكرية لهذه المسألة أن ذلك يوفر الفرصة المناسبة والمقومات اللازمة للتخفيف من تطرف النظام في دمشق، واستيعابه بشكل أفضل لمفهوم المسؤولية. ومع ذلك فقد حذر الرئيس عبد الناصر القادة السوريين وقتذاك من المبالغة في اعتمادهم على مصر، وأوضح لهم بأن القاهرة لن تكون ملزمة بالرد الفوري على كل غارة انتقامية اسرائيلية، على الرغم من إدراك الرئيس عبد الناصر بأن هذا الاتفاق قد يحمل له توريطاً غير مطلوب[٤٥].

وفي ربيع عام ١٩٦٧ بلغت الغارات الجوية الصهيونية ذروتها على الأراضي السورية بغرض تدمير قواعد الفدائيين، حيث تم إسقاط ست طائرات سورية، ووقع بعضها في ضواحي دمشق. ومع كل الإحراج الذي تسبّبه هذه الغارات الإسرائيلية على سوريا، وقبلها على قرية السموع الأردنية، وعدم رد مصر عليها، وقتها، الا ان عبد الناصر كان مطمئناً لاعتقاده بأن الغارات الجوية الصهيونية قد تردع الاتجاهات المغامرة للقادة السوريين، وتجعلهم يعيدون حساباتهم العسكرية، بشكل واقعي، تجاه «اسرائيل»، وكذلك للقناعة التي استطاع إحداثها في الرأي العام العالمي بقدرته على ضبط النفس والحفاظ على «الهدوء» على حدود الكيان ما يقارب عشر سنوات،

(٤٣) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٩٢.

(٤٤) هيكل، المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٤٠.

برفضه، بإصرار ملحوظ، جميع المحاولات السورية والفلسطينية لتوريطه في حرب مع «اسرائيل» حتى ربيع عام ١٩٦٧. بعد ذلك تغيرت الرؤية وتغير التقدير، مما قاده الى خيار الحرب التي انتهت بهزيمة نكراء[٤٦].

وفي معرض تحليل هذه الهزيمة وبواعثها القريبة والبعيدة، لا بد من أن نشير إلى جملة من الظروف الذاتية والموضوعية التي شكلت بعض أسبابها، كما لا بد من أن نشير إلى خلفيات الهزيمة والحرب الحزيرانية هذه، لأنها خلفيات بالغة الدلالة والأهمية. وكل ما رافق هذه الهزيمة ومهد لها ونتج منها، وبات من جملة تداعياتها، ينبغي ان يدرس دراسة عميقة، مدققة، كما يقول هيكل وسواه من الباحثين الموضوعيين، كي نستخلص منه العبر والدروس التاريخية والسياسية بالنسبة للعرب وشعوب المنطقة عموماً، وحتى على مقاس عالمي، وبالنسبة للعالم الثالث بخاصة.

إن من جملة الظروف الذاتية التي مهّدت للهزيمة في الحرب، وأنضجت طبختها، ظروف الإحباط الذي سبّبه التدخّل في اليمن، مضافاً إلى ظروف الإحباط الاقتصادي الداخلي قبل الحرب. وبقدر ما يتعلّق الأمر برؤية ناصر الفكرية ـ السياسية، لا بدّ من بعض التفصيل في وقفة قصيرة يتطلّبها الاستشراف والتحليل. فبخصوص الواقع الاقتصادي المصري، ينبغي القول ان مصاعب كبيرة قد اكتنفته، الأمر الذي دفَع الرئيس عبد الناصر الى اتخاذ الاجراءات لترشيد الإنفاق من أجل التعويض عن النقص الشديد في العملات الصعبة لدى مصر، والتي كانت ضرورية لشراء السلع الاستهلاكية. وعلى الرغم مما حقّقته الخطة الخمسية الأولى للتنمية (١٩٦١ ـ ١٩٦٥) من نجاح، كان أبرز ملامحه عملية التصنيع، وبناء السدّ العالي[٤٧]، الا ان مسار الخطّة كان يتعثّر نتيجة لزيادة الاستهلاك، وتعاظم النمو السكاني بوتائر قياسية، غير محسوبة كما ينبغي في مفردات الخطة وتفاعلها، وعجز المدخرات المحلية، بالتالي، عن دعم الخطة[٤٨]. لقد أحدث الاندفاع نحو التنمية، الذي لم يَخلُ من مظاهر استعراضية، وعدم اكتراث بالهدر والضياع الحاصل لهذا السبب أو ذاك، وكما هو متوقع، آثاراً تضخّمية. وكان في رأي الرئيس عبد الناصر ان هذا الاندفاع يحتاج، بالضرورة، إلى جهود كبيرة في الدعم لسد الثغرات التي رافقت الخطة الخمسية الأولى

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٠، وهيكل، لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟، ص ١٣٣ ـ ١٥٠.

(٤٧) هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٣٨٨، ورمزي زكي، دراسات في أزمة مصر الاقتصادية مع استراتيجية مقترحة للاقتصاد المصري في المرحلة القادمة (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٣)، ص ٢٤٨.

(٤٨) للمزيد من التفاصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة عيد النصر في بورسعيد في ٢١/١٢/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، الوثائق العربية، ج ٣، الوثيقة رقم ٣٧٨، ص ٧٧٦ ـ ٧٨٢، والأهرام، ٢٢/١٢/١٩٦٥.

للتنمية[٤٩]. وفي ايلول/سبتمبر ١٩٦٥ كلف زكريا محيي الدين بتشكيل وزارة جديدة، وكانت ثمة خلافات في منهاج عمل الوزارة حول نقطة محورية بالغة الدلالة: مواصلة الصعود، وبأية سرعة، أو التوقف على بعض درجات السلم، أو النزول من بعضها. وكان رأي عبد الناصر ان عملية سد الثغرات تقتضي التوقّف، أو المراوحة في المكان على درجات السلم التي وصل اليها الصعود، ولكنها لا تقتضي خطوة واحدة باتجاه النزول. وبالمقابل كان رأي الفنيين يؤكد ان الظروف تقتضي بعض الانكماش، ويتفق هذا الرأي مع توصية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. ولم يوافق الرئيس عبد الناصر على ذلك، مؤكداً انه في مسيرة تطبيق التجربة الاشتراكية لا بد من ان تواجهنا بعض المشاكل المتوقعة، ولكن لا ينبغي ان نطلب المشورة من قمة الرأسمالية العالمية ممثلة بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي في حل مشاكل تجربة تنمية اشتراكية[٥٠]. وتبلورت رؤيته الفكرية ـ السياسية في هذه المسألة في جملة من المقولات التي تذخرها ترسانة الفكر التنموي الثوري المستقل في العالم الثالث، والتي باتت، مع مثيلاتها لمفكرين وسياسيين آخرين، موضع التدارس والاعتبار. وكان منها مقولته التي تقول: «إنني أسلّم بأن الاقتصاد في الفترة السابقة كان زائد السخونة بسبب الإسراع في عمليات التنفيذ، ونحن نحتاج إلى عملية تدعيم للخطوط قد تفرض علينا إعادة النظر في بعض مشروعات الخطة الجديدة. وهناك أشياء لا تقبل إعادة النظر في رأيي، وأهمها استصلاح واستزراع الأراضي الجديدة لكي تستعمل مياه السد العالي، وإلا تحول هذا السد إلى هرم جديد ليس أكثر، ثم اننا لا بد من ان نركز على الصناعات الثقيلة، مثل صناعة الآلات التي تصنع الآلات، والا زاد علينا عبء الاستيراد، فضلاً عن إهدار امكانيات وموارد يمكن استغلالها. وأنا على استعداد لأن أقبل مضاعفة الدخل في اثنتي عشرة سنة بدلاً من عشر سنوات. وأستطيع كذلك أن أقبل وجهة النظر عند وجود ظواهر تضخمية بنسبة ٨ بالمئة سنة ١٩٦٦ لا بد من امتصاصها، ولكن امتصاصها لا يمكن ان يتم كله في عام واحد، لأنه سوف يجعل الحياة مستحيلة على الناس». وفي المحصلة النهائية كان تقدير الرئيس عبد الناصر:

---

(٤٩) جمال سليم، **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢)، ص ٩٥؛ اسماعيل صبري عبد الله، «ثورة يوليو والتنمية المستقلة،» ورقة قدمت إلى: **ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل**، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠، و Oded Remba, «The Middle East in 1959: An Economic Survey,» *Middle Eastern Affairs*, vol. 11, no. 3 (March 1960), p. 74.

(٥٠) «حديث الرئيس جمال عبد الناصر أمام الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكي العربي بتاريخ ١٦/٥/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٣، الوثيقة رقم ١٥٩، ص ٣٠٩ ـ ٣٢٢؛ **الأهرام**، ٢٠/٥/١٩٦٥؛ ف. أ. لوتسكيفتش، **عبد الناصر ومعركة الاستقلال الاقتصادي، ١٩٥٢ ـ ١٩٧١**، ترجمه عن الروسية سلوى أبو سعده وواصل بحر (بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨٠)، ص ٢٦ ـ ٢٧، و Remba, Ibid., p. 74.

«نقف، نعم، ولكنْ لا ننزل على السلم درجة»[٥١]. وفي المقابل كان رأي زكريا محيي الدين رئيس مجلس الوزراء انه لو اضطررنا للنزول درجة أو درجتين، فإن هذا النزول مجرد استعداد لمعاودة الصعود[٥٢].

وعلى رغم معونة القمح السوفياتية التي كانت توازي ٥٠٠ ألف طن سنوياً، فإنه كان ينبغي على مصر ان تخصص حوالى ١٥٠ مليون دولار كل عام لتكفي حاجات الشعب من السلع الاستهلاكية. وقد دفعت هذه الأزمة الحكومة المصرية الى تقليص حجم الاستثمارات، والغاء الخطة الاقتصادية الخمسية، والاستعاضة منها بخطة ثلاثية، والتخلي، وبالتالي، عن كثير من المشاريع الحيوية[٥٣]. وفي مطلع عام ١٩٦٧، وعلى رغم الاجراءات التقشفية، فقد وصل الاقتصاد المصري حداً باتت فيه الأزمة العميقة تسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمَيسَمها. فقد بلغت الديون الخارجية المستحقة على مصر حوالى ٢٠٠ مليون دولار، واضطرت الحكومة الى ايقاف دفع ديونها العاجلة، وبلغ التصدير حداً بالغ التدني، وبسبب الافتقار إلى قطع الغيار والمواد الأولية انخفض حجم الانتاج[٥٤].

وعلى صعيد آخر، وفي تفاعلية الظروف الذاتية الداخلية والظروف الموضوعية المحبطة، كانت مصر ناصر في ذلك الوقت تعاني آثار سياسة الترويض الامبريالي. فقد باشرت الولايات المتحدة الامريكية، ومنذ صيف ١٩٦٥، بقطع شحنات القمح، التي كانت تُقدم إلى مصر منذ عام ١٩٥٩، وتحويل الغذاء سلاحاً في حلبة الصراع، ليؤدي دوره المقرر الى جانب أسلحة متنوعة أخرى تؤدي أدوارها المرسومة لها. ومع بداية صيف عام ١٩٦٥، هيّأت واشنطن مسرح العمليات في مصر لما يمكن تسميته «معركة القمح». فقد كانت توريدات القمح تقدم لمصر وفق القانون الامريكي رقم (٤٨٠) المعروف[٥٥]. وكانت مصر منذ مطلع عام ١٩٥٩ مستفيدة من القانون المذكور، وقد

---

(٥١) نقلاً عن: هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠.

(٥٢) «بيان حكومة زكريا محيي الدين، القاهرة، ٢٤/١٢/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٣، الوثيقة رقم ٣٦٨، ص ٧٤١ ـ ٧٥٨، والأهرام، ٥/١١/١٩٦٥.

(٥٣) لمزيد من التفاصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة عيد النصر في بورسعيد في ٢١/١٢/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٣، الوثيقة رقم ٣٧٨، ص ٧٦٩ ـ ٧٨٢، والأهرام، ٢٢/١١/١٩٦٥.

(٥٤) زكي، دراسات في أزمة مصر الاقتصادية مع استراتيجية مقترحة للاقتصاد المصري في المرحلة القادمة، ص ٢٤٦، والخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠.

(٥٥) يهدف هذا القانون إلى تصريف فوائض الحاصلات الزراعية الأمريكية، وتحويلها إلى مبيعات ميسرة لبعض الدول التي لا تستطيع زراعتها لتوفير طعامها، وذلك مقابل عملات محلية تقدمها هذه الدول، لتصرف في الداخل على احتياجات الولايات المتحدة من عملات تلك الدول، ويخصص الباقي =

توافق ذلك مع الحقبة التي تأزّمت فيها العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي جراء الخلافات مع النظام في العراق(٥٦). فقد قدمت شحنات القمح الى مصر بموجب اتفاقيات محددة، كانت الاتفاقية الأولى منها سارية المفعول لثلاث سنوات. وقد بيّنت مصر، خلال المفاوضات أهمية الحاجة إلى القمح كسلعة حيوية يظلّ الطلب عليها مستمراً، ولا بد من توفيره والاطمئنان الى مصادره لمدة طويلة. وقد غطّت الاتفاقية الأولى المدة الممتدة بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦١، وفي عام ١٩٦٠ جرى التفاوض على الاتفاقية الثانية وللفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤، وقد بلغ حجم الاتفاقيتين معاً حدود مبلغ تسعمائة مليون دولار. أعطى هذا المبلغ مرونة اقتصادية لمصر تسمح لها بتوفير احتياجاتها الغذائية من ناحية، وتمكنها من توجيه مواردها من النقد الاجنبي الى مشروعات خطة التنمية الطموحة.

ان تنفيذ الاتفاقيتين لم يكن أمراً سهلاً بسبب ظروف، وطبيعة العلاقات السياسية بين البلدين، كتقاطع الأهداف، وتكاثر حالات ودواعي سوء التفاهم، خصوصاً بعد ان ألقت ظلالها حرب اليمن وأزمة الكونغو، وتقدم مصر في مجالات إنتاج الصواريخ والطائرات والأبحاث النووية، إضافة الى ضغوط بعض الأطراف العربية المتعاونة مع الولايات المتحدة، والمتنازعة، مصيرياً، مع مصر، واضافةً، كذلك، إلى تعاظم حدّة التصريحات غير الودّية، والعدائية أحياناً من جانب أحد الطرفين ضد الطرف الآخر(٥٧). وزاد في التأزم بعض الأحداث المهمة مثل زيارة خروتشوف الناجحة في ايار/مايو ١٩٦٤ الى القاهرة، وإحراق لفيف من طلبة الكونغو المكتبة الامريكية في القاهرة بسبب تدخل الولايات المتحدة في شؤون بلادهم، ورفض عبد الناصر الطلب الذي تقدم به سفير واشنطن في القاهرة مطالباً بالتعويض والاعتذار، وإسقاط طائرة امريكية خاصة لأحد كبار رجال صناعة البترول عند دخولها الأجواء المصرية من دون اذن، وعدم استجابتها لإنذار الطائرة المصرية لها بالهبوط. وقد أثّر كل ذلك سلباً في مقابلة وزير التموين المصري مع السفير الامريكي لمناقشة موضوع تمديد اتفاق تجهيز مصر بالقمح، مشيراً إلى عدم ملاءمة الوقت لمفاتحة جونسون في هذا الأمر(٥٨).

= لمشروعات تنمية مشتركة بفوائد بسيطة، وبأجل طويل، كما انها تفضل بعض الأسواق العالمية على غيرها التي تتسم بالزراعة الكثيفة، ولا شك أن ذلك كله يوفر، بشكل أو بآخر، إمكانيات التأثير السياسي لأهمية هذه السلعة الأساسية في حياة الشعوب.

(٥٦) هيكل: ١٩٦٧: **سنوات الغليان**، ص ٤١٧ ـ ٤٢٤ و٤٣٣ ـ ٤٣٧، و١٩٦٧: **الانفجار**، ص ١٧٢ ـ ١٧٧.

(٥٧) هيكل، ١٩٦٧: **الانفجار**، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٥٨) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٧٩ ـ ٨٠؛ سمير بطرس، «السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط: أفكار حول طبيعتها الامبريالية،» ورقة قدمت إلى: **ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل**، ص ٢٦٦ ـ ٢٧١.

أشغلت هذه الأحداث فكر عبد الناصر، فكان يتابعها باهتمام كبير، وبتبصر وفق قناعاته، وكان يغير، ويكيف تعامله معها، ولكن من غير التفريط، قدر الإمكان، بقناعاته الثورية الصارمة. وكان ذلك يترك تأثيره في خلفية ممهدات حرب ١٩٦٧، دون شك. فعبد الناصر المتعامل مع هذه الأحداث الخطيرة في أواسط العقد السابع، هو غير عبد الناصر المؤمن بسياسة التجربة والخطأ. والحق، ان قضية القمح المسيّسة بالكامل، أمريكياً، قد أدت دوراً كبيراً في تأزيم العلاقات[٥٩]. فقد بلغ الأمر بجونسون، والإدارة الامريكية عموماً، حد ربط تجديد اتفاقية القمح بالتزام مصر بالكف عن إرسال الأسلحة الى الكونغو، وبوجوب التفاهم مع عبد الناصر بشأن عدد من النقاط، مع الاحتفاظ بنوع من قدرة التأثير فيه[٦٠]. ويتجلّى تطور الموقف الفكري ـ السياسي الناصري تجاه الولايات المتحدة، في هذه الفترة، وأمام هذه الأحداث تحديداً، في تصريح الرئيس عبد الناصر، رداً على موقف السفير الامريكي بربط مبلغ سبعة وثلاثين مليون دولار بإيقاف بعث الأسلحة الى الكونغو[٦١]، فقد أكّد في خطابه في مدينة بور سعيد بمناسبة يوم عيد النصر في الثالث والعشرين من كانون الاول/ديسمبر ١٩٦٤، قائلاً: «السفير الامريكي يقول ان سلوكنا غير مقبول . . . طيب حنقول لهم الي ما يعجبوش سلوكنا يروحوا يشربوا من البحر . . . واذا ما كفاهمش البحر الأبيض يروحوا يشربوا من البحر الأحمر!». كما قال صراحةً «إنني لست مستعداً لبيع استقلال مصر في مقابل ثلاثين أو اربعين أو خمسين مليون جنيه!»[٦٢]. لقد كان خطاب الرئيس عبد الناصر أول هجوم علني وصريح ومنفعل على الولايات المتحدة بعد فترة هدوء امتدت سنوات، وكانت بداية لضغط امريكي متزايد على مصر[٦٣]، جعل مخزون القمح في مصر يتناقص حتى وصلت البلاد حد الإشراف على «مجاعة قمح»، بينما كانت وكالة المخابرات المركزية الامريكية تولي اهتمامها الشديد لواقع هذه السلعة الاستراتيجية، البالغة الخطورة والأهمية لحياة الشعب المصري.

وقد استنتج الرئيس عبد الناصر خلال مباحثاته مع مساعد وزير الخارجية

---

(٥٩) هيكل، **١٩٦٧: الانفجار**، ص ١٧٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٧٨، وهيكل، **الطريق إلى رمضان**، ص ١٧ ـ ٣١.

(٦١) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٨٠.

(٦٢) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة عيد النصر ببور سعيد، ٢٣/١٢/١٩٦٤،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٣، الوثيقة رقم ٣٥٤، ص ٦٢٤؛ **الأهرام**، ٢٤/١٢/١٩٦٤؛ «أكد الرئيس جمال عبد الناصر نفس النهج بخطابه بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة للثورة، القاهرة، ٢٢/٧/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٣، الوثيقة رقم ٢٢٦، ص ٥١٤ ـ ٥١٦، والأهرام، ٢٣/٧/١٩٦٥.

(٦٣) حمروش، المصدر نفسه، ص ٨٠.

الامريكي فليبس تالبوت، ان موضوع القمح سيكون له دوره الكبير وقتذاك وعموماً. واهتدى الى بعض الحلول، منها صفقات لشراء القمح من أستراليا والمكسيك لتعويض النقص في المخزون الاستراتيجي . . . ومنها، كذلك، لجوء عبد الناصر الى الاتحاد السوفياتي، الذي أثمر، وقتها، في الايعاز بتغيير السفن السوفياتية المحملة بالقمح طريقها الى ميناء الاسكندرية، بدلاً من ميناء أوديسا على البحر الأسود[٦٤]. وقد فعل ذلك فعله في المعالجة الامريكية لهذه المسألة، ففي اليوم ذاته الذي أعلن فيه عن تحويل خط مسير البواخر السوفياتية حاملات القمح، الى الاسكندرية، غيرت الإدارة الأمريكية موقفها! فقد نقل السفير الامريكي في القاهرة لوشيوس باتل موافقة الحكومة الامريكية على الإفراج عن مبلغ السبعة والثلاثين مليون دولار الباقية، واستئناف توقيع اتفاق شحن القمح الامريكي الى مصر[٦٥].

لقد كان تجويع شعب مصر سياسةً تدار في واشنطن على مستوى مجلس الأمن القومي، وهذا وحده يؤكد، بين عوامل عديدة، الأهمية البالغة لهذه المسألة بالنسبة لواشنطن. وبالطبع، كان لا بد لذلك أن يترك تأثيره العميق في وجدان عبد الناصر الحساس والمبدئي على صعيد الوطنية والكرامة القومية، والتعامل الإنساني عموماً، وقد انعكس ذلك، بالفعل، في إحدى خطبه، التي تترجم، بأمانة استثنائية موقفه آنذاك، حيث قال: «اننا منذ العام ١٩٥٩ حتى الآن أخذنا ألف مليون دولار مساعدات من امريكا، بل ان كل رغيفين في البلد منها رغيف مأخوذ كمساعدة من امريكا، فاذا قطعت امريكا عنا هذه المساعدة، وهذا ممكن ان يحدث، فماذا يكون وضعنا؟ يجب ان نكون مستعدين لمجابهة مثل هذه المشاكل»[٦٦]. وكان من شأن كل هذا ان يدفع الرئيس عبد الناصر وكما أشرنا سابقاً لتكليف زكريا محيي الدين بتشكيل الوزارة في تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٥، الذي نجح في تمديد اتفاقية تجهيز مصر بالقمح لستة اشهر. وتحسّنت العلاقات بين واشنطن والقاهرة. وقد أعلن الرئيس عبد الناصر ذلك أمام مجلس الأمة، وقام بدور الوسيط من أجل السلام في الحرب الفييتنامية، وعقدت محادثات ثنائية انتهت بتوقيع اتفاقية في الثالث من كانون الثاني/يناير ١٩٦٦ بتقديم مساعدة بقيمة خمسة وخمسين مليون دولار الى مصر. وعلى رغم نشوء جو معتدل من الهدوء النسبي، بلغ ذروته بزيارة أنور السادات، رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت،

---

(٦٤) لمزيد من التفصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في مدينة النصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر في ٢٣/١٢/١٩٦٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٧٠ ـ ٩٧٦.

(٦٥) الأهرام، ٢٤/١٢/١٩٦٦، وهيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ١٨٢.

(٦٦) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بالذكرى الثالثة عشرة للثورة في القاهرة، ٢٢/٧/١٩٦٥،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٦٦، ص ٥١٤، والأهرام، ٢٣/٧/١٩٦٥.

لواشنطن في الحادي والعشرين من شباط/فبراير لتمهيد الطريق لزيارة عبد الناصر نفسه الى الولايات المتحدة(٦٧)، لم يحصل، مع ذلك، التحسن الحقيقي للعلاقات بين الطرفين، ولم يتم تطبيعها، فقد وقعت أحداث جسيمة الدلالة في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير تركت تأثيراً تدميرياً في كيان العلاقات ومسألة تطبيعها، كان منها محاولة ملك السعودية فيصل، وقتذاك، إقامة حلف إسلامي يضم الدول المؤتمرة بأمر واشنطن، اضافةً إلى دور السعودية في حرب اليمن وما سببته من نزيف لمصر، وكان ذلك بعون من الولايات المتحدة ودعمها(٦٨).

ومن هذه الأحداث تحقق مصر من بيع واشنطن طائرات ودبابات متقدمة للكيان الصهيوني، اضافةً إلى التأكد من إنتاج الكيان الصهيوني للقنبلة النووية. وثالث هذه الأحداث كان رفض مصر شروط صندوق النقد الدولي في إقراضها سبعين مليون دولار، فقد نصت على تخفيض قيمة الجنيه المصري، وزيادة الضرائب على الشعب، وخفض الدعم والإنفاق الحكومي، في وقت كان كل ما يهدف اليه عبد الناصر هو تحقيق التنمية لصالح أوسع جماهير الشعب، وعدم زيادة الاسعار، والاهتمام بميزانية الدفاع والتصنيع معاً. ورابع هذه الأحداث نجاح الولايات المتحدة في تدبير انقلاب ضد نكروما في غانا (شباط/فبراير ١٩٦٦)، وتنصيب عملائها في اندونيسيا بعد الإطاحة بسوكارنو، وتكريس التدخل في فييتنام.

إن هذه الأحداث هي التي دفعت هيكل، وقتها، الى الكتابة في نيسان/ابريل ١٩٦٦، وكانون الثاني/يناير ١٩٦٧، للتأكيد على ان هجمة الامبريالية الامريكية الشاملة والشرسة باتت تستهدف مصر. وقد صدر قرار بوقف رحلات اضافية للطيران الامريكي والبريطاني فوق مصر، اعتباراً من منتصف شباط/فبراير ١٩٦٦(٦٩). وبالرغم من التصعيد الذي رمز اليه صدور قرار الكونغرس الامريكي في الرابع عشر من تموز/يوليو ١٩٦٦ بوقف المساعدات الغذائية الامريكية لمصر الا بموافقة رئيس الجمهورية شخصياً، الا ان الرئيس عبد الناصر لم يحفل بذلك، وظل ينهج النهج ذاته، حريصاً على التمسك باستقلال مصر الوطني، ورفض جميع الضغوط أياً كانت، وحريصاً، كذلك، وفي الوقت نفسه، على عدم السماح بتدهور العلاقات وبلوغها حد الانفجار، مواصلاً التعبير الأصيل عن مبدئيته الثورية في مصارحة الشعب بجميع الأخطار والمصاعب القائمة، والاعتماد على الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في

---

(٦٧) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٨١.

(٦٨) لمزيد من التفصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في مدينة النصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر في ١٩٦٦/١٢/٢٣،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٦٩ ـ ٩٧٥، والأهرام، ١٩٦٦/١٢/٢٤.

(٦٩) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٥٠.

الحفاظ على الاستقلال والسيادة الوطنية، ودعم التنمية الثورية الشاملة.

وفي مطلع عام ١٩٦٧ بلغت ضغوط واشنطن الذروة، فأوقفت المساعدات الغذائية، وضاعفت مراراً تسليحها «اسرائيل». وتزامن ذلك مع توطيد سلطة جونسون رئيساً للولايات المتحدة(٧٠). وبالرغم مما قامت به الامبريالية الأمريكية في عهد جونسون من ضغوط مباشرة، وغير مباشرة، وبخاصة ضغوطها الاقتصادية، ومنع تصدير القمح الى مصر في مقدمتها، بالرغم من كل ذلك فإن عبد الناصر لم يتزحزح عن ثباته المبدئي، وظل كما كان عقبة كأداء في وجه المشاريع الامريكية. ولذلك واصل الامبرياليون الأمريكان استغلال المصاعب الداخلية، ولا سيما الاقتصادية والغذائية منها، على طريق إنهاء الأنموذج الناصري في الفكر القومي المبدئي، والفكر الثوري لعدم الانحياز، الذي كان عبد الناصر أحد مؤسسي معسكره الكبير، وأحد ألمع ممثليه الفكريين في العالم الثالث، والعالم المعاصر عموماً. وفي سياق العمل الجاد لاحتواء هذا التوجه بذلت أطراف عديدة جهوداً استثنائية لتحويل اليمن الى عبء ثقيل على كاهل عبد الناصر، وخططه.

ثانياً: البيئة الإقليمية والدولية

١ ـ الدعم العسكري المصري لليمن

كان الدعم الكبير الذي منحه الرئيس عبد الناصر لثورة اليمن التي اندلعت في السادس والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٦٢، اي بعد عام من الانفصال السوري، تعبيراً إضافياً جديداً على التوجه القومي الوحدوي للثورة المصرية تحت قيادة ناصر، وتجسيداً للفكر السياسي الناصري على الصعيد القومي في معركة المجابهة المباشرة ضد الامبريالية والتخلف والرجعية العربية، وهي المعركة التي قادتها الناصرية في العقد السابع بخاصة، الحقيقة التي أشار إليها جمال عبد الناصر نفسه مراراً في خطبه وكلماته(٧١).

---

(٧٠) أكد الرئيس جمال عبد الناصر نفسه ذلك في مؤتمره الصحفي الذي عقده حول أزمة الشرق الأوسط في ٢٨ أيار/مايو ١٩٦٧. انظر: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ٢١٢، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٧١) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة العيد الحادي عشر لثورة ٢٣ يوليو في ٢٢/٧/١٩٦٣،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ١٤٥، ص ٦٠٠؛ **الأهرام**، ٢٣/٧/١٩٦٣؛ «كلمة الرئيس جمال عبد الناصر التي وجهها إلى القوات المسلحة المصرية العاملة في اليمن اثر وصوله إلى صنعاء،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٢، الوثيقة رقم ٨٠، ص ١٩٧٩؛ **الأهرام**، ٢٤/٤/١٩٦٤؛ «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في عيد الوحدة في القاهرة، في ٢٢/٢/١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٦٧، ص ١١٤ ـ ١٢٦، والأهرام، ٢٣/٢/١٩٦٧.

لقد كانت «الظاهرة اليمنية» كما أسميت وقتها، في السياسة العربية الناصرية، في الستينيات، وعموماً، مثار جدل كبير، وما زالت تثير الجدل حتى الآن. فثمة من يقول: ولماذا اليمن؟ ان النقود والجهود والأرواح التي قُدّمت في الدعم العسكري المصري للثورة اليمنية كان يمكن أن تنهض بالاقتصاد المصري، في غير حقل وميدان، بل ان هناك من يقول لولا اليمن لما كانت النكسة[٧٢]. هناك، بالمقابل، القائلون، وهم كثر، بأنه لولا دعم الثورة اليمنية، وما ماثل ذلك من الانطلاقات القومية لما كان ناصر ناصرياً، اي بطل الأفكار العروبية الوحدوية القومية التقدمية، وممثلها سياسياً. يقول هيكل، بهذا الخصوص: «اعترف انني واحد من الذين كانوا قلقين جداً من تدخل مصر في اليمن. وكان قلقي مستنداً إلى أنني أتيحت لي الفرصة ان أرى اليمن قبل الثورة، ولاحظت كيف ان هذا البلد ينقصه الهيكل الاقتصادي السياسي، ليس فيه طرق، وحالة التخلف فظيعة جداً. حتى قيام الثورة كنت على قناعة بأن اليمن غير مهيأ اطلاقاً للثورة. وأتذكر هنا عبارة قالها لي رالف بانش، الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، عندما التقينا مرة في صنعاء، قال بانش، وهو مذهول، انه حتى قبل مجيئه الى اليمن كان يتصور ان الكونغو هي اكثر الدول تخلفاً في العالم، لكنه وجد ان اليمن اكثر تخلفاً. وعندما قامت الثورة في اليمن كانت الجمهورية العربية المتحدة (لان عبد الناصر استمر محافظاً على الاسم على رغم الانفصال) امام اختيار صعب: اما ان يترك الثورة تضرب، واما ان يتدخل. وقد شجّعت الظروف على التدخل. فالرجعية العربية تقوم بعملية تشهير ضد عبد الناصر والوحدة والحركة الثورية. وكان أهم مسارح التشهير مؤتمر شتورة. وعبد الناصر في أزمة مع الاتحاد السوفياتي والأحزاب الشيوعية العربية. وحركة الثورة العربية تبدو في وضع انحساري، وفي حالة دفاع عن النفس. وسط هذا الوضع قامت الثورة. وهرب الامام البدر. وكان سيف الإسلام الحسن في نيويورك، وجاء الى نجران لجمع القبائل والهجوم على صنعاء بمساعدة من الملك سعود والأمريكان. وقد روى الطيارون السعوديون، الذين لجأوا بطائراتهم إلى مصر، الكثير عما كان يخططه سعود والأمريكان لضرب الثورة اليمنية. وفي الوقت نفسه جاءت بعض القيادات اليمنية الى القاهرة، وشرحت الوضع طالبة المساندة. كان الخيار صعباً، لكن عبد الناصر حيال هذا الوضع وجد ان ضرب الثورة اليمنية يعني إعطاء الملك فرصة لتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذي حققه في عملية الانفصال. ولم يكن عبد الناصر مستعداً لإعطاء

(٧٢) أمين هويدي، حروب عبد الناصر، ط ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)، ص ١٢٦ و١٣٧ - ١٤٧؛ محمد محمد الشحات، «عبد الناصر وقضية التحرر في جزيرة العرب،» في: مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا، الموسوعة الناصرية: نضال عبد الناصر (بيروت: دار الحكيم، ١٩٧٣)، القسم ٤، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، ومطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٨٦ - ١٣٩.

الملك سعود مثل هذه الفرصة، وقرر ان يساعد ثورة اليمن. . .»[٧٣].

ومثلُ هيكل، واستناداً اليه احياناً، يتحدث المؤرخون والباحثون الرسميون السوفيات، ولكن بأسلوب عاطفي، تشجيعي كدأبهم. فقد جاء في كتاب **تاريخ الأقطار العربية المعاصر** تثمين رفيع للسياسة الخارجية للجمهورية العربية المتحدة (١٩٦١ ـ ١٩٦٦) عموماً، بما في ذلك الموقف من الثورة اليمنية: «يعلن الميثاق الوطني ضرورة النضال النشيط من أجل السلام ونزع السلاح الكامل الشامل. ومن أبرز مهام السياسية الخارجية للجمهورية العربية المتحدة النضال ضد الامبريالية والاستعمار، ومن أجل تصفية القواعد الأجنبية القائمة في اراضي بلدان آسيا وافريقيا، وتقديم المساعدة للشعوب العربية والافريقية في نضالها التحرري، ولتجربة الجمهورية العربية المتحدة في النضال ضد الامبريالية أهمية بالغة بالنسبة لكافة البلدان غير المنحازة . . . وأخذت مصر تدعم بنشاط النضال الثوري المعادي للامبريالية الذي تخوضه شعوب افريقيا والشرق الأوسط، وتؤيد حركة التحرر الوطني في هذه المنطقة. ولقد كان لمصر دورها البارز في انتصار الثورة الجزائرية. كما لعبت الدور الحاسم في حماية الجمهورية العربية اليمنية. وفي فترات مختلفة قدمت مصر مساعداتها المادية والمعنوية للشعوب المكافحة في المغرب وسورية والسودان والعراق والأردن وعدن وقبرص والكونغو . . .»[٧٤].

إن رأينا يقف في جانب هيكل. فعبد الناصر بإعلانه وتطبيقه، فعلياً، مبدأ نصره الثورة اليمنية ودعمها لم يأت بشيء جديد بالنسبة لمبدئيته وروح ثورته، وحقيقة أفكاره. وبالطبع ثمة مجال لمناقشة التفاصيل، ولكن ناصر من حيث المبدأ كان أميناً لفكره القومي التحرري، ولعقيدته العروبية الوحدوية التي تعتبر، عن حق، قضية الحرية في المنطقة واحدةً لا تتجزأ، وتؤمن، بالضرورة، بجدلية الثورة في سائر البلدان، وبالنسبة لجميع الشعوب، وبخاصة في الوطن العربي. لقد كان دعم الثورة الوليدة فرصة لإذكاء الروح القومية الثورية، والتغلب على الانحسار الناجم عن الانفصال. ولولا دعم عبد الناصر لثورة اليمن لما صمدت أمام القوى الرجعية التي واجهتها من جميع الجهات[٧٥]، مدعومةً بالامبريالية البريطانية والامريكية، بخاصة،

---

(٧٣) مطر، المصدر نفسه، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٧٤) **تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠**، مجموعة من المؤلفين (موسكو: أكاديمية العلوم السوفياتية، معهد الاستشراق، ١٩٧٦)، ج ٢، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٧٥) عودة بطرس عودة، **جمال عبد الناصر: دوره في النضال العربي** (القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١)، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٣: **عبد الناصر والعرب**، ص ٢٢٨، ونجلاء أبو عز الدين، **عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية**، ترجمة يوسف الصباغ (القاهرة: الوطن العربي، ١٩٨١)، ص ٤١٦.

والتي كان يهمهما تكريس التخلف والعزلة في اليمن والجزيرة العربية والخليج، وعدم الانفتاح على الحضارة والتقدم العلمي[٧٦]. وكانت اليمن ذات خصوصية خاصة في هذه اللوحة، فقد كانت، آنذاك، قاعدة للتجمعات العشائرية، تقوم على الحكم الأوتوقراطي المطلق دون دستور وبرلمان وجامعات، وهي بشكلها هذا، وبصفتها هذه كانت تقدم ـ برغم الخلافات الشخصية المتوقعة بين الحكام ـ الدعم الاستثنائي للسعودية والمحميات والامارات الخليجية التي كانت وقتذاك مرتعاً للأساطيل بوصفها ـ عدا عمان ـ مستعمرات بريطانية[٧٧]، من هنا يمكن فهم سر الهلع الذي انتاب الامبرياليين وأعوانهم في الجزيرة، فقد فهموا، بطريقتهم الخاصة، ومن زاوية مصالحهم الخاصة، مغزى مرابطة وعمل قوات مسلحة حديثة لدولة عربية كبرى مستقلة متمردة على السلطة الامبريالية، وقائدة لنضالات شعوب المنطقة، وداعمة لانطلاقاتها الثورية. لقد جزعوا وخشوا «خشية الموت» تدمير مصالحهم، وفقدان مصادر أرباحهم الأسطورية، وضياع معاقلهم الاستراتيجية للهيمنة والتوسع. ومن هنا كان الحقد الذي وجهوا نيرانه على ناصر ومصر، والدول العربية المتحررة المتضامنة مع مصر وناصرها. فكان ان عملوا جميعاً، مدعومين امبريالياً، على مواجهة القوات المصرية المسلحة العاملة في اليمن وسحقها، وإطالة أمد الحرب بقصد استنزاف الطاقات المصرية، وإحباط المخطط الناصري لدعم الثورة اليمنية، والثورة العربية عموماً. وبالفعل، فقد طال أمد وجود القوات المصرية في اليمن أكثر من خمس سنوات (تحديداً الفترة الممتدة من الثامن والعشرين من ايلول/سبتمبر ١٩٦٢ لغاية عام ١٩٦٨). وسقط الكثير من الشهداء المصريين (حوالى عشرة آلاف شهيد)، وتضررت الآليات والتقنية العسكرية المصرية، وأوذي الاقتصاد المصري على نحو بالغ. ومن أهم أسباب هذه الخسائر، وبخاصة ـ إطالة أمد مرابطة القوات المصرية ـ عدم تدريب هذه القوات على حرب الجبال في اليمن، كما لم يجر التشخيص اللازم لقادة القبائل المهيمنة في اليمن، ولم تدرس طبوغرافية المنطقة دراسة دقيقة بالمستوى الذي ينبغي. وعموماً لم يجر الإعداد الدقيق المتقن للعملية العسكرية المصرية في اليمن. يقول هيكل في ذلك:

«. . .في البداية أرسلنا مستشارين وكتيبة على أساس ان هذا يكفي، وبحيث لا يبقى هؤلاء في اليمن طويلاً، لكننا وجدنا أنفسنا، على حد قول الرئيس عبد الناصر

---

(٧٦) عودة، المصدر نفسه، ص ٢٢٤؛ مايلز كوبلاند، **لعبة الأمم**، ترجمة مروان خيري (بيروت: الانترناشونال سنتر، ١٩٧٠)، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤، وفرد هاليداي، **الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية**، ترجمة محمد الرميحي (الكويت: شركة كاظمة للنشر والتوزيع، ١٩٧٦)، ص ٤١ ـ ٤٥ و١٩٠ ـ ١٩١.

(٧٧) سيف علي مقبل، **وحدة اليمن تاريخياً** (بيروت: دار الحقائق للطباعة والنشر، ١٩٨٧)، ص ١٠٠ ـ ١١٥، وخالد بن محمد القاسمي، **الوحدة اليمنية: حاضراً ومستقبلاً**، ط ٢ مزيدة ومنقحة (نيقوسيا: دار الشباب، ١٩٨٧)، ص ٢٠٧.

لي مرة، نرسل بعد ذلك فرقتين لمساندة الكتيبة. وبالأرقام أرسلنا خمسين ألف عسكري لتعزيز ٦٠٠ عسكري!»[٧٨]. وفي تحليله سلبيات الدور العسكري المصري في اليمن، يقول هيكل: «. . . اننا بسبب ضعف الثورة اليمنية وجدنا دور الإدارة المصرية يحل محلها، وهذا جعل إقامة مصر في اليمن طويلة. لقد ذهبنا الى اليمن من دون ان نحدد مدىً معيناً لبقائنا هناك، وحجماً معيناً لمساندتنا. ولذا وجدنا أنفسنا أسرى الظروف والتطورات التي لم نستطع التحكم بها. ثم وجدنا نفسنا، نتيجة لذلك، ننحي الثورة اليمنية، ونتصرف بالنيابة عنها. ومن السلبيات على الصعيد العسكري ان ضباطنا وجنودنا تعلموا القتال السهل، والإسراف في استعمال قوة النار، واستعمال أسلحة في غير موضعها، والبطء في رد الفعل، لانهم خاضوا معركة من نوع جديد، هم خاضوها نظامية، والقوات اليمنية المعادية للثورة خاضتها بنوع مختلف من حرب العصابات»[٧٩]. وحرب العصابات دوخت دولاً كبرى مثل الولايات المتحدة الامريكية، وأجبرتها على الإذعان، فكيف بمصر التي كانت تنوء تحت أعباء تفوق طاقتها؟

مرت العملية العسكرية المصرية في اليمن بثلاث مراحل، اتسمت أولاها (أيلول/سبتمبر ١٩٦٢ ـ أيار/مايو ١٩٦٣) بالنجاح النسبي في حماية الثورة اليمنية، واستقرار القوات في صنعاء، وحمايتها مع مثلث يشمل تعز والحديدة[٨٠]. أما المرحلة الثانية (أيار/مايو ١٩٦٣ ـ تشرين الثاني ١٩٦٣) فقد تميزت بتطهير الجيوب المعادية، وشيوع نوع من الاستقرار النسبي، كان من أهم معطياته إصدار الدستور المؤقت، وتشريع أول قانون للتجنيد والخدمة العسكرية، وإدخال تنظيم الاسلحة لأول مرة في الجيش اليمني[٨١]. وأما المرحلة الثالثة (١٩٦٤ ـ ١٩٦٨) فقد تميزت بالبدء في التعمير والتطور الاجتماعي ونشر مبادىء الثورة، بعد الاستقرار النسبي. وقد أوكلت الى القوات المصرية، إلى جانب مهماتها الدفاعية، مهمة قومية حضارية مطلوبة، هي الإسهام في إشاعة المظاهر المدنية، وفرض النظام والقانون، وتأمين مستلزمات الحياة العصرية ولو جزئياً[٨٢].

لقد بذلت مصر والقوات المصرية في اليمن الكثير من أجل إنجاح العملية التي اوكلت اليها ـ عملية دعم الثورة في اليمن. ان خصوصية المجتمع اليمني القبلية، وما تستتبعه من تخلف، اضافةً إلى أرض اليمن الجبلية ذات الخصوصية الخاصة، وتكالب

---

(٧٨) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٠.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٨٠) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٣: عبد الناصر والعرب، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

(٨٢) عودة، جمال عبد الناصر: دوره في النضال العربي، ص ٢٢٨، وهويدي، حروب عبد الناصر، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

أعداء الثورة اليمنية على تغذية المشاعر القبلية، وعدم الانصياع لأية سلطة قانونية، حتى ولو كانت سلطة أبناء القبائل انفسهم، والاسناد الامبريالي الانكلو - امريكي لقوات الثورة المضادة . . . ان كل هذا يجعل القوات المصرية تعاني الكثير من الصعوبات في سبيل أداء مهمتها بالمستوى المطلوب، بل أحياناً حتى بالمستوى الأدنى. ولعل عدم استطاعة القوات المصرية تشخيص العدو من الصديق بين أفراد القبائل يشكل واحداً من المعوقات المهمة للعملية، حيث ألف بعض اليمنيين الحياة القبلية الساذجة، وقد انعكس هذا على تعاملهم، فتارةً مع المصريين، وتارة مع الملكيين. . . وحسب ما تتيح الفرصة لتحقيق المكاسب، حيث كان بعض مشايخ القبائل يحصلون على الأموال والأسلحة من القوات المصرية، وقد وجدت القوات المصرية مصدراً للرزق. . . وبلغت ميزانية شؤون القبائل ما يقرب من ستين مليون جنيه استرليني[٨٣]. وقد تركت هذه الخصوصية القبلية اليمنية آثارها العسكرية السلبية، ففي عملية التطهير التي اضطلعت بها القوات المصرية قدمت هذه القوات شهداء كثيرين، فالجيوب المعادية كانت تظهر وتختفي تبعاً للتمويل! كما ان قوات الثورة اليمنية لم تشترك على نحو فعال في عملية التطهير، وعلى العموم كان موقف هذه القوات غير مستقر. يقول هيكل بهذا الخصوص: «. . . وعلى اثر زيارة لليمن بعد شهرين من قيام الثورة أوضحت لعبد الناصر صراحةً ان الوضع الاجتماعي في اليمن لا يتحمل تدخل مصر لحماية الثورة. وكنت أتصور ان فرقاً من المتطوعين العرب ترسل الى هناك للقتال مع الثورة اليمنية. . . ولم يكن ايجاد هؤلاء المتطوعين أمراً صعباً بالنسبة الى ما كان يواجهه شعب اليمن من اضطهاد مروع من حكم الإمامة الذي قتل أحلامه وملكاته وعزله عن العالم»[٨٤].

ومهما كانت الحال، فإن عملية التدخل العسكري المصري لدعم الثورة اليمنية كان لها ما يبررها في رؤية عبد الناصر الفكرية، مع العلم ان الخيار كان صعباً، فان ضرب الثورة الآن يعني، في تصور عبد الناصر، إعطاء الرجعية العربية فرصة لتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذي حققته في عملية الانفصال. ولم يكن عبد الناصر، كما أسلفنا، مستعداً لإعطاء الرجعية العربية هذه الفرصة، وقرر ان يساعد ثورة اليمن.

فلماذا قرر ناصر مساعدة ثورة اليمن، ولماذا واصل ذلك برغم فداحة التضحيات، وما هو الجانب الفكري الذي يبرر ويدعم هذا القرار السياسي الخطير؟

في الجواب عن هذا السؤال، لا بد من التذكير بالنتائج التي أسفرت عنها العملية، ولا بد من تأكيد القيمة السياسية والحضارية لهذه العملية، كما لا بد من

---

(٨٣) حروش، المصدر نفسه، ص ٢٣١، وعودة، المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

(٨٤) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٠.

الإشارة إلى المغزى التاريخي والفكري للعملية. ان هيكل ذاته يضيء عملية القرار السياسي، ويقدم حيثياته، وهو نفسه، أيضاً يبرر التدخل، رغم جميع تحفظاته على هذا التدخل والتي أسلفنا الإشارة اليها، وينظر اليه في ضوء النتائج المهمة التي قاد اليها، فيقول مكملاً حديثه عن الثورة اليمنية في رؤية ناصر «اما ايجابيات دور مصر في اليمن فإنها كثيرة. واذا كان الجيش الفرنسي أيام نابليون قام في مصر بدور تحديثي، بمعنى انه كسر استمرار عصر المماليك، وفتح آفاق العلم أمام المصريين، فإن الجيش المصري، بانتمائه القومي، قام بدور مماثل تقريباً في الجزيرة العربية من خلال وجوده في اليمن بضع سنوات، فقد أسقط حكم الملك سعود، وأنهى عهداً معيناً من الحكم في السعودية. وجاء الملك فيصل ليبدأ عملية تحديث للدولة السعودية، وبدأ الأمراء يتعلمون، وأصبحت هنالك رغبة، بل حاجة إلى الاتصال بالعصر، واستقلال الجنوب العربي كان نتيجة مباشرة لتدخل مصر في اليمن عسكرياً. وحدث تغيير أساسي وجذري في شبه الجزيرة العربية، وأصبح هنالك وعي استراتيجي عربي. وبسبب وجود الجيش المصري قرب منابع النفط أصبحت الشركات الأمريكية والبريطانية تتصرف بشكل آخر مع القوى المحلية صاحبة الثروة النفطية، لأنها شعرت ان هناك قوة عربية قريبة من منابع النفط»[٨٥].

إن هذه الإيجابيات، برغم جرأة هيكل في تشبيه الجيش المصري بالجيش الفرنسي الأجنبي الغازي أرض مصر ذاتها، تبرر، دون شك، تدخل مصر العسكري لدعم الثورة اليمنية، فمغزى التدخل كبير، كما ان قيمته الحضارية والفكرية والسياسية، في ضوء نتائجه، فقد كان الهزة التي أيقظت المجتمعات القبلية البدوية ليس في اليمن نفسها فحسب، بل في الجزيرة والخليج أيضاً، وكان ذلك في صالح الأمة العربية ونهضتها الحديثة، وسعيها للحاق بالعصر والتقدم الحضاري المعاصر. وقد انتبه الغرب الامبريالي والكيان الصهيوني لذلك، قبل ان ينتبه لذلك بعض العرب، بمن فيهم بعض المفكرين والباحثين الذين ظلوا حتى الآن يعذلون عبد الناصر عما أسموه «الورطة المصرية في اليمن»، وعن سائر انطلاقات الناصرية القومية في الوطن العربي، ودعمها للحركات التحررية في العالم[٨٦]. لقد أنكر هؤلاء تحت وطأة عماهم السياسي، الدور التاريخي والقومي، والتحرري العالمي للناصرية، وظلوا يحاكمون عبد الناصر في ضوء جذور تفكيرهم الاقليمية المصرية البالغة الانغلاق، وفي ضوء الحنين الى العهد الذي أطاحت به ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تحت قيادة ناصر والضباط المصريين الأحرار.

وتنبغي أيضاً الإشارة، إلى ان إطالة أمد التدخل المصري في اليمن كانت لعبة

---

(٨٥) المصدر نفسه، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٨٦) أحمد أبو الفتح، جمال عبد الناصر (بيروت: لجنة مصر الحرة، [د. ت.])، ص ٣٣٧.

أتقنها الغرب الامبريالي، والملكيون اليمنيون بدعم السعودية ومشايخ الخليج، وكان ذلك بقصد استنزاف قوى مصر الاقتصادية والعسكرية والبشرية والتقنية، والتهيئة للإطاحة بناصر نفسه. وعلى صعيد آخر فإن الملكيّين في اليمن كانوا من أشد القوى الظلامية الإقليمية إيغالاً في الرجعية والانغلاق، ولم يكونوا مظلومين حين صادرت الثورة اليمنية، أو القوات المصرية حقوقهم. وقد أثمر الدعم العسكري، والإعلامي المصري للثورة اليمنية، وجمهوريتها الوليدة في استحصال بعض الاعتراف الدولي بها، ومن ذلك الاعتراف الواقعي من جانب الولايات المتحدة الامريكية بالجمهورية اليمنية[٨٧]. كما ان مواصلة الدعم المصري العسكري والإعلامي للثورة اليمنية، وحركة التحرر العربي عموماً، قد أتى بقطوفه الدانية، وبثماره في انتصار الثورة في جنوب اليمن (عدن)، وهزيمة القوات الاستعمارية البريطانية واستقلال هذا الجزء (اليمن الشعبية الديمقراطية) في ٣١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، وكذلك في تصاعد الحركة التحررية في الجنوب العربي وإحرازها الانتصارات المتلاحقة، الأمر الذي اضطر بريطانيا للانسحاب منه في عام ١٩٦٨[٨٨].

ومنذ البداية أثارت الثورة اليمنية، وموقف عبد الناصر منها، حماساً كبيراً في نفوس الأوساط القومية العربية، بغض النظر عن قناعاتها الفكرية، ومدى ثوريتها. ومما أثار الغرب، والرجعية العربية بصورة خاصة ان ذلك التأثير امتد الى داخل أدق مرافق المؤسسة العسكرية للدول العربية المناهضة فكرياً لمصر عبد الناصر، من ذلك انتقال الطيارين السعوديين، وغيرهم[٨٩] الى جانب الحق العربي، الأمر الذي طالما اعتز به عبد الناصر، وعدّه رداً فكرياً وعملياً على الانفصال[٩٠].

وعلى صعيد آخر فإن الكثيرين من الباحثين الجادين يتصورون للعملية المصرية في اليمن، ويرون، متفقين مع هيكل وسواه، ان العملية حققت ثلاثة أهداف كانت هي: دعم الثورة اليمنية، وإحداث مؤثرات حضارية كبيرة، وتحويل اليمن الى قاعدة للنضال القومي[٩١]. ويتفق ذلك مع المنظور المستقبلي للرؤية الفكرية الناصرية للعملية، ولدعم

(٨٧) هيكل، ١٩٦٧: سنوات الغليان، ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥، وحمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٣: عبد الناصر والعرب، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٩.

(٨٨) هيكل، لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟، ص ٥٨، حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٥٧؛ عودة، جمال عبد الناصر: دوره في النضال العربي، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢، وأبو عز الدين، عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية، ص ٤١٧.

(٨٩) منهم قائد سلاح الجو الأردني سهل حمزة الذي التجأ إلى القاهرة.

(٩٠) انظر خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في الاحتفال الكبير الذي أقيم في القاهرة في ذكرى الوحدة، في: الأهرام، ٢٢/٢/١٩٦٣.

(٩١) هويدي، حروب عبد الناصر، ص ٢٣٠؛ عودة، المصدر نفسه، ص ٢٣٠، وأبو عز الدين، المصدر نفسه، ص ٤١٦ ـ ٤٢٤.

حركة التحرر العربي والنضال المناهض للاستعمار عموماً[٩٢]. ففي الزيارة الأولى للرئيس عبد الناصر الى اليمن، حيث عُقد المؤتمر الشعبي في الثالث والعشرين من نيسان/ ابريل ١٩٦٤، صرح قائلاً: «ان بريطانيا لا بد ان تجلو عن عدن. والجنوب العربي أرض عربية.. وانه من المستحيل تماماً على بريطانيا ان تفرّق بين عرب عن عرب، أو يمنيّين عن يمنيّين... إننا لا نسمح للاستعمار بأن يبقى في أي جزء من أجزاء الوطن العربي»[٩٣].

إن هذا التصريح الناصري البليغ في دلالاته السياسية والفكرية والإعلامية، لم يكن تعبيراً عن انفعال مؤقت، ولا رد فعل تجاه ما يقوم به الغرب الامبريالي والرجعية العربية في المنطقة، كما لم يكن آنياً، ولا ابن ساعته، بل كان ترجمة أمينة لمبادىء الناصرية الفكرية والسياسية، وتطبيقاً حقيقياً لمعطيات الرؤية الناصرية القومية على صعيد تأييد انطلاقات الثورة العربية، والنضال المناهض للاستعمار، وهو استمرار لبلورة الفكر الناصري السياسي، ومواقفه في قضية الحرية والقومية والوحدة والسلام. وبالفعل، فإن القوات المصرية لم تعد إلى مصر إلا بعد إنشاء جيش يمني، واقامة المرتكزات الأساسية لدولة يمنية عصرية، منفتحة على العالم وعلى النضال من اجل الحرية والتقدم[٩٤]. وكان لا بد للناصرية، والفكر الناصري من دفع الثمن غالياً عن كل ذلك.

٢ ـ الاستفزازات الصهيونية والإسناد الأمريكي

قبل ان نبحث دور الاستفزازات الصهيونية وما يتبعها، بالضرورة، من الدعم الامريكي الاستراتيجي الفعال، ينبغي ان نشير، ولو سريعاً، وعلى سبيل إتمام حديثنا عن رؤية ناصر الفكرية، الى الصراع العربي. لقد قدّمت الرجعية العربية المتحالفة استراتيجياً مع الغرب الامبريالي بقيادة الولايات المتحدة، الكثير للاستفزازات الصهيونية، وعجّلت في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فالجميع: الامبرياليون والصهاينة والرجعيون كانوا يقاتلون في جبهة واحدة وخندق واحد، برغم اختلاف

(٩٢) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤١ و١٥٦.

(٩٣) «كلمة الرئيس جمال عبد الناصر التي وجهها إلى القوات المسلحة العاملة في اليمن إثر وصوله إلى صنعاء في ٢٣/ ٤/ ١٩٦٤،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، الوثائق العربية، ج ٢، الوثيقة رقم ١٧٩، والأهرام، ٢٤/ ٤/ ١٩٦٤.

(٩٤) أحمد يوسف أحمد، الدور المصري في اليمن، ١٩٦٢ ـ ١٩٧٠ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١)، وبكر مصباح تنيره، «سياسة مصر العربية في عهد عبد الناصر،» في: عبد الناصر وما بعد، مجموعة من المؤلفين، إشراف أنيس صايغ، كتاب قضايا عربية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ١٠٠.

الألسن والجنسيات، فالمصلحة الواحدة المشتركة توحدهم، والهدف المشترك يقودهم لمقاتلة عبد الناصر، والمطامح القومية التقدمية، وجماهير الأمة العربية المتخندقة معه، بالضرورة وبالمصلحة الواحدة: مصلحة التحرر الوطني والقومي والبناء الوطني المستقل، والسعي نحو السلام العادل الحقيقي. كان القتال مستعراً في حرب غير معلنة، فإن أي تقدم تحرزه الناصرية في مصر، على صعيد البناء التنموي او التحصين العسكري، او توطيد السمعة الدولية، كان يثير الرجعية العربية والامبرياليين، مثلما يثيرهم، بالطبع، تقدم الناصرية في تحرير البلاد العربية ودعم الانطلاقات الثورية التحررية في البلدان العربية، او التجارب الوحدوية بين الدول العربية. ولهذا فالقائمون على إنجاح تجربة الانفصال السوري، هم أنفسهم القائمون على تسعير القتال في اليمن، واطالة أمد الحرب في اليمن بين الملكيين والجمهوريين المدعومين من قبل قوات الدعم المصري العسكري، وهم أنفسهم القائمون على تهيئة مقومات هزيمة ١٩٦٧[٩٥] التي غدا اعداء العروبة المتمثلة في الفكر الناصري يرنون اليها بتلهف، خصوصاً ان الاحتكارات النفطية باتت تشعر، وفق تعبير محمد حسنين هيكل ان «هنالك قوة عربية قريبة من منابع النفط»، هذا الذي جعل الغرب «يتكالب بعد ذلك على الثورة المصرية، وعلى تجربة عبد الناصر. وظهر التكالب واضحاً في عدوان ١٩٦٧»[٩٦]. وقد دعم هيكل مقولاته هذه، بحديثه عن مقدمات حرب ١٩٦٧ أمداً طويلاً[٩٧]، فيقول: «... رأيي أن إسرائيل بدأت تعد لحرب ١٩٦٧ بعد حرب السويس. وفي كلمة ألقاها موشي دايان عام ١٩٦٧ في افتتاح كلية عليا للطيران قال: ان الحرب المقبلة ستكون حرباً جوية في الدرجة الأولى تبدأ بضربة جوية. وكان دايان قد شارك في حرب السويس واستوعب درس تلك الحرب. لماذا بدأت اسرائيل تعدّ للحرب منذ عام ١٩٥٧؟ وجهة نظري في هذا الأمر ان مصر خرجت من حرب السويس منتصرة. ذلك ان دولة تخوض حرباً تعتبر منتصرة ان هي استطاعت تحقيق هدفها من استعمال القوة المسلحة، او استطاعت حرمان عدوها من تحقيق هدفه في استعمال قوته المسلحة. ان الحرب ليست مبارزة. وهدف حرب ١٩٥٦ كان القناة. عبد الناصر قال ان القناة لمصر. والانكليز والفرنسيون وغيرهم قالوا ان القناة لهم. يعني ان من تستقر في يده القناة يكون المنتصر. وما دامت القناة استقرت في يد مصر

---

(٩٥) عودة بطرس عودة، عبد الناصر والاستعمار العالمي، خزانة الفكر العربي. السلسلة القومية؛ ١٢ ـ ١٣ (القاهرة: مؤسسة ناصر للثقافة؛ دار الوحدة، ١٩٧٥)، ص ١١٩ ـ ٢٣١.

(٩٦) نقلاً عن: مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤١.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٤١، وهيكل، لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟، ص ١٣٣ ـ ١٥٠.

فإن مصر هي التي انتصرت في الحرب. وكان انتصاراً مدوياً، وأحدث ردود فعل دولية وعربية وافريقية. ولولا ذلك الانتصار لما حدثت تلك الانطلاقة العربية بعد ذلك، ولما كانت حركة القومية الثورية العربية امتدت بالشكل الذي امتدت فيه، ولما كانت معظم الدول العربية استقلت...»[٩٨].

ان كل هذه المقولات مهمة، لكن الأهم هو الاستنتاج الذي يستنتجه هو منها، حين يقول: «وبصرف النظر عن التكسات التي حدثت في تلك الفترة، فإنه كان من الواضح ان المنطقة تشهد انطلاقة في منتهى الأهمية، وهذه الانطلاقة التي قادها عبد الناصر لم تكن حركة سياسية فقط، انما حركة اجتماعية تستهدف بمحتواها التحرري تغيير نوعية الانسان العربي. وهذا التحدي لاسرائيل لا يمكن ان تسلم به، لأنها تعيش على تخلف الكم المحيط بها. ومن الطبيعي، ان تكون اسرائيل قد بدأت الإعداد لعدوان ١٩٦٧ منذ ان هزمت مع بريطانيا وفرنسا في حرب السويس عام ١٩٥٦...»[٩٩].

وبعد هذا الحديث يغدو من الواضح، تماماً، دور الانطلاقة السياسية - الاجتماعية الحضارية الناصرية في دفع الكيان الصهيوني والغرب الامبريالي والرجعية العربية للانقضاض على مكاسب الناصرية والأمة العربية، ولإحباط الانطلاقة الفكرية - السياسية الناصرية التي أثمرت ثمارها المحسوسة، وشكلت تغييراً نوعياً في خارطة الوعي الاستراتيجي العربي، والتغيير الثوري، او مقدمات هذا التغيير، على الأقل[١٠٠].

بيد أن الأمر لم يقتصر على الرجعية العربية، فثمة «رجعية» أخرى اذا جاز التعبير، كانت تمثل «تطرف اليسار القومي العربي»، تقف مقابل «تطرف اليمين الرجعي»، ظاهراً، وتلتقي معه في النتائج، والأهداف النهائية، دون تخطيط مسبق طبعاً، وحتى دون إرادة او قصد. فالفيصل الحاسم ليس الأقوال المجانية، بل الأفعال، وطريقة التناول. والمقصود، هنا، هو النظام السوري، ومتطرفو الحركات والتنظيمات القومية والفلسطينية. فهذه الأطراف جميعاً كانت تزايد بالمجان على تدمير «اسرائيل» وإلقاء اليهود في البحر وتحرير فلسطين بالكامل واستخلاصها للعرب

---

(٩٨) مطر، المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(١٠٠) عودة، **عبد الناصر والاستعمار العالمي**، ص ١٥٩ - ١٨٤؛ الدجاني، **عبد الناصر والقومية العربية**، ص ١١ - ١٢؛ صفدي، «الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو،» ص ٦٥٩ - ٦٧٤، و Richard Hrair Dekmejian, *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics* (Albany, NY: State University of New York Press, 1971), pp. 1-3.

وحدهم ... الخ. وقد مر بنا الحديث عن التصريحات السورية المتشنجة وقتذاك، وبعض التنظيمات الفلسطينية التي رعاها السوريون وهجماتها على الكيان الصهيوني انطلاقاً من الأراضي السورية. والحق ان النظام السوري وقتذاك لم يكن أشد إخلاصاً للقضية الفلسطينية من الرئيس عبد الناصر[١٠١] الذي كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان المعركة الحاسمة مع الكيان لا يمكن ان تكون الا على أنقاض الأنظمة الرجعية[١٠٢].

ومن المهم الإشارة إلى ركوب بعض الأنظمة الرجعية «موجة المزايدات» ليس فقط بقصد إحراج عبد الناصر ومدرسته في الفكر القومي الناصري، بل أيضاً بقصد جره إلى مواجهة شاملة مع الكيان الصهيوني، في وقت غير مناسب، ودون استعداد كاف، لتكون النتيجة تدمير مصر وناصرها، او تحجيمه وتحجيم مشروعاته القومية في التحرر والوحدة والعدالة الاجتماعية[١٠٣]. فبعد ايام من توقيع مصر اتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا في يوم الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦[١٠٤]، بقصد تضبيط آلية الصراع، وكبح جماح تطرف القيادة السورية في الاشتباك مع الكيان في وقت غير مناسب، هاجمت قوة صهيونية قرية «السموع» الاردنية في يوم الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦، في محاولة لاختبار جدية الاتفاقية، ومصداقية التضامن العربي عموماً. وقد اسفر الهجوم، الذي أسهمت فيه المدرعات والطائرات الصهيونية، بتدمير ١٢٥ منزلاً و٢٨ قتيلاً و١٣٤ جريحاً. وانفجرت التظاهرات في الأردن والضفة الغربية ضد الحكومة الأردنية التي أغلقت مقر منظمة التحرير الفلسطينية بالشمع الأحمر، ولم توعز للجيش الأردني بمقاومة الغارة. وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦ تحرك الاسطول السادس الأمريكي ليتخذ مراكزه في شرق البحر المتوسط ولإنزال جنوده عند طلب الأردن ذلك. وهنا ابتدأت المزايدة بقصد توريط مصر في حرب مدمرة مع اسرائيل. فقد قاد وصفي التل رئيس الوزراء الأردني، وقتها، حملة إعلامية كبيرة ألقى اللوم فيها على مصر، لأنها لم تحم الأجواء الأردنية، وعلى القيادة

---

(١٠١) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٤١.

(١٠٢) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في مدينة النصر بمناسبة الذكرى العاشرة لعيد النصر في ١٩٦٦/١٢/٢٣»، في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، **الوثائق العربية**، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٦٣، ص ٩٧٣.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٩٦٤ ـ ٩٧٣؛ «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في عيد الوحدة في القاهرة في ١٩٦٧/٢/٢٢،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ٦٧، ص ١١٤ ـ ١٢٦، و**الأهرام**، ١٩٦٧/٢/٢٣.

(١٠٤) للاطلاع على نصوص الاتفاقية، انظر: «اتفاق الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية، القاهرة، ١٩٦٦/١١/٤،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٧٢، ص ٧٧٠ ـ ٧٧١، و**الأهرام**، ١٩٦٦/١١/٥.

العربية الموحدة، كذلك، لأنها لم تطلب الجيوش العربية، وعلى سوريا، أيضاً، لأن بوسع سلاح الطيران السوري قصف الأهداف الصهيونية الحيوية لتخفيف الضغط على الأردن... بل حتى على أحمد الشقيري لأنه لم يفتح جبهة ثانية في سيناء لتحريك جيش التحرير الفلسطيني المرابط في قطاع غزة[١٠٥].

وكان هذا الهجوم الإعلامي امتداداً لموجة المزايدة التدميرية على مصر وضدها، ومواصلة لحملات الدعاية المضادة لعبد الناصر، قادتها، أساساً، وسائل الإعلام الأردنية والسعودية، وتبلورت في اتهام عبد الناصر بالتزام الموقف السلبي من القضية الفلسطينية، واحتمائه بقوات الطوارىء الدولية المنتشرة على امتداد الحدود المصرية، وسماحه للكيان الصهيوني بعبور خليج العقبة، وانشاء ميناء (ايلات) الذي يصله ٩٥ بالمئة من البترول الوارد من ايران الشاه الى «اسرائيل»، وبالتنازل، بعد عدوان ١٩٥٦ عن نشر القوات المصرية في شرم الشيخ وجزيرتي تيران وظافر[١٠٦].

يتضح من كل ذلك مدى التناقض بين الموقف العملي للأردن حيال منظمة التحرير الفلسطينية وغلقه مقرها ومطاردة نشاطها[١٠٧]، ودعوة الأسطول السادس الأمريكي، وبين تصعيد الحملة الإعلامية ضد عبد الناصر علناً، لإيقاعه في الفخ الذي نصبته الرجعية له بتنسيق محكم مع الولايات المتحدة والصهيونية، بدفعه لمهاجمة «اسرائيل» فيكون الدمار الشامل لمصر في حرب لم تستعد لها، ولم تردها في ذلك الوقت المأزوم الساخن[١٠٨].

كان توقيت الرجعية العربية لهذه الحملات الدعائية ضد عبد الناصر ومصر

---

(١٠٥) «الحديث الذي أدلى به السيد وصفي التل رئيس الوزراء الأردني في مؤتمر صحفي عقده في ١٩٦٦/١١/٢١ حول الاعتداء الصهيوني على الأردن،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٩٩، ص ٨١٤ ـ ٨١٧، والجهاد (القدس)، ١٩٦٦/١١/٢٢.

(١٠٦) سامي جوهر، **الصامتون يتكلمون: عبد الناصر... ومذبحة الاخوان**، ط ٤ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٧٥)، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(١٠٧) للمزيد من التفصيل، انظر: «الرسالة التي وجهها السيد أحمد الشقيري رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى الملك حسين اثر الاعتداء الإسرائيلي على الأردن، القاهرة، ١٩٦٦/١١/١٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٨٧، ص ٧٩٥ ـ ٧٩٦؛ **الأهرام**، ١٩٦٦/١١/١٧؛ «الرسالة الثانية التي وجهها السيد أحمد الشقيري رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى الملك حسين، القاهرة، ١٩٦٦/١١/٢٢،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٤٠١، ص ٨١٩، و**المحرر** (بيروت)، ١٩٦٦/١١/٢٣.

(١٠٨) أحمد ثابت، «صفحات من المقاومة،» **اليقظة العربية** (القاهرة) (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨).

دقيقاً، فعلاً، فقد كانت الجماهير العربية في أقصى حالات الغضب، تنادي، بملء صوتها، بالحرب والثأر من «اسرائيل»! وقد بلغ الإحراج غايته بالنسبة للناصرية، والفكر الناصري الذي يقوم على مخاطبة الجماهير والاستماع لنبضاتها. وكان ان وجد عبد الناصر نفسه امام عدة ضغوط رسمية وشعبية موحدة، رغم اختلاف النيات والبواعث، تدفع إلى التصادم والحرب، وهي ضغوط فعلت فعلها في عبد الناصر، وقتها، بحيث بات هامش المناورة الاستراتيجي أمامه ضيقاً، فانحاز إلى فكرة الحرب في ذلك الوقت، منساقاً مع رغبات الجماهير. لقد أصبح عبد الناصر، الذي ظل يبني ويستعد للمجابهة الأفضل عشر سنوات (١٩٥٦ ـ ١٩٦٦)، أسير ضغوط الجماهير، والدعايات المزايدة المفبركة في مطابخ الأعداء(١٠٩). وأضحى مقبولاً في رؤية عبد الناصر الفكرية السياسية التحدث بلهجة قتالية، مبرراً ذلك بأن هذه اللهجة تردع الكيان الصهيوني عسكرياً، وبأن الأساس هو الدعم الجماهيري الشامل الذي كسبه، وكان بأمس الحاجة إليه، مستعيداً به زمام المبادرة السياسية من المعسكر الرجعي الذي كان وراء الحملة الدعائية المقصودة. وأصبح يرى، في منظوره الفكري، متأثراً بتقارير مستشاريه، بأن ردع اسرائيل عسكرياً لن يدفع الولايات المتحدة للتدخل، لأنها غارقة في مستنقع الحرب الفييتنامية(١١٠). ومن الواضح، أن عبد الناصر ومستشاريه ورفاقه، لم يدركوا خطورة المؤامرة المدبرة وراء الخطة المرتقبة لزجه في الحرب التي كان لأمد غير قصير يرى ضرورة تأجيل الانخراط فيها(١١١). ومن المهم، هنا، أن نشير إلى تصريح الصحفي الأمريكي انطوني بيرسن، في المجلة الأمريكية بنتهاوس في مقالة عن الشرق الأوسط، حيث قال: «ان امريكا واسرائيل قررتا، في عام ١٩٦٥، ان التخلص من عبد الناصر بإنقلاب داخلي أمر غير ممكن بسبب شعبيته وقوة مركزه، وان الوسيلة للتخلص منه هي هزيمته في حرب محدودة تفقده ثقة العرب»(١١٢). وهكذا يكون واضحاً ان الظروف القائمة كلها، وقتذاك، تشير الى ان خيوط المؤامرة نسجت، وحبكت فصولها في هدوء. بقي الانزلاق الى الفخ، وهذا أمر تتكفل به ردود الافعال الناصرية على الاستفزازات الاسرائيلية المدعومة أمريكياً!(١١٣).

(١٠٩) المصدر نفسه.

(١١٠) المصدر نفسه.

(١١١) هيكل، لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها، ص ١٣٣ ـ ١٥٠.

(١١٢) نقلاً عن: حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ١٠٧.

(١١٣) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٥٠ ـ ٥١، وأنمار لطيف نصيف جاسم، القائد وإدارة الصراع: صدام حسين وجمال عبد الناصر: دراسة نظرية مقارنة في الفكر السياسي (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢)، ص ٣٠٤ ـ ٣١٦.

وكانت الاستفزازات الصهيونية من الكثرة والكثافة والتنوع بحيث إنها كانت تدفع نحو حافة الحرب. ويقول مراقب أجنبي بهذا الخصوص: «أصبحت غارات التنكيل التي تقوم بها الوحدات العسكرية الاسرائيلية على الدول العربية المجاورة غارات ذات طابع دائم، تحت ستار صد العمليات الفدائية، وذلك من أجل إخافة العرب، والإعداد النفسي لعدوان كبير»(١١٤).

وكانت «اسرائيل» تستعد، في تعتيم ودون جلبة او ضوضاء، للحرب. فقد أشار شمعون بيريس، نائب وزير الدفاع الصهيوني، بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، إلى أمر بالغ الأهمية، يكشف حقيقة الدور الذي قامت به الحكومة الصهيونية، وجعلها تكسب الجولة في حربها الخاطفة في الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، فقال: «لقد استغرق الأمر من القوات البرية والطيارين عشر سنوات للاستعداد للدقائق الثمانين الأولى من الحرب»(١١٥). وليس أقل من ذلك أهمية، أو دلالة تصريح موشي دايان أمام الكنيست في آذار/مارس ١٩٥٧، حيث قال، مشيراً إلى هزيمة حزيران/يونيو و«اسرائيل» وحلفائها في العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦: «ان الفشل العسكري ترتب، في حقيقة الأمر على هزيمة سياسية لم يكن أمام اسرائيل الا ان تتجرعها حتى الثمالة، وتنسحب من كل الأراضي التي احتلتها»(١١٦). وهكذا، واستنتاجاً من هذه التصريحات للقادة الصهاينة، فإن عدوان حزيران/يونيو انما كان نتيجة طبيعية للخطة الهجومية الاسرائيلية الموضوعة بعد عدوان ١٩٥٦، والمنفذة في عام ١٩٦٧. واستناداً إلى دراسات بعض المحللين الاستراتيجيين، فإن عدوان ١٩٦٧ جاء كمرحلة ثالثة من الاستراتيجية العسكرية والسياسية الصهيونية: المرحلة الأولى كانت حرب ١٩٤٨ (التي تمثلت بمرحلة تأسيس الكيان الصهيوني)، والمرحلة الثانية (مرحلة البناء) في حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي)، اما المرحلة الثالثة (مرحلة التوسع) فكانت في عدوان حزيران ١٩٦٧(١١٧).

بدأت «اسرائيل» برسم سياستها الحربية على أساس القدرة العسكرية الذاتية، وصارت مؤسسة الدفاع في الكيان متحكمة، مسيطرة على سياسة الدولة. وقد وضعت «اسرائيل» برامجها في تعزيز ودعم القوتين الجوية والمدرعة، باعتبارهما القوتين الضاربتين في الحرب التقليدية الحديثة، اضافةً الى تركيز الاهتمام على الأبحاث الذرية، والتعاون مع فرنسا في مجالات التسليح لتبادل الأبحاث العلمية والفنية الخاصة بالطاقة

---

(١١٤) ف. لاديكين، مصدر الأزمة الخطيرة: دور الصهيونية في تغذية النزاع في الشرق الأوسط، ترجمة هاشم حمادي (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٥)، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(١١٥) نقلاً عن: حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(١١٦) دايان، سيرة حياتي، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(١١٧) المصدر نفسه، ص ٢١٢ ـ ٢٧٧، وثابت، «صفحات من المقاومة».

الذرية. وقد ركزت «اسرائيل» في استراتيجيتها العسكرية على الحصول على الأسلحة الحديثة المتطورة من أكبر مصادرها (الولايات المتحدة)، مع ضمانات معتمدة لحماية أمنها من الدول الغربية. ودعم مشروع ايزنهاور مسألة توطيد العلاقات العسكرية الصهيونية مع فرنسا، وخصوصاً في صفقات الطائرات والدفاع الجوي، إضافةً الى حصولها على الأسلحة من المانيا الاتحادية جراء ضغوط امريكية[118]. وما لبثت الولايات المتحدة أن أصبحت الجهة الأساسية لتسليح «اسرائيل» وتمويل استيراداتها التسليحية، بل وباتت شريكة في بعض مشاريع التصنيع الحربي الاسرائيلية. وتركز التصدير التسليحي الأمريكي على صفقات صواريخ هوك، والدبابات والمدرعات وطائرات سكاي هوك وغيرها. لقد انتقلت الولايات المتحدة الى تسليح الكيان بالأسلحة الهجومية ذات الدمار الشامل، مراعية في ذلك التزامها الدائم بالدفاع عنه، وحمايته، ودعم مشاريعه التوسعية الحربية[119]، ومراعيةً، أساساً، حلفها الاستراتيجي مع «اسرائيل» باعتبارها قاعدتها المتقدمة في الوطن العربي ضد الدول العربية، والمعسكر الاشتراكي (السابق) على حد سواء. وفاقت أهمية «اسرائيل» على هذا الصعيد، أهمية تركيا، في ذلك الوقت. وقد وظفت الولايات المتحدة كل امكانياتها العسكرية والمخابراتية والصناعية، عموماً، في خدمة «اسرائيل». ومما يلفت النظر بهذا الصدد، تصريح بيريس عن نتائج زيارته لواشنطن وقتذاك، حيث قال: «ان زيارة واشنطن قد فعلت الكثير في سبيل تمزيق الحظر الأمريكي على توريد الأسلحة الى اسرائيل. وكما رأينا، فإنها بعد فترة قصيرة مهدت الطريق لإمداد أمريكا لنا بمعظم أنواع الأسلحة، كما مكنت اسرائيل من الاحتفاظ بميزات التسلح حتى بعد الحظر الذي فرضه ديغول في أعقاب حرب الأيام الستة»[120].

لقد رمت الولايات المتحدة بكل ثقلها وإمكانياتها لدعم «اسرائيل» إدراكاً منها بأنها غدت في سباق مع المؤثرات المهمة الكبيرة التي يحدثها عبد الناصر في الوطن العربي بعامة، والنضال الفلسطيني بخاصة. وخشيت أبلغ الخشية على مصير قاعدتها المتقدمة، الكيان الصهيوني، في قلب الوطن العربي، وحاولت مذ آنذاك وطوال الوقت إكراه الدول العربية، وبخاصة دول المجابهة، على الاعتراف «باسرائيل» وتطبيع العلاقات معها. وكان الرئيس عبد الناصر يقظاً لتحركات الولايات المتحدة، ومشاريعها ودسائسها، وبخاصة بعد اغتيال جون كينيدي، وانتخاب ليندون جونسون رئيساً للولايات المتحدة[121]. وقد ربط عبد الناصر، دوماً وانطلاقاً من عقيدته

---

(١١٨) دايان، المصدر نفسه، ص ١٩٣ ـ ٢٨٠.

(١١٩) هيكل، **الطريق إلى رمضان**، ص ١٧ ـ ٣١، وحسين كنعان، «من يصنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية،» **الباحث** (بيروت)، السنة ٦، العددان ١ ـ ٢ (١٩٨٤)، ص ٩٥.

(١٢٠) نقلاً عن: حروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٧٦.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٧٩، وتوفيق أبو بكر، «العلاقات الإسرائيلية الأميركية بين حربي ١٩٦٧ =

القومية، بين مصير مصر والمصير العربي، وبين انتصار الثورة في مصر وانتصار الثورة العربية. وأدى تسارع الأحداث في العقد السابع، ومسيرة الثورة منذ أواسط العقد السادس وحتى ١٩٦٧، الى أن يواجه عبد الناصر خيارين لا ثالث لهما ـ فأما أن يتصدى للخطر الامبريالي الصهيوني قائداً فعلياً للثورة العربية، متحملاً كامل المسؤولية في تحرير الوطن العربي، وإما ان يتقوقع داخل مصر ويعيش تحت الخطر الصهيوني. ولم تكن «اسرائيل» في أواسط العقد السابع «محض فقاعة» أو «مجرد كيان هزيل» أو «تجمعاً بائساً يائساً للنفايات البشرية»، كما كان يشير بذلك المتطرفون المزايدون، بل كانت، على العكس، كياناً عصرياً آخذاً بأسباب التصنيع، مرتبطاً عضوياً واستراتيجياً بالولايات المتحدة والأوساط الصهيونية في الغرب، ومتحولاً إلى ترسانة حربية للأسلحة المتطورة، والجيش يزيد على المائة ألف قابل للتوسع بتجنيد الاحتياط رجالاً ونساء[(١٢٢)].

وتولت «اسرائيل» قيادة صفحة الاستفزازات بحثاً عن ذريعة مناسبة لشن الحرب الخاطفة التي أعدت لها عشر سنين بعد عدوان ١٩٥٦ الثلاثي (مع فرنسا وانكلترا). وكانت أهدافها تتلخص في الانفراد بالدول العربية دولةً دولة، وتدمير جيوشها، والتوسع الإقليمي، وفرض سلام الأمر الواقع، وإسقاط الأنظمة التقدمية في الوطن العربي، وفي مقدمتها مصر. ووجدت «اسرائيل» الفرصة السانحة، والذريعة المناسبة للاستفزاز الأكبر المؤدي إلى الحرب التي أعدت لها بتنسيق محكم مع الولايات المتحدة، وجدتها في سوريا وقتذاك، فوجود نظام متطرف على رأس القيادة السورية آنذاك، وتحرك المقاومة الفلسطينية الى داخل الكيان انطلاقاً من الأرض السورية، إضافةً إلى قيام سوريا بتنفيذ مشروعات المياه التي سعت «اسرائيل» لإحباطها بكل الوسائل، بما فيها العمل العسكري، وتمتع سوريا بميزات استراتيجية، منها هضبة الجولان المتحكمة في الأراضي «الاسرائيلية» المنخفضة، وما تنطوي عليه الهضبة من ثروة مائية تحتاج إليها «اسرائيل» أشد الحاجة . . . كل هذا جعل من سوريا الهدف رقم ١ في نظر المؤسسة العسكرية الصهيونية[(١٢٣)]. واستطاعت «اسرائيل»، في الوقت ذاته، كسب تعاطف الرأي العام العالمي معها، بعد تأليبه ضد الدول العربية التي تريد «تدمير

= و١٩٧٣،» **قضايا عربية**، السنة ٧، العدد ٧ (تموز/يوليو ١٩٨٠)، ص ٦٩.

(١٢٢) حروش، المصدر نفسه، ص ١٠٩، وجمال حمدان، «نظرة على الموقف قبل المعركة،» **الكاتب**، السنة ٧، العدد ٧٥ (حزيران/يونيو ١٩٦٧)، ص ٤٢ ـ ٥٨.

(١٢٣) دايان، **سيرة حياتي**، ص ٣٤٦ ـ ٣٧٩؛ أبو عز الدين، **عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية**، ص ٥٧٣ ـ ٦١٨؛ حمدان، المصدر نفسه، ص ٤٢ ـ ٥٨؛ طاهر الجنابي، «الأمن المائي والمخاطر التي يتعرض لها الوطن العربي،» **آفاق عربية** (بغداد)، السنة ١٧، العدد ١١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢)، ص ٢٨ ـ ٢٩، وعزام مصطفى محمود، «المياه العربية والسياسة الصهيونية،» **ألف باء** (بغداد)، السنة ٣٠، العدد ١٤٩٨ (حزيران/يونيو ١٩٩٧).

اسرائيل وإلقاء اليهود في البحر»، وفبركة «أساطير الذئاب العربية التي تطارد الحمل الاسرائيلي!»، و«العنصرية العربية ضد الأوروبيين واليهود»... الخ، واستطاعت إقناع أوروبا، على الأقل، ناهيك عن القول الصادر عن الولايات المتحدة، بالخطر الكبير المحدق بـ «دولة اسرائيل العصرية المتمدنة»! واختارت «اسرائيل» الوقت لتدبير هجومها الاختباري للتضامن العربي على الأردن، وهجماتها اللاحقة على سوريا، وكان هذا الوقت متزامناً بالضرورة مع عقد اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا. وبات جذب عبد الناصر والنظام المصري الى المعركة أكثر أرجحية من السابق[١٢٤].

واختارت الولايات المتحدة بدورها، وبتنسيق متكامل مع الكيان، الوقت لشن «اسرائيل» حربها الخاطفة على مصر والدول العربية، مستغلةً بعض الأمور التي لم تكن آنذاك في صالح مصر، على الصعيد العسكري، ومنها توزع الجيش المصري على جبهتين، حيث كان ثلث الجيش في جبهة اليمن، وكانت الجبهة الثانية هي سيناء. ومنها كذلك عدم اكتمال صنع الصواريخ المصرية حتى آنذاك[١٢٥]، ومنها، ثالثاً، ضعف الجبهة العربية وتبعثرها وبروز ما يمكن اعتباره حرباً أهلية عربية في الجزيرة والجنوب والخليج[١٢٦]. وتجلت معالم الإسناد الاستراتيجي الامريكي للكيان، والتنسيق العسكري الامريكي ـ الاسرائيلي، في جملة أمور، كان بينها النشاط السياسي الكبير الذي اضطلع به مسؤولون امريكيون، زاروا الكيان في وقت واحد (ايار/مايو ١٩٦٧) حيث زارها لوشيوس باتل، مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا المعروف بتصريحاته المعادية لمصر أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس بعد انتهاء عمله سفيراً للولايات المتحدة في القاهرة، وهارولد ساندروز، مستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط، وطاوسند هوبر المسؤول الكبير في وزارة الدفاع الأمريكية[١٢٧]. وأدى كل هذا، مضافاً إلى عوامل أخرى، الى إحكام الخطة التي أصبحت جاهزة ولم يبق غير تحديد الوقت المناسب للهجوم.

---

(١٢٤) الياهو بن ايليسار وزيف شيف، **الحرب الإسرائيلية العربية**، ترجمة مديرية التدريب العسكري (بغداد: وزارة الدفاع، ١٩٦٩)، ص ٣ ـ ٤، وميشيل بارزوهار، **التاريخ السري لحرب اسرائيل** (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، [د. ت.])، القسم ٢، ص ١٩، و Jean Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World* (London: Martin Co., 1971), p. 13.

(١٢٥) ناتنج، ناصر، ص ٤٥٩، ومصطفى علوي، «السلوك الأمريكي في أزمة أيار/مايو ـ حزيران/يونيو ١٩٦٧،» في: غسان سلامة [وآخرون]، **السياسة الأمريكية والعرب**، سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٢، ط ٢ جديدة موسعة ومنقحة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٢٧ ـ ١٣٨.

(١٢٦) هيكل، **١٩٦٧: الانفجار**، ص ٧١٧ ـ ٧١٨.

(١٢٧) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ١١٠.

وتسارعت الأحداث بزخم كثيف، وكان قرار الكنيست في التاسع من أيار/ مايو ١٩٦٧ في منح «الحكومة الاسرائيلية» حق القيام بعمليات عسكرية ضد سوريا، ومرابطة الحشود العسكرية الصهيونية على الحدود السورية من أهم عوامل تصعيد الموقف، الذي ما لبث ان بلغ حدود الالتهاب بتهديدات ليفي اشكول، واسحق رابين بالزحف على دمشق. وتبلور التنسيق العسكري الأمريكي ـ الصهيوني بشكل كبير، وبلغ حداً لم يجد معه اشكول غضاضة في الإعلان، صراحةً، بأن أمن كيانه يعتمد، في حمايته، على وجود الأسطول السادس الأمريكي. ولتفجير الموقف بنسبة اكبر، نظمت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية عرضاً عسكرياً في منطقة القدس «الاسرائيلية»[(١٢٨)] التي كانت تعد منطقة منزوعة السلاح، بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لتأسيس الكيان. وفي المقابل اتخذت مصر عدة إجراءات جوابية، كان منها طلب سحب قوات الطوارىء الدولية، وتحريك الجيش إلى سيناء، وإغلاق مضائق تيران وشرم الشيخ[(١٢٩)]، إضافة الى تصريحات المسؤولين المصريين عبر وسائل الإعلام. وكانت هذه الإجراءات بالغة الأهمية، عميقة المغزى، فهي، لو استمرت لشكلت نكسة دبلوماسية وعسكرية للكيان باعتبارها أول تحد حقيقي مصري مباشر له منذ ظهوره[(١٣٠)]، غير ان هذه الإجراءات لم تكتسب الا شكلاً إعلامياً استغلته «إسرائيل» ووظفته، بشكل ماكر، لصالحها. فقد طرحت «إسرائيل» أمام الرأي العام العالمي هذه الإجراءات الدفاعية المصرية بشكل جعلتها غطاءً تتستر به لاقتراف عدوانها المقرر تنفيذه. وليس أدل على ذلك من تعليق اسحق رابين، الذي كان في تلك الآونة رئيساً للأركان العامة للقوات المسلحة للكيان[(١٣١)]، فقد قال ما نصه بصدد قرار

---

(١٢٨) كوبلاند، لعبة الأمم، ص ٣١٣ ـ ٣١٩، ودومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ١٥٨ ـ ١٦٢.

(١٢٩) «خطاب الفريق أول محمد فوزي، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة، الموجه إلى الجنرال ريكي، قائد قوات الطوارئ الدولية في غزة، يطلب سحب القوات الدولية،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ١، الوثيقة رقم ١٨٣، ص ٣٢١؛ الأهرام، ١٩٦٧/٥/١٧؛ «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمركز القيادة المتقدمة للقوات الجوية الذي أعلن فيه إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية في ١٩٦٧/٥/٢٢،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ١٩٢، ص ٣٢٩ ـ ٣٣١، والأهرام، ١٩٦٧/٥/٢٣.

(١٣٠) «حديث الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الصحفي حول أزمة الشرق الأوسط في القاهرة في ١٩٦٧/٥/٢٨،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٢١٢، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٩، والأهرام، ٢٩/٥/ ١٩٦٧، كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في أعضاء مجلس الأمة في القاهرة.

(١٣١) مما له مغزاه أن رابين عين بعد العدوان بمدة سفيراً للكيان لدى الولايات المتحدة الأمريكية.

عبد الناصر نقل فرقتين الى سيناء في أواسط أيار/مايو ١٩٦٧:

«لا أظن أن ناصراً كان يريد أنْ يحارب، فالفرقتان اللتان أرسلتا الى سيناء في الرابع عشر من أيار لم تكونا كافيتين للقيام بهجوم على إسرائيل، كان هو يعرف ذلك، وكنا نحن نعرف أيضاً»[١٣٢].

دليلٌ دامغٌ آخر على ذلك يكمن في رفض الكيان الصهيوني المهلة التي اقترحها الأمين العام للأمم المتحدة، وأمدها أسبوعان، من أجل السعي لإيجاد تسوية سلمية حول إغلاق خليج العقبة[١٣٣].

ومما يؤكد عدوانية «إسرائيل» وإسناد الولايات المتحدة المطلق لها ان دين راسك، وزير الخارجية الأمريكي، اطلع نظيره وزير خارجية الكيان ابا إيبان خلال إجتماعهما في واشنطن يوم السادس والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٧، بحضور الرئيس جونسون، على الخطة الأمريكية للتدخل البحري الجماعي من قبل الدول الغربية لرفع الحصار بالقوة إذا اقتضت الضرورة، وطلب منه مهلة أسبوعين قبل وضع هذه الخطة موضع التنفيذ بانتظار إقناع عبد الناصر بالتراجع عن قرار إغلاق خليج العقبة. وعلى الرغم من موافقة «إسرائيل» في الثامن والعشرين من الشهر نفسه على الخطة عموماً، إلا أنها ارتأت انها طويلة، الأمر الذي قد يشجع مصر على كسب الوقت للحصول على الأسلحة السوفياتية[١٣٤].

كان الاقتراح الأمريكي مجرد مناورة لكي يتجنب الرئيس جونسون معارضة الكونغرس التي ابتدأت تتشكل منذ الثالث والعشرين أيار/مايو، اثر إعلان الرئيس الأمريكي تحذيره للأطراف المعنية بعدم اللجوء الى القتال، منعاً للتدخل الأمريكي الذي يعني فييتنام ثانية، وتجنباً للمعارضة الدولية للتدخل الأمريكي في الحرب، وما قد تؤدي اليه من خطر الانجرار الى مواجهة امريكية ـ سوفياتية مباشرة. ومع ذلك فقد شكلت إذاعة الاقتراح الامريكي عبر وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية، ولو معنوياً، ضغطاً، بشكل ما، على الكيان الصهيوني أمام الرأي العام العالمي. وبالإضافة إلى ذلك، انطلقت حكومة ديغول في فرنسا بتحذيرها أبا إيبان عند استقباله في فرنسا في

---

(١٣٢) نقلاً عن: لاديكين، مصدر الأزمة الخطيرة: دور الصهيونية في تغذية النزاع في الشرق الأوسط، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(١٣٣) دايان، سيرة حياتي، ص ٣٤٦ ـ ٣٥٤، وبن ايليسار وشيف، الحرب الإسرائيلية العربية، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(١٣٤) كوبلاند، لعبة الأمم، ص ٣١٣ ـ ٣٢٣؛ محمد فيصل عبد المنعم، تاريخ الحرب بين العرب وإسرائيل، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٣ (القاهرة: دار أمية، ١٩٨٤)، ص ١٧٦ ـ ١٧٧؛ محمود شيت خطاب، الأيام الحاسمة، قبل معركة المصير وبعدها (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٧)، ص ٤٣ ـ ٤٤، وعلوي، «السلوك الأمريكي في أزمة أيار/مايو ـ حزيران/يونيو ١٩٦٧،» ص ١٢٩ ـ ١٣٢.

الخامس والعشرين من أيار/مايو، من مغبة قيام الكيان بهجوم ضد الدول العربية، وتفضيلها العمل الدبلوماسي المشترك على مستوى الدول الكبرى لحل الأزمة. وعلى الرغم من قبول الكيان التكتيكي بالاقتراح الأمريكي، وعلى رغم تحذيرات فرنسا الواضحة، فإن مجريات الأمور كانت تتطور في تل ابيب باتجاه الحرب. ففي الاجتماع الذي عقده مجلس الوزراء الصهيوني في الثامن والعشرين من أيار/مايو كان هناك عدد من الوزراء والجنرالات الداعين الى ضرورة شن هجوم مبكر. وقد اتضح كل ذلك بتعيين موشي دايان وزيراً للدفاع كمؤشر على ان «اسرائيل» قد قررت الهجوم على غرار ما تم قبيل عدوان ١٩٥٦ عندما تم تعيين دايان وزيراً للدفاع[١٣٥].

أما عن أسباب اختيار الكيان توقيت الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ موعداً لبدء الهجوم، فيُعزى إلى ما يلي:

١ ـ نجاح «اسرائيل» في خلق شعور دولي عام، في ان خط العدوان كان ينطلق من جانب مصر لا من جانب «اسرائيل»، ويُشار، في ذلك، الى حشد القوات المصرية الكثيف على الحدود، وما يشكله ذلك من استفزاز عسكري بالنسبة «لاسرائيل»، الأمر الذي يتطلبها الاستعداد المطلق، واستنفار القوات في حالة طوارىء، وحشدها لفترة غير محدودة، على الرغم من الأعباء الاقتصادية الثقيلة التي تنجم عن ذلك[١٣٦].

٢ ـ وفي ضوء ما تقدم، اعتبرت «اسرائيل» ان الحرب أمر مفروض لا محالة، وان كل طرف كان يريد الإفادة من توجيه الضربة الأولى، على رغم تأكيد عبد الناصر، غير مرة، بأنه لن يكون البادىء بالهجوم. ولذلك وجدت «اسرائيل» ضرورة الإفادة من توجيهها هي الضربة الأولى بتحطيم القوات الجوية المصرية، وجعل الجيش المصري بذلك في حالة شلل وانهيار تحت رحمة الطائرات الصهيونية[١٣٧].

٣ ـ لقد استقر الرأي على تنفيذ خطة العدوان الصهيوني في الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، بموجب الاتفاق الذي تم في البيت الابيض على ان تسدد «اسرائيل» الضربة الأولى المفاجئة، وتلحق بها الولايات المتحدة دعماً وحماية واسناداً، واتفق على ان يكون موعد الضربة ما بين الثامنة والتاسعة من صباح يوم ٥ حزيران/

---

(١٣٥) دايان، المصدر نفسه، ص ٣٤٦ ـ ٣٧٩؛ بن ايليسار وشيف، المصدر نفسه، ص ٥٥ ـ ٦٧، والخطيب، **مصر والحرب مع اسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣**، ص ٤٣ ـ ٤٥.

(١٣٦) حسن مصطفى، **حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية**، ٢ ج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣)، ج ١، ص ١٦ ـ ٢١، وأبو عز الدين، **عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية**، ص ٦٨١.

(١٣٧) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ١٣٩.

يونيو ١٩٦٧. وجرى التكتم الشديد والتعتيم التام على هذا الاتفاق، والحرص على عدم تسرب أيما معلومة عنه الى السوفيات، ليبلغوها الى عبد الناصر فيتاح لمصر بالتالي الإغارة على المطارات الاسرائيلية وتدمير مدارجها، الأمر الذي سيمنع الطائرات الصهيونية من الهبوط، بينما تتمتع مصر بأفضليات قياسية، على هذا الصعيد، لوجود المطارات العربية الأخرى لتهبط فيها. وأكد واضعو خطة العدوان ضرورة تبطئة الضربة الاسرائيلية، وتحقيق الحماية الأمنية المطلوبة لها، وذلك بمرابطة حاملة الطائرات الأمريكية «ساراتوغا» مقابل ميناء اشدود الجنوبي، ومرابطة الحاملة الأخرى «امريكا» مقابل ميناء حيفا، ونشر أسرابها مظلة حماية جاهزة لتأمين القواعد الاسرائيلية، وحماية الأهداف الداخلية الاسرائيلية بوجه أيما طائرات عربية قد تغير عليها في تلك الساعة[١٣٨].

واذا ما أخذنا في الاعتبار كل ما سبق ذكره فإن الحقيقة التي يمكن استنتاجها، هنا، هي ان اسرائيل لم تقترف جريمة العدوان الا وهي مطمئنة تمام الاطمئنان بدعم وحماية الولايات المتحدة، الشريك الرئيس في العدوان. وبذلك حقق جونسون أهدافه في الشرق الأوسط، وأزالت تل أبيب ما كان مترسباً لدى البعض من شك في رد الفعل الأمريكي على ضربة الكيان الجاهزة تجاه الضفة الغربية والقدس[١٣٩]. وقرر مجلس الوزراء الاسرائيلي في اجتماعه بالإجماع الموافقة على هذه الخطة «القدس غداً». وكان لسان حال القادة الصهاينة هو ما ترجمه ليفي أشكول، رئيس الوزراء، بقوله: «لقد كنا مقتنعين بأنه مهما كانت التعهدات التي أعطتها واشنطن لحسين، ولغيره من شيوخ المنطقة، فإنه لا ليندون جونسون، ولا اي رئيس أمريكي آخر يملك الحق ان يقف، بعد كل ما فعلناه لهم، وينازعونا حقوقنا في القدس، ويطلب منا في يوم من الأيام رصيفاً واحداً من أرصفتها»[١٤٠]. وقد كلف مجلس الوزراء الاسرائيلي مائير آميت ممثل الموساد بالتعاون مع هارون باريف (المخابرات المركزية) بوضع خطة للاستيلاء على الضفة الغربية والقدس[١٤١].

وفي معرض تبيان الإسناد الأمريكي المطلق لخطة العدوان الصهيوني ينبغي ان

---

(١٣٨) هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٧١٨ ـ ٧١٩؛ مصطفى، المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ٢٤، وصلاح الدين الحديدي، شاهد على حرب ١٩٦٧ (بيروت: دار الشروق، ١٩٧٤)، ص ٢٠٩.

(١٣٩) أحمد يوسف أحمد، «الدعم الأمريكي للعدوان الإسرائيلي،» السياسة الدولية، السنة ١٠، العدد ٣٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٧٤)، ص ١٣٠ ـ ١٣١، وأسعد رزق، «إسرائيل والامبريالية العالمية،» شؤون فلسطينية، العدد ١ (آذار/مارس ١٩٧١)، ص ٣٦، وبطرس، «السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط: أفكار حول طبيعتها الامبريالية،» ص ٢٥٧ ـ ٢٧١.

(١٤٠) نقلاً عن: هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٧٢٢ ـ ٧٢٣.

(١٤١) المصدر نفسه، ص ٧٢٦.

نشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتوانَ، ولم تدخر جهداً في منح «اسرائيل» كل الضمانات لحمايتها أثناء المرحلة الأولى للقتال، ومنحها الضوء الأخضر فيما يتعلق بالعدوان، واثقةً ان المخاطرة مأمونة في النهاية حتى وان طرأت أثناء الأزمة لحظات من التوتر والقلق، ذلك ان الولايات المتحدة تعرف الكثير من الحقائق عن واقع الأحوال في الكرملين، وتعلم ان الاتحاد السوفياتي مقيد في حركته في المنطقة، كما انها مطلعة تمام الاطلاع على عدم رغبة الاتحاد السوفياتي وعدم استعداده للدخول في حرب عالمية نووية بسبب الشرق الأوسط، لأن قدرته على التدخل محدودة، بسبب انتشار القوات الامريكية وقوات الحلف الاطلسي في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا، بما فيها ليبيا وشبه الجزيرة العربية، إضافة إلى الأسطول السادس الأمريكي المرابط في البحر المتوسط، والذي زيدت قوته الى الضعف بعد بدء الأزمة، وتمهيداً لتنفيذ خطة عدوان الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وحماية لظهر القوات الصهيونية الجوية والبرية في حربها الخاطفة على مصر وسوريا والأردن، وتسديد ضربتها الأولى[١٤٢].

٣ ـ الموقف السوفياتي من العدوان

اتّسمت السياسة السوفياتية[١٤٣] في الحقبة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٧ بدعمها المطلق للنظم العربية التقدمية، وذلك تطبيقاً لخطّتها في جعل هذه الدول كتلة قوية في وجه النفوذ الغربي، والأمريكي بخاصة، وفي وجه النظم الرجعية العربية، والسياسة العسكرية الصهيونية، على حدٍ سواء.

وكانت هذه الحقيقة ماثلة دوماً في الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية، ولم تغب عن ذهن عبد الناصر قط، على رغم الهزّة التي تعرّضت لها العلاقات السوفياتية ـ المصرية في عام ١٩٥٩، ذلك انه منذ عام ١٩٥٥، الذي شهد نجاح عبد الناصر، وبالدعم السوفياتي الخفيّ، في تحطيم احتكار بيع الأسلحة، وخرق الهيمنة الغربية على سوق السلاح وتوريده الى الدول النامية، فان الاتحاد السوفياتي لم يقصر، في ضوء استراتيجيته المرتبطة بظروف دولية معقدة، عن إمداد مصر بالسلاح، بما فيه السلاح المتطور، وبالخبراء السوفيات في القوات المسلحة، واتباع ما يعرف بالعقيدة الشرقية

---

(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٧٢٦؛ علوي، «السلوك الأمريكي في أزمة أيار/مايو ـ حزيران/يونيو ١٩٦٧،» ص ١٣١ ـ ١٣٨، وأبو بكر، «العلاقات الإسرائيلية الأميركية بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣،» ص ٦٩ ـ ٨٥.

(١٤٣) لم نر داعياً لتكريس مبحث خاص لموقف الولايات المتحدة الأمريكية خشية التكرار، ذلك لأن من الصعب رسم خط فاصل بين نهجي تل أبيب وواشنطن من مصر، ومن الرئيس عبد الناصر، فتبدو صورة الولايات المتحدة متجسدة جنباً إلى جنب صورة الكيان الصهيوني في ثنايا جميع مباحث الفصل.

والأسلوب الشرقي في تكتيكات وتنظيم هذه القوات[١٤٤]. وبهذا الصدد أشار وزير الدفاع الروسي اندريه غريشكو، خلال لقائه بشمس بدران وزير الدفاع المصري، والوفد العسكري والسياسي في موسكو، المرافق له، بتاريخ الخامس والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٣، إلى «ان القوات المسلحة المصرية هي اليوم غير ما كانت عليه منذ عشر سنوات، ولا يوجد أحد يريد استفزازها والتحرش بها. وان الاتحاد السوفياتي يسعده ان يرى الجمهورية العربية المتحدة قوية، لأننا نحسّ ان لنا نصيباً في تشكيل هذه القوة ليس بالسلاح فقط وإنما بالعمل والخبرة. فمن مصلحة الاتحاد السوفياتي الاستراتيجية والسياسية ان يكون كل من النظامين المصري والسوري متماسكاً وقادراً على الثبات في مواجهة الضغوط، وحريصاً على عدم التورّط في ما تدبّر لهما اسرائيل لمعرفة حقيقة قدراتهما العسكرية، ونقاط القوة والضعف فيهما، ومدركاً بأن الدخول في قتال غير محسوب سينذر بخطر شديد، وليس من مصلحته إشعال الحرب في المنطقة بأي شكل من الأشكال حرصاً منه على السلام، والحذر من قيام حرب عالمية لا تحتملها الدولتان العظميان: أمريكا والاتحاد السوفياتي، بعد التطور المتقدم في أسلحة الدمار الذرية، وحرصه على النظامين المصري والسوري، مؤكداً لهما اليقظة الدائمة»[١٤٥]. وكانت زيارة الوفدين المصريين العسكري والسياسي، برئاسة شمس بدران، للقاء مع القيادات العسكرية والسياسية في الاتحاد السوفياتي للتعرف على وجهات نظرها وتقديراتها المستقبلية، وتقديم طلبات شحن السلاح، قد تمت بناء على قرار سياسي اتخذه الرئيس عبد الناصر مع المشير عبد الحكيم عامر، عندما أحسّ بأن هناك حاجة ماسة لمشاورات مباشرة مع الاتحاد السوفياتي حول الأسلحة الصهيونية المتقدمة، وحاجة مصر الى إمدادات جديدة من السلاح لحفظ التوازن في المنطقة[١٤٦].

لم يتوقف الاتحاد السوفياتي طوال الحقبة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧ من إعلان تأييده لمصر وسوريا، ضد نيّات الكيان الصهيوني العدوانية[١٤٧]. وقد تعاظم هذا التأييد لسوريا، بخاصة، بعد انقلاب ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦. وفي ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، وجّه

---

(١٤٤) سعد التائه، **مصر بين عهدين (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠)، (١٩٧٠ ـ ١٩٨١)** (بيروت: دار النضال، ١٩٨٢)، ص ٦١؛ محمد عودة، فيليب جلال وسعد كامل، **قصة السوفيات مع مصر**، حوار أجري مع الدكتور عبد العزيز حجازي والدكتور عزيز صدقي وخالد محيي الدين ومحمد عبد السلام الزيات ومحمد حافظ اسماعيل والدكتور اسماعيل صبري عبد الله ومراد غالب ومحمد حسنين هيكل (بيروت: دار ابن خلدون، [د. ت.])، ص ٥١ ـ ٧١، و Narayan, *Anwar El Sadat: Man with a Mission,* pp. 53-55.

(١٤٥) نقلاً عن: هيكل، **١٩٦٧: الانفجار**، ص ٦١٣ ـ ٦١٤.

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٦١٥.

(١٤٧) انظر مراجعة أحمد البرصان لكتاب: Alexei Vassiliev, «Russian Policy in the Middle East: From Messianism to Pragmatism,»

في: **المستقبل العربي**، السنة ١٧، العدد ١٩٢ (شباط/فبراير ١٩٩٥)، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

الكرملين مذكرة الى الحكومة الاسرائيلية نشرتها صحيفة برافدا، نقلاً عن وكالة تاس للأنباء، أكّد فيها ان الاتحاد السوفياتي لن يبقى «مكتوف الأيدي» تجاه الاستفزازات الاسرائيلية ضد سوريا. لقد عبّرت هذه التحذيرات السوفياتية وأمثالها عن قلق الكرملين، وقتذاك، من احتمال قيام الكيان بهجوم مباغت وسريع ضد سوريا، لإسقاط نظامها، الأمر الذي حَمّلَ السوفيات على تقديم النصيحة الى النظام السوري للتقارب من النظام التقدمي في مصر، وهو التقارب الذي أثمر، كما أسلفنا، عقد اتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا كمحاولة لردع الكيان الصهيوني[١٤٨]. وقد تعاظمت مخاوف السوفيات، وبخاصة على اثر الغارات الجوية الصهيونية المكثفة ضد الأراضي السورية في الثالث عشر من نيسان/ ابريل ١٩٦٧[١٤٩]. وبعد فترة وجيزة، أبلغت موسكو القاهرة ودمشق بوجود حشود صهيونية على الحدود السورية، ولم يكن القصد من ذلك المبالغة، أو التمويه، بل كان القصد هو اتخاذ الحذر الكافي لما يُدبّر ضدهما، وعدم الاندفاع الى ما تخطط له «اسرائيل»، وتستدرجهما اليه. وحقيقة الأمر ان السوفيات كانوا يريدون من وراء ذلك ان يقوم الرئيس عبد الناصر ببعض الإجراءات العسكرية المحدودة في سيناء، كمناورة هدفها إفهام الصهاينة استعداد مصر للتضامن مع سوريا عسكرياً[١٥٠].

وقد أظهرت تل أبيب جديّة تهديدها عندما قرّرت القيام بحملات عسكرية ضد سوريا. وقد عبّرت عن ذلك تصريحات المسؤولين الصهاينة بمهاجمة دمشق، وإسقاط الحكومة السورية. وكان غرض «إسرائيل» من ذلك إثارة الشعور بالخطر الموجّه إلى سوريا بقصد إلهاب الموقف واستقطاب كل الاهتمام الى ذلك، مع قيامها، في الوقت ذاته، بتحريك قواتها نحو الجنوب، حيث كانت النيّة مبيتة لتوجيه الضربة إلى مصر، بعد أن تكون قد نفّذت دورها الخداعي، ومرّرت أحبولتها على الجميع، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي. وقد قامت «اسرائيل» بدعوة السفراء الأجانب، بمن فيهم السفير السوفياتي، الذي رفض الامتثال للدعوة، لمشاهدة الحدود، بغية التأكد من عدم وجود حشود على الحدود السورية، فقدرة «إسرائيل» على سرعة تحريك قواتها كفيلة بتغيير مواقع تلك القوات. وكان القصد الإساءة إلى الموقف السوفياتي الذي حرص على إبعاد النظام المصري عن البدء بالضربة الأولى[١٥١].

---

(١٤٨) ثابت، «صفحات من المقاومة».

(١٤٩) الخطيب، مصر والحرب مع اسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٤٨.

(١٥٠) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ١٢، أبو عز الدين، عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية، ص ٦١٣ ـ ٦١٥، وحمدان، «نظرة على الموقف قبل المعركة،» ص ٤٢ ـ ٥٨.

(١٥١) دايان، سيرة حياتي، ص ٣٠ ـ ٤٦، بن ايليسار وشيف، الحرب الإسرائيلية العربية، ص ٤؛ دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ١٥٢، وحمدان، المصدر نفسه، ص ٤٧.

أثارت هذه النقطة بالذات بعض الارتياب والحيرة لدى عبد الناصر، وانعكس ذلك على رؤيته الفكرية ـ السياسية لمجمل المسألة الملتهبة[١٥٢]. فقد تحدّث عبد الناصر الى السفير السوفياتي، في مقابلته له في الثاني والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٧، اثر عودته من قاعدة أبو صوير الجوية، حيث أعلن إغلاق خليج العقبة، قائلاً: «ان الاتحاد السوفياتي مسؤول عن تصعيد الأزمة بتأكيداته عن الحشود الاسرائيلية تجاه سوريا». وقد بَعَث السفير إلى موسكو بتفصيلات مقابلته مع الرئيس[١٥٣]. لقد أثارت هذه المقابلة اهتمام المكتب السياسي والحكومة السوفياتية بمضمونها، ومنحها الأولوية في التدارس. وكان من نتائجها صدور بيان سياسي في جريدة برافدا السوفياتية في الرابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٧، يتضمن تأييد الاتحاد السوفياتي لمصر، وأخذ رغبات الرئيس عبد الناصر في الاعتبار[١٥٤].

يتضح مما تقدم ذكره، ان الرئيس عبد الناصر كان على يقين تام من حقيقة الموقف السوفياتي الذي لا يتجاوز حدود التأييد المعنوي والسياسي، وكان غير راغب في دفع الأمور الى نقطة الخطر، كما كان يقدر دقة الموقف على الرغم من تطور الأمور بإيقاع أسرع من المتوقع. وهذا الإحساس هو الذي جعل عبد الناصر يبعث شمس بدران على رأس الوفدين العسكري والسياسي للمشاورات المباشرة مع الاتحاد السوفياتي. وكان من نتائج المشاورات المزيد من تفهّم عبد الناصر لوقائع الموقف السوفياتي، حيث كان الالتزام، تحت كل الظروف، بمساعدة الجمهورية العربية المتحدة سياسياً ومادياً ومعنوياً، ولكن مع تحفّظات القيادة السياسية السوفياتية على استدراج مصر، واندفاعها الى حرب غير محسوبة النتائج. كانت القيادة السوفياتية لا تريد، بأية حال، التورّط في اشتباك مسلح مع «اسرائيل»[١٥٥]. وظلّت هذه القيادة تبعث، بانتظام، المعلومات الاستخبارية الى سوريا ومصر، حول ما تقوم به «اسرائيل» من تحرّكات وتحشيدات لقواتها على الحدود مع الدولتين. وقد علّق كوسيغين رئيس مجلس

---

(١٥٢) للمزيد من التفصيل، انظر: «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمركز القيادة المتقدمة للقوات الجوية الذي أعلن فيه إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية في ١٩٦٧/٥/٢٢،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ١٩٢، ص ٣٢٩؛ **الأهرام**، ١٩٦٧/٥/٢٣؛ «كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في وفد مؤتمر العمال العرب في القاهرة، ١٩٦٧/٥/٢٦،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٢٠٥، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦، و**الأهرام**، ١٩٦٧/٥/٢٧.

(١٥٣) هيكل، **١٩٦٧: الانفجار**، ص ٦١٣.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص ٦١٣ ـ ٦١٤.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٦١٤ ـ ٦١٥، وعودة، جلال وكامل، **قصة السوفيات مع مصر**، ص ١٥٣.

الوزراء السوفياتي، وقتذاك، على المناقشات الدائرة بين الوفدين المصري والسوفياتي، بأقوال تؤكد مصداقية الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية للموقف السوفياتي، فقد جاء في هذه الأقوال الإشارة الى وجود نشاط عدائي كبير في «اسرائيل»، والى احتمال بدء العمليات العسكرية لتوجيه الضربة، ومن الصعوبة «على العالم عندما تبدأ العمليات ان يتأكد من بدأها». كما جاء فيها الاشارة الى الانتصار المصري سياسياً وعسكرياً في سحب قوات الطوارىء، والسيطرة على المضيق والإشراف عليه، والى تكاثر الأعداء المطالبين بفتح المضيق، وخصوصاً الأمريكان والانكليز، والى الاعتصام برباطة الجأش وضبط النفس، وعدم الانجرار وراء الاستفزاز وصولاً الى الاشتباك المسلح، وهذا أمرٌ اتفق عليه جميع القادة السوفيات: السياسيون والعسكريون. وأكد كوسيغين الجو المحموم داخل «اسرائيل» سعياً وراء الاشتباك، فإنهم هناك «يحفرون الخنادق، ويندفعون للتطوع في المراكز المفتوحة، ويعبّئون كل الناس، إضافة الى قيام تظاهرات عدائية ضد السفارة السوفياتية». وأشار كوسيغين الى ضرورة تسليم طلبات الأسلحة الى وزير الدفاع السوفياتي لبحثها[١٥٦].

لم يرض عبد الناصر عن هذا الموقف تمام الرضى، فاستدعى السفير السوفياتي وأبلغه «ان الظروف لا تحتمل أنصاف حلول أو مساومات»، وحمّله رسالة مباشرة منه الى بريجينيف. وفي اليوم التالي (٢٧ ايار/مايو ١٩٦٧) اجتمع كوسيغين بالوفد المصري مشيراً إلى رسالة عبد الناصر بالقول: «اننا فهمنا ان الرئيس ناصر ليس سعيداً بمحادثاتنا أمس . . . وقد عدلنا قرارات كنا قد اتخذناها بعد ان عرفنا بوجهات نظر الرئيس ناصر. . . ووصلنا الى أبعد مدى يمكن ان نصل اليه»[١٥٧]. وقد قسمت طلبات الأسلحة إلى ثلاثة أجزاء. وعند عودة وزير الحربية والوفد المرافق له، وفي توديعهم، أظهر وزير الدفاع السوفياتي غريشكو مجاملة تجاوزت البروتوكول المتّبع في أمثال هذه المناسبات، فقال لنظيره الوزير المصري: «اطمئنوا لكل طلباتكم سنعطيها لكم»، وأضاف قائلاً: «أريد أن أوضح لك أنه إذا دخلت امريكا الحرب فسوف ندخلها بجانبكم ـ هل فهمت ما أعنيه؟» واستطرد قائلاً: وصلتنا معلومات اليوم ان الأسطول السادس في البحر الأبيض أعاد الى كريت جنوده مشاة الأسطول السابق. ثم أضاف: ان اسطولنا في البحر الأبيض قريب من شواطئكم الآن، وبه من المدمرات والغواصات المسلحة بالصواريخ وبأسلحة لا تعلموها، هل فهمت تماماً ما أعنيه؟ واختتم حديثهُ بأن قال «أريد أن أؤكد لكم أنه اذا حدث شيء واحتجتم لنا فبمجرد إرسال إشارة نحضر لكم فوراً في بور سعيد أو في أي مكان. وانتهى

---

(١٥٦) هيكل، المصدر نفسه، ص ٦٢٠ ـ ٦٢٢.

(١٥٧) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٦٢٣.

الحديث وصافحه الوزير المصري مودعاً، ولكنه عانقني بحرارة»[١٥٨].

وكانت طلبات الأسلحة المصرية، التي قُسّمت الى ثلاث مجموعات، تتضمن في مجموعتها الأولى عقوداً قديمة حان وقت تسليمها، وتقرر تنفيذها وتسليمها فوراً، وفي مجموعتها الثانية تضمّنت عقوداً كان من المفروض ان تنفذ في عام ١٩٦٨، وتقرّر تنفيذها خلال الأشهر حزيران/يونيو، وتموز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٦٧. أما المجموعة الثالثة فتضمّنت طلبات جديدة سوف يتم بحثها، ويتم الرد عليها خلال شهر. ويتضح من كل هذا، ومما تقدم أيضاً، ان الموقف السوفياتي كان متحفظاً على بعض الخطوات التي اتخذتها مصر وعبد الناصر بالذات. وظل هذا الموقف يراوح في مكانه، حاثاً على الاكتفاء بما أحرزته مصر من «الانتصارات» دون تجاوزها الى التورط في الحرب. فاستراتيجية السوفيات كانت واضحة، وتكاد تكون معروفة سلفاً: عدم السماح لناصر بمهاجمة «اسرائيل» وعدم السماح لـ «إسرائيل» بمهاجمة مصر. وفي الحقيقة، فإن الأمر الذي أقلق السوفيات، وكان وراء التحفّظ الكبير البيّن، هو عدم استشارة الرئيس عبد الناصر[١٥٩] القيادة السوفياتية في إغلاق خليج العقبة، والسيطرة عليه عسكرياً. وكان الاختلاف المحسوس بين رؤية ناصر الفكرية ـ السياسية لهذه المسألة المصيرية الملتهبة، وبين الرؤية السوفياتية، هو إقدام ناصر على غلق المضيق، الأمر الذي يعني في نظر القيادة السوفياتية تصعيداً للأزمة يتجاوز الحدود التي تريدها القيادة للنزاع المصري ـ الصهيوني، وللنزاع العربي مع الكيان عموماً، ويمنح التبرير المطلوب للصهاينة للقيام بالعدوان، في الوقت الذي كان الكرملين غير مستعد لتشجيع مصر على الدخول في أيّة مواجهة عسكرية مع «اسرائيل»، لأن ذلك سيؤدي، بالضرورة إلى إحراج موقف السوفيات الذين يريدون تجنّب المواجهة المسلحة مع الولايات المتحدة[١٦٠]. وإلى ذلك كله، عكست المباحثات المصرية ـ السوفياتية تبايناً في وجهات النظر بين القادة العسكريين والقادة السياسيين السوفيات، فما قاله أليكسي كوسيغين لم يكن مطابقاً تماماً لما قاله المارشال غريشكو. وكانت ملاحظة هيكل صائبة، تماماً، حين أشار إلى تباين الرسائل التي يراد توصيلها الى الجانب المصري، والمرسلة من قبل القادة السوفيات، بينما المعروف ان الاتحاد السوفياتي كان دولة تقوم سياسته على وحدة كاملة في صنع القرار. اما الموقف من مصر، في هذه المرة، فقد ترجمته

---

(١٥٨) صورة لمذكرة وزير الدفاع المصري شمس بدران عن الحديث الذي دار بينه وبين وزير الدفاع السوفياتي الماريشال غريشكو عند سُلّم الطائرة في ٢٨ أيار/مايو ١٩٦٧ منشورة في الملحق الوثائقي في: المصدر نفسه، الوثيقة رقم ٣٣، ص ١٠٢٤.

(١٥٩) من المفيد أن نشير إلى أن السوفيات كانوا يرون في عبد الناصر يومذاك أقرب حليف لهم، ولقد سبق أن منحه خروتشوف وسام بطل الاتحاد السوفياتي.

(١٦٠) عودة، جلال وكامل، المصدر نفسه، ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

رسائل مختلفة، بلغات مختلفة، تصل حد التقاطع أحياناً. ويرى هيكل، محقاً، ان حديث القمة الثلاثية[١٦١] هو غير حديث السياسيين تحت مستوى القمة (الوزراء) «فهم يتحدثون بطريقة لا يستطيع أحد أن يعرف بالضبط رأيهم الرسمي عن رأيهم الخاص»، وحديث القمة والوزراء كان يختلف عن حديث القادة الحزبيين، المحرضين دائماً على المقاومة باسم الثورة، وعن حديث العسكريين السوفيات الذين كان عبد الناصر يمنحهم أقصى اهتمامه باعتبار حضورهم القوي في اللجنة المركزية للحزب. وكل هذه الأحاديث قد تتفق، أو تتقاطع مع حديث الـ «ك. جي. بي»[١٦٢]. وعموماً فإن الخطاب السياسي والعسكري السوفياتي لم يكن موحداً[١٦٣].

وفي تحليل هيكل لكل هذا التباين قدرٌ كبير من الصواب. فهو يرى، وهذا مهم لنا لأنه كان يبعث شيئاً من الحيرة والتعكير في رؤية عبد الناصر الفكرية ـ السياسية تجاه الصديق المعتمد في الأزمة، وتحالفه الاستراتيجي مع السوفيات، يرى ان هذا التباين قد يعكس طبيعة الصراعات التي كانت تجري مكتومة في الكرملين، في تلك الأعوام، دون ان يكون ثمة تنبّه واعٍ لما يجري في العالم الثالث بالذات. ويرى هيكل ان المباحثات عكست، بالضرورة، مَدى حماسة العسكريين السوفيات، وتفهّمهم حاجة مصر للسلاح في وقت الأزمة الملتهبة، ومما يدل على ذلك قيام النائب الأول لوزير الدفاع الذي بعث بإشارة الى الوفد المصري وكان يخشى، محقاً، ان يكون قرار المكتب السياسي بشأن طلبات الأسلحة أقل مما هو مطلوب ومتوقع. ان استنتاج هيكل صائب في إرجاعه تباين الخطاب بين السياسيين والعسكريين السوفيات في هذه المسألة، الى ان العلاقات التي نشأت بين مصر والاتحاد السوفياتي إنما قامت على الاضطرار وليس الاختيار، الأمر الذي جعل الحوار بعيداً عن الحقائق بمسافة ملحوظة، إضافة الى ان قنوات الاتصال كانت مرتبكة، متأرجحة على المستوى الفردي والعام، كما ان لغة الحوار كانت تبدو بحاجة الى تدقيق وجلاء، خصوصاً إبّان الأزمة المصيرية الملتهبة. ولعلّ مردّ ذلك يعود مواريث حضارية وثقافية[١٦٤]. لكننا لا نستبعد، مع ذلك، احتمال ان يكون الأمر ناجماً عن دور خفي للمخابرات الصهيونية، او الأمريكية، او الاثنين معاً، الرأي الذي يعوزه التوثيق حتى اليوم.

مهما يكن الأمر، فإن ذلك ترك أثره البين في تحولات الرؤية الفكرية ـ

---

(١٦١) تعرف عادة بالترويكا، وكانت يومذاك تتألف من بريجنيف زعيم الحزب، وبودغورني رئيس الدولة، وكوسيغين رئيس الوزراء.

(١٦٢) مختصر «لجنة أمن الدولة»، وهي جهاز المخابرات في العهد السوفياتي، ترجمها محمد حسنين هيكل بصورة غير صحيحة، إذ يسميها «هيئة مراقبة أمن الدولة والحزب».

(١٦٣) هيكل، المصدر نفسه، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص ٦٠٩.

السياسية لعبد الناصر، في تلك الحقبة الملتهبة، وما بعدها. فعند عودة الوفد المصري اتجه رئيسه وزير الحربية شمس بدران، على الفور، من المطار الى مقر الرئيس عبد الناصر مبيّناً له «ان الحكومة السوفياتية والقوات المسلحة السوفياتية معنا»[(١٦٥)]. وكان هذا ما فهمه بدران من خطاب وزير الدفاع السوفياتي عموماً، وبخاصة من عبارات المجاملة التي نطق بها الوزير السوفياتي عند التوديع في مطار موسكو. وقد تركت أقوال بدران هذه، فيما يبدو، تأثيرها في رؤية عبد الناصر للأزمة. وكان ذلك من جملة الأسباب التي أدت الى تصاعد نبرة الإعلام القتالي، الداعي إلى الاشتباك، بينما اتضح بالمقابل، فيما بعد ان المغلّف الرسمي، الذي يضم محاضر المباحثات لم يفتح، ولم يطلع عليه الرئيس عبد الناصر، بالتالي، الا في الثالث عشر من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، حيث ظل مغلقاً، مع العلم ان وكيل الوزارة أحمد حسن الفقي سلمه الى مكتب الرئيس عبد الناصر، وكان مكتوباً على المغلّف: «عاجل جداً ويسلم باليد» وعند فتحه وقراءته، لم يجد الرئيس عبد الناصر أية إشارة سياسية، أو معنوية، أو أدبية تعني المساعدة أو التأييد . . . مما يدل على الارتجال الشفوي الخاطىء غير الدقيق، وتأثيره في الفكرة والموقف[(١٦٦)]. وكان الرئيس عبد الناصر واثقاً من ان «اسرائيل» لن تهاجم، لكنه مع تصاعد وقائع الأزمة الملتهبة بات مقتنعاً انه يستطيع مواجهة العاصفة والسيطرة عليها، اذا لم يقدم الى «اسرائيل» مزيداً من الاستفزازات[(١٦٧)].

ومن المهم جداً الإشارة الى ان الرئيس عبد الناصر أكّد في خطابه التاريخي في يوم التاسع من حزيران/يونيو ١٩٦٧ ان من الأسباب التي دفعته الى عدم القيام بالضربة الأولى ضد «اسرائيل»، هو ان السفير السوفياتي قد جاءه في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الخامس من حزيران/يونيو طالباً منه ضبط النفس بناءً على طلب الكرملين الذي ذكر السفير انه على اتصال مع البيت الأبيض لممارسة الضغط على الكيان لمنع نشوب الحرب[(١٦٨)]. وعموماً فإن عبد الناصر اعتقد، بعد كل هذا، أنه قد كسب المعركة السياسية، وأن الموقف ليس مستعصياً على الحل بالاتصالات والمفاوضات السلمية، وهذا ما كان يحرص عليه.

---

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ٦٠٩.

(١٦٦) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(١٦٧) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ - ١٩٧٣، ص ٤٨ - ٤٩.

(١٦٨) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر إلى الأمة حول تنحيه عن رئاسة الجمهورية في القاهرة بتاريخ ١٩٦٧/٦/٩،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ٢٨٠، ص ٤٠٩، والأهرام، ١٩٦٧/٦/١٠.

ثالثاً: أثر النكسة في الفكر الناصري

١ ـ حرب ٥ حزيران/ يونيو

كان يوم الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧ شاهداً على تعاظم تعقيد الموقف وحراجته، فمصر كانت تترقّب، بمعنويات قوية، ساعة المنازلة وإحراز النصر. فالرئيس عبد الناصر كان قد أعدّ للحرب عدّتها، واستعد لها، وفق معطيات منظوره الفكري ـ السياسي. فقد أكدت إجاباته في المؤتمر الصحفي، الذي عقده في القاهرة قبل أيام من ذلك التاريخ، العزم على مواجهة العدو، والقدرة على دخول المعركة والاستعداد الكامل لها [١٦٩]. ولكن البعض، على الأقل، ولا سيما بين المفكرين والمثقفين ذوي البصيرة، والخبرة المحنكة، كان يتساءل بينه وبين نفسه: هل مصر مستعدة تماماً للحرب؟ هل تزوّدت قواتها بالأسلحة المتطورة، وهل تلقّت هذه القوات تدريباً عالياً عليها؟ وهل قدم الاتحاد السوفياتي أسلحته الموازية في تطورها وقوتها التدميرية للأسلحة التي حصلت عليها «اسرائيل» من الغرب، ومن الولايات المتحدة بخاصة؟ وهل المخابرات المصرية على درجة عالية من المعرفة ودقّة المعلومات عن قوات العدو وتشكيلاته وخططه؟ وهل حسب القادة في القاهرة مواقف الدول المعادية، ولا سيما، الولايات المتحدة، حساباً دقيقاً؟ وهل ان الاتحاد السوفياتي على استعداد ان يمد جسراً عسكرياً بين موسكو والقاهرة، مقابل مد واشنطن جسورها العسكرية الى تل أبيب؟ وهل نسّقت مصر مع الدول العربية، وبخاصة دول المجابهة الأخرى؟ وهل ان استعدادات هذه الدول بالشكل المطلوب؟ وهل ان علاقة مصر معها على درجة عالية من الفهم والمشاركة؟... هذا غيض من فيض مما اعتمل في النفوس، بحثاً عن إجابات واضحة ودقيقة، مقترنة بالخوف والقلق والأمل بتباشير النصر، مع كل كلمة قالها عبد الناصر [١٧٠].

وتبقى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ من أخطر المعارك المصيرية العربية الحديثة، وأشدها إثارة، وأبعدها تأثيراً، وأشدها ضراوةً، وذلك لما حفلت به من مفارقات ومفاجآت، كانت مفاجأتها الكبرى والحاسمة هي قصر المدة التي استغرقتها المعركة،

---

(١٦٩) «حديث الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الصحفي حول أزمة الشرق الأوسط في القاهرة في ٢٨/ ٥/ ١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٢١٢، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٩، والأهرام، ٢٩/ ٥/ ١٩٦٧.

(١٧٠) «حديث الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الصحفي حول أزمة الشرق الأوسط في القاهرة في ٢٨/ ٥/ ١٩٦٧،» في: الجامعة الاميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والادارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج١، الوثيقة رقم ٢١٢، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٩.

حيث لم تزد على ثلاث ساعات ونصف، ابتداء من الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة حسب توقيت مصر الصيفي من صباح يوم الاثنين ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، بدأت وانتهت بهزيمة مؤلمة للأمة العربية كلها. فهذه الساعات المعدودة كانت هي الزمن الذي استغرقته الضربة الجوية الاسرائيلية[١٧١]، والتي كانت ضربة قاضية. فبجهد ٤٩٢ طائرة أغارت في ثلاث موجات، تقرر مصير المعركة[١٧٢]. وما تلا ذلك لم يغير من الصورة شيئاً، فقد تمكنت طائرات العدو من ان توجّه ضربات بالغة التدمير الى القوة الجوية المصرية، وهي جاثمة، مكشوفة في مدارجها، وبدون غطاء جوي، مما مكّن طيران العدو من الإغارة على السلاح الجوي المصري. وبذلك حسمت المعركة لصالح العدو[١٧٣]. وبما ان القوات البرية والبحرية أضحت دون غطاء جوي، وصارت المدن، بما فيها القاهرة، تحت رحمة الطائرات الاسرائيلية، وعجزت القوات البرية والبحرية عن مواجهة الموقف الصعب لانهيار المعنويات، كرس سلاح الطيران الصهيوني، بالتالي، جهده لمعاونة القوات المدرعة الاسرائيلية الزاحفة على سيناء، من خلال ألف طلعة جوية، الأمر الذي أتاح الفرصة للقوات الصهيونية البرية لتوجيه ضربات شديدة التدمير إلى بقية القوات المسلحة، والتوجه نحو الضفة الغربية لاحتلالها جميعاً، مواصلةً تقدمها لتحتل قطاع غزّة، بينما اتجهت قوات أخرى نحو الجبهة السورية، التي تمكنت من احتلال مرتفعات الجولان دون مواجهة أي مقاومة تتناسب مع القوات العسكرية الضاربة المحتشدة هناك[١٧٤]. وقد تعمّدت القوات الاسرائيلية الغازية توجيه الضربة الى العاصمة دمشق، وهدمت مدينة درعا بوحشية بالغة، وكادت تطبق على دمشق لولا قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال في التاسع من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وموافقة القاهرة ودمشق عليه، بينما كانت «اسرائيل» غير راغبة في احتلال العواصم، لصعوبة ذلك، حيث إنها ستغدو هدفاً للمقاومة الشعبية، وسيكلفها ذلك خسارة بالغة. وهكذا أصبحت القوات الغازية

---

(١٧١) هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٧٠٨ ـ ٧١٠؛ محمد حسنين هيكل، الحل والحرب.. (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧)، ص ١٩؛ مصطفى، حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية، ص ١٩ ـ ٧٥؛ ناتنج، ناصر، ص ٤٥٣ ـ ٤٧٤، دومال ولوروا، جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة، ص ١٦٢ ـ ١٦٣؛ ج. ب. ديرزويل، التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، ١٩٤٥ ـ ١٩٧٨، ترجمة خضر خضر (طرابلس، لبنان: دار المنصور، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠، و Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, p. 129.

(١٧٢) هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ٧١٠ ـ ٧١١ و٧١٤، وسعد التائه، ٥ يونيو، نكسة أو مؤامرة (بيروت: دار النضال، ١٩٨٤)، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(١٧٣) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص ٥٠ ـ ٥٣، ومصطفى، المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٩.

(١٧٤) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص ٥٠ ـ ٥٣، والتائه، المصدر نفسه، ص ٥٤ ـ ٦٠.

متمركزة عند المرتفعات السورية المطلة على دمشق، كما تمكّنت من احتلال الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، واحتلال قطّاع غزة، وصحراء سيناء، ومرتفعات الجولان، والمضائق الاستراتيجية، ومناطق معينة من جنوب لبنان. لقد احتلت «اسرائيل» في الأيام الستة من الحرب، ما خططت له فعلاً [١٧٥]. وبعد إتمامها ذلك، وافقت على قرار وقف إطلاق النار، الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي، بعد سلسلة من الجلسات المتعددة. وعلى الرغم من موافقة «اسرائيل» على وقف إطلاق النار، إلا انها رفضت الانسحاب من الأراضي التي احتلتها[١٧٦].

وفي تحليل أسباب الهزيمة، ووقائع العدوان وممهّداته ونتائجه، يصطدم الباحث بالعديد من الآراء، المتباينة، والمتقاطعة، أحياناً، تقاطعاً تاماً[١٧٧]. يقول عبد اللطيف البغدادي، مثلاً، ان المشير عبد الحكيم عامر هو المسؤول عن المعركة، وأثناء وجودنا معه، لاحظنا أن محمود صدقي قائد القوات الجوية كان كثير الاتصال به، وانه لا يدير المعركة. ويظهر أن أعصابه قد انهارت[١٧٨]. وبهذا الصدد يقول محمد حسنين هيكل ان ضربة الطيران الصهيوني المباغتة، الكثيفة، الصاعقة قد أدّت مباشرة الى نتيجتين: النتيجة **الأولى**: ان القيادة العسكرية المصرية فقدت أعصابها وتوازنها، وهو الهدف الأول لفكرة (الحرب الخاطفة) منذ أن دعا اليها أساتذة الاستراتيجية الانكليز. ولم يكن الهدف من السرعة والمباغتة في الضربة الأولى، احتلال المواقع، فحسب، بل شلّ تفكير القيادة في النواحي الأخرى للمعركة، وإرباكها في اللحظة الأولى للمعركة. أما النتيجة الثانية، فهي متعلّقة كحصيلة لمفعول النتيجة الأولى، فقد أصبح وضع الجيش صعباً، وبدون غطاء جوي، الأمر الذي أتاح للعدو السيطرة التامة على أجوائه، وفي هذه الحالة لا يغدو القتال قتالاً، بل يتحول الى عملية قتل، مهما كانت شجاعة الرجال[١٧٩].

---

(١٧٥) صلاح سعد الله، **العدوان الإسرائيلي، حزيران ١٩٦٧**، ط ٢ (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٠)، ص ٦٨.

(١٧٦) عبد الله سلوم السامرائي، **الولايات المتحدة الأمريكية والمؤامرة على الأمة العربية** (بغداد: دار الرشيد للنشر، [د. ت.])، ص ٢٢.

(١٧٧) هيكل، **لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟**، ص ١٣٣ ـ ١٥٠؛ عبد الله إمام، **ناصر وعامر** (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٥)، ص ١٨٧؛ التائه، **٥ يونيو، نكسة أو مؤامرة**، ص ٥ ـ ٦؛ مصطفى، **حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية**، ص ١٣ ـ ١٧٥؛ جمال حمدان، «أهداف ثابتة ووسائل متغيرة،» **الكاتب**، السنة ٧، العدد ٧٧ (آب/أغسطس ١٩٦٧)، ص ٧ ـ ٢٦؛ أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ «الإسلامي» والحضارة الإسلامية**، ط ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣)، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٩، وحسنين كروم، **عبد الناصر المفترى عليه** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥)، ص ٢٤٧.

(١٧٨) البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ٢، ص ٢٨٦.

(١٧٩) هيكل، **١٩٦٧: الانفجار**، ص ٧١١.

وتحت وطأة هذا الوضع المأساوي المدمّر، قرّر المشير عبد الحكيم عامر الانسحاب، فجر السادس من حزيران/يونيو. وكان ذلك القرار، من حيث المبدأ، قراراً منطقياً، إذ ليس ثمّة خيار آخر، في الواقع، ولكن طريقة اتخاذه، وأسلوب تنفيذه كان هو الكارثة. ذلك ان نظرية الحرب الخاطفة قد حقّقت أثرها في القائد العام عامر، وأفقدته أعصابه وتوازنه، وعرّضت القطعات المشتبكة مع العدو إلى خسائر كبيرة جداً. ففي اليوم الأول كانت خسائر القوات المصرية في القتال في حدود ٢٩٤ شهيداً. وبعد قرار الانسحاب، في يوم ٦ حزيران/يونيو، وبسبب طريقة تنفيذه، كانت الخسائر حتى مساء يوم ٨ حزيران/يونيو ١٩٦٧ فادحة جداً، فقد بَلَغ عدد الشهداء ٦٨١١ شهيداً. ومن الطبيعي ان شطراً من هذه الخسائر كان ضرورياً لحماية انسحاب القوات، غير ان هذا الانسحاب غير المنظّم اتّسم بالفوضى، التي نجمت عنها، بالضرورة، أفدح الخسائر. وهكذا، فإن محصّلة نجاح العدو في الضربة الأولى للطيران تمثّلت في تحويل دور القوات المسلحة إلى دور ثانوي. ولم يعد الهدف عسكرياً، فقد تحقّق هذا الهدف بالكامل، بل تحول الى مطلب سياسي[١٨٠]. حدّده وزير الدفاع الصهيوني، موشي دايان، كالتالي:

أ ـ تدمير أكبر قدر ممكن من السلاح السوفياتي في المنطقة، وفي هذا تحقيق لمصلحة مشتركة أمريكية ـ صهيونية.

ب ـ تحطيم معنويات الجيش المصري وإذلاله، لمنعه من الإقدام ثانيةً على معركة أخرى ضد الكيان، مهما كانت الظروف.

ج ـ الوصول بالهزيمة العسكرية الى حدّ الإهانة البالغة، كيلا تعود مصر، مهما كانت دعواتها، الى موقع القيادة في الوطن العربي الآن، وفي المستقبل المنظور.

د ـ ان تضافر هذه العوامل معاً... سيؤدّي إلى إسقاط النظام، وإسقاط جمال عبد الناصر بحدوث ردّة فعل غاضبة لدى الجماهير المصرية والعربية[١٨١].

ولا شك في أن هذا يعني بلوغ الولايات المتحدة والكيان هدفهما المشترك، محاولة الإطاحة بعبد الناصر ونظامه من منطلق ان السبيل الوحيد للتخلّص من ناصر هي هزيمته في حرب محدودة تفقده ثقة العرب واحترامهم.

وبإنجاز تلك «المهمة»، فإن «اسرائيل» تستطيع ان تحقق هدفَها الأكبر في العملية كلها، وهو اقتطاف الضفة الغربية للأردن، بما فيها القدس، دون ان تتعرّض لأي

---

(١٨٠) التائه، ٥ يونيو، نكسة أو مؤامرة، ص ٤٩ ـ ٦٠، ومصطفى، حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية، ص ١٩ ـ ٧٥.

(١٨١) دايان، سيرة حياتي، ص ٢١٦ ـ ٢٣٥.

ضغط من جانب الولايات المتحدة، ذلك لأنها «سوف تعطي جونسون كل ما أراده، وبالتالي لا يستطيع حرمانها، في المقابل، من كل ما تريده»[١٨٢].

وفي ضوء ما تقدّم، لا بدّ من وقفة مدقّقة عند الهزيمة أو النكسة، والاجابة عن الأسئلة التي تطرحها هذه النكسة. ومن بين هذه الأسئلة سؤالٌ منطوقه: هل كان النصر نصراً لـ «إسرائيل» وجيشها وخططها، وحدها، أم كان لشريكها وحليفها الاستراتيجي ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ مشاركة في هذا النصر؟

والجواب، ان النصر كان «لاسرائيل» وهذا النصر هو، أيضاً، نصر للولايات المتحدة، باعتبارها الشريك الرئيس في العدوان، فإن كل مجريات الأحداث قبل العدوان، وبعده تؤكّد ذلك. لقد حدّد الهدف الأساس للعدوان الامبريالي، كما مر بنا ذلك غير مرة، في خرق سيادة مصر، ومحاولة قلب النظام الناصري، أو تحجيمه إلى الحد الأقصى، وذلك من أجل إضعاف هيبة مصر في الوطن العربي، وتقليص دورها التقليدي في صياغة السياسة العربية. وبما ان النظام لم يتمّ إسقاطه، فإنه يمكن القول إن أهداف العدوان الأساسية لم تتحقّق، وبالتالي ينبغي القول إن مصر خسرت معركة، لكنها لم تخسر الحرب[١٨٣]. يقول باحث أجنبي حول الموضوع نفسه ما نصه: «إن عدوان إسرائيل قد قدم لاسرائيل نصراً استعراضياً، فالنجاح الحربي لم يعطِ النصر السياسي، ولم تصل إسرائيل إلى اهدافها السياسية الخارجية الأساسية، فالأنظمة العربية التقدمية ظلت قائمة»[١٨٤]. بل يمضي الباحث نفسه في تقويمه المتفائل من منطلق الإيمان فكرياً بقوة، وعزم الجماهير العربية، صاحبة الشرعية للقضية برمتها، فيؤكد ان نتائج الحرب تؤدي في محصلتها النهائية الى تحديد «إمكانية الدولة الصهيونية في التأثير على الوضع العام في المنطقة». ودليله على ذلك إدانة العدوان عالمياً، وتراجع «مواقع إسرائيل في العالم الثالث»، كما «ساء المناخ بالنسبة لها في أوروبا الغربية التي بدأت تشعر بالتناقض بين مصالحها الحيوية، ومصالح إسرائيل التي تزداد التصاقاً بالولايات المتحدة الأمريكية»[١٨٥].

---

(١٨٢) هيكل، ١٩٦٧: الانفجار، ص ١٨٤؛ التائه، المصدر نفسه، ص ٤٩ ـ ٦٠، وعادل سمارة، «الأردن في حرب ١٩٦٧، عرض لوقائع الحرب ومقدماتها،» الحلقة الأولى، الرأي العام (الكويت)، العدد ٨٤٩٩، ٢٧/٧/-١٩، ص ١٦.

(١٨٣) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٨، والهيثم الأيوبي [المقدم]، «مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي،» قضايا عربية، العدد ١ (نيسان/ ابريل ١٩٧٤)، ص ٦٣ ـ ٧٣.

(١٨٤) لاديكين، مصدر الأزمة الخطيرة: دور الصهيونية في تغذية النزاع في الشرق الأوسط، ص ٤٠٠.

(١٨٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

٢ ـ قراءة فكرية ورؤية عبد الناصر للانتكاسة من حيث الأسباب والنتائج

كانت حرب ١٩٦٧، أو ما أُسميت «حرب الأيام الستة»، حلقة متميزة في عالم الرؤية الفكرية والسياسية الناصرية. فقد أسفرت عن نكسة كبيرة، على جميع الصعد: العسكرية والسياسية والاجتماعية والفكرية، وعلى المستوى الداخلي والقومي والدولي. لقد اهتزت الرؤية الناصرية اهتزازاً شديداً، وكان ذلك امتحاناً صعباً كشف عن الخلل الكامن الذي كانت مظاهره تطفو أحياناً على السطح، وسجّل حصيداً جديداً للتناقضات المصطرعة داخل الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية، وأتى بنتائج كانت من الأهمية الوطنية والقومية والعالمية، بحيث انها أدّت إلى تغير نوعي بيّن. لقد كان ذلك أمراً جللاً استحق، ولا يزال، وسيظل يستحق الدراسات التحليلية المدقّقة. ومن المهم جداً سماع شهادة أقرب شخصية فكرية ـ إعلامية الى ناصر، صانع قرار الحرب ومسؤول الهزيمة فيها، نعني هيكل، حيث يقول بصراحته «الهيكلية» ذات الخصوصية الخاصة، التي هي ليست صراحة مطلقة، بل صراحة مؤتمن على أسرار ناصر، ومؤرخ لعهده، وصديق له ولأسرته، يقول في تصريح له بهذا الخصوص، جواباً عن سؤال محاوره عن حرب ١٩٦٧، ونكستها: «... لقد كانت لعبد الناصر حسابات معينة عندما قاد البلد الى معركة في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧. حدث شيءٌ من الخلل في الحسابات. ومع انه قد يتحمل جزءاً من المسؤولية السياسية، إلا انه ليس مسؤولاً عن أمور كثيرة. وما دامت المسألة حدثت، فإنني من الذين يرون انه لا بد من إعادة مناقشة ما حدث عام ١٩٦٧، بل مناقشة كل شيء حدث ويحدث في مصر، مناقشة علمية من دون حقد. وفي استطاعة أكاديمية ناصر، مثلاً، تكليف مجموعة سياسية ـ عسكرية (ان) تناقش ما حدث عام ١٩٦٧، بحيث لا يكون ما جرى مجرد حادثة، إنما درساً نستفيد منه»[١٨٦].

يحاول هيكل التخفيف، ما أمكنه، فيشير إلى «شيء من الخلل»، بينما هو خلل عظيم، خلل كارثي أدى إلى نتائج كارثية، ونكسة مصرية لم يعانِ ناصر وحده منها، بل عانت مصر والوطن العربي بأسره، كما الشرق الأوسط أيضاً، وما زالت تعاني منها، كما يشير الى انه «قد يتحمّل جزءاً من المسؤولية السياسية»، بينما يعترف عبد الناصر نفسه، ومن موقع القيادة، بكامل المسؤولية عما حدث، ولذلك قرّر التنحّي، وقتها، ولم تُعده إلى المسؤولية وقراره بتحمّلها من جديد إلا مظاهرات الشعب المصري الشهيرة، في التاسع من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهي مظاهرات ذات دلالة تاريخية

(١٨٦) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

سياسية بالغة . . . مع ان هيكل يحاول ذلك، إلا انه يقرّر، بأمانة، ما سيجعله يكاد يناقض «تخفيفاته التبريرية»، حيث يقول مستطرداً: «لقد حدث ان عبد الناصر قاد البلد عام ١٩٦٧ الى مواجهة انتهت بما بدا في ذلك الوقت انه كارثة. اذاً فإن مسؤوليته تفرض عليه وضع استقالته بتصرف الأمة. وهذا ما حدث بالفعل. وكان عليه، كخطوة لاحقة، ان ينتظر قرار الأمة في هذا الشأن. حتى إذا كان القرار هو ان الشعب سيحاكمه فإنه كان على استعداد لذلك. وتلك كانت رؤيته عندما قرّر التنحّي. وهو لم يكن مضطراً إلى أن يفلسف الهزيمة التي حدثت. ولو كان يريد ذلك لكان معناه انه يسعى لإعفاء نفسه من آثار ما حدث، وتبرير ما حدث. لم يكن يريد تبريراً. التبرير لم يكن هو المطلوب آنذاك بالنسبة إلى قائد مسؤول. وعبد الناصر لم يكن في ذلك الوقت في جلسة فكرية يناقش أموراً معينة. كان في محنة حقيقية. وهو من موقع المسؤولية عرف حجم تلك المحنة. ولقد تصرف كمسؤول، ولم يبرّىء نفسه، لم يبرر ما حدث. وقال انه المسؤول، ولم يتهرب من المسؤولية. حتى عندما قرّر العودة عن قرار التنحي فإنه ربط ذلك باستفتاء، لأنه كان يعتقد ان الشعب يجب ان ينحيه بالفعل. ولمجرد ان عاد عن قرار التنحي فإنه بدأ يتصرف من موقع القوة. وبدأ يتصرف على أساس انه مطالب بأن يقدم للشعب الذي رفض التنحي ما يريده»[١٨٧].

مرّ الفكر الناصري بانعطافة نوعية، بعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، التي تسمّى في بعض الأدبيات التاريخية «حرب الأيام الستة»[١٨٨]، كما درج الباحثون والمؤرخون العرب على تسميتها «النكسة»، بينما أسماها بعضٌ قليل منهم «الهزيمة»[١٨٩]. وواضح ان تسمية «الهزيمة» مقصودٌ بها الهزيمة العسكرية، وحتى هزيمة الاستراتيجية العسكرية وواضعيها ومن يقف وراءها، لكنها ليست الهزيمة الفكرية. فالحق ان مصر خسرت هذه الجولة في الحرب مع «اسرائيل»، وكان ذلك نكسة كبيرة، بالفعل، للمخططات العسكرية، ولآلية العمل العسكري واستراتيجيته، لكنها ليست بالهزيمة التامة بمعنى التسليم والاستسلام دون قيد ولا شرط كما حدث مع المانيا واليابان وسواهما في الحربين العالميتين الأولى والثانية. وعلى صعيد التسمية بـ «النكسة» يمكن الإشارة إلى وقائع مماثلة في الحروب المحدودة والعالمية، مثل «دنكرك»

---

(١٨٧) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(١٨٨) هكذا يسميها الباحثون السوفيات أيضاً. نشير مثلاً إلى مرجعنا السابق الذي استشرناه: **تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠**، ص ١٣٢.

(١٨٩) من المفيد أن نشير إلى أن محمد حسنين هيكل يناقش هؤلاء المؤلفين، ويفند رأيهم هذا في كتاب: هيكل، **لمصر.. لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟**، ص ١٣١ ـ ١٥٠.

و«بيرل هاربور» بالنسبة لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، و«العلمين» و«ستالينغراد» بالنسبة للقوات الالمانية في الحرب ذاتها أيضاً. ان الهزيمة تعني هزيمة الإرادة وإسقاط النظام، وهذا لم يحصل. فالأنظمة العربية في مصر وسوريا والأردن بقيت قائمة، كما ان إرادة القتال العربية لم تُهزَم، وكان أحد الأدلة على ذلك مظاهرات الجماهير المصرية التاريخية في التاسع من حزيران/يونيو التي أقنعت عبد الناصر بالاستمرار في تحمل المسؤولية، ومواصلة القتال في جولات جديدة[١٩٠]. يقول هيكل بصدد حرب حزيران/يونيو ومظاهرات الشعب الدائمة لبقاء عبد الناصر وعدم تنحيه: «إذاً، إن عودة عبد الناصر عن قرار التنحي أنقذت البلد بالفعل من حرب أهلية كان يمكن أن تقع، وحالت دون أن تكون الهزيمة كاملة. ومصر فقدت الجزء الأكبر من سلاحها في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، لكن إرادتها لم تُهزم. وخروج الناس إلى الشوارع رافضةً تنحي عبد الناصر كان تعبيراً صادقاً عن أن الإرادة لم تُهزم. والنصر والهزيمة في النهاية مسألة تتعلق بالإرادة»[١٩١]. ونجد الشيء ذاته عند الباحث شهدي الذي يقول: «.. لعلها المرة الأولى التي تلتف فيها الجماهير حول قائد خسر في المعركة لتحميه من نفسه ومن أخطائه .. لتغفر له وتحرسه من أصدقائه ومن أعدائه معاً»[١٩٢].

أما مسألة لماذا حصلت الانعطافة النوعية الحاسمة في فكر عبد الناصر، بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ بالذات، فهذا أمرٌ يجد تفسيره في اللوحة المأساوية التي خلّفتها الحرب في مصر والبلدان العربية، وفي مسؤولية عبد الناصر الجسيمة في هذه الهزيمة العسكرية، وفي هذه الانتكاسة الكبيرة على شتى المستويات والصعد. وحسبنا الإشارة إلى ما يقوله المؤرخ الدكتور ايغور تيموفييف، بصفته شاهد عيان على أحوال مصر ما بعد نكسة حزيران/يونيو: «... في الواقع، فقدت مصر وقتها جيشها كاملاً، إذ انه كان يصعب ان يطلق اسم جيش على فلول الوحدات المبعثرة التي انسحب بعضها من سيناء بأسلحته، بينما انسحب البعض الآخر من دون أسلحة، وفقدت القيادة والتوجيه وقنوات الاتصال. والأهم من ذلك كله أن عزيمتها وهنت ومعنوياتها انهارت نتيجة الهزيمة التي أضنى عذاب البحث عن أسباب منطقية محددة لها جميع القادة العسكريين. وهكذا لم يكن للجيش، بالمعنى المعروف، وجود. ولذا تعيّن بناؤه من جديد.. لكن الحديث ابتداءً من تلك الفترة لم يجر عن إعادة بناء

(١٩٠) الثائه، ٥ حزيران، نكسة أو مؤامرة، ص ١٦ ـ ٢٠، والمصدر نفسه، ص ١٣٣.

(١٩١) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٨.

(١٩٢) محمد فريد شهدي، تأملات في الناصرية، المفكر العربي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣)، ص ٢٦.

القوات المسلحة المصرية كما كانت قبل الحرب، بل عن إقامة بنى جديدة نوعياً، وبتعبير آخر عن إقامة جيش من جيل أحدث»[193]. ويقرن هذا المؤرخ شهادته بالوقائع الدقيقة التي تتوثق بمقولات عبد الناصر نفسه: «والصورة المريعة لمأساة حزيران بحجمها الحقيقي تجمّعت لدى الرئيس المصري الراحل تدريجياً وخطاً بعد خط، وساعده في ذلك كثيراً الماريشال ماتفي زاخاروف رئيس أركان القوات السوفياتية آنذاك، الذي وصل الى مصر مع مجموعة من الخبراء العسكريين بعد أسبوعين على الحرب. وبما انه حدد لنفسه مهمة تتلخص في إبلاغ الرئيس عبد الناصر حقائق ما حدث دون نقص، توجه زاخاروف منذ الأيام الأولى لوصوله الى مصر الى مواقع القوات على الجبهة مباشرة. ولم يُبق ما رآه الماريشال السوفياتي بأم عينيه مكاناً للوهم لديه، فمن أصل ١٣٦٤ دبابة ومدفعاً ذاتي الحركة كانت ضمن ترسانة الجيش المصري صباح ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لم يبق سوى ٧٠٠ في شبه جزيرة سيناء، علماً بأن أكثر من ١٠٠ منها كان سليماً تماماً، و٢٠٠ تعرضت لإصابات طفيفة فقط. كذلك لم يبق من أصل ٢٨٤ طائرة مقاتلة لدى سلاح الجو المصري سوى ٤٩ طائرة، بالإضافة إلى الطائرات التي كانت في المخازن وتحتاج إلى تجميع. وألحقت خسائر فادحة بوسائل الدفاع الجوي، كما دُمرت شبكات الرادار عن آخرها تقريباً مما جعل مصر فعلاً دون حماية في مواجهة أيّة غارة اسرائيلية محتملة»[194]. وفي استطراد هذا المؤرخ الشاهد العيان، يستعين بمقولة بالغة الدلالة لعبد الناصر نفسه: «... ولحسن الحظ ان الرئيس جمال عبد الناصر، الذي اقتنع برأي الماريشال زاخاروف القائد العسكري المحنّك، أيّد وجهة نظره هذه تماماً.. في حديث مع الماريشال زاخاروف قال الرئيس جمال عبد الناصر: في الحقيقة لم تكن هناك حرب، فقواتنا قاتلت في صورة افتقرت الى التنظيم، وفي قطّاعات متفرقة، ولم يقُم بينها التعاون الضروري. ومع ان بطولات الجنود جليّة، إلا أننا لم نحارب لأننا افتقرنا الى التنظيم»[195]. وهذا يعني ان ما حدث في حرب ١٩٦٧ كان انهياراً في القيادة العسكرية باتفاق الآراء[196].

---

(١٩٣) ايغور تيموفييف، **الطريق إلى رمضان**، حولية نحن العرب (موسكو: دار التقدم، ١٩٩٠)، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(١٩٤) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٩٥) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(١٩٦) مطر، **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل**، ص ١٤٦؛ البغدادي، **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**، ج ٢، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٧؛ إمام، **ناصر وعامر**، ص ١٦٣ ـ ١٦٩؛ جوهر، **الصامتون يتكلمون: عبد الناصر... ومذبحة الاخوان**، ص ١٣٠ ـ ١٤٦؛ جورج قرم، **انفجار المشرق العربي: من تأميم قناة السويس إلى اجتياح لبنان**، السياسة والمجتمع (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٧)، ص ٣٥؛ ناتنج، **ناصر**، ص ٤٦٠، ودومال ولوروا، **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**، ص ١٦٢ ـ ١٦٥.

وأمام هذه اللوحة المأساوية لتركة حرب حزيران/يونيو الكارثية، وتطويراً لخمائر أفكار كانت تنتاب ذهن عبد الناصر منذ حرب السويس ١٩٥٦ حتى حرب حزيران وبعدها، ومنها الموقف من المشير عبد الحكيم عامر وشلّته، والموقف من حرب اليمن، ووضع الجيش المصري، ومراكز القوى، والجبهة الداخلية، والعلاقات مع الحلفاء السوفيات، والتضامن العربي. . . امام هذه اللوحة، وهذه الهموم والمشاكل الملحة المتفاقمة، كان لا بد لعبد الناصر، المصدوم عميقاً بحرب حزيران/يونيو ونتائجها، ان يتخذ مواقف جديدة، ويتقدم بحلول جديدة وآراء جديدة تترجم التحول الفكري الجديد والحاسم الذي بات يميزه بعد نكسة حزيران/يونيو. ويمكن تحديد معالم هذا التحول الفكري الناصري بعد النكسة الحزيرانية في الأمور التالية: الدراسة العميقة المدققة للنكسة، والمحاسبة الشاملة للمسؤولين عنها، بمن فيهم هو نفسه، والاضطلاع بالمسؤولية كاملاً لتسيير دفّة سفينة البناء والتنمية والمجابهة في البلاد التي أنهكتها الحرب، والمزيد من الانفتاح على الشعب، وتمييز القوى المخلصة والعدوة والحلفاء والمواقف الجديدة في ضوء معطيات النكسة ونتائجها، والمزيد من الالتحام العربي (بمعنى توطيد التضامن العربي ومعالجة الهم المركزي ـ الهم الفلسطيني)، واكتساب الرؤية الفكرية الناصرية عموماً المزيد من الحنكة السياسية، والواقعية والموضوعية والدقة بعيداً عن المواقف الانفعالية والمتشنجة والمتسرعة والأحكام الجاهزة مسبقاً في معالجة المستجدات في الوضع الداخلي والعربي والعالمي. ويُجمل هيكل معظم هذه الأمور بالشكل التالي الذي كان سمةً مميزة لفترة الاستنزاف وآثارها في فكر عبد الناصر، فيقول: «تلك الفترة تميزت بأنها فترة استنزاف. وكانت هذه الفترة تشغل بال جمال عبد الناصر. وهو منذ الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٧ قلّص اهتماماته، وركزها في ثلاثة موضوعات: الأول: إعداد القوات المسلحة للحرب، الثاني: العلاقات المصرية السوفياتية، الثالث: العلاقات العربية. . . واعتبر ان هذه الموضوعات هي من اختصاصه. . . وهو على رغم اصابته بالذبحة القلبية كان دائماً مشدوداً إلى تلك الموضوعات. لماذا؟ لأنه كان يرى أن خروج الجماهير يحمل في طيّاته مطلباً أساسياً، ووحيداً هو ان الجماهير تريد الحرب من أجل التحرير، وهي على استعداد لتكاليفها. ولعلّ هذه الرؤية هي التي جعلته يركّز على الموضوعات الثلاثة. كان يريد إعادة بناء الجيش وإعادة التسليح والتدريب بشكل أفضل مما كان قبل ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧. ولأنه حريص على ذلك فإنه أصبح يعالج العلاقات المصرية ـ السوفياتية بكثير من الدقة. ولأنه حريص على ذلك أيضاً فإنه فضّل أن يعالج شخصياً مسألة العلاقات العربية. والموضوعات الثلاثة، كما نلاحظ، متصلة بعضها بالبعض. وهي بمثابة روافد تصبّ في نهر واحد هو المعركة التي شعر عبد الناصر بعد الخروج الجماهيري يومي ٩ و١٠ حزيران/يونيو ١٩٦٧ ان عليه التحضير لها»[١٩٧].

---

(١٩٧) مطر، المصدر نفسه، ص ١٨٨.

ويستخلص مما تقدم ذكره، ان انتفاضة الشعب في مظاهراته ليومين متتالين كانت هي النقطة المحورية في التحول الفكري الجديد لدى عبد الناصر [198]. لقد كان الرجل صادقاً، كقائد وكإنسان، في تكريسه بقية حياته للإيفاء بالمهمات التي نذَر نفسه وطاقاته جميعاً لها.

يقول عبد الناصر: «إن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لي أمرٌ لا يرد . . . أيديكم معي ولنبدأ مهمتنا العاجلة. . إنني أعطي لهذا الوطن راضياً وفخوراً كلّ ما لديّ من الحياة الى آخر نفس فيها. . إن الآلام العظيمة تصنع الأمم العظيمة اذا وعت أسبابها، واستفادت من دروسها»[199].

وانطلاقاً من هذه المقولة في المحنة العظيمة، انطلق عبد الناصر محاولاً، بشكل مبكر، الإفادة من هذه الدروس، جاعلاً رأي الشعب المعلن في مظاهراته، في أعظم استفتاء شعبي في مصر حتى ذلك الوقت، النقطة المحورية في رؤيته وعمله السياسي اللاحق وخطه النضالي عموماً حتى وفاته في عام ١٩٧٠: «لقد كان موقف جماهير شعبنا يوم ٩ و١٠ يونيو هو التعبير الحي عن الإيمان بالنفس، وبسلامة الخط النضالي وبالمبادىء. والله ان هذا الموقف كان هو بذاته نقطة التحول في الأزمة، إنّ هذا الموقف كان هو الحدّ الفاصل بين الظلام الذي أطبق علينا وبين الضياء الذي أمسكنا بخيوطه، ورحنا ننسج منها نهاراً جديداً أكثر إشراقاً، وأكثر مدعاةً إلى الأمل. إن شعبنا بهذا الموقف أثبت ان رقعةً من أرضه قد تسقط تحت احتلال العدو، ولكن أي رقعة من إرادته ليست قابلة للسقوط تحت أي احتلال، وإرادة الشعب ليست أي رقعة من الأرض، هي القول الفصل، وهي الفارق بين القبول بالهزيمة والاستسلام لها، وبين التصميم على المقاومة والإصرار عليها حتى يمكن استعادة رقعة الأرض المحتلة، واستعادة النصر الضائع، وان تقع رقعة من أرض الوطن أسيرة في يد عدو زوّد بإمكانيات تفوق طاقته، فهذه ليست الهزيمة الحقيقية، ولا هي النصر الحقيقي للعدو. وان تقع إرادة الشعب أسيرة في يد هذا العدو. . . فهذه هي الهزيمة الحقيقية، وهذا هو النصر الحقيقي للعدو. . . وان يفاجئنا العدو بقوة لم نحسن تقديرها، ولم نحسن مواجهتها فليست هذه هي الهزيمة»[200].

---

(١٩٨) مطاع صفدي، ناصر الناصرية والثورة العربية (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠)، ص ١٩٤؛ عودة، عبد الناصر والاستعمار العالمي، ص ٣٤٤ و٤٧٩ ـ ٤٨٠، وغالي شكري، «الناصرية حركة تاريخية وعلامة فارقة بين عصرين،» آفاق عربية، السنة ١٥، العدد ٣ (آذار/مارس ١٩٩٠)، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(١٩٩) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر إلى الأمة حول تنحيه عن رئاسة الجمهورية مساء يوم ٩ يونيو (حزيران) ١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ١، الوثيقة رقم ٢٨٠، ص ٤٠٩ ـ ٤١١، والأهرام، ١٠/ ١٩٦٧/٦.

(٢٠٠) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في حفل افتتاح الدورة الخامسة لمجلس الأمة، القاهرة، =

وفي تحليل المقتطفين اللذين أوردناهما من خطابي الرئيس عبد الناصر يتضح التصميم الاستثنائي لديه على إزالة آثار العدوان، والثأر للإهانة التي لحقت بجيش مصر ودولتها جرّاء النكسة الحزيرانية الموجعة، مثلما يتضح مفهوم عبد الناصر لجوهر النكسة باعتبار ان هزيمة الإرادة المصرية - وهذا أمر لم يقع - هي الهزيمة الحقيقية، أما احتلال هذه الرقعة أو تلك من أرض الوطن فهذا ما وقع فعلاً، وسيظل تحرير هذه الرقعة وإعادتها الى الوطن مسألة وقت ليس إلا، مع التحضير الدقيق لإعادة بناء القوة الضاربة للجيش وقدراته التقنية الحديثة. وفضلاً عن ذلك، يتضح من الخطاب في مجلس الأمة اعتراف عبد الناصر بالخطأ في تقدير قوة العدو، والخطأ في آلية مواجهتها، وهذا الاعتراف يتصل بخطابه في ٩ حزيران/يونيو ١٩٦٧ الذي عرضنا مقتطفاً منه، حيث أكّد ان الأمم تظل عظيمة بمقدار وعيها اسباب نكساتها وإفادتها من دروسها.

لا بد لنا في دراسة التطورات التي ألّمت بالرؤية الفكرية الناصرية، بعد النكسة الحزيرانية، من التوقف ولو قليلاً - وبمقدار اتصال ذلك بموضوع بحثنا - عند الأسباب الحقيقية للنكسة، ومَدَيات إدراك عبد الناصر لذلك. إن هذه الأسباب يمكن تلخيصها في أسباب تتعلق بالرؤية الاستراتيجية للصراع والقيادة، والأسباب العسكرية، ودور جهاز الدولة البيروقراطي والثورة المضادة، والأسباب الاقتصادية، والتنسيق والتحالفات العربية والدولية[٢٠١].

فالخلل في الرؤية الاستراتيجية الناصرية (رؤية عبد الناصر ذاته) للقيادة يتركز في آلية العمل وتسيير أمور الدولة. فالقيادة الناصرية كانت تنزع نحو السلطوية، واعتمدت على العسكر، وذهنية العسكر، ولم تسمح بالتعددية والحزبية والرأي الآخر. ويفسر عدد من الباحثين المعاصرين مسألة الاعتماد على العسكر، بالتكوين الذهني - الفكري العسكري لعبد الناصر نفسه.

= ٢٣/١١/١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٥١٥، ص ٧١٥، والأهرام، ٢٤/١١/١٩٦٧.

(٢٠١) محمود رياض، مذكرات محمود رياض، ١٩٤٨ - ١٩٧٨: **البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، ص ٣٦ - ١٢٥؛ عبد المجيد فريد، معد، **من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ - ١٩٧٠** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٧٩)، ص ٢٨٨ - ٢٩٣؛ عبد الله إمام، **صلاح نصر يتذكر: المخابرات والثورة** (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٤)، ص ٩٧ - ١٢١؛ إمام، **ناصر وعامر**، ص ٢٠٣ - ٢١٠؛ محمد السيد سليم، **التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية**، سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣)، ص ٣٠٥ - ٣١٦، و Lacouture, *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World*, pp. 135-136.

ومن مظاهر الخلل في الرؤية الاستراتيجية الناصرية أن الرئيس عبد الناصر خاض حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ وعبد الحكيم عامر، الذي لم يكن مقتنعاً هو به، على قمة القيادة العامة للقوات المسلحة.

لقد دخل عبد الناصر هذه الحرب بتشكيلة غريبة وآلية لا تصلح لمجابهة حقيقية مع عدو متفوق تقنياً بما لا يقاس، مدعوم بتحالف استراتيجي حقيقي مع الولايات المتحدة الأمريكية، وبدلاً من أن تكون القيادة العامة للقوات المسلحة بيده هو رئيس الجمهورية، قائد الثورة والدولة، فانه تركها إلى عامر وزمرته البرجوازية العسكرية البيروقراطية، وكان الإعلام الناصري قاصراً تماماً، مع انه ينبغي ان يكون الأقوى باعتباره إعلام القضية العادلة، وإعلام الثورة وحركة التحرر العربي، فقد كان يأتمر بأوامر العسكر، ويلبي مطالب هذه الطبقة الجديدة، ويدغدغ غرور واستعلاء الشرائح القيادية العسكرية والمدنية المتحكمة.

أما الأسباب العسكرية فهي بالطبع وثيقة الصلة بالتخطيط والقيادة. فقد سلم عبد الناصر قيادة الجيش والقوات المسلحة عموماً إلى عبد الحكيم عامر، الذي يقول فيه هيكل: «وكان أحبهم إلى قلبه لبعض الفترات ونتيجة للظروف عبد الحكيم عامر. وأعتقد ان جزءاً من مأساة ١٩٦٧ كان حبه لعبد الحكيم عامر. ذلك ان هذا الحب حال دون ان يقتنع عبد الناصر بدرجة كافية ان عبد الحكيم عامر لا يصلح للقيادة. ان عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمي ولطيفاً جداً، ولكنه عسكرياً توقف عند رتبة صاغ، اي انه يستطيع ان يقود كتيبة لكنه لا يستطيع ان يقود جيشاً، لقد اصبح عبد الحكيم عامر ضابطاً سياسياً. والضابط السياسي لا يمكن ان يكون مسؤولاً عن قيادة جيوش»[٢٠٢]. وواضح من كل هذا مسؤولية عبد الناصر الكلية عن النكسة. صحيح انه لم يكن القائد العام للقوات المسلحة، وهذه خطيئة سياسية استراتيجية، لان قائد الثورة وقائد البلاد ينبغي ان يكون هو قائد قوات هذه البلاد في حالة الحرب، لكن تسليمه قيادة القوات المصرية الى مثل هذا العنصر الضعيف عسكرياً، المتذبذب سياسياً، يضعه موضع المسؤولية المباشرة عن النكسة، لأن المقدمات التي عرضنا لها تقود الى مثل هذه النتائج. وإذا استشرنا هيكل فسنجده يقول:

«عندما حشد عبد الناصر القوات كان يعتقد ان احتمال قيام الحرب وارد. وهو عندما أخرج القوات الدولية، وأغلق خليج العقبة تعامل مع العالم باللغة الدولية، بمعنى انه بعد الذي فعله يجب الا يهاجم اسرائيل، انما ينتظر ما اذا كانت اسرائيل

---

(٢٠٢) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٩٢.

ستبدأ الهجوم. بمنطق الاستراتيجية الدولية يبدو ما فعله عبد الناصر صحيحاً، اي انه لم يهاجم، وأن خيار الهجوم لم يكن في يد عبد الناصر. لقد اتخذ اجراءات، ومن الطبيعي ان تهاجم اسرائيل. اذاً عليه ان يكون مستعداً ليدافع، ولو ان عبد الناصر بعدما أخرج القوات الدولية وأغلق خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية، هاجم اسرائيل فإن العالم كله كان سيقف ضده. لم يكن عبد الناصر ينوي مهاجمة اسرائيل، وهو أعلن نفسه ذلك رسمياً وبوضوح. وكان طبيعياً من أجل معركته السياسية ألا تأتي الضربة الأولى منه، إنما واجبه ان يستوعب هذه الضربة ويرد عليها. وكان في تصوره ان الدفاع الناجح له قوة الهجوم، بمعنى انه إذا كانت اسرائيل ستهجم لتحقيق هدف ما، واستطاعت مصر ان تصد هذا الهجوم، وتمنع الاسرائيليين من تحقيق الهدف، فإن مصر تكون قد انتصرت. فالحرب بالمفهوم القديم لم تعد واردة. الحرب بمنطق الفرسان والمنطق القبلي انتهت، وأصبح الأمر أكثر تعقيداً. وعندما اتخذ عبد الناصر الإجراءات التي اتخذها كان يتصور ان الجيش المصري قادر على الدفاع، على الأقل في عدد من الخطوط. وهو ردد أكثر من مرة ان القوات المصرية قادرة على الدفاع في أسوأ الظروف عن خط المضائق. وما حدث في حرب ١٩٦٧ كان انهياراً في القيادة العسكرية. وبعدما وجد ان الهزيمة حدثت قرر ان يتنحى لأنه اعتبر نفسه مسؤولاً سياسياً عما حدث. ووضع نفسه في تصرف الجماهير»[٢٠٣].

ان من الواضح، من كل هذا، ان عبد الناصر مسؤول عن الهزيمة، وخصوصاً إذا أشرنا إلى تصريحه انه لم يحسن تقدير قوة العدو، ولم يعد للأمر عدته. اما عامر فلم يكن قائداً بمعنى الكلمة، بل لم يكن مقاتلاً، بأية حال، وكانت النتيجة «ان الجيش لم يقاتل»، لقد كان قطباً للبرجوازية البيروقراطية العسكرية، وكان مشغولاً بالصفقات والعوائد والحياة المريحة واللهو وإنشاء (دولته العسكرية) داخل الدولة الناصرية، وكانت النتيجة كارثية، بالطبع، ليس بالنسبة للجيش فحسب، بل لمصر وللأمة والوطن العربي، وللناصرية، والفكر الناصري في تطبيقاته في تلك المرحلة. لقد اتسمت قيادة عامر العسكرية بالبيروقراطية والتعالي على الاستشارة العسكرية والخبراء العاملين في ملاك القوات المصرية. فعامر الذي منع الضباط المصريين من الانتساب الى الاتحاد الاشتراكي العربي المصري، اتخذ أيضاً موقفاً غاية في التعالي تجاه الخبرة الفنية السوفياتية قبل حرب حزيران/ يونيو[٢٠٤]. ولحسم هذه المسألة نشير إلى ما يقوله

---

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٢٠٤) محمد فوزي، حرب الثلاث سنوات، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠: مذكرات الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية الأسبق (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣)، ص ٩ ـ ٣٦؛ إمام، ناصر وعامر، ص ١٧٠ ـ ١٧٨؛ عبد العظيم رمضان، تحطيم الآلهة: قصة حرب يونيه ١٩٦٧، إشراف راوية عبد العظيم (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥)، ص ٩٩؛ أجاريشيف، جمال عبد الناصر، ترجمة سامي عمارة (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٣)، ص ١٦٨، و Lacouture, Ibid., p. 129.

ايغور تيموفييف: «... لتوضيح هذه المسألة لا بد من القول ان إعداد مصر للحرب لم يكن ضمن واجبات الخبراء السوفيات، فطبقاً للاتفاقيات التي عُمِلَ بها وقتها كانت دائرة اختصاص الخبراء العسكريين أضيق من ذلك كثيراً، واقتصرت أساساً على تقديم العون للعسكريين المصريين في نصب وضبط وتشغيل المعدات الحربية السوفياتية، وفي إلقاء المحاضرات وتنظيم الدورات في مراكز التدريب وتعليم الأفراد كيفية اجراء الصيانة الدورية... هذا فضلاً عن أن آراء الخبراء أو توصياتهم لم تكن ملزمة. وإذا أضفنا الى ذلك ان المشير عبد الحكيم عامر، وعدداً من كبار القادة العسكريين المصريين شجعوا الضباط على عدم إطلاع الخبراء السوفيات على المسائل التي تخرج من نطاق اختصاصاتهم المحدودة، وعلى تضييق دائرة درايتهم ومجال نشاطاتهم إلى أقل حد ممكن، يصبح واضحاً تماماً، انه حتى عام ١٩٦٧ كان الخبراء السوفيات في أنظار المصريين مجرد فنيين. وفي هذه الحالة من البديهي انه لم يكن في مقدورهم الاضطلاع بأي مسؤوليات بالنسبة الى الوضع العام للقوات المسلحة»[٢٠٥].

ويمكن ان نضيف إلى أخطاء عامر في القيادة أخطاءً أخرى، منها عدم إيلائه الاهتمام المطلوب الى سلاح الدفاع الجوي، فقبل حرب ١٩٦٧ وفي أثنائها لم يكن لقوات الدفاع الجوي وجود كسلاح مستقل من أسلحة القوات المسلحة المصرية ـ البرية والبحرية والجوية ـ بل كانت هناك فرق وألوية وأفواج مضادة للطائرات، مسلحة بالمدافع المضادة للجو وبالصواريخ، تدخل في عداد السلاح الجوي وتابعة لقائده، الذي اتضح فيما بعد انه لم يكن يعير اهتماماً للتعاون بين الطائرات المقاتلة والدفاع الجوي. وفي شباط/فبراير ١٩٦٨ فحسب، وبتوصية من المستشارين صدر مرسوم الرئيس الخاص الذي يقضي بفصل الدفاع الجوي سلاحاً مستقلاً بذاته. وبالإضافة إلى ذلك اعتمدت في عشية حرب حزيران/يونيو الخطة الهجومية القاضية بأن تبدأ مصر العمليات القتالية وتقوم بها على أراضي اسرائيل أساساً. ولم تراعِ هذه الخطة مقتضيات الفن الحربي، وكانت تنطوي على مقدمات إخفاق الجيش المصري في حزيران/يونيو ١٩٦٧، بل انها في الواقع هي التي حسمت سلفاً مصير المعركة وهزيمة الجيش المصري[٢٠٦].

ويضيف تيموفييف ان هذه الخطة (قاهر) حافلة بالهفوات والأخطاء الفاحشة التي حكمت عليها سلفاً بالفشل. وفي مقدمة تلك الأخطاء التصور السطحي عن حالة الجيش الإسرائيلي الفعلية، وعدم وجود تصور متكامل عن المستوى الفعلي للكفاءة القتالية للقوات المسلحة المصرية. كما ان خطة قاهر لم تنص على أية ضربة

(٢٠٥) تيموفييف، **الطريق إلى رمضان**، ص ١١٨.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨ و١٣٦.

جوية مركزة على مطارات العدو، في حين ان الاسطول المصري المتفوق عدداً وعدة على الاسطول الاسرائيلي لم يشارك في العمليات اطلاقاً. ولازمت هيئة أركان حرب القوات المسلحة، التي لم تكن لديها امكانية قيادة الجيش، القاهرة طوال أيام الحرب، فلقد اضطلعت بمهماتها مجموعة قيادة شكلها عامر على عجل، «وكانت تعليماتها وتوجيهاتها المتناقضة وغير المدروسة لا تؤدي إلى شيء سوى زيادة البلبلة والفوضى في تحركات الوحدات المصرية. ومن المعروف ان هذه المأساة بلغت ذروتها حينما اتخذ المشير قراره الطائش عسكرياً بسحب الجيش المصري الى غرب القناة...»[٢٠٧]. ويضاف الى كل ما تقدم ان قوات كبيرة من الجيش المصري كانت مرابطة في اليمن، لم يجر استدعاؤها. وكان كل هذا الضعف والهشاشة مقابل جيش مدرب بتقنية عسكرية متطورة، وشبكة كشف راداري محكمة التنظيم، وخبرة امريكية عاملة، وتغلغل مخابراتي في الأرض المصرية، ومعلومات استطلاعية دقيقة يسهم فيها الاسطول السادس[٢٠٨].

وثمة أسباب مهمة أخرى اسهمت في النكسة وهي دور الدولة، وأسباب اقتصادية واجتماعية. فالدولة الناصرية هي نتاج الرؤية الفكرية ـ السياسية الناصرية، وتجسيد للفكر الناصري، بمختلف مراحل تطوّره. ولأن ثورة تموز/يوليو نفّذها الجيش (تنظيم الضباط الأحرار) بقيادة عبد الناصر، ولأن مخطّطات الثورة تنفّذها الدولة طبقاً لآلية الاصلاح الفوقي، فإن النتيجة كانت تسهيل هيمنة البيروقراطية على جهاز الدولة الكبير، وعلى جميع المرافق والمفاصل في هذا الجهاز ومتعلّقاته، والمنظمات المرتبطة به، والمتعاونة معه، والعاملة في خدمته كالجمعيات والاتحادات والنقابات والتنظيمات الشعبية، بما في ذلك الاتحاد الاشتراكي. يقول الدكتور فؤاد مرسي ان الثورة أبقت على جهاز الدولة كما هو وبلا تغيير يُذكر، في الوقت الذي حيل بين الجماهير العاملة صاحبة المصلحة في التغيير الثوري، وبين حرية الحركة السياسية. ومن ثم فلقد فقدت القدرة على المبادرة السياسية والعمل السياسي المنظم. وفي الوقت نفسه، وبعد تعدّد الاصلاحات الزراعية، وقيام وتوسّع القطّاع العام أخذت الرأسمالية الريفية تنمو قدماً على حساب منجزات الثورة للفلاحين. هذا بينما كانت الطبقة الجديدة التي تشكّلت بصفة خاصة حول نواتها من البيروقراطية العسكرية قد نمت نمواً بعيداً داخل أجهزة الدولة كافة. وانضمّ القطاع العام الى أجهزة الدولة بعد سيطرة الدولة على الاقتصاد والسير في التنمية المخطّطة. لقد صار جهاز الدولة يحتوي سلطة الدولة بالكامل. فالجيش يمثل قاعدة السلطة السياسية بوصفه قوة التغيير. والمخابرات ومدرسة الكادر

---

(٢٠٧) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

(٢٠٨) هويدي، حروب عبد الناصر، ص ١٤٦ ـ ١٤٧، وأحمد، الدور المصري في اليمن، ١٩٦٢ ـ ١٩٧٠، ص ٤٢٠ ـ ٤٨٠.

لتخريج القيادات السياسية. والقطاع العام يجمع بين البيروقراطيين والتكنوقراطيين لقيادة الاقتصاد. والاتحاد الاشتراكي تنظيم لقياس الرأي العام واستيعاب الحركة السياسية للطبقات العاملة.[٢٠٩]. أدى ذلك إلى أن تزداد المقاومة الكامنة داخل جهاز الدولة الذي أصبح حافلاً بالتناقضات. كما أن الثورة لم تستطع حسم هذه التناقضات، بل على العكس تفاقمت منذ العجز عن متابعة الخطة الخمسية الثانية، وما أعقبها من هزيمة عسكرية فادحة في حزيران ١٩٦٧ «وهي هزيمة ساهمت في إحداثها الطبقة الجديدة وتطلّعاتها الجديدة». ويتصل ذلك بتغييب الديمقراطية، وتغييب الجماهير، ذلك ان «المجموعة الناصرية قد ساهمت من جانبها في عملية تغييب الجماهير بإيثارها الأسلوب التآمري على الأسلوب العلني»[٢١٠].

يثير عدد من الباحثين المصريين المعاصرين مسألة دور البيروقراطية في النكسة، والمصاعب التي كانت تلقاها الجماهير والثورة في تطورها، ويجعلون ذلك الدور بالغ الأهمية والحسم في الهزيمة، ذلك ان ظَهر الجيش لم يكن محمياً، فالجبهة الداخلية كانت تعاني من الخرق والتوتّر والتناقضات غير المحسومة. والواقع ان البيروقراطية كانت خطراً جسيماً على الثورة. من المفهوم انه كانت هناك حاجة ماسّة الى دور الدولة، غير ان أجهزة الدولة كانت تميل الى «توسيع المسافة بينها وبين المجتمع، لكي تصبح قوة مستقلة عن الشعب تهدد بوضع مصالحها هي فوق مصالح المجتمع». في مقارنة موفقة له يقول الدكتور فؤاد المرسي بهذا الصدد: «وكان لينين بعد الثورة الاشتراكية يرى انه طالما بقي تقسيم الوظائف إلى إدارية وتنفيذية، وطالما وجد مُديرون ومُدارون فإن البيروقراطية سوف تمثّل خطراً. ومن الواضح ان ستالين قد تجاهل هذه الأفكار، وحكم بالأساليب الإدارية من أعلى، مما أطلق مرحلة نمو البيروقراطية في الاتحاد السوفياتي، وجعل منها القوّة الاجتماعية الرئيسة في آليّة كبح وتعويق الديمقراطية والاشتراكية. وقد لعبت البيروقراطية في سلطة الدولة في مصر دوراً قريباً مما لعبته في ظلّ الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، بل وأعدّت جهاز الدولة ليكون جهازاً لاستيلاء الثورة المضادة عليه، والارتداد على ثورة يوليو، وهو ما عبر عنه البعض في الستينات بانقسام سلطة الدولة وسيطرة الطبقة الجديدة»[٢١١].

وفعلاً ان البيروقراطية هي التي فازت بالسلطة الفعلية في مصر الناصرية، وان الرأسمالية الكومبرادورية، والبيروقراطية البرجوازية العسكرية كانتا عاملاً حاسماً، من

(٢٠٩) فؤاد مرسي، «مفهوم الدولة في ظل الثورة والثورة المضادة في مصر،» **اليقظة العربية**، العدد ٩ (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨)، ص ٧٠.

(٢١٠) المصدر نفسه، ص ٧٢ و٧٥.

(٢١١) المصدر نفسه، ص ٧٣.

عوامل الهزيمة. ففي ظلّهما تم تحويل حرب اليمن الى حرب استنزاف اقتصادي لمصر. وتم وقف المعونة الامريكية من القمح، وفرض حصار اقتصادي على مصر. وبدأت حملة واسعة لاستغلال أخطاء القطاع العام وأخطاء التنمية وأخطاء التخطيط وتحويلها الى خطايا يجب ان تلغي التجربة. وساعدت البداية الرأسمالية للخطّة الخمسية الأولى، والإدارة الرأسمالية للقطاع العام، والأوضاع السلبية للجماهير نتيجة السياسة المعادية للديمقراطية، ساعدت جميعاً على «تبديد جزء كبير من الفائض الاقتصادي المتولّد في القطّاع العام، وتحويله الى ثروات خاصة لأفراد الطبقة الجديدة التي نجحت، بوسائل شتى، في منع النظام من تحميلها بأي أعباء جدية تفرضها أي تنمية حقيقية، وعجزت الدولة عن تعبئة الموارد الضرورية للتنمية ومن ثم تفاقمت الحملة على القطاع العام نفسه... ونجحت الامبريالية العالمية، بزعامة امريكا، في تفجير حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. ولقد تكفلت هذه الحرب عندئذ وفيما بعد وحتى اليوم بإجراء اللازم، ليس فقط بوقف التنمية المخططة، وليس فقط بالتراجع عن أسلوب التخطيط، وإنما أيضاً بوقف كل تنمية سواءً كانت مخططة ام غير مخططة!»[٢١٢].

هكذا كانت اللوحة الحقيقية للجبهة الداخلية التي كان مفروضاً فيها انها قد أُعدّت إعداداً جيداً، لتكون المؤخّرة المتينة لحرب حاسمة ضد عدو رفيع التسليح والتقنية والتدريب، ويحظى بالدعم الأمريكي. وكان التضليل الدعائي عنصراً وظّفته البيروقراطية الادارية والاقتصادية، بمكر، لذر الرماد في العيون، ولتغطية الثغرات الكبيرة في الجبهة الداخلية.

ومع ذلك كله ظل شعب مصر على وفائه للثورة، برغم كل إفرازات النظام هذه، فقد كان يدافع عن أعظم ما يملك، عن الوطن، وغفر حتى لمسؤولي النظام كل ما حصل، وكل ما جاءت به الكارثة: «لكن شعب مصر كان اكثر وعياً من حكّامه... وتناسى الخديعة... تناسى كلّ الأخطاء وما هو اكثر من الأخطاء، وانطلق في أعقاب إعلان عبد الناصر استقالته ليصنع موقفاً تاريخياً بالغ الروعة. وفي دقائق امتلأت الشوارع بالجموع الحزينة، الفقيرة، المضطهدة، التي سُلب منها حقها في ان تتنفس وان تتكلم بحرية، والتي أُجبرت على ابتلاع الخداع والأكاذيب، وعلى التظاهر بتصديقها... مصر جاءت اليوم لتغفر للمخطئين من أبنائها، ليس عن طيبة قلب وإنما عن وعي. وتكلّمت مصر... وأنصت التاريخ باهتمام ودهشة، فقد كانت كلمتها غير متوقّعة... لقد وقفت، مرة أخرى، مع عبد الناصر... رغم كل شيء... ورغم الهزيمة»[٢١٣].

وفي خضم ذلك يظهر واقع الاصطفاف الفكري، فقد فرح الاقطاعيون، مثلاً،

---

(٢١٢) فؤاد مرسي، **هذا الانفتاح الاقتصادي**، ط ٢ (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٠)، ص ٦٧.

(٢١٣) شهدي، **تأملات... في الناصرية**، ص ٢٦.

وشمتوا، ووصفوا عبد الناصر بالمجرم، ودعوا إلى إسقاطه، بينما كان الفلاح المصري يرد على هذه الشماتة، التي يرى دافعها الحقيقي في قوانين الاصلاح الزراعي، فيقف الى جانب صاحب تلك القوانين في هزيمته، بوعي فطري، ليكون ذلك «دليلاً قاطعاً على قوة عبد الناصر، وإيجابياته تجاه الجماهير»[٢١٤]. فكان عليه ان يعمل، ويفكر من أجل إيجاد مخرج للمأزق.

رابعاً: ما العمل؟

في سياق الجواب عن هذا السؤال يمكن لنا ان نعرف كيف تطوّر فكر عبد الناصر بعد الكارثة، وما هي معالم التحول الفكري الملموسة على أرض الواقع. لقد سبق أن أشرنا الى تعمّق بصيرته السياسية بعد الكارثة، حيث باتت أكثر واقعية، وأشدّ قدرة على تلمّس الأخطاء وتصحيحها، وبالطبع بما تحتمله ذهنية ناصر في مثل خلفية المتغيرات والمستجدات التي ألّمت بخارطة الوطن والفكر السياسي والتاريخي بعد الكارثة. لقد استأنف عبد الناصر قيادة الدولة في الحادي عشر من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وكان مطالباً فكرياً وسياسياً، وعلى صعيد الدولة وإدارتها، وهي الدولة التي ما زالت تمثل دولة ثورة يوليو وفكر عبد الناصر، كان مطالباً بتقديم طفرة نوعية في حياة الجماهير التي نصرته في محنته العظمى، وفي كارثته وكارثة البلاد والوطن العربي. وكما مرّ بنا آنفاً كانت المحاور الاستراتيجية الثلاثة تنتظم فكره في هذه المرحلة الجديدة، مرحلة ما بعد حزيران/يونيو: وهذه المحاور هي إعداد القوات المسلحة للحرب، والعلاقات المصرية ـ السوفياتية، والعلاقات العربية. كان يريد التحول النوعي بمعنى التغيير الأساسي، أي ترجمة تحوّلاته الفكرية هو الى واقع جديد. وقد بدأ بإحداث هذا التغيير في قيادة القوات المسلحة، بمراسيم جمهورية، قرر فيها قبول استقالتي عامر وشمس بدران، وطرد بعض قيادات الجيش، وتعيين قيادة عسكرية عليا جديدة في الحادي عشر من حزيران/يونيو ١٩٦٧. وظهرت معالم التحول الفكري في ذهنية عبد الناصر وإرادته يوم أصرّ على إبعاد عامر نهائياً عن الجيش، وإن ظهر شيء من آثار العلاقة الخاصة بعامر، في استعداد عبد الناصر لتعيين عامر نائباً لرئيس الجمهورية مقابل ابتعاده عن الجيش. وشكّل عبد الناصر حكومته الجديدة مقتصرةً، أساساً، على بعض أنصاره مثل زكريا محيي الدين وعبد المنعم القيسوني[٢١٥]. وانعكس الاستقطاب الفكري الجديد في صراع حاد بلغ حدّ محاولة

---

(٢١٤) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٢١٥) إمام، ناصر وعامر، ص ١٩٢ ـ ٢٠٠؛ فريد، معد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠، ص ٢٨٨، وأسعد عبد الرحمن، الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية (الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٧)، ص ١٤٤.

القيام بانقلاب عسكري يهدف الى إجبار الرئيس عبد الناصر على تعيين عامر نائباً للقوات المسلحة، وتم اكتشاف المؤامرة في السابع والعشرين من آب/أغسطس ١٩٦٧ قبل أيام من قيامها[٢١٦]. واثر اكتشاف المؤامرة وضع عامر وصلاح نصر تحت الإقامة الجبرية في منزليهما، واقتيد شمس بدران الى السجن، وبعد اسبوعين انتحر عبد الحكيم عامر، وفي شباط/فبراير ١٩٦٨ حوكم شمس بدران امام محكمة الثورة، وحكم على المتهمين الرئيسيين الخمسة. وفكرياً وقانونياً وسياسياً أُدين شمس بدران باعتباره الرجل الذي استخدم، منذ عام ١٩٦٢، القوات المسلحة لطموحاته الخاصة، أما صلاح نصر فقد تمّت إدانته على اساس استغلاله موقعه، في الفترة ١٩٦٢ - ١٩٦٧، لمكاسب شخصية وتشويه سمعته. أما عامر نفسه فبسبب موته المفاجىء، وبسبب علاقته الخاصة بالرئيس عبد الناصر، تمت تبرئته وإدانته في وقت واحد، على أساس انه انسان يمتلك مقومات ضعف كسائر البشر!![٢١٧]. وعلى الصعيد الفكري والإعلامي أعلن الرئيس عبد الناصر، بنفسه، تصفية المغامرين الذين لم يكن يهمهم الا مصالحهم[٢١٨]، وكانوا يشكّلون عقبة امام التطور المستقبلي للبلاد باعتبارهم مركز القوة الرجعية. وقد أثارت الأحكام بحق مسؤولي الهزيمة العسكرية، والمهانة التي لحقت بالوطن والجيش، والكارثة الشاملة، غضب الجماهير، وكانت السبب في اندلاع مظاهرات عمالية صاخبة في حلوان، في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٦٨، ما لبثت الجماهير الطلابية ان شاركتها وآزرتها، وكان ذلك تعبيراً عن الاحتجاج على كون الأحكام مخففة، ومطالبة، في الوقت ذاته، بإعادة المحاكمة وإعدام مسؤولي الكارثة[٢١٩]. وبالفعل صرّح الفريق محمد فوزي وزير الحربية بإعادة النظر في ٢٥ شباط/فبراير في هذه الأحكام واعتبارها ملغاة[٢٢٠]. وتفرّغ عبد الناصر لإعادة بناء الجيش، وللإعداد للعبور في عام ١٩٧٠. وكان التطور الفكري الناصري هنا لافتاً للنظر، فهو لا يترجم «الثأر» الصعيدي للإهانة التي لحقت بشخص عبد الناصر، بل يترجم ثأر الوطن والأمة، ويُعنون لمرحلة جادّة في المجابهة على مستويات أرفع من ذي قبل، تكريساً وتجسيداً للمبدأ الناصري الجديد «ما أُخذ بالقوة لا يُستردُ إلا بالقوّة»[٢٢١]. ويشكل

---

(٢١٦) إمام، المصدر نفسه، ص ١٩٢ - ٢٠٠؛ فوزي، حرب الثلاث سنوات، ١٩٦٧ - ١٩٧٠: مذكرات الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية الأسبق، ص ٤٧ - ٤٨، ومصطفى، حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية، ص ٣٤ - ٣٦.

(٢١٧) فريد، معد، المصدر نفسه، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، وإمام، صلاح نصر يتذكر: المخابرات والثورة، ص ٩٧ - ١٢١.

(٢١٨) إمام، ناصر وعامر، ص ٢٠٣ - ٢١٠.

(٢١٩) الحركة الديمقراطية الجديدة في مصر: تحليل ووثائق، مجموعة من المناضلين (القاهرة: دار ابن خلدون، [د. ت.])، ص ٦٤.

(٢٢٠) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ - ١٩٧٣، ص ٩٧.

(٢٢١) حسين فهمي، النموذج الناصري للتنمية المستقلة، مطلوب الخروج من التبعية، سلسلة كتاب =

كل هذا، في الواقع، امتداداً لعقيدة ناصر في الاستقلال والتطور الوطني المستقل في ظروف بالغة التعقيد.

لقد استطاع عبد الناصر، فكراً وقيادةً وثورةً ودولةً، ان يواصل تحدي الامبريالية والصهيونية والرجعية. والحق انه استطاع، بمقوّماته القيادية التاريخية، ان يكون «تعبيراً عن القومية العربية» في فترة الخمسينيات ـ الستينيات من القرن العشرين. وينبغي التذكير بمقولته التي أثبتها هيكل «إنني مجرد تعبير عن القومية العربية في مرحلة من المراحل»[٢٢٢]. وكانت مرحلته قائداً ورمزاً للثورة العربية. وكان عبد الناصر في محنته، وفي فترة استئنافه القيادة يؤكد، مدعوماً بالحقائق والوقائع التاريخية، وليس بالإرادة الذاتية وحدها، ان الأمة العربية تمتلك مقومات التحرير[٢٢٣]، وانها «سوف تتعلم من كل ساعة من ساعات الأزمة أكثر وأعمق مما تتعلمه في سنة من سنوات الرخاء . . . ذلك لا غنى عنه، ولا بديل له، لأنه طريق الأمة العربية الوحيد الى الحياة والى شرف الحياة»[٢٢٤]. وقد استطاع عبد الناصر، في النهاية، وضع برنامج واقعي معتمد لمجابهة العدوان[٢٢٥].

وكانت الفقرة الأولى في برنامجه تقوم على كشف الحقائق للشعب. فقد كشفت النكسة تناقضات خطيرة كانت تطفو على السطح غالباً، ولكن البيروقراطية كانت تعتم عليها أو تزور تفسيرها الموضوعي. وكان في مقدمة هذه التناقضات التناقض بين مبادىء الثورة وأدوات تطبيقها[٢٢٦]. فقد كانت العناصر المسؤولة في المفاصل القيادية للدولة والمجتمع اما غير مؤمنة أصلاً بالنهج الاشتراكي الناصري، أو غير قادرة على استيعابه. وهذا ما عبّر عنه عبد الناصر بقوله «كنا نطبق الاشتراكية بغير اشتراكيين».

= الغد العربي؛ العدد ١ ([د. م.: د. ن.]، ١٩٩٠)، ص ١٣٧.

(٢٢٢) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٩٨.

(٢٢٣) هيكل، لمصر. . لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢٢٤) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الدولي للبرلمانيين، القاهرة، ٢/ ٢/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٤، ص ٦٤، والأهرام، ٣/٢/١٩٧٠.

(٢٢٥) عبد الله بلال، تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١)، ص ٣٢٠، ومعين توفيق بسيسو، دفاعاً عن البطل (بيروت: دار العودة، ١٩٧٥)، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢٢٦) السيد سليم، التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية، ص ٩ ـ ١٠ و٢٣، وبرهان غليون، «موضوعات حول الوضع العربي الراهن،» دراسات عربية، السنة ٧، العدد ١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

وكانت النتيجة الوقوع في المزايدات، وهيمنة أجواء النفاق، ضاعت في ضلالها الحقائق وعمت الأخطاء والانحرافات[٢٢٧]. على صعيد آخر، كان النظام يقوم على أساس تنظيم سياسي واحد، لا يسمح للتنظيمات الأخرى بالظهور والعمل، وكانت فلسفته تقوم على نبذ التعددية والرأي الآخر والحوار والمناقشة، وهو أمر مهّد لظهور مراكز القوى وهيمنتها على مفاصل الدولة المهمة، وخصوصاً في القوات المسلحة، حيث بات الولاء للمشير لا للثورة[٢٢٨]. وتقاسمت مراكز القوى هذه مع أجهزة السلطة التقليدية السيطرة على قنوات العمل والانتاج والتنمية والحياة عموماً، حيث باتت الانتهازية هي الغالبية، وحيث يسجن الاشتراكيون الحقيقيون ويعذبون على أيدي زمر رجعية معادية للثورة، لكنها مغلفة بالولاء الشكلي، وحيث تحولت وسائل الإعلام الى أبواق للدعاية[٢٢٩]. فكان على عبد الناصر في المرحلة الجديدة محو هذه الصورة المحزنة، وإزالة آثارها وأسبابها وأدواتها.

وكان في برنامج عبد الناصر الجديد، كذلك، رفض سياسة أنصاف الحلول، واطلاع الشعب، وتعريفه بالواقع بكل تناقضاته. وعلى علاته وكما قال هو: «ان من حق الشعب المصري ان يعرف خفايا الأمور وان يطلع على صوره ولو كانت قاتمة»[٢٣٠]. وبالفعل، برزت الواقعية السياسية والحصافة التاريخية المنتصرة للشعب في مواجهة عبد الناصر لمظاهرات العمال والطلبة المحتجة على الأحكام الخفيفة بحق مسؤولي الكارثة، في شباط/فبراير ١٩٦٨. إن الفارق هنا واضح، بالمقارنة مع ما حدث مع العمال في بداية الثورة، فعبد الناصر الآن يحاورهم ويستمع إلى آرائهم ويوضح لهم، يتبصر أبعاد الموقف والعلاقات مع العمال والطلبة[٢٣١]. وهذا تطور

(٢٢٧) رمضان، تحطيم الآلهة: قصة حرب يونيه ١٩٦٧، ص ١٩ ـ ٢٣، وغالي شكري، «عبد الناصر.. والمثقفون، ثلاث كلمات لغالي شكري،» دراسات عربية، السنة ٧، العدد ١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، ص ١١٠.

(٢٢٨) عبد الرحمن، الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية، ص ١٤٧ ـ ١٤٩، وشكري، المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٢٢٩) شهدي، تأملات... في الناصرية، ص ١٥ ـ ١٧، ومرسي، «مفهوم الدولة في ظل الثورة والثورة المضادة في مصر،» ص ٧١ ـ ٧٧.

(٢٣٠) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في حلوان، ١٩٦٨/٣/٣،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ٢، الوثيقة رقم ٧٥، ص ٨٢ ـ ٩٢، والأهرام، ١٩٦٨/٣/٤.

(٢٣١) سليم، التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، ص ١٣٣ ـ ١٤٥؛ عصمت سيف الدولة، عن الناصريين... وإليهم (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٩)، ص ٤٠ ـ ٤١؛ شوقي عبد الناصر، ثورة عبد الناصر (نيقوسيا، قبرص: دار الموقف العربي، [١٩٨٣؟])، ص ٥٨٩، ومحمد فتحي، «رحلة في عقل رئيس وزراء مصر الأسبق الدكتور عزيز صدقي (حوار)،» الرأي (الأردن)، ١٩٩٥/١/٦، ص ١٢.

فكري مطلوب في مسار قائد عمل في أصعب الظروف التي دفعته الى ارتكاب أخطاء عدة، ولم يكن عبد الناصر قدّيساً، كما كان إعلام الدولة المنافق يهرّج بذلك ليل نهار، بل كان إنساناً له اخطاؤه ومِحَنُه وأحزانه واعترافاته بأخطائه واستعداده لتجاوزها. يقول هيكل «.. ان جمال بعد الناصر له أخطاؤه. ومن يقول ان لا أخطاء لعبد الناصر يكون متجنياً على الانسانية. ولقد أحسن وأخطأ مثل أي زعيم أو قائد تاريخي..»[٢٣٢].

وانطلاقاً من هذه الواقعية الجديدة في فكر وخطاب عبد الناصر السياسي وقراره، قائداً للثورة والدولة وتعبيراً عن القومية العربية في مرحلته، اتخذ عبد الناصر مواقف جديدة نوعياً، لم تكن متوقعة منه، ولا من سواه من الزعماء العرب الحصيفين قبل النكسة، وان لم يعدم التاريخ بعض الأصوات الرائدة، وبعض المنابر الفكرية ـ السياسية، في هذا الصدد. فقد أعلن الرئيس عبد الناصر موافقته على قرار مجلس الأمن المرقم (٢٤٢)[٢٣٣]، وكان ذلك أمراً لا يخلو من الشجاعة، في ذلك الظرف الدقيق، كما كان ولا يزال يمثّل السمة الواقعية الجديدة في الفكر الناصري بعد النكسة[٢٣٤]. وكان الخطاب السياسي الناصري واقعياً، موضوعياً في تحييث القبول بهذا القرار، وربطه بالنكسة ونتائجها ومعطياتها: «مصر قبلت بقرار مجلس الأمن بالاجماع في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، واعتبره المجتمع الدولي كله حلاً للمشكلة، يحد من خطرها، ويحول دون مضاعفات عالمية لها يمكن ان تمتد تأثيراتها الى السلام العالمي بأسره، وكانت مصر في ذلك عند مسؤوليتها تجاه المجتمع الدولي»[٢٣٥].

ويمكن التأكيد أن هذه الواقعية في الفكر السياسي الناصري لم تكن ذات توجهات استسلامية، بل بالعكس كانت عميقة الحصافة والتحسب وبعد النظر. فمنذ استئناف الرئيس عبد الناصر لمهماته القيادية بعد النكسة، وهاجس تحرير الأرض المصرية والعربية المستلبة جرّاء النكسة، يسكنه ويقف وراء كل انعطافة فكرية لديه،

---

(٢٣٢) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢٣٣) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في الدورة الافتتاحية للمؤتمر القومي الرابع للاتحاد الاشتراكي، القاهرة، ٢٣/ ٧/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٧٦، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٥، والأهرام، ٢٤/ ٧/ ١٩٧٠.

(٢٣٤) بلال، تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢٣٥) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الدولي للبرلمانيين، القاهرة، ٢/ ٢/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٤، ص ٦٣، والأهرام، ٣/ ٢/ ١٩٧٠.

وكل قرار يتخذه. لقد بدأ عبد الناصر، حقاً، ملحمة نضالية جديدة في مواجهة تحديات عدوان حزيران/يونيو، مرتكزاً على حقائق أساسية صلبة، مكّنته من الإعداد ليوم التحرير. وقد انعكس ذلك في بيان ٣٠ آذار/مارس ١٩٦٨، وكذلك في خطبه وتصريحاته التي تصور استراتيجيته الجديدة حتى رحيله في عام ١٩٧٠. ان بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ كان بياناً برنامجياً، ترجم فكر عبد الناصر في بواكير حقبة ما بعد النكسة، وتضمن سُبل وآلية العمل المحدد في المرحلة الجديدة[٢٣٦]. فقد نص على وجوب تحشيد القوى، وتعبئة الجماهير باعتبار ذلك أهم أساس للعمل الوطني، فلا يمكن أن يعلو صوت على صوت المعركة، لأن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، وهذا يتطلب إعادة بناء القوات المسلحة، لأن التعويل على السلام بدون إمكانية الدفاع عنه يُعتبر استسلاماً. كما أكّد البيان على أن الديمقراطية هي أساس الحكم، ومن وسائلها اتباع أسلوب الاستفتاء الشعبي، ومن متطلباتها إسقاط مراكز القوى التي ظهرت منذ عام ١٩٥٦، والتي وقفت في وجه عملية التطور والتقدم خوفاً من ضياع نفوذها، وكانت عاملاً أساسياً من عوامل النكسة، مع إحاطة الجماهير بصورة كاملة بانحرافات المرحلة السابقة، وأخطائها، وفضح المسؤولين المنحرفين عن ذلك، وعزلهم عن المجتمع. ونص البيان، كذلك، على تدعيم بناء الدولة الحديثة في مصر، والتي لا تقوم، بعد الديمقراطية، الا استناداً إلى العلم والتكنولوجيا. ومن متطلباتها إنشاء مجالس متخصصة مثل «مجالس الدفاع القومي»، و«مجالس الاقتصاد القومي»، و«المجلس الاجتماعي القومي»، و«المجلس الثقافي القومي»، يباشر رئيس الدولة سلطاته من خلالها. وأشار بيان مارس إلى أن «الاتحاد الاشتراكي» هو المحتشد الأساس لقوى الشعب العاملة. غير ان المشاكل التي عاناها ترجع إلى أن بناءه لم يتم على أساس الانتخاب الحر، بل على التعيين في كثير من مستوياته بعناصر أفرزتها مراكز القوى. لذلك يجب ان يتم بناؤه على أساس الانتخاب الحر، مع ضرورة إطلاق القوى الخلاّقة للحرمة النقابية العمالية والمهنية. ونص البيان أيضاً، على إيلاء التنمية الأهمية القصوى لإنعاش الصناعة والزراعة ولتحقيق رفع مستوى الانتاج، مع تركيز اقصى الجهد على عمليات التنقيب عن النفط. ومن مرتكزات البيان، إضافةً إلى ما تقدم ذكره، التأكيد على أهمية حصانة القضاء، وكفالة حق التقاضي، وعدم النص في أي إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء، وذلك لأن القضاء هو الميزان الذي يحقق العدل، ويعطي كل ذي حق حقه، ويرد على أي اعتداء على الحقوق والحريات. وأكّد البيان، كذلك، على ضمان حقوق الإنسان الأساسية، بتوفير

---

(٢٣٦) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذي أعلن فيه برنامج ٣٠ مارس، القاهرة، ٣٠/٣/١٩٦٨،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٢، الوثيقة رقم ١١٦، ص ١٥٧ ـ ١٦١، والجمهورية، ٣١/٣/١٩٦٨.

كل ضمانات الحرية الشخصية والأمن لجميع المواطنين في جميع الظروف، وتأمين جميع التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث والصحافة[٢٣٧].

وأكّد **البيان**، بارتباط مع ضمانات حقوق الإنسان، على أهمية التنافس لخلق الحافز الضروري تكريماً لقيمة العمل، واحتفاظاً للوطن بطاقاته البشرية القادرة، وتوفير فرص العمل المتكافئة، مع التأكيد على أهمية إرساء الصيغ الديمقراطية كضرورة تحديد سقف زمني لتولّي الوظائف السياسية والتنفيذية الكبرى، ولضمان التجدّد والتجديد باستمرار. تلكم هي أهم المضامين الفكرية التي انطوى عليها **بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨**، وهي بلورة لأفكار ناصرية جديدة طرحها تطور الأحداث التي رافقت النكسة وآثارها في المدى القريب والمدى البعيد، وانعكاساتها في ذهنية عبد الناصر، ومفهومه لها في ضوء خلفية الفكر الناصري، والفكر القومي التحرري العربي.

وقد قَرَن عبد الناصر أفكار **البيان** هذه بحملة إعلامية تستهدف توعية المواطنين، وتبصيرهم بالأهداف والعواقب والمراحل اللازمة لبلوغ هذه الأفكار، وهي أساساً أفكار تحرير الأجزاء السلبية، مدياتها الفعلية، المجسّدة في الشعار المركزي، المحوري والأساسي «ما أُخذ بالقوة لا يُستردّ إلا بالقوة»، وكيفية الحصول على هذه القوة.

وكان من مفردات هذه الحملة الإعلامية، التي كانت واحدة من وسائل آلية تجسيد أفكار **البيان**، بل أفكار عبد الناصر بعد النكسة عموماً، كان من مفرداتها ضرورة الموازنة بين العمل السياسي والعمل العسكري، فالغاية ليس الحرب من أجل الحرب، بل الحرب من أجل التحرير، وتظل الأولوية للعمل السياسي، حتى إذا قارب هذا العمل الإخفاق تكون السياسة الساخنة: أي العمل العسكري. ومن مفرداتها ان القوة التي نريد ليست هي قوة العمل العسكري، فحسب، بل القوة في جميع مفاصل الحياة والتنمية ـ قوة الاقتصاد والانتاج والعلم والتقنية والتربية والتعليم والقوة العسكرية أيضاً. ومن مفرداتها، كذلك، التأكيد على أن النكسات ليست إلا عوارض طارئة في تاريخ الشعوب العريقة، والأمة العربية هي أمة الحضارات والثورات والنضال والتراث التحرري والقيم المضيئة، فهي أقوى وأبقى من كل ما يعترضها من معوقات في طريق الكفاح التحرري المتواصل[٢٣٨]، قرنت مصيرها بإرادتها[٢٣٩].

---

(٢٣٧) للتفصيل حول ذلك، وحول ملابساته، انظر: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٦١؛ **الجمهورية**، ٣١/ ١٩٦٨/٣، وأمين هويدي، **مع عبد الناصر** (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٤)، ص ١٤١ ـ ١٥٧.

(٢٣٨) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في شبر الخيمة بمناسبة عيد العمال، شبر الخيمة، ٥/١/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ١٤٦، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٣، و**الأهرام**، ٢/٥/ ١٩٧٠.

(٢٣٩) من المفيد أن نشير إلى أن مضامين المصدر السابق مثلت تواصلاً للنهج الذي رسمه عبد الناصر بعد النكسة والذي حدد خطوطه الأساسية بخطابه حينما افتتح الدورة الخامسة لمجلس الأمة، =

واتسمت هذه الحملة الإعلامية ـ الفكرية (بمعنى التحامها بصلب الأفكار الناصرية في هذه المرحلة) بسمة كانت، في جوهرها الأساسي، إفرازاً من إفرازات التأمل المتبصّر في النكسة وأسبابها. وكانت هذه السمة هي التحذير من ترديد شعارات التسرع والمغامرة والمزايدات، فذلك خطأ جسيم، بل هو الخطأ الكارثي الذي يدفع إلى دخول المعركة بدون استعداد أو تحسّب، وبدافع المبالغة في القوة الذاتية، والتهوين من قوة العدو، وكان هذا هو أحد الأخطاء الكارثية في النكسة الحزيرانية[٢٤٠]. كما اتسمت هذه الحملة بالتأكيد بأن المعركة هي معركة الأمة بأسرها، ومن هنا ضرورة الالتزام بالرفض العربي المشترك، المتجسد في لاءات الخرطوم الثلاث: لا مفاوضة ولا صلح ولا اعتراف باسرائيل ـ ولا تنازل عن شبر من الأراضي العربية المحتلة ـ ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين[٢٤١]، وكذلك ينبغي دعم المقاومة الفلسطينية بكل السبل، وعلى كل المستويات، ومن دون شروط أو تحفظات[٢٤٢]، وينبع من ذلك كله ضرورة انتهاج كل الوسائل السياسية والدبلوماسية، وكل السبل وعدم الاكتفاء بسبيل واحد[٢٤٣].

وكان من مفردات هذه الحملة الإعلامية ـ الفكرية التأكيد على القوة الحقيقية للقضية العربية ـ قضية تحرير الأراضي السليبة في العدوان، وقضية نيل الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير على أرضه، فبدون ذلك لن يكون سلام حقيقي في الشرق الأوسط[٢٤٤]. وكذلك كان من مفرداتها التأكيد على أهمية الزمن واحتساب حسابه، وتفهم المتغيرات والمستجدات واستيعابها واستثمارها لصالح القضية التحريرية. وركزت الحملة على السلام العادل، والعمل من اجله، فقد اكد عبد الناصر «اننا لسنا دعاة حرب، وإنما نحن دعاة سلام، فنحن لم نغتصب أرضاً لأحد، وإنما أرضنا هي التي تعرضت للاغتصاب، لذلك لم نبدأ العدوان ضد أحد، وإنما العدوان اتجه الينا». وينبع من ذلك سمة أخرى هي العالمية في هذا الخطاب الإعلامي ـ الفكري الناصري،

= القاهرة، ٢٣/١١/١٩٦٧. المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٥١٥، ص ٧١٥ ـ ٧٢٨.

(٢٤٠) فريد، معد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠، ص ١١٤ ـ ١٢٨، وهويدي، مع عبد الناصر، ص ١٤١ ـ ١٥٧.

(٢٤١) المقصود القرارات المتخذة في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد بتاريخ ٢٩ آب/أغسطس ١٩٦٧.

(٢٤٢) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٢ تموز/يوليو ١٩٦٩،» في: عبد الناصر والثورة، ص ٢٧٨.

(٢٤٣) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح الدورة الخامسة للمجلس الفلسطيني، القاهرة في الأول من شباط ١٩٦٩،» في: وثائق عبد الناصر، ص ٥١.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٩.

فهو يخاطب العالم كله الآن، ولا يقتصر على العرب، أو على اقليم معين، بما في ذلك كتلة عدم الانحياز الواسعة والعالم الثالث عموماً، وهو يتوخى القوة في العرض والمحاججة والاقناع: لا مساومة مع الاحتلال ولا استسلام له(٢٤٥).

وبالفعل، فان الجهد السياسي الناصري كان، في الواقع، تطبيقاً لهذه الاستراتيجيا الفكرية ـ السياسية وآليتها الإعلامية التي عرضنا أهم محاورها. لقد خاطب العالم، في هذه المرحلة (ما بعد عدوان حزيران/يونيو ١٩٦٧ وحتى رحيله في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠)، مخاطبة سياسية، دبلوماسية، سلمية، دون ان يفرط، في تضاعيفها، بالتذكير بالقوة العسكرية، وبالعمل، فعلاً، من اجل استكمال الاستعدادات القتالية، ومواصلة حرب الاستنزاف، التي كانت تحقق أغراضها، فعلاً، بمعونة الحليف السوفياتي على صعيد الخبرة، وحتى المشاركة. وبهذا كله استطاع ان يوصل للعالم رسالته الفكرية ـ السياسية في أن الكفاح الراهن أبعد من أن يكون قضية ذاتية، لأنه إذا سُمح للعدوان ان يحقق أغراضه، وان يمر دونما عقاب، فمعنى ذلك انه لن يكون هناك وطن آمن، ولن تكون هناك مصداقية حقيقية لشرعة حقوق الإنسان، وميثاق هيئة الأمم المتحدة، وقرارات مجلس أمنها(٢٤٦). وانطلق الفكر الناصري، في تطبيقاته العملية، في هذه المرحلة، مستثمراً كل المناسبات والوسائل السياسية والدبلوماسية. فمن خلال مؤتمر الخرطوم في ٢٩ آب/أغسطس ١٩٦٧ أفادت قضية تحرير الأراضي السلبية في عدوان حزيران/يونيو، بخاصة، من الجهود الدبلوماسية والسياسية في تنسيق العلاقات المصرية ـ العربية وتوظيفها لصالح القضية المشتركة(٢٤٧). فقد أصبح العمل السياسي المصري متوزعاً في محورين: **أولهما** مصر ودول المواجهة، **وثانيهما** مصر والدول المساندة. إن منطق الأحداث، ومنطق المجابهة بالذات، هو الذي فرض، مع انعطافة الفكر الناصري المرحلية، تقسيم الدول العربية الى هذين المحورين. ان دول المواجهة هي الدول ذات الحدود المشتركة مع الكيان

---

(٢٤٥) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح الدورة الثانية للمؤتمر القومي في السابع والعشرين من كانون الأول ١٩٦٩،» في: المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٢٤٦) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٩٩، وبلال، تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة، ص ٣٧٠.

(٢٤٧) «كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في مستقبليه إثر وصوله إلى مطار الخرطوم في مؤتمر القمة العربي، الخرطوم، ٢٩/٨/١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ١، الوثيقة رقم ٤٢٠، ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩؛ الأهرام، ٣٠/٨/١٩٦٧؛ «رسالة الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر السنوي السادس عشر لمنظمة الطلبة العرب في أمريكا الشمالية، ٢٩/٨/١٩٦٧،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ١، الوثيقة رقم ٤٢١، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠، والأهرام، ٣١/٨/١٩٦٧.

الصهيوني، اي مصر وسوريا والأردن. ومع ان لبنان له هو الآخر حدوده المشتركة مع الكيان، إلا أنه لم يدخل في إطار هذه التسمية، وذلك نظراً لوضعه السياسي الداخلي آنذاك، وطبيعة بنيته الاجتماعية، وضعف قدراته العسكرية الدفاعية. ويمكن، طبعاً، استخدام هذه التسمية لكي تضم العراق، على الرغم من عدم وجود حدود مشتركة مع الكيان، وذلك لأن العراق شارك في جميع مراحل المواجهة العربية العسكرية ضد «اسرائيل» منذ عام ١٩٤٨ فصاعداً. وينبغي الإشارة إلى ان سوريا والأردن والعراق تشكل استراتيجياً، وعسكرياً ما يسمى «بالجبهة الشرقية»، بينما تشكل مصر «الجبهة الجنوبية». والحقيقة ان الجبهة الشرقية مثّلت أهمية استراتيجية عسكرية كبيرة بالنسبة لمصر، وخصوصاً بعد العدوان الصهيوني في حزيران/يونيو ١٩٦٧، واحتلال مساحات واسعة من الأراضي العربية (الجولان السورية، والضفة الغربية، وسيناء وشرقي القناة)، الأمر الذي جعل عبد الناصر مهتماً بالجبهة الشرقية وتعزيزها في استراتيجيته القتالية العسكرية، ذلك ان وجود جبهة عسكرية إضافية يسمح ببعثرة القوات الاسرائيلية على غير جبهة، بدلاً من تمركزها في الجبهة المصرية وحدها. كما ان وجود جبهة شرقية قوية سيحدد، ويقلص مجال المناورة العسكرية الصهيونية، ويمكّن الدول العربية على الصعيد السياسي بتشكيل كتلة موحدة في أيّما حوار سلام مقبل مع الكيان. ومع ذلك فإن ثلاثة عوامل عرقلت مهمات الجبهة الشرقية، وحالت دون اكتمال تأثيرها القتالي، وهي الخلافات والحساسيات السياسية الناشئة بين سوريا والأردن، والخلافات السياسية بين العراق بعد ثورة تموز/يوليو ١٩٦٨ وسوريا، والخلافات السياسية بين رؤية النظام الجديد في العراق ورؤية النظام الأردني، خصوصاً على صعيد قيادة القوات العراقية المرابطة في الأردن بعد حرب حزيران/يونيو، وربطها بالقيادة الأردنية. وكانت أقوى الخلافات هي الناشئة بين الزعماء السوريين والمصريين حول الصيغ المقترحة لتصفية آثار العدوان الاسرائيلي، وقد تمحورت حول الخلافات في مسألة العمل العربي المشترك، والخلافات في التعامل مع قرارات مجلس الأمن[٢٤٨] ومهمة يارينغ[٢٤٩]، والخلاف حول دور المقاومة الفلسطينية في النضال العربي ضد الاحتلال.

أما المحور الثاني، فهو مصر والدول المساندة، وهي الدول المنتجة للنفط، غير المعنيّة مباشرةً بالصراع مع الكيان الصهيوني بحكم موقعها أو موقفها، فبعد حرب حزيران/يونيو أصبحت مصر بأشد الحاجة الى الدعم المادي بسبب الأعباء المالية والاقتصادية والعسكرية الضخمة التي نجمت عن الحرب، والتي أفقدت مصر حوالى

---

(٢٤٨) الخطيب، المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٢٤٩) جونار يارينغ، السفير السويدي في موسكو الذي تم تعيينه من قبل السكرتير العام للأمم المتحدة ممثلاً شخصياً له في الشرق وذلك لتطبيق القرار ٢٤٢.

مائتي مليون جنيه استرليني سنوياً كعائدات لقناة السويس، بالاضافة إلى فقدانها حقول نفط أبو رديس في سيناء[٢٥٠].

بذل الرئيس جمال عبد الناصر جهوداً هائلة من أجل وضع قادة دول المواجهة أمام مسؤولياتهم، وحشد أقصى إمكانيات فكره السياسي لإقناعهم بخطورة الحال، وأهمية التنسيق[٢٥١]. وجاء في خطابه في اجتماع قادة الدول الأربع (سوريا والأردن والعراق ومصر) قوله: «لا ندعي أن دورنا في الكفاح القومي الشامل أكبر من دور غيرنا من دول الأمة العربية العظيمة والخالدة، وانما نستشعر بالواجب، وبالضرورة هو ان موقفنا على خط النار يفرض علينا واجبات لا بد ان نقوم بالتحرك الواسع الذي نقوم به، ويجب ان تقوم به أمتنا كلها، وبالتالي فإن هذا الاجتماع جزء من كل، ومقدمة لا بد لها من بعدها، وعرض معين ضمن خطة واسعة لا بد أن نحشد لها كل قوى امتنا، وإمكانياتها البشرية والاقتصادية والعسكرية والفكرية، الى جانب الشجاعة والأصالة والإنسانية والإيمان بشرف الحياة»[٢٥٢].

وبوجه عام، فإن الفكر الناصري كان في هذه المرحلة في قمة الشد والتوتر، على صعيد العلاقات المصرية ـ العربية. فقد نشأ كثير من الخلافات والتوترات على صعيد دول المجابهة ودول المساندة، على حدٍ سواء. وكان ينبغي ان يكون ذلك متوقعاً بالنسبة الى الخلفيات الفكرية والقناعات، والارتباطات الخارجية والداخلية والتوجهات السياسية. وقد دعا عبد الناصر الى توظيف البترول سلاحاً للضغط الدبلوماسي والتكتيكي على الولايات المتحدة والدول الغربية من أجل قطع دعمها الكامل لإسرائيل التي تحتل الأراضي العربية[٢٥٣]. فنتيجة للخلافات الداخلية بين مصر وسوريا، وبين سوريا والأردن، والخلافات بين سوريا والعراق بعد ثورة تموز/يوليو ١٩٦٨، فإن جهود عبد الناصر أخفقت في تكوين الجبهة الشرقية[٢٥٤]. وعلى صعيد آخر فإن

(٢٥٠) المصدر نفسه، ص ١٢١ و١٣٤.

(٢٥١) فريد، معد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠، ص ١٧٨.

(٢٥٢) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في مؤتمر قمة دول المواجهة في ١٩٦٩/٩/٢.

(٢٥٣) عبد الهادي البكار، المأزق: مصر والعرب والآخرون (القاهرة: مطبعة التقدم، ١٩٨٥)، ص ١٣٢ ـ ١٣٥؛ عبد المنعم محمد بدر، أمتنا العربية: الحاضر والماضي والمستقبل (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٠)، ص ١٣٠، وأديب ديمتري، «طريقان وحقيقة واحدة من ٩ يونيو ١٩٦٧ الى صمود الأيام الدامية في الأردن،» الكاتب، السنة ١٠، العدد ١١٦ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠)، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢٥٤) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ٩٩؛ بدر، المصدر نفسه، ص ١٣٠، وعبد الكريم أحمد، «التيارات الفكرية التقدمية في البلاد العربية في الستينات،» الكاتب المصري، العدد ١٢٨ (١٩٧١)، ص ٧.

الدول المساندة، هي الأخرى، لم تعبىء إمكانياتها، ولم تف بالتزاماتها التي أقرت في مؤتمر الخرطوم. والواقع ان ضرورة صياغة العلاقات الجديدة مع الدول العربية المساندة لم تنشأ بسبب حاجة مصر الاقتصادية، فحسب، بل كانت، أيضاً، نتيجةً للحاجة الى الدعم السياسي، والتشديد على تصفية آثار العدوان[٢٥٥]. فطبقاً لقرارات مؤتمر الخرطوم فإن ملوك ورؤساء الدول العربية متفقون على توحيد جهودهم على مستوى السياسة الدولية من أجل تصفية آثار العدوان[٢٥٦]. وقد أخفق اقتراح عبد الناصر في الثالث والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧ بعقد اجتماع آخر على مستوى القمة، وبخاصة بعد صدور القرار (٢٤٢)، لكن فيصل، ملك السعودية وقتذاك، رفض الاقتراح مذكّراً بوعد مصر المقطوع بسحب قواتها من اليمن. وإزاء رفض السعودية المتكرر عقد مؤتمر القمة، تقاطع الفكر السياسي الناصري مع الرجعية في دول المساندة، ممن كانوا يعيقون العمل العربي المشترك[٢٥٧]. وقد أوضح عبد الناصر ذلك للجماهير في ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨، حين واجهها بالقول: «... يوجد مخطط أمريكي يهدف إلى جعل كل دولة عربية تصفّي علاقاتها مع اسرائيل على حدة. إننا نرفض هذا المخطط، ونرفض هذا المنطق. فهل عليّ أن أخوض لوحدي معركة المصير؟ انني اعتقد ان هذه المعركة هي معركة الأمة. وفي ١٩٥٥ وبعد عام ١٩٥٥ كان هناك تركيز على ان مصر يجب ان لا تهتم إلا بشؤونها الخاصة، وبأن عليها بأن لا تهتم بشؤون العالم العربي، وبعبارات أخرى، فإن علينا أن لا نسقط في فلك الهيمنة الاستعمارية الجديدة، والتي تريد منا الخضوع إلى مناطق نفوذها»[٢٥٨]. وواضح من هذا الخطاب ان الفكر الناصري، هنا، لا يناور، بل انه يكتسب سمة الايغال في الواقعية والمباشرة، على سبيل الانتصار للفكر الوحدوي القومي وإسقاط الفكر الاقليمي الانعزالي. وبالمقابل فإن السعودية آنذاك انما كانت تُستخدم ورقة لابتزاز مصر، بينما كانت الضغوط والمشاريع الامبريالية الصهيونية تستهدف الأمة كلها دون تفريق، فالمعركة، هنا، وكما كانت دائماً، تحمل طابعاً قومياً عاماً. وإلى هذا يشير عبد الناصر، ماضياً بالفكر الكفاحي الناصري إلى مزيد من الفرز

---

(٢٥٥) الخطيب، المصدر نفسه، ص ١٠٠، وعودة، عبد الناصر والاستعمار العالمي، ص ٢٩.

(٢٥٦) فريد، معد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠، ص ٩٠.

(٢٥٧) محمد الرميحي، «عبد الناصر والإقليم النفطي،» قضايا عربية، السنة ٧، العدد ١١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٠)، ص ٢٢٦، ويوسف عبد الله صايغ، «النفط العربي في استراتيجية المجابهة العربية الإسرائيلية،» شؤون فلسطينية، العدد ١٦ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢)، ص ٣٤ ـ ٦٣.

(٢٥٨) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في ختام دورة المؤتمر القومي عن المجتمع المفتوح والمعركة الحتمية ضد العدو، القاهرة، ١٩٦٨/١٢/٤،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ٢، الوثيقة رقم ٣٨٥، ص ٥٨٨، والأهرام، ١٩٦٨/١٢/٥.

والتدقيق: «ان اسرائيل باحتلالها الضفة الغربية للأردن لم تقم بأي تمييز بين الوطني اليميني أو اليساري، لأن الاثنين هما عروبيان. وعندما هدّدت اسرائيل فإنها لم تميّز بين الحكومات العربية وبين الشعوب العربية»[٢٥٩].

لقد اتسم الفكر الناصري، في هذه المرحلة، بالمزيد من المرونة على الصعيد العربي، وبانتهاج اكثر من طريق واحد لبلوغ الهدف الواحد، وكان ذلك تعبيراً عن الواقعية والتعلّق بصلب القضية، امام الضغوط الشديدة التي استثمرت، بغاية المكر والخبث، أجواء النكسة وانعكاساتها التي سبّبت انكساراً او انحساراً ملحوظين، خصوصاً بين البعيدين عن الفكر القومي الكفاحي الملتزم. وهكذا اضطُرّ عبد الناصر، منذ منتصف عام ١٩٦٨، إلى إيجاد صيغ العمل الثنائي، ما دام العمل الجماعي بات، وقتذاك، متعذراً. يقول الرئيس عبد الناصر: «... ان المعركة تتطلب عملاً عربياً موحداً. إننا نسعى دائماً، وبكلّ الوسائل للوصول إلى الهدف، ولقد وجهنا الدعوة لأشقائنا العرب من اجل انعقاد مؤتمر آخر على مستوى القمة، ولكننا لم نعد نركّز على هذا المطلب، وقررنا ان نستعيض عن العمل الجماعي بعمل ثنائي»[٢٦٠].

وينبغي القول إن هذا الانعطاف الفكري ـ التنظيمي في العمل السياسي الناصري لا يعني العودة إلى «سياسة المحاور»، ولا يعني الرجوع إلى المعارك الإعلامية السابقة والمهاترات الجانبية، بل كان هذا تعبيراً عن المرونة والمناورة وبعد النظر في انتهاج شتى السبل لبلوغ الهدف الواحد ضمن الأطر والحدود الممكنة، المتاحة في ظروف النكسة. يقول الرئيس عبد الناصر: «اننا لسنا مستعدين لخوض معارك جانبية. إن هناك من يريدون دفعنا اليها. ان المعركة التي يجب ان تستنزف كل جهودنا واستعدادنا هي المعركة ضد العدوّ المشترك»[٢٦١]. وقد أوضح مؤتمر الرباط في أواخر كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٩ وجود شرخ فعلي في صفوف المجتمعين من القادة العرب، مثلما أثبت حرص عبد الناصر على محاولة إقناعهم بخطة المواجهة ومستلزماتها. ويسجل التاريخ هنا، جنوح الفكر الناصري وقتياً نحو شيء من

(٢٥٩) «كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في أعضاء المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب، القاهرة، ١٠/٤/١٩٦٨،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٢، الوثيقة رقم ١٢٨، ص ١٧٢، والجمهورية، ١١/٤/١٩٦٨.

(٢٦٠) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة افتتاح المؤتمر القومي الأول للاتحاد الاشتراكي العربي وعيد ثورة ٢٣ يوليو، القاهرة، ٢٣/٧/١٩٦٨،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٢، الوثيقة رقم ٢٥٤، ص ٣٧٨، والأهرام، ٢٤/٧/١٩٦٨.

(٢٦١) الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٢، الوثيقة رقم ٢٥٤، ص ٣٧١ ـ ٣٧٩.

الانفعالية التي كان عبد الناصر مضطراً اليها، بسبب عدم التجاوب، والتشكيك، والشماتة المبطنة، والحصر في الزاوية، مع الحاجة الشديدة الى العون للخروج من المأزق الذي دفع إليه دفعاً، فقد أشار الفريق محمد فوزي الى حاجة التجهيزات العسكرية الدفاعية الموجودة على خطوط وقف إطلاق النار «الى دعم أكبر»، وكذلك القول عن وسائل الدفاع الجوي، وعقّب الرئيس عبد الناصر على تقرير فوزي:

«إذا كنا نريد فعلاً التصدي للتحدي الاسرائيلي، وتحرير أراضينا المحتلة، فعلينا ان نقدم، بدلاً من النصائح والارشادات، مساعدات ايجابية بالسلاح والأموال وبالمجهود الحربي». وطالب المؤتمرين بتقديم مائة وخمسين مليون جنيه استرليني لتمكين مصر من شراء صفقة عاجلة من الأسلحة، لكن الملك فيصل والأمير صباح أكدا عدم استطاعتهما تقديم المبلغ، بدعوى المبالغة في الأرقام «وان احتياجات الجيش المصري أقلّ مما ورد في التقرير»، فرد الرئيس بلهجة انفعالية حادة امام المؤتمرين: «... الحقيقة انكم لستم معنيين في هذا الصراع الدائر. ان مصر التي تحتلّ القوات الاسرائيلية أراضيها تقف لوحدها عملياً في تحمل أعباء الحرب. ولو أرادت فإنه باستطاعتها منذ وقت ان تتوصل الى حل منفصل مع اسرائيل. ان كلمة واحدة مني للأمريكان هي كافية لإعادة سيناء الينا. ولكنني لن أفعل ذلك، لأنني متضامن مع البلدان العربية التي احتلت أراضيها»[٢٦٢]. ومقابل ذلك كان الرئيس الجزائري هواري بومدين يشكك في رغبة مصر بتحرير أراضيها بالقوة العسكرية، فقد صرح[٢٦٣] باستعداد الجزائر للالتزام بالمعركة الى حد التضحية بنصف جيشها، وبكل مواردها في الوقت الذي تتقدم مصر فيه بخطة حرب محدودة، مع رفضها هي والبلدان العربية المعنية قرار مجلس الأمن ورفض الجهود الدبلوماسية الدولية الأخرى بما فيها مهمة يارينغ ومباحثات الدول الكبرى! وقد اعتبر الفكر الناصري السياسي الواقعي هذه التصديات مجرد «مزايدات لفظية» من بلد يقع على بعد خمسة آلاف كيلومتر من ساحة المعركة[٢٦٤].

وزادت المقاومة الفلسطينية الأمر تعقيداً بإدانتها مصر باعتبارها تواصل مساعيها الدولية لحل الأزمة بالطرق الدبلوماسية، حين صرح ناطقها الرسمي في الرباط منددا بأولئك الساعين لتطبيق قرار مجلس الأمن[٢٦٥]. وفي مقابل ذلك كله استجاب

---

(٢٦٢) نقلاً عن: الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ١٠٩.

(٢٦٣) تصريح الرئيس هواري بومدين إلى وكالة الصحافة الجزائرية في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٩.

(٢٦٤) الخطيب، المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٢٦٥) محمد أبو الفتوح، «دور الناصرية في تحرير المغرب العربي،» في: مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا، الموسوعة الناصرية: نضال عبد الناصر، ص ٣٤٣.

عبد الناصر، وكان ذلك كامناً لديه، لدعوةٍ تمنح القوة للتيار القومي الوحدوي التحرري، وترد على المزايدين والمناقصين معاً ـ اي على دعاة الالتحام المباشر في المعركة بدون استعدادات مسبقة كافية، وعلى دعاة العزلة والتفكك والعودة الى القطرية ونبذ اي مظهر وحدوي. ان الفكر الناصري يتحرك هنا بانفعالية اضطرارية، إذا جاز التعبير، يتحرك بانفعالية، لكنه يؤدي دوراً تاريخياً بالنسبة لتجديد الدعوات الوحدوية، والتحرك من خلال الجامعة العربية، وعدم الانكفاء نحو الاقليمية والقطرية التي كان يراد دفع مصر اليها. فقد خرج عبد الناصر من العاصمة المغربية متوجهاً إلى ليبيا، بعد معاينته ميدانياً انحسار الدعوة إلى تعبئة الطاقات القتالية، وعقد مؤتمراً للاتحاد بين رؤساء مصر وليبيا والسودان (عبد الناصر والقذافي والنميري) من أجل تشكيل «جبهة ثورية» تنظم سياسة هذه البلدان في الشؤون الدفاعية والخارجية والاقتصادية. وأكد البيان المشترك الصادر عن لقاء الرؤساء الثلاثة في السابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٩، ان التحالف الثوري يوسع الجبهة القتالية العربية ضد العدو، ويحشد كافة الطاقات والامكانيات، وهي كثيرة، ردعاً للعدوان وتحريراً للأرض العربية وتحقيقاً للنصر[٢٦٦].

وعلى صعيد آخر واجهت مصر ضغوطاً جديدة كان سببها المباشر، هذه المرة، تفسير الطبيعة القانونية والسياسية للقرار ٢٤٢. فقد أصدر مجلس الأمن قراره هذا في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، الذي جاء فيه الآتي: «إقرار مبادىء سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط. ان مجلس الأمن إذْ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط، وإذْ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، والحاجة الى العمل من اجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة ان تعيش فيه بأمن». واكد أيضاً «ان جميع الدول الاعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقاً للمادة (٢) من الميثاق الذي يؤكد:

١ ـ ان تحقيق مبادىء الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلا المبدأين التاليين:

أ ـ سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراضٍ احتلتها في النزاع الأخير.

ب ـ إنهاء جميع ادعاءات، أو حالات الحرب، واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة، واستقلالها السياسي وحقّها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة، ومعترف بها، وحرة من التهديد وأعمال القوة.

---

(٢٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤؛ حمدان، «أهداف ثابتة ووسائل متغيرة،» ص ٧ ـ ٢٦، وغليون، «موضوعات حول الوضع العربي الراهن،» ص ١٣٣.

٢ ـ إضافة الى ذلك يؤكد، أيضاً، الحاجة الى:

أ ـ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب ـ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ـ ضمان المناعة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق اجراءات، بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح.

٣ ـ يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب الى الشرق الأوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية ايجاد اتفاق، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً لنصوص ومبادىء هذا القرار.

٤ ـ يطلب من الأمين العام ان يرفع تقريراً الى مجلس الأمن حول تقديم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن»[٢٦٧].

هذا هو نص القرار ٢٤٢ الشهير الذي أثار وما زال يثير الكثير من الخلاف والنقاش والاعتراض، بسبب ما يراه الطرف العربي من ضبابية وإبهام وابتسار وتجاهل وابتزاز[٢٦٨]. فمن الاعتراضات عليه، تجاهله الفلسطينيين شعباً وأرضاً، وتحويل مشكلتهم الى مشكلة لاجئين، وإلزام الدول العربية بالقبول باسرائيل كدولة قائمة كما كانت عليه عشية شنها الحرب العدوانية الثالثة في العام ١٩٦٧، والتخلي، بالتالي، عن أي مطلب عربي سابق، بما في ذلك جميع المطاليب التي أيدتها الأمم المتحدة نفسها ومجلس الأمن نفسه في عشرات القرارات من مطالب تتعلق بحقوق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم وديارهم وحقوقهم في التعويض عن ممتلكاتهم المسلوبة أو المدمّرة، وبما في ذلك جميع المطالب المتعلقة باحترام الكيان الصهيوني لحقوق العرب المقيمين في الأراضي التي اغتصبها[٢٦٩]. وثمة اعتراضات أخرى بأن هذا القرار هو حتى دون وعد بلفور ومشروع التقسيم، فقد تجاهل الشروط التي نص عليها الوعد والمشروع، والتي تلزم الكيان أمام الأسرة الدولية بالتزامات قانونية معينة. وبهذا الشكل فإن هذا القرار يشكل خرقاً للقانون الدولي. وهذا ناهيك عن القول عن التناقضات، والمفارقات التي ينطوي عليها هذا القرار، فقد نصّ على عدم مشروعية حيازة الأراضي

---

(٢٦٧) فايز الصايغ، «ملاحظات على قرار مجلس الأمن ٢٤٢،» **شؤون فلسطينية**، العدد ١٥ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢)، ص ٥ ـ ٨.

(٢٦٨) ميكل: **الحل والحرب..**، ص ١٤٥ ـ ١٥٤، **والطريق إلى رمضان**، ص ٤٩ ـ ٦٢، وفاروق أبي. سانكاري، «الإعلام الأمريكي، سياسة الخداع في الشرق الأوسط،» **آفاق عربية**، السنة ١٥، العدد ٤ (١٩٩٠)، ص ٦٣.

(٢٦٩) السامرائي، **الولايات المتحدة الأمريكية والمؤامرة على الأمة العربية**، ص ٣٢، وصايغ، المصدر نفسه، ص ٥ ـ ١٨.

عن طريق الحرب، وهذا تناقض صارخ، فإذا كانت حيازة الأراضي العربية المحتلة في عدوان ١٩٦٧ غير مشروعة، فإن هذا المبدأ ينطبق، من باب أولى، على الأراضي المحتلة في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩[٢٧٠].

فإذا كان القرار (٢٤٢) سيئاً، مُجحفاً، بهذا الشكل، بحقوق العرب والقضية العربية، فلماذا تقبّله عبد الناصر إذن؟ في الجواب عن هذا السؤال المهم الذي يطرحه خصوم الناصرية والفكر الناصري نشير إلى ان عبد الناصر تفهّم جيداً مدى الإجحاف الذي يلحقه هذا القرار بالحقّ العربي، ومدى الضرر الذي يلحقه بالقانون الدولي ايضاً، باعتبار انه يقود الى عقد اتفاقية سلام في ظل استخدام القوات المسلحة، وهذا ما ينكره مؤتمر فيينا حول قانون المعاهدات عام ١٩٦٩ في المادة ٥٢، فقد رفض مطالبة اسرائيل بالبقاء في الأراضي المحتلة لحين التوصل الى معاهدة سلام[٢٧١]، لكن عبد الناصر الذي عانى، اكثر من أي قائد سياسي عربي آخر، من عدوان ١٩٦٧ وآثاره، والذي تجرع كأس الهزيمة العسكرية حتى الثمالة، والذي آثر التنحي «لأنه اعتبر نفسه مسؤولاً سياسياً عما حدث»[٢٧٢]، والذي كان بالفعل مسؤولاً لحدّ كبير ـ كما مر بنا ذلك آنفاً ـ عن الآثار الكارثية للنكسة، هذا الرجل نفسه قرر ان يأتي بجديد في قضية المجابهة مع الكيان، وكان من منطويات هذا الجديد انتهاج أكثر من طريق لحل المشكلة، بما في ذلك الطريق السياسي والدبلوماسي، دون التفريط، طبعاً بالجوهر الأساس ـ تحرير الأراضي المستلبة. يقول هيكل في ذلك: «يوم ١١ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لم تكن في الجيش فرقة واحدة متماسكة، ولم يكن تشكيل واحد متماسكاً. بعد ثلاثة أشهر كان تشكيل جبهة مستعدة للدفاع. أعيد بناء الجيشين الثاني والثالث. ولم تكن المسألة سهلة. لم تكن عملية ضغط على أزرار فيحدث كل ذلك. لقد تمّ ذلك بجهد خرافي يدعمه موقف جماهير ٩ و١٠ حزيران/ يونيو. وعبد الناصر لم يقبل قرار مجلس الأمن إلا بعد تقرير مشترك رفعه اليه في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ أحسن قائدين عسكريين، هما عبد المنعم رياض رئيس أركان الجيش المصري، وزاخاروف رئيس أركان الجيش السوفياتي، يؤكّد ان الجبهة المصرية قادرة على صدّ أي هجوم اسرائيلي»[٢٧٣].

---

(٢٧٠) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ١١٧، وأبو عز الدين، عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية، ص ١٢٧.

(٢٧١) يذهب المتخصصون في القانون الدولي إلى التأكيد بأن أحداً لا يستطيع الادعاء بأن المفاوضات حول الأراضي تكون شرعية عندما يحتل أحد الأطراف جزءاً منها، كما أن أي اتفاقية تفرض على دولة ما في ظرف معين لن يكون لها قيمة قانونية حقة.

(٢٧٢) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٤٦.

(٢٧٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

هكذا، إذن، هي المسألة: الموافقة على القرار طريقاً لخدمة الرؤية الاستراتيجية، ووفق المنطلقات الفكرية التي حددها بعد النكسة، والتي يلخصها الشعار الذي يقول بتجميع مقومات الأمة لتحقيق النصر[٢٧٤]. ان حرب الاستنزاف كانت تجسيداً لكل ما كان يعد له عبد الناصر على صعيد مقاتلة العدو، الى جانب الطريق السياسي الدبلوماسي. وقد حدث مثل هذا في التاريخ المعاصر. تكفي الاشارة الى الحرب الفييتنامية المستمرة، ومفاوضاتها المستمرة أيضاً، الأطراف المقاتلة كانت تتفاوض، فإن لم يتحقق الهدف المطلوب، فالعودة الى القتال، وهذا نهج اتبعته القيادة الفييتنامية حتى تكلل مسعاها بالنصر ولو أخيراً وبتضحيات هائلة، لأنها كانت تقاتل الامبريالية الأمريكية مباشرة، وليس بالنيابة. وقد درس الباحثون حرب الاستنزاف هذه في ضوء الرؤية الفكرية الناصرية، وتوصلوا الى أنها حرب غير مُعلنة على كافة الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وهي عملية استنزاف متبادلة لكلا الطرفين، الا ان قدرة الجانب العربي فيها على التحمل اكبر بكثير من الجانب الصهيوني. فميزة المدى والزمن تشكل، مع القدرة على تحمل التضحيات، عبئاً على العدو، مما يجعلها مضمونة النتائج، خصوصاً إذا اقترنت بالخبرة المتطورة والسلاح الحديث[٢٧٥]. فقد استطاع الرئيس عبد الناصر، مجسداً رؤيته الفكرية الجديدة هذه في انتهاج أكثر من سبيل واحد لبلوغ الهدف (المقصود: مواصلة حرب الاستنزاف، والاعتراف بالقرار ٢٤٢ في آن واحد، واستثمار القناتين: القتالية، والسياسية الدبلوماسية)، استطاع إسقاط «اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يُقهر»[٢٧٦]، وأثبت في الوقت ذاته، حيوية وأصالة التوجه الفكري ـ السياسي الاستراتيجي الجديد. وللأمانة التاريخية والموضوعية، ينبغي الاشارة الى الدعم السوفياتي للجيش المصري بالسلاح والخبرة، وحتى بالمشاركة القتالية (في مراحل متأخرة). لقد أشار كتاب **تاريخ الأقطار العربية المعاصرة** إلى ان مصر حققت نجاحاً كبيراً في تعزيز قواتها المسلحة، واستطاع الجيش المصري في فترة وجيزة ان يسترد ويزيد قوته العسكرية. وفي ربيع عام ١٩٧٠ «أصبح واضحاً ان المدفعية المصرية ليست فقط نداً للمدفعية الاسرائيلية، بل ومتفوقة عليها في التراشق المدفعي»، كما ان القوات الجوية الصهيونية «اضطرت الى الكف عن ضرب أعماق مصر، حين وجدت قوات الدفاع الجوي المصرية تزداد

---

(٢٧٤) هيكل، الحل والحرب. . ، ص ١٤٥ ـ ١٥٤.

(٢٧٥) يوسف صايغ، أحمد سامح الخالدي وادغار أوبلانس، حرب الاستنزاف، دراسات؛ ٥ (بيروت: دار القدس، ١٩٧٨)، ص ٣٧ ـ ١٣٤، وحسن بكر، «حرب الاستنزاف، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠: نموذج المواجهة العربية طويلة الأمد ضد إسرائيل،» قضايا عربية، السنة ٦، العدد ٧ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩)، ص ١١٧ ـ ١٣٠.

(٢٧٦) تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، ج ٢، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

كفاءة مع مرور الوقت». وفي النصف الأخير من حزيران/يونيو حتى أوائل تموز/يوليو ١٩٧٠ حدث تحوّل في الوضع العسكري في منطقة القناة. ففي تلك الفترة كانت الطائرات الصهيونية تتساقط بين الحين والآخر على الجبهة المصرية. وهكذا استطاع الجيش المصري بعد ثلاث سنوات من «حرب الأيام الستة» ان يتصدى بنجاح للقوات المسلّحة الاسرائيلية، ولا شك في أن تعزيز القدرة القتالية المصرية بدعم الاتحاد السوفياتي قد أحدث تأثيره[٢٧٧].

أما شهادة المؤرخ، الشاهد العيان تيموفييف فقد كانت أبلغ في الدلالة والمعطيات: «كلفت حرب الاستنزاف الطرفين كليهما خسائر جسيمة. ففي الفترة الممتدة من تموز/يوليو ١٩٦٧ حتى آب/أغسطس ١٩٧٠ أربت خسائر اسرائيل على ٧٠٠ قتيل و٢٧٠٠ جريح. وهذا يفوق خسائرها الإجمالية في حرب حزيران/يونيو... وتكبدت مصر خسائر أكبر، وكانت هناك خسائر فادحة في القوات المسلحة، وبخاصة في الوحدات والوحدات الفرعية المرابطة في الخط الأول، حيث استشهد علاوةً على الجنود والضباط المصريين عدد من المستشارين السوفيات. وعلى الرغم من ذلك كان الاستعداد القتالي في القوات يجري على قدم وساق. فبعد إجراء تحليل دقيق لأسباب هزيمة المصريين في سنة ١٩٦٧، أسدى المستشارون عوناً للضباط والقادة العسكريين المصريين في وضع برنامج للاستعداد القتالي يضمن رفع مستوى الكفاءة القتالية وتدريب الأفراد.. تدريباً يومياً مضنياً لاتقان استخدام السلاح»[٢٧٨]. وبالنتيجة، كان لا بد لفاعلية المقاومة المصرية في «حرب الاستنزاف» ان تترك تأثيرها في سياسة الولايات المتحدة والدول الغربية. فبينما كانت الولايات المتحدة من قبل لا تخفي مواقفها المناصرة جهاراً للكيان الصهيوني، باتت الآن مضطرة لمساندة الكيان بأشكال غير مباشرة، وكان الفضل في ذلك لفوز مصر في حرب الاستنزاف[٢٧٩].

ظلّ الفكر الناصري مستمراً في تكيّفه وتطوّره في الوضع الذي نشأ بعد حرب حزيران/يونيو، وظلّت إفرازاته مقنعة بالنسبة للمؤرخين الموضوعيين والسياسيّين الحصيفين. فقد بقي الجوهر القومي التحرري لهذا الفكر على أصالته، وإن اغتنى بما تمليه المستجدات والمتغيرات من متضادات، كان اهمها القبول بالقرار (٢٤٢)، والنزوع نحو الاستنزاف، واستثمار صيغ جديدة للتحالف والتضامن والمحاور في سبيل الهدف الواحد، المشترك للأطراف جميعاً. وقد تركت حرب الاستنزاف بالشكل الذي تمت به تأثيرها التدميري على ماكنة الحرب الاسرائيلية والغطرسة الصهيونية وتحالفها

---

(٢٧٧) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٢٧٨) تيموفييف، **الطريق إلى رمضان**، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢٧٩) **تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠**، ج ٢، ص ١٣٨.

الاستراتيجي مع الامبريالية الامريكية. وكان لا بدّ للامبريالية الأمريكية، والحال هذه، ان تنشىء وضعاً أكثر مؤاتاة، واكثر تأميناً لمصالحها وعلاقاتها بالكيان والأطراف الإقليمية الأخرى في الشرق الأوسط، وفي مقدمتها الأطراف العربية، خصوصاً بعد ان انطلقت الأعمال الفدائية الاستشهادية الفلسطينية، مثبتة أحقيّة الكفاح الفلسطيني، وعدالة قضية الشعب الفلسطيني، ونالت إعجاب شعوب العالم والحركات التحررية، وحظيت بمكانة دولية، بغض النظر عن محاولة العدو استغلال بعض العمليات ذات الطابع المتطرف للنيل منها.

أصبح «الحل الوسط» في ظل هذه الأوضاع هو الأكثر مؤاتاة للمصالح الصهيونية والامريكية بما يضمن الخروج من المأزق، ويقوم على أساس وقف إطلاق النار الفوري من قبل الأطراف كافة. وللمزيد من التضليل الماكر أجلت واشنطن النظر في طلب الكيان الحصول على مساعدات من الأسلحة المتطورة، لكنها أعلنت، في الوقت نفسه، على لسان الرئيس نيكسون في التاسع من تموز/يوليو ١٩٦٩ بأنها قد وعدت «اسرائيل» بتعديل ميزان القوى لصالحها منعاً لأي هجوم عربي محتمل ضدها. وفي الوقت ذاته كان وليم روجرز، وزير الخارجية الأمريكي، قد فرغ من وضع مشروع تسوية سلمية ليعرضه على الأطراف المعنية، اما تصريح نيكسون فقد جاء بمثابة تحذير مبطن لمصر والاتحاد السوفياتي في آن واحد، بمعنى اذا لم تقبل مصر بالمبادرة الامريكية فإن الولايات المتحدة ستلبي مطالب الكيان العسكرية[٢٨٠]. لذلك أعلن روجرز عن مبادرته في مؤتمر صحفي بتاريخ الخامس والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٧٠ مبيناً «ان الولايات المتحدة قامت بمبادرة سياسية هدفها تشجيع الطرفين (العربي والاسرائيلي) على وقف اطلاق النار، وبدء المفاوضات تحت إشراف السفير يارينغ طبقاً لقرار مجلس الأمن»[٢٨١]. وتضمنت المبادرة فقرات تنصّ على إقرار الأطراف المعنيّة بالسلامة الإقليمية والاستقلال السياسي، كما تنص على الانسحاب الاسرائيلي مقابل إنهاء حالة الحرب[٢٨٢]. ان مضامين مشروع المبادرة قد أعدت بنيّة تفتيت الصراع وتجزئته، فالصراع العربي الاسرائيلي يُقَسَّم الى محاور منفصلة عن بعضها، أطلق عليها: النزاع المصري الاسرائيلي، والنزاع الأردني الاسرائيلي، والنزاع السوري الاسرائيلي. ولم يتعرض المشروع الى النزاع السوري الاسرائيلي بحجة ان نظام

---

(٢٨٠) أبو بكر، «العلاقات الإسرائيلية الأميركية بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣،» ص ٧١، ووحيد عبد المجيد، «العلاقات الفلسطينية ـ الأمريكية: المواجهة واحتمالات الحوار،» في: سلامة [وآخرون]، **السياسة الأمريكية والعرب**، ص ١٦٥ ـ ١٧٠.

(٢٨١) هيكل، **الطريق إلى رمضان**، ص ٩١.

(٢٨٢) عبد الناصر، **ثورة عبد الناصر**، ص ٦٨٢ ـ ٦٨٣؛ سمير بطرس، «السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط،» في: سلامة [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٢٦٦، وأبو بكر، المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٩.

الحكم في سوريا لم يوافق على قرار مجلس الأمن الدولي (٢٤٢). وينصّ مشروع روجرز على ان يتفق الفريقان المصري والاسرائيلي على ترسيم حدود آمنة بينهما، ومعترف بها تُرسم على خريطة، او خرائط مصدقة من الطرفين، يصبح جزءاً من الاتفاق النهائي، وكذلك الاتفاق على إقامة مناطق منزوعة السلاح، واتخاذ الترتيبات الأمنية المحلية في منطقة شرم الشيخ لضمان حرية الملاحة في مضيق تيران، واتخاذ الترتيبات الأمنية لتسوية قضية غزة بصورة نهائية. وتُعد الحدود الدولية السابقة بين مصر والسلطة المنتدبة على فلسطين هي الحدود الآمنة المعترف بها بين الكيان ومصر. كما تضمن المشروع، أيضاً، قيام الأردن و «إسرائيل» بالعمل على التوصل الى اتفاق حول مدينة القدس، ووضع الترتيبات النهائية للحدود البلدية المتعلقة بالمدينة الموحدة، ويتفق الطرفان على ان للقدس وضعاً خاصاً ينطلق من المبادىء التالية:

أ ـ يجب أن تكون مدينة موحدة بحيث لا يكون أي قيد ما على حرية تنقّل الأشخاص أو البضائع فيها.

ب ـ يجب ان لا يكون هناك أي قيد على حريّة الوصول الى المدينة الموحدة من ملة أو جنسية.

ج ـ ان الترتيبات الإدارية للمدينة الموحدة يجب ان تراعي مصالح جميع سكانها، ومصالح الطوائف اليهودية والاسلامية والمسيحية العالمية، وان يضمن لحكومتي «اسرائيل» والأردن دورهما في الحياة المدنية والاقتصادية والدينية للمدينة.

ويطالب مشروع روجرز كلاً من العربية المتحدة والأردن بأن يتعهدا بالعمل، قدر طاقتهما، لتأمين عدم القيام بأية اعمال عدوانية ضد الكيان، أو بأية أعمال نشر الكراهية لأمن أجهزة الدولة فقط، وإنما حتى من الأشخاص العاديين، أو من أية منظمات شعبية. وأما بالنسبة للاجئين فقد جعل الحكومة الأردنية هي الوصية الوحيدة على اللاجئين منذ كارثة ١٩٤٨ وحتى الآن، سواءً منهم من هو في رعاية وكالة الغوث الدولية، او من كان في ضيافة الأقطار العربية الأخرى... إن هذه هي أهم مضامين مبادرة روجرز، التي طرحت فوافقت عليها مصر، كما وافقت عليها الأردن، ورفضتها سوريا ودول عربية أخرى، ورفضتها منظمات المقاومة الفلسطينية أيضاً. وهكذا قسمت المبادرة الدول العربية الى فريقين، مؤيد ومعارض، وانقسم الرأي العربي، بالتالي على نفسه[٢٨٣].

كان موقف عبد الناصر من مشروع المبادرة مماثلاً، ومتمماً لموقفه من قرار الأمم

---

(٢٨٣) جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ملف المشاريع المقترحة لحل أزمة الشرق الأوسط من تشرين الثاني ١٩٦٧ إلى تشرين الثاني ١٩٧٢ (بغداد: المركز، ١٩٧٢)، ص ٨٢ ـ ٨٣، وأبو بكر، المصدر نفسه، ص ٧٧.

المتحدة (٢٤٢)، فقد كانت رؤيته الفكرية للقرار والمبادرة واحدة تقريباً. لقد استقطبت المبادرة اهتمامه بالكامل، إذ كانت تمس الثوابت الثلاثة التي كرس عبد الناصر كل طاقاته لها بعد نكسة حزيران/يونيو، أي إعداد القوات المسلحة للحرب، والعلاقات المصرية ـ السوفياتية، والعلاقات العربية[٢٨٤]. فمن الواضح وكما بين هيكل ذلك، وكرّره غير مرة، ان موافقة عبد الناصر على المبادرة كانت مناورة تكتيكية يتستر بها على مخطط بناء حائط الصواريخ. يقول هيكل: «لقد حاول عبد الناصر جاهداً إفهام القيادات الفلسطينية أصول لعبة المناورة الدقيقة المتعلقة ببادرة روجرز، ووقف إطلاق النار. كان يريد بناء حائط الصواريخ الذي كان نقطة الارتكاز في عملية العبور في ٦ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٣. كان هذا هدفه من قبول بادرة روجرز، لكنه لم يكن يريد ان يكشف خططه»[٢٨٥].

ورد في تفصيل آخر حول الموضوع نفسه «ان عبد الناصر في اجتماعه مع بريجينيف في ١٦ تموز/يوليو ١٩٧٠، أي قبل عودته بيوم، قرر قبول المبادرة الامريكية. وكان بريجينيف مندهشاً، ولكنه تفهم الموقف عندما قال له عبد الناصر مجيباً عن تساؤله عما إذا كان سيقبل اقتراحاً عليه العلم الامريكي: «بالضبط . . . إنني سأقبله لأن عليه علماً امريكياً. . . فإننا يجب ان نأخذ فترة لالتقاط الأنفاس حتى نستطيع ان ننتهي من بناء مواقع الصواريخ. . . اننا نحتاج ان نعطي فترة راحة لقواتنا المسلحة، وان نقلل من خسائر المدنيين. نحن نحتاج إلى وقف إطلاق نيران، وهذا التوقف لن تحترمه اسرائيل إلا اذا كان أمريكياً، ولكنني لا أعتقد ان لهذه المبادرة أي نصيب من النجاح. . .»[٢٨٦]. وبعد العودة، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر، في خطابه الذي ألقاه في جامعة القاهرة، بمناسبة احتفالات ٢٣ تموز/يوليو واستعرض فيه مشاكل الحرب والاحتلال، وأعلن قبوله المبادرة، موضحاً، بحرص شديد على تأمين تفهّم الجماهير لجوهر الموضوع وحقيقة دوافع قبول المبادرة، ان هذه المبادرة لا تعدو أن تكون مقترحات اجرائية لتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الموافق عليه سابقاً[٢٨٧].

من الواضح أن عبد الناصر لم يكن مقتنعاً تماماً بالمبادرة، بل انه وافق عليها،

---

(٢٨٤) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٨٧.

(٢٨٥) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٢٨٦) حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٢٥٧.

(٢٨٧) «خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في الدورة الافتتاحية للمؤتمر القومي الرابع للاتحاد الاشتراكي القاهرة، ٢٣/ ٧/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، الوثائق العربية، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٧٦، ص ٤٩٢ ـ ٥٠٦، والأهرام، ٢٤/ ٧/ ١٩٧٠.

كما قلنا، موافقة تكتيكية، تجنباً للعزلة التي كان من شأن الضغط الدولي ان يفرضها عليه في حالة الرفض، وانسجاماً مع الموقف السوفياتي الحليف لمصر، والذي كان يلح دوماً على تأمين غطاء دولي لنضال مصر، ولتأييده لها. كما أن رفض المبادرة كان سيعني، آنذاك، منح كل الفرص للولايات المتحدة لدعم «اسرائيل» بشكل غير محدود. وهكذا ففي تحليل الموافقة الناصرية على المبادرة الروجرزية نجد انها انما تمت مراعاةً للاعتبارات التي عرضنا لها تواً، وبتأثير الضغوط العربية والدولية، والتقاطاً للأنفاس في حرب الاستنزاف الطاحنة، وتأميناً لاستكمال حائط الصواريخ الذي كان عبد الناصر يحرص على إقامته بكل الطرق ردعاً للعدوان الصهيوني وإزالةً لآثاره[٢٨٨].

وعلى صعيد آخر كان عبد الناصر مقتنعاً بأن «اسرائيل» لن تستجيب للمبادرة، وهكذا يسهم القرار الناصري بالموافقة على المبادرة في إحراج «اسرائيل» والإسهام في فرض العزلة الدولية عليها، واظهار نياتها العدوانية للعالم أجمع مقابل نية مصر السلمية[٢٨٩].

وبالفعل، استقبلت «اسرائيل» المبادرة بشكل عدائي، وتجلى ذلك من خلال تصريح ابا ايبان في حزيران/ يونيو ١٩٧٠ بأن بلاده لا تميل الى قبول المبادرة التي تنص على وقف إطلاق النار، لأن ذلك من شأنه ان يمنح مصر فرصة كسب الوقت من أجل استكمال بعض تجهيزاتها الدفاعية. ولكن في نهاية شهر تموز/ يوليو ١٩٧٠، وأمام الضغط الأمريكي، وإشارة نيكسون الشخصية على الحكومة الصهيونية بالقبول مقابل طمأنتها على تنفيذ واشنطن التزاماتها تجاهها[٢٩٠]، بهذا الخصوص قبلت «اسرائيل» المبادرة. وكانت هذه الالتزامات أساسية بالنسبة لها، وهي بالضبط ما كانت تحتاج اليه آنذاك، لتكسب معركة المبادرة في معظم منطلقاتها. فقد التزمت واشنطن بعدم مطالبتها بسحب قواتها من الأراضي المحتلة قبل التوقيع على معاهدة تعاقدية بينها وبين الدول العربية لإنهاء حالة الحرب. والتزمت، كذلك، بعدم مطالبتها «اسرائيل»، في حالة التوصل إلى تسوية نهائية، بالسماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم. والأهم من ذلك كله التزام واشنطن بمواصلتها السعي للحفاظ على التوازن في التسلح بين الكيان والدول العربية، وهذا يعني، بحسب التصور الأمريكي لهذا التوازن، تفوقاً عسكرياً مطلقاً للكيان[٢٩١].

---

(٢٨٨) السيد سليم، **التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية**، ص ٣٤٩ - ٣٥٢.

(٢٨٩) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٣٨٠، وعبد الناصر، **ثورة عبد الناصر**، ص ٦٨٨ - ٦٨٩.

(٢٩٠) أبو بكر، «العلاقات الإسرائيلية الأميركية بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣،» ص ٧١.

(٢٩١) المصدر نفسه، ص ٧١ - ٧٢؛ الخطيب، **مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ - ١٩٧٣**، ص ٦٤، وصايغ، الخالدي وأوبلانس، **حرب الاستنزاف**، ص ١٦٤.

أكّد تصريح أبا ايبان قيمة هذه الالتزامات الأمريكية وأهميتها بالنسبة لكيانه: «لقد حصلنا على عدة تصريحات من جانب الولايات المتحدة حول المواضيع الأكثر أهمية فيما يتعلق بالقدرة الدفاعية لاسرائيل، واستعداداً منها لدعم موقفنا في المسائل السياسية الأساسية»(٢٩٢). وقد سُرّ يو ثانت، الأمين العام للأمم المتحدة، لموافقة مصر والأردن والكيان على المبادرة، فأبلغ مجلس الأمن بالاستئناف الفوري لمهمة يارينغ، واتفاق الأطراف الثلاثة على تعيين مندوبين عنها للاشتراك في مباحثات تطبيق قرار مجلس الأمن، والتوصل الى اتفاق حول إقامة سلام عادل ودائم قائم على الاعتراف المتبادل من قبل الجمهورية العربية المتحدة والأردن و«اسرائيل» بالسيادة والسلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل منها، وانسحاب الكيان من الأراضي المحتلة منذ نزاع ١٩٦٧ طبقاً للقرار ٢٤٢. وخَتَم يو ثانت بلاغه بالقول: «ومن أجل تسهيل مهمتي في الوصول الى اتفاق مثلما هو منصوص عليه في القرار (٢٤٢)، فإن هذه الأطراف ستحافظ بشكل حازم وفعال، من ١٧ آب/أغسطس وعلى الأقل حتى ٥ تشرين الثاني/نوفمبر الساعة ٢٢ بتوقيت غرينيتش (GMT) على قرارات مجلس الأمن حول وقف اطلاق النار»(٢٩٣). وبهذا تم وقف إطلاق النار فعلاً، إلا ان المباحثات لم تحقق غرضها، حيث تبادلت الاتهامات مصر والكيان في آن واحد(٢٩٤).

أدّى هذا الوضع الجديد، اي عدم تطبيق بنود المبادرة، وعدم انسحاب القوات الصهيونية من الأراضي المحتلة في عدوان حزيران/يونيو، إلى تعقد الموقف لغير صالح مصر وعبد الناصر الذي أعلن قبوله المبادرة، الأمر الذي زاد من ضغوط الدول والأطراف العربية الرافضة للمبادرة. بيد أن أعنف ضغط واجهه عبد الناصر كان من الجانب الفلسطيني، من منظمات المقاومة الفلسطينية في إذاعتها ومنشوراتها وحربها الكلامية، بما فيها إذاعة صوت فلسطين في القاهرة. وكانت كلها تشجب المبادرة، وتتهم الموافقين عليها بأشنع التهم، وصولاً إلى الخيانة والاستسلام. وهنا اضطر الفكر الناصري الى اتخاذ موقف دفاعي مناور يداري به الحقيقة (اقتطاف فترة التقاط الأنفاس لاستكمال بناء حائط الصواريخ والتجهيزات الدفاعية)، ويحاول، ما استطاع، تخفيف حدة النقد الفلسطيني وغير الفلسطيني الموجه ضد القبول المصري للمبادرة. لقد تحول الفكر الناصري، في ضوء المستجدات التي رافقت إعلان المبادرة وقبولها من قبل مصر، الى جانب الدفاع(٢٩٥). وانحصر دفاع الفكر الناصري في تقديم هذه الحجج:

---

(٢٩٢) نقلاً عن: الخطيب، المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢٩٣) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢٩٤) فريد، معد، **من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ - ١٩٧٠**، ص ٢٥٠؛ هيكل، **الطريق إلى رمضان**، ص ٩٦ - ٩٧، وحمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر**، ص ٣٦١.

(٢٩٥) هيكل، المصدر نفسه، ص ٩٦ - ٩٧، وحمروش، المصدر نفسه، ص ٣٦١.

١ ـ عدم اختلاف المبادرة كثيراً عن قرار مجلس الأمن (٢٤٢) الذي وافقت عليه مصر، الأمر الذي يجعل الموافقة واردة، بالضرورة، على المبادرة.

٢ ـ عدم استعداد الكيان لتطبيق المبادرة، الأمر الذي يدق الإسفين بين الطرفين الأمريكي والاسرائيلي!

٣ ـ تَضمُّن المبادرة جديداً هو أقرب الى المصالح العربية، قياساً إلى بنود (القرار (٢٤٢)).

٤ ـ ايهام الولايات المتحدة والرأي العام العالمي بتمسك القاهرة بالسياسة السلمية[٢٩٦].

وكانت الحجة الأقوى هي وجوب عزل «اسرائيل» عن المحافل الدولية، وإظهارها على حقيقتها بمظهر المعتدي التوسعي، والرافض لكل نداء يدعو الى السلام، ذلك ان موافقة القاهرة على المبادرة، وعدم التزام «اسرائيل» بها سيعزلها دولياً، وبخاصة من الدول الأوروبية التي باتت تتحرج من مواقف «اسرائيل» العدوانية، ولا تستطيع الدفاع عن سياستها التوسعية. غير ان هذه الحجج المصرية التي عنونت للفكر الناصري، في ذلك الظرف الدقيق العصيب، لم تلق أذناً صاغية من المقاومة الفلسطينية وسواها من الرافضين، على رغم أن بعض هذه الحجج وارد، ومقبول في كل الأحوال[٢٩٧]. لقد حاجج الرافضون (الفلسطينيون بخاصة) الفكر الناصري الموافق على المبادرة في ان الموافقة تزكّي واشنطن على رغم كل جرائمها تجاه العرب الفلسطينيين، فالمبادرة أمريكية صرفة، أما القرار ٢٤٢ فقد كان قرار مجلس أمن الأمم المتحدة، وكانت بعض القوى فيه مؤيدة للحق العربي. وهكذا فإن الموافقة على المبادرة الأمريكية تكون على حساب الأمم المتحدة، وعلى حساب أصدقاء العرب، كما أن المبادرة والالتزامات الأمريكية للكيان، التي أعقبتها، تعني أن الفوائد مضمونة لاسرائيل والولايات المتحدة[٢٩٨].

---

(٢٩٦) للمزيد من التفصيل، انظر: «ملف الأهرام لصيف ١٩٧٠،» وهيكل، المصدر نفسه، ص ٩١ ـ ١٠٨.

(٢٩٧) «أجوبة الرئيس جمال عبد الناصر على أسئلة أعضاء المؤتمر القومي الرابع للاتحاد الاشتراكي العربي، القاهرة، ٢٤/٧/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٧٩، ص ٥٠٨ ـ ٥٢١، والأهرام، ٢٥/٧/١٩٧٠.

(٢٩٨) للإطلاع على مواقف رجال المقاومة الفلسطينية عبر البيانات والمذكرات والرسائل والتصريحات والأحاديث والمؤتمرات، انظر: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٨٠، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢؛ الوثيقة رقم ٢٨١، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٧؛ الوثيقة رقم ٢٨٩، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠؛ الوثيقة رقم ٢٩٢، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥؛ الوثيقة رقم ٢٩٤، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧؛ الوثيقة رقم ٢٩٧، ص ٥٤٩؛ الوثيقة رقم ٢٩٨، ص ٥٥٠؛ الوثيقة رقم ٣٠٢، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥؛ الوثيقة رقم ٣٠٣، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٨؛ الوثيقة رقم ٣٠٧، ص ٥٦٠ ـ =

وكانت أهم حجج الرافضين (فلسطينيين وغيرهم) ان المبادرة عملت على تجزئة النزاع العربي الصهيوني لتنفرد بالأطراف العربية كلاً على حدة، الأمر الذي يؤدي في عرف الأمريكان، أصحاب المبادرة، والكيان أيضاً، الى تجزئة الموقف العربي وإضعافه(٢٩٩). غير ان الحجة الأقوى بين سائر الحجج، والتي تقدم بها الفلسطينيون، بخاصة، هي ان المبادرة تطالب الأطراف العربية بالتطبيع فوراً، وبالتحول إلى شرطي لحراسة المصالح الصهيونية من هجمات الفدائيين الفلسطينيين، واكثر من ذلك برفع المقاطعة عن الدول التي تتعامل مع «اسرائيل» وتمدها بالمعونات الاقتصادية(٣٠٠).

وبالفعل كانت المبادرة تطالب الأطراف المتعاقدة بمنع العمل الفدائي، وإزالة الكراهية، وحتى غلق الحدود أمام الفدائيين، وكل هذا يعني، في الواقع، إنهاء الصراع العربي مع «اسرائيل» والتسليم لها بالوجود، على الرغم من أنها لم تتنازل جوهرياً تجاه العديد من الحقوق العربية(٣٠١). لكنها لا تتعهد، بالمقابل، بالانسحاب من الأراضي السورية (التي احتلتها عام ١٩٦٧)، كما انها تتجاهل عمداً وقصداً وجود الشعب الفلسطيني، وتحول وجوده وقضيته الى مجرد «قضية لاجئين» تعطي حق الوصاية عليهم الى الأردن، لا فرق في ذلك ان كانوا لاجئي عام ١٩٤٨ أو لاجئي عام ١٩٦٧ والأعوام الأخرى(٣٠٢). ولم تستطع الماكنة الإعلامية ـ الفكرية الناصرية

= ٥٦١؛ الوثيقة رقم ٣٢٧، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٦؛ الوثيقة رقم ٣٣٣، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤، والوثيقة رقم ٣٣٥، ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥.

(٢٩٩) هيكل، **الطريق إلى رمضان**، ص ٩١ ـ ١٠٨.

(٣٠٠) «بيان اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول المبادرة الأمريكية، عمان، ٢٥/٧/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٨٠، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢، و**الأحرار** (بيروت)، ٣١/٧/١٩٧٠.

(٣٠١) «بيان اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول المبادرة الأمريكية، عمان، ٢٥/٧/١٩٧٠،» ص ٥٢١ ـ ٥٢٢؛ «بيان صحفي للدكتور جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، طرابلس، ٢٥/٧/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ٤، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٧، و**الهدف** (بيروت) (آب/أغسطس ١٩٧٠).

(٣٠٢) للمزيد من التفصيل، انظر: «بيان اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول المبادرة الأمريكية، عمان، ٢٥/٧/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٨٠، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢؛ **الأحرار**، ٣١/٧/١٩٧٠؛ «بيان اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول المبادرة الأمريكية لحل أزمة الشرق الأوسط،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٢٨٩، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠؛ **النهار**، ٢٧/٧/١٩٧٠؛ «كلمة السيد ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في افتتاح ندوة فلسطين العالمية، =

وقتذاك أن تتطرق إلى هذا الأمر، على رغم أهميته القصوى، بله أن ترد عليه، الأمر الذي فهمته المقاومة الفلسطينية خير الفهم، فتحركت باتجاه التنسيق بين قواها، للوصول إلى صيغ أشد مضاءً في مفعولها في المقاومة ضد الكيان[٣٠٣].

شجّع الخلاف الدائر بين عبد الناصر والمقاومة الفلسطينية في الرؤية الفكرية السياسية لمبادرة روجرز، جهات عديدة لاستثماره لصالحها، وكان النظام الأردني في مقدمة هذه الجهات. وكان هذا النظام لا يجرؤ على إدانة العمل الفدائي الفلسطيني لما يتمتع به من احترام لدى الجماهير العربية، ولأهمية الدور الذي كان يقوم به بعد نكسة حزيران/يونيو لكنه كان يتربص به، ويترقب الفرصة السانحة التي سنحت له، فعلاً، بتفاقم الخلاف وتصعيد المعارك الإعلامية الى حد اتهام عبد الناصر بالخيانة، بعد ان كان إلى الأمس القريب بطلاً قومياً عظيماً في نظر المقاومة[٣٠٤]. ومما زاد في حدة الموقف الدعم العسكري والمالي الذي حظيت به المقاومة من العراق وسوريا، حيث كان لهذا الدعم أثره في تصميم المقاومة على مواصلة التحدي، وفي تخندقها مع الدول العربية المؤيدة لها في خندق واحد[٣٠٥]. ولكن المقاومة عاشت في الأردن، بالمقابل، نكسة كبيرة لأسباب معروفة، خصوصاً منذ بداية أيلول/سبتمبر ١٩٧٠[٣٠٦].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا كان موقف عبد الناصر، وكيف أثر ذلك في الفكر الناصري، وكيف كان رده؟ في الجواب عن هذا السؤال لا بد من القول إن الفكر الناصري كان متوتراً، عموماً، بعد نكسة حزيران/يونيو ١٩٦٧، وقد تطامن شيئاً بعد توصله الى استراتيجية فكرية ـ سياسية جديدة، انتهجت أقصى المرونة والحكمة والصبر، مع التحضير الحقيقي للتحرير وإزالة آثار العدوان، باعتماد أكثر من طريق واحد لذلك، واستثمار العمل السياسي والدبلوماسي الى الحد الأقصى، واستطاع هذا الفكر ان يتحرر من أقصى التوتر الذي لازمه أيام النكسة، وبعدها بأشهر، متطامناً الى عدد من إنجازات حرب الاستنزاف من جهة، والعمل السياسي من جهة أخرى، وكسب الرأي العام العالمي، وتعاطف عدد من الدول الأوروبية، وتأييد دول عدم الانحياز التي قطعت معظمها العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع

= عمان، ٢/٩/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، المصدر نفسه، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٣٠، ص ٦٠٠.

(٣٠٣) الخطيب، مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣، ص ١٦٨.

(٣٠٤) حروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو، ج ٥: خريف عبد الناصر، ص ٢٦٤، وفريد، معد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠، ص ٢٥٠.

(٣٠٥) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص ٩٤ ـ ١٠٠.

(٣٠٦) تتوفر مصادر عديدة حول الموضوع الذي لا يدخل ضمن مهمة دراستنا بصورة مباشرة، للتفصيل عنه انظر: السامرائي، الولايات المتحدة الأمريكية والمؤامرة على الأمة العربية، ص ٦٦ ـ ٦٨.

الكيان الصهيوني كطرف قائم بالعدوان. ولكن القتال في الأردن بين الفلسطينيين والجيش الأردني صَعّد الموقف، وفاقم التوتر، الأمر الذي ترك تأثيره البليغ في الفكر الناصري في هذا الوقت العصيب جداً. وعلى أية حال، فإن الفكر الناصري المأزوم للغاية، حيال هذه الأحداث الرهيبة، ظل محافظاً على توازنه، ولم يتخبط، ولم يتسرع لإصدار أحكام مدمرة تسمح بتصرفات عسكرية وسياسية كارثية. لقد كانت هذه نكسة ثانية، لها خصوصيتها الخاصة، باعتبارها حاصلةً في وسط عربي، نتيجة تصرفات عربية، لكن الفكر الناصري وعبد الناصر نفسه لم يكن طرفاً مباشراً فيها. صحيح أنها حصلت نتيجة استثمار غادر لمزايدات بعض الفدائيين، وتصعيد الحملة الإعلامية لبعض المهووسين ضد عبد الناصر، لكن عبد الناصر نفسه لم يدفع أحداً ما للقتال، ولم يحرض أية جهة، بل على العكس، كان الفكر الناصري في موقف دفاع عن خطوته السياسية الثانية بقبوله مبادرة روجرز التي أعقبت خطوته السياسية بقبوله القرار ٢٤٢. وكان هذا الفكر يحرز كسباً سياسياً كبيراً لدى الرأي العام العالمي، وأخذ نهجه السياسي الدبلوماسي يوطد مواقعه لدى المعسكر الاشتراكي، وأوساط عالم عدم الانحياز، وان كان يلقى المعارضة من جانب المقاومة الفلسطينية، وبعض الدول العربية المؤيدة لها.

كان عبد الناصر يستجم في مرسي مطروح أثناء اندلاع الصراع الحاد بين الأردن والمقاومة الفلسطينية، فقد كان مريضاً بالقلب، وقد خضع لمعالجة حادة، وكان بأمس الحاجة إلى الراحة، يقول هيكل عن إجازته هذه: «وقلنا هذه بداية مهمة، لعل الرئيس في هذه الإجازة يرتاح، ويستعيد صحته، ويصون قلبه، (ولكن) قبل أن يسترخي على رمال مرسى مطروح اندلع القتال في الأردن. وحاولنا ألا نبلغه شيئاً، لكنه، وهو الذي يحرص على متابعة الاذاعات، عرف بما يجري، وبدأ يتصل بالقاهرة، وقطع الإجازة، وعاد من مرسي مطروح متحملاً آلامه، وبدأ مساعيه من أجل الإعداد لقمة عربية تضع حداً للأحداث الدموية في الأردن بين الجيش والمقاومة[٣٠٧].

لقد قرر عبد الناصر الحفاظ على وحدة الصف العربي، ولو بالحد الأدنى، بكل وسيلة ممكنة. ان الفكر الناصري، على رغم كل ما اتهم به من اتهامات ظالمة بالمهادنة والانحراف نحو اليمين والرجعية (وحتى الاتهام بالخيانة!)، ظل فكراً قومياً تحررياً، وظل نزوعه السياسي ثورياً حصيفاً[٣٠٨]. إن الدم العربي المراق أياً كان يهمه جداً،

---

(٣٠٧) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٩١.

(٣٠٨) «حديث السيد محمد حسنين هيكل، وزير الإرشاد المصري إلى جريدة النهار البيروتية، حول الوضع الراهن في الدول العربية، ٢/٨/ ١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات =

ويقض مضجعه، ويؤرقه، بل انه أسهم في اشتداد أزمته القلبية ووفاته بعد عشرة أيام من مجزرة أيلول الأسود. وينبغي القول إن عبد الناصر كان يتجنب، ما وسعه ذلك، اقتتال الإخوة، وإراقة الدم العربي، ولذلك تفادى الاشتباك الحاسم في سوريا بعد الانفصال، وسحب القوات المصرية من اليمن آخر الأمر، وبذل، كل ما استطاع لرأب الصدع، وإيقاف القتال الفلسطيني ـ الأردني في الأردن. وكان بعيد النظر في ذلك، لأن الامريكان كانوا يريدون التدخل لصالح الأردن، فقد بدأت تحركات الأسطول السادس في السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وزادت تصريحات وزارة الخارجية الامريكية الأمر تعقيداً، خصوصاً بعد ان طلبت من الاتحاد السوفياتي ممارسة الضغط على السوريين (الذين كانوا قد حركوا لواءً مدرعاً الى شمال الأردن لنصرة المقاومة)، لسحب قواتهم[٣٠٩]. وبالفعل صدر بيان سوفياتي يدين اقتتال الأشقاء لأن ذلك لا يخدم إلا الأعداء، وفي الوقت ذاته أحاط الكرملين واشنطن علماً باتصاله المستمر مع الحكومة السورية[٣١٠]. والحق، ان عبد الناصر كان قد استقرأ الوضع الفلسطيني ـ الأردني مقدماً، حين زار الملك حسين القاهرة (في أواخر تموز/يوليو ١٩٧٠)، وعندما زار ياسر عرفات القاهرة (في آب/اغسطس ١٩٧٠)، ولكنه لم يتوقع ان تصل الأمور الى هذا الحد ـ حد الاقتتال والتصفية[٣١١]. ولذلك كانت دعوته الى عقد مؤتمر القمة في القاهرة، كما انه بادر بإرسال رسالة الى الملك حسين وياسر عرفات حملها الفريق محمد صادق، رئيس هيئة الأركان المصرية، في التاسع عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٧٠، يوضح فيها أخطار الكارثة وأبعادها. وحينما وجد عبد الناصر أن هناك إصراراً على تصفية المقاومة الفلسطينية، بعث ببرقية سرية الى الملك حسين يطلب منه وقف إطلاق النار، والتعاون مع لجنة الملوك والرؤساء العرب للتوصل الى اتفاق، وهدّد بأنه سيرسل قوات عين جالوت التابعة لجيش التحرير الفلسطيني، والمرابطة على الجبهة المصرية من أجل القتال في صفوف المقاومة.
وانعكس الفكر الناصري في تحوله الجديد في فرض التضامن العربي بالقوة، إضافةً الى الاجراءات الآنفة الذكر، انعكس في الحملة الإعلامية ـ الفكرية، في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وسائر وسائل الاتصال الجماهيري، في إدانة التحرك التصفوي ضد المقاومة، بوصفه جزءاً من مؤامرة أمريكية تستهدف تصفية العمل الفدائي

= السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ٤، الوثيقة رقم ٣١٢، ص ٥٦٦ ـ ٥٧٠.

(٣٠٩) حمروش، **قصة ثورة ٢٣ يوليو**، ج ٥: **خريف عبد الناصر**، ص ٢٥٤، وفريد، معد، **من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠**، ص ٦٠٠.

(٣١٠) حمروش، المصدر نفسه، ص ٦٠١.

(٣١١) فريد، معد، المصدر نفسه، ص ٢٥٤، والمصدر نفسه، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

الفلسطيني، الذي يشكل، دون شك، فصيلاً له مكانته الكبيرة في صفوف حركة التحرر القومي العربي[٣١٢]. ومن هنا كانت جهود عبد الناصر البالغة، على حساب صحته وقلبه المعتل، لحسم المسألة عن طريق مؤتمر القمة العربي، الذي بدأ أعماله في ٢٢ و٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. وتوصل المؤتمر، بضغط مباشر ومتابعة دقيقة من جانب الرئيس عبد الناصر نفسه، وفي يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠، الى اتفاق وقعه الملك حسين وياسر عرفات، نص على ما يلي:

أولاً: الوقف الفوري لإطلاق النار.

ثانياً: انسحاب الجيش الأردني والفدائيين من كافة المدن قبل مغرب اليوم نفسه.

ثالثاً: تكليف لجنة برئاسة الباهي الأدغم للسفر إلى الأردن في يوم ٢٨ أيلول/سبتمبر للإشراف على إجراءات التنفيذ[٣١٣].

وانتهى أطول مؤتمر في تاريخ العرب المعاصر، حتى آنذاك، امتد اسبوعاً كاملاً. وغادر عبد الناصر فندق هيلتون يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ إلى داره ليكون قريباً من المطار أثناء توديع الملوك والرؤساء والأمراء. وانتهى هذا المؤتمر بمأساة رحيل عبد الناصر نفسه، متأثراً بالإرهاق البالغ لقلبه المضنى وجسده العليل.

وثمّة رأي يقول ان إحساس عبد الناصر بأن قبوله مبادرة روجرز هو الذي فجّر الأحداث التي استغلها الاعداء، ليبلغوا بها هذا الحد المأساوي الرهيب في مجزرة أيلول الأسود التي هُدف منها الى تصفية المقاومة الفلسطينية . . . ان هذا الإحساس هو الذي أدى به الى استعجال عقد مؤتمر القمة ومتابعة وقائعه بنفسه، وهو الذي عجّل، بتأثير الإرهاق والنوبة القلبية، بوفاته في الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. يقول عبد المجيد فريد انه استمع من عبد الناصر نفسه الى قوله «لولا هزيمة ١٩٦٧ لما حدث ما جرى بعمان والأردن، ولولا تلك الهزيمة لما قُتل آلاف من الأبرياء والأطفال». ويقول عبد المجيد فريد، حاولت ان أغيّر الموضوع، أو أنكر مسؤوليته الشخصية، ولكن حساب النفس وصوت الضمير كانا أقسى عليه بكثير من كلماتي. ويؤكّد، أيضاً، أن عبد الناصر تعرض خلال السبعة أيام، من ٢٠ أيلول/سبتمبر الى جهد عصبي ونفسي لا يتحمله بشر، فلم ينم في تلك الأيام إلا بعد الثالثة، وأحياناً الخامسة، ليبدأ لقاءاته في التاسعة من صباح اليوم التالي. وكان عبد الناصر يطلب من الرؤساء والملوك أثناء اجتماعهم المغلق باستراحة لبضع دقائق كل ساعتين، وذلك،

---

(٣١٢) حمروش، المصدر نفسه، ص ٢٦١، وفريد، معد، ص ٢٥٤.

(٣١٣) «اتفاق القاهرة بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية، عمان، ٢٧/٩/١٩٧٠،» في: الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة، مكتبة نعمة يافث التذكارية، **الوثائق العربية**، ج ٤، الوثيقة رقم ٣٦٥، ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨.

لكي يمشي على مدفأة، ولا سيّما حين يشتد الألم في أعصاب ساقيه الملتهبة نتيجة الجلوس ساكناً لساعات طويلة[٣١٤].

ويمثل هذا، أو بما يقرب منه يقول هيكل، أيضاً: «... كان التحضير لهذا المؤتمر عملية شاقة. فلكي ينعقد هذا المؤتمر يجب إحضار ياسر عرفات وبقية قادة المقاومة من الأردن. ولكي ينجح المؤتمر لا بد من السيطرة على كل الانفعالات التي ستشهدها المناقشات. كان هدفه أن يتوقف القتال بأي شكل. وأجزم أن الجهد الذي بذله جمال عبد الناصر في ذلك المؤتمر لم يبذله في أي مؤتمر آخر. حتى في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي عقد في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ لم يبذل جهداً بنسبة الجهد الذي بذله في قمة القاهرة لوقف إراقة الدماء في الأردن... صباح يوم ٢٨ أيلول/سبتمبر توجهت إلى مكتبتي ... ونحو التاسعة صباحاً اتصل بي الرئيس عبد الناصر يسأل عن ردود الفعل حيال اتفاق القاهرة، وكان مهتماً جداً بمعرفة رد فعل اسرائيل... وقبل ان يتصل بي عبد الناصر كان قد اتصل بالفريق صادق يسأل عن الموقف في عمان، وعما اذا كان القتال توقف بين المقاومة والجيش الأردني... بعد ذلك توجه إلى المطار ليودع الملك فيصل وبعض الملوك والرؤساء الذين شاركوا في القمة. ونحو الثانية عشرة والنصف ظهراً اتصل بي ثانية هاتفياً، وقال انه عائد من المطار في غاية التعب، وقال أيضاً عبارة تشاءمت منها، وهي «فاضل الوداع الأخير... مع أمير الكويت»... الواقع أن الأطباء كانوا الى جانب عبد الناصر، أو قريبين منه عندما كان يودع أمير الكويت... لكن الذي حدث هو انه عند سلم الطائرة شعر بالتعب. ولمجرد أن بدأ أمير الكويت يصعد سلم الطائرة ركب عبد الناصر سيارته، وطلب ان تلحق به سيارة الأطباء إلى منزله. وفي المنزل أجرى الأطباء تشخصياً وتبيّن لهم أن الأزمة القلبية الثانية قوية جداً وقد تبعها انفجار في الشريان»[٣١٥].

وهكذا انتهى أحد خوارق العرب في تاريخهم الحديث، جمال بعد الناصر الذي أيقظ الوطن، وهز العالم بأفكاره وأعماله، لذا لا غرو ان خرجت مئات الألوف، ثم الملايين، باكية وناعية الابن والاخ والأب والصديق والقائد والرئيس والمعلم والمفكر، وهي تنشج بصوت حزين، وبأسلوب بسيط:

يا جمال يا نور العين   سايب العرب ورايح فين[٣١٦]

---

(٣١٤) فريد، معد، المصدر نفسه، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٣١٥) مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣١٦) قيل الكثير الكثير في ثناء ورثاء عبد الناصر قائداً ومفكراً، وقد جمع ما قيل عنه في كتاب يحمل عنوان: عبد الناصر وهؤلاء (القاهرة: مطبعة عابدين، ١٩٧٥).

هز النبأ المفجع العالم كله، وأشغل وسائل الإعلام في كل مكان طوال أيام، واشترك في تشييعه أبرز زعماء العالم، دليلاً على خلود الرجل فكراً وعملاً. وقد مات عبد الناصر فعلاً شهيداً، أو كما قال عنه نزار قباني:

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك

ليس جديداً علينا، اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ذبحناه، وهو يصلي صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء»[٣١٧].

---

(٣١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

خلاصـــة نظريـــة
الناصرية مفهوماً وإطاراً أيديولوجياً عاماً

تصدى جمال عبد الناصر لأمور بالغة الخطورة مصرياً وعربياً، ومن زاوية السياسة الدولية، رفعت من شأنه إلى القمة[١]. كان ألمعياً بمعنى الكلمة، فهو ذو هيبة طبيعية بقامته المديدة، وسمرته المحببة، ووسامته الملحوظة، يزيّنها صوت مخملي إنسيابي يعبّر عن قدرة خطابية آسرة ترتاد ميادين حساسة في السياسة المصرية والعربية والدولية، وكان قوي التأثير، ذكياً في إثارة العواطف.

لقد تعددت الآراء في تحديد مصطلح وتسمية الناصرية تياراً فكرياً وسياسياً. ولكن لا شك في أن الناصرية، مصطلحاً، تقترن بفلسفة ثورة ٢٣ تموز/يوليو. وهي كتسمية وتعبير ومصطلح نسبت إلى اسم عبد الناصر وإنجازاته الوطنية والقومية، على الرغم من أن هذا المصطلح لم يلقَ قبولاً، أو ارتياحاً من عبد الناصر في حياته، لإصراره على اعتبار ثورته تعبيراً عن الثورة العربية الشاملة، لذلك لم تستخدم أجهزة الإعلام المصرية في عهده هذا المصطلح قط. بيد أن التسمية ترددت كثيراً في كتابات الباحثين العرب، وعلى صفحات الصحف العربية، بعد اشتهار عبد الناصر قائداً عربياً، وشخصية عالمية في معركة تأميم قناة السويس، وخلال أيام العدوان الثلاثي

---

(١) كتبنا هذه الخلاصة بالاستناد إلى ما استنتجناه من قراءة كم هائل من مؤلفات جمال عبد الناصر، ومن الكتب والبحوث لأساتذة معروفين من أمثال محمد حسنين هيكل وعبد اللطيف البغدادي وخالد محيي الدين وأحمد حمروش وعبد المجيد فريد وجمال الأتاسي والدكتور عبد الله إمام والدكتور غالي شكري ومحمد فريد شهدي ومطاع صفدي، وغيرهم ممن وردت أسماء مؤلفاتهم في هوامش الأطروحة، وقائمة مصادرها، ولقد أولى جميعهم الموضوع اهتماماً خاصاً، وناقشوا جوانبه المختلفة مع أنفسهم، أو مع شخص جمال عبد الناصر مباشرة، والتقوا جميعاً في استنتاجاتهم الأساسية بصدد أفكاره. كما استعنّا في صياغة هذا المبحث بآراء الأساتذة شبلي العيسمي والدكتور الياس فرح وأمين الحافظ ومسعود محمد والسيد نصار والدكتور وميض جمال عمر نظمي وفيصل فهمي سعيد، وغيرهم ممن قابلناهم، وناقشناهم، وقد راقب جميع هؤلاء الأحداث عن كثب، وتابعوها باهتمام، كما التقى العديد منهم عبد الناصر شخصياً.

على مصر، وبعدها حتى وفاته، فامتد اسمه، وتأثير أفكاره إلى أقصى زاوية قصية من الوطن العربي.

يؤكد الدكتور محمد فاضل الجمالي بأنه هو الذي استخدم لأول مرة مصطلح الناصرية في عام ١٩٥٥[٢]، ولكن الشائع ان الدكتور عبد الله عبد الدائم هو أول من استخدم المصطلح من الكتّاب العرب في عام ١٩٥٦[٣]. أما في مصر فقد شاع المصطلح بعد وفاة جمال عبد الناصر، وما زال ذائعاً كتيار سياسي، وكمدرسة فكرية، وكحزب. وكان أشهر من استخدمه من الكتّاب محمد حسنين هيكل، والدكتور رفعت السعيد، والدكتور غالي شكري، ومحمد فريد شهدي، ود. عصمت سيف الدولة.

وكما أسلفنا لم يستخدم المصطلح في مصر في حياة جمال عبد الناصر، لأنه كان يعني تقليص القضية التي تمثلها الناصرية، وربطها بالفردية تمهيداً لضربها، ذلك ان مهاجمتها تصبح أسهل حين يجري تجريدها من المبدئية، لتحويلها، بالتالي، إلى مجرد انتماء وولاء لشخص عبد الناصر. وعلى العموم ففي حياة عبد الناصر كانت الرجعية العربية، ووسائل الإعلام الغربية والصهيونية تستخدم المصطلح بكثافة في معرض الانتقاد والتجريح والتشهير، ناسبةً كل ما تراه تخريباً وتدهوراً وسلبياً بشكل عام، إلى شخصية عبد الناصر التي هيمنت على المسرح السياسي، وحازت احترام الجماهير العربية.

وعلى صعيد المفهوم أيضاً اختلف الباحثون في تفسير الناصرية، وكان ذلك، بالضرورة، دليلاً على اختلاف الرؤية الفكرية، ومنطق الاجتهاد عند واضعي ومستخدمي المفهوم. لكن الناصرية، عموماً، وباتفاق الآراء لا تعدو أن تكون ظاهرة قومية واجتماعية وتاريخية، جسّدها وطبعها بأسلوب تفكيره وعمله عبد الناصر، واستمرت بعده ظاهرةً قابلةً للاحتفاظ بنتائج أسلوبه. ولم تكن الناصرية الوحيدة في هذا المضمار، بل توافقت وتزامنت معها ظواهر فكرية مماثلة عديدة في الحقبة ذاتها، أي في الربع الأول من النصف الثاني من القرن العشرين. لكن الناصرية تقدمت على معظم هذه الظواهر القومية التحررية بفعل قدرتها على التواصل على الرغم من الصعوبات والعقبات، بل انها استمدت من هذه العقبات القوة على المزيد من الاندفاع، ونجحت في الفهم الصحيح الذي انطلقت منه.

فعلى الصعيد القومي أيقظت الناصرية روح الوطنية والانتماء القومي في الوطن

---

(٢) الوسط (لندن) (١٤ تموز/يوليو ١٩٩٧)، ص ٣٦. أكد الجمالي القول نفسه في مؤلفاته. انظر: محمد فاضل الجمالي، صفحات من تاريخنا المعاصر (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٩٢)، ص ١٩٧.

(٣) عبد الله عبد الدائم، «معركتنا: معركة القومية الجديدة،» الآداب (بيروت)، السنة ٤، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦).

العربي، وشكّلت القومية والوحدة دليل عمل لها، وعنيت بالجماهير الشعبية وطورت مستوياتها الاقتصادية والسياسية والحياتية والمعاشية، وبذلت كل ما أمكنها لصالح نهوض قومي عربي، فأعادت بلورة الهوية العربية بعد قرون من العبودية والذل، رافعة من شأن الوعي القومي ودوره الكفاحي الكبير، مدركة عمق التخلف التاريخي في الوطن العربي بسبب السيطرة الاستعمارية الطويلة، وقطعها الصلات القائمة بين اقتصادات الأقطار العربية التي اتسمت، لهذه الأسباب، بالتخلف والتبعية للاقتصاد الإمبريالي العالمي.

ومن أبرز النتائج التي حققتها الناصرية بالاستناد إلى الوعي القومي المتعاظم، وبلورة الإرادة السياسية الوحدوية، إقامتها أول وحدة عربية بين مصر وسوريا، وهي التي عجزت الايديولوجيات المعاصرة عن تشكيلها. ويسجل للناصرية اعتمادها الوعي القومي ركيزة أساسية في تشييد الكيان السياسي، وهنا، بالذات، يتضح أثر قراءات ناصر في الفكر والتربية والقومية الألمانية، وتأثير الفلاسفة، وأبرزهم فيخته والمعلمين الألمان، على حملة بسمارك التاريخية الشهيرة لفرض الوحدة الألمانية بين المقاطعات الألمانية التي تشبه لحد بعيد أنظمة ملوك الطوائف العرب في انعزاليتهم وتشرذمهم.

واستناداً إلى كل ما تقدم، فإن الناصرية تعد ظاهرةً متكاملة في إعادة البناء الوطني والقومي، تأسيساً على ما يشكله العرب كأمة واحدة موحّدة في تاريخها ولغتها وآمالها وضميرها المشترك الواحد. واستطاعت الناصرية أن توضح للعرب، جميعاً، أن مستلزمات نهوض أمتهم تكمن، أساساً، في الوحدة. وعلى هذا الأساس أطلقت الناصرية شعاراتها القومية النضالية العربية عقب العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، وحسبنا الإشارة، هنا، إلى خطبة الوحدة. واقترن ذلك، فيما بعد، وترصّن بربط حركة الوحدة العربية بحركة التغيير الاجتماعي والإصلاح الاقتصادي، وهنا تنبغي الإشارة إلى خطب وبيانات التوجيه والتحليل حول التحول الاشتراكي، واعتماد إرادة الجماهير ومصالحها، أساساً ومنطلقاً. وهكذا اختطت الناصرية طريقاً للاشتراكية يتلاءم مع فلسفتها الاجتماعية هي، وينسجم مع قيم المجتمع العربي، فاعتمدت الإنسان قاعدة ومنطلقاً وهدفاً، وأكدت على دور القوى الاجتماعية في رسم وتنفيذ السياسات الوطنية والقومية، وعالجت المشاكل الاجتماعية والسياسية بما ينسجم، ويتساوق مع حركة التطور الحضاري للأمة.

تكون الناصرية بذلك حركة تاريخية قادها مداً وجزراً، شداً وجذباً، سلباً وإيجاباً، طوال الثمانية عشر عاماً من حكمه، عبد الناصر «الرمز الأول لهذه الحركة التاريخية التي عرفتها مصر والوطن العربي بأكمله، بل وحتى حركة التحرر الوطني العالمية». ولم يكن عبد الناصر حين قاد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فيلسوفاً يطبق إحدى نظريات العمل الثوري، وبالمقابل لم يكن مغامراً. فقد كان أحد أبناء جيل عقد

الأربعينيات في مصر، الجيل الاستثنائي في التاريخ الحديث.

وفي ضوء تداعيات ثورة ٢٣ يوليو، ومعطيات التطورات اللاحقة التي تمخضت عن عوامل داخلية موضوعية، وضغوط خارجية مفروضة يمكن أن تعرّف الناصرية بأنها حركة ثورية اشتراكية، أكدت، بين أمور عديدة، أهمية البعد القومي للنضال التحرري في إنجاز مهماتها، فيها «بداية عمر جديد للعرب بعد زمن طويل من الموت السياسي». فإن الناصرية انبثقت، في الواقع، كحركة تاريخية لتغيير المجتمع العربي الحافل بالقيم الروحية، مؤكدة الترابط الجدلي بين الوحدة العربية والحرية، من خلال محاربة الاستعمار والصهيونية، فحملت على عاتقها مهمة تثوير الضمير القومي العربي لدفع العرب في حركة التاريخ، وامتلكت وعياً منسجماً ومتوافقاً مع حاجات التقدم، فحاولت أن تربط الأصالة بالمعاصرة من خلال التمازج بين العروبة والإسلام، كما انها استوعبت، بالضرورة، مصالح المجتمعات والمؤشرات الأساسية لحركة التغيير بالاعتماد على الجماهير وإرادتها وحقها في إدارة شؤونها.

ويمكن القول أيضاً إن الناصرية فكرة متكاملة إلى حد واضح بمفهوم العصر، وفي إطار المكان، للعديد من جوانب الحياة، لم تتحدد بالعموميات بوضع الإطار النظري للفلسفة، بل تجاوزتها إلى التطبيق الشامل والحوار برؤية واعية ثورية حول أهم المبادئ التي شكلت نهجاً فكرياً وسياسياً وتنظيمياً يسهم في صياغة منهاج كامل وشامل للتقدم، كان من شأنه أن يشكل رافداً أساسياً لحركة الثورة العربية، ووضع استراتيجيتها ذات الأهداف والمهمات المحددة. وقد ساعد على بلورتها انفتاحها على الفكر الاشتراكي والإنساني والعالمي، وعدم ضيقها بما سبقها من نظريات، ومحاولة الإفادة من عطائها، بالانطلاق من أهم الثوابت المبدئية التي اعتمدتها الناصرية، والتي تقول إن الحلول الحقيقية لمشاكل أي شعب لا يمكن استيرادها من تجارب شعب غيره. لقد صاغ عبد الناصر بعد الثورة هذه الفكرة في خطاباته وتصريحاته ومواثيقه، وزادها وضوحاً في مناسبات كثيرة، وتعرض لمناقشتها في مواقف عديدة خلال اجتماعاته المفتوحة مع الجماهير، والمغلقة مع القادة والساسة والزعماء ورؤساء الدول. وبالطبع فإن أية نظرية لا تعدو أن تكون تطويراً لخطوط فكرية عامة تتطور من خلال التطبيق، كما أنه لا يمكن، بأية حال، فصل الفكر عن التطبيق، وبخاصة بالنسبة للفكر الناصري الذي كان يتم تطبيقه في وجود وحياة القائد عبد الناصر، صانعه وواضعه. وقد اكتسب الفكر الناصري مضموناً اجتماعياً تقدمياً، وبعداً وحدوياً عربياً بالتفاعل الحي مع التاريخ القومي تأثراً به وتأثيراً فيه نحو برنامج تفصيلي بفتح طريق الثورة إلى أهدافها اللامتناهية، أساسها الإنسان وحريته وكرامته، وسط ميدان العمل والتطبيق، وبين محاولات التجربة والخطأ في إطار النظرة التي كانت تسعى إلى الاتساع والشمول، وفي ظل ظروف صعبة بالنسبة لطبيعة الثورة ذاتها التي اندلعت دون أن ترتكز على تنظيم حزبي ثوري يسندها، ومن غير نظرية كاملة للتغيير الثوري. وعلى

الرغم من ذلك استطاعت الناصرية أن تنمو، وتتكامل بالممارسة الفعلية والواقعية، وشقت طريقها الخاص منطلقة من خصوصية ظروف مجتمعها وطبيعته، ووضعت بالتالي مبادئ عامة للثورة، كانت الممارسة هي التي أكدتها وبلورت أبعادها. وكانت هذه هي المبادئ الستة للثورة، وهي:

١ ـ القضاء على الاستعمار.

٢ ـ تصفية الإقطاع.

٣ ـ القضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم.

٤ ـ إصلاح الجيش باتجاه وطني.

٥ ـ تحقيق العدالة الاجتماعية.

٦ ـ إقامة نظام ديمقراطي سليم بمفهوم جديد.

ولم تكن هذه المبادئ العامة الستة لتشكّل وحدها نظرية عمل ثوري كاملة، ولكنها كانت، في الواقع، دليلاً للعمل. وكانت قمة نضوج فكر عبد الناصر هي الارتقاء بالعديد من هذه المبادئ العامة، وبمعطيات التجارب المختلفة في خضم التطبيق والتفاعل مع تطورات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومتغيراتها على مدى عقد من الزمن تقريباً، وبلورتها بشكل أكثر تطوراً وتقدماً وهو الميثاق الناصري.

إذن، فإن جمال عبد الناصر لم يكن فيلسوفاً لثورة الأمة العربية في هذا العصر، بل كان يعيش الفلسفة إحساساً ومعاناة، ويطبقها ممارسةً ونضالاً. إن عبد الناصر لم يقدم ايديولوجيا، أو نظرية محددة، أو منهجاً متكاملاً في البحث والتفكير يقود الثورة في جميع مراحلها إلى طريقها وأهدافها، ويبين الوحدة الفكرية لطلائعها، ولكنه بفكره يمثل ايديولوجية ثورية في مخاض التشكيل من خلال التجربة الثورية الخاصة، والتعلم من تجارب الآخرين بما ينسجم مع مهمة تطوير نضال العرب، وحركة نهوض الآخرين.

ومن خصائص الفكر الناصري وإيجابياته نشأة وتطوراً، قبل الثورة كما بعدها، انه تحدد، وصولاً إلى الأهداف القومية الكبرى، من خلال نضوج وتعاظم وعي الجماهير الوطني والقومي، وحركة نضالها على مدى الوطن العربي في الحرية والاشتراكية والوحدة. فالناصرية بهذا المفهوم «هي الأفكار النظرية العامة» التي توجه تلك الاستراتيجيا والمضامين المحددة التي انطوت عليها تلك الأهداف القومية، أو بكلمة أخرى إنها الايديولوجيا الثورية المعبرة عن روح الأمة.

وإذا آمنا بأن الايديولوجيا، بمفهومها العام، إنما هي المنظور الكلي للعالم سواء بالنسبة للفرد أم للفئة الاجتماعية أم الأمة، وكذلك بوجود شكلين للايديولوجيا،

الأول هو المنظور الضيق، أي «المذهبيّة الضيقة التي تفرض نفسها على الواقع بأفكار ومنظورات عامة مسبقة، بدلاً من أن تستنبط معطياتها من حركة الواقع ومن حركة التاريخ»، بمعنى أنها تفرض تطابقاً قسرياً بين منظوراتها والواقع، والثاني نظرة مباشرة، محددة، منفتحة، تكون فيها الايديولوجيا مجموعة مبادئ ومفاهيم وأفكار توجه العمل السياسي، وترمي لأهداف محددة، وتصاغ على أساسها استراتيجية عمل بعيدة المدى، وتستخلص منها تكتيكات الصراع وأساليبه وبناء النظم والدولة، وفي بناء العلاقات الاجتماعية. إذا آمنّا بذلك فإن الناصرية تكون قد قدمت، من خلال الشكل الثاني، وعبر تجربتها المتميّزة الخاصة، ايديولوجيا معبرة عن الواقع العربي، وما زالت متقدمة على ما سبقها ومعظم ما لحقها من ايديولوجيات عربية، وذلك لأنها وليدة معاناة قوى النضال العربي وخبرة الأمة ومعاناتها. ومن هنا فإن الناصرية أصبحت، بالنسبة لوقتها، ايديولوجيا الثورة العربية الشاملة، بوصفها ربطت جذرياً بين ايديولوجيتي الثورة الوطنية والديمقراطية، في إطار الوحدة القومية، كما أن مضامين الثورة وأبعادها في المنظور الناصري لم تتكامل إلا عندما التزمت بنهج تاريخي محدد، نضجت مقدماته في أوائل العقد السابع.

وإذا تجاوزنا هذا الإطار الخاص إلى إطار أشمل فيمكن تقويم الفكر الناصري بوصفه فكر الثورة الذي تشكل من إنجاز إلى إنجاز، فيما يسميه بعض المفكرين الماركسيين بـ «الثورة المستمرة» الوطنية الديمقراطية المصرية المتعددة المهمات، والمتداخلة المراحل، الآخذة ببعدها القومي العربي إطاراً وهدفاً وحدوياً، المتوجهة باتجاه الاشتراكية عمقاً ومضموناً، المنفتحة على الفكر التحرري الإنساني والاشتراكي.

كان فكر جمال عبد الناصر مرتبطاً بتقدم تجربته وممارسته، وكان محكوماً، في الوقت ذاته، بواقع ناصر السياسي ومسؤولياته منذ بداية تجربته، فإنه، وفي كل مرحلة، وكل نقلة إلى الأمام، لم يكن يعطي نظرته الشمولية أبعادها القصوى، وكأن تلك المسؤوليات كانت قيداً عليه تطالبه بالوقوف عند حد معين من الالتزام الايديولوجي.

وكما هو معلوم، ان الايديولوجيا هي تلك المجموعة المنسقة من الأفكار التي تتعلق بشكل النظام الاجتماعي وغايته، وتشتمل على عنصرين: الغاية التي ينبغي للمجتمع التطلع إليها، والوسائل التي تمكن من الوصول إلى الهدف، وان التطور الفكري لايديولوجيا أي مجتمع، بصفة عامة، ولأية قيادة سياسية بصفة خاصة، لا يحدث من فراغ، وهو ليس عملية عقلية أو رياضة ذهنية مجردة، بل انه يرتبط بمجمل التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي العام، يؤثر فيه ويتأثر به. ولا يمكن فهم التطور الفكري فهماً متكاملاً إلا في الإطار العام لمسار المجتمع من حيث علاقاته ونظمه ومؤسساته. في ضوء ذلك يمكن القول إن رئيس منظمة الضباط الأحرار،

ومن ثم رئيس الدولة جمال عبد الناصر، هو الذي عبّر عن التطور الفكري للنظام أساساً، أما زملاء عبد الناصر من تنظيم الضباط الأحرار الذين تولوا السلطة في ٢٣ يوليو، فلم يكونوا ملتزمين بايديولوجيا محددة، أو بمذهب اجتماعي بعينه، أو باتجاه واحد. وقد بلور الحكم الناصري ما أسماه بالتجربة والخطأ، وقد تطورت أفكار رجال هذا الحكم نتيجة خبراتهم المتراكمة، وممارساتهم العملية في الحكم. وقد اعترف عبد الناصر بذلك بالقول: «... إن قادة الجيش لم تكن لديهم فكرة واضحة عما يجب أن يفعلوه، عندما وجدوا أنفسهم فجأة في مقاعد السلطة». والحق، ان الناصرية تطورت كايديولوجيا بشكل تدريجي، وعلى مراحل، وارتبط هذا التطور بالتغيير في طبيعة السياسات الاقتصادية والاجتماعية، وبتجارب التنمية الجديدة في الحكم داخلياً وخارجياً.

أما المراحل التي مرّت بها الناصرية كايديولوجيا بعد انتصار الثورة، فهي:

أولاً: مرحلة إقرار القانون والنظام (تمتد من تموز/يوليو ١٩٥٢ حتى كانون الثاني/يناير ١٩٥٦). وكان الهدف الرئيس للنظام خلالها تثبيت دعائمه في مواجهة معارضة متعددة المصادر والاتجاهات داخلياً وخارجياً.

ثانياً: المرحلة الشعبية ـ تمتد من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٢، حيث صدرت في هذه الحقبة القوانين الاشتراكية ١٩٦١، والميثاق ١٩٦٢. وساد هذه الحقبة ما سمي بفلسفة الاتحاد القومي والاشتراكية والديمقراطية التعاونية.

ثالثاً: تمتد المرحلة الثالثة ما بين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٧٠، وقد رفع فيها شعار التخطيط القومي الشامل. ويطلق على هذه المرحلة أكثر من تسمية (اشتراكية الدولة، ورأسمالية الدولة، والاشتراكية العربية، والتطبيق العربي للاشتراكية).

هنا نجد أنفسنا أمام رأيين إضافيين، ينصبان في المجرى ذاته، أي تحديد الفكر الناصري باتجاه تعزيز الاستنتاج السائد عنه. يؤكد الرأي الأول[٤] ان الناصرية تيار يقترن بجمال عبد الناصر ذاته، وقد ولد معه، وهي تيار اقتصادي واجتماعي وسياسي في مصر، بينما هي تيار فكري في الوطن العربي، وانموذج وطني بارز بين حركات التحرر في العالم. ويتطابق هذا المفهوم مع اعتبار الناصرية حركة تاريخية، وايديولوجيا، لأن الناصرية رسخت في أذهان الجماهير العربية، والفكر الإنساني العالمي. ويرقى هذا المفهوم إلى اعتبار الناصرية مذهباً سياسياً، انطلاقاً من كونها نتاجاً لمجموعة القيم الفكرية ومحصلاتها التطبيقية، التي أرسى دعائمها النظرية، وقاد تجربتها، جمال عبد الناصر طوال ثمانية عشر عاماً لبناء دولة عصرية حديثة في مصر.

---

(٤) يعد الدكتور غالي شكري من أكثر المتحمسين لهذا الرأي، والمبشرين به.

أما الرأي الثاني الذي يتمم، في الواقع، الرأي الأول ويطوره، وهو أقرب إلى الواقع عموماً[٥]، فإنه يؤكد على الجوانب الإيجابية والسلبية لأفكار وأعمال جمال عبد الناصر، ويثير، بالمقابل، سؤالاً منطقياً مفاده: ماذا بقي من جمال عبد الناصر؟

يجيب هيكل عن هذا السؤال، بأسلوبه المعروف، بما نصه: «أقول إن الذي بقي من عبد الناصر هو الناصرية. إن جمال عبد الناصر له أخطاؤه. ومن يقول ان لا أخطاء لعبد الناصر يكون متجنياً على الإنسانية. عبد الناصر له أخطاء سياسية كبيرة أو صغيرة. ولكن عندما يحاسب رجل تاريخي مثل عبد الناصر لا يحاسب على الأخطاء، إنما على التحولات التي حدثت في عهده، وتحقيق الأفكار المتلائمة مع هذه التحولات. ما هي هذه التحولات؟ لقد طرح عبد الناصر بقوة في العصر الحديث إمكان تحقيق الوحدة العربية، وطرح إمكان سيطرة العرب على ثرواتهم، وطرح الاشتراكية، وطرح الحرب ضد الاستعمار. طرح مسألة كون العالم العربي جزءاً من الثورة الوطنية، طرح قضية التصنيع الثقيل، وقضية ديمقراطية الغالبية التي هي العمال والفلاحون. طرح عبد الناصر كل هذا، وبدأ يطبق. كانت تجربة التطبيق ناجحة في مجالات كثيرة. إنني أرى وجه عبد الناصر في أماكن كثيرة. أراه في الطريق الصحراوي من القاهرة إلى الإسكندرية، وعلى ناحيتي الطريق أتطلع في أسلاك الكهرباء، فأرى وجه عبد الناصر. أتطلع في الأرض الجديدة فأرى وجهه. أتطلع في السد العالي فأرى الوجه أيضاً. أرى وجه عبد الناصر أيضاً في كل مصنع، وفي كل قرية وصلتها الكهرباء. أراه في قوة العمل النقابي. فعندما قامت الثورة كان في مصر ربع مليون عاطل، الآن في مصر ثلاثة ملايين عامل منتظمين في نقابات واتحادات. لقد جاء عبد الناصر إلى الحكم والعالم العربي عبارة عن دول مستعمرة، أو شبه مستعمرة. وذهب والعالم العربي كله مستقل في مقابل جزء من مصر محتل. وفي مقابل هذا الجزء المتمثل في سيناء، والجزء المحتل الآخر المتمثل في الجولان، وفي مقابل احتلال الضفة الغربية في الأردن، تحررت مصر كلها، وتحرر السودان والجزائر وتونس والمغرب وليبيا واليمن والأردن والعراق وإمارات الخليج. تحررت هذه الدول وأصبحت تتحكم بثرواتها..»[٦].

وفي موضع آخر يعرف هيكل الناصرية (تياراً وفلسفة وتجربةً وفكراً) فيقول: «الناصرية هي نقل مصر إلى الكيان والطموح والوجود العربي كجزء لا يتجزأ منه. ثم نقل الكيان العربي والطموح العربي إلى العصر الحديث، بمعنى أن مصر والعالم

---

(٥) يعد محمد حسنين هيكل من أكثر المتحمسين لهذا الرأي، والمبشرين به.

(٦) فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩)، ص ٢٠٥.

العربي، هذا الكيان الجديد الذي ساهم جمال عبد الناصر في بلورته، أصبح مؤثراً في حركة الثورة الوطنية. والناصرية هي الدفاع عن الحرية والحرب على الاستعمار، وهي تحول المجتمعات العربية من مجتمعات تقليدية متخلفة إلى مجتمعات تلحق بالعصر سواء فيما يتعلق بقوة المجتمع الإنتاجية، أو بقيمة الفرد والإنسان في هذا المجتمع. والناصرية هي العمل للحاق بالتكنولوجيا، والانفتاح على العالم، وهي حركة القومية العربية، وحركة التصنيع، وحركة الاشتراكية، وحركة التأثير في العالم، والتحول في افريقيا...»[٧].

على الرغم من الأسلوب العاطفي في التعبير، فإن كلام هيكل هذا ينطبق على الواقع، لذا فإن مصر عبد الناصر قد تحولت إلى ملجأ لكل أحرار العرب، وغير العرب الذين كانوا يلتقون مع الناصرية بدرجات متفاوتة، ولقد ظهرت العديد من الحركات والأحزاب في أقاصي الوطن العربي بتأثير من تلك الأفكار[٨].

وهنا لا بد أيضاً من وقفة أمام موضوعة الاشتراكية، فقد ذاع الاستبشار بأفكارها المرغوبة مسمعاً، والعصية مطمعاً، بأسلوب لا ينسجم مع الواقع الموجود، فالاشتراكية نمو حضاري متئد متمنطق، لا يمكن أن تنزل إلى ساحة الأمم الواقفة خارج أبواب العصر الحديث بسهولة، إذ لا بد من توفر ضمانات الاقتصاد عموماً في اتصاله بالداخل وبالخارج، ضمن شروط محددة ترتكز في جانبها الاقتصادي على حسابات السوق والبورصة، وموازين التجارة العالمية من عرض وطلب، ومنافسة ومهادنة وغيرها، أدى انتفاء معظمها إلى شل السوق عملياً، ليصبح الشعار في الفكر على أرض الواقع عبئاً في أكثر من جانب من جوانبه.

ونشير أيضاً إلى أن التطبيق الاشتراكي في أجواء كانت تفتقر إلى قيم ديمقراطية حقيقية ولد قدراً متزايداً من البيروقراطية التي تحولت إلى عبء إضافي كبير على كاهل الناس، وقد عجز عبد الناصر عن إيجاد مخرج واقعي لهذا الأمر حتى بعد النكسة على الرغم من ميله إلى ذلك، ويكمن السبب الحقيقي في التعثر في هذا الجانب المهم في أن خلق المناخ الديمقراطي لا يمكن أن يعتمد على الرغبة والشعارات، بل على مستلزمات تفرض نفسها، عادة، من خلال عملية تطور اجتماعي اقتصادي متئد، ومتشابك. وينبغي أن نأخذ في الحسبان أيضاً شراسة أعداء الفكر الناصري في

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(٨) بما في ذلك معظم الحركات والأحزاب التي ظهرت في موريتانيا التي كانت تمثل واحدة من أكثر حلقات التخلف في الوطن العربي. للتفصيل انظر: محمد المختار سيد أحمد، «النضال الوطني في موريتانيا، ١٩٠٣ ـ ١٩٦٠،» (رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٧)، ص ١٣٧، ١٤٥، ١٥٢ ـ ١٥٣ و١٧٤.

الداخل، كما في الخارج، مما ألقى بظلال كثيفة على المسار الديمقراطي الناصري.

وفي السياق ذاته يمكن القول إن الأجهزة الأمنية في عهده كانت أبعد مؤسسات الدولة عملاً بالفكر الناصري، فأساءت إليه كثيراً، ويبدو أن عبد الناصر نفسه لم يكن على اطلاع كاف على تصرفات تلك الأجهزة وبيروقراطيتها، وأعمالها اللاإنسانية، ولا نريد بهذا تبرير ساحته بقدر ما نريد إلقاء اللوم عليه، وخصوصاً أن أعداءه تمكنوا من استغلال ذلك الواقع المؤلم بذكاء للنيل من أفكاره، ومنه شخصياً، بل ان الناصريين الحقيقيين، من مصريين وغير مصريين، عانوا كثيراً من الأجهزة تلك، وهي نفسها كانت ترفع لعبد الناصر، في حالات غير قليلة، تقارير غير واقعية عن مديات انتشار الفكر الناصري لما يدعونه له من كمال.

ولكن، بالمقابل، يسجل للفكر الناصري توجه ديمقراطي نحو القوميات الأخرى، مما أكسبه تقديراً كبيراً في صفوف شعوب العالم الثالث، وكان ذلك أمراً في المتناول بوصفه موقفاً سياسياً موجهاً إلى خارج حدود مصر، لم يكن بحاجة إلى مستلزمات خاصة، ولم يكن من شأنه أن يترك أي أثر على الواقع الداخلي للنظام الناصري نفسه، بل كان يكسب له الأصدقاء من دون أن يكلفه ذلك شيئاً يذكر.

وبما أن الفكر الناصري كان حياً، وحساساً تجاه الأحداث والوقائع والتطورات، لذا فقد طرأت عليه، بعد نكسة حزيران/يونيو، تغيرات جعلته أكثر مرونة، وواقعية وتبصراً، وخصوصاً في منطلقاته السياسية. فعندما هوجم صاحبه إلى حد وصفه بالخيانة، فإنه لم ينفعل ليهاجم بالنعوت ذاتها، والأوصاف المجانية، بل حاول أن يقنع المنتقدين بالجوهر الفكري لبعض تراجعاته السياسية في سياق المرونة في التكتيك، دون أن يتخلى عن المبدأ الراسخ في ذهنه حتى آخر لحظة من حياته، وظل يسعى من أجل أن يكون النقاش موضوعياً وعلى مستوى الأحداث، وأن يؤخذ ما هو ممكن، وما هو مستحيل بنظر الاعتبار، مما يؤلف انعطافة إيجابية في فكر عبد الناصر، توافقت مع روح العصر، وواقع تناسب القوى التي كان أحد أهم أقطابها، المساند للفكر الناصري، يسير نحو الانهيار دون أن يتلمس أحد منا البعد الحقيقي، والنتائج المتوقعة لظاهرة حالة الانحلال السوفياتي بإفرازاته العميقة بالنسبة لمسار مجمل حركات التحرر فكراً ونشاطاً.

وعلى الرغم من أن عبد الناصر في مرحلة ما بعد النكسة بدأ يبالغ أحياناً في تحميل نفسه مسؤولية كل شيء، إلا أن فكره، في الواقع، لم يكن مثقلاً بالشعور بعقدة الذنب، إنما كان مثقلاً بالشعور بالمسؤولية، وهذا شعور حميد، وظاهرة صحية تماماً في فكر القادة المسؤولين الجادين الرصينين، ناهيك عن أنه يترجم الشجاعة في مواجهة الأحداث، وليس الهروب منها، وتعليق مسؤوليتها على الغير. كان فكره في هذا السياق، وفي غيره، يترجم جدلية السيرة الذاتية والتفكير الثوري، أو ما يدعى

جدلية التنظير والتطبيق. فعموماً، ومنذ البداية حين كان يدعو بفكره إلى الزهد الثوري والعفة والنقاء للحفاظ على المصداقية الثورية، وعلى احترام الجماهير الحقيقي، ودوام إيمانها بأفكار الثورة، لم يكتف بالتنظير فحسب، بل كان يضرب المثل، ويكل تواضع، بنفسه هو. فقد كان ضد التملك المفرط، وضد الترف، وضد الفساد والاستغلال، انه كان، بتعبير هيكل «انموذجياً في كل شيء، ومثالياً في كل شيء، رافضاً الترف، رافضاً التملك، غير قابل للفساد الشخصي، سعيداً بأن مجتمعاً جديداً بدأ في مصر... لا بيت له لأنه ضد التملك، ولا سيارات له، ولا عقارات له، ولم يترك أموالاً، أو أطياناً»، ولم يكن ذلك زهداً صوفياً، بل قناعة فكرية مسؤولة، فلقد كان يتصور أن الملكية موقف اجتماعي «ومع أنه لا اعتراض لديه على تملك الناس، إلا أن هذا الاعتراض كان قائماً بالنسبة إلى شخصه. وكان يرى أن التملك لا يتمشى ووضعه كمسؤول عن التحول الاجتماعي في مصر... وكان مقتنعاً بأن التملك بالنسبة إلى المسؤول يؤثر على رؤيته الاجتماعية»[٩].

وأخيراً كان جمال عبد الناصر «تعبيراً عن القومية العربية في مرحلة من المراحل» كما قال هو عن نفسه، انه كان تعبيراً انموذجياً في التنظير المقبول، وفي جدة الأفكار وأصالتها، وفي جدلية التنظير والتطبيق، وفي عفة الثوري ونقائه ومبدئيته. لقد كان شهيد القومية العربية، وشهيد مشاكلها في المرحلة المعاصرة، إنه عاش لأمته، ومات من أجلها، وكان بذلك انموذجاً لما ينبغي أن يكونه زعماء القومية العربية، والزعماء في العالم الثالث في عصرنا، لذا فإن «مثل هذا الرجل يمكن انتقاد[١٠] أفكاره، ولكن من العيب التجريح به»[١١].

---

(٩) مطر، المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٦.

(١٠) في النص: مهاجمة.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٠.

خاتمة

يسمح ما ورد في فصول الرسالة ومباحثها بالقول إن الفكر الناصري عبارة عن تيار قومي عروبي، ولد في خضم نضال عادل، ومتواصل من أجل تحقيق طموحات مشروعة، ومن معاناة صادقة لرجل شريف وجريء، آمن بقدرات أمته الخلاقة التي أهلتها لكي تتبوأ المقام الأول بين الأمم على مدى ردح طويلٍ من الزمن، لتغدو في حاضرها أمة متشرذمة، متخلفة عن الركب على رغم ما تمتلكُ من طاقات هائلة تكمن في تراث أصيل، ودين حنيف، وتاريخ حافل، وإمكانات بشرية ومادية قل نظيرها على وجه الأرض كلها.

وللفكر الناصري أصوله وجذوره في أعماق مرحلة الشباب من حياة ذلك الرجل، ارتباطاً بدراسته الثانوية، وفي الكلية العسكرية. وكان لأحداث الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن تأثيرها الكبير في تكون وعيه القومي بالذات، كما أن عوامل التنقل والانسلاخ الاجتماعي العائلي كوّنت أرضية خصبة لبروز هذا الوعي على أساس قراءات مبكرة مهدت أمامه طريق التحول في الفكر السياسي والاجتماعي لاحقاً. ففي ذلك الحين حركت آراء الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده من الشرق فكره، كما نبهته طروحات الغربيين، خصوصاً روسو وفولتير، وأعجب بالأخير لاعتداله، وعدم دعوته إلى العنف، والقسوة وسفك الدماء حسب تفسيره هو لدوافع تأثره به. وتأثر وعيه المبكر أيضاً بإبداع شعراء الوطنية (شوقي وحافظ ابراهيم)، وبكتابات الرواد (العقّاد وطه حسين وتوفيق الحكيم)، فاختمرت في فكره ملامح صورة البطل المعبود، أو المنقذ، أو ما يسمى بالكل في واحد. ومن هنا أيضاً كانت بدايات حب الأعمال المجيدة من أجل الوطن على غرار نابليون وبسمارك وغاريبالدي وتشرشل وأتاتورك - النماذج الأفضل لديه وقتذاك، فتركت خدماتهم بصمات واضحة في عقله الباطن، ووعيه المبكر.

تتزامن بداية المرحلة الجديدة من مراحل تكوين نواة الفكر الناصري، أو ما يمكن وصفه بمقدمات ذلك الفكر، مع تخرج صاحبه في الكلية الحربية سنة ١٩٣٨، وتمتد حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وهي كانت أشد خصوبة، ولا سيما فيما

يخص الجانب البطولي، والسعي من أجل التغيير بتأثير من قراءاته الجديدة التي تركزت، بحكم التخصص، على الكتب التي تبحث في قضايا التاريخ العسكري، غذاها بقراءاته لساطع الحصري ولاسكي ونهرو وأمين سعيد، فبدأ يهتدي، منذ ذلك الوقت، إلى أهمية التنظيم، والكتمان من أجل القيام بما لا يستطيع أحد القيام به غيرنا حسب تعبيره هو. وفي تلك المرحلة بدأ يهتدي أيضاً إلى الفكر الاشتراكي الإصلاحي وجدواه.

وتبدأ المرحلة الأخيرة من عملية تبلور الفكر الناصري، وتطوره مع انتصار الثورة تسمية[١]، وتمتد حتى رحيل قائدها (تموز/يوليو ١٩٥٢ ـ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠)، وقد شهدت تعمقاً واضحاً في ثقافة صاحبه النظرية والعامة والعملية بخاصة بحكم دوافع موضوعية، وظروف مؤاتية، ورغبة ذاتية صادقة. وهنا ينبغي أن نأخذ بالحسبان معطيات بعض أهم الأحداث الحاسمة مثل باندونغ، والانفصال، وقرارات التأميم، وأخيراً نكسة حزيران/يونيو. فباندونغ عمقت في ذهن عبد الناصر أفكار الحياد التي بدأت بالحياد وحسب، ثم أصبحت الحياد الإيجابي، وانتهت إلى عدم الانحياز، وقد دشن ذلك «إشعاع يوليو العالمي» بتعبير هيكل. أما الانفصال فقد علم عبد الناصر دروساً كثيرة في كيفية العمل من أجل الوحدة التي لم تغادر فكره، وفي آلية التضامن العربي، والكفاح المشترك ضد العدو المشترك. وأضافت قرارات التأميم والإصلاح الزراعي الكثير إلى الفكر الناصري، بدءاً بتأميم قناة السويس الذي كان «نقطة تحول بارزة أكثر من أي نقطة أخرى في تاريخ الثورة، وفي تاريخ عبد الناصر»، فإن معركة التأميم أكدت، بعد نجاحها، حقيقة فكرية وسياسية نوعية خطيرة هي قدرة قوة صغيرة على الوقوف في وجه قوى كبرى، مما نرى فيه تجسيداً معاصراً لأفضل موروث من الماضي التليد، خصوصاً من صدر الإسلام الذي له مفعول سحري كامن في ذاكرة كل عربي ومسلم.

لقد تفاعلت إفرازات تأميم القناة الفكرية، مع إفرازات الصراع الداخلي مصرياً وعربياً، والذي لم يخل من تحالف الأضداد لوأد التجربة، فتمخضت عنها قرارات التأميم التي حولت الانقلاب إلى ثورة بتضمينها منهاجاً عقائدياً افتقدته عندما قامت. أما نكسة حزيران/يونيو، والمحاولات الجادة لتجاوزها فقد تركت تأثيراً كبيراً في الفكر الناصري باتجاه تعميق ظواهر الواقعية والمرونة والانفتاح فيه، والإيمان بإمكانية الركون إلى آلية جديدة في العمل تعتمد أكثر من نهج واحد لبلوغ الهدف. مع العلم ان الفكر الناصري لم يخل أصلاً من عناصر ما يمكن وصفه بالتجريبية التي تعتمد

---

(١) في البداية كانت مجرد عملية تغيير في الحكم بفعل انقلاب عسكري، تعمق مضمونها الاجتماعي والاقتصادي لاحقاً.

التجربة والخطأ والتصحيح في العمل.

وفي هذا السياق يمكن الاتفاق مع الرأي القائل بأن جمال عبد الناصر «حالفه الحظ» في عدم ارتباطه بنظرية ثورية محددة، ذلك ان غياب الأطر الفكرية، والفلسفة المعتمدة في آلية العمل جعل عبد الناصر «يفلت من شرك الجمود العقائدي» وفق تعبير الدكتور صلاح الدين البيطار، فبدأ يستخلص من التجربة والخطأ، ومن تفكيره المنهجي نظرة، أو مشروع نظرة للثورة العربية، أو لنظيرتها في العالم الثالث. أقر عبد الناصر ذلك بوضوح بعد مرور حوالى عشر سنوات على قيام الثورة حين قال:

«في يوم ٢٣ يوليو لم أكن أعرف أبداً أن أتكلم الكلام الذي أتكلم به الآن، وذلك لأني لم أعش يومئذٍ في تجربة العشر سنين التي وجدت فيها هذه المدة أن ظروفنا قضت أن يكون تطبيقنا الثوري سابقاً النظرية التي هي دليل العمل».

وهذا يعني أن عبد الناصر كان مقتنعاً بأن النظرية تأتي عن طريق دراسة المشكلات، والتصدي للمشكلات يتطلب، بل يفرض التغيير، والأخير يمهد الطريق للتخطيط. وهكذا فإن الناصرية اكتشفت الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمصر عن طريق الممارسة. إذن فإن الوقائع والمتغيرات والمستجدات، وإرهاصات الواقع المتغير جعلت الفكر الناصري ينمو بالتجريبية، ويتعثر أحياناً، أي أن خط نموه وتطوره لم يكن صاعداً دوماً، ولكن حقيقة نموه المستمر، بغض النظر عن مدى سرعته، وتفاعله مع الوقائع، وبغض النظر عن مدى واقعيته، جعلته يغتني بطريقته الخاصة، ويقدم ما يمكن أن نسميه تراث الفكر الناصري.

تفرد الفكر الناصري، بحكم الدور الذي أداه في ظرفه التاريخي المحدد، وبحكم خصوصيات ذهنية صاحبه، بتقبل أفضل ما في التيارات القومية الأخرى، مما أدى إلى بلورة شعار «حرية ـ اشتراكية ـ وحدة» في ذلك الفكر، فحسبما ورد في **الميثاق** أن عهوداً من العذاب والأمل بلورت، في نهاية المطاف، أهداف النضال العربي، ظاهرة واضحة صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة، وهي الحرية والاشتراكية والوحدة (**الميثاق**، الباب الثاني). وكانت هذه الأهداف متوازنة في الفكر الناصري بغض النظر عن ترتيبها، **فالميثاق** يولي مسألة الوحدة، مثلاً، أهمية استثنائية لا تقل شأناً عن اهتمامه بالهدفين الآخرين. وكان عبد الناصر مقتنعاً، بعد تجربة الانفصال، بضرورة توفر عنصري الحرية والاشتراكية لضمان وحدة راسخة لا انفصام بعد تحقيقها. وقد صاغ عبد الناصر ذلك واضحاً في خطاب عيد الوحدة الذي ألقاه في شباط/فبراير ١٩٦٧ حين قال:

«إن الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية مقدمات ضرورية للوحدة، ليس معنى هذا انه يتعين علينا الانتظار حتى يتحقق ذلك كله تماماً في كل أرض عربية، ونبدأ الحديث، أو العمل من أجل الوحدة. أهداف النضال تعطي لبعضها، وتأخذ من

بعضها، وتعزز إحداها الأخرى، وتتعزز به».

ومما يسجل للفكر الناصري بصورة خاصة أنه حقق على أرض الواقع عروبة مصر، وغرسها في أعماق كل وطني مصري غدا مرتبطاً، بفضل ذلك، بالفكر القومي العربي التحرري برباط وثيق لا فِكاك منه، وكما قيل بحق ان عبد الناصر أول من جلا بفكره وجه مصر العربي، وثبته بعد أن جسد ذلك في ثورة يوليو، ورفعه إلى مصاف عقيدة الدولة دستوراً وقانوناً، وتنظيراً وتطبيقاً فكرياً ـ سياسياً.

ومن إضافات الفكر الناصري، وإنجازاته أيضاً، الدعوة، من أعلى مستوى قيادي للدولة والثورة، إلى الاشتراكية، وملاحمة المضمون السياسي للثورة بالمضمون الاجتماعي، ودعم الفكر الاشتراكي، وترسيخه. وبالنسبة لفكر عبد الناصر كانت الاشتراكية حلماً دائماً، واجب التحقيق، وكانت بذور انحيازه إلى الفلاحين والفقراء قد نبتت في أرض خصبة، يساعد عليها التحدر الطبقي لعبد الناصر نفسه، مما هيأه لتقبل الفكر الاشتراكي الإصلاحي، والمعتدل، على طريقة نهرو والفابيين، وكان مقتنعاً بمقولة الأول الشهيرة: إن الاستقلال بدون تأميم يتحول شبحاً. وجعلته الممارسة أكثر قناعة بأن الحرية السياسية والاستقلال جوهريان، ولكنهما، حسب تعبيره، ليسا أكثر من خطوتين في الاتجاه السليم، فبدون حرية اجتماعية، وبدون كيان اشتراكي للدولة والمجتمع لا تستطيع الدولة أن تنمو، وأن تتطور، ولا يستطيع الأفراد كذلك أن ينموا ويتطوروا.

إن هذا التطور، على أساس التجربة والممارسة، يبرر قول هيكل ان عبد الناصر كان في البداية ثورياً يسارياً بالإحساس المبهم، ثم أصبح ثورياً يسارياً بالنضج. ويعزز ذلك أيضاً حقيقة أن عبد الناصر جاء إلى الاشتراكية متدرجاً، مؤمناً بتعدد الطرق للوصول إليها دون الالتزام بـ «نظريات جامدة» (الميثاق)، وقد جنبه ذلك التهم الجاهزة بالانضواء في المعسكر الاشتراكي التي حاول الغرب واليمين العربي والإقليمي ترويجها. ولم تروج اشتراكية عبد الناصر، من جانبها، للصراع الطبقي، بل ركزت منذ عام ١٩٥٥ على ضرورة العمل الجاد من أجل «خلق مجتمع اشتراكي قوي يقوم على الحب والتعاون بين طبقات الأمة».

لم يخل هذا التحديد من توجه مثالي جعل طريق الفكر الناصري إلى الاشتراكية طويلاً، ومتدرجاً، ومتعثراً أحياناً، وقد نجم ذلك، في الغالب، عن سببين جوهريين، **الأول** واقعي يتعلق بعدم توفر جميع مستلزمات التحول الاشتراكي، **والثاني** فكري يتعلق بالرغبة الجامحة في تطبيق المفاهيم، أو الإجراءات الاشتراكية بطريقة الإصلاح الفوقي المتحسس من أيما قوة اشتراكية محلية، أو عالمية. ففي المرحلة الأولى، التي تزامنت مع الخطة الخمسية ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦، كانت اشتراكية الفكر الناصري تعاونية، تريد أن تبني مجتمعاً «يتعاون فيه العامل مع صاحب العمل»، وهو

المجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني الذي تقوده الدولة في نظام الاقتصاد الموجه، ولكن بشكل حيادي تضبط فيه الصراعات فحسب.

وفي المرحلة التالية (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ظل التبشير بالاشتراكية في الفكر الناصري عاماً، لكنه بقي، في الحقيقة، في إطار الاقتصاد الموجه، وقد وصفه عبد الناصر نفسه بنظام رأسمالي موجه وليد من نظام اشتراكي تعاوني ديمقراطي. وأخيراً تبلور الخيار الفكري الناصري إلى الاشتراكية بمضمون علمي بعد تجارب مرحلة السنوات العشر منذ ولادة الثورة، والتي كان من أهم معطياتها إحجام الرأسماليين عن الإسهام في خطة التنمية، وواقعة الانفصال، وتسلل قوى الثورة المضادة إلى مفاصل الدولة الأساسية. وتمتد المرحلة الأخيرة من تموز/يوليو ١٩٦١ حتى أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. رسم عبد الناصر نفسه حدود الاشتراكية في فكره في عام ١٩٦٦ على أساس كونها «اشتراكية علمية، أي قائمة على العلم، وليست قائمة على الفوضى»، ونفى عنها صفتي المادية والماركسية، وجمعها مع الدين بمفهومه الواسع، بوصف الأرض العربية مهبط الديانات، ولا سيما الإسلام الذي رأى فيه أول تجربة اشتراكية في العالم لاعتماده مفهوم إلغاء الاستغلال «وإقامة مجتمع العدالة الاجتماعية، وتكافؤ الفرص». وهكذا فإن عملية الاشتراكية في الفكر الناصري لم تكن على أساس التناقض مع القيم الروحية، بل التوافق، والتطابق معها. وساعد ذلك على تحويل الاشتراكية إلى الحل الوحيد، والمقبول لجميع مشكلات المجتمع في الفكر الناصري. وفي مراحله المتقدمة بدأ هذا الفكر يقوم الاشتراكية بوصفها «مرحلة حتمية من مراحل التطور البشري» لأن من شأنها ضمان «أن ينال كل ذي حق حقه حسب جدارته، وكفاءته، وليس بقدر حاجته وحسب»[٢].

وقد أدى التأكيد، غير مرة، على أن الاشتراكية واحدة هدفاً، ومحصلة، إنما الاختلاف في التطبيق، إلى اختيار البعض مصطلح «الاشتراكية العربية»، مع العلم أن عبد الناصر نفسه لم يقل سوى أن طروحاته الاشتراكية تنبع من ظروف مصر، والوطن العربي، ومن ضمير الأمة، وتطور وعيها الاجتماعي، وهذا لا يعني سوى التأكيد على خصوصية التطبيق، أو كما جاء على لسانه هو «اننا أضفنا في التطبيق ما يمكن أن نقول عنه انه التعبير الأصيل عن ظروفنا الخاصة». وهكذا حصل انعطاف جديد في التسمية، فظهر في الأدبيات السياسية ما يسمى «التطبيق العربي للاشتراكية»، لأن «الاشتراكية في الدنيا كلها، من ناحية المفهوم الاجتماعي، هي الكفاية والعدل، غير أننا نختلف في التطبيق»[٣].

---

(٢) من خطاب عبد الناصر في مؤتمر الإنتاج بتاريخ ١٥ آذار/مارس ١٩٦٧.

(٣) من خطابه في مؤتمر المبعوثين في الإسكندرية في آب/أغسطس ١٩٦٥.

وفي هذا المصطلح الجديد الذي استقر عليه الفكر الناصري، بعد الحوار والتباحث، وسيراً على مقولات عبد الناصر وطروحاته الفكرية، يبدو الحرص على الخصوصية العربية التي طالما أكد عليها عبد الناصر، دون تخطئة النظريات السابقة، أو القطع برفض الحلول التي توصل إليها الغير، فذلك تعصب لا يمكن تحمل تبعاته وفق تعبير عبد الناصر نفسه.

اندرج في هذا التطبيق العربي للاشتراكية في الفكر الناصري بعض ما دعي، وقتها، بالأسس النظرية لهذا التطبيق، وكان منها تعاضد القطاع العام والقطاع الخاص معاً في بناء الاشتراكية، ورفض الطرح الماركسي الكلاسيكي «دكتاتورية البروليتاريا»، ومقابلتها بتحالف قوى الشعب العامل، والركون إلى «الحل السلمي للصراع الطبقي»، دون إنكار أو تجاهل حقيقة وجود ذلك الصراع، ولكن ينبغي أن يكون حله سلمياً «في إطار الوحدة الوطنية، وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات»، مع ضرورة استبعاد الفئات الاجتماعية التابعة، وتجريدها من أسلحتها، ولكن دون التفريط بالقيم الإنسانية، ومنع التضحيات المفرطة المجانية.

وآمن الفكر الناصري بجدلية ارتباط التحول الاشتراكي في مصر بالحرية العربية، والتقدم الإنساني. وتماثل هذا التطبيق العربي للاشتراكية مع سائر التطبيقات الإنسانية الأخرى في اعتماد قيمتي العلم والعمل. وظلت شخصية عبد الناصر بالذات، بوصفها منبع الفكر الناصري وعماده، الضمانة المعتمدة لهذا التطبيق، ولهذا التحول الاشتراكي الذي أكد عدم جواز المساس به في أحلك ظروف ما بعد النكسة.

يبقى إنجاز مهم آخر للفكر الناصري، ونقصد به تبني الدعوة إلى الحرية، والتحرير الوطني والقومي، فليس بوسع أحد أن ينكر ما أداه الفكر الناصري من دور كبير، حقاً، في قضايا التحرر على صعيدي الوطن العربي والعالم الثالث. فقبل كل شيء انه قدم انموذجه الخاص كمركز إشعاع للتحرر الوطني، والنضال من أجله، كما قدم الدعم المادي والمعنوي لقضية التحرير، وبما يتجاوز طاقة مصر أحياناً غير قليلة، وذلك من منطلق أن «الحرية لا تتجزأ». فعندما نتحدث عن تحرر إحدى وأربعين دولة افريقية بعد ثورة تموز/يوليو علينا أن نقدر دور الفكر الناصري في ذلك حق قدره، ولم يكن مجرد صدفة أن العديد من الدول المتحررة تلك اقتبست الكثير من ذلك الفكر في ما تبنت من نهج للتطور في مرحلة ما بعد الاستقلال.

وينصب هذا في جدلية التغير والتفاعل، وتجاوز عهد العزلة، إذ «ذهبت الأيام التي كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة تخطط حدود الدول، تفصل وتعزل، ولم يعد أمام كل بلد مفر من أن يدير بصره خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه» وفق تعبير موفق لعبد الناصر الذي آمن، فكرياً، بأن انتصار أي حركة ثورية، وأي شعب ثائر في العالم، يعني انتصاراً لمصر، كما للعرب وقضيتهم عموماً.

لذا لا غرو ان أصبح التمثل بالفكر الناصري في مقارعة الظلم، والإمبريالية، والنضال من أجل التحرر من ربقتها «تهمة» تلصقها مكائن الدعاية الغربية، والرجعية العربية بالعديد من حركات التحرر في دول العالم الثالث، وقادتها، ذلك لأن الفكر الناصري تحول إلى تهديد حقيقي للمصالح الإمبريالية في العالم الثالث. وهنا يغنينا قولان لقطبين متناقضين عن الخوض في تفصيلات هذا الاستنتاج: **الأول** لرئيس الوزراء الفرنسي أثناء الإعداد للعدوان الثلاثي الذي قال «لو سقط عبد الناصر فسوف تنتهي حرب الجزائر في أربع وعشرين ساعة...». **والثاني** لفيدل كاسترو الذي قال لعبد الناصر في لقائهما عام ١٩٦٠:

«في عام ١٩٥٦ كنا في الجبال نقاوم نظام باتيستا، ووصلنا إلى حالٍ من اليأس. ولكن عندما رأينا أنكم صمدتم أمام الإنكليز والفرنسيين والإسرائيليين، وان العالم وقف إلى جانبكم، قررنا أن نصمد. وتلك كانت نقطة تحول بالنسبة إلينا، اعتبرنا أن الأمل ما يزال وارداً، وأن في الإمكان الانتصار على باتيستا حتى لو كانت أميركا تسانده».

إن جميع المؤرخين والباحثين، أياً كانت اتجاهاتهم، متفقون، بدرجات متفاوتة، ان الفكر الناصري آتى أفضل ثماره في منطلق الحرية وتحرير الشعوب، فقد أصبحت القاهرة، في عهد ناصر، قبلة لحركات التحرير في آسيا وأفريقيا، ومركزاً لتجمعها، وغدت حصناً متميزاً، إلى جانب نيودلهي وبلغراد، لحركة عدم الانحياز التي عقدت دولها عدداً من اجتماعاتها ولقاءاتها في القاهرة. ويفضل كل ذلك، وغير ذلك، لم يعش الكيان الصهيوني طوال وجوده ما عاشه من انعزال في أيام ازدهار الفكر الناصري.

ونتيجةً لما تقدم تحول الفكر الناصري أيضاً إلى إحدى دعائم السلم العالمي في أحرج أيام الحرب الباردة، فإن العمل من أجل إبعاد شبح الحرب كان يأتي على رأس قائمة مهمات حركة عدم الانحياز التي تحول عبد الناصر إلى أحد أبرز أقطابها منذ ظهورها. ومن أجل إلقاء ضوء خاص على دور عبد الناصر في هذا الميدان نشير إلى أن الدعوة التي وجهها مؤتمر بلغراد إلى كل من رئيسي الاتحاد السوفياتي السابق خروتشوف، والولايات المتحدة الأمريكية كينيدي، للاجتماع والتباحث في قضايا الحرب والسلام، كانت من اقتراح جمال عبد الناصر الذي وقف ضد هيمنة أحد المعسكرين.

ومع كل ذلك لم يخلُ الفكر الناصري من تناقضات، ولم يكن بمنجى من العثرات التي تقتضي الموضوعية، والإنصاف للحقيقة والتاريخ إلقاء ضوء أخير عليها في هذا المقام، مع تأكيدنا مقدماً أن ذلك لا يعني التهوين من قيمة ذلك الفكر،

وأهميته وتاريخيته، وقابليته على العطاء والتطور. فقد تزامن مع تطبيق الفكر الناصري وقوع أخطاء غير قليلة، وهدر فرص وطاقات، برغم كل ديناميكيته، وقدرته على التجاوز والتجدد. وقد تجسد الأمر في مرحلة الإعداد للثورة، وبداية العهد الجديد في ما يمكن وصفه باستعلائية الفكر الناصري على الحركات الثورية الأخرى، وعدم انفتاحه على الأحزاب الوطنية، واصطدامه بالوفد، بصورة خاصة، والتعجيل بالتصادم مع جهات أيدت الثورة بكل طاقاتها، وقد ساعد كل ذلك على خلق، وتعزيز مقومات تركيز السلطة، والاستبداد في الحسم، فسار الخط البياني لتركيز السلطة على هذا النحو: تركزت السلطة في البداية في أيدي أربعة عشر، ثم في أيدي خمسة، وانتهى الأمر بتركيزها في يد عبد الناصر وحده. وهذا لا يتوافق والقيم الديمقراطية، وقد أضعف كثيراً من قدرات الشعب، وإمكانيات الثورة في التغيير والتطور والتجاوز المستمر. لقد منح الفكر الناصري، في تطبيقاته السياسية في داخل مصر، الخبز والأرض والعمل، لكنه سلب الحق في التصويت الحر، وأقام الأسوار أمام الفكر الديمقراطي الحقيقي، وفتح الأبواب أمام الأدعياء والمفسرين والشراح والأبواق للتمجيد، واستشرت ظواهر احتراف تملق السلطة، والتزوير، والدجل، وانتفت، بالمقابل، ومن حيث المبدأ إمكانية قيام أي معارضة سياسية بصورة قانونية، مما يعد من ظواهر الخوف من العمل الجماهيري، خصوصاً المنظم منه، وكان البديل له إقامة «هياكل ضخمة من التنظيمات... كانت قائمة في شموخ، ولكنها خاوية من الداخل». وكما كان متوقعاً استشرت، في ظل هذه الأجواء، ظاهرة البيروقراطية التي تجسدت بصورة خاصة في «زمرة عامر»، والفئات الطفيلية التي أقامت دولاً داخل دولة، وتحولت إلى أحد الأسباب الأساسية في نكسة حزيران/يونيو. ولا نريد أن نتجاهل هنا دور ذهنية العسكر التي لا تتحمل، عادة، المعارضة، والنقد والنقد الذاتي.

ولقد ساعد هذا الواقع في مجمله على طموس الفكر الناصري في اللاواقعية أحياناً، مما تجسد في رفع نداءات وشعارات، واتخاذ خطوات لم تكن واقعية في حالات غير قليلة، لأنها كانت فوق طاقة مصر في عالم الذرة والحاسوب، وتراكم الثروة والخبرة في أماكن محددة لم يكن من الصحيح عدم تقويم دورها في التأثير في الحل والربط بالمستوى المطلوب، في حين كانت الدول الاشتراكية نفسها تتودد إليها، وتقترض منها، فإن بولونيا، مثلاً، عندما نزعت عن نفسها ثوب الماركسية كانت مديونة بما لا يقل عن ثلاثين مليار دولار للولايات المتحدة. ونقصد بهذا أن الفكر الناصري كان بوسعه أن يكون أقل تشدداً، وأكثر مرونة في حالات معينة، دون أدنى تفريط بالمبدأ والهدف، فلا سياسة من دون مساومة، أو كما قيل عنها (عن السياسة) انها، حقاً، فن الممكن، ذلك الدرس المهم الذي التفت إليه الفكر الناصري بعد مأساة النكسة بصورة أفضل، وأكثر واقعية، لذا فإن ما تحقق من انتصار في عام ١٩٧٣ هو

ثمرة ذلك التحول الذي مهد عبد الناصر الطريق إليه، فيستحق أن يسجل باسمه قبل غيره.

وفي كل الأحوال لا يمكن لأحد أن ينكر عطاء الفكر الناصري وإنجازاته التاريخية على مدى حوالى ثلاثة عقود من تاريخ مصر والوطن العربي والعالم الثالث، واننا نظلم ذلك الفكر لو طبقنا عليه المعايير غير الموضوعية، والأحكام الجاهزة دون أن ندرسه من داخله، وكما هو على حقيقته في الواقع، ودون أن نتمعن في كل الظروف الصعبة التي أحاطته من الجوانب كافة. وفي التقويم الأخير ينبغي علينا أن نأخذ بالحسبان بصورة جادة أن صاحب هذا الفكر كان قائداً سياسياً، وان أي قائد من وزنه، وفي مكانه ومقامه لا بد له، وهو يخوض أصعب التجارب في أدق الظروف، أن يبدع في مجال الفكر في خضم العمل اليومي، محاولةً منه لإيجاد أفضل المخارج لمشكلات الوطن، ولمجابهة خصومه المختلفين الذين استخدموا، بدورهم، الفكر سلاحاً ماضياً للنيل منه، والحط من قدره ودوره، فالأفكار تولد الأفكار عادة في سياق التفاعل، كما في سياق الردع والرفض. والفكر الناصري يمثل، من هذا المنطلق، طموحات مثقف ثوري متحرر في ثوب عسكري، وبعقل يجمع بين هذا وذاك، يرنو بكل جوارحه إلى التحرر من الاستعمار، ويؤمن بوجوب تحقيق العدالة الاجتماعية، وبتحرير الوطن العربي والعالم الثالث، وبالتحديث والوحدة، وبعدم الانحياز والسلام، وكان مردود هذا الفكر كبيراً بحكم عوامل عديدة، متفاعلة فيما بينها، يدخل بضمنها كون صاحبه رجلاً صادقاً، مقداماً، قوي الشخصية، ديناميكياً، مما أضفى على فكره بعداً جذاباً خاصاً، ولا سيما في أعين العرب الذين تأثروا به بقوة، وتحركوا بوحي منه، ولكن دون الانتماء المباشر إليه في أكثريتهم الساحقة، لذا يبقى الفكر الناصري خالداً تاريخياً، وعلى من يؤمن به أن يعيد النظر في جميع جوانبه سلباً وإيجاباً، وعلى جميع العروبيين التقدميين أن يستفيدوا من دروسه الغنية.

المراجــع

١ ـ العربيـة

كتب

ابراهيم، سعد الدين. **مصر والوطن العربي: مقالات في رحاب المنتدى**. عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٩٠.

ـــــ [وآخرون]. **مصر والعروبة وثورة يوليو**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٢. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٣)

أبو خاطر، جوزف. **لقاءات مع جمال عبد الناصر في صميم الأحداث**. ط ٢. بيروت: دار النهار، ١٩٧١.

أبو عز الدين، نجلاء. **عبد الناصر والعرب: منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية**. ترجمة يوسف الصباغ. القاهرة: الوطن العربي، ١٩٨١.

أبو الفتح، أحمد. **جمال عبد الناصر**. بيروت: لجنة مصر الحرة، [د. ت.].

أبو النصر، عمر. **جمال عبد الناصر: ساعات مثيرة مؤثرة من حياته**. بيروت: مكتب عمر أبو النصر للتأليف والترجمة والصحافة، ١٩٦٧.

أبو النور، سامي. **دور القصر في الحياة السياسية في مصر**. القاهرة: مطبعة أطلس، ١٩٨٨. ٢ ج.

ج ١: **١٩٢٢ ـ ١٩٣٦.**

ج ٢: **١٩٣٧ ـ ١٩٥٢.**

أجاريشيف. **جمال عبد الناصر**. ترجمة سامي عمارة. موسكو: دار التقدم، ١٩٨٣.

أحمد، أحمد كمال. **الناصرية والعالم الثالث**. بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦.

أحمد، أحمد يوسف. **الدور المصري في اليمن، ١٩٦٢ ـ ١٩٧٠**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.

اسماعيل، عز الدين [وآخرون]. **جمال عبد الناصر: الحب والخير والثورة**. بيروت:

دار العودة، ١٩٧٤.
أسود، عبد الرزاق محمد. **الموسوعة الفلسطينية**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٧٨. ٤ مج.
إمام، عبد الله. **حقيقة السادات**. ط ٢. القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٨٦.
ـــــ. **حكايات عن عبد الناصر**. بيروت: الوطن العربي، [د. ت.].
ـــــ. **صلاح نصر يتذكر: المخابرات والثورة**. القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٤.
ـــــ. **عبد الناصر والاخوان المسلمون**. بيروت؛ القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨١.
ـــــ. **علي صبري يتذكر: بصراحة عن السادات**. القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٨٧.
ـــــ. **ناصر وعامر**. القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٥.
ـــــ. **الناصرية: دراسة بالوثائق في الفكر الناصري**. تقديم ضياء الدين داوود. القاهرة: دار الشعب، ١٩٧١.
ـــــ. **الناصرية وتحديات العصر**. القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٨.
أمين، جلال أحمد. **المشرق العربي والغرب. دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩.
أنيس، محمد. **٤ فبراير ١٩٤٢، في تاريخ مصر السياسي**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.
ـــــ. **حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢.
ـــــ والسيد رجب حراز. **ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٩.
ايدن، انطوني. **مذكرات ايدن**. ترجمة خيري حماد. بيروت: [د. ن.]، ١٩٦٠.
بارزوهار، ميشيل. **التاريخ السري لحرب إسرائيل**. القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، [د. ت.].
بدر، عبد المنعم محمد. **أمتنا العربية: الحاضر والماضي والمستقبل**. الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٠.
بدوي، ثروت. **ثورة ٢٣ يوليو وتطور الفكر الثوري في مصر**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٤.

البزاز، عبد الرحمن. **بحوث في القومية العربية**. بيروت: [د. ن.]، ١٩٥٨.

بسيسو، معين توفيق. **دفاعاً عن البطل**. بيروت: دار العودة، ١٩٧٥.

البشري، طارق. **الحركة السياسية في مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢: مراجعة وتقديم جديد**. ط ٢. القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣.

البغدادي، عبد اللطيف. **مذكرات عبد اللطيف البغدادي**. القاهرة: المكتب المصري الحديث، [١٩٧٧]. ٢ ج.

البكار، عبد الهادي. **المأزق: مصر والعرب والآخرون**. القاهرة: مطبعة التقدم، ١٩٨٥.

بكداش، عبد الحميد. **جمال عبد الناصر، رجل في أمة**. بغداد: منشورات مكتبة النهضة، ١٩٦١.

بلال، عبد الله. **تأملات في الناصرية: ثورة إنسانية خالدة**. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١.

بن إيليا، الياهو وزيف شيف. **الحرب الإسرائيلية العربية**. ترجمة مديرية التدريب العسكري. بغداد: وزارة الدفاع، ١٩٦٩.

بيلياييف، ايغور وافغيني بريماكوف. **مصر في عهد عبد الناصر**. أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسي. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥.

بيومي، زكريا سليمان. **الاخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية، ١٩٢٨ ـ ١٩٤٨**. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٨.

تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠. مجموعة من المؤلفين. موسكو: أكاديمية العلوم السوفياتية، معهد الاستشراق، ١٩٧٦.

التائه، سعد. **٥ يونيو، نكسة أو مؤامرة**. بيروت: دار النضال، ١٩٨٤.

ـــــــ. **مصر بين عهدين (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠)، (١٩٧٠ ـ ١٩٨١)**. بيروت: دار النضال، ١٩٨٢.

تشرشل، رندولف. **سقوط ايدن**. مع مقدمة بقلم الزعيم العمالي اتلي؛ ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٥٩.

تيموفيييف، ايغور. **الطريق إلى رمضان**. موسكو: دار التقدم، ١٩٩٠. (حولية نحن العرب)

جاسم، أنمار لطيف نصيف. **القائد وإدارة الصراع: صدام حسين وجمال عبد الناصر: دراسة نظرية مقارنة في الفكر السياسي**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢.

الجامعة الأميركية في بيروت، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة. **الوثائق العربية**. بيروت: الجامعة، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦. ٤ ج.

ــــــ، مكتبة نعمة يافث التذكارية. **الوثائق العربية**. بيروت: الجامعة، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧. ١١ ج.

جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية. **ملف المشاريع المقترحة لحل أزمة الشرق الأوسط من تشرين الثاني ١٩٦٧ إلى تشرين الثاني ١٩٧٢**. بغداد: المركز، ١٩٧٢.

الجرف، طعيمة. **ثورة ٢٣ يوليو ومبادئ النظام السياسي في الجمهورية العربية المتحدة**. ط ٢. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٥.

الجزيري، محمد ابراهيم. **سعد زغلول**. القاهرة: مطابع أخبار اليوم، ١٩٥١.

جمعة، ابراهيم. **الميثاق والاتحاد الاشتراكي العربي**. القاهرة: دار الفكر العربي، [د. ت.].

الجندي، أنور. **أصول الثقافة العربية**. القاهرة: دار المعرفة، ١٩٧١. (الموسوعة الإسلامية العربية؛ ١)

ــــــ. **تاريخ الحركة الوطنية المصرية في نصف قرن، ١٨٨٢ ـ ١٩٤٦**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٤٧.

ــــــ. **المعارك الأدبية**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٦٠.

ــــــ. **هذا هو جمال**. بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٦٠.

ــــــ. **يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار**. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١.

جوهر، سامي. **الصامتون يتكلمون: عبد الناصر... ومذبحة الاخوان**. ط ٤. القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٧٥.

حافظ، حمدي. **الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.].

ــــــ. **ثورة ٢٣ يوليو: الأحداث، الأهداف، الإنجازات**. ط ٢. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.

ــــــ. **مهمتي السرية بين عبد الناصر وأمريكا**. القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٧٦.

الحديدي، صلاح الدين. **شاهد على حرب ١٩٦٧**. بيروت: دار الشروق، ١٩٧٤.

الحركة الديمقراطية الجديدة في مصر: تحليل وثائق. مجموعة من المناضلين. القاهرة: دار ابن خلدون، [د. ت.].

حسين، أحمد. **كيف عرفت عبد الناصر وعشت أيام حكمه**. القاهرة: دار الأحرار، ١٩٧٣.

ــــــــ. **نصف قرن مع العروبة وقضية فلسطين**. بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧١.

حسين، طه. **في الأدب الجاهلي**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨.

ــــــــ. **مستقبل الثقافة في مصر**. ط ٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٤.

الحصري، ساطع. **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٦.

ــــــــ. **الإقليمية: جذورها وبذورها**. ط ٢. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤.

ــــــــ. **العروبة أولاً**. ط ٦. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨.

ــــــــ. **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**. ط ٣. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧.

حمدان، جمال. **شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان**. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨١.

حمروش، أحمد. **ثورة يوليو وعقل مصر**. القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٨٥.

ــــــــ. **قصة ثورة ٢٣ يوليو**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨. ٥ ج.

ج ١: **مصر والعسكريون**.

ج ٢: **مجتمع جمال عبد الناصر**.

ــــــــ. ــــــــ. ط ٢. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٨. ٥ ج.

ج ٣: **عبد الناصر والعرب**.

ج ٤: **شهود ثورة يوليو**.

ج ٥: **خريف عبد الناصر**.

ــــــــ. **قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الاشتراكية**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٣.

حمزة، عبد اللطيف. **مستقبل الصحافة في مصر**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٧.

حمودة، عادل. **أزمة المثقفين وثورة يوليو**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥.

حوراني، ألبرت. **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**. ترجمة كريم عزقول. بيروت: دار النهار، ١٩٦٨.

خاطر، فؤاد المرسي. **حول الفكرة العربية في مصر: دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥. (سلسلة مصر النهضة)

خطاب، محمود شيت. **الأيام الحاسمة، قبل معركة المصير وبعدها**. بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٧.

الخطيب، عمر. **مصر والحرب مع إسرائيل، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٣**. بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧.

الخطيب، عمر عودة. **لمحات في الثقافة الإسلامية**. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣.

خفيف، محمود. **أحمد عرابي: الزعيم المفترى عليه**. ط ٤. بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٢.

خليل، فارس. **التطوير الثقافي في مجتمعنا الاشتراكي**. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٥.

الخولي، لطفي (محرر). **المأزق العربي**. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٦.

دايان، موشي. **سيرة حياتي**. ترجمة مركز الدراسات الفلسطينية. بغداد: جامعة بغداد، ١٩٨٦.

الدجاني، أحمد صدقي. **عبد الناصر والقومية العربية**. بيروت: دار الوحدة، ١٩٧٣.

دروزة، محمد عزة. **الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها**. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧.

الدسوقي، عاصم أحمد. **مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥**. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٦.

دومال، جاك وماري لوروا. **جمال عبد الناصر: من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة**. ترجمة ريمون نشاطي. ط ٦. بيروت: دار الآداب، ١٩٨٨.

دياب، محمد عبد الكريم. **الثورة العربية المعاصرة: الأبعاد الفكرية والتنظيمية**. بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٨.

ديروزيل، ج. ب. **التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، ١٩٤٥ ـ ١٩٧٨**. ترجمة خضر خضر. طرابلس، لبنان: دار المنصور، ١٩٨٥.

راشد، نشيلة (جامع). **حكاية كفاح ضد الاستعمار**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١. (للشباب)

الرافعي، عبد الرحمن. **مقدمات ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢، الكفاح في القنال، حريق القاهرة...** ط ٢. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤.

رفاعي، عبد العزيز. **القومية العربية وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦. (كتب قومية؛ ٣٣٨)

رفعت، كمال الدين [وآخرون]. **٢٣ يوليو: خمسة أبعاد**. بيروت: دار القدس، ١٩٧٤. (دراسات سياسية)

رفعت، محمد. **التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤. (مكتبة العلوم السياسية)

رمضان، عبد العظيم. **تحطيم الآلهة: قصة حرب يونيه ١٩٦٧**. إشراف راوية عبد العظيم. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥.

ــــــ. **تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٨**. بيروت: الوطن العربي، ١٩٧٣.

ــــــ. **الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤**. القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٧٥.

ــــــ. **الصراع بين الوفد والعرش، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩**. ط ٢. بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٥.

ــــــ. **صراع الطبقات في مصر، ١٩٣٧ ـ ١٩٥٢**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨.

ــــــ. **عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤**. القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٧٦.

ــــــ. **مصر في عهد السادات: آراء في السياسة والتاريخ**. بيروت: دار الرقي، ١٩٨٦.

رياض، محمود. **مذكرات محمود رياض، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٨: البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.

الزركلي، خير الدين. **الاعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠. ٨ ج.

زكي، رمزي. **دراسات في أزمة مصر الاقتصادية مع استراتيجية مقترحة للاقتصاد المصري في المرحلة القادمة**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٣.

زكي، صلاح. **مصر والمسألة القومية: بحث في عروبة مصر**. القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣.

زين، زين نور الدين. **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**. بيروت: دار النهار، ١٩٧٠.

السادات، أنور. **أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية**. تقديم جمال عبد الناصر. القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧. (كتاب الهلال؛ ٧٦)

ــــــ. **ثورة على النيل**. بغداد: الشركة الشرقية للطباعة، [د. ت.]. ٢ ج.

ـــــــ. **يا ولدي هذا عمك جمال**. بيروت: مكتبة العرفان، [١٩٥٨].

السامرائي، عبد الله سلوم. **الولايات المتحدة الأمريكية والمؤامرة على الأمة العربية**. بغداد: دار الرشيد للنشر، [د. ت.].

سان جون، روبرت. **الرئيس**. تقديم سعد زغلول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

سركيس، يوسف اليان (جامع). **معجم المطبوعات العربية والمعربة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ ميلادية**. القاهرة: مطبعة سركيس بمصر، ١٩٢٨.

سعد الله، صلاح. **العدوان الإسرائيلي، حزيران ١٩٦٧**. ط ٢. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٠.

سلامة، غسان [وآخرون]. **السياسة الأمريكية والعرب**. ط ٢ جديدة موسعة ومنقحة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٢)

سليم، جمال. **التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢.

ـــــــ. **الناصرية الجديدة وتحديات العصر**. القاهرة: المطبعة الفنية، ١٩٧٧.

السوداني، محمود علي حسن. **جمال عبد الناصر بين خصوم وأنصار**. القاهرة: المطبعة الكمالية، ١٩٧٧.

السيد جاسم، عزيز. **مقتل جمال عبد الناصر**. ط ٢. بغداد: منشورات جريدة العراق، ١٩٨٥.

السيد سليم، محمد. **التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٣)

سيف الدولة، عصمت. **الأحزاب ومشكلة الديمقراطية في مصر**. بيروت: دار المسيرة، [د. ت.].

ـــــــ. **عن الناصريين... وإليهم**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٩.

ـــــــ. **مشكلة فلسطين من وجهة نظر قومية**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٩١.

شاتيلا، كمال. **دراسات في الناصرية**. بيروت: دار الهدى للنشر والطباعة، ١٩٧٠.

شرف، عبد العزيز. **طه حسين وزوال المجتمع التقليدي**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.

الشرقاوي، جمال. **حريق القاهرة: قرار اتهام جديد**. القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦.

الشريف، كامل اسماعيل. **المقاومة السرية في قناة السويس، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤**. ط ٢. بيروت: [د. ن.]، ١٩٥٧.

شفيق، منير. **في الوحدة العربية والتجزئة**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.

شكر، عبد الغفار. **فلسطين في فكر عبد الناصر: دراسة وثائقية**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٢. (قضايا قومية؛ ١)

شكري، غالي. **اعترافات الزمن الخائب**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

ـــــ. **الثورة المضادة في مصر**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨.

ـــــ. **عروبة مصر وامتحان التاريخ**. بيروت: دار العودة؛ طرابلس: دار الكتاب العربي، ١٩٧٤.

ـــــ. **النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨.

شلبي، أحمد. **حوليات عصر جمال عبد الناصر: عصر المظالم والهزائم**. ط ٢. القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٨٣.

ـــــ. **موسوعة التاريخ «الإسلامي» والحضارة الإسلامية**. ط ٢. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣.

الشمالي، توفيق. **دقت ساعة العمل الثوري**. تقديم كامل مهدي. القاهرة: الشركة التعاونية للطباعة والنشر، ١٩٦١.

ـــــ. **ناصر القومية العربية، تحليل أدبي وسياسي وتاريخي لحياة الرئيس جمال عبد الناصر**. القاهرة: الشركة التعاونية للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

شميس، عبد المنعم. **الثورة العربية الكبرى، ٢٣ يوليو**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣.

ـــــ. **الفجر الأبيض: ٢٣ يوليو**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦. (كتب قومية؛ ٣٤٦)

الشهاري، محمد علي. **عبد الناصر وثورة اليمن**. القاهرة: مطابع روز اليوسف، ١٩٧٧.

شهدي، محمد فريد. **تأملات... في الناصرية**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣. (المفكر العربي)

صادق، حاتم. **قضايا ناصرية**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨١.

صايغ، أنيس. **تطور المفهوم القومي عند العرب**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١.

ـــــ. **الفكرة العربية في مصر**. بيروت: هيكل الغريب، ١٩٥٩.

ـــــ. **في مفهوم الزعامة السياسية: من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر**: بيروت: جريدة المحرر، ١٩٦٥.

صايغ، يوسف، أحمد سامح الخالدي وإدغار أوبلانس. **حرب الاستنزاف**. بيروت: دار القدس، ١٩٧٨. (دراسات؛ ٥)

صبحي، حسن محمد. **اليقظة القومية الكبرى، يوليو ١٩٥٢: أصولها وأبرز مظاهرها وإنجازاتها**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.

صفدي، مطاع. **التجربة الناصرية والنظرية الثالثة**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا؛ منشورات دار الحكيم، ١٩٧٣.

ـــــ. **ناصر الناصرية والثورة العربية**. بيروت: دار العودة، ١٩٧٠.

صفوت، محمد مصطفى. **مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة: التطور السياسي، ١٨٨٢ ـ ١٩٥٨**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. (الألف كتاب؛ ٢٤٠)

الطماوي، سليمان محمد. **ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بين ثورات العالم**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٤.

طه، رياض. **محاضر محادثات الوحدة: محاولات في تحليلها**. بيروت: مطبعة دار الكفاح، ١٩٦٣.

عاشور، نعمان. **صور من البطولة والأبطال**. الإسكندرية: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.].

عامر، ابراهيم. **ثورة مصر القومية**. القاهرة: دار النديم، ١٩٥٦.

عبد الله، اسماعيل صبري. **في مواجهة اسرائيل**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩. (اقرأ؛ ٣١٩)

ـــــ [وآخرون]. **مصر من الثورة... إلى الردة**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١.

عبد الله، نبيه بيومي. **تطور فكرة القومية العربية في مصر**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

عبد الرحمن، أسعد. **الناصرية: ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورية**. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٧.

عبد الرحمن، عواطف. **مصر وفلسطين**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠. (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٦)

عبد القادر، محمد زكي. **محنة الدستور، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢**. ط ٢. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٧٣.

عبد الكريم، أحمد عزت، عبد الحميد البطريق وأبو الفتوح رضوان. **تاريخ العالم العربي في العصر الحديث**. [القاهرة]: دار الجمهورية للطباعة، [د. ت.].

عبد الملك، أنور. **المجتمع المصري والجيش، ١٩٥٢ ـ ١٩٧١**. ترجمة محمود حداد وميخائيل خوري. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤.

عبد المنعم، محمد فيصل. **تاريخ الحرب بين العرب وإسرائيل، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٣**. القاهرة: دار أمية، ١٩٨٤.

عبد الناصر، جمال. **حول مفهوم العمل السياسي**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٩٣.

ـــــــ. **الديمقراطية، من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣. (كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر)

ـــــــ. **عدم الانحياز: من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢. (كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر)

ـــــــ. **على طريق الاشتراكية: من أقوال جمال عبد الناصر**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.(كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر)

ـــــــ. **فلسطين: من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر**. ط ٢. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [-١٩٦]. (كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ٣٠٢)

ـــــــ. **فلسفة الثورة**. القاهرة: وزارة الثقافة والإعلام، [د. ت.]؛ القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [١٩٥٤]. (كتب قومية. مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ٣٠٣)

ـــــــ. **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ ـ ١٩٥٩)**. القاهرة: مطبعة الإعلانات الشرقية، [د. ت.]. **الأجزاء ١ ـ ١١**. (سلسلة اخترنا لك)

ـــــــ. **مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ ـ ١٩٦٦)**. القاهرة: مصلحة الاستعلامات، [د. ت.]. الأجزاء ١ ـ ٥.

ـــــــ. **وثائق عبد الناصر: خطب، أحاديث، وتصريحات**. القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٣. ٢ مج.

مج ١: **يناير ١٩٦٧ ـ ديسمبر ١٩٦٨**.

مج ٢: **يناير ١٩٦٩ ـ سبتمبر ١٩٧٠**.

ـــــــ. **يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين**. تقديم محمد حسنين هيكل. باريس: مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٧٨.

عبد الناصر، شوقي. **ثورة عبد الناصر**. نيقوسيا، قبرص: دار الموقف العربي، [١٩٨٣؟].

عبد الناصر في ذكرى مولده. مجموعة من المؤلفين. القاهرة: دار صوت العرب للثقافة والإعلام، ١٩٩٣.

عبد الناصر، هدى جمال. **الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢**. القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧.

عبد الناصر وما بعد. مجموعة من المؤلفين. إشراف أنيس صايغ. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠. (كتاب قضايا عربية)

عطا، محمد مصطفى. **مصر بين ثورتين**. القاهرة: دار المعارف، [د. ت.].

عطوي، فوزي. **جمال عبد الناصر: رائد التاريخ العربي الحديث**. بيروت: الشركة اللبنانية للكتاب، [١٩٧٠].

عفلق، ميشيل. **في سبيل البعث**. بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

العقيقي، نجيب. **المستشرقون**. [القاهرة]: دار المعارف، [١٩٨١]. ٣ مج.

عمر، نجاح. طه حسين: **أيام ومعارك**. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٩.

عن الناصرية والإسلام. القاهرة: مركز إعلام الوطن العربي، ١٩٩١.

عودة، عودة بطرس. **جمال عبد الناصر: دوره في النضال العربي**. القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١.

ــــــ. **عبد الناصر والاستعمار العالمي**. القاهرة: مؤسسة ناصر للثقافة؛ دار الوحدة، ١٩٧٥. ٢ ج. (خزانة الفكر العربي. السلسلة القومية؛ ١٢ ـ ١٣)

عودة، محمد، فيليب جلال وسعد كامل. **قصة السوفيات مع مصر**. حوار أجري مع الدكتور عبد العزيز حجازي والدكتور عزيز صدقي وخالد محيي الدين ومحمد عبد السلام الزيات ومحمد حافظ اسماعيل والدكتور اسماعيل صبري عبد الله ومراد غالب ومحمد حسنين هيكل. بيروت: دار ابن خلدون، [د. ت.].

عون، حسن. **أبرز ملامح ثورة ٢٣ يوليو**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦.

غالي، ابراهيم أمين. **سيناء المصرية عبر التاريخ**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

فرح، الياس. **الفكر العربي الثوري أمام تحديات المرحلة الراهنة**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣.

ــــــ. **في الثقافة والحضارة**. ط ٢. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧.

ــــــ. **من قضايا الثورة والإنسان العربي**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥.

ــــــ. **الوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى**. ط ٢. بيروت: [د. ن.]، ١٩٧٠.

فريد، عبد المجيد (معد). **من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٧٩.

الفكهاني، حسن. **موسوعة جمال عبد الناصر: مصر الثورة، من الزعيم الخالد إلى خليفته الثائر**. القاهرة: الدار العربية للموسوعات، ١٩٧٢.

فهمي، حسين. **النموذج الناصري للتنمية المستقلة، مطلوب الخروج من التبعية**. [د. م.: د. ن.]، ١٩٩٠. (سلسلة كتاب الغد العربي؛ العدد ١)

فوزي، محمد. **حرب الثلاث سنوات، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠: مذكرات الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية الأسبق**. بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣.

فوشيه، جورج. **جمال عبد الناصر في طريق الثورة**. ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز. بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٠.

القاسمي، خالد بن محمد. **الوحدة اليمنية: حاضراً ومستقبلاً**. ط ٢ مزيدة ومنقحة. نيقوسيا: دار الشباب، ١٩٨٧.

قبيسي، ذو الفقار ونجيب صالح. **ناصر، الشهيد الحي**. بيروت: دار الصياد، ١٩٧٠.

قراءات في الفكر القومي، الكتاب الأول: القومية العربية: فكرتها ومقوماتها. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣. (سلسلة التراث القومي)

قراءات في الفكر القومي، الكتاب الثاني: الوحدة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣. (سلسلة التراث القومي)

قراءات في الفكر القومي، الكتاب الثالث: القومية والإسلام والتاريخ والإنسانية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤. (سلسلة التراث القومي)

قراعة، سنية. **حارس المجد، جمال عبد الناصر**. القاهرة: مكتب الصحافة الدولي، ١٩٥٩.

قرقوط، ذوقان. **تطور الفكرة العربية في مصر، ١٨٠٥ ـ ١٩٣٦**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

قرم، جورج. **انفجار المشرق العربي: من تأميم قناة السويس إلى اجتياح لبنان**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٧. (السياسة والمجتمع)

القليبي، الشاذلي، **الثقافة رهان حضاري**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨.

كارنجيا، د.ك. **كيف نجح عبد الناصر**. ط ٤. القاهرة: دار المعارف، [د.ت.].

كروم، حسنين. **عبد الناصر المفترى عليه**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.

كشك، محمد جلال. **ثورة يوليو الأمريكية: علاقة عبد الناصر بالمخابرات الامريكية**.

القاهرة: الزهراء للاعلام العربي، ١٩٨٨.

ـــــ. **كلام لمصر**. بيروت: دار الوطن العربي، [١٩٧٥].

كوبلاند، مايلز. **لعبة الأمم**. ترجمة مروان خيري. بيروت: الانترناشونال سنتر، ١٩٧٠.

الكيالي، عبد الوهاب [وآخرون]. **موسوعة السياسة**. تحرير وإشراف عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري، اشترك في التحرير أسعد رزوق [وآخرون]. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤. ٧ ج.

لاديكين، ف. **مصدر الأزمة الخطيرة: دور الصهيونية في تغذية النزاع في الشرق الأوسط**. ترجمة هاشم حمادي. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٥.

لاكوتير، جان. **عبد الناصر**. بيروت: دار النهار، ١٩٧١.

لوتسكيفتش، ف. أ. **عبد الناصر ومعركة الاستقلال الاقتصادي، ١٩٥٢ ـ ١٩٧١**. ترجمه عن الروسية سلوى أبو سعده وواصل بحر. بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨٠.

لينين. **نصوص حول المسألة اليهودية**. تقديم جورج طرابيشي. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٠.

مانغولد، بيتر. **تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط**. ترجمة أديب يوسف شيش. دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٥.

محاضر جلسات مباحثات الوحدة. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣. (كتب قومية)

المراغي، أحمد مرتضى. **غرائب في عهد فاروق وبداية الثورة المصرية**. بيروت: دار النهار، ١٩٧٦.

مرسي، فؤاد. **هذا الانفتاح الاقتصادي**. ط ٢. بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٠.

مصطفى، أحمد عبد الرحيم. **تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة**. القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٧٧.

مصطفى، حسن. **حرب حزيران ١٩٦٧، أول دراسة عسكرية من وجهة النظر العربية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣. ٢ ج.

مطر، فؤاد. **بصراحة عن عبد الناصر: حوار على مدى ٢٠ ساعة مع محمد حسنين هيكل**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩.

ـــــ. **روسيا الناصرية ومصر المصرية**. بيروت: دار النهار، ١٩٧٢.

مقبل، سيف علي. **وحدة اليمن تاريخياً**. بيروت: دار الحقائق للطباعة والنشر، ١٩٨٧.

مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا. **الموسوعة الناصرية: نضال عبد الناصر**. بيروت: دار الحكيم، ١٩٧٣.

الموسوعة الفلسفية. إشراف م. روزنتال وب. يودين؛ ترجمة سمير كرم. ط ٣. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١.

موسوعة الهلال الاشتراكية. راجعها كامل زهيري. القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٠.

موسى، سلامة. **اليوم والغد**. القاهرة: المطبعة العصرية، [١٩٢٧].

مؤنس، حسين. **مصر ورسالتها**. مع مقدمة بقلم جمال عبد الناصر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣. (سلسلة اخترنا لك؛ ١٧)

مئة عام على مصر للمصريين. مجموعة من المؤلفين. القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٣.

الميثاق، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢. القاهرة: الاتحاد الاشتراكي العربي، ١٩٦٢.

ميثاق نيسان (ميثاق ١٧ نيسان الوحدوي). بغداد: منشورات مجلة العمل الشعبي، [د. ت.].

ناتنج، أنتوني. **ناصر**. ترجمة شاكر ابراهيم سعيد. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٢.

نجيب، محمد. **كلمتي للتاريخ**. القاهرة: دار الطباعة الحديثة، [د. ت.].

ـــــــ. **مذكرات محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر**. ط ٥. القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٨.

ـــــــ. **مصير مصر**. بغداد: دار العقاب للطباعة والنشر، [د. ت.].

نصر، صلاح. **عبد الناصر وتجربة الوحدة**. القاهرة: الوطن العربي، ١٩٧٦.

نصر، مارلين. **التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠: دراسة في علم المفردات والدلالة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١.

نضال البعث. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٦.

ج ٦: **القيادة القومية، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢: من تشكيل القيادة القومية حتى نهاية الانفصال**.

النقاش، رجاء. **الانعزاليون في مصر: رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.

نوفل، سيد. **العمل العربي المشترك: ماضيه ومستقبله**. القاهرة: جامعة الدول

العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨.
هلال، علي الدين. **السياسة والحكم في مصر: العهد البرلماني، ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢.** القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٧٧.
ـــــ [وآخرون]. **الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي.** ط ٣. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٤)
هاليداي، فرد. **الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية.** ترجمة محمد الرميحي. الكويت: شركة كاظمة للنشر والتوزيع، ١٩٧٦.
هويدي، أمين. **حروب عبد الناصر.** ط ٢. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.
ـــــ. **مع عبد الناصر.** بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٤.
هيكل، محمد حسنين. **١٩٦٧: الانفجار.** القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠. (حرب الثلاثين سنة)
ـــــ. **١٩٦٧: سنوات الغليان.** القاهرة: مؤسسة الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨. (حرب الثلاثين سنة)
ـــــ. **بين الصحافة والسياسة: قصة ووثائق معركة غريبة في الحرب الخفية.** ط ٦. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٥.
ـــــ. **الحل والحرب.** . بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧.
ـــــ. **خبايا السويس.** القاهرة: دار العصر الحديث، ١٩٦٧.
ـــــ. **الطريق إلى رمضان.** ترجمة يوسف الصباغ. بيروت: دار النهار، ١٩٧٥.
ـــــ. **عبد الناصر والعالم.** بيروت: دار النهار، ١٩٧٢.
ـــــ. **لمصر. . لا لعبد الناصر: الحملة ضد جمال عبد الناصر، ما وراءها؟ ـ ومن وراءها؟.** ط ٥. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٥.
ـــــ. **ملفات السويس.** القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٦. (حرب الثلاثين سنة)
هيكل، محمد حسين. **مذكرات في السياسة المصرية.** القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨. ٢ ج.
وين، ولتون. **ناصر العرب، البحث عن الكرامة.** نقلته إلى العربية لجنة من الأساتذة الجامعيين. بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٥٩.
يحيى، جلال. **أصول ثورة يوليو ١٩٥٢.** القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.

ـــــ. **الثورة والتنظيم السياسي.** القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦. (المكتبة السياسية)
ـــــ وخالد نعيم. **مصر الحديثة، ١٩١٩ ـ ١٩٥٢.** الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٨.

دوريـات

أبو بكر، توفيق. «العلاقات الإسرائيلية الأميركية بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣.» **قضايا عربية:** السنة ٧، العدد ٧، تموز/يوليو ١٩٨٠.

أبو زيد، فاروق. «بدايات الفكر القومي العربي في مصر.» **قضايا عربية:** العدد ٤، تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٧٤.

الأحرار (بيروت): ٣١/٧/١٩٧٠.

أحمد، أحمد يوسف. «الدعم الأمريكي للعدوان الإسرائيلي.» **السياسة الدولية:** السنة ١٠، العدد ٣٥، كانون الثاني/يناير ١٩٧٤.

أحمد، عبد الكريم. «التيارات الفكرية التقدمية في البلاد العربية في الستينات.» **الكاتب المصري:** العدد ١٢٨، ١٩٧١.

ـــــ. «الميثاق في المعركة.» **الكاتب المصري:** السنة ١١، العدد ١٢٢، كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١.

الأخبار (بغداد): ٦/١٠/١٩٦١ و١٧/١٠/١٩٦١.

ألف باء (بغداد): ١٥ أيار/مايو ١٩٩٥.

«انهيار الاتحاد السوفياتي ومسألة حقوق الإنسان.» **حقوق الإنسان** (بغداد): العدد ٣، آذار/مارس ١٩٩٥.

الأهـرام: ٨/٤/١٩٥٨؛ ٢٤/٧/١٩٥٩؛ ٢٤/١١/١٩٥٩؛ ٢٤/١٢/١٩٥٩؛ ٢٨/١٢/١٩٥٩؛ ٦/١٠/١٩٦١؛ ١٧/١٠/١٩٦١؛ ٢٢/٢/١٩٦٣؛ ١٤/٣/١٩٦٣؛ ١٧/٤/١٩٦٣؛ ٢٣/٧/١٩٦٣؛ ٢٤/٣/١٩٦٤؛ ٢٤/٤/١٩٦٤؛ ٢/٥/١٩٦٤؛ ٢٤/١٢/١٩٦٤؛ ١٣/٣/١٩٦٥؛ ٢٠/٥/١٩٦٥؛ ٢٣/٧/١٩٦٥؛ ٥/١١/١٩٦٥؛ ٢٢/١١/١٩٦٥؛ ٢٢/١٢/١٩٦٥؛ ٢٣/٧/١٩٦٦؛ ٥/١١/١٩٦٦؛ ٨/١٢/١٩٦٦؛ ٢٤/١٢/١٩٦٦؛ ٢٣/٢/١٩٦٧؛ ٢٣/٥/١٩٦٧؛ ٢٧/٥/١٩٦٧؛ ٢٩/٥/١٩٦٧؛ ١٠/٦/١٩٦٧؛ ٣٠/٨/١٩٦٧؛ ٣١/٨/١٩٦٧؛ ٢٤/١١/١٩٦٧؛ ٤/٣/١٩٦٨؛ ٥/١٢/١٩٦٨؛ ٢٤/٧/١٩٧٠ و٢٥/٧/١٩٧٠.

الأهواني، عبد العزيز. «موقفنا من التراث.» **الكاتب:** السنة ١١، العدد ١٢٨، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١.

الأيوبي، الهيثم [المقدم]. «مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي.» **قضايا عربية:** العدد

١، نيسان/ ابريل ١٩٧٤.
البشري، طارق. «مصر في إطار الحركة العربية.» **المستقبل العربي**: السنة ١، العدد ٢، تموز/ يوليو ١٩٧٨.
بكر، حسن. «حرب الاستنزاف، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠: نموذج المواجهة العربية طويلة الأمد ضد إسرائيل.» **قضايا عربية**: السنة ٦، العدد ٧، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩.
التائه، سعد. «الناصرية والاشتراكية.» **الكاتب**: السنة ١١، العدد ١٢٩، ١٩٧١.
ثابت، أحمد. «صفحات من المقاومة.» **اليقظة العربية (القاهرة)**: أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨.
الجمهورية: ٣١/ ٣/ ١٩٦٨ و١١/ ٤/ ١٩٦٨.
الجنابي، طاهر. «الأمن المائي والمخاطر التي يتعرض لها الوطن العربي.» **آفاق عربية (بغداد)**: السنة ١٧، العدد ١١، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢.
الجهاد (القدس): ٢٢/ ١١/ ١٩٦٦.
حسنين، مجدي. «عبد الناصر علمنا القومية العربية والاشتراكية.» **السفير**: ٢٨/ ٩/ ١٩٧٩.
حمدان، جمال. «أهداف ثابتة ووسائل متغيرة.» **الكاتب**: السنة ٧، العدد ٧٧، آب/ أغسطس ١٩٦٧.
ـــــــ. «نظرة على الموقف قبل المعركة.» **الكاتب**: السنة ٧، العدد ٧٥، حزيران/ يونيو ١٩٦٧.
ديمتري، أديب. «برنامج العمل الوطني وتقدم الثورة.» **الكاتب المصري**: السنة ٧، العدد ١١٧، تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧١.
ـــــــ. «طريقان وحقيقة واحدة من ٩ يونيو ١٩٦٧ إلى صمود الأيام الدامية في الأردن.» **الكاتب**: السنة ١٠، العدد ١١٦، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠.
الرميحي، محمد. «عبد الناصر والإقليم النفطي.» **قضايا عربية**: السنة ٧، العدد ١١، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٠.
رزق، أسعد. «إسرائيل والامبريالية العالمية.» **شؤون فلسطينية**: العدد ١، آذار/ مارس ١٩٧١.
الريماوي، عبد الله. «الإقليمية الجديدة.» **الكاتب**: السنة ٨، العدد ٨٧، حزيران/ يونيو ١٩٦٨.
سانكاري، فاروق اي. «الإعلام الأمريكي، سياسة الخداع في الشرق الأوسط.» **آفاق**

عربية: السنة ١٥، العدد ٤، ١٩٩٠.

السعد، عبد الأمير. «قضايا القطاع العام والخاص والتنمية.» **دراسات عربية**: السنة ٢٦، العددان ٥ ـ ٦، آذار/مارس ـ نيسان/ابريل ١٩٩٠.

السعيد، رفعت. «الاخوان المسلمون في لعبة السياسة.» **آفاق عربية**: السنة ٣، العدد ٧، آذار/مارس ١٩٧٨.

سعيد، عبد الغني. «ثورة ٢٣ يوليو وقضية فلسطين.» **الكاتب**: السنة ٧، العدد ١٧، آب/أغسطس ١٩٦٧.

ــــــ. «وضع الطبقة العاملة في الدستور.» **الكاتب المصري**: العدد ٦٥، ١٩٦٦.

سلامة، ابراهيم. «مناداة الخريف في مصر.» **الدستور** (بيروت): ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢.

سيد علي، عبد المنعم. «تطور دور الدولة في النشاط الاقتصادي في مصر والعراق والجزائر، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٨.» **دراسات عربية**: السنة ٢٦، العددان ٥ ـ ٦، آذار/مارس ـ نيسان/ابريل ١٩٩٠.

شكري، غالي. «عبد الناصر. . والمثقفون، ثلاث كلمات لغالي شكري.» **دراسات عربية**: السنة ٧، العدد ١، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠.

ــــــ. «الناصرية حركة تاريخية وعلامة فارقة بين عصرين.» **آفاق عربية**: السنة ١٥، العدد ٣، آذار/مارس ١٩٩٠.

صايغ، أنيس. «ثلاث لقاءات مع عبد الناصر.» **تاريخ العرب والعالم**: السنة ٢، العدد ١٥، كانون الثاني/يناير ١٩٨٠.

صايغ، فايز. «ملاحظات على قرار مجلس الأمن ٢٤٢.» **شؤون فلسطينية**: العدد ١٥، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢.

صايغ، يوسف عبد الله. «النفط العربي في استراتيجية المجابهة العربية الإسرائيلية.» **شؤون فلسطينية**: العدد ١٦، كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢.

عبد الدائم، عبد الله. «معركتنا: معركة القومية الجديدة.» **الآداب** (بيروت): السنة ٤، العدد ١٢، كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦.

عمارة، محمد. «العروبة أولاً.» **قضايا عربية**: السنة ٥، العدد ٤، تموز/يوليو ـ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨.

ــــــ. «العروبة في العصر الحديث: دراسات في القومية والأمة.» **الكاتب العربي** (القاهرة): ١٩٦٧.

غليون، برهان. «موضوعات حول الوضع العربي الراهن.» **دراسات عربية**: السنة ٧،

العدد ١، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠.

فتحي، محمد. «رحلة في عقل رئيس وزراء مصر الأسبق الدكتور عزيز صدقي (حوار).» **الرأي** (الأردن): ٦/١/١٩٩٥.

فرج، الفريد. «ثورة يوليو.. والثقافة.» **٢٣ يوليو** (لندن): العدد ٢١، ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٧٩.

قاسمية، خيرية. «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية.» **المستقبل العربي**: السنة ١، العدد ٧، آذار/ مارس ١٩٧٩.

قرقوط، ذوقان. «الماسونية العربية: محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية في فلسطين.» **قضايا عربية**: العدد ٩، كانون الثاني/ يناير ١٩٧٥.

ـــــــ. «الوجه العربي لثورة عرابي.» **الكاتب** (القاهرة): السنة ١١، العدد ١٢٧، تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧١.

الكاتب: السنة ٧، العدد ٧٥، تموز/ يوليو ١٩٦٧.

كنعان، حسين. «من يصنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.» **الباحث** (بيروت): السنة ٦، العددان ١ ـ ٢، ١٩٨٤.

«ما تبقى من التجربة الناصرية: حول عروبة مصر.» (ملف). إعداد سوسن حسين ومجدي حماد. **الفكر العربي**: السنة ١، العددان ٤ ـ ٥، ١٥ أيلول/ سبتمبر ـ ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨.

المحرر (بيروت): ٢٣/١١/١٩٦٦.

محمود، عزام مصطفى. «المياه العربية والسياسة الصهيونية.» **ألف باء**: السنة ٣٠، العدد ١٤٩٨، حزيران/ يونيو ١٩٩٧.

محيي الدين، خالد. «جمال عبد الناصر كما عرفته.» **الكاتب**: السنة ١٠، العدد ١١٦، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠.

ـــــــ. «مذكرات خالد محيي الدين، والآن أتكلم.» **الرأي**: ١٢/١٢/١٩٩٢.

ـــــــ. «والآن أتكلم.» عدة حلقات. **الرأي**: ٥/١٢/١٩٩٢؛ ٩/١٢/١٩٩٢؛ ١٦/١٢/١٩٩٢ و٢٣/١٢/١٩٩٢.

مرسي، فؤاد. «مفهوم الدولة في ظل الثورة والثورة المضادة في مصر.» **اليقظة العربية**: العدد ٩، أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨.

المصور: ٢٠ نيسان/ ابريل ١٩٧٨.

المعداوي، هاني. «الأقباط وقضية العروبة.» **الفكر العربي**: السنة ١، العددان ٤ ـ ٥، ١٥ أيلول/ سبتمبر ـ ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨.

النشار، حسن. «ذكرياتي عن عبد الناصر.» **صباح الخير** (القاهرة): ١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٠.

النهار: ١٩٧٠/٧/٢٧.

الهدف (بيروت): آب/أغسطس ١٩٧٠.

الوسط: ١٤ تموز/يوليو ١٩٩٧.

نــدوات

ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل. القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧.

رسائـل، أطروحـات

دندشلي، مصطفى. «حزب البعث العربي الاشتراكي، ١٩٤٠ ـ ١٩٦٣، المساهمة في نقد الحركات السياسية في الوطن العربي.» (أطروحة دكتوراه، جامعة السوربون، ١٩٧٥). نقلت إلى العربية ١٩٧٩.

سيد محمد، محمد المختار. «النضال الوطني في موريتانيا، ١٩٠٣ ـ ١٩٦٠.» (رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٧).

الشيخلي، عدنان حسين رشيد. «الفكر القومي في مصر، ١٨٨٢ ـ ١٩٢٢.» (رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، ١٩٨٠).

صكر، ظاهر محمد. «السياسة الأمريكية تجاه مصر، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢.» (أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٥).

الظاهر، مزيد عبد العزيز. «القومية العربية والنظرية القومية في منظور التجربة الناصرية.» (رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، ١٩٨٢).

العبيدي، سمير عبد الرسول عبد الله. «محمد صديق شنشل ودوره السياسي في العراق حتى عام ١٩٥٩.» (رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٢).

نجار، نور يعقوب. «عبد الرحمن الكواكبي، صحفياً.» (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الصحافة، ١٩٧٠).

وثائق غير منشورة

العراق، دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقية، ملفات البلاط الملكي. «تقارير القائم بالأعمال، ١٩٥٠.» الملف رقم ٢٦٦٨، تسلسل الملف ٣١١.

ـــــــ. «تقرير عام.» الملف رقم ٤٨٠٣، تسلسل الملف ٣١١.

العراق، وزارة الخارجية. «تقارير مختلفة، ١٩٥٩.» الملف رقم ١٧١٩/١٧١٩/١٤.

ـــــــ. «سفارة العراق في القاهرة، نيسان/ابريل ١٩٥٩.» الملف رقم ٨/٤/٥٠٥.

ـــــــ. «السفارة العراقية، القاهرة، ١٩٥٩.» الملف رقم ع ٢٣٦٢/٢٣٦٢/١٤.

ـــــــ. «المكتب الخاص، سفارة الجمهورية العراقية في القاهرة، آذار/مارس وأيلول/سبتمبر ١٩٥٩.» الملف رقم ٣٥.

٢ ـ الأجنبية

Books

Campbell, John C. *Defence of the Middle East: Problems of American Policy.* 2nd ed. New York: Published for the Council on Foreign Relations by Harper, 1960.

Cooke, Hedley V. *Challenge and Response in the Middle East: The Quest for Prosperity, 1919-1951.* New York: Harper, 1952.

Crowley, D. W. *The Background to Current Affairs.* London: Macmillan, [n. d.].

DeNovo, John A. *American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939.* Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1964.

Dekmejian, Richard Hrair. *Egypt under Nasir: A Study in Political Dynamics.* Albany, NY: State University of New York Press, 1971.

Hurewitz, J. C. *Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Record.* New York: Octagon Books, 1972.

Issawi, Charles Philip. *Egypt in Revolution: An Economic Analysis.* London; New York: Oxford University Press, 1963.

Lacouture, Jean. *The Demigods: Charismatic Leadership in the Third World.* London: Martin Co., 1971.

Librairie larousse. Paris: [s. n.], 1980.

Mansfield, Peter. *Nasser's Egypt.* Baltimore, MD: Penguin Books, 1965.

Narayan, B. K. *Anwar El Sadat: Man with a Mission.* New Delhi: Vikas Pub. House, 1977.

The New Encyclopaedia Britannica. 15th ed. Chicago, IL: Encyclopaedia Britannica, 1988.

Polk, William Roe. *The United States and the Arab World.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1965. (American Foreign Policy Library)

St. John, Robert. *The Boss: The Story of Gamal Abdel Nasser.* New York: McGraw, 1960.

Speiser, Ephraim Avigdor. *The United States and the Near East*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1950.

United States, Department of Commerce. *Statistical Abstract of the United States, 1951*. Washington, DC: U. S. Government Printing Office, 1951.

United States, Department of State. *Foreign Relations of the United States, 1952-1954: Near and Middle East*. Washington, DC: U. S. Government Printing Office, 1986. vol. 9.

———, Historical Office. *American Foreign Policy, 1950-1955; Basic Documents*. Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1957.

U.S. Treaties and Other International Agreements. Washington, DC: Department of State, 1954.

Vatikiotis, P. J. *Nasser and His Generation*. London: Croom Helm, 1978.

Wanamaker, Temple. *American Foreign Policy Today*. With a preface by Dean Rusk. New York: Bantam Books, [1964].

Wilson, Arnold Talbot. *Loyalties; Mesopotamia, 1914-1917: A Personal and Historical Record*. New York: Oxford University Press, 1931.

———. *Mesopotamia, 1917-1920: A Clash of Loyalties*. New York: Oxford University Press, 1931.

Periodicals

Bustani, Emile. «Arab-American Relations.» *Middle East Forum:* vol. 37, no. 3, March 1961.

Davids, Jules. «The United States and the Middle East, 1955-1960.» *Middle Eastern Affairs:* vol. 12, May 1961.

Gray, J. W. D. «Arab Nationalism: Abdin Against the Wafd.» *Middle East Forum:* vol. 37, no. 2, February 1961.

Leiden, Carl. «Egypt: The Drift to the Left.» *Middle Eastern Affairs:* vol. 13, no. 10, December 1962.

Mikhailov, Vladimir. «The Soviet Union and the Arab World.» *Middle East Forum:* vol. 36, no. 3, March 1960.

Remba, Oded. «The Middle East in 1959: An Economic Survey.» *Middle Eastern Affairs:* vol. 11, no. 3, March 1960.

Saab, Gabriel S. «Egyptian Agrarian Reform.» *Middle East Forum:* vol. 37, no. 7, July-September 1960.

Salem, Sam E. «Return to Arab-American Friendship.» *Middle East Forum:* vol. 38, no. 6, June 1962.

Vassiliev, Alexei. «Russian Policy in the Middle East: From Messianism to Pragmatism.»

المستقبل العربي: السنة ١٧، العدد ١٩٢، شباط/فبراير ١٩٩٥. (مراجعة بقلم أحمد البرصان)

فهرس

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

هذا الكتاب

كان جمال عبد الناصر يعيش فلسفة الثورة إحساساً ومعاناة، ويطبقها ممارسة ونضالاً.

لقد تحدّد الفكر الناصري، منذ نشأته ووصولاً إلى الأهداف القومية الكبرى من خلال نضج وعي الجماهير الوطني والقومي والالتزام بحركة نضالها، في الحرية والاشتراكية والوحدة. فالناصرية بهذا المفهوم هي «الأفكار النظرية العامة» التي توجه الاستراتيجيا والمضامين التي انطوت عليها تلك الأهداف القومية، أو بكلمة أخرى، إنها الايديولوجيا الثورية المعبّرة عن روح الأمة.

.. يهدف هذا الكتاب إلى رصد معالم الفكر الناصري وآثاره بدءاً بحياة عبد الناصر من حيث النشأة والأسرة والتعليم وبدايات التطور الفكري. ويستعرض المراحل الأساسية لتطور هذا الفكر بالممارسة والتجريبية من نكبة فلسطين (١٩٤٨) إلى ثورة يوليو (١٩٥٢) وحتى النكسة في عام ١٩٦٧. ويلقي الضوء على دور الناصرية في حفز حركات التحرر على صعيد الوطن العربي والعالم الثالث، حيث أصبح التمثّل بهذا الفكر في مقارعة الظلم والامبريالية والنضال من أجل التحرر قبلة العديد من حركات التحرر الوطني. ويبحث أيضاً في دور هذا الفكر كإحدى دعائم السلم العالمي في أشد أيام الحرب الباردة حرجاً، فقد كان العمل من أجل إبعاد شبح الحرب يأتي في طليعة أولويات حركة عدم الانحياز، والتي كان جمال عبد الناصر أحد أبرز أقطابها..

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون : ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ١٢ ...

أو ما ...